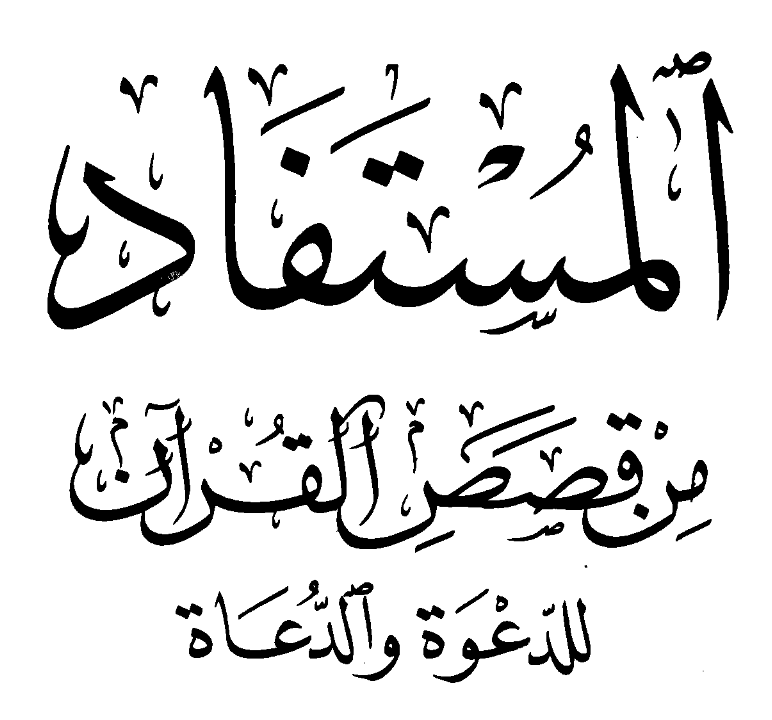


تأليف
الدكتور عبد الكريم زيدان

الجزء الأول

مؤسسة الرسالة
ناشرون

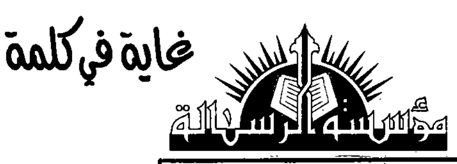


المُستَفاد

مِن قَصَصِ القُرآن

للدَّعوة والدُّعاة





للطباعة والنشر والتوزيع

وطى المصيطبة
شارع حبيب أبي شهلا
بنـاء المسـكن
تلفاكس: (٩٦١١)
٨١٥١١٢ ـ ٣١٩٠٣٩ ـ ٦٠٣٢٤٣
ص.ب. :١١٧٤٦٠
برقياً: بيوشران
بيروت ـ لبنان

Al-Resalah
PUBLISHERS
BEIRUT
LEBANON
Telefax: (9611)
815112 - 319039 - 603243
P.O. Box: 117460
E-mail:
Resalah@cyberia.net.lb
Web Location:
Http://www.resalah.com

الطبعة الأولى
١٤١٩هـ / ١٩٩٨م

المقدمة

١- الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسولنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

فإنَّ في القرآن العزيز قصصاً شتى عن الماضين من الأنبياء والمؤمنين كما أن فيه قصصاً عن الكفار والمفسدين مما سنعرض له في فصول هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

٢- قصص القرآن أحسن القصص:

وما قصّه الله علينا هو أحسن القصص، قال تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ﴾ وهذا يتناول كل ما قصه الله تعالى في كتابه، فهو أحسن القصص[1] «وأحسن القصص» قيل: إنه مصدر، وقيل: إنه مفعول به، وعلى القول الأول يكون المعنى: نحن نقص عليك أحسن الاقتصاص، كما يقال: نكلمك أحسن التكليم، ونبين لك أحسن البيان، وعلى القول الثاني يكون المعنى: نحن نقص عليك أحسن ما يُقصّ، أي أحسن الأخبار المقصوصات، ويدل على هذا المعنى وأنه هو المراد قوله تعالى في قصة موسى عليه السلام: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ﴾ وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

وقال شيخ الإسلام بعد أن ذكر القولين: والصحيح أن «القصص» في قوله تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ مفعول به، وإن كان أصله مصدراً ولكن

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ج١٧ ص٢٢، والآية رقمها ٣ من سورة يوسف.

غلب استعماله في المفعول به[٢]

٣- تكرار القصة في القرآن:

وقد تتكرر القصة الواحدة في القرآن، ولكن في تكرارها فوائد، في كل منها فائدة لا توجد في الأخرى من غير تعارض في المجموع، لأنها لما كانت مُنَزَّلة لأجل العبرة والموعظة والتأثير في العقول والقلوب اختلفت أساليبها بين إيجاز وإطناب، وذُكِرَ في بعضها من المعاني والفوائد ما ليس في البعض الآخر حتى لا تُملَّ للفظها ولا لمعانيها. ثم إن الأقوال المحكية فيها إنما هي معبرة عن المعاني وشارحة للحقائق وليست نقلاً لألفاظ المحكي عنهم بأعيانها، فإن بعض أولئك المحكي عنهم أعاجم، ولم تكن لغة العربي منهم كلغة القرآن في فصاحتها وبلاغتها. هذا وإنّ اختلاف الأساليب وطرق التعبير في قصص القرآن وفي القرآن عموماً عن المعنى الواحد لا تختلف إلا لنكت تفيد من فهمها فائدة لفظية أو معنوية[٣].

ويقول الشهيد سيد قطب في تكرار القصة في القرآن الكريم: «ويحسب أناس أن هناك تكراراً في القصص القرآني، لأن القصة الواحدة قد يتكرر عرضها في سورشتى، ولكن النظرة الفاحصة تؤكد أنه ما من قصة أو حلقة من قصة قد تكررت في صورة واحد من ناحية القدر الذي يساق، وطريقة الأداء في السياق، وأنه حيثما تكررت حلقة كان هنالك جديد تؤديه ينفي حقيقة التكرار»[٤].

٤- الحكمة في قصص القرآن:

والحكمة فيما قصه الله علينا في كتابه العزيز تظهر من وجوه عديدة نذكر منها ما يلي:

أولاً - أن نَفْـقَه ما جاء في هذه القصص من أخبار وحقائق ومعانٍ وأنماطٍ من المدافعات بين أهل الحق والباطل وأن نعتبر به، فمن ذلك أنّ الله تعالى قصَّ علينا

---

(٢) المرجع السابق ص٣٢.

(٣) تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا ج٨ ص٣٤٣، ٣٤٦.

(٤) في ظلال القرآن للشهيد سيد قطب ج١ ص٥٥.

أخبار الأنبياء وما أصابهم وأصاب أتباعهم المؤمنين في الأذى في سبيل الله، ثم إن الله تعالى نصرهم وجعل العاقبة الحسنة لهم، وفي ذلك عبرة للمؤمنين، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الْأَلْبَابِ﴾(٥).

ثانياً - في قصص القرآن بيان لسنن الله في خلقه من الأمم والجماعات والأفراد، وهي سنن جرت على الماضين وتجري على اللاحقين ليعتبرها المؤمنون، وقد فصلنا القول في طي كتابنا «السنن الإلٰهية في الأمم والجماعات والأفراد» فلله الحمد والمنّة. ولهذا فإن قصص القرآن الكريم لا يراد بها سرد تاريخ الأمم والأشْخاص وإنما يُذكَر منها مواضع العبرة والألفاظ والتذكر كما قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ولذلك لا تذكر الوقائع والحوادث بالترتيب ولا تُسْتَقْصَى(٦).

ثالثاً - وفي قصص القرآن بيان لمناهج الأنبياء في الدعوة إلى الله تعالى والتزامهم بها وصبرهم عليها، والتأسي بهم فيها، قال تعالى مخاطباً نبيه محمداً ﷺ - وأمته تبعاً له -: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾، والاقتداء بهداهم والتأسي بهم إنما يكون في أساليبهم وطرائقهم في الدعوة. قال صاحب تفسير المنار الشيخ رشيد رضا رحمه الله في تفسير هذه الآية: «وموافقة رسول لمن قبله في أصول الدين وبعض فروعه لا يسمى اقتداءً ولا تأسياً وإنما يكون التأسي به في طريقته التي سلكها في الدعوة إلى الدين وإقامته. ومن الشواهد على هذا قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ . . ﴾ الآية، فإنه تعالى أرشد عباده المؤمنين إلى التأسي بإبراهيم ومن آمن معه وجعلهم قدوة لهم في سيرتهم العملية التي كانت من هدى الله تعالى لهم وهي البراء من معبودات قومهم ومنهم ما داموا عابدين لها»(٧).

---

(٥) سورة يوسف، الآية ١١١.

(٦) تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل ج١ ص١١٤. وآية «وكلاً نقص عليك.. الخ» في سورة هود ورقمها ١٢٠.

(٧) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا ج٧ ص٥٩٦، وآية ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ في سورة الأنعام ورقمها ٩١.

رابعاً - وفي قصص القرآن نماذج للمؤمنين الصابرين الثابتين على الحق وبيان سلوكهم مع الكفرة المجرمين الذين ناصبوهم العداء لإيمانهم بالله وكفرهم بالطاغوت قال تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾.

خامساً - وفي قصص القرآن العزيز بيان لغرائز الإنسان وما جبل الله عليه من صفات ومن أنواع هذه الغرائز، وأثر ذلك في سلوكه وأفعاله وفي علاقاته مع الآخرين.

سادساً - ومن قصص القرآن بيان لأحوال الإنسان وطغيانه بسبب المال والسلطان. إلى غير ذلك من مضامين هذه القصص التي أخذت قسماً كبيراً من كتاب الله العزيز.

سابعاً - وفي قصص القرآن حقائق علمية تتعلق بهذا الكون بما فيه من إنسان وحيوان ونبات وأرض ونجوم وسماء لم تعرف إلا في عصرنا الحديث، وفي معرفتها زيادة في العلم وتقوية لمعاني الإيمان التي جاء بها الإسلام.

٥-في قصص القرآن فوائد للدعوة والدعاة:

وكل ما ذكرناه من وجوه الحكمة في قصص القرآن يفيد الدعوة والدعاة، فمن هذه الفوائد التي لا يجوز للدعاة نسيانها تعريفهم بمناهج الدعاة من الأنبياء وأتباعهم في الدعوة إلى الله، وبيان ما أصابهم من أذى في سبيل الله وما قابلهم به الكفار، ليُعلَم أنَّ ما أصاب المؤمنين السابقين الدعاة إلى الله يصيب أيضاً الدعاة المؤمنين اللاحقين، وبهذا جرت سنة الله في الأولين كما تجري في اللاحقين، ولكن العاقبة كانت وتكون دائماً للمتقين قال تعالى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾(٨) وفي قصص القرآن ما أشرنا إليه من بيان لما جبلت عليه النفس البشرية من غرائز وميول ورغبات. وهذه أمور مهمة جداً يستفيد منها الدعاة في أساليب دعوتهم، وكيفية معالجتهم لأحوال الناس الذين يدعونهم ولأحوال أتباعهم من المؤيدين والأنصار، ولا يجوز للدعاة إغفال هذه الأمور المتعلقة بالنفس البشرية، لأنهم في دعوتهم يتعاملون مع بشر،

---

(٨) سورة الأعراف، من الآية ١٢٨.

ودعوة البشر، ووضعهم على الصراط السوي بعد تخليصهم من العوائقِ، وإقناعهم بمعاني الدعوة، كل ذلك يحتاج إلى فقه واسع وعميق وصحيح في النفس البشرية وطبعيتها وما جلبت عليه، وهذا يمكن معرفته وتعريف الدعوة به من خلال النظر فيما قصّه الله علينا من قصص الماضين المؤمنين والفجار والصعاليك وذوي السلطان. ومما يزيد من أهمية هذه الفائدة أن النفس البشرية وما جبلت عليه وطبيعتها وأصول غرائزها وصفاتها لا تتغير فهي هي الآن كما كانت من زمن آدم عليه السلام وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. ويكفي أن أشير هنا إلى قصة ابني آدم وكيف أن الحسد حمل أحد الأخوين على قتل أخيه، ولا تزال هذه الصفة - صفة الحسد - مغروسة في نفوس بني آدم حتىٰ الآن.

٦- الغرض من تأليف هذا الكتاب:

وإذا كان في قصص القرآن ما ذكرته من فوائد فقد ألفت هذا الكتاب لأكشف بعون الله وتوفيقه بعض ما يستفاد من هذه القصص للدعوة والدعاة ؛ لأن الله تعالى ما قصَّ علينا ما قصّه من قصص في كتابه العزيز إلا للموعظة والاعتبار والاستفادة، ومَنْ أولى وأحق بهذه الموعظة والاستفادة والاعتبار من إخواني الدعاة إلى الله؟

٧- منهج البحث وتقسيم موضوعاته:

لقد اتبعت في بحث قصص القرآن جمع ما ورد من آيات في سور متعددة بشأن القصة الواحدة كلما كان ذلك الجمع ضرورياً، ثم قدمت خلاصة عن هذه القصة من خلال تفسير هذه الآيات، ثم بينت ما يستفاد من القصة للدعوة والدعاة في ضوء ما ذكره المفسرون في تفسير هذه الآيات وفي ضوء ما ينكشف لي من معاني القصة ومراميها بعد طول تأمل فيها. وجعلت الكتاب في (بابين) الأول في قصص القرآن عن الماضين من رسل الله وغيرهم قبل بعثه نبينا محمد ﷺ. و(الباب الثاني) جعلته فيما يتعلق من قصص القرآن بسيدنا محمد ﷺ وبأصحابه الكرام وبالمنافقين الذين كانوا في المجتمع الإسلامي في عصر النبي ﷺ هذا وقسمت كل بابٍ من هذين البابين إلى فصول، وقسمت الفصل إلى مباحث، والمبحث إلى مطالب، والمطلب إلى فروع بقدر ما يحتاجه الفصل من هذه التقسيمات، وجعلت لكل فصلة قصة،

وبدأت بقصص الأنبياء، لأن قصص الأنبياء كما يقول الشهيد سيد قطب: يمثل موكب الإيمان في طريقه الممتد الواصل الطويل، ويعرض قصة الدعوة إلى الله واستجابة البشرية لها جيلاً بعد جيل، كما يعرض طبيعة الإيمان في نفوس هذه النخبة الممتازة من البشر وطبيعة تصورهم للعلاقة بينهم وبين ربهم الذي خصهم بهذا الفضل العظيم[٩]، ثم عرضت بعد قصص الأنبياء قصص أتباعهم من المؤمنين، ثم قصص غيرهم من الأفراد الذين قصَّ الله علينا أخبارهم لما في قصصهم من عبرة، وهذا كله هو مضمون الباب الأول من الكتاب. ثم أتبعت ذلك بذكر ما قصه الله علينا فيما يتعلق بسيدنا محمد ﷺ وجهاده الطويل المبرور، وفي ضمن ذلك ما قصه الله علينا من أخبار أصحابه الكرام وهم يسيرون خلفه في جهاده الطويل المبرور، وبأخبار المنافقين الذين كانوا يعيشون في ذلك المجتمع الإسلامي الطاهر، وهذا كله هو مضمون الباب الثاني من هذا الكتاب. وإنما أخرت ذكر ما يتعلق بنبينا محمد ﷺ من قصص القرآن وجعلته موضوع الباب الثاني؛ لأنه ﷺ خاتم النبيين والمرسلين وشريعته هي الباقية النافذة إلى يوم الدين.

٨- أمل ورجاء:

هذا وإني لأرجو أن أكون قد وُفِقت - بعون الله إلى الصواب فيما بحثتُه وبينتُه واستخلصتُه من فوائد من قصص القرآن للدعوة والدعاة، وهذا محض فضل الله فله الحمد والمنة، وما لم أُوفَّق فيه إلى الصواب فإني أستغفر الله من ذلك واللهَ أسأل أن ينفع بهذا الكتاب إخواني الدعاة إلى الله وعامة من يقرأ من المسلمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسَلَّم والحمد لله رب العالمين.

المؤلف

صنعاء في ٢٣ رمضان ١٤١٦هـ
١٢/ شباط/ ١٩٩٦

---

(٩) تفسير سيد قطب - في ظلال القرآن - ج١ ص٥٥.

الباب الأول

الفصل الأول

قصة آدم عليه السلام وإبليس

٩- تمهيد وتقسيم:

أقدم في هذا الفصل موجزاً لهذه القصة من خلال تفسير آياتها ثم أبين ما يستفاد منها للدعوة والدعاة. وعلى هذا أقسم هذا الفصل إلى مبحثين:

المبحث الأول - موجز القصة من خلال تفسير آياتها

المبحث الثاني - ما يستفاد منها للدعوة والدعاة

المبحث الأول

موجز قصة آدم عليه السلام وإبليس

من خلال تفسير آياتها

١٠- خَلْقُ آدم وسجود الملائكة له إلا إبليس:

خلق الله تعالى آدم من طين، ثم أمر الملائكة بالسجود له على وجه التحية له والتكريم واعترافاً بفضله، ولم يكن ذلك السجود على وجه العبادة له، قال ابن عباس رضي الله عنهما: كانت السجدة لآدم، والطاعة لله تعالى[١٠] فسجد الملائكة لآدم إلا إبليس أبى واستكبر، أي امتنع من السجود تكبراً وعناداً، وكان في سابق علم الله أنه من الكافرين، أو بامتناعه من السجود صار من الكافرين، قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[١١] وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[١٢].

١١- إبليس كان من الجن:

وإبليس كان من الجن وإنما تناوله الأمر للملائكة بالسجود لآدم، لأنه كان في صحبتهم[١٣] قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ

---

(١٠) تفسير الرازي ج١ ص٢١٢-٢١٣، تفسير المنار ج٨ ص٣٢٩-٣٣٠.

(١١) سورة ص الآيات ٧١-٧٤.

(١٢) سورة البقرة الآية ٣٤. وإبليس اسم للشيطان وقيل: إنه مشتق من الإبلاس وهو الإياس. صفوة التفاسير للصابوني ج١ ص٥٠.

(١٣) تفسير القاسمي ج٢ ص١٠٣.

﴿ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾[١٤] وقال ابن القيم: كان إبليس مع الملائكة بصورته، وليس منهم بمادته وأصله، كان أصله من نار وأصل الملائكة من نور[١٥].

١٢- سبب امتناع إبليس عن السجود:

وكان سبب امتناع إبليس عن السجود لآدم زعمه أنه خير من آدم، قال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾[١٦]، كأنه امتنع من السجود؛ لأنه بزعمه لا يؤمر الفاضل بالسجود للمفضول، يعني لعنه الله: وأنا خير منه فكيف تأمرني بالسجود له؟ ثم بين وجه هذه الخيرية بأنه خلق من نار، والنار أشرف من الطين الذي خلق منه آدم. فنظر اللعين إلى أصل العنصر الذي خلق منه ولم ينظر إلى التشريف العظيم الذي ناله آدم وهو أن الله تعالى خلق آدم بيده ونفخ فيه من روحه، وقاس قياساً فاسداً في مقابلة نصّ قوله تعالى للملائكة: ﴿فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ كما إنه لم ينظر لعنه الله لأمر من أمره بالسجود وهو الله جلّ جلاله. ثم إن إبليس حتى في دعواه أنّ النار أشرف من الطين ادعاء غير صحيح، فإن الطين من شأنه الرزانة والحلم والأناة والتثبت، وهو محل النبات والنمو والزيادة، والنار من شأنها الإحراق والطيش والسرعة[١٧].

١٣- طرد إبليس من الجنة:

وكان من نتيجة استكبار إبليس عن طاعة ربه بالسجود لآدم أن طرده الله تعالى من الجنة ومن المنزلة التي كان فيها في الملكوت الأعلى، قال تعالى: ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾[١٨]، أي اهبط من الجنة فما يصح ولا يستقيم ولا ينبغي أن تستكبر عن أمري وتسكن دار قدسي. ﴿فَٱخْرُجْ﴾ تأكيد للأمر

---

(١٤) سورة الكهف الآية ٥٠.

(١٥) تفسير القاسمي ج٢ ص١٠٤.

(١٦) سورة الأعراف الآية ١٢.

(١٧) تفسير ابن كثير ج٢ ص٢٠٣.

(١٨) سورة الأعراف الآية ١٣.

بالهبوط من الجنة ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ أي من الذليلين الحقيرين، وذلك أنه لمّا أظهر الاستكبار ألبسه الله تعالى الذلَّ والصغار، فمن تواضع لله رفعه ومن تكبر على الله وضعه[19].

١٤- طلب إبليس إمهاله إلى يوم البعث:

ولما صدر أمر الله لإبليس بالطرد والإخراج من الجنة ومما كان عليه من المنزلة العالية، طلب اللعين من ربه أن يمهله ويبقيه حياً إلى يوم البعث، فأجابه الله تعالى إلى ما سألَهُ؛ لما له سبحانه من الحكمة والمشيئة التي لا تُخالَفُ ولا معقب لحكمه، قال تعالى عن طلب إبليس وإجابته: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾[20] أي أمهلني ولا تمتني إلى يوم يبعثون، أي بعث آدم وذريّتِهِ من قبورهم وهو يوم القيامة والحساب. ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ أي من المؤجلين إلى ذلك اليوم[21]

١٥- كشف إبليس ما عزم على فعله:

ولما علم إبليس بإمهال الله له إلى يوم القيامة؛ كشف اللعين عن حقده وعداوته لآدم وذريته وما هو عازم عليه، لإيذائهم وإضرارهم وإضلالهم وصرفهم عن الصراط المستقيم، قال تعالى حكاية عمّا قاله إبليس:

أ- ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾[22].

الإغواء: الإيقاع في الغواية وهي ضدُّ الرشاد. وصراط الله المستقيم هو الطريق الذي يصل بسالكه إلى السعادة التي أعدّها الله تعالى لمن زكّى نفسه بهدايةِ دينه الحق. والمعنى: فبسبب إغوائك إياي من أجل آدم وذريته أقسمُ لأقعدَنّ لهم على

---

(١٩) تفسير المنار ج٨ ص٣٣٤، تفسير القاسمي ج٧ ص٢٦- ٢٧، صفوة التفاسير ج١ ص٤٣٨.

(٢٠) سورة الأعراف الآيتان ١٤،١٥.

(٢١) تفسير القاسمي ج٧ ص٢٧.

(٢٢) سورة الأعراف، الآية ١٦.

صراطك المستقيم أو فيه، أو لألزمنّه ترصداً بهم كما يقعد قطاع الطريق للمارة، فأصدهم عنه وأقطعُهُ عليهم بأن أزيّن لهم سلوك طرق أخرى أشرّعها لهم ليضلوا عن الطريق الحق[٢٣].

ب- ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴾[٢٤] جاء عن عبد الله بن عباس في تفسير هذه الآية ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ ﴾ أي أشككهم في آخرتهم. ﴿ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ ﴾ أي أُرغبّهم في دنياهم. ﴿ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ ﴾ أي أشبه عليهم أمر دينهم. ﴿ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ ﴾ أي أُشّهي لهم المعاصي. واختار ابن جرير «أنَّ المراد جميع طرق الخير والشر، فالخير يصدهم عنه والشر يُحسنّه لهم»[٢٥]. ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴾ أي موحدين مستعملين قواهم وجوارحهم وما أنعم الله به عليهم في طاعة الله تعالى والتقرب إليه[٢٦].

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾[٢٧] وقوله: ﴿ لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ أي لذرية آدم عليه السلام، أحبب إليهم المعاصي وأرغبّهم فيها وأدفعهم إليها[٢٨].

د- ﴿ قَالَ أَرَءَيۡتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾[٢٩] أي قال إبليس جرأةً وكفراً والرب سبحانه يحلم وينظر: ﴿ قَالَ أَرَءَيۡتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ ﴾، أي أخبرني عن هذا الذي كرمته عليَّ بأن أمرتني بالسجود له، لم كرمته عليَّ؟ ولِمَ فضلته عليَّ وأنا خير منه؟ ﴿ لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ أي لئنِ أمهلتني إلى يوم القيامة؛ لأستولينَّ على ذريته أو لأضلنَّهم أو لأهلكنَّهم بالإغواء أو لأقودنَّهم إلى المعاصي كما تقادُ الدابة بحبلها إلا قليلاً من

---

(٢٣) تفسير المنار ج٨ ص٣٣٧، تفسير القاسمي ج٧ ص٣١.

(٢٤) سورة الأعراف الآية ١٧.

(٢٥) تفسير ابن كثير ج٢ ص٢٠٤.

(٢٦) تفسير ابن كثير ج٢ ص٢٠٤، تفسير القاسمي ج٧ ص٣٢.

(٢٧) سورة الحجر الآيتان ٣٨-٣٩.

(٢٨) تفسير ابن كثير ج٢ ص٥٥١.

(٢٩) سورة الإسراء الآية ٦٢.

ذريته وهم المخلصون[٣٠].

هـ- وبعد أن قال إبليس ما أخبرنا الله عنه بقوله تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ . . . ﴾ الآية، قال تعالى له: ﴿ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾[٣١]. هذه الآيات تبين جزاء من يتبع إبليس فما يدعو إليه، كما تبين بعض أفعاله في إضلال ذرية آدم. وخلاصة ما تدل عليه هاتان الآيتان ما يأتي: لما سأل إبليس الإمهال، قال الله تعالى له: ﴿ ٱذْهَبْ ﴾ أي أمهلتك، وامضِ لشأنك الذي اخترته أنت ﴿ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ ﴾ أي إن جهنم هي جزاؤكم على أعمالكم، ﴿ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴾ أي وافراً أو موفوراً عليكم لا ينقصُ لكم منه. وقوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ ﴾ أي استخف وأزعج ﴿ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم ﴾ أي من استطعت أن تستفزه فتخدعه ﴿ بِصَوْتِكَ ﴾ أي بدعائك إلى الفساد. وصيغة الأمر هنا وهي ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ ﴾ وردت للتهديد كما في قول القائل اجهد جهدك فسترى ما ينزل بك. ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ أي صح عليهم من الجلبة وهي الصياح - ﴿ بِخَيْلِكَ ﴾ أي الخيالة أي ركبان الخيل ﴿ وَرَجِلِكَ ﴾ اسم جمع للراجل وهو الماشي. والمراد الأعوان والأتباع مطلقاً. ومعنى ذلك: تسلط عليهم بكل ما تقدر عليه واجمع عليهم كُلَّ ما تقدر عليه من مكايدك، وهنا أمر قدري لإبليس وليس أمراً تكليفاً له كقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾. وقال ابن عباس في الآية: ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ أنه كل راكب أو راجل في معصية الله تعالى فهو من خيل إبليس وجنوده. وعلى هذا التقدير يدخل في معنى ﴿ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ كل من يشاركه في الدعاء إلى المعصية. وقوله تعالى: ﴿ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ﴾، أما المشاركة في الأموال فهي عبارة عن كل تصرف قبيح في المال سواء كان ذلك القبح بسبب أخذه من غير حقه وحلّه، أو وضعه في غير حقه، ويدخل فيه الربا والغصب والسرقة والمعاملات الفاسدة. وأما المشاركة في الأولاد، فيدخل في معنى هذه المشاركة مشاركتهم في طريق تحصيل الولد،

---

(٣٠) تفسير الرازي ج٥ ص٣-٤، تفسير ابن كثير ج٣ ص٤٩، تفسير القاسمي ج٩ ص٢٤٧.
(٣١) سورة الاسراء، الآيتان ٦٣و٦٤.

وذلك بالدعاء إلى الزنا، وأن يسموّا أولادهم بعبداللات وعبد العزى، وأن يرغبّوا أولادهم في الأديان الباطلة كاليهوديّةِ والنصرانية وغيرهما، وأن يقدموا على قتل أولادهم. والضابط في هذه المشاركة أن يقال: إن كل تصرف من المرء في ولده على وجه يؤدي إلى ارتكاب منكرٍ أو قبيح فهو داخل في مفهوم المشاركة في الأولاد. وقوله تعالى: ﴿وَعِدْهُمْۚ﴾ أي عدهم الوعود الباطلة مثل القول بأنه لا جنة ولا نار ولا حساب ولا بعث بعد الموت، أو بتسويف التوبة، أو بالأماني الكاذبة، أو بإيثار العاجل على الآجل ونحو ذلك. واعلمْ أنَّه لما قال تعالى: ﴿وَعِدْهُمْۚ﴾ أردفه بما يكون زاجراً عن قبول وعده، فقال تعالى: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ وهو تزيين الباطل بزينة الحق[٣٢].

١٦- آدم وزوجه في الجنة:

وبعد أن طرد الله تعالى إبليس من الجنة؛ لاستكباره ورفضه السجود لآدم، أسكن الله تعالى آدم وزوجه في الجنة، وأباح لهما الأكل منها من حيث شاءا إلا من شجرة واحدة عيّنها لهما ونهاهما عن الأكل منها، قال تعالى: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٣٣] والنهي عن قرب الشيء أبلغ من النهي عنه، فهو يقتضي البعد عن موارد الشبهات التي تغري بالمنهي عنه وتفضي إليه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه، كما ورد في حديث رسول الله ﷺ[٣٤]

١٧ - وسوسة الشيطان لآدم وزوجه:

ولما رأى إبليس ما أنعم الله به على آدم من أمر الملائكة بالسجود له، ومن إسكان الله له وزوجه في الجنة؛ حسدهما على ذلك، وسعى في المكر والوسوسة

---

(٣٢) تفسير ابن كثير ج٣ ص٤٩-٥٠، تفسير الرازي ج٢١ ص٦-٨، القاسمي ج٩ ص٢٤٧ - ٢٤٨.

(٣٣) سورة الأعراف، الآية ١٥.

(٣٤) تفسير المنار ج٨ ص٣٤٦.

والخديعة؛ ليسلبهما ما هما فيه من النعمة واللباس الحسن[٣٥]، قال تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾[٣٦]، وقوله تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ أي ألقى لهما بصوت خفي؛ لإغرائهما بالأكل من الشجرة؛ ﴿ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا ﴾ أي ليظهر لهما ما كان مستوراً من العورات التي يُقْبُحُ كشفها. ﴿ وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴾. وهذا توضيح لوسوسة إبليس، أي قال لهما: ما نهاكما ربكما عن الأكل من هذه الشجرة إلا كراهية أن تكونا ملكين من الملائكة أو تكونا خالدين ها هنا في الجنة. ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ أي حلف لهما بالله على ذلك إنه ناصح لهما فيما يقول في خدعهما، وقد يُخدَعُ المؤمن بالحلف بالله[٣٧].

١٨- الأكل من الشجرة الممنوعة:

وكان من نتيجة وسوسة إبليس وما قاله لآدم وزوجه حواء، وحلفه بالله على ما قاله، وأنه ناصح لهما فيما يقول، كان من نتيجة ذلك كله انخداع آدم وحواء بقول إبليس، فأكلا من الشجرة الممنوعة ووقعا في الخطيئة، قال تعالى: ﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾[٣٨] والمعنى: أن إبليس ما زال يخدعهما بالترغيب في الأكل من الشجرة والقسم على أنه ناصح بذلك لهما حتى انخدعا بقوله وأكلا من الشجرة.

١٩- تعليل أكل آدم وزوجه من الشجرة الممنوعة:

قال ابن عباس: غرهما باليمين، وكان آدم يظن أنه لا يحلف أحدٌ بالله كاذباً

---

(٣٥) تفسير ابن كثير ج٢ ص٢٠٥.

(٣٦) سورة الأعراف الآيتان ١٩، ٢٠.

(٣٧) صفوة التفاسير ج١ ص٢٣٩.

(٣٨) سورة الأعراف الآية ٢٢.

فغرَّهما بوسوستة وقسمه لهما[٣٩].

وقال ابن حزم الفقيه المشهور: إن آدم أكل من الشجرة التي نهاه الله عنها ناسياً بنص القرآن، ومتأولاً وقاصداً إلى الخير؛ لأنه قدرَّ أنه يزداد حظوة عند الله فيكون ملكاً مقرباً أو خالداً فيما هو فيه أبداً، فأدّاه ذلك إلى خلاف ما أمره الله به. وكان الواجب أن يحمل أمر ربه على ظاهره، لكن تأول وأراد الخير فلم يصبه[٤٠].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية وجماعة من المتأخرين: الصواب أن آدم عليه السلام لما قاسمه إبليس إنه ناصح، وأكدّ كلامه بأنواع من التأكيدات، أحدها القسم بالله، ولم يظن آدم أن أحداً يحلف بالله كاذباً فظن صدقه، وأنه إن أكل من الشجرة المنهي عنها لم يخرج من الجنة، ورأى أن الأكل منها وإن كان فيه مفسدة فمصلحة الخلود أرجح، ولعله يتأتى له استدراك مفسدة الأكل في أثناء ذلك باعتذار أو توبة، كما تجد هذا التأويل في نفس كل مؤمن أقدم على معصية[٤١].

٢٠- التعليل الراجح للأكل من الشجرة الممنوعة:

والراجح في تعليل أكل آدم وزوجه من الشجرة الممنوعة اجتماع عدة أمور في نفس آدم، وفيما قاله إبليس، وبيان ذلك ما يأتي:

أولاً - نسيان آدم:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾[٤٢]. والمعنى ولقد عهدنا إلى آدم أن لا يقرب من الشجرة، فنسي هذا العهد، أي هذا الأمر بأن لا يقرب من الشجرة، ولم نجد له عزماً أي تصميماً في حفظه، أي في حفظ العهد الذي هو أمره بعدم الاقتراب من الشجرة أي بنهيه عن الأكل منها. ولو كان له التصميم على حفظ العهد لما أزله الشيطان ولما استطاع أن يغره[٤٣]. وقال الإمام الرازي في قوله

---

(٣٩) تفسير المنار ج٨ ص٣٤٩، صفوة التفاسير ج١ ص٢٣٩.

(٤٠) تفسير القاسمي ج٢ ص١٠٨.

(٤١) تفسير القاسمي ج٢ ص١٠٨-١٠٩.

(٤٢) سورة طه الآية ١١٥.

(٤٣) تفسير القاسمي ج١١ ص١٩٧.

تعالى: ﴿فَنَسِيَ﴾ وفي نسيان آدم قولان:

(أحدهما) ما هو نقيض الذكر، وإنما عوتب على ترك التحفظ والمبالغة في الضبط حتى تولد منه النسيان.

(والثاني): إن المراد بالنسيان: الترك، وأنه ترك ما عهد إليه من الاحتراز من الشجرة والأكل من ثمرتها. ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ أي لم نجد له عزماً على التحفظ والاحتراز عن الغفلة[٤٤].

ثانياً - ولكن هذا النسيان الذي حصل لآدم بالمعنى الذي ذكره الرازي والقاسمي، حتىٰ انخدع بقول إبليس، إنما حصل له لعدة أمور.

أ- بما ذكره ابن حزم من التأويل لنهي الله تعالى له عن الأكل من الشجرة.

ب- بما ذكره ابن تيمية من ظن آدم بصدق إبليس في حلفه؛ لأن آدم ما كان يظن أن أحداً يحلف بالله كاذباً، وأنه إن أكل من الشجرة لم يخرج من الجنة وأنه يتدارك ما صدر منه من الأكل بتوبة ونحوها.

جـ- إن إبليس أثار في نفس آدم بعض ما جبلت عليه من حب بلوغ المراتب العالية، ومنها مرتبة الملكية، وحب الخلود فيما يكون فيه الإنسان من نعيم، قال تعالى حكاية عما قاله إبليس لآدم وزوجه: ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ وأردف إبليس هذا الادعاء بادعاء آخر مقروناً بالحلف بالله، ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾، فكان هذا كله مسهلاً لوقوع آدم في نسيان ما عهده إليه ربه من عدم الأكل من الشجرة، ومن لزوم التصميم على رعاية هذا العهد، فوقع المحذور، وأكل هو وزوجه من الشجرة الممنوعة.

٢١-ما بعد الأكل من الشجرة الممنوعة:

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[٤٥].

---

(٤٤) تفسير الرازي ج٢٢ ص١٢٤.

(٤٥) سورة الأعراف، الآية ٢٢.

قوله: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا﴾، أي لما أكلا من الشجرة الممنوعة أخذتهما العقوبة وشؤم المعصية، فتهافت عنهما اللباس فظهرت لهما عوراتهما[٤٦]. وقيل: كان لباس آدم وحواء نوراً على فروجهما لا يرى هذا عورة هذه ولا هذه عورة هذا، فلما أكلا من الشجرة بدت لهما سوآتهما[٤٧]. وقيل: كان لباسهما من حلل الجنة[٤٨]. وقال صاحب تفسير المنار: لا دليل على نوع اللباس الذي كان يلبسانه في الجنة، ولم يصح به أثر عن المعصوم ﷺ[٤٩]. والراجح أن يقال: إنه كان لآدم وزوجه لباس يسترهما ويستر سوآتهما والله أعلم بحقيقته ونوعه، وإن هذا اللباس نزع عنهما بعد أكلهما من الشجرة؛ فبدت لهما سوآتهما.

وقوله تعالى: ﴿وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِ﴾، أي أخذا وشرعا يلصقان ورقة على ورقة ليسترا بها بعد أن نزع عنهما لباسهما[٥٠].

وقوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾، والاستفهام هنا للعتاب والتوبيخ، أي قال لهما ربهُما: ألم أنهكما وأحذركما من الأكل من تلك الشجرة، وأخبركما بأن الشيطان لكم عدو ظاهر العداوة فلا تطيعاه؛ لئلا يخرجكما من الجنة حيث العيش الرغيد إلى حيث الشقاء في المعيشة والتعب في الحياة، وهذا ما ورد في سورة طه في قوله تعالى: ﴿فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ﴾[٥١]. وإنما أسند الشقاء إلى آدم وحده دون زوجه حواء مع اشتراكهما في الأكل من الشجرة؛ لأن في ضمن شقاء الرجل - وهو قيم وأمير على أهله - شقاءهم، كما أنّ في ضمنِ سعادته سعادتهم، فاختص الكلام بإسناده إليه، وقد يعلل ذلك بأنه أريد بالشقاء في الآية الكريمة التعب

---

(٤٦) تفسير القاسمي ج٧ ص٣٨.

(٤٧) تفسير ابن كثير ج٢ ص٢٠٦، تفسير الرازي ج٢٢ ص١٢٧.

(٤٨) صفوة التفاسير ج١ ص٢٣٩.

(٤٩) تفسير المنار ج٨ ص٣٤٩.

(٥٠) صفوة التفاسير ج١ ص٢٣٩.

(٥١) سورة طه، الآية ١١٧.

في طلب القوت، وذلك على الرجل دون المرأة[٥٢].

٢٢- اعتراف آدم وزوجه بالخطيئة:

ولما سمع آدم وزوجه نداء الله تعالى لهما، وما تضمنه ذلك النداء من العتاب والتوبيخ على أكلهما من الشجرة المنهي عنها، علماً بأن الشيطان قد خدعهما وأوقعهما في مخالفة الرب، فندما وحزنا وتوجها إلى الله تعالى معترفين بالخطيئة تائبين من الذنب طالبين المغفرة والرحمة من ربهم الغفور الرحيم، قال تعالى حكاية عما قالاه: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[٥٣].

٢٣- توبة الله على آدم وزوجه:

وكان ما دعا به آدم وزوجه وهو قولهما: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا..﴾ الآية، هو الكلمات التي تلقاها آدم من ربه وهي قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[٥٤]. قالّها آدم عليه السلام، ودعا بها بخشوع وتضرع إلى الله تعالى، وتبعته في ذلك زوجته. وهكذا تاب الله على آدم وزوجه[٥٥]، وإنما اكتفيَ بذكر توبة آدم دون ذكر توبة زوجه حواء لأنها كانت تبعاً له، وقد ذُكِرَ الاثنان في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا..﴾ الآية[٥٦].

٢٤- إخراج آدم وزوجه من الجنة:

لقد تاب الله على آدم وزوجه كما قلنا، ولكن هذه التوبة لم تمنع إخراجهما من الجنة، لأن الله تعالى قال لهما بعد دعائهما: ﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾[٥٧]. والخطاب لآدم وزوجه - حواء - وإبليس، أي

---

(٥٢) تفسير الرازي ج٢٢ ص١٢٥.
(٥٣) سورة الأعراف الآية ٢٣.
(٥٤) سورة البقرة الآية ٣٧.
(٥٥) تفسير المنار ج٢٨ ص٣٥٠-٣٥١.
(٥٦) تفسير الرازي ج٣ ص٢٦.
(٥٧) سورة الأعراف الآية ٣٧.

اهبطوا من الجنة بعضكم وهو الشيطان، عدو لبعض وهو آدم وزوجته وذريتها، والمتبادر أن إخراج آدم وزوجه من الجنة كان عقاباً على تلك المعصية، معصية الأكل من الشجرة، لكون هذه المعصية ظلماً منهما لأنفسهما، وهو نوع من العقاب الذي قضت به سنته تعالى بأن يكون أثراً طبيعياً للعمل السيء مترتباً عليه ترتب المُسبَّب على سببه. وأما النوع الآخر من العقاب على العمل السيء من حيث هو عصيان الرب تعالى الذي يكون في الآخرة، فقد غفره الله تعالى لهما بالتوبة التي ذهبت بأثر المعصية من النفس، وجعلتها أهلاً لاصطفائه عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾[58]. وقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾، أي ولكم في الأرض استقرار أو مكان تستقرون فيه، ومتاع تتنتفعون به في معيشتكم إلى حين، أي إلى زمن مقدر في علم الله تعالى وهو الأجل الذي تنتهي فيه أعماركم. والمتاع هو ما ينتفع به[59].

---

(٥٨) تفسير المنار ج٨ ص٣٥١.

(٥٩) تفسير المنار ج٨ ص٣٥٢.

المبحث الثاني

ما يستفاد من قصة آدم وإبليس

٢٥- تمهيد وتقسيم:

لغرض معرفة ما يستفاد من قصة آدم عليه السلام وإبليس لعنه الله، رأينا تسهيلاً لتحصيل هذه الاستفادة وبيانها أن نبينها عند ذكرنا ما ورد في القرآن الكريم بشأن آدم عليه السلام، وإبليس، وبطبيعة العلاقة بينهما - أي بين آدم وإبليس، وبشأن مكايد الشيطان وبسبل الوقاية العامة منه ومن مكايده. وعلى هذا نقسم هذا المبحث إلى المطالب التالية.

المطلب الأول - المستفاد مما يتعلق بآدم عليه السلام.

المطلب الثاني - المستفاد مما يتعلق بإبليس.

المطلب الثالث - المستفاد مما يتعلق بطبيعة العلاقة بين آدم وإبليس.

المطلب الرابع - المستفاد مما يتعلق بمكايد الشيطان.

المطلب الخامس - المستفاد مما يتعلق بسبل الوقاية العامة من إبليس (الشيطان).

المطلب الأول

ما يستفاد مما يتعلق بآدم عليه السلام

٢٦- أولاً - آدم هو أصل البشر ودحض نظرية دارون:

إن آدم عليه السلام هو أصل البشر، فقد خلقه الله تعالى من طين على صورته البشرية الكاملة التي لم تأت عن طريق التدرج عن نوع من أنواع المخلوقات، أو عن صورة أو هيئة أخرى كما يزعم أهل الباطل أصحاب نظرية دارون، الذين يزعمون أنَّ أصل الإنسان قرد، ثم تدرج إلى أن صار إنساناً على هيئته المعروفة الحالية.

وهذا قول باطل لا دليل عليه، فالله تعالى خلق آدم من طين، ثم نفخ فيه الروح، فصار بشراً سوياً من لحم ودم بكامل هيئته وصورته الإنسانية، وقد دلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾[٦٠]. وهذه الآية تدل على أنه تعالى لما نفخ الروح في آدم وجب على الملائكة أن يسجدوا له؛ لأن قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ مذكور بـ(فاء) التعقيب، وذلك يمنع التراخي[٦١]. ومعلوم أن ادم عندما أمر الله تعالى الملائكة بالسجود له كان عليه السلام بكامل صورته البشرية، ولم يكن على هيئة أخرى. وفي الحديث النبوي الشريف «خلق الله آدم على صورته»، فخلقُ آدم جاء كاملاً من جهة هيئته وصورته الإنسانية. وقال الإمام الرازي في تفسيره: إن الله تعالى خلق آدم على صورة الإنسان[٦٢].

---

(٦٠) سورة ص الآيتان ٧١، ٧٢.

(٦١) تفسير الرازي ج١٩ ص١٨٢.

(٦٢) تفسير الرازي ج١٩ ص١٧٩.

٢٧- ثانياً - جوهر الإسلام الطاعة المطلقة لله:

أمر الله تعالى الملائكة بالسجود لآدم، فسجدوا له سجود تحية وتكريم وتعظيم واعتراف بفضله، وطاعةً لله رب العالمين دون تردد ولا اعتراض، مع أنهم في الملأ الأعلى وهم في حال تسبيح وتقديس وعبادة مستمرة لله رب العالمين، وقبل أن يصدر من آدم أيُّ نوع من العبادة تُرجّح على عبادتهم. وإنما كانت مبادرة الملائكة إلى السجود لآدم، والحال كما وصفنا؛ لأن الأمر لهم بالسجود لآدم صادر من الله رب العالمين، وما يأمر به الله تجب المبادرة إلى تنفيذه حالاً وبدون تردد ولا اعتراض ولا توقف في تنفيذه على معرفة حكمة هذا الأمر، وهذا هو جوهر الإسلام، وهذا هو الشأن بالمسلم: يسارع إلى طاعة ربه، والامتثال لأمره بدون تردد ولا اعتراض، ولا تعليق لهذه الطاعة على شيء آخر من معرفة سبب الأمر أو معرفة حكمته، أو موافقته لعقله وهواه، وبهذا نطق القرآن، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾[٦٣].

٢٨- على الدعاة التأكيد على هذا المعنى:

وعلى الدعاة التأكيد على هذا المعنى، وهو أنَّ جوهر الإسلام هو الطاعة المطلقة لله رب العالمين في كل ما يأمر به، وينهى عنه، وبدون قيد ولا شرط ولا تعليق للطاعة على أي شيء كما قلنا. وعلى الدعاة أن يشرحوا هذا المعنى، ويزيدوه بسطاً وتوضيحاً وضرباً للأمثلة من نصوص القرآن الكريم، ومن أفعال الصحابة الكرام. وقد يكون من سبل البسط والشرح والتوضيح لهذا المعنى الذي نريد التأكيد عليه أن يقال: إن الإسلام يعني الاستسلام والانقياد التام لله رب العالمين، وأصل هذا الاستسلام والانقياد في القلب، ويشترط فيه أن يكون تاماً وعن رضا واختيار.

ومظهر هذا الاستسلام والانقياد الطاعة المطلقة لله رب العالمين في كل ما أمر به، وما نهى عنه دون تردد ولا اعتراض، ولا تعليق لهذه الطاعة على شيء آخر،

---

(٦٣) سورة الأحزاب، الآية ٣٦.

ومن هنا قلنا: إنَّ هذه الطاعة المطلقة التي هي ثمرة الاستسلام التام لله رب العالمين هي جوهر الإسلام.

٢٩- ثالثاً- قابلية الإنسان للوقوع في الخطيئة:

ويستفاد من وقوع آدم في مخالفة نهي الله له عن الأكل من الشجرة، قابلية الإنسان للوقوع في الخطيئة، وهذه القابلية متأتية من طبيعة الإنسان، فقد خلقه الله تعالى على طبيعة تجعل وقوعه في الخطيئة أمراً ممكناً، لما في طبيعته وما جَبَلَهُ الله عليه من ميول ورغبات وغرائز هي جوانب الضعف في الإنسان، والتي من خلالها ينفذ الشيطان بوساوسه إليه، ويزين له الوقوع في الخطيئة. ومن غرائز الإنسان الكامنة فيه أنه يحب أن يكون خالداً لا يموت، أو معمراً أجلاً طويلاً كالخلود، ويحب أن يكون له مُلْكٌ غير مُحَّدد بالعمر القصير المحدد[٦٤] فجاء إبليس إلى آدم من هذه الغريزة، فقال له ولزوجته: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾[٦٥]، وأكدّ لهما ادعاءه بالحلف بالله بأنه لهما لمن الناصحين. وما قلناه لا يعني الاستسلام لهذه الغرائز والميول والرغبات، بل لا بد للمسلم من أن يضبطها ويكبح جماحها ويجعلها تابعة لأحكام الشرع، فقد جاء في الحديث الشريف «لا يؤمن أحدكم حتىٰ يكون هواه تبعاً لما جئت به»، وهذه الميول والغرائز والرغبات هي ما تهواه النفس وغالباً ما تكون منفلتةً ومتجاوزة حدودها، ولا يمكن ضبطها إلا بالالتزام بأحكام الشرع، ولذلك يأتي ذم (الهوى) ويراد به ما تهواه النفس؛ لأن الغالب في هوى النفس أنه مذموم، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ فقدِ أطلق الهوى، ومدح من ينهى نفسه عن الهوى، لأنه ينصرفُ عند الإطلاق إلى ما هو مذموم.

٣٠- رابعاً - خطيئة آدم تزيد من توكل المسلم على ربه:

إن خطيئة آدم تُظهر عظيم استعداد الإنسان للوقوع في الخطيئة، وتثير الخوف والفزع في النفوس وبالتالي تزيد من توكل المسلم على ربه، واعتماده عليه؛ ليكفيه

---

(٦٤) في ظلال القرآن ج٣ ص١٢٦٩.

(٦٥) سورة الأعراف، الآية ٢٠.

شر الشيطان الرجيم. وبيان ذلك أن الله تعالى أسجد الملائكة لآدم إظهاراً لفضله وعلو منزلته عند ربه، وطرد إبليس من الجنة؛ لامتناعه من السجود له، وأسكنه وزوجه في الجنة، وأمره بالأمر الصريح بعدم الاقتراب من شجرة معينة وأباح له ما عداها من نعيم الجنة وثمارها، قال تعالى: ﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[٦٦]. وحذرهما من الشيطان، ومن خداعه وكيده؛ ليخرجها من الجنة، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾[٦٧] ومع هذا كله فإن الشيطان استزلهما وغرهما، فأكلا من الشجرة، ووقعا في المعصية، فأخرجهما مما كانا فيه من نعيم الجنة، قال تعالى: ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾[٦٨].

من أجل هذا قلت: إن خطيئة آدم تثير الخوف والفزع في نفس كل مسلم يقف على قصة آدم عليه السلام؛ لأنه يتضح مدى إمكان تغرير الشيطان به، ودفعه إلى المعصية مما يجعله خائفاً فزعاً من هذا العدو الخبيث، وهذا الخوف من الشيطان، وإغوائه، يدفع المسلم إلى الالتجاء الدائم إلى الله تعالى، والتوكل عليه والاستعانة به على هذا الشيطان الرجيم الذي لا همَّ له إلا إغواء الإنسان، وجرّه إلى الخطيئة، ولا شك أن التوكل على الله، والاعتماد عليه من أعظم الأسباب؛ لدفع شر الشيطان، ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ كما قال ربنا[٦٩].

٣١- على الدعاة تبصير الناس بما قلناه:

قلنا: إن خطر الشيطان على الإنسان خطر كبير لقابلية وقدرة الشيطان على الإغواء، وقابلية الإنسان لتقبل هذا الإغواء، وهذا يستدعي أن يقوم الدعاة بتبصير الناس بذلك، وأن يفهموهم بأن التجاءهم إلى الله، وتوكلهم عليه لدفع شر الشيطان

---

(٦٦) سورة الأعراف، الآية ١٩.

(٦٧) سورة طه الآيتان ١١٦ و١١٧.

(٦٨) سورة البقرة الآيتان ٣٥ و٣٦.

(٦٩) سورة الطلاق، الآية ٣.

عنهم، من الأمور الضرورية لدفع هذا الشر عنهم. ولكن التوكل على الله في هذه المسألة لا يعني ترك الحذر من الشيطان، وترك الوسائل التي تبعد شروره ووسوسته؛ لأن الأخذ بالوسائل المشروعة من الأمور المطلوبة، ولكن الاعتماد للوصول إلى المطلوب لا يكون عليها، وإنما يكون بالتوكل على الله تعالى، فعلى الدعاة تفهيم المدعوين بما قلناه، أي بالحذر من الشيطان باتخاذ الوسائل الوقائية المشروعة منه مع التوكل التامّ على الله في الخلاص من شر الشيطان.

٣٢ - خامساً - ضرورة التوبة والاستغفار:

عندما وقع آدم وزوجه في المعصية، ناداهما ربُّهما مذكّراً لهما بنهيه عن الأكل من الشجرة التي عينها لهما، فسارع آدم وزوجه إلى الاعتراف بالذنب طالبيْن المغفرة والرحمة من ربهم الكريم، قال تعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[٧٠].

هكذا: اعتراف سريع بالذنب، مقرون بندم شديد، مفهوم من قولهما: ﴿ظلمنا أنفسنا﴾، وتوبة خالصة مقرونة برجاء قبولها، لئلا يكونا من الخاسرين الهالكين، وهذا يفهم من قولهما: ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾. فإذا كان آدم وزوجه لم يستغنيا عن التوبة، وطلب المغفرة من الله تعالى مع علوم منزلتهما، فالواحد منا أولى بذلك[٧١]. وقد بادرا إلى التوبة دون إبطاء، وهكذا يجب أن يفعل المسلم إذا وقع في المعصية، وعلى الدعاة تفهيم الناس ذلك وتبصيرهم به. وشيء آخر نستفيده من توبة آدم وزوجه، أن المسلم يمكن أن يصدر منه العمل السيء، والمخالفة لأمر الله، أي الوقوع في الذنب، ولكن الشأن بالمسلم الإسراع إلى التوبة، جاء في الحديث الشريف «كل بني آدم خطّاء وخير الخطائين التوابون» والله تعالى يحب العفو والتوبة على عباده، والمغفرة لذنوبهم، جاء في الحديث النبوي الشريف «لولا أنكم تذنبون فتستغفرون لَخَلَقَ الله تعالى خلقاً يذنبون فيستغفرون

---

(٧٠) سورة الأعراف الآيتان ٢٢و٢٣.

(٧١) تفسير الرازي ج٣ ص٢٦.

فيغفر لهم» ذكره الرازي في تفسيره، وقال عنه: رواه مسلم[٧٢]. وفي الحديث القدسي «يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا الذي أغفر الذنوب ولا أبالي، فاستغفروني أغفر لكم»[٧٣]. فعلى الدعاة تبصير المدعوين بذلك مع تحذيرهم من سوء فهم هذه الأحاديث النبوية الشريفة، فالذنوب ليست مطلوبة، ولا يُؤمَر بها المسلم، و لكن وقوعها منه غير مستغرب؛ لأنه غير معصوم. فإذا كان صدور الذنب منه، لكونه غير معصوم، فعليه التوبة، والله يحب الراجعين إليه، المقرين بذنوبهم، الطالبين والراجينَ رحمة ربهم. والله عفو غفور يحبُّ العفو، ويغفر لعباده المذنبين التائبين، وهذا من مقتضى كونه تعالى «غفوراً» و«رحيماً». والإنسان خلق على نحوٍ يمكن صدور الذنب منه، والله شاء أن يخلقه هكذا، أي على هذه الصفة، وبهذه الكيفية، التي يمكن أن يصدر عنها الذنب.

٣٣- المبادرة إلى التوبة:

وعلى الدعاة تذكير المسلمين بضرورةِ المبادرة إلى الاستغفار والتوبة دائماً، فقد روى ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قوله: «توبوا إلى الله فإني أتوب إليه في كُلِ يوم مائة مرة»[٧٤]. وتعليل المبادرة إلى التوبة، أن الذنب كالوسخ في الثوب، فإن لم تسارع إلى إزالته، فقد يصعب عليك إزالتُهُ مستقبلاً، لتمكنه واستقراره في الثوب، وكذلك الذنب يؤثر في قلب الإنسان، فإن لم يعاجل بالتوبة التي هي بمثابة الغسل للثوب الوسخ، فقد يتمكن هذا الذنب في القلب، ومن آثار تمكنِهِ قسوة فيه، وجرأة على ارتكاب ذنب آخر، وفي الحديث: «وأتبع السيئة الحسنة تمحها». ولا شك أن التوبة أمرٌ حسن، فإذا وردت على السيئة التي عملها الإنسان، وتركت أثراً في قلبه، فإن هذه الحسنة - التوبة - تمحو أثر السيئة، فيرجع القلب إلى قوته وسلامته. وقد يكون من المفيد أن يذكر الدعاة للناس وهم يتكلمون عن قصة آدم، أو يتكلمون في موضوع الاستغفار والمبادرة إلى التوبة، أن يذكروا لهم أن التوبة تقوم على ثلاثة عناصر: الندم على اقترافِ الذنب، والإقلاع عنه حالاً، والعزم على

---

(٧٢) تفسير الرازي ج٣ ص٢٥.
(٧٣) تفسير الرازي ج٣ ص٢٥.
(٧٤) تفسير الرازي ج٣ ص٢٣.

عدم العود إليه مستقبلاً. وينضم إلى هذه الثلاثة عنصرٌ آخر هو ردّ الحقوق إلى أصحابها إن كان الذنب يتعلق بغصب حقوق الآخرين.

وعلى الدعاة تفهيم المسلمين بأن التسويف والتأجيل في التوبة من خداع الشيطان ومكايده، وربما ألقى في نفس الشاب الذي استزله بأنه شاب والأيام أمامه كثيرة، وأن تأخير التوبة لا يضره، بل سيعطيه فرصة لإشباع شهواته ورغباته ثم بعد ذلك يتوب. فهذا وأمثاله من نفث الشيطان، فعلى الدعاة تحذير المسلمين من ذلك بأن يذكروهم بأنَّ أجل الإنسان - أي وقت موته - مجهول، وقد يحضره الموت وهو متلبس بالآثام ولا يجد فرصة ليتوب؛ لأنَّ الموت قد يحل بالشاب قبل الشيخ الهرم، بل إن الموت في الشباب أكثر بدليل أننا لو أحصينا عدد الشيوخ في قرية لوجدناهم أقل عدداً من الشباب، وهذا يعني أن الذين نجوا من الموت من الشباب حتى صاروا شيوخاً كانوا أقل ممن حصدهم الموت وهم شباب، ثم يقال على سبيل التمثيل والتوضيح: إن الذنوب والمعاصي كالسموم في بدن الإنسان، وكالأقذار على جسم الإنسان، فهل من الحكمة ترك السموم في البدن مع القدرة على إخراجها؟ وهل من الحكمة ترك الأقذار على جسم الإنسان مع القدرة على إزالتها؟ والذنوب والمعاصي أشد ضرراً على الإنسان من هذه السموم والأقذار، لأن غاية ما تفعله أنها تمرض الإنسان، أو تميتُه، والموت عاقبة كل حي. أما الذنوب والمعاصي فإنها تمرض القلب، وتقسيه، وتمحق نوره، وتفقده حساسيته وقدرته على رؤية الحق، قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[٧٥]، أي غطى على قلوبهم ما كانوا يكسبونه من الإثم والمعصية. والقلب الذي يمرد على المعصية ينطمس ويظلم ويرينُ عليه غطاء كثيف يحجب النور عنه، ويحجبه عن النور، ويفقده الحساسية شيئاً فشيئاً حتىٰ يتلبد ويموت[٧٦]. وفي سنن الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «إن العبد إذا أذنب ذنباً كانت نكتةٌ سوداء في قلبه، فإن تاب منها صقل قلبه، وإن زاد زادت، فذلك قول الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ وقال الحسن البصري: الرَّيْن هو الذنب على الذنب حتىٰ يعمى القلب

(٧٥) سورة المطففين، الآية ١٣.

(٧٦) تفسير سيد قطب ج٦ ص ٣٨٥٧-٣٨٥٨.

فيموت[٧٧] . وإذا وصل الإنسان إلى هذا الحدّ، فإنه لا يستطيع التوبة حتىٰ لوأرادها؛ لأنه لم يعد يندمُ على معصية فعلها، أو هو متلبس بها، وليست له قدرة على الإقلاع عنها حالاً، ولا عزم لديه على عدم العود إليها مستقبلاً، وهذه الثلاثة هي أركان أو عناصر التوبة، فكيف يمكنه أن يتوب؟

المطلب الثاني

ما يستفاد مما يتعلق بإبليس

٣٤- أولاً - الاحتراز من الحسد والكبر:

ذكرنا فيما سبق أن الله تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى أن يسجد لآدم حسداً له وتكبراً عليه. قال قتادة: إن هذا السجود كان كرامة كرمَّ الله بها آدم، ولكنَّ إبليس حسد آدم على هذا التكريم[٧٨]، فحمله هذا الحسد على الاستكبار والفسوق عن أمر ربه[٧٩]. قال الإمام الرازي: إن إبليس وقع فيما وقع فيه بسبب الحسد والكبر[٨٠]،فكان بدء الذنوب: الكبر، استكبر إبليس أن يمتثل لأمر ربه بالسجود لآدم، ولهذا جاء التحذير من الكبر، والوعيدُ للمتكبرين. قال ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر»[٨١] وفي كتاب الله العزيز آيات كثيرة تذمُ الكبر والمتكبرين، وتبين سوء عاقبتهم يوم الدين.

وحقيقة الكبر: بطر الحق وغمط الناس، كما جاء في الحديث النبوي الشريف وبطر الحق: رده ودفعه، وعدم الخضوع له وعدم الانقياد له استخفافاً به، وترفعاً عليه، وعناداً له. وغمط الناس أو غمصهم: احتقارهم والازدراء بهم[٨٢]. ومن أعظم مظاهر بطر الحق رفض أوامر الله، والتمرد عليها؛ لأن ما يأمر

---

(٧٧) تفسير ابن كثير ج٤ ص٤٨٥.
(٧٨) تفسير المنار ج٨ ص٣٣٠.
(٧٩) تفسير المنار ج٨ ص٣٣٠.
(٨٠) تفسير الرازي ج٦ ص٢٢٧.
(٨١) تفسير ابن كثير ج١ ص٧٨.
(٨٢) تفسير المنار ج٥ ص٩٦، ج٨ ص٣٣٤.

به الله هو الحق، فالتمرد على هذا الحق ودفعه يمثل حقيقة الكبر.

وإذا كان ما أوقع إبليسَ في معصية الله تبارك وتعالى هو الحسد والكبر، فإنَّ على المسلم أن يحترز منهما[٨٣]، وأن يفحص قلبه دائماً خوفاً من أن يلقي الشيطان فيه شيئاً من جراثيم الحسد أو الكبر، فيحمله ذلك على بطر الحق وغمط الناس حقوقهم.

٣٥- واجب الدعاة وجماعتهم المسلمة:

وعلى الدعاة وهم يدعون الناس إلى الإسلام، ويبصرونهم بحقائق الإسلام ومعانيه، أن يبينوا لهم تحريم الحسد وأضراره وشروره، ولذلك خصه الله بالذكر في جملة ما يستعاذ بالله منه، فقال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾[٨٤].

كما أن على الدعاة أن يبينوا للناس حقيقة الكبر ومظاهره وآثاره، وأنه بعيد عن أخلاق المسلم إلى غير ذلك مما يتعلق به.

وعلى الجماعة المسلمة، جماعة الدعاة، التي تدعو إلى الله تعالى بصفة جماعيّةٍ، أن تولي موضوع الحسد والكبر ما يستحق من أهمية واعتبار، ليس فقط فيما تبينه لعموم المسلمين من حكم الإسلام في الحسد والحاسدين، والكبر والمتكبرين، وإنما عليها أن تفقه أعضاءها والمنتسبين إليها من مؤيدين وأنصار ودعاة بمعاني الحسد والكبر وبيان تحريمهما القاطع في الإسلام، وأنه كتحريم الخمر والميسر. وعليها أيضاً أن تحذرهم من الوقوع في الوهم الباطل: وهو أن أعضاء الجماعة، وهم دعاة إلى الله أو أنصار لهم أو مؤيدون لهم، لا يتصور أن يقع فيما بينهم تحاسد، فهذا وهم باطل؛ لأن الحسد والتحاسد وقع بين إخوة يوسف حتى حملهم الحسد على التآمر على أخيهم يوسف، وهم كلهم يعيشون في كنف أبيهم يعقوب نبيِّ الله، وكادوا أن يقتلوه، ولكنهم تساهلوا معه فألقوه في غيابة الجب، كما سنبين ذلك فيما بعد إن شاء الله تعالى. والحسد وقع أيضاً بين ابني آدم

---

(٨٣) تفسير الرازي ج٢٦ ص٢٢٧.

(٨٤) سورة العلق.

حتى حمل أحدهما على قتل أخيه، كما سنبين ذلك في موضعه إن شاء الله تعالى. فليس أعضاء الجماعة المسلمة بمعصومين من الحسد، وليسوا هم في نجوة منه، والشيطان يحوم حولهم ليوقعهم فيه.

وسرّ المسألة أن الحسد يقع عادة بين المتعارفين المشتركين في شيءٍ ما، سواء كان هذا الشيء قرابة أو صداقة أو جواراً أو حرفة أو مهنة أو غيرَ ذلك مما يقع به الاشتراك، فيريد كل واحد من المشتركين أن يستأثر بما حصل عليه غيره من هؤلاء المشتركين، حتى لا يمتاز عليه بشيء مما يجعله في مرتبة أعلى منه. ولهذا نجد الحسد بين الأقارب أكثر من الحسد فيما بين الأباعد، ونجد الحسد بين أصحاب المهنة الواحدة، ولا نجده بين أصحاب المهن المختلفة، ونجد الحسد بين العلماء علماء الدين - مع الأسف - ولا نجده فيما بينهم وبين أصحاب الاختصاصات أو المهن الأخرى.

وهذا الذي أقوله ينطبق على أعضاء الجماعة المسلمة، جماعة الدعاة إلى الله، فهم مشتركون في انتسابهم إلى هذه الجماعة، وفي عملهم في مجال الدعوة إلى الله، فيقع الحسد فيما بينهم في غفلة من إيمانهم، وتسلط من الشيطان عليهم، فيريد أحدهم - حسداً من عند نفسه - أن لا يبزه غيره، ولا يتقدم عليه في مجال الدعوة، وإن كان في تقدمه عليه خير كثير، وإقبال من الناس شديد على الدعوة، فهو - أي هذا الحاسد - لا يريد أن يعلو اسم غيره من الدعاة، ولا أن ينتشر صيته بين الناس، ولا أن يتبوأ مسؤليات كبيرة في الجماعة. كل ذلك يحسه من نفسه، ويسعى إلى عدم حصوله لأخيه الداعية حسداً من نفسه، وإن ادعى غير ذلك. فلا بد إذن للقائمين على الجماعة من تبصير أعضائها بخطر الحسد، ومن آثاره التي ذكرنا بعضها، ومن احتمال أن يدب دبيبه في قلوبهم وهم عنه غافلون، وأن يطلبوا منهم أن يراقبوا ما في قلوبهم، ويبحثوا في دوافعهم في مواقفهم مما تقرره الجماعة فيما تعهد به من أعمال ومسؤولياتٍ لأعضائها، وهل أنهم في هذه المواقف يصدرون عن نظر شرعي، أم أن وراءه حسداً يدفعهم إلى هذه المواقف؟

وأما الكبر، فهو أيضاً، يمكن أن تتسلل جرثومته إلى نفوس أعضاء الجماعة فيقعون في بعض أسوائه. وقد قلنا: إن الكبر في جوهره: بطر الحق وغمط الناس

حقوقهم. ومن مظاهر بطر الحق الذي يقع فيه عضو الجماعة: دفع الحق الذي يوجبه عليه الشرع باعتباره فرداً في الجماعة وعضواً فيها. وقد لا أكون مبالغاً إذا قلت: إن معظم ما يحدث بين الجماعات الإسلامية من تناحر، أو بغضاء، أو تباعد سببه الحسد والكبر. وإن معظم ما يحدث بين أعضاء الجماعة الواحدة من انشقاقات، واتهامات وخروج من الجماعة سببه الحسد والكبر، وعلاج ذلك: المكاشفة أولاً، والخضوع لحكم الشرع ثانياً، وتجريد العمل من شوائب الرياء بجعله خالصاً لوجه الله تعالى ابتغاء مرضاته، وليس ابتغاء عَرَضٍ من أعراض الدنيا. وأعني بالمكاشفة: مكاشفة القائمين على الجماعة لجميع أفرادها بما يبدو منهم أنه علامة على وقوع الحسد، أو الكبر في نفوسهم، وأنْ لا بد من تحكيم الشرع في هذا الذي ظهر منهم من أقوال، أو أفعال، أو مواقف معينة من قرارات الجماعة فيما تعهده من مسؤولياتٍ لبعضهم، حتى يتبين أن ما صدر منهم لا يخفي وراءه حسداً، ولا يكون الدافع له حسداً أو كبراً، والطلب منهم تنقية نياتهم وقصودهم دائماً؛ لتبقى أعمالهم خالصة لوجه الله.

٣٦- ثانياً - لا رأي لأحد مع وجود النص ولا تعقيب عليه:

من قواعدنا الفقهية: «لا اجتهاد في معرض النص» أي: إذا وجد النص الشرعي وهو قول الله ورسوله القطعي الثبوت والدلالة، فلا رأي ولا قول لأحد في موضوع هذا النص من جهة جواز التعقيب عليه، أو المجادلة فيه، أو التوقف في تنفيذه، أو تعليق هذا التنفيذ على شيء آخر، كموافقته لهوى النفس أو رضا الناس، أو الاجتهاد في تعطيله، أو عدم الخضوع له بالحيلة أو الاستثناء، وإنما الواجب على المسلم إزاء هذا النص قبوله فوراً بكامل الرضا، والعزم على تنفيذه، والمبادرة إلى هذا التنفيذ دون تردد ولا ضيق ولا حرج ولا كراهية، وبهذا يتحقق في المسلم إسلامه، ويصدق عليه قول الله في المؤمنين: ﴿ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾[٨٥].

٣٧- ومرد هذه القاعدة «لا اجتهاد في معرض النص»:

هو أنَّ دين الله الواحد الذي أرسل به جميع رسله هو الإسلام، قال تعالى: ﴿ إِنَّ

---

(٨٥) سورة البقرة، الآية ٢٨٥.

﴿ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[٨٦]. كما سنبينه فيما بعد. ومعنى الإسلام كما قلنا ونقوله هنا ونكررالقول فيه: هو الاستسلام لله رب العالمين عن رضا واختيار، لا عن كره واضطرار، وبدون قيد ولا شرط، ولا ضيق ولا حرج، ومظهر هذا الاستسلام لله رب العالمين: تلقي أوامر الله بهذه الكيفية، وإن أي رفض أو تردد لهذا التلقي بهذه الكيفية هو الكفر الصريح الذي لا يحتمل التأويل، وإن ادعى صاحبه أنه مجتهد في موقفه هذا الرافض، أو المتردد، إذ لا اجتهاد في معرض النصّ.

٣٨- كفر إبليس في رفضه أَمْرَ الله:

وإبليس عليه اللعنة وقع في هذا الكفر الصريح في رده أمر الله الصريح، فقد أمره الله تعالى بالسجود لآدم، وهو أمر له صريح بالسجود، وهو أمرٌ قطعي الثبوت، وقطعي الدلالة، وصدر من الله تعالى مباشرة، فرفض إبليس تنفيذه، كما جاء في صريح الآيات التي ذكرنا بعضها فيما سبق، فاستحق بذلك الرفض الطردَ والإبعادِ من رحمة الله والخلودَ في النار.

٣٩- إبليس عارض الأمر وعقّب عليه:

ولم يكتف إبليس بالمعصية، ومخالفة أمر الله، بل عارضه وعقّب عليه بادعائه وزعمه أن هذا الأمر لا ينبغي أن يُوَجه إليه؛ لأنه خير من آدم في زعمه وميزانه، فهو إذن في زعمه أفضل منه، فلا ينبغي أن يسجد له، وإنْ أمره اللهُ بذلك. قال تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾[٨٧]. وجوابه لعنه الله من العذر الذي هو أكبر من الذنب، كأنه امتنع من الطاعة بحجة أنه لا ينبغي أن يؤمر الفاضل بالسجود للمفضول، يعني لعنه الله: وأنا خير منه فكيف تأمرني بالسجود له؟[٨٨] وهذا أقصى ما يُتَصور من التمرد على الله وأمره، فإنه لعنه الله عصى أمر الله، ولما سأله ربه عن سبب امتناعه عن السجود لم يعتذر ولم يعترف بمعصيته ولم يطلب العفو من الله، وإنما أصرَّ على عصيانه، وجادل ربَّهُ، وعقَّب على أمره، وجاء

---

(٨٦) سورة آل عمران، الآية ١٩.

(٨٧) سورة الأعراف الآية ١٢.

(٨٨) تفسير ابن كثير ج٢ ص٢٠٣.

بتبرير لعصيانه بأنه خيرٌ منه، وأنَّ مقتضى هذا التبرير بزعمه أنه لا ينبغي أن يؤمر بالسجود لآدم. ومقتضى ذلك أنه ينسب إلى الله عز وجل أنه يأمر بما لا يصح الأمر به. وهنا نلحظ الفارق العظيم بين موقف آدم عليه السلام وبين موقف إبليس اللعين. فآدم عليه السلام لما زلت به قدمه، ووقع في الخطيئة، وعاتبهما ربهما ووبخهما على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[89]. سارع آدم وزوجه إلى الاعتراف بالذنب، والتوسل إلى الله تعالى بأن يغفر لهما زلتهما، ويتوب عليهما، لئلا يكونا من الخاسرين، قال تعالى حكاية عما قالاه في دعائهما: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[90].

٤٠- ما يجب على الدعاة والجماعة المسلمة:

وما ذكرناه وبيناه في شرحنا لقاعدة «لا رأي مع وجود النص ولا تعقيب عليه» يلزم الدعاة والجماعة المسلمة تبيينَهُ لمن يدعوهم من المسلمين، وأن يجعلوه من مواضيع الدعوة ولوازم التبليغ. وعلى الجماعة المسلمة أيضاً أن تربي أفرادها على الطاعة المطلقة لأوامر الرب جلّ جلاله، سواء عرفوا حكمتها أو لم يعرفوها، وأن لا يعلقوا طاعتهم لها على موافقتها لما تهواه أنفسهم، أو على ما يهواه الناس، أو على أي شيء آخر، وأن يُطَهِّروا نفوسَهم من أي معنى من معاني الاعتراض والتعقيب على شرع الله سواء كان هذا التعقيب وذاك الاعتراض بلسان الحال، أو بلسان المقال. إنَّ تربية الجماعة المسلمة أفرادها على هذا الطاعة المطلقة لشرع الله المبّرأةِ من كل اعتراض، أو تعقيب، ضرورية جداً لتكوين الجماعة الربانية ذات الشخصية الإسلامية القادرة على النهوض بواجباتها نحو الإسلام والمسلمين.

٤١- ثالثاً - ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ لا تبرر مخالفة الشرع:

عندما سأل الله تعالى إبليس عن سبب امتناعه عن السجود لآدم علّل ذلك بقوله: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾، وفصّل هذه الخيرية بقوله لعنه الله: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾.

---

(٨٩) سورة الأعراف الآية ٢٢.

(٩٠) سورة الأعراف الآية ٢٣.

فإبليس تكبر على آدم ولم يسجد له؛ لأنه افتخر بأصله ونسبه، ومعنى ذلك في رأي إبليس أنه أشرف منه في الأصل والنسب، فكأنه يقول لعنه الله: فكيف أسجد له، وكيف أتواضع له[٩١].

٤٢- حجة إبليس عليه لا له:

وحجة إبليس في استكباره وعدم امتثاله لأمر ربه حجة داحضة، وهي حجة عليه وليس له؛ لأنه احتج بقوله: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾، وفي هذا الجواب ضروب من الجهل الفاضح ما أوقع اللعينَ فيها إلا حسدُهُ وكبرُهُ، فإنهما يعميان البصائر، ومن دلائل جهله الذي انكشف بجوابه ما يأتي[٩٢]:

أولاً - اعتراضه على أمر ربه وخالقه فيما لا يوافق هواه، وهذا كفرٌ لا يقع فيه من يؤمن بالله؛ لأن الشأن في أمر الله جل جلاله أن يطاع مطلقاً، والشأن بالمؤمن بالله أن يطيعه مطلقاً.

ثانياً - احتجاجه على ربه بما يؤيد اعتراضه، والشأن بالمؤمن المذعن لربه ألاَّ يحتج على ربه في شيء، بل يعلم أنَّ لله الحجةَ البالغةَ.

ثالثاً - جعل - لعنة الله - امتثال أمر الرب مشروطاً باستحسانه له، وموافقته لرأيه وهواه، وهو رفض لطاعة الله، وترفع عن مرتبة العبودية لله، ووضع لنفسه موضع الند لله يجادله ويخاصمه، وهو في حكم الدين كفر.

رابعاً - استدلال إبليس على الخيرية بالمادة التي كان منها تكوينه وخلقه استدلالٌ باطلٌ وجهل فاضح ظاهر، فإن الملائكة خلقوا من النور وهو قد خلق من مارج من نار، وهو اللهب المختلط بالدخان، ولا شك في أَنَّ النور خير من النار، وقد سجد الملائكة وهم مخلوقون من النور امتثالاً لأمر الله، فكان هو أولى بالسجود.

خامساً - وحتى إذا سلمنا جدلاً بأن خيرية الشيء تابعة للمادة التي هي أصل جنسه، فلا نسلّم أن النار خير من الطين، فإن جميع الأحياء النباتية والحيوانية في هذه الأرض مخلوقة من الطين بالذات، أو بالواسطة، وهي خير من النار بكل نوع

---

(٩١) تفسير الرازي ج٢١ ص١٣٦.

(٩٢) تفسير ابن كثير ج٢ ص٢٠٣، وتفسير المنار ج٨ ص٣٣٠-٣٣٢.

من أنواع الاعتبارات التي تعرفها العقول، وليس للنار أو لمارجها مثل هذه المزايا، ولا ما يقرب منها.

سادساً - إن إبليس غفل عما خصّ الله به آدم من خلقه بيده، والنفخ فيه من روحه، ومن تشريفه بأمر الملائكة بالسجود له، وجعله بتلك المزايا أفضل من أولئك الملائكة، وهم أفضل من إبليس بعنصر الخلقة، وبالطاعة لله رب العالمين.

٤٣ - حجة المبطل تكون دائماً عليه وليست له:

هذا وإني ذكرت ما في احتجاج إبليس على معصيته من جهالات؛ لأبين فقط أنَّ كل مبطلٍ لا يأتي بحجةٍ على باطلةٍ إلاَّ كانت تلك الحجّةُ عليه لا لَهُ. ويكفي في بطلان أي احتجاج يقدمه إبليس على عصيانه، أنه احتجاج باطل، لأنه يعترض به على أمر الله جل جلاله، وهو ربه وخالقه، وحق الله أن يطاع مطلقاً، وواجب العبد أن يطيعه مطلقاً، وحتى لو فرضنا جدلاً أن إبليس خير من آدم فهذا لا يعفيه من واجب طاعة أمر الله بالسجود لآدم؛ لأن طاعته أَمْرَ الله واجبة على المأمور غير معلقة على أي شيء آخر.

٤٤- عبارة ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ لا تقال في الجماعة المسلمة:

الجماعة المسلمة نصبت نفسها للدعوة إلى الله، وإن أعضاءها انتسبوا إليها لهذا الغرض نفسه، فهي جماعة الدعوة والدعاة إلى الله، فيجب أن تشيع فيها وفي أفرادها معاني الإسلام، وخلق الإسلام، والوقوف عند حدود الله في أوامره ونواهيه حتى يمكنها أن تجذب الناس إليها، وتعطيهم القدوة الحسنة في سلوكها وسلوك أفرادها. فلا يجوز أن يقال فيها ما نهى الله عنه، وما قاله إبليس في احتجاجِهِ الباطل على الله رب العالمين، وهو قوله: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾؛ لأن هذه العبارة بما تدل عليه تخالف معاني الإسلام، وتكون مدخلاً للشيطان؛ لإيقاع المسلم فيما حرمه الله عليه. وبيان ذلك بإيجاز فيما يلي:

٤٥- في العبارةِ تزكية للنفس:

إنَّ عبارة ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ تزكية لنفس قائلها، والله تعالى يقول: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰٓ﴾[٩٣]، فلا يليق بالداعي إلى الله أن يزكي نفسه، ويفضلها على غيره، فالله وحده هو الذي يزكي الأنفس، ويعلم من هو أفضل من غيره.

٤٦- في العبارةِ تكبر:

وفي عبارة ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ معنى التكبر لدى قائلها على المقولة له هذه العبارة، والتكبر ليس من صفات المسلمين؛ لأن من معانيه أو من موجباته رد الحق واحتقار الخَلْقِ، فكيف يتخلق الدعاة إلى الله بصفة التكبر، وهم يدعون الناس إلى معاني الإسلام؟ و من هذه المعاني نبذ التكبر، ولزوم التواضع، وقد أمر الله به رسوله ﷺ قال تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٩٤] . فلا يليق بالمؤمن وهو يدعو إلى الله، وقد انضم إلى الجماعة المسلمة أن يتكبر على إخوانه الدعاة في هذه الجماعة. وقال تعالى في صفات المؤمنين الذين يحبهم ويحبونه إنهم ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[٩٥]، قال ابن كثير رحمه الله في هذه الآية: «هذه صفات المؤمنين الكمّل أن يكون أحدهم متواضعاً لأخيه ووليه، متعززاً على خصمه وعدوه، كما قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾»[٩٦].

٤٧- في العبارة مدخل للشيطان:

وفي عبارة ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ مدخل للشيطان، وثغرة يتسلل منها إلى صفوف الجماعة، فيفرقها ويكدر صفو ودها وإخائها؛ لأن هذه العبارة إذا قيلت في الجماعة، أو استقر معناها في قلوب أعضائها، فإن قائلها سينظر إلى تصرفات الجماعة والقائمين عليها في ضوء هذه الخيرية التي نسبها لنفسه، ومن مظاهر هذا النظر الكليل أنه يعترض على توزيع الأعمال في الجماعة، وإسناد الإمرة فيها إذا تجاوزه هذا التوزيع والإمرة فيها ولم يُعطَ من هذه الأعمال ما يعتقده هو الأحق به من غيره بناء على هذه الخيرية التي يراها لنفسه، إنه أصبح يرى في ضوء هذه الخيرية

---

(٩٣) سورة النجم، الآية ٣٢.

(٩٤) سورة الشعراء، الآية ٢١٥.

(٩٥) سورة المائدة، الآية ٥٤، وهي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ... ﴾ الآية.

(٩٦) تفسير ابن كثير ج٢ ص٧٠.

لنفسه أن توزيع الأعمال والإمارة فيها داخل الجماعة كمناصِبِ الدولة، ووظائفها، وليس كخدمات يُكَلَّفُ بها أعضاء الجماعة حسب اجتهاد القائمين عليها خدمة للإسلام، وقد يحمله إحساسه بهذه الخيرية على التمرد على الجماعة وأوامرها، والانشقاق عنها إذا لم يُعطَ ما يريد من مسؤوليّةٍ وإمرة وقيادة في الجماعة. ولا شك أن الشيطان سيجد ثغرة واسعة للولوج منها إلى صفوف الجماعة؛ لتفريقها وإشاعة الهوى فيها إذا وجد فيها من يقول ويردد هذه العبارة ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾.

٤٨- واجب الجماعة المسلمة، جماعة الدعاة:

فعلى الجماعة المسلمة أن لا تسمح لعبارة ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ أن تقال فيها بلسان المقال، أو بلسان الحال، وأن تكثر من تذكير أفرادها بضرر هذه العبارة الخبيثة، وحمل معناها، وأن تكثر من ضرب الأمثال لتوضيح ما تقول. وعليها أن تبين لهم بأن هذه الخيرية أو الأفضلية حتى لو كانت ثابتة، أو ظاهرة لأحدهم، فهي لا تعني أبداً تمرده على أمر الجماعة والقائمين عليها إذا كان في هذا الأمر تأمير للغير عليه أو تكليفه بعمل شيء له. ألا يرى أن رسول الله ﷺ جهز جيشاً قبيل وفاته؛ لتسييره إلى أطراف الشام، لإرهاب الروم، وقد أمّر ﷺ على ذلك الجيش أسامة بن زيد وهو شاب، وفي الجيش عدد كثير من كبار المسلمين ومنهم عمر بن الخطاب، ولم يعترض أحد منهم على هذا التأمير لأسامة أو يقل: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾، فكيف يؤمر عليّ؟ وقد أبقى الخليفة أبو بكر رضي الله عنه إمرة أسامة على هذا الجيش، وأصرّ على تسييره إلى جهته، وكل ما فعله أبو بكر رضي الله عنه أن استأذن أسامة بن زيد، باعتباره قائد الجيش، أن يبقي له عمر بن الخطاب ليستعينَ به على أمور الدولة.

٤٩- رابعاً - لا فخر بالأصل والنسب:

ومما يستفاد للدعوة والدعاة، وعلى الجماعة المسلمة أن تعيه وتبلغه لأعضائها ولعموم المسلمين، بما يتعلق بإبليس، أنه لعنه الله إنما تكبر على آدم؛ لأنه افتخر بأصله ونسبه، فقال: خلقتني من نار وخلقته من طين، فأنا أشرف منه في الأصل والنسب، فكيف أسجد له، وكيف أتواضع له؟[٩٧]. فليحذر المسلم وليحذر الدعاة

(٩٧) تفسير الرازي ج٢١ ص١٣٦.

إلى الله أن يتسرب إلى نفوسهم شيء من الفخر بأصلهم ونسبهم؛ لأن الإسلام يقرر على لسان رسوله ﷺ «من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه»، ولأن قيمة الإنسان وقدره بقدر إيمانه وعمله الصالح سواء كان من ذوي الأنساب والأصول العالية، أو كان من ذوي الأنساب والأصول الواطئة النازلة. وكل من ترفع على غيره وازدراه بسبب أصله فهو متبع لطريقة إبليس وعادات الجاهلية.

المطلب الثالث

ما يستفاد من طبيعة العلاقة بين آدم وإبليس

٥٠- إبليس هو العدو لآدم وزوجه وذريتهما:

إبليس هو العدو لآدم؛ لأنه بسبب امتناعه عن السجود له طرده الله من رحمته، ولعنه فصار عدوّاً لآدم، ثم سحب إبليس هذه العداواة إلى زوجة آدم وذريته؛ لوجود صلة بينهما وبينه وأعني بها صلة الزوجية بالنسبة إلى حواء، وصلة البُنوَّةِ بالنسبة لذريته. وقد أخبرنا الله تعالى بعداوته لآدم وزوجه وذريته في القرآن الكريم في آيات كثيرة نذكر منها ما يلي:-

أولاً - وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾[٩٨] وإبليس اسم للشيطان[٩٩]، وهو عدو لآدم وزوجه بصريح هذه الآية الكريمة.

ثانياً - وقال تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا . . ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[١٠٠]، فالشيطان عدو لآدم وزوجه.

ثالثاً - ومن إخبارات الله تعالى لنا بعداوة الشيطان لذرية آدم قوله تعالى: ﴿ قَالَ

---

(٩٨) سورة طه، الآيتان ١١٦ و١١٧.

(٩٩) صفوة التفاسير ج١ ص٥٠ وسمي الشيطان شيطاناً لبعده عن الحق وتمرده: تفسير القرطبي ج١ ص٩٠.

(١٠٠) سورة الأعراف الآيات ٢٠-٢٢.

﴿ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾(١٠١)، والمراد بـ﴿ لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ ﴾ أي لذرية آدم عليه السلام(١٠٢). فإبليس لعنه الله لعداوته لذرية آدم يسعى إلى إغوائهم، وتزيين الباطل لهم.

رابعاً - قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾(١٠٣)، أي لأُضلِنَّ ذرية آدم إلا قليلا(١٠٤) وما إضلاله لذرية آدم إلا لعداوته لهم.

٥١- عزم إبليس على إضلال بني آدم:

وقد أعلن إبليس عزمه وتصميمه على إضلال بني آدم وإغوائهم، وطلب من الله تعالى إمهاله وإبقاءه إلى يوم القيامة؛ لتنفيذ ما عزم وصمم عليه، مما يدل على شدة عداوته لآدم وبنيه، ونذكرُ فيما يلي بعض هذه الآيات التي تكشف عن عزمه الآثم، وتصميمه الفاجر على إضلالِ وإغواء بني آدم.

أ-قال تعالى لإبليس وقد امتنع عن السجود لآدم: ﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾(١٠٥).

ب- وقال تعالى حكاية عن قول إبليس: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾(١٠٦).

---

(١٠١) سورة الحجر الآية ٤٣.

(١٠٢) تفسير ابن كثير ج٢ ص٥٥١.

(١٠٣) سورة الإسراء، الآية ٦٢.

(١٠٤) تفسير ابن كثير ج٣ ص٤٩.

(١٠٥) سورة الأعراف الآيات ١٣-١٧.

(١٠٦) سورة الحجر الآيات ٣٦-٤٠.

٥٢- عداوة الشيطان ثابتة لا تتغير:

مما ذكرناه يتبين بوضوح أن طبيعة علاقة الشيطان بالإنسان هي عداوته له، ولا يمكن تبديلُها ولا تغييرها، ولا يمكن إجراء المصالحة بينهما بإزالة هذه العدواة؛ لأن الشيطان لا هَّم له ولا عمل ولا غرض في حياته سوى إضلال الإنسان، وحرفه عن الحق، ودفعه إلى معصية الله تعالى.

٥٣- عداوة الشيطان للإنسان حقيقية:

ومن أجل ذلك وصف الله تعالى الشيطان بأنه (عدو) للإنسان، والله جلّ جلاله عندما يصفه بهذا الوصف، فهو وصف دقيق وصادق ومنطبق على الشيطان بكل ما تعنيه كلمة (عدو)، وليس في إطلاقها على الشيطان أي معنى مجازي، أو معنى فيه مبالغة، وإنما هو وصف وإطلاق مطابق لواقع الشيطان، ولطبيعته العدوانية للإنسان، وبالتالي فالشيطان أحق المخلوقات بوصفه العدو للإنسان، وإطلاق هذا الاسم عليه. ومما يزيد في خطورة عداوة الشيطان للإنسان قدرته على الالتصاق بالإنسان، ونفث وسوسته في قلبه، جاء في الحديث النبوي الشريف «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم»، كما أنه يرانا هو وجنوده من حيث لا نراهم قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾[١٠٧]. والعدو يكون أشد ضرراً وخطراً إذا كان يأتينا ويصوّبُ سهامه نحونا من حيث يرانا ولا نراه.

٥٤- الأمر باتخاذ الشيطان عدواً:

ولما كان الشيطان عدواً للإنسان، وقد يغفل عن عداوته أو لا يهتم بها فإن الله تعالى أمرنا أمراً تشريعياً تكليفياً باتخاذه عدواً لنا، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾[١٠٨]، أي فعادوه ولا تطيعوه[١٠٩]. ومن لوازم كونِ الشيطان عدواً لنا أن لا نتولاه، أي لا ننصره بطاعته ولا ننتصرُ به، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ

---

(١٠٧) سورة الأعراف من الآية ٢٧.

(١٠٨) سورة فاطر الآية ٦.

(١٠٩) تفسير القرطبي ج١٤ ص٣٢٣.

مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾[١١٠].

٥٥- ضرورة الحذر من الشيطان:

ومن لوازم أو مقتضيات عداوة الشيطان الثابتة لنا أن نحذره؛ لأنَّ العدو يُحْذَرُ، ولا يُؤمَنُ شرُه، ولا يُطمأنُّ له؛ لأنه يريد الإضرار والإيذاء بمن يعاديه، وهذا ما يريده الشيطان بعداوته للإنسان، والإضرار الذي يريده الشيطان بالإنسان هو إضلاله وحرفه عن الدين الحق - الإسلام -، وعن طاعة الله، ولا فعل أقبح ولا أضرَّ بالإنسان من الحيلولة بينه وبين طاعة الله[١١١].

هذا وإن عداوة الشيطان ظاهرة بينه، ولهذا وصفه الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾. قال الإمام القرطبي في تفسيره هذه الآية: «أخبر تعالى بأن الشيطان عدو، وخبره تعالى حق وصدق، فالواجب على العاقل أن يأخذ حذره من هذا العدو الذي قد أظهر وأبان عداوته من زمن آدم عليه السلام، وبذل نفسه وعمره في إفساد أحوال بني آدم، وقد أمر الله بالحذر منه، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾، وهذا غاية في التحذير من هذا العدو المبين»[١١٢].

والمقصود بالحذر من الشيطان الاحتراس، والاتقاء من شروره باليقظة الدائمة، والاحتراز عن الأسباب التي تحقق غرضه في الإضلال والإغواء.

والحذر، وهو وسيلة لاتقاء شرور الشيطان، واجب شرعي؛ لأنه من لوازم اتخاذ الشيطان عدواً، ولأنه وسيلة لمنع إضلاله، أو الوقاية من هذا الإضلال، ولبقاء المسلم على طاعة ربه، وهذه كلها تدخل في حيز الواجب؛ لأنها وسيلة لواجب البقاء على طاعة الله، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. وكذلك في قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ..﴾[١١٣] الآية تحذير واضح

---

(١١٠) سورة الكهف الآية ٥٠.

(١١١) تفسير القرطبي ج١٨ ص١٤١.

(١١٢) تفسير القرطبي ج٢ ص٢٠٩.

(١١٣) سورة الأعراف الآية ٢٧.

من الوقوع في إغواء الشيطان، وهذا يتضمن الأمر بأخذ الحذر المطلوب؛ لئلا يحصل مراد الشيطان، وهذا يعني وجوب الحذر منه.

٥٦- وجوب الحذر على الدعاة:

والحذر من الشيطان واجب شرعي على المسلم كما بينا، وهذا الوجوب آكَدُ على الدعاة من غيرهم؛ لأن الشيطان في غيظ شديد منهم لما يقومون به من دعوة إلى الله تعالى، وهو ما يؤذي الشيطان ويزعجه، فيبذل كل جهده للإيقاع بهؤلاء الدعاة وصرفهم عن الدعوة بأي وسيلة يستطيعها. والثغرة التي يلج منها الشيطان إلى الدعاة لصرفهم عن الدعوة هي غفلتهم عنه، وعدم حذرهم منه إما لوثوقهم من أنفسهم ومن إيمانهم، وإما لقصور معرفتهم بمكايد الشيطان. وعلاج السبب الأول وهو وثوقهم من أنفسهم وإيمانهم -فيكفي أن نذكرهم بقصة آدم وكيف استطاع الشيطان أن يستزله ويوقعه وزوجه في الخطيئة، والدعاة ليسوا أكثر إيماناً من آدم عليه السلام، قال تعالى محذراً: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ.. ﴾[١١٤]. وأما قصورهم في معرفة مكايد الشيطان، فعلاجه تدبر القرآن فيما ذكره من أساليب الشيطان وأفعاله في إغواء الإنسان، والتي سنذكر بعضها فيما بعد إن شاء الله تعالى. والذي يوقعهم فيه غالباً هو الحسد، والعجب بالنفس، والغرور والكبر، وهذه من الكبائر المهلكات التي يجب على الدعاة الحذر منها.

٥٧ - على جماعة الدعاة الحذرمن الشيطان:

وكذلك يجب على جماعة الدعاة الحذر من الشيطان ومكايده، والذي يوقعها فيه غالباً هو الحسد، والعجب بالنفس والرياء. فمن العجب الذي وقعت فيه جماعة المؤمنين ما جاء في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ ﴾[١١٥] أي فاعتمدتم على كثرتكم التي أعجبتكم حيث قلتم: لن نُغلَب اليوم من قلة فلم تغن عنكم شيئاً من أمر عدوكم مع

---

(١١٤) سورة الأعراف الآية ٢٧.

(١١٥) سورة التوبة الآية ٢٥.

قلتهم[116]. حيث حلّتْ بكم الهزيمة في أول المعركة، ووليتم مدبرين، ثم رجعتم إلى المعركة فكان النصر والظفر للمسلمين ببركة سيدنا محمد ﷺ حيث ثبت في المعركة مع نفر قليل جداً من المسلمين، فكان ثباته ﷺ سبباً لرجوع الفارين إليه، وقتالهم للمشركين، ثم انتصارهم عليهم - فبين الله تعالى في هذه الآية أن الغلبة تكون بتأييد الله وليس بكثرة عدد المسلمين[117].

٥٨- على جماعة الدعاةَ أن لا تعجب بنفسها:

وعلى جماعة الدعاة أن لا تقع في رذيلة «العجب بالنفس» لما ترى من كثرة أعضائها، ومنزلتها الرفيعة بين الناس، فتعتمد في بلوغ أهدافها على كثرة عدد أعضائها، ومكانتها عند الناس، ولا تتطلع إلى تأييد الله ونصره، فيتخلى الله عنها ويكلها إلى نفسها، ولا يمدها بتأييده فتهلِكُ. وهذا لا يعني أن جماعة الدعاة لا يجوز لها أن تحرص على تكثير عدد أعضائها، ولا على ترسيخ مكانتها في المجتمع، وإنما الذي أعنيه أن لا تعجب بنفسها عندما ترى تكاثر عدد أعضائها، وعلو منزلتها في المجتمع فيصيبها الغرور والعجب بالنفس فيكون اعتمادها في بلوغ أهدافها على كثرة أعضائها، وعلو منزلتها بين الناس، فتقع في الوهم والخطأ، لأن نصر المسلمين كان بطاعتهم لله، وتأييده لهم، وليس لكثرة عددهم، ولهذا فإن من عوامل فشل الجماعة إعجابها بنفسها، ومن عوامل نجاحها المهمة اعتمادها وتوكلها على الله تعالى بعد الأخذ بالأسباب الشرعية للنصر.

٥٩- وقوع جماعة الدعاة في رذيلة الرياء:

من الرياء الذي قد تقع فيه الجماعة المسلمة - بتزيين الشيطان - ما حذرنا الله منه ونهانا عن الوقوع فيه، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ .. ﴾[118]. أي لا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً أي فخراً بالشجاعة، ورئاء الناس أي طلباً للثناءِ بالسماحة والشجاعة. ومعنى الآية: لا يكن

---

(١١٦) تفسير القاسمي ج٨ ص١٥٣.

(١١٧) تفسير القرطبي ج٨ ص١٠٠.

(١١٨) سورة الأنفال، الآية ٤٧.

أمركم رياءً ولا سمعةً ولا التماس ما عند الناس. وعليكم بإخلاص النية لله في نصر دينكم[119]. فعلى الجماعة المسلمة أن لا تنطلق في أعمالها من منطلق طلب السمعة والرياء، وأن لا تنزلق في متابعة أهواء الناس على حساب مخالفة الشرع طلباً لثناء الناس عليها، ومدحهم لها؛ لأنها إن فعلت ذلك فقدت الإخلاص لله في عملها، وتخلى الله عنها، ووقعت في مخالفة الشرع في طلبها رضا الناس وثنائهم عليها، فيصيبها ما جاء في الأثر «من طلب رضا الناس بسخط الله أسخط الله عليه الناس ولم يرض عليه الله تعالى»؛ لأن رضا الله على عبده بقيامه بما يرضيه لا بما يسخطه.

٦٠- على الجماعة المسلمة أن تعلم أنها جماعة مسلمة:

وعلى الجماعة المسلمة، جماعة الدعاة إلى الله، أن تفقه جيداً بأنها جماعة مسلمة. ومعنى كونها «مسلمة» أنها تلتزم بأحكام الإسلام في جميع أعمالها وتصرفاتها وعلاقاتها مع الآخرين، وفي المواقف التي تقفها وتأخذها إزاء الأحداث المختلفة، وأن لا تلتفت إلى ما يهواه الناس، ويريدونه منها في هذه الأمور، إذا كان ما يهوونه ويريدونه مخالفاً للشرع. إن على الجماعة المسلمة أن تجعل ما قلناه قاعدة شرعية تثبت عليها، وتعمل بمقتضاها، ولا تحيدُ عنها أبداً.

المطلب الرابع
من مكايد الشيطان للإنسان

٦١- تمهيد:

إن غاية الشيطان ومقصده ومنتهى أمله ورغبته في الحياة أن يضل الإنسان بأن يوقعه في الكفر الصريح المخرج من الإسلام، أو إلى ما هو دون هذا الكفر من المعاصي إذا لم يستطع تكفيره. وعلى أساس هذا المطلب تدور جميع أعمال الشيطان، ووسائله التي يتوسل بها إلى تحقيق غرضه، وهو إضلال الإنسان بإبعاده عن دين الإسلام، أو بإخراجه منه إن كان قد دخل فيه، أو بدفعه إلى المعاصي والآثام إن لم يستطع إخراجه من الإسلام، أو تفويت العمل الفاضل عليه بتحسين العمل المقصود لديه.

---

(١١٩) تفسير القاسمي ج٨ ص٧٢-٧٣.

ومن أفعال الشيطان ووسائله التي هي مكايده للإنسان ما أخبرنا الله به في كتابه العزيز؛ لنحذر ذلك، ولا نقع فيه، ونذكر فيما يلي بعض مكايده في فروع متتالية.

الفرع الأول

التزيين: تزيين الشيطان

٦٢- المقصود بالتزيين:

المقصود (بالتزيين) الذي يسلكه الشيطان لإضلال الإنسان، تزيينه العمل الباطل في عين الإنسان، حتى يراه حسناً جميلاً مقبولاً عنده، وهو في الحقيقة قبيح وباطل ومخالف للشرع، فيدفعه الشيطان بهذا التزيين وهذا العمل الباطل إن كان متردداً في فعله، وإلى الثبات والاستمرار عليه إن كان متلبساً به وبفعله. وقد بيّن لنا القرآن الكريم هذا الأسلوب من الشيطان، قال تعالى: ﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[١٢٠]. أي زين وحسّن لهم الشيطان ما كانوا يعملونه من الشرك والمعاندة والمعاصي[١٢١].

ب- وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ.. ﴾[١٢٢]. أي زين لهم الشيطان أعمالهم في معاداة الرسول ﷺ والمؤمنين بأن وسوس إليهم وقال لهم: لا غالب لكم اليوم من الناس. أي من النبي ﷺ وأصحابه ﴿وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ﴾ أي مجير ومعين لكم. وقد ذكر أهل التفسير في هذا التزيين وجهين:

(أحدهما): أن الشيطان وسوس لهم ذلك من غير تمثيل في صورة إنسان.

(الثاني): أنه ظهر لكفار قريش في صورة إنسان، لأنهم لما أرادوا السير إلى بدر لقتال المسلمين إن لقوهم، خافوا من بني كنانة أن يأتوهم من ورائهم، فتمثل إبليس اللعين في صورة سراقة الكناني، وقال لكفار قريش: أنا جاركم من بني كنانة، فلا

---

(١٢٠) سورة الأنعام، الآية ٤٣.

(١٢١) تفسير القاسمي ج٦ ص٥٢٧.

(١٢٢) سورة الأنفال، الآية ٤٨.

يصل إليكم مكروه منهم، فقوله: ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ على الحقيقة، ومعنى الجار هنا الدافع للضرر عن صاحبه[123].

جـ - وقال تعالى حكاية عما قاله الهدهد لسليمان بشأن ملكة سبأ: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾[124] أي وزين لهم الشيطان أعمالهم، أي حسَّن لهم ما هم فيه من الكفر، ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾، أي عن طريق التوحيد[125].

٦٣- الابتداع في الدين من تزيين الشيطان:

ومن هذا الباب وبهذا الأسلوب، أسلوب التزيين، يزين الشيطان البدع في الدين في أعين المبتدعين، فيعملون بها، ويدعون إليها ويثبتون عليها وفي هذا ضلال لهم، وخطر عظيم عليهم؛ لأنهم بهذا الابتداع يسدون على أنفسهم باب التوبة؛ لأن من مقدمات التوبة ولوازمها أن يعرف مريد التوبة أنه يعصي الله ويخالف الشرع في عمله، فيتوب من ذلك، والمبتدع يعتقد أنه على حق، ويعبد الله في بدعته، ولا يخالف الشرع فيها، فكيف يتوب؟ ولهذا قال من قال من أهل العلم: البدعة شر من المعصية. ويريد بقوله هذا أن العاصي يرجى له التوبة؛ لأنه يعرف من نفسه أنه يعصي الله، والمأمول من المسلم أن يقلع عن معصيته، ويتوب إلى الله. أما المبتدع فإنه لا يرى نفسه يعصي الله في بدعته، فلا يتوب منها. وأيضاً فإن المبتدعين ينالهم شيء من معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[126]. قال ابن كثير رحمه الله في هذه الآية: «وهي عامة في كل من عبد الله تعالى على غير طريقة مرضية يحسب أنه مصيب فيها، وأن عمله مقبول، وهو مخطىء وعمله مردود»[127]. وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، أي عملوا أعمالاً باطلة على غير شريعة مشروعة مرضية، وهم يحسبون

---

(١٢٣) تفسير القاسمي ج٨ ص٧٣-٧٤.

(١٢٤) سورة النمل، الآية ٢٤.

(١٢٥) تفسير القرطبي ج١٣ ص ١٨٥.

(١٢٦) سورة الكهف الآيتان ٧٦ و٧٧.

(١٢٧) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٠٧.

أنهم يحسنون صنعاً، أي يعتقدون أنهم مقبولون بعملهم هذا عند الله[128].

٦٤- التزيين للجماعة المسلمة والدعاة:

الغالب في تزيين الشيطان للجماعة المسلمة وللدعاة، أنه يأخذ الأنماط التالية:

٦٥ - أولاً - تزيين العمل المفضول ليقدموه على العمل الفاضل، أو الواجب، كالاعتكاف في المساجد على المرابطةِ في ثغور المسلمين وكالإنفاق على زخرفة المساجد على الإنفاق على المجاهدين ومتطلبات الجهاد.

٦٦ - ثانياً - التوسع فيما يبنى على المصالح المرسلة، أو سدّ الذرائع إلى حدّ الوقوع فيما لا يجوز في الشرع.

٦٧ - ثالثاً - تزيين الشيطان الخروج على ضوابط القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على وجه الغلو، أو التقصير فيه، فمن الغلو فيه إزالة منكر يترتب عليه حتماً أو غالباً منكر أعظم منه. ومن التقصير فيه ترك النهي عن المنكر، مع مجالسة ومؤاكلة أهل هذا المنكر بحجة التلطف معهم عسى أن يقلعوا عن منكرهم مع أن التلطف لا يستلزم مجالستهم ومؤاكلتهم كأنهم أخلاء للداعية، وقد ذم الله تعالى بني إسرائيل لما وقع فيهم من مداهنة لأهل المنكر، وعدم الإنكار عليهم قال تعالى: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴾[129].

روى الإمام أحمد في معنى الآية عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لما وقعت بنو اسرائيل في المعاصي نهتهم علماؤهم، فلم ينتهوا، فجالسوهم في مجالسهم، أو في أسواقهم، وواكلوهم وشاربوهم، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ولعنهم على لسان داوود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون»، وكان رسول الله ﷺ متكئاً فجلس فقال: «لا، والذي نفسي بيده حتىٰ تأطروهم على الحق أطراً». أي تعطفوهم عليه. وأخرجه أبو داود عنه، فقال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١٢٨) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٠٧.

(١٢٩) سورة المائدة الآيتان ٧٨ و٧٩.

«إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول يا هذا اتِق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض» ثم قال: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ .. إلى قوله يَفۡعَلُونَ ﴾ ثم قال ﷺ: «كلا والله لتأمُرُنَّ بالمعروف ولتنهوُنَّ عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنَّهُ على الحق أطراً أو تقصرنَّهُ على الحق قصراً»(١٣٠).

٦٨- رابعاً - كما أنَّ تزيين الشيطان للجماعة المسلمة أو الدعاة قد يتجه إلى المبالغة في إعطاء الحكم الشرعي لما هو مطلوب شرعاً فعله، أو تركه، فيجعلون ما حكمه الشرعي الندب واجباً، وما حكمه الشرعي الكراهة محرماً، ثم يروحون يطلبون من الناس على وجه الحتم والإلزام عمل ما اعتبروه واجباً، وهو في حقيقته مندوب، كما يطلبون من الناس علىٰ وجه الإلزام ترك ما اعتبروه محرماً، وهو في الحقيقة مكروه، ثم يعادون ويوادون على هذا الأساس، فمن يترك مندوباً، أو يفعل مكروهاً هجروه وقاطعوه وعادوه كأنه ترك واجباً، أو فعل محرماً، وفات هؤلاء أن وصف الفعل بالوجوب أو الترك بالتحريم هو من باب التشريع، قال تعالى: ﴿ أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ ﴾ فالواجب ما أوجبَهُ الشرع، والمندوب ما رغبّ فيه الشرع واستحبه، ولم يلزم المكلفين به، والمحرم ما حرم الشرع فعله، والمكروه ما رغب الشرع في تركه، ولم يلزم المكلفين بتركه، فلا يحق لأي مسلم أن يجعل المندوب واجباً، والمكروه محرماً، ويطالب الناس بهما على هذا الأساس، أو يعادي ويصاحب على هذا الأساس. وبهذا التزيين من الشيطان تسبب هؤلاء بتوهين رابطة المسلمين، وتفريق كلمتهم مع أن وحدتهم والحرص عليها من فروض الإسلام، فلا يجوز التفريط بهذا الفرض من أجل فعل مندوب أو ترك مكروه.

٦٩- تزيين البدع:

تزيين البدع، وهذا أيضاً قد يوقعه الشيطان في الدعاة أو في الجماعة المسلمة،

---

(١٣٠) تفسير القاسمي ج٦ ص٣٢٧- ٣٢٨.

فيبتدعون طرائق ووسائل لجلب الناس إلى دعوتهم، والسماع منهم بلا دليل شرعي على مشروعية هذه الطرائق والوسائل. مع أن القاعدة في الشرع الإسلامي: ضرورة مشروعية الغايةِ والوسيلة.

٧٠- الوقاية من تزيين الشيطان:

أ- **الوقاية من تزيين الشيطان فيما يتعلق بتزيينه المعاصي**: تكون هذه الوقاية باستحضار رقابة الله عليه وأنه لا يجوز في الشرع ولا في العقل أن يطيع المسلم عدوه الشيطان ويعصيَ ربه الرحمن، وليتذكر المسلم، وكذلك الأخ الداعيةُ والجماعة المسلمة ما حلّ بآدم وزوجه نتيجة خداع الشيطان لهما، وطاعتهما له فيما زينه لهما من الأكل من الشجرة المحرمة.

ب- **أما تزيين الشيطان الإبتداع في الدين**: فالوقاية منه تكون بالالتزام بمضمون حديث رسول الله ﷺ «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردُّ- أي مردود» فلا فائدة من الابتداع على المبتدع؛ لأن الله تعالى لا يقبل العمل إلاَّ إذا كان صحيحاً وخالصاً لوجهه تعالى. والصحيح هو العمل المشروع، وليس من المشروع العمل المبتدع.

وعلى هذا فعلى الجماعة المسلمة أن تعرض أي عمل تريد القيام به، أو أي موقف تريد الوقوف عنده إزاء حدث معين، أن تعرض ذلك على الشرع، فما يقره الشرع فهو المشروع وما يرفضه فهو المرفوض، فتعمل بالمشروع، ولا تعمل بالمرفوض.

جـ- **أما الوقاية من تزيين الشيطان الخروج على قواعد القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**: فتكون الوقاية في هذه الحالة بالتمسك التام بهذه القواعد وعزل الهوى عنها، والاهتداء بما جاء في الشرع بشأن هذا الواجب- واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر-، وضوابط القيام به.

د- **أما الوقاية من تزيين الشيطان إعطاء الحكم الشرعي للفعل أو الترك حسب تهواه النفس**: فتكون هذه الوقاية باستحضار حق الله وحده بتشريع

الأحكام ومنها وصف الفعل أو الترك بالوجوب أو التحريم أو الندب أو الكراهية أو الإباحة، فلا يحق لكائن من كان أن يشارك الله في حقه في تشريع هذه الأحكام، وعلى المسلم أن يقف عند ما شرعه الله، فلا يعطى حكم الوجوب لما هو مندوب، ولا حكم التحريم لما هو مكروه. ويرجع إلى أهل العلم للتعرف على ما هو واجب أو مندوب وعلى ما هو محرم أو مكروه.

الفرع الثاني
تخويف المؤمنين بما يخاف منه

٧١-تمهيد:

من طبيعة الإنسان ومن غرائزه خوفه مما يؤذيه، أو مما يتوقع أن يضره ويؤذيه، ومن مقتضى هذا الخوف فرارُهُ منه، وإحجامه عن فعل ما يظنه مؤدياً إلى إيذائه، أو الإضرار به. والشيطان يستغل هذه الغريزة في المسلم، وينفذ منها إلى قلبه؛ ليصرفه عما يجب عليه فعله بإيهامه أن هذا الفعل يجلب له الأذى والضرر، فيطيعه الإنسان ويترك الفعل الذي فيه صلاحه ومنفعته. وقد بيّن لنا القرآن الكريم من أمثلة كيد الشيطان واستغلاله هذه الغريزة في الإنسان تخويفه المؤمنين من الفقر، وتخويفه لهم من أوليائه، ونتكلم فيما يلي على هذين النوعين من التخويف.

٧٢- أ- تخويف المؤمنين بالفقر:

من طبيعة الإنسان ومن غرائزه أنه كثير الحب للمال قال تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾[١٣١] وقال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ . . ﴾الخ[١٣٢] والشهوات ها هنا هي الأشياء المشتهيات، ومنها القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، والقنطار مال كثير يتوثق الإنسان به في دفع أصناف النوائب، و(المقنطرة) للتأكيد كقولهم ألف مؤلفة. وإنما كان الذهب والفضة محبوبين؛ لأنهما جعلا ثمن جميع الأشياء، وبهما يحصل

---

(١٣١) سورة الفجر، الآية ٢٠.

(١٣٢) سورة آل عمران، الآية ١٤.

الإنسان على ما يشتهي، وما يريده من هذه الأشياء، فالمالك لهما كالمالك لجميع الأشياء[١٣٣]. وبناء على حب الإنسان للمال، فإنه يحرص على حفظه وإبقائه في يده، وزيادته وعدم القناعة بالموجود عنده وإن كان كثيراً، جاء في الحديث النبوي الشريف «لو كان لابن آدم واديان من ذهب لا بتغىٰ لهما ثالثاً، ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب» أو كما قال ﷺ. وبسبب هذه الغريزة، غريزة حب المال وما ترتب عليها من الحرص في إمساكه والاستزادة منه يقع الإنسان في رذيلة البخل. والذي يضعف هذه الغريزة ويمنع أثرها هو (الإيمان). فإذا ضعف الإيمان قويت هذه الغريزة في الإنسان، وانفتحت ثغرة في نفسه ينفذ منها الشيطان بوسوسته وإيحائِهِ له بأن الإنفاق ولو كان في مرضاة الله طريقٌ إلى استهلاك المال وضياعه وبالتالي إلى الفقر الذي يفقد معه القدرة على تحقيق رغباته وشهواته، وهكذا يقع الإنسان في شباك الشيطان وخداعه فلا ينفق من ماله حيث يجب عليه الإنفاق، فيكون طائعاً للشيطان عاصياً للرحمن، قال تعالى في تخويف الشيطان للمؤمنين بالفقر: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[١٣٤] والمعنى أن الشيطان يخوفكم بالفقر؛ ليمنعكم من الإنفاق في مرضاة الله تعالى، وهو مع ذلك يأمركم بالمعاصي والإنفاق فيها. والله يعدكم مغفرة منه لذنوبكم، وفضلاً منه، أي خلفاً لما أنفقتم من أموالكم وثواباً في الآخرة. ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ فهو تعالى واسع قدرةً وفضلاً، فيحقق ما وعدكم به من المغفرة ومن الرزق عوض ما أنفقتم وتنفقون، عليم بصدقاتكم وإنفاقكم فلا يضيع أجركم[١٣٥]. فالشيطان يخيل للمؤمنين بوسوسته أنَّ الإنفاق في سبيل الله يُذهب المال، ويفضي إلى سوء الحال فلا بد من إمساكه، والحرص عليه خوفاً من طروء الحاجات في المستقبل[١٣٦]. فعلى المؤمن أن يطرد هذه الوسوسة بأن يتذكر قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

---

(١٣٣) تفسير الرازي ج٧ ص١٩٥-١٩٧.

(١٣٤) سورة البقرة، الآية ٢٦٨.

(١٣٥) تفسير ابن كثير ج١ ص٣٢١، تفسير القرطبي ج٣ ص٣٢٨، تفسير القاسمي ج٣ ص٣٤٤.

(١٣٦) تفسير المنار ج٣ ص٧٤.

٧٣- ب- تخويف الشيطان المؤمنين بأوليائه:

أولياء الشيطان هم أنصاره وأتباعه وأحباؤه، وهؤلاء قد يكون بيدهم أو بيد أحدهم الإمرة والسلطان داخل المجتمع. وقد يكونون خارج المجتمع الإسلامي وخارج الدولة الإسلامية. والشيطان قد يُخوف المؤمنين بأوليائه هؤلاء بأن يُلقِي في قلوبهم الخوف منهم، فيمنعهم ويثبطهم عن القيام بواجب الشرع نحوهم، كواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو يمنعهم من مواجهتهم ودفع اعتدائهم، فيقع المؤمنون في رذيلة الجبن والتقصير في حق الشرع، قال تعالى في هذا النوع من تخويف الشيطان للمؤمنين: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾(١٣٧) أي: يخوفكم بأوليائه أو من أوليائه(١٣٨)، ويوهمكم أنهم ذوو بأس وذوو شدة. قال تعالى: ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ إذا أوهمكم الشيطان بقوة أوليائه فلا تخافوهم، وتوكلوا عليّ، والتجئوا إليّ، فإني كافيكم وناصركم عليهم، وخافوني في مخالفة أمري إن كنتم مؤمنين(١٣٩). وقد تحقق ذلك في المؤمنين من أصحاب رسول الله ﷺ فقد قال تعالى فيهم: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾(١٤٠). وقد جاء في تفسير هذه الآيات وفي سبب نزولها ما خلاصته: أن المشركين لما أصابوا ما أصابوا من المسلمين في معركة أحد، وأرادوا الرجوع إلى بلادهم، حدثتهم أنفسهم بالرجوع إلى المدينة، ومحاربة المسلمين، واستئصالهم، وعزموا على تنفيذ ذلك. فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ ندّب المسلمين إلى الذهاب وراءهم وملاحقتهم؛ ليرعبهم ويُريهم أنَّ لهم قوة وجلداً. ولم يأذن رسول الله ﷺ بالخروج معه لملاحقة المشركين إلا لمن اشترك في معركة أحد، ولم يستثنِ أحداً من هذا الشرط سوى جابر بن عبد الله أَذِنَ له بالخروج وإن لم يكن قد حضر معركة أحد، لعذر قبله رسول

(١٣٧) سورة آل عمران، الآية ١٧٥.

(١٣٨) تفسير القرطبي ج٤ ص٢٨٢.

(١٣٩) تفسير ابن كثير ج١ ص٤٣١.

(١٤٠) سورة آل عمران، الآيتان ١٧٢، ١٧٣.

الله ﷺ، فخرج المسلمون على ما بهم من الجراح طاعة لله ولرسوله ﷺ. ولما قيل لهم: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ﴾ أي لما قيل لهم: إن الأعداء - أبا سفيان وأصحابه وجنده - قد جمعوا لكم الجموع لقتالكم، فاخشوهم أي فكونوا خائفين منهم، لم يلتفوا إلى هذا التخويف، ولم يقيموا له وزناً بل زادهم هذا التخويف إيماناً، وأحدث في قلوبهم عزماً على محاربة الكفار، وعلى طاعة الرسول ﷺ في كل ما يأمر به، وينهىٰ عنه بالرغم مما كان في بعضهم من الجراحات العظيمة التي أصابتهم في معركة أحد، ومع هذا العزم الأكيد على محاربة الكفار قالوا: ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ أي كافينا الله، ونعم الوكيل أي ونعم الكافي(١٤١).

٧٤- تخويف الشيطان للمؤمنين بقوة السلطان الجائر:

ومن تخويف الشيطان للمؤمنين بأوليائه: أن يخوفهم بقوة السلطان الجائر حتى يمنعهم من الإنكار عليه، بل وحتى النصح له. ومن هذا التخويف أيضاً تخويفه للمؤمنين بقطع أرزاقهم إذا استمروا بالإنكار على رؤسائهم، كما لو كانوا موظفين في الدولة ورؤساؤهم عصاة يتولون الشيطان، ويتولاهم الشيطان، فتخويفهم بقطع أرزاقهم أي بطردهم من وظائفهم، وبالتالي حرمانهم من مصدر رزقهم، وهذا النوع من التخويف يمكن اعتباره من التخويف بالفقر، ويفعله الشيطان لمنعهم من الإنكار الواجب على رؤسائهم، كما يمكن اعتباره من التخويف بأوليائه.

٧٥- تخويف الشيطان للدعاة وللجماعة المسلمة:

والشيطان يسلك مسلك التخويف مع الدعاة والجماعة المسلمة ويأخذ تخويفُهُ لهم المسالك التالية:

أولاً - يخوفهم بالفقر ليمنعهم ليس فقط من الإنفاق المستحب في مرضاة الله تعالى، وإنما ليمنعهم من الإنفاق الواجب عليهم شرعاً. وهذا مسلك للشيطان يسلكه مع جميع المؤمنين، وليس قاصراً على الدعاة والجماعة المسلمة، جماعة الدعاة.

ثانياً - يخوفهم بقطع سبل رزقهم إذا قاموا بواجب الإنكار على الحكام وذوي

---

(١٤١) تفسير الرازي ج٩ ص٩٧-١٠١، وتفسير ابن كثير ج١ ص٤٢٧-٤٣٠.

السلطان، لما يسببه لهم هذا الإنكار من قطع سبل أرزاقهم بفصلهم من وظائفهم في الدولة، أو بتضييق سبل الكسب عليهم، أو بقطع المعونات المالية عن الجماعة المسلمة التي تستحقها من أوقاف المسلمين.

ثالثاً- يخوفهم بالأذى الذي ينتظرهم وبحلٍّ الجماعة المسلمة، ومنعهم من مزاولة عملهم في الدعوة إلى الله، إذا قاموا بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نحو الحكام وذوي السلطان أو نحو عموم الناس.

٧٦- الوقاية من تخويف الشيطان بالفقر:

وتخويف الشيطان بالفقر لعموم المؤمنين، ومنهم الدعاة والجماعة المسلمة؛ لمنعهم من الإنفاق في مرضاة الله تعالى، سواء كان هذا الإنفاق واجباً أو مستحباً، بإيهام الشيطان لهم أن هذا الإنفاق يستهلك أموالهم، وبالتالي يوقعهم في الفقر، ومع الفقر الحاجة إلى الناس. والوقاية من هذه الوسوسة الشيطانية أن يتذكر الدعاة ما يأتي، ويذكّروا به عموم المسلمين في وعظهم وتعليمهم، ويجعلوا هذا التذكير من مواضيع الدعوة إلى الله تعالى.

٧٧- أ - المال مال الله:

إن المال بيد الإنسان هو مال الله في الحقيقة، وإنما صار بيد الإنسان بتقدير الله وشرعه، وصارت له حرية التصرف فيه، والانتفاع به بإذن المالك الحقيقي له وهو الله تعالى. فإذا أمر الله تعالى بالإنفاقِ من هذا المال في الأوجه التي عينها، فما على الإنسان إلا المبادرة إلى التنفيذ؛ لأن الله هو المالك الحقيقي لهذا المال وللمالك الحق في التصرف في ماله. وقد دلّ على ما قلناه من أنَّ المال هو في الحقيقة مال الله وملكه قوله تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾[١٤٢]. وقال تعالى: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[١٤٣]. أي آمنوا الإيمان اليقيني؛ ليظهر أثره عليكم فيسهل عليكم الإنفاق من مال الله الذي موّلكم إياه، وجعلكم مستخلفين فيه بتمكينكم على التصرف فيه بحكم

---

(١٤٢) سورة النور من الآية ٣٣.

(١٤٣) سورة الحديد من الآية ٧.

الشرع، إذ الأموال كلها لله. وفي هذا البيان حث على الإنفاق وتهوين له[١٤٤].

٧٨- ب - الإنفاق قبل فوات الأوان:

قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[١٤٥]. في هذه الآية حثٌّ على الإنفاق في طاعة الله تعالى، والتحذير من التفريط في هذا الإنفاق؛ لئلا يندم المفرط عند الاحتضار، ويسأل تأخير موته ولو شيئاً يسيراً؛ ليستدرك ما فاته من الإنفاق في مرضاة الله تعالى، ولكن هيهات هيهات، فلن يؤخر الله تعالى موت نفس إذا جاء أجلها[١٤٦]. ويقول سيد قطب رحمه الله تعالى في هذه الآية: ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم﴾ يذكّرهم الله تعالى بمصدر هذا الرزق الذي في أيديهم، فهو من عند الله الذي آمنوا به والذي يأمرهم بالإنفاق منه ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾، فيترك كل شيء وراءه لغيره، وينظر فلا يجد أنه قدّم شيئاً لنفسه، وهذا أحمق الحمق وأخسر الخسران. ثم يرجو حينئذ ويتمنى أن لو كان قد أُمهل؛ ليتصدق، وليكون من الصالحين ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾[١٤٧].

٧٩- وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه:

قال تعالى: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾[١٤٨] أي ما أنفقتم من شيء في طاعة الله تعالى فهو يخلفه عليكم، أي يعطيكم خلفه وبدله، وذلك البدل إما في الدنيا، وإما في الآخرة[١٤٩]. فالمنفق رابح غير خسران في جميع الأحوال.

---

(١٤٤) تفسير القاسمي ج١٥ ص١٦.

(١٤٥) سورة المنافقون الآيتان ١٠، ١١.

(١٤٦) تفسير ابن كثير ج٤ ص٣٧٣.

(١٤٧) في ظلال القرآن مجلد ٦ ص٣٥٨٠.

(١٤٨) سورة سبأ، الآية ٣٩.

(١٤٩) تفسير القرطبي ج١٤ ص٣٠٧.

٨٠ - د - إن الله هو الرازق ذو القوة المتين:

وأما ما يوسوس به الشيطان، ويقذفه في قلب الداعية من تخويفه بقطع أسباب رزقه إذا هو أنكر على الحكام، وذوي السلطان، وذلك بفصله من وظيفته في الدولة، أو بتضييق سبل الكسب عليه، فهذه الوسوسة يمحقها الداعية بعون الله تعالى بأن يتذكر إخبارات الرب جل جلاله، ووعوده بإيصال الرزق لكل إنسان. ومن هذه الإخبارات ما يأتي:

١- قال تعالى: ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا ﴾[١٥٠]. فهذه الآية الكريمة تبين لنا أن الله تعالى تكفل بإيصال الرزق إلى كل دابة في الأرض، ويدخل الإنسان في هذا الوعد الصادق[١٥١]. وما تكفل الله بإيصاله لن يستطيع مخلوق أن يمنعه من مستحقه، فإذا فصلت الدولة الداعية من وظيفته، أو ضيقت عليه سبل الكسب، فهذا لا يعني أنها قطعت الرزق عنه؛ لأن رزقه غير محصور بوظيفته، فالله تعالى يهيىءُ للإنسان من سبل الرزق ما يحقق وعده فيه وإيصال رزقه إليه.

٢- وقال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ ﴾[١٥٢]. فكم من دابة لا تطيق جمع رزقها، ولا تحصيله، ولا تدخر شيئاً لغدٍ، ولكن الله تعالى يقيض لها رزقها على ضعفها، وييسره عليها، فكذلك يرزقكم الله أيها الناس، فتوكلوا عليه في تحصيل رزقكم[١٥٣].

٣- وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ ﴾[١٥٤]. أي من يتق الله بالوقوف عند حدوده، وتنفيذ ما أمر به، وترك ما نهى عنه، فإن الله تعالى يجعل له من أمره وضيقه مخرجاً، ويرزقه من حيث لا يحتسب،

---

(١٥٠) سورة هود، الآية ٦.

(١٥١) تفسير القرطبي ج٩ ص٦، تفسير القاسمي ج٩ ص٩٤.

(١٥٢) سورة العنكبوت الآية ٦٠.

(١٥٣) تفسير ابن كثير ج٣ ص٤٢٠، تفسير الرازي ج٢٥ ص٨٧.

(١٥٤) سورة الطلاق الآية ٣.

أي من جهة لا تخطر بباله[155].

٨١- من تخويف الشيطان للجماعة المسلمة:

من تخويف الشيطان للجماعة المسلمة بقطع المعونات المالية عنها من أوقاف المسلمين إذا خاصمت الحكام الموالين للشيطان، فهذا التخويف تدفعه الجماعة المسلمة باستحضارها أَنَّ اعتمادها فيما تحتاجه من مال على الله تعالى، ثم على ما يتبرع به أعضاؤها، فإذا منعهم الحكام من استحقاقها من غلة أوقاف المسلمين، فلا يثبطها هذا المنع من قيامها بواجب الدعوة نحوهم، ونحو عموم المسلمين.

٨٢- الوقاية من تخويف الشيطان المؤمنين بأوليائه.

وهذا التخويف من الشيطان للؤمنين بأَوليائه يتمثل بما يلقيهِ من وسوسة في قلوب الدعاة من وقوع الأذى بأبدانهم، أو بحريتهم، أو بأموالهم، أو بحلّ الجماعة المسلمة إذا استمروا في عملهم في الدعوة إلى الله تعالى.

والوقاية من هذا النوع من التخويف تكون باستحضار، واستيعاب، وتذكّرِ وفَهْمِ ما يأتي:

٨٣- أ- قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا.

نحن معاشر الدعاة إلى الله يجب أن نتذكر قول الله تعالى: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[156]. فنحن تحت مشيئة الله وقدره، ولن يصيبنا خيرٌ ولا شر، ولا شدّة ولا رخاء، ولا خوف ولا أمن إلا وهو مُقَدرٌ علينا مكتوب عند الله، ﴿ هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ ﴾ أي سيدنا وملجؤنا. ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾، فلا نتوكل إلا عليه، ولا نطمع إلا بفضله ورحمته، فنحن متوكلون عليه وهو حسبنا ونعم الوكيل[157].

وفي الحديث النبوي الشريف: «واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروك

---

(١٥٥) تفسير ابن كثير ج٤ ص٣٧٩.

(١٥٦) سورة التوبة الآية ٥١.

(١٥٧) تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٦٢ وتفسير الرازي ج١٦ ص٨٥-٨٦.

بشيء لن يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، ولو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لن ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك. رفعت الأقلام وجفّتِ الصحف».

٨٤- ب- الدعوة إلى الله جهاد:

والدعوة إلى الله تعالى جهاد في سبيله، والجهاد مدافعة للباطل وأهله، ونصرة للحق وأهله، وهو أنواع، ومنه جهاد بالكلمة المسموعة والمقروءة. والجهاد بطبيعته ومن لوازمه لحوق الأذى والضرر بالمجاهدين في أبدانهم وحرياتهم وأموالهم، ولكن لا ينبغي أن يكون هذا الأذى المحتمل الوقوع مانعاً من الدعوة إلى الله، ألا يُرَى أن أهل الباطل يدافعون عن باطلهم بأنفسهم وأموالهم، ويتحملون الأذى في سبيل باطلهم؟ ألسنا نحن معاشرَ المسلمين والدعاة منهم على وجه الخصوص أولى من أهل الباطل في تحمل الأذى في سبيل الدعوة، ونحن نرجو الثواب من الله تعالى وهم لا يرجونه؟ لقد نبّه القرآن إلى هذا المعنى فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾[158].

٨٥- سنة الله في الابتلاء:

لقد جرت سنة الله في الابتلاء أنه يصيب المؤمنين لا سيما الدعاة منهم؛ ليظهر الصادق منهم في إيمانه من غير الصادق. وهذه السنة الإلهية كما جرت في السابق تجري في الحاضر والمستقبل قال تعالى[159]:

١- في سورة العنكبوت: ﴿ الم ۝ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾.

٢- وفي سورة البقرة: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾.

---

(١٥٨) سورة النساء الآية ١٠٤.

(١٥٩) من سورة العنكبوت، الآيتان ١و ٢، ومن سورة البقرة الآية ٢. ومن سورة محمد الآية ٣١ ومن سورة آل عمران الآية ١٨٦.

٣- وفي سورة محمد: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴾.

٤- وفي سورة آل عمران: ﴿ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾.

٨٦- د- الجهاد بالقول أيسر من الجهاد بالنفس:

وعلى الدعاة أن يعلموا ويتذكروا دائماً أنَّ جهادهم هو بالقول، والجهاد بالقول أيسر من الجهاد بالنفس «أي بالقتال»، وقد حثَّ الله تعالى المسلمين على الجهاد بالنفس، وعاتب المتقاعسين عنه، وهدد المستمرين على تباطئهم عن الجهاد بالنفس، هددهم بالعذاب والإتيانِ بغيرهم؛ لنصرة دينه، والجهاد بالنفس في سبيله سبحانه وتعالى. فالدعاة بالقول أولى بهذا العتاب والتهديد إذا تركوا الدعوة، وتأثروا بتخويف الشيطان لهم بأوليائه. قال تعالى في عتابه للمتباطئين عن الجهاد بالنفس: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾. وهذا شروع في عتاب من تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك حين طابت الثمار والظلالُ في شدة الحرّ، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أي: إذا دعيتم إلى الجهاد في سبيل الله ﴿ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ أي: ما لكم فعلتم هكذا؟ أَرِضاً منكم بالدنيا بدلاً من الآخرة؟ ﴿ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾، كما قال ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبعه هذه في اليم فلينظر بم ترجع»، وقوله: ﴿ وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ أي يأتي بغيركم ينصرون دينه. ﴿ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ ﴾ أي لا تضرون الله شيئاً بتوليكم عن الجهاد ونكولكم وتثاقلكم عن الجهاد. ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أي قادر على الانتصار من الأعداء بدونكم»[١٦٠].

فعلى الدعاة، وهم يدعون بالقول ويجاهدون به، الثبات على جهادهم هذا

---

(١٦٠) تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٥٧-٣٥٨ والآيتان في سورة التوبة ورقمهما ٣٨و٣٩.

والاستمرار عليه، وعدم الالتفاتِ إلى تثبيط الشيطان لهم، وتخويفهم بالأذى الذي يلحقهم من أعوان الشيطان وأوليائه؛ لأن هذا الأذى مهما عظم فهو أقل من الأذى الذي يلحق المجاهدين بأنفسهم، ومع هذا عاتب هؤلاء المجاهدين بأنفسهم على تباطئهم عن هذا الجهاد.

٨٧- هـ- الجهاد للمسلم خير عظيم:

والجهاد على ما فيه من أذى هو خير للمسلم في ميزان الإسلام، وهذا في الجهاد ببذلِ المال والنفس، فأولى أن يبادر الداعية إلى جهاده بالقول. وفيه أيضاً أجر عظيم، ولا يلتفتَ إلى وسوسة الشيطان وتخويفه بما يصيبه من أذى بسبب الدعوة، قال تعالى في الحث على الجهاد بالنفس والمال: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي انفروا إلى هذا الجهاد كهولاً وشباباً، في حال عسركم ويسركم، وغناكم وفقركم[١٦١]. فإذا كان هذا الأمر الرباني بالجهاد بالمال والنفس بهذه الصيغة من العموم التي شملت الجميع من الكهول والشباب، وفي حال الشدة والرخاء، فمن باب أولى أن يشمل هذا الأمر العام بالجهاد ما هو دون الجهاد بالنفس، وأعني به الجهاد بالقول، أي الدعوة إلى الله باللسان، وإن نتج عنه أو ترتب عليه شيء من الأذى، فهو أذىً أقل من أذى الجهاد بالنفس «أي القتال»، فلا يجوز للدعاة أن يتركوا الدعوة إلى الله تعالى بسبب ما قد يلقَوْنه من أذىً في سبيل الله.

٨٨- و- حلّ الجماعة المسلمة لا يعني ترك الدعوة:

وتخويف الشيطان الجماعة المسلمة بحلّها من قبل أوليائه أولي السلطان إذا استمرت بالدعوة إلى الله، والقيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أقول: هذا التخويف من الشيطان للجماعة المسلمة، جماعة الدعاة، لا يجيز لها ترك العمل للدعوة إلى الله، بل عليها أن تمضي في طريقها حتى ولو تعرضت إلى الحلّ، وسحب الصفة القانونية عنها؛ لأن القيام بالدعوة إلى الله تعالى واجب شرعي على كل مسلم ومسلمة.

---

(١٦١) تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٥٩، والآية في سورة التوبة ورقمها ٤١.

٨٩- القيام بواجب الدعوة لا يتوقف على إذن من الدولة:

وهذا الواجب لا يتوقف القيام به على إذن من الدولة، ولا على ضرورة تكوين «جماعة» تعترف بها الدولة؛ لأنَّ الإذن قد حصل لها من رب العالمين عندما جعل القيام بالدعوة إليه من لوازم الإيمان، ومن لوازم اتّباع رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ نعم، إن قيام الجماعة المسلمة، جماعة الدعاة إلى الله، بإذن من الدولة أمر مفيد لها حتىٰ لا يتعرض لها أحد بالسوء، ولكن لو قُدِّر أنها لم تُمْنَح الإذنَ من الدولة، فهذا لا يمنع قيامها بواجب ا لشرع، واجب الدعوة إلى الله تعالى. وإذا ضاق عليها الأمر ولم تستطع القيام بتكوين الجماعة المسلمة، فالدعوة إلى الله ليست متوقفة على قيامها، لأنها كالصلاة، تؤدّىٰ جماعة، وهذا أمر مشروع وجيد ويأتي للمصلي بالثواب العظيم، ثواب صلاة الجماعة، فإذا تَعَسَّرَ أداء الصلاة جماعة، فعلى المسلم أن يصلي منفرداً ولا يجوز أن يتركها بحجة تعذر أو تعسر أدائها جماعة.

٩٠- الدعوة إلى الله تؤدّىٰ بطريقتين:

وكذلك الدعوة إلى الله تعالى تؤدى بصفة جماعية، وتؤدى بصفة فردية. وأداؤها بصفة جماعيّة هو أن يقوم بها المسلم من خلال انضمامه إلى جماعة الدعاة وصيرورته عضواً فيها، وقيامه بالدعوة بالكيفية التي تختارها الجماعة، جماعة الدعاة إلى الله، لأنَّ هذا العمل الجماعي هو من نوع التعاونِ على البرّ والتقوى، ومثل هذا التعاون جاء الأمر الشرعي به، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ . .﴾، فإذا تعذر مثل هذا العمل الدعويّ من خلال جماعة، لم يسقط واجب الدعوة إلى الله. وإنما على المسلم أن يقوم به بصفته الفردية، وبما يختاره هو من وسائل وأساليب الدعوة إلى الله. فعمل المسلم في الدعوة إلى الله، أي في كيفية أدائه لواجب الدعوة إلى الله، يكون بإحدى صفتين:

(الأولى): أداء هذا الواجب من خلال تعاونه مع جماعة الدعاة في الدعوة إلى الله وفق المنهج الذي تضعه هذه الجماعة.

و(الثانية): أداء هذا الواجب بصورة فردية، فيقوم المسلم بأداء هذا الواجب

باجتهاده واختياره مهتدياً في عمله بقواعد الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، التي بيَّنَها الفقهاء رحمهم الله تعالى.

٩١- الدعوة إلى الله لا تسقط عن المسلم:

الدعوة إلى الله لا تسقط عن المسلم بحال من الأحوال، وهي كما مثلتُ بالصلاة، فالصلاة واجبة على المسلم، وأداؤها مع الجماعة أكثر أجراً وأعظم ثواباً، فإذا تعذر القيام بها جماعة أداها المسلم منفرداً وناله الأجر. وربما أجر الصلاة في جماعة؛ لأنه معذور عن أدائها في جماعة، قياساً على القاعدين عنِ الجهاد لعذر شرعي، كما جاء في الحديث الصحيح الذي ذكره ابن كثير في تفسيره بشأن المتخلفين عن غزوة تبوك لعذر شرعي، فقد جاء في هذا الحديث أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنّ بالمدينة أقواماً ما قطعتم وادياً ولا سرتم سيراً إلا وهم معكم، قالوا: وهم بالمدينة؟ قال: نعم، حبسهم العذر» رواه الإمام مسلم، وفيه قال ﷺ: «لقد خلفتم في المدينة رجالاً ما قطعتم وادياً ولا سلكتم طريقاً، إلا شركوكم في الأجر حبسهم المرض»[١٦٢].

الفرع الثالث
إيحاء الشيطان للإنسان بالأماني الكاذبة

٩٢- تمهيد:

ومن أساليب الشيطان في كيده للإنسان إيحاؤه له بالوعود والأماني الكاذبة؛ ليصرفه عن الحق، ويوقعه في الغفلةِ عن الله وعصيانه، قال تعالى حكاية عن عزم إبليس في إضلال بني آدم، وقذف الأماني الباطلة في قلوبهم، قال تعالى: ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ . . ﴾[١٦٣]، ثم قال تعالى مخبراً عن واقع إبليس في سلوكه هذا مع بني آدم ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾[١٦٤].

---

(١٦٢) تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٨٢.
(١٦٣) سورة النساء من الآية ١١٩.
(١٦٤) سورة النساء الآية ١٢٠.

٩٣- المقصود بالأمانيّ:

الأمانيُّ جمع أمنية، يقال: تمنىٰ الشيء إذا أحب أن يكون له وإن لم يتخذ له أسبابه، كما يتمنى المقامر الثروة بالمقامرة، وهي ليست سبباً طبيعياً للغنى[١٦٥].

وقوله تعالى: ﴿ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ ﴾ أي لأُزيننَّ لهم الاستعجال باللذات الحاضرة، والتسويف بالتوبة، والعمل الصالح، وأَغرنَّهم من أنفسهم، وأمنّينَّهم بطول الأعمار، وبلوغ الآمال ونحو ذلك من الأماني الباطلة[١٦٦].

٩٤- اختلاف الأماني باختلاف الأشخاص والأحوال:

وأماني الشيطان التي يقذفها في قلب الإنسان ليست واحدة، وإنما تتنوع وتختلف باختلاف الأشخاص والأحوال، قال الإمام القرطبي في قوله تعالى ﴿ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ ﴾: (وهذا لا ينحصر بواحدة من الأماني؛ لأن الشيطان يمنّي كل إنسان بنوع من الأماني، وبقدر رغبته فيما يهواه)[١٦٧]. ومن الأمثلة على ذلك أنّ من يغريه الشيطان بالقمار يمنيه بالثروة والغنى، ومن غلبت عليه شهوته في الزنا يمنيه الشيطان بالتوبة مستقبلاً، وأَنْ لا بأس عليه في استمراره على الزنا؛ لأنه شاب وأمامه زمن طويل يستطيع فيه أن يتدارك ما ارتكبه من الزنا، وذلك بالتوبة وإن تأخرت وهكذا[١٦٨].

٩٥- أماني الشيطان ووعوده غرور:

قال تعالى إخباراً عن واقع الشيطان: ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾[١٦٩]، أي يعدهم - يَعِدُ أولياءه - ويمنيّهم بأنهم هم الفائزون في الدنيا والآخرة، وأنهم على خير كثير. وقد كذب عدو الله وافترى في ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ أي باطلاً يفترون به، ولا يملكون منه ما

---

(١٦٥) تفسير المنار ج٥ ص٤٢٧.

(١٦٦) تفسير المنار ج٥ ص٤٢٧، تفسير ابن كثير ج١ ص٥٥٦، تفسير القاسمي ج٥ ص٢٧٨.

(١٦٧) تفسير القرطبي ج٥ ص٣٨٩.

(١٦٨) تفسير المنار ج٥ ص٤٣٠.

(١٦٩) سورة النساء الآية ١٢٠.

يحبون، وإيهامهم بنفع شيء ليس فيه إلا الضرر. فالشيطان عمدته في كيده للإنسان إنما هو في وعوده الباطلة له، وفي أمانيه الكاذبة يلقيها في قلبه، وتلك الوعود والأمانيُّ لا تفيد الإنسان إلا غروراً. والغرور هو ما يُرَى له من ظاهرٍ محبوب، ولكن فيه باطن مكروه، أو هو أن يَظُنَّ الإنسانُ بالشيء أنه نافع ولذيذٌ، ثم يتبين اشتماله على أعظم الآلام والمضار، فيعظُمُ تأذيه عند انكشاف الحال فيه(١٧٠).

٩٦- الجماعة المسلمة وما يمنيها به الشيطان:

ليست الجماعة المسلمة بنجوةٍ من إيحاء الشيطان ووسوسته لها بالأماني الكاذبة، فهو قد ينفث في صفوفها وفي قلوب أفرادها بأنَّ الجماعة وصلت إلى ما كانت تأمله وترجوه من القوة والمنعة وعلو المنزلة بين الناس، وبناء على ذلك، فعليها أن تتحول من مرتبة تغيير المنكر باللسان إلى مرتبة تغييره باليد.. فتدفع بأعضائها إلى مواجهة الباطل وأهله لقمعه وقمعهم بالقوة، مع أنها لم تبلغ مرتبة تغيير المنكر باليد، فتقع وتوقع أفرادها في الكارثة والضرر العظيم، فليحذر القائمون على جماعة الدعاةِ من هذا النفث الشيطاني في قلوبهم، لأنَّ تغيير المنكر يكون وفق القواعد والضوابط الشرعية، وليس جرياً وراء الأهواء النفسية وأماني الشيطان الكاذبة.

المطلب الخامس
وسائل الوقاية العامة من الشيطان

٩٧- تمهيد:

الشيطان عدو مبين للإنسان، كما أخبرنا الله تعالى عنه، وأمرنا بالحذر منه، وإن عداوته لبني آدم عداوة دائمة أعلن عنها اللعين منذ خَلَقَ الله آدم، وبيَّنَ - لعنه الله - أساليبه في إضلال الإنسان وإغوائه، وأنَّ هذا هو همّه وغاية مقصده في عداوته للإنسان، إلا أنَّ هذا العدوَّ لا ينال بغيته من الإنسان إلا إذا مكّنه الإنسان من نفسه بترك الوقاية منه، وفتح الثغرات له لينفذ منها إلى إغوائه، إن الشيطان كاللص الماهر

---

(١٧٠) تفسير ابن كثير ج١ ص٥٥٦، تفسير الرازي ج١١ ص٤٨و تفسير القرطبي ج٥ ص٣٨٩ تفسير القاسمي ج٥ ص٤٨٤.

الذي يراقب البيت ليسرقه، فإذا وجد غفلة من صاحب البيت ، أو انشغالاً عن حراسته هجم عليه اللص، واقتحم البيت وسرق ما فيه. . وهكذا الشيطان يراقب الإنسان؛ ليجد منه غفلة، أو ثغرة؛ لينفث سمومه ووسوسته فيهِ؛ ليضله عن سبيل الله، فلا بد للمسلم من الأخذ بوسائل الوقاية الشرعية من هذا العدو الخبيث؛ لينجو من كيده وشره، فما هي هذه الوسائل العامة للوقاية من الشيطان الرجيم؟

هذا ما نبيِّنُهُ في الفروع على النحو التالي:

الفرع الأول - الإيمان بالله والتوكل عليه.
الفرع الثاني - ترك المعاصي.
الفرع الثالث - الزهد في الدنيا وعدم الاغترارِ بها.
الفرع الرابع - الاستعاذة بالله من الشيطان.
الفرع الخامس - الكلمة الطيبة والدفع بالتي هي أحسن.
الفرع السادس - كشف خواطر الشيطان ووزنها بميزان الإسلام.
الفرع السابع - ضرورة وسائل الوقاية العامة للدعاة ولجماعتهم من مكايد الشيطان.

الفرع الأول

الإيمان بالله والتوكل عليه

٩٨- الإيمان وقاية للإنسان من الشيطان:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾[١٧١]. قال ابن عباس: هم المؤمنون. وهذا إخبارٌ من الله تعالى بتأييده تعالى لعباده المؤمنين، وحفظه إياهم، وحراسته لهم من الشيطان الرجيم، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ أي حافظاً ومؤيداً ونصيراً لهم[١٧٢].

---

(١٧١) سورة الإسراء، الآية ٦٥.

(١٧٢) تفسير القرطبي ج١٠ ص٢٩٠، تفسير ابن كثير ج٣ ص٥٠.

٩٩- لا لسلطان للشيطان على المؤمن المتوكل على الله:

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[١٧٣]. فلا تأثير ولا قدرة للشيطان على إغواء الذين آمنوا بالله إيماناً عميقاً وجّه قلوبهم إلى الله تعالى، وحرّك جوارحهم في طاعته، وجعل اعتمادهم وثقتهم به، فليس للشيطان على هؤلاء من سلطان، فهم يضادّون أمانيه الباطلة، ويهدمون ما يلقيه في نفوسهم؛ لأنَّ إيمانهم بالله يمنحهم النور الكاشف عن مكره، والتوكلُ عليه يفيدهم التقوية بالله فيضعف الشيطان، وينخذل أمام قوة الإيمان بالله، والتوكل عليه.

الفرع الثاني
ترك المعاصي

١٠٠- معاصي الإنسان تضعفه أمام الشيطان:

من لوازم الإيمان العميق بالله رباً ومعبوداً حقاً ابتعاد المسلم عن عصيان الله تعالى، وبقدر ضعف إيمان المسلم، وغفلته عن ربه يقع في معصيته، فيقدر الشيطان على التسلل إليه بالإغواء والخداع، وجره إلى المعصية، فإذا وقع في المعصية سهل على الشيطان جره إلى معصية أخرى، وهكذا. فالبعد عن المعاصي قوة للمسلم ووقاية له من الشيطان.

١٠١- استزلال الشيطان للإنسان بمعاصيه:

ويدل على ما نقوله قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾[١٧٤]. وهذا خطاب للمؤمنين خاصة الذين انهزموا في معركة أُحُدٍ. ﴿ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ﴾ أي حملهم على الزلة ﴿ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ ﴾، والمراد بقوله تعالى: ﴿ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ ﴾ أحد وجهين:

(الأول): أنه كان قد صدرت عنهم معاصي، وبواسطة تلك المعاصي قدر

---

(١٧٣) سورة النحل الآية ٩٩.

(١٧٤) سورة آل عمران الآية ١٥٥.

الشيطان على استزلالهم.

(الثاني): أنهم لما أذنبوا بسبب مفارقتهم ذلك المكان الذي أنزلهم فيه النبي ﷺ، وأمرهم أن لا يفارقوه استزلهم الشيطان بشؤم هذه المعصية، وأوقعهم في الهزيمة؛ لأن الذنب يجرّ إلى الذنب، كما أنَّ الطاعة تجر إلى الطاعة[١٧٥].

١٠٢- سلطان الشيطان على الذين يتولونه:

قال تعالى عن الشيطان: ﴿ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾[١٧٦]. فالشيطان تسلطه على الذين يتولونه أي يطيعونه[١٧٧]. وقد حذرنا الله تعالى من اتّباع الشيطان وطاعته، قال تعالى: ﴿ . . . وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[١٧٨]، وخطوات الشيطان طرائقه ومسالكه التي يأمركم بها، فإنما يأمركم بالسوء والفحشاء، والسوء هو كل ما يسوؤكَ وقوعه أو عاقبته، وأما الفحشاء فكل ما يفحش قبحه في أعين الناس من المعاصي والآثام، ﴿ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أي تقولوا: إنَّ الله تعالى أمر به، أو أخبر به من تلقاء أنفسكم بغير علم. فيدخل في مفهوم خطوات الشيطان التي نهينا عن اتباعها كلُّ معصية لله تعالى، سواء أكانت من أعمال الجوارح، أم أفعال القلوب[١٧٩].

فاتّباع الشيطان في خطواته يعني اتباعه فيما يأمر به من معصية الله تعالى، والمعصية تضعف مقاومة الإنسان للشيطان، وتجعل له سلطاناً على الإنسان.

---

(١٧٥) تفسير الرازي ج٩ ص٥١-٥٢.

(١٧٦) سورة النحل الآية ١٠٠.

(١٧٧) تفسير ابن كثير ج٢ ص٥٨٦، وتفسير القرطبي ج٥ ص١٧٥-١٧٦.

(١٧٨) سورة البقرة الآيتان ١٦٨و١٦٩.

(١٧٩) تفسير ابن كثير ج١ ص٢٠٤، تفسير المنار ج٢ ص٨٨-٨٩، تفسير القاسمي ج٣ ص٢٧-٢٩.

الفرع الثالث

الزهد في الدنيا وعدم الاغترار بها

١٠٣- تمهيد:

الدنيا واقع محسوس فيها من اللذات والمتع والمشتهيات ما يجذب إليها الإنسان على نحو يشغله عن متطلبات الآخرة، وعبادة الله تعالى. والشيطان يستغل هذا الانجذاب من الإنسان إلى الدنيا، فيزيده دفعاً إليها، وتشويقاً لها، والتصاقاً بها حتى تصبح الدنيا أكبر همه، وما فيها من لذائذ وشهوات يطلبها حثيثاً، ليظفر بها ولو بمعصية الله تعالى. من أجل ذلك حذرنا الله تعالى من الدنيا، ومن الاغترار بها، كما حذرنا من الشيطان؛ لئلا يغرَّنا بالدنيا. وبقدر استعلاء المسلم على الدنيا وزهده فيها تكون حصانته من الشيطان، وسلامته من خداعه وتغريره.. ونذكر فيما يلي بعض آيات القرآن الكريم في التحذير من الدنيا، والاغترار بها، ومن تغرير الشيطان للإنسان بالدنيا.

١٠٤- لا تغرنّكم الحياة الدنيا:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴾[١٨٠] أي إن البعث بعد الموت، والثواب والعقاب يوم القيامة حق؛ لأن الله تعالى وعد بها فلا بد أن تقع. ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ أي لا تخدعكم الدنيا بزينتها ومتاعها ولذاتها التي تهواها النفس، فتقبلوا عليها، وتنغسموا فيها، وتتركوا العمل للآخرة. قال سعيد بن جبير رحمه الله تعالى: غرور الحياة الدنيا أن يشتغل الإنسان بنعيمها ولذاتها عن عمل الآخرة حتى يصل به الحال إلى أن يقول بعد موته على سبيل الندم والتأسف: يا ليتني قدمت لحياتي، أي لحياته في الآخرة. ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾ والغرور هنا هو الشيطان، وهو غرور؛ لأنه يغرّ الخلق أي يخدعهم، ويلهيهم عن العمل للآخرة، ويوسوس لهم بالإقبال على شهوات الدنيا ولذاتها، ولو بمعصيته الله تعالى، ويمنّيهم بالتوبة بعد ذلك التي تمحو معاصيهم،

---

(١٨٠) سورة فاطر، الآية ٥.

فيجمعون بزعمه بين التلذذ بنعيم الدنيا، والظفر بنعيم الآخرة[181].

١٠٥- وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور:

قال تعالى في وصف الحياة الدنيا وبيان حقيقتها: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[182]، المتاع: ما يُتَمتَّعُ به أي يُنتَفَعُ به، ثم يزول ولا يبقى للإنسان. والغرور: الخداع. وحاصل معنى الآية الكريمة أنَّ الدنيا ليست إلا متاعاً من شأنه أن يغّر الإنسان، ويخدعه ويشغله عما ينفعه في الآخرة، فليحذر المسلم من الإسراف في الاشتغال بمتاعها، إذ ليس لمتاعها غاية ينتهي العامل إليها فتسكن نفسه ويطمئن قلبه، بل المزيد منها يغري بزيادة الإسراف في الطلب، ويُبعد الإنسان عن عمل ما ينفعه في الآخرة[183].

١٠٦- متاع الدنيا قليل وزائل:

متاع الدنيا مهما كثر فهو قليل في جنب ما في الآخرة من نعيم أعدَّه الله تعالى لعباده المتقين، قال تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[184]، أي ما متاع الدنيا بالنسبة لما في الآخرة من نعيم إلا شيء قليل[185].

ولما كان متاع الدنيا قليلاً، وعلى قلته فهو زائل، فما عند الله تعالى من نعيم كثير دائم أعدّه الله للمتقين هو خير من متاع الدنيا، قال تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾[186]. فكل ما يُتمتَع به في الدنيا فهو قليل بالنسبة إلى نعيم الآخرة الذي أعده الله تعالى للمتقين؛ لأنَّ متاع الدنيا محدود وزائل، قال تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾[187]، ولأنَّ كل ما يؤتاه الإنسانُ من متاع الدنيا فلا بد أن يزول، أو يفارقه ويزول عنه بالموت، أمّا نعيم الآخرة فباقٍ دائم، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم

---

(١٨١) تفسير القرطبي ج١٤ ص٨١، ٣٢٢، تفسير القاسمي ج١٣ ص٤١.

(١٨٢) سورة آل عمران، الآية ١٨٦.

(١٨٣) تفسير القرطبي ج١٤ ص٣٠٢، تفسير المنار ج١٤ ص٣٧٢-٣٧٣.

(١٨٤) سورة التوبة الآية ٣٨.

(١٨٥) تفسير المنار ج١٠ ص٤٩٥.

(١٨٦) سورة النساء، الآية ٧٧.

(١٨٧) سورة النحل الآية ٩٦.

﴿مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾[188]. أفلا نعقل أنَّ النعيم الباقيَ وهو ما عند الله خير من النعيم الفاني الذي يؤتاه الإنسانُ في الدنيا؟ وبالتالي فإن العاقل لا يرضى أن يكون نعيم الدنيا بدلاً من نعيم الآخرة، وإنما يُؤْثِره عليه من لا يؤمن باليوم الآخر[189].

١٠٧- ضربُ الأمثال للدنيا ومتاعها في القرآن الكريم والسنة النبوية:

ومع هذه الإخبارات الإلهية للإنسان عن حقيقة الدنيا ومتاعها، وأنه قليل وزائل، وأن العاقل لا ينبغي أن يتعلق به، ويؤثره على نعيم الآخرة، أقول: مع هذه الإخبارات من رب العالمين، فإنَّ الله تعالى ورسوله الكريم ﷺ ضربا الأمثال لمتاع الدنيا حتى تتضح حقيقته وصورته لنا، فلا ننخدعَ به، ولا نجعلَه أكبر همنا، ونذكر فيما يلي بعض هذه الأمثال.

١٠٨- أمثال القرآن للدنيا ومتاعها:

أ- المثل الأول:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾[190]، ضرب الله تعالى مثلاً لزهرة الحياة الدنيا وزينتها وسرعة انقضائها وزوالها بالنبات الذي أخرجه الله من الأرض بماء أنزله من السماء، فامتزج به أي: امتزج النبات بالمطر، أي شرب منه فتندى وحَسُنَ واخضر، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا﴾ أي أخذت الأرض حسنها وزينتها، والزخرف كمال حسن الشيء، ﴿وَٱزَّيَّنَتۡ﴾ أي بالحبوب والثمار والأزهار، ﴿وَظَنَّ أَهۡلُهَآ﴾ أي أيقن الذين زرعوها وغرسوها ﴿أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ﴾ أي على حصادها وجذاذها والانتفاع بها، فبينما هم كذلك إذ جاءتها صاعقة، أو ريح شديدة باردة، فأيبست أوراقها،

---

(١٨٨) سورة القصص الآية ٦٠.

(١٨٩) تفسير ابن كثير ج٣ص٣٥٦، تفسير القرطبي ج١٣ص٣٠٢، تفسير المنار ج٨ ص٤٩٥.

(١٩٠) سورة يونس، الآية ٢٤.

وأتلفت ثمارها، ولهذا قال تعالى: ﴿أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا﴾ أي يابساً بعد الخضرة والنضارة ﴿كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ﴾ كأن لم تكن عامرة. وقال قتادة: ﴿كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ﴾: كأن لم تنعم. وهكذا الأمور بعد زوالها كأنها لم تكن، يعني كما يهلك هذا الزرعُ هكذا، كذلك الدنيا[١٩١].

ب - المثل الثاني:

وقال تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا﴾[١٩٢]؛ أي واضرب يا محمد للناس ﴿مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ في زوالها وفنائها وانقضائها ﴿كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي ما فيها من الحب، فشبَّ ونما وحسن وعلاه الزهر والنضرة، ثم بعد هذا كله ﴿فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا﴾ يابساً ﴿تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ﴾ أي تفرقه، وتطرحه ذات اليمين وذات الشمال، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا﴾ أي هو قادرٌ على الإنشاء والإفناء[١٩٣].

١٠٩ - جـ - المثل الثالث:

وقال تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾[١٩٤]. يقول تعالى موهناً أمر الحياة الدنيا ومحقراً لها ﴿أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ﴾ أي تفريح نفس، ﴿وَلَهۡوٞ﴾ أي باطل، ﴿وَزِينَةٞ﴾ أي منظر حسن، ﴿وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ﴾ أي بالحسب والنسب ﴿وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ﴾ أي: مطر ﴿أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ أي يعجب الزرّاعَ نباتُ ذلك الزرع الذي نبت بالغيث، وكما يعجب الزرّاعَ ذلك، كذلك تعجب الحياة الدنيا الكفارَ، فإنهم أحرص شيء عليها وأميل الناس إليها ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا﴾ أي ثم يجف بعد خضرته ونضرته، فتراه مصفراً أي من اليبس، ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ﴾

---

(١٩١) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤١٣، وتفسير القرطبي ج٨ ص٣٢٧-٣٢٨.

(١٩٢) سورة الكهف الآية ٤٥.

(١٩٣) تفسير ابن كثير ج٣ ص٨٥، تفسير القاسمي ج١١ ص٤٩.

(١٩٤) سورة الحديد الآية ٢٠.

ثم يكون بعد ذلك كله حطاماً أي هشيماً منكسراً، وكذلك الدنيا لا تبقى كما لا يبقى النبات الذي وصفناه. ولما كان هذا المثل دالاً على زوال الدنيا وانقضائها لا محالة وأنَّ الآخرة كائنة وآتية لا محالة حذرنا الله تعالى من أمرها، ورغّبنا فيما فيها من الخير، فقال تعالى: ﴿وَفِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ﴾ أي وليس في الآخرة الآتية إلا: إما هذا وإما هذا: أي إما عذابٌ شديد وإما مغفرةٌ من الله ورضوان. وقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ أي هي متاع زائل يغرُّ ويخدع من يركن إليها وإلى متاعها، فيغترّ بها وتعجبه من يعتقد أنه لا دار سواها، ولا معاد وراءها، مع أنها حقيرة قليلة المتاع بالنسبة إلى الدار الآخرة[١٩٥].

١١٠-أمثال وتشبيهات السنَّةِ النبوية للدنيا ومتاعها:

أ- عن أبي سعيد الخدريّ رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الدنيا حلوة خضرة، وإن الله تعالى مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء». رواه مسلم[١٩٦] فالدنيا شبهت من حيث المذاق بأنّها (حلوة)، وشبهت من حيث المنظر بأنها خضرة، وهذا مما يجعل النفوس تهواها فجاء التحذير منها بقوله ﷺ: «فاتقوا الدنيا» أي احذروها ولا تقعوا في غرورها، فتشغلكم عن أعمال الآخرة.

ب- عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ دخل عليه عمر رضي الله عنه وهو على حصير قد أثّرَ في جنبه، فقال: يا رسول الله لو اتخذت فراشاً أوثر من هذا فقال: «ما لي وللدنيا، ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف فاستظل تحت شجرة ساعة ثم راح وتركها». رواه أحمد وابن حبان في صحيحه والبيهقي[١٩٧]. ففي هذا الحديث مثال لقلة متاع الدنيا، وسرعة مفارقة الإنسان لهذا المتاع الزائل، وقال الحسن البصري في الدنيا وقد ذكرت عنده[١٩٨].

---

(١٩٥) تفسير ابن كثير ج٤ ص٣١٢-٣١٣.

(١٩٦) الترغيب والترهيب للمنذري ج٤ ص١٦١.

(١٩٧) الترغيب والترهيب للمنذري ج٤ ص١٩٩.

(١٩٨) من تعليقات محمد مصطفى عمارة على الترغيب والترهيب للمنذري في ج٤ ص١٩٩ هامش رقم (١).

أحـلام نـومٍ أو كظـلٍ زائـل   إنَّ اللبيبَ بمثلها لا يُخدعُ

جـ - وقال ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبعه هذه في اليم فلينظر بم ترجع، وأشار بالسبابة» رواه الإمام مسلم[١٩٩]، فنسبة ما في الدنيا من متاع إلى ما في الآخرة من نعيم، كنسبة ما ترجع به الإصبع من ماء إذا غمستها في البحر ثم أخرجتها. وهذا تمثيل لتفاهة الدنيا ومتاعها في جنب نعيم الآخرةِ الدائم الذي أَعدّه الله تعالى لعباده المؤمنين المتقين.

١١١- لماذا يغفُلُ المسلم عن حقيقة الدنيا ومتاعها؟:

إن هذه الحقيقة التي أشرنا إليها، هي حقيقة الدنيا بكل متاعها وزينتها وما تشتهيه النفس منها، وإن كل ذلك بالنسبة لنعيم الآخرة شيءٌ تافه وقليل وزائل، هذه الحقيقة ينساها المسلم ويفقدها وهو مؤمن بالله واليوم الآخر ولو ذكرّتَهُ بها لصدّقَكَ، فلماذا لا يعمل بمقتضى هذه الحقيقة، فيؤثر الآخرة على الدنيا في سلوكه وتصرفاته وأعماله وتطلعاته وغاياته؟ والجواب أنه منغمس في الدنيا ومتاعها، قد شغفته حباً فهو يلهث وراءها، وكلما حصل على شيء من متاعها طلب المزيدَ، فهو لا يشبع ولا يقنع، ومن البديهي أن استحضار نعيم الآخرة في ذهنه، ومقارنة متاع الدنيا به، وبالتالي انفكاكه عن الالتصاق بالدنيا ومتاعها واتجاهه إلى الآخرة، هذا الاستحضار الذهني لما قلناه ولما يترتب عليه غائب عن عقل الإنسان وهو في زحام الدنيا وانغماسه في متاعها وشهواتها والتحديق فيها والجري وراءها. وحتى لو استحضر في ذهنه ما قلناه فإنه استحضار باهت لا أثر له في واقعه، ولا في قلبه ولا في جوارحه، فهو - أي هذا الاستحضار الباهت - ضعيف لا يقوى على فك التصاقه بالدنيا، وتوجيه قلبه إلى الله وإلى اليوم الآخر، وتحريك جوارحه إلى عمل ما ينفعه في اليوم الآخر. وقد يتذكر المسلم الغافل هذه الحقيقة، ويستحضرها في ذهنه عندما تحضره مقدمات الموت، فقد روىٰ عبد العزيز بن أبي حازم عن أبيه قال: (لما حضرت عبد العزيز بن مروان الوفاة قال: ائتوني بكفني الذي أُكَفّنُ فيه أنظر إليه، فلما وضع بين يديه نظر إليه فقال: ما آخذ من الدنيا إلا هذا؟ ثم ولّى ظهره

---

(١٩٩) انظر الترغيب والترهيب للمنذري ج٤ ص١٧٤.

فبكى وهو يقول: أفٍّ لكِ - أي للدنيا - من دارٍ، إن كان كثيرك لقليل، وإن كان قليلك لقصير، وإن كنا منك لفي غرور[٢٠٠].

الفرع الرابع

الاستعاذة بالله من الشيطان

١١٢- تعريفها ومدلولها وحكمتها[٢٠١]:

الشيطان في اللغة مشتق من شطن إذا بعد، فهو بعيد بطبعه عن طباع البشر، وبعيد بفسقه عن كل خير، والاستعاذة في كلام العرب: الاستجارة والتحيز إلى الشيء على معنى الامتناع به من المكروه، يقال: عذت بفلانٍ واستعذت به أي لجأت إليه، وهو عياذي أي ملجئي، والاستعاذة بالله هي الالتجاء إلى الله تعالى والالتصاق بجنابه من شر كل ذي شر، والعياذة تكون لدفع الشر، واللياذ يكون لطلب جلب الخير، كما قال المتنبي:

يا من ألوذ به فيما أُؤمله	ومن أعوذ به ممن أحاذره
لا يجبرُ الناس عظماً أنت كاسره	ولا يهيضون عظماً أنت جابره

١١٣- معنى الاستعاذة بالله:

ومعنى أعوذ بالله من الشيطان الرجيم أي: أستجير بالله من الشيطان الرجيم أن يضرني في ديني أو دنياي، أو يصدني عن فعل ما أُمِرتُ به، أو يحثني على فعل ما نُهيتُ عنه.

١١٤- مدلولات الاستعاذة بالله وحكمتها:

ومن مدلولات الاستعاذة بالله من الشيطان، اعتراف العبد لله تعالى بالقدرة، واعتراف العبد المستفيد بالضعف والعجز عن مقاومة هذا العدو المبين الباطني الذي لا يقدر على منعه ودفعه إلا الله القوي العزيز.

ومن مدلولات الاستعاذة أيضاً اعتراف المسلم المستعيذ وإيمانه بأنَّ الله تعالى

---

(٢٠٠) تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٥٨.

(٢٠١) تفسير ابن كثير ج١ ص١٥-١٦، وتفسير القرطبي ج١ ص٨٩-٩٠.

يسمع استعاذته ويعلم بحاله، وأنه تعالى هو الربّ والإله الحق الذي يتوجه إليه بالدعاء، وأنه تعالى هو المرجو في الحفظ والكفاية مما يستّعاذ به منه.

ومن حكمة الاستعاذة أنَّ هناك فرقاً بين عداوة الإنسي وعداوة الشيطان، فالعدو الإنسي، يأمر الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز بمصانعتِه والصبر عليه والإحسان إليه؛ ليرده عنه طبعه إلى الموالاة والمصافاة، لما في طبعه من إمكان حصول هذه المصافاة بعد تلك العداوة. ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾(٢٠٢)، وقوله تعالى: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾(٢٠٣) وقوله تعالى: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾(٢٠٤).

وأما بالنسبة للشيطان فإنَّ الله تعالى يأمر بالاستعاذة منه لا محالة إذ لا يقبل مصانعة ولا إحساناً، ولا يؤثر فيه جميل؛ لأنه شرير بالطبع، ولا يبتغي غير هلاك بني آدم، لشدة العداوة بينَهُ وبين أبيهم آدم من قبل، كما قال تعالى: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ ﴾(٢٠٥)، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾(٢٠٦)، وقد أقسم - لعنه الله - لأبينا آدم إنه له لمن الناصحين وكذب، فكيف تكون معاملته لنا وقد أعلن عداوته لنا من قبل أن نخلق، فقال: ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾(٢٠٧).

١١٥- عادة المتقين الاستعاذة بالله من الشيطان:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم

---

(٢٠٢) سورة الأعراف الآيتان ١٩٩-٢٠٠.

(٢٠٣) سورة المؤمنون الآيات ٩٦-٩٧-٩٨.

(٢٠٤) سورة فصلت الآيات ٢٤-٢٦.

(٢٠٥) سورة الأعراف الآية ٢٧.

(٢٠٦) سورة الأعراف الآية ٢٢.

(٢٠٧) سورة ص الآية ٨٢.

﴿مُّبۡصِرُونَ﴾[٢٠٨]، يخبر تعالى عن المتقين من عباده وهم الذين أطاعوه فيما أمر، وتركوا ما عنه زجر، أنهم ﴿إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ أي أصابهم طائف من الشيطان أي وسوسة وخاطر منه؛ لإرتكاب الذنب ﴿تَذَكَّرُواْ﴾ الاستعاذة بالله، وعقابه ﴿فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾، أي مبصرون مواقع الخطأ ومكايد الشيطان، فينتهون عنها، ولا يتبعونه فيها، بل يتوبون عنها، ويرجعون إلى الله تعالى من قريب. فهذه الآية تشير إلى أنَّ المتقين، هذه هي عادتهم في الاستعاذة بالله من الشيطان لطرد خواطره ووسوسته. فهم بخلاف الفجار من الإنس إخوانِ الشياطين فإن الشياطين تمدُّهم بالغي قال تعالى بعد هذه الآية: ﴿وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ﴾[٢٠٩]، أي وإخوان الشياطين من الإنس، وهم أتباعهم والمستمعون لهم القابلون لأوامرهم، فإن الشياطين يزيدونهم في الغيِّ، ويساعدونهم على المعاصي، ويسهلونها عليهم، ويحسنونها لهم، ولا يسأمون من فعل ذلك ولا يَفْـتُرُون، كما أنَّ إخوانهم من الإنس لا يقصرون أي لا ينتهون عن ارتكاب المعاصي[٢١٠].

١١٦- الاستعاذة عند قراءة القرآن:

قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾[٢١١]. أي إذا أخذت في قراءته فاستعذ بالله من أن يعرض لك الشيطان، فيصدك عن تدبُّرِه والعمل بما فيه، وليس المراد استعذ بعد القراءة[٢١٢].

وقال ابن كثير: والمعنى في الاستعاذة عند ابتداء القراءة لئلاَّ يلبس على القارىء قراءته ويخلط عليه ويمنعه من التدبر والتفكر[٢١٣].

---

(٢٠٨) سورة الأعراف الآية ٢٠١.

(٢٠٩) تفسير ابن كثير ج١ ص٢٧٩، تفسير القاسمي ج٧ ص٢٢٧- ٢٢٨ والآية في سورة الأعراف ورقمها ٢٠٢.

(٢١٠) تفسير ابن كثير ج٢ ص٢٧٩.

(٢١١) سورة النحل، الآية ٩٨.

(٢١٢) تفسير القرطبي ج١٠ ص١٧٤-١٧٥.

(٢١٣) تفسير ابن كثير ج٢ ص٥٨٥-٥٨٦.

وقال الرازي: والاستعاذة بالله مانعة للشيطان من إلقاء الوسوسة بدليل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ فلهذا السبب أمر الله تعالى رسوله بالاستعاذة عند القراءة حتى تبقى تلك القراءة مصونة عن الوسوسة[٢١٤]. والرجيم من أوصاف الشيطان الغالبة أي الملعون المرجوم باللعنة[٢١٥].

١١٧- الاستعاذة عند فعل الخير:

قراءة القرآن من أجَلِّ الأعمالِ، ولذلك يجهد الشيطان نفسه، لإفسادها على القارىء مما يلقيه في قلبه من الوسواس عند القراءة حتى يصرفه عن التدير والاتعاظ بما يقرأ من كتاب الله العزيز، وقد ذكرنا بعض أقوال المفسرين في الحكمة من الأمر بالاستعاذة من الشيطان عند القراءة، ونضيف لما قلناه قول الإمام القاسمي في هذه الحكمة: (لما كان القرآن هو الذكر الحكيم والحق المبين، وكان لكل حق محارب، وهو شيطان الجن أو الإنس، يثيرُ الشبهات بوساوسه، ويفسد القلوب بدسائسه، أمر الله رسوله ﷺ بأنْ يستعيذ بالله، ويلتجيء إليه عند تلاوة القرآن من وسوسته..)[٢١٦]. فقول القاسمي رحمه الله تعالى: (وكان لكل حق محارب وهو شيطان الجن والإنس) هذا القول يشمل كل فعل من أفعال الخير التي أمر الشرع بها، لأنَّ ما يأمر به الشرع هو الحق قطعاً. فيسعى الشيطان إلى صرف المسلم عن أي فعلٍ من أفعال الخير بما يلقيه من وساوسه، ومن وساوسه لصرفه عن الخير الذي هو عازم على فعله تخويفه من نتائج عمله في الدعوة إلى الله كما أشرنا من قبل، أو تخويفه من الفقر إذا همَّ بالصدقة، أو تخييله طريق الخير أنه يفعله رياءً، وأنَّ عليه أن يتركه حتى تصفو نيته وتخلص لله تعالى، فعلى المسلم أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم عند عزمه أو إرادته مباشرة أي فعل من أفعال الخير أو مباشرته أيَّ نوع من أنواع العبادة، وقد كان ﷺ إذا قام إلى الصلاة يقول «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه»[٢١٧].

---

(٢١٤) تفسير الرازي ج١٩ ص١١٤.

(٢١٥) تفسير القاسمي ج١٠ ص١٥٧.

(٢١٦) تفسير القاسمي ج١٠ ص١٥٧.

(٢١٧) تفسير ابن كثير ج٤ ص ١٠١.

الفرع الخامس

الكلمة الطيبة والدفع بالتي هي أحسن

١١٨- حرص الإسلام على وحدة المسلمين وأُخوَّتِهِمْ:

من مقاصد الإسلام التي يحرص عليها ويدعو المسلمين إليها وحدتهم وأخوتُهم الإيمانية، ولهذا يحذّر من كل ما من شأنه إحداث الفرقة والعداوة فيما بينهم، كالتخاطب بالكلام الخشن المؤذي الذي قد يؤدي إلى الخصومة والعداوة، ويأمرهم بدلاً عن ذلك بالتخاطب بالكلام الحسن والكلمة الطيبة. ولا يكتفي الإسلام بذلك بل يأمر بالدفع بالتي هي أحسن عند حدوث ما قد يؤدي إلى الفرقة، فيأمر بالعفو عن المسيء والصفح عنه، ومقابلة إساءتِهِ بالإحسان إليه. و لحرص الإسلام على ما ذكرنا يحرص الشيطان على ضده، يحرص على إحداث الفرقة بين المسلمين، والعداوة بين المسلم وأخيه المسلم وبين المسلمين عموماً، ولهذا خصّ الله تعالى بالذكر مداراة المسلم إذا أساء، ومقابلته بالعفو والصفح، بل وبالإحسان إليه حتى يقلع عن إساءتِهِ وعداوته، ويرجع إلى المودة والأُخوة الإسلامية، وفي هذا التشريع الإسلامي والالتزام به تفويت لأغراض الشيطان الخبيثة، وإفشال لسعيه في إحداث الفرقة والعداوة بين المسلمين، ووقاية لهم من مكايده. ونذكر فيما يلي بعض الآيات الكريمة الدالة على ما ذكرناه.

١١٩-أ- العفو عن المسيء والإحسانُ إليه ومعاملة الناس بالرفق:

قال تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[٢١٨]، العفو في اللغة: الفضل وما يأتي من الناس من غير كلفة. ويدخل في مفهوم ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ ﴾ المساهلة والمسامحة في الحقوق الشخصية للإنسان، فلا ينبغي أن يتشدد صاحبها في استيفائها، ويدخل أيضاً في مفهوم ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ ﴾ التخلق مع الناس بالخلق الطيب الحسن، وترك الغلظة والفظاظة معهم. ويدخل في مفهوم ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ ﴾ دعوة الخلق إلى الدين الحق بالرفق

---

(٢١٨) سورة الأعراف، الآيتان ١٩٩، ٢٠٠.

واللطف[219]. ويدخل في مفهوم ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ أيضاً ما جاء في الحديث النبوي الشريف «وأن تعفوَ عن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك»[220] وقوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ أي بالمعروف ويدخل في ذلك جميع الطاعات ومنها معاملة الناس بالحسنى والرفق[221]، وقوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ لما كان الناصح لغيره كالمُعرَّض لعداوتهم، فربما أقدم بعض الجاهلين على السفاهة والإيذاء لهذا الناصِح الأمين، فعليه في هذه الحالة الإعراض عنهم، فلا يقابلهم بالمثل بل يحلم عنهم، ويعفو عنهم، ويصبر على أذاهم، فهذا الأسلوب من المعاملة هو الأسلوب النافع الذي يؤمل أن يَكُفَهم عما هم فيه من التمرد والإيذاء لناصحهم[222]، وهذه الآية في معاملة الأعداء من البشر، أمّا في معاملة الشيطان العدوِّ المبين فنستفيدها من قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ومعنى الآية: وإما يصيبنَّكَ من الشيطان وسوسة تثير غضبك على جهل الجاهلين وإساءتهم، وتحملك على خلاف ما أمرك به الشرعُ من العفو عنهم مع الاستمرار على أمرهم بالمعروف، ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ أي استجر به وادعه لدفع الشيطان عنك، إنه سميع لدعائك عليم باستعاذتك[223]. فهذه الآية في معاملة الشيطان الذي لا ينفع معه إحسانٌ ولا مداراة.

١٢٠- ب -التخاطب بين المسلمين بأحسن الكلام:

قال تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ يأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يأمر المؤمنين أن يقولوا في مخاطباتهم ومحاوراتهم الكلام الأحسن والكلمة الطيبة، لأنهم إن لم يفعلوا ذلك نزغ الشيطان بينهم، أي أفسد فيما بينهم، وهيّج الشر والمِراء؛ لتقع بينهم العداوة والمضادة ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ أي: شديد العداوة للإنسان ولذلك

---

(٢١٩) تفسر الرازي ج١٥ ص٩٥-٩٦.

(٢٢٠) تفسير ابن كثير ج٢ ص٢٧٧.

(٢٢١) تفسير ابن كثير ج٢ ص٢٧٧.

(٢٢٢) تفسير الرازي ج١٥ ص٩٦، تفسير القاسمي ج٧ ص٢٢٥.

(٢٢٣) تفسير القاسمي ج٧ ص٢٢٦-٢٢٧.

فهو لا يريد إلا الشر لهم، والعداوة فيما بينهم[٢٢٤].

١٢١ - الدفع بالتي هي أحسن:

قال تعالى: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾[٢٢٥]. وقوله تعالى: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ﴾ أي بالخلة التي هي أحسن الخلال، أي بالصفح ومكارم الأخلاق، ادفع إساءة من يسيءُ إليك، فبهذا تعود عداوته صداقة وبغْضُهُ محبة[٢٢٦]. وقوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ أي أعوذ بك من وساوسهم المغرية على الباطل والشرور والفساد والصد عن الحق، لأن الشياطينَ لا ينفع معهم شيء ولا ينقادون بالمعروف[٢٢٧]. ﴿ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ أي أعوذ بك ربِّ أن يحضروني في شأن من شؤوني أو في شيء من أمري، ولهذا أمر الشرع بذكر الله في ابتداء الأمور وذلك لطرد الشيطان[٢٢٨].

١٢٢- وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[٢٢٩].

وقوله تعالى: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ أي من أساء إليك فادفعه عنك بالإحسان إليه، كما قال عمر رضي الله عنه: (ما عاقبتَ من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه).

---

(٢٢٤) تفسير ابن كثير ج٣ ص٤٥، تفسير القرطبي ج١٠ ص٢٧٧ وآية قل لعبادي.. الخ في سورة الإسراء رقمها ٥٥.

(٢٢٥) سورة المؤمنون، الآيات ٩٦-٩٨.

(٢٢٦) تفسير ابن كثيرج٣ ص٢٥٤، تفسير القاسمي ج١٢ ص١٠٠.

(٢٢٧) تفسير ابن كثير ج٣ ص٢٥٤، تفسير القاسمي ج١٢ ص١٠٠.

(٢٢٨) تفسير ابن كثير ج٣ ص٢٥٤.

(٢٢٩) سورة فصلت الآيات ٣٤-٣٦.

وقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ كأنه ولي أي صديق أو قريب ﴿ حَمِيمٌ ﴾ أي شديد الولاء. ومعنى ذلك أنك إذا أحسنت إلى من أساء إليك قادتْهُ تلك الحسنة إليه إلى مصافاتك ومحبتك والحنو عليك حتى يصير كأنه ولي لك حميم، أي قريب إليك من الشفقة عليك والإحسان إليك، ثم قال تعالى: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾، أي وما يقبل هذه الوصية وهي مقابلة الإساءة بالإحسان ويعمل بها إلا من صبر على ذلك، فإنه يشق على النفوس، وما يقبل هذه الوصية ﴿ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ أي ذو نصيب وافر من السعادة في الدنيا والآخرة(٢٣٠).

ثم قال تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ أي وإما يلقينَّ الشيطان في نفسك وسوسة؛ ليحملك على مجازاة المسيء بالإساءة والانتقام منه، فاستجر بالله من وساوس هذا الشيطان ونزغه وشره، فإنّهُ يسمع استعاذتك ويعلم بحالك(٢٣١). فالشيطان لا تنفع معه مداراة ولا مقابلة إساءتِهِ بإحسان، لأنَّ الإحسان الذي يرضيه هو فقط أن تطيعه في معصية الله، ولا يقبل منك غير هذا أبداً، أما عدوُّ الإنس فقد ينفع معه إحسانك إليه، وعدم مقابلة إساءتِهِ بإساءةٍ مثلها، ولذلك حثنا الشرع على مقابلة إساءة المسيء من الإنس بالإحسان إليه، أما بالنسبة لنزغ الشيطان وتحرشه بالإنسان فلا ينفع معه إلا الاستعاذة بالله ليخلصك من شره.

الفرع السادس
كشف خواطر الشيطان ووزنها بميزان الإسلام

١٢٣ لكل إنسان شيطان:

لكل إنسان شيطان هو قرينه في الدنيا يلازمه بقصد إغوائه وإضلاله، ولا يفارقه إلا إذا مات. جاء في الحديث النبوي الشريف «ما منكم من أحد إلا وقد وُكِّلَ به قرينه من الجن، قيل ولا أنت يا رسول الله، قال ولا أنا، إلا أن الله أعانني عليه

(٢٣٠) تفسير ابن كثير ج٤ ص١٠٠-١٠١.
(٢٣١) تفسر القاسمي ج١٤ ص٢٧٦-٢٧٧.

فَأَسْلَمُ فلا يأمرني إلا بخير». روي «فأسلم» برفع الميم ونصبها، فالرفع على معنى فأَسْلَمُ من شره، والنصب على معنى فَأَسْلَمَ هو[232]. ويوم القيامة يتبرأ الشيطان من إضلاله للإنسان، قال تعالى: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾[233] والمقصود بقرينه، الشيطان قرينُ الإنسان الذي مات كافراً، يقول هذا الشيطان يوم القيامة: ﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾ أي ما أضللته، ولكن كان في ضلال بعيد أي بل كان هو في نفسه ضالاً قابلاً للباطل معانداً للحق[234].

١٢٤ - الشيطان دائم الوسوسة للإنسان:

الشيطانُ قرين الإنسان، دائم الوسوسة للإنسان، يلقي في قلبه معاني الضلال لا يَفْتُرُ ولا يمل، ولا يكف عن وسوسته إلا بذكر الله، قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾، قال: هو الشيطان جاثم على قلب ابن آدم فإذا سها وغفل وسوس، فإذا ذكر الله خنس[235] وقد ذكر الإمامُ القرطبي حديثاً عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم فإذا ذكر الله خنس، وإذا نسي الله التقم قلبه فوسوس»[236].

١٢٥ - الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم:

وللشيطان قدرة فائقة على الوسوسة، فهو يجري من ابن آدم مجرى الدم، كما أخبرنا بذلك رسولنا الكريم ﷺ، فهو يهتبل الفرص، ويلقي في قلب الإنسان معاني الشر والكفر، جاء في الصحيحين عن أنس رضي الله عنه في قصة صفيَّةَ زوجةِ رسول الله ﷺ في زيارتها له وهو معتكف، وخروجه معها ليلاً؛ ليردها إلى منزلها، فلقيه رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبي ﷺ أسرعا، فقال رسول الله ﷺ: «على رسلكما» إنها صفيةُ بنت حيي، فقالا: سبحان الله يا رسول الله، فقال ﷺ: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، وأنا خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئاً - أو

---

(٢٣٢) تفسير القرطبي ج٧ ص٦٨.

(٢٣٣) سورة ق الآية ٢٧.

(٢٣٤) تفسير ابن كثير ج٤ ص٢٢٦.

(٢٣٥) تفسير ابن كثير ج٤ ص٥٧٥.

(٢٣٦) تفسير القرطبي ج٢٠ ص٢٦٢.

قال شراً﴾[٢٣٧].

١٢٦ - كشف خواطر الشيطان ووسوسته:

خواطر الشيطان هي ما يوسوس به إلى الإنسان، وهي شر وضلال، وأمر بالسوء والفحشاء، وهي ما يلقيه في قلب الإنسان، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[٢٣٨]. فهل من سبيل إلى كشف هذه الخواطر الشيطانية حتىٰ لا ينخدع بها المسلم، ولا يتابع فيها الشيطان؟ والجواب: نعم، هناك سبيل إلى كشف هذه الخواطر ويكون ذلك - بعون الله تعالى - بإزالة ورفع الغطاء عن كل خاطرة تُلقَى في قلب الإنسان ثم وزنِها بعد انكاشفها بميزان الإسلام. فعندنا، إذن، عملان: رفع الغطاء عن الخواطر لتكشف، ثم وزنها بميزان الإسلام.

١٢٧ - أولاً - رفع الغطاء عن خواطر الشيطان وبعض الأمثلة لها:

قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾[٢٣٩] أي يلقي بعضهم إلى بعض القول المُـزخْرَف وهو القول المُزَوَّق المزين ظاهره، الباطل باطنه، والذي من شأنه أن يغترَّ به الجاهل. وشياطين الجن هم الذين يلقون القول المزخرفَ الباطل إلى شياطين الإنس وإلى الناس عموماً[٢٤٠]. فرفعُ الغطاء عن خواطر الشيطان يحقق كشفها وانكشافها، كما يُظهر تزيين الشيطان لها وتمويهَهُ لما يلقيه في قلب الإنسان، فيكشف قبح ما ألقاه الشيطان، لأنَّ ستر القبيح ولو كان بالستار المُزَخرف لا يغيِّرُ من حقيقته القبيحة وإن كان يخفيها، ألا ترى أن النجاسة تبقىٰ نجاسة وإنّ غطيتَها بالحرير والديباج والستار المُذهَّب.. فإذا رفع الغطاء والستار انكشفت الحقيقة القبيحة الباطلة لما ألقاه الشيطان والتي أراد الشيطان سترها بهذا التزيينِ والتزويق والتمويه.

---

(٢٣٧) تفسير ابن كثير ج٤ ص٥٧٥.

(٢٣٨) سورة البقرة الآيتان ١٦٨، ١٦٩.

(٢٣٩) سورة الأنعام، الآية ١١٢.

(٢٤٠) تفسير القرطبي ج٧ ص٦٧، تفسير ابن كثير ج٢ ص١٦٧، تفسير القاسمي ج٧ ص٦٨٨، ٦٨٩.

ومن أمثلة خواطر الشيطان التي يلقيها مزينة ومزوقة؛ ليخدع بها الإنسانَ بالرغم من بطلانها أنه يزيّنُ له المعاصي، ويحسّنها في عينه، ويحسسه بلذاتها، ويرغّبه فيها، وإن كانت محرّمة وزائلة، ولكنها لا ينبغي ان تفوته مع إطماعه بأماني رحمة الله، وقبول توبته فيما بعد. ثم يمضي الشيطان في إغوائه وتزيينه وإلقائه القول المُزَخرفَ فيقول له: فلِمَ هذا الاستعجال بالكف عن المعصية من الآن، أو التوبة من الآن، وفي العمر سَعَةٌ فيمكنه أن يستدرك ما فاته بالتوبة مستقبلاً، والله يقبل التوبة عن عباده. وهذا القول المُزَخرف هو بعض ما ينفثه الشيطان في قلب الإنسان، فعلى المسلم اليقظ أن يزيل هذا الغطاء التمويهيَّ المزوقَ عن مثل هذه الخواطر حتى يتبين له قبحها ويمكنه وزنها بميزان الإسلام.

ومن أمثلة خواطر الشيطان تثبيط المسلم عن الدعوة إلى الله، وعن المشاركة مع الدعاة، وذلك بتزيين وتمويه الشيطان، وإلقائه القولَ المزخرفَ من أنَّ المشاركة في الدعوة إلى الله يُعرض صاحبها إلى الأذى والضرر، والضرر مرفوع، وبالتالي لا يجوز المشاركة في الدعوة إلى الله. ولا شك أن هذا مما يلقيه الشيطان من زخرف القول؛ ليضلَّ به الناس، أو يثبطهم عن العمل الصالح.

١٢٨-ثانياً- وزن الخواطر بميزان الإسلام:

وبعد رفع الغطاء التمويهي عن الخواطر التي يقذفها الشيطان، يجب وزن هذه الخواطر بميزان الإسلام، أي في ضوء معانيه وأحكامه. وقد دلنا على هذا الميزان والوزن به حديثُ رسول الله ﷺ، الذي رواه الترمذي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن للشيطان لمَّةً بابن آدم، وللملك لمَّةً. فأما لمَّة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق. وأما لمَّة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فلْيعلم أنه من الله، ومن وجد الآخر فليتعوذ من الشيطان. ثم قرأ: ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾»[٢٤١] فالعلامة، إذن، على

---

(٢٤١) تفسير القرطبي ج٣ ص٣٢٨-٣٢٩. و(اللَّمة) بفتح اللام الخطرة تقع في قلب الإنسان فإن كانت من خطرات الخير فهي من الملك، وإن كانت من خطرات الشرّ فهي من الشيطان. النهاية لابن الأثير نقلاً عن هامش (١) من تفسير القرطبي ج٣ ص٣٢٩.

أن هذه اللَّمة الخاطرة - هي من خواطر الشيطان كونها إيعاداً بالشر وتكذيباً بالحق.
وإن العلامة على أنَّ هذه اللمَّة - الخاطرة - هي من خواطر المَلَك، وبالتالي هي من فضل الله - كونُها، إيعاداً بالخير وتصديقاً بالحق. ولكن كيف نعرف أنَّ هذه العلامة وهي كونها، إيعاداً بالخير أو بالشر، وتصديقاً بالحق أو تكذيباً به؟ والجواب نعرف ذلك بوزن هذه الخاطرة بما هو مقرر في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة من معاني (الخيرية والحق والتصديق به) ومن (معاني الشر والتكذيب بالحق)، فإذا وجدنا أنَّ هذه الخاطرة تدعو إلى فعل الخير، وتتضمن تصديق الحق، وهو كل ما جاء به الرسول ﷺ من ربه، فهذه الخاطرة من الملك. وأما إذا وجدنا الخاطرة تدعو إلى الشر والمعصية، وتتضمن تكذيب ما جاء به محمد ﷺ من ربه، فهذه الخاطرة من وحي الشيطان، وفي هذه الحالة يجب نبذُ هذه الخاطرة والاستعاذة بالله منها ومن الشيطان الرجيم.

١٢٩ - ومن أمثلة وزن خواطر الشيطان:

- الأمر بمعصية الله مع التطلع إلى رحمته ومغفرته.

كثيراً ما يلقي الشيطان في قلب المسلم خاطرة فعل المعصية مزيناً لها، ومرغباً فيها، وملقياً زخرف القول بشأنها، كأن يوسوس الشيطان للمسلم أنْ لا بأس بفعل هذه المعصية؛ لأن الله تعالى رحيم غفور، وأنَّ باب التوبة مفتوح، ولا يشترط لقبولها التعجيل بها، بل تقبل ولو بعد حين من فعل المعصية، ثم يوغل الشيطان في وسوسته فيقول للمسلم: بل الحزم أن تفعل المعصية، ثم يوغل الشيطان في وسوسته فيقول للمسلم: بل الحزم أن تفعل المعصية ولا تتردد؛ لتحصل على ما في هذه المعصية من لذة ومنفعة عاجلة في الدنيا، ثم تحصل أيضاً على مغفرة الله عن طريق التوبة. ومن وراء التوبة الظفر بنعيم الآخرة؛ لأنَّ التائب من الذنب كمن لا ذنب له. وقد يلحّ الشيطان في وسوسته وفي زخرف قوله، إذا رأى من المسلم تمنعاً ورفضاً للمعصية، فينفث في قلبه أو يذكّره بقوله تعالى: ﴿ ۞ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[٢٤٢]

---

(٢٤٢) سورة الزمر، الآية ٥٣.

يفعل الشيطان هذا، لأنه لا يترك المسلم ولا ييأس من إغوائه، ولا يقال كيف يذكّره بآيات من القرآن الكريم كالآية التي ذكرتها، وهو شيطان رجيم، والقرآن كله حق؟ والجواب: أن الشيطان يريد أن يقويه، ويدخله في الأماني حتىٰ يوقعه في المعصية والذنب، والذنبُ يجر إلى الذنب ، والمعصيةُ تجر إلى المعصية، وأما استعانة الشيطان بآي من القرآن الكريم، فهذا لأجل إغواء المسلم، ولأنه حصل في زمن النبي ﷺ، فقد قال الإمام القرطبي في تفسيره: «وفي البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: وكلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، وذكر قصة وفيها: فقلت يا رسول الله: زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله بها فخليت سبيله - لأنه جاء يسرقُ من المال الذي وُكِّلَ أبو هريرة في حفظه - قال أي النبي ﷺ: ما هي؟ قلْتُ - أي أبو هريرة - قال لي: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتىٰ تختم، وقال لي: لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح. فقال النبي ﷺ: «أما إنه قد صدقك وهو كذوب» تعلم من تخاطب منذ ثلاث ليال يا أبا هريرة؟ قلت: لا. قال: ذاك شيطان[٢٤٣].

١٣٠ - وزن الخواطر الشيطانية بميزان الشرع فقط:

فعلى المسلم الذي ألقىٰ الشيطان في قلبه هذه الخاطرة - خاطرة فعل المعصية - بزخرف من القول أن يزنها بميزان الشرع فقط دون غيره، بأن يعرضها على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فإنه إن فعل ذلك فسيجد بعد هذا العرض والوزن أن هذه الخاطرة الزخرفة المزوقة مرفوضة في ميزان الشرع، لأنَّ التشبث برحمة الله ومغفرته يكون بالطريقة التي أرشد إليها الله تعالى، وليس بالطريقة التي يزينها الشيطان. فمن إرشاد الله لعباده في كيفية الظفر برحمته ومغفرته ما نذكره في الآتي:

١٣١ - طريقة تشبث المؤمنين برحمة الله:

وطريقهم في ذلك تعلموها

١- من قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾[٢٤٤] . جاء

(٢٤٣) تفسير القرطبي ج٣ ص٢٦٩.

(٢٤٤) سورة المؤمنون الآية (٦٠).

في الحديث الذي أخرجه الترمذي أنَّ عائشة رضي الله عنها سألت النبي ﷺ عن معنى هذه الآية فقالت: يا رسول الله ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ هو الذي يسرِقُ ويزني ويشرب الخمر وهو يخاف الله عزو جل؟ قال: «لا، يا بنت أبي بكر يا بنت الصديق، ولكنهُمُ الذين يصلون ويتصدقون وهم يخافون أن لا يتقبَّلَ منهم»[٢٤٥]. هؤلاء يقومون بالفرائض، ومع هذا فهم يخافون أن لا تقبل أعمالهم فتفوتهم رحمة الله، لا أن يخالفوا أمر الله ويطيعوا الشيطان ويرجون رحمة الله.

٢- وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٢٤٦]، فهؤلاء عملوا الأعمال الصالحة من إيمان وهجرة وجهاد في سبيل الله ويرجون رحمة الله، وهذا هو الرجاء الصادق من الصادق في رجائه، لا رجاءُ من يبارز ربه بالمعصية وبطاعة الشيطان، ثم يرجو رحمة الله.

٣- وقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[٢٤٧] فرحمتُهُ مرجوّة لمن يطيع الله ويطيع رسوله لا لمن يطيع الشيطان.

١٣٢- فيما يخص التشبث بالتوبة مع تأخيرها:

إن أكثر ما يوسوس به الشيطان، ويزخرف القول به في إغرائه للمسلم على فعل المعصية، أنه يمنّيه بالتوبة، وأنْ لا ضرر عليه في تأخيرها، بل أن مصلحته - كما يزعم الشيطان - فعل المعصية ليحصل على لذتها ومنفعتها، ثم بعد ذلك يتوب، فتسقط معصيته، ويزول أثرها، ويرجع إلى الله تعالى وهو نقي طاهر، فيحصل على نعيم الآخرة. هذا التلبيس الشيطاني يقع فيه المسلم، فيقع في المعصية تشبثاً بما قاله الشيطان في وسوسته. ولغرض بيان بطلان هذا التزيين الشيطاني، وعدم الاغترار به نقول:

لا شك أن باب التوبة مفتوح للمذنبين، ولا يشترط لقبولِ التوبة الفوريةُ أو

(٢٤٥) تفسير ابن كثير ج٣ ص٢٤٨.

(٢٤٦) سورة الجاثية الآية (٣٠).

(٢٤٧) سورة آل عمران، الآية (١٣٢).

التعجيلُ، وهذا من حيث المبدأ، ولكن يجب أن يفقه المسلم ما يأتي ليتبّنَ خطورة تسويف التّوبة وتأخيرها:

١٣٣ - أ - الذنب يؤثر في القلب:

إن الذنب يؤثر في القلب فيسوِّدُهُ ويعميه ثم يميته، قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[٢٤٨]، أخرج الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر صقلِ قلبه، فإن زاد زادتْ حتى تعلو قلبه وذاك الرانُ الذي ذكر الله في القرآن ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾». وقال الحسن البصري: هو الذنبُ على الذنب حتىٰ يعمى القلب فيموت، وكذا قال مجاهد وقتادة وغيرهم[٢٤٩]، فكيف تتأتى التوبةُ ممن يتعمد تأجيلها وتأخيرها، وقد اسود قلبه وعمي ومات بفعل تتابع الذنوب؟ والتوبة كما هو معلوم تقوم على ثلاثة أركان: ندم على ما ارتكبه المسلم من ذنوب، وإقلاع عن الذنب فوراً، وعزم على عدم العود إلى الذنب مستقبلاً، فكيف يتأتى هذا الندمُ من قلب ميت، أو إقلاع عن الذنب حالاً وفوراً، وقد ألف المسلم العاصي فعل المعصية واستمرأها، أو العزم على عدم العود إلى الذنب وهو لا يزال عاكفاً على المعصية مريداً لها مسروراً بها...؟

١٣٤ -ب - قد يموت العاصي قبل أن يتوب:

وحتى لو سلمنا بإمكان التوبة مع التأخير والتسويف فيها مع الاستمرار على فعل المعصية، فهناك خطر أكيد يتهدد الإنسانَ دون سابق إنذار له وهو حلول أجله ورحيله عن هذه الدنيا الفانية، والأجل إذا حان لا يخبر الإنسان بحلوله ولا بقرب هذا الحلول، ولا يستأذنه بالقدوم إليه، ولا يعطيه فرصة لترتيب أموره، وعند ذلك سيندم ولات حينَ مندم، ويقول: ربِّ ارجعوني لعلي أعمل صالحاً، ولكن هيهات هيهات، فلن يؤخر الله نفساً جاء أجلها، ولن يعيدَ أحداً إلى الدنيا ليعمل صالحاً، ولهذه الخطورة الهائلة من هجمة الموت المفاجئة والمعرض لها كل إنسان شاباً كان أو كهلاً أو شيخاً حذرنا الله تعالى من ذلك، فمن تحذيراتِهِ تعالى:

---

(٢٤٨) سورة المطففين، الآية ١٤.

(٢٤٩) تفسير ابن كثير ج٤ ص٤٨٥.

١٣٥ - التحذير من الموت قبل التوبة:

قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾[٢٥٠]. يخبر تعالى عن حال المحتضر عند الموت من الكافرين، أو المفرِّطين في أمر الله من المسلمين العصاة، وسؤال الرجعة إلى الدنيا ليعمل صالحاً فيما تركه، فلا يجاب إلى طلبه، ﴿ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ﴾. قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: (أي لا بُدَّ أن يقولها لا محالة كل محتَضَرٍ ظالم). قال قتادة: (والله ما تمنى أن يرجع إلى أهلٍ ولا إلى عشيرة، ولا بأن يجمع الدنيا ويقضي الشهوات، ولكن تمنى أن يرجع فيعمل بطاعة الله عز وجل). وكان العلاء بن زياد يقول: (لِيُنزِلَنَّ أحدكم نفسه أنه قد حضره الموت، وطلب الرجعة فأجابه الله إلى طلبه وأعاده إلى الدنيا، فليعمل بطاعة الله تعالى). ﴿ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ والبرزخ هو الحاجز بين الشيئين، والبرزخ ما بين الدنيا والآخرة من وقت الموت إلىٰ يوم القيامة[٢٥١].

١٣٦ - تحذيرٌ آخر من الموت قبل التوبة:

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[٢٥٢].

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بكثرة ذكره، وناهياً لهم عن أن تشغلهم الأموال والأولادُ عن ذلك، ومخبراً لهم بأنه من تلهّى بمتاع الحياة الدنيا وزينتها عما خلق له من طاعة ربه وذكره فإنه من الخاسرين يوم القيامة. ثم حثهم على الإنفاق في طاعته، وحذرهم من التهاون في ذلك، فقال تعالى: ﴿ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

---

(٢٥٠) سورة المؤمنون الآيتان ٩٩-١٠٠.

(٢٥١) تفسير ابن كثير ج٣ ص٢٥٥-٢٥٦، تفسير القرطبي ج١٢ ص١٤٩-١٥٠.

(٢٥٢) سورة المنافقون الآيات من ٩-١١.

فكل مفرط في جنب الله يندم عند الاحتضار، ويسأل طول المدة ولو شيئاً يسيراً؛ لتدارك ما فاته، ولكن هيهات، ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي لا يمهل أحداً إذا جاء أجله[253].

١٣٧ - تحذير ثالث من الموت قبل التوبة:

وقال تعالى: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[254]. قوله تعالى: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾ أي ارجعوا إلى الله واستسلموا له. ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ أي بادروا بالتوبة والعمل الصالح قبل حلول النقمة. ثم قال تعالى: ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ . .﴾ الخ الآيات. . . في يوم القيامة يتحسّر المفرّط في حق الله وطاعته، وفي حق التوبة أنْ لم يبادر إليها، ويود لو كان من المحسنين المخلصين المطيعين لله عز وجل[255].

١٣٨ - معنى آية غفران الذنوب جميعاً:

ويجب أن لا يُساء فهم قوله تعالى: ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[256] فهذه الآية دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة إلى الله تعالى، وإخبار من الله تعالى بأنه يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب وإن كانت كثيرة، ولا يصح حَمْلُ هذه الآية الكريمة على غير التوبة؛ لأن الشرك لا يغفره الله لمن لم يتب منه[257] وقد بينّا ضرورة المبادرة إلى التوبة وعَدَمَ تأخيرها.

---

(٢٥٣) تفسير ابن كثير ج٤ ص٣٧٣.

(٢٥٤) سورة الزمر الآيات من ٥٤-٥٨.

(٢٥٥) تفسير ابن كثير ج٤ ص٦٠، تفسير القرطبي ج١٥ ص٢٦٩-٢٧٢.

(٢٥٦) سورة الزمر الآية ٥٣.

(٢٥٧) تفسير ابن كثير ج٤ ص٥٨، تفسير القرطبي ج١٥ ص٢٦٨-٢٦٩.

١٣٩-ج - قبح معصية الله بطاعة الشيطان:

لو قال ولد لأبيه بلسان المقال أو بلسان الحال: أنا يا والدي أعقك متعمداً، ولا أقوم بحقك عليّ، وأصُدُّ عنك ولا ألتفت إلى أوامرك لي، ولا إلى ما تحبه حتى أنا أحبه، ولا إلى ما تكرهه وتسخطه حتى أنا أكرهه وأسخطه، وأفعل ما نهيتني وتنهاني عنه، ثم بعد حين سأعترف لك بتقصيري في حقك، وفي عقوقي لك، وأطمع أن تقبل رجوعي إليك وتعفو عني. فهل في قبح فعل هذا الولد العاقِّ خلاف؟

وهل يُقبل منه هذا العذر في عقوقه لوالده؟ فإذا كان قبح فعل هذا الولد لا خلاف فيه، وكذا عذره في عقوقه لوالده المستمر الدائم وهو أنه سيعتذر منه، ويعترف له بعقوقه في يوم من الأيام، وإن هذا العذر هو من قبيل العذر أكبرُ من الذنب، أقول: إذا كان قبح عصيان هذا الولد لأبيه وعقوقه له قبحاً عظيماً، فإنَّ عصيان العبد لربه الذي خلقه وسواه، وطاعته لعدوه الشيطان أعظم قبحاً من قبح عقوق الولد ومعصيته لأبيه. فعلى الإنسان أن يعقل مدى قبح تمرده على ربه وكفره به، وأن يستقبح المسلمُ معصيته لربه أشد الاستقباح، لأنَّ الله أنعم عليه بنعمة الإيمان وهو يقابله بالعصيان، وبطاعة الشيطان في تزيينه ووسوسته له: بأن لا ضيرَ عليك في معصية الله، فعمرك مديد، وباب الرجوع إلى الله بالتوبة مفتوح غير مسدود.

إن على المسلم أن يعمل بوصية الله لا بما يزينه له الشيطان؛ لإضلاله وحرفه عن الحق، قال تعالى: ﴿ ۞أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴾(٢٥٨). قوله تعالى: ﴿ ۞أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ ﴾ العهد هنا بمعنى الوصية، أي ألم أوصكم وأبلّغكُمْ على ألسنة الرسل ﴿ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ ﴾ أي لا تطيعوه في معصيتي(٢٥٩). ﴿ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ أي قد أمرتكم في دار الدنيا بعصيان الشيطان، وأمرتكم بعبادتي، وهذا هو الصراط المستقيم، فسلكتم غير ذلك، واتبعتم الشيطان فيما أمركم به، ولهذا قال عزّوجل: ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ

---

(٢٥٨) سورة يس الآيات ٦٠-٦٢.

(٢٥٩) تفسير القرطبي ج١٥ ص٤٧.

﴿جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ أي: خلقاً كثيراً، ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفما كان لكم عقل في مخالفة ربكم فيما أمركم به من طاعته وحده واتباع شرعه، وعُدُولِكُمْ إلى اتباع الشيطان[٢٦٠].

فعلى الدعاة تبصير الناس بما ذكرته من سبل إغواء الشيطان، ومن سبل الوقاية منه، وأن يجعلوا ذلك من مواضيع الدعوة التي يبيِّنونها للناس. كما عليهم تذكير أنفسهم بها؛ لأنهم بحاجة إلى هذا التذكير.

الفرع السابع

ضرورة وسائل الوقاية العامة للدعاة ولجماعتهم من مكايد الشيطان

١٤٠ - تمهيد:

قلنا: إن وسائل الوقاية العامة من الشيطان ومكايده هي الإيمان بالله والتوكل عليه، وترك المعاصي، وعدم الاغترار بالدنيا ومتاعها، والاستعاذة بالله من الشيطان، وكشف خواطر الشيطان، ووزنها بميزان الإسلام. وهذه الوسائل ضرورية للدعوة والدعاة وللجماعة المسلمة؛ للوقاية من ضرر الشيطان وكيده. بل إن الدعاة والجماعة المسلمة أكثر من غيرهم حاجةً لهذه الوسائل؛ لأنهم مستهدفون من الشيطان أكثر من غيرهم، لأن عملهم - وهو هداية الناس - يضادُّ عمل الشيطان في إغوائهم وإضلالهم. ونبيِّنُ فيما يلي وجه حاجة الدعاة وجماعتهم إلى هذه الوسائل الوقائية، ونضيف إليها ضرورة ظهورهم بمظهر الأسوة الحسنة لغيرهم.

١٤١ - أولاً - الإيمان والتوكل على الله:

الدعاة إلى الله بحاجة ملحة إلى رصيد إيماني عميق وواسع مع تعهد دائم له بالحفظ والزيادة؛ ليواجه الداعية المسلم متطلبات الدعوة من جهة استمرار العمل لها، وتحمل الأذى في سبيلها، لأن الإيمان هو القوة الدافعة للدعوة، والقوة المحركة للداعية؛ للاستمرار في دعوته، وتخطي العقبات، وتحمل الأذى في سبيلها. ومع هذا الإيمانِ العميق توكلٌ كاملٌ على الله رب العالمين مستشعراً كفاية

---

(٢٦٠) تفسير ابن كثير ج٣ ص٥٧٦.

الله له في الحفظ والرعاية، وإنجاح مساعيه في خدمة الدعوة وبلوغ أغراضها.

وبأكثر من هذا القدر من الإيمان والتوكل على الله يجب أن تكون عليه الجماعة المسلمة بأفرادها وقادتها حتى تمضي بعزيمة ثابتة في أعمالها لبلوغ أهدافها.

١٤٢ - ثانياً - ترك المعاصي

أ- المعاصي واستزلال الشيطان للعاصي:

المعاصي تفتح ثغراتٍ في العاصي والعصاة تسهل على الشيطان استزلالهم وإيقاعهم في الخطيئة، كما حصل لبعض المسلمين في معركة أحدٍ الذين فروا من المعركة، وكان فرارهم باستزلال الشيطان لهم، لمعصيتهم أمرَ الرسول ﷺ بالبقاء في المكان الذي عينه لهم في الجبل ولكنَّ أكثرهم خالف هذا الأمر، فتركوا مواقعهم في الجبل، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾[٢٦١]. فليحذر الدعاة ولتحذر الجماعة المسلمة من الوقوع في المعصية، فليسوا هم خيراً من الذين استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا وقد ذكرنا قصتهم.

١٤٣ - ب - ترك المعاصي، والأسوة الحسنة:

الدعاة يدعون الناس إلى الإسلام، أي إلى الالتزام بأحكامه، والانصباغ بصبغتِهِ على نحو يظهر أثرها في سلوكهم وأفعالهم وسائر تصرفاتهم. ومن طبائع الناس أنهم يتأثرون بأقوال الداعية، ويستجيبون لما يدعوهم إليه كلما كان هو ملتزماً بأحكام الإسلام لا تخالف أفعالُهُ أقوالَهُ، يفعل المطلوب شرعاً، ويترك المحظور شرعاً. وبالعكس إذا كان هو غيرَ ملتزم بأحكام الإسلام، على الوجه المرضي: يترك المأمورَ بفعله، ويفعل المنهيَّ عن فعله، فإنَّ الناس ينفرون منه ومن أقواله ومما يدعوهم إليه. هذه هي طبائع الناس. ومن أسباب ذلك أنَّ الداعية في مقام القدوة والأسوة للناس، فإمّا أن يكون أسوةً حسنة لهم بالتزامه بأحكام الإسلام ومطابقة أفعاله لأقواله، فيتأثرون بكلامه، ويستجيبون لما يدعوهم إليه، وإما أن يكون في مقام القدوة السيئة فيفرون منه ومن أقواله، ولا يستجيبون لما يدعوهم إليه، وإن

---

(٢٦١) سورة آل عمران، الآية ١٥٥.

كان ما يقوله حقاً في نفسه. ومن أجلّ ذلك قصّ الله علينا من أخبار شعيب عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾[٢٦٢] أي ليس أنهاكم عن شيء وأرتكبه، كما لا أترك ما أمرتكم به[٢٦٣]. فعلى الداعية المسلم أن يتقي الله في دعوته، ولا يكون أداة تنفيرٍ عنها بسلوكه المخالف للإسلام وبمعصيته لله، فإن الناس لا يسمعون له ولا يستجيبون له، وينفرون منه ومما يدعوهم إليه، وفي هذا ضرر جسيم للدعوة يكون هو مسببه، ويكون الضرر أشد إذا كان الداعية محسوباً على الجماعة المسلمة، فإنَّ الناس عند ذلك ينفرون من الجماعة ذاتها، ولا يثقون بها، ويستغل الشيطان هذه الحالة، فيقبّح لهم الدعوة والدعاة والجماعة المسلمة التي تدعو إلى الله.

١٤٤ -ج - من التقوى ترك المعاصي:

ترك المعاصي أحد عنصري التقوى؛ لأن التقوى كما قال العلماء عبارةٌ عن ترك جميع الذنوب والمعاصي، وفعل ما يستطاع من الطاعات فترك المعاصي مهم جداً للدعوة وللدعاة وللجماعة المسلمة؛ لأنَّ هذا الترك يسهم في تحصيل التقوى، وبتحصيلها يمكنهم تحصيل ثمراتها، فما هي ثمرات التقوى؟

١٤٥ - ثمرات التقوى:

أ- الفرقان:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[٢٦٤].

وقد فُسِّرَ (الفرقان) الذي يجعله الله للمتقين بـ(المخرج) في الدنيا والآخرة وبـ(النجاة) من الشدائد، و(بالنصر)، وقال محمد بن إسحاق: ﴿فُرْقَانًا﴾ أي فصلاً بين الحق والباطل، وهذا التفسير لكلمة ﴿فُرْقَانًا﴾ أعم مما تقدم وهو يستلزم ذلك كله كما يقول ابن كثير: فإن من اتقى الله بفعل أوامره وترك زواجره، وفقه الله لمعرفة

---

(٢٦٢) سورة هود، الآية ٨٨.

(٢٦٣) تفسير المنار ج٩ ص٥٩٨، وتفسير ابن كثير ج٢ ص٤٥٦.

(٢٦٤) سورة الأنفال، الآية (٢٩).

الحق من الباطل، فكان ذلك سببَ نصره ونجاته، ومخرجه من أمور الدنيا، وسعادته يوم القيامة، وتكفير ذنوبه، وهو محوها وغفرها، وسبباً لنيل ثواب الله الجزيل(٢٦٥)، وفي تفسير المنار في معنى هذه الآية: إن تتقوا الله في كل ما يجب أن يُتَقى بمقتضى دينه وشرعه، وبمقتضى سنته في نظام خلقه يجعل لكم مَلَكَة مَنَ العلم والحكمة تفرقون بها بين الحق والباطل(٢٦٦).

١٤٦ - أهمية الفرقان للدعوة والدعاة:

للفرقان الذي يؤتاه المتقي من ربه أهمية عظيمة جداً للدعوة وللدعاة وللجماعة المسلمة؛ لأن هذا الفرقان كالنور الساطع الذي يكشف لصاحبه الخبايا والأمور الدقيقة، فهو كالمجهر يرينا ما لا نراه بالعين المجردة، فيبصر الداعية مواطن الخطأ فيتجنبها، ومواطن الصواب فيسلكها، وبهذا تمضي الدعوة في طريق مأمون سليم من الخطأ والعُثار، فتترسخ معانيها في الناس، ويعظم أثرها في المجتمع. وأهمية الفرقان للجماعة المسلمةِ أعظم بكثيرٍ من أهميتها للداعية الفرد؛ لأن الجماعة المسلمة تواجه دائماً لا سيما في وقتنا الحاضر تحديات كثيرة، ومواقف صعبة جداً ودقيقة جداً، وإنَّ عليها أن تختار موقفاً منها، وكلها بلا استثناء تختلط فيها المصالح والمفاسد، والمنافع والأضرار، ولا يتبين في أحدها وجه الرجحان في الإقدام عليه والأخذ به، وهنا يأتي عمل هذا (الفرقان) الذي يؤتيه الله لعباده المتقين ثمرة وجائزة لتقواهم، فبقدرِ (تقواهم) تكون قوة (فرقانهم)، وبقدر تقوى الجماعة المسلمة - بأفرادها ودعاتها وقادتها - يكون قوة (فرقان) هذه الجماعة، فتبصر الحق والصواب بتوفيق الله، فتختار في المواقف الصعبة التي تواجهها الموقف الأشبه بالصواب، والأسلم عاقبة، والأنفع للجماعة وللدعوة، والأرضىٰ لله تعالىٰ رب العالمين. فعلى الجماعة المسلمة أن تعمق معاني التقوى في نفوس أفرادها وقادتها ودعاتها بوضع مناهج التقوى من التزام شديد بأحكام الشرع، وبإقبال على الله ومناجاة له في صلاة الليل، وتلاوة كتابه إلى غير ذلك من وسائل التقوى وأسبابها وليس هنا محلَّ تفصيلها. فإذا وفوا بهذا الشرط ﴿إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ جاءهم جواب الشرط ﴿يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾.

---

(٢٦٥) تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٠١-٣٠٢.

(٢٦٦) تفسير المنار ج٩ ص٥٩٦.

١٤٧ - ب- المخرج من كل ضيق مع الرزق الحسن:

ومن ثمرات التقوى المخرج من كل ضيق، مع الرزق الطيب الحسن دلَّ على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[٢٦٧]. وهذا من ثمرات التقوى أن يجعل الله للمتقي مخرجاً، ويرزقه الله تعالى رزقاً حسناً من جهة لا تخطر بباله. و(المخرج) هو كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: أن ينجيه من كل كرب في الدنيا والآخرة، وعن بعض أهل العلم: يجعل له مخرجاً من كل شدة ومن كل شيءٍ ضاق على الناس[٢٦٨]. وفي هذا بشارة عظمى للدعوة وللدعاة وللجماعة المسلمة؛ لأنَّ الله تعالى وَعَدَ المتقين أن يهيىءَ لهم مخرجاً من كل كربة وشدة، وما أكثر الكرب والشدائد التي يتسبب بها أعداء الدعوة للجماعة المسلمة وللدعاة، ولكن ذلك لا يقلقهم، ولا يخيفهم، ولا يضعف عزيمتهم؛ لأن الله تعالى وعدهم بالمخرج فلا بد أن يجدوه، وهناك حوادث وقصص كثيرة في المخارج التي لقيها الدعاة بعد أن أحاطت بهم الكُرَبُ والشدائد من كل مكان ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ومع (المخرج) الذي يجعله الله للمتقي فإنه تعالى يرزقه من حيث لا يحتسب، وفي هذا تسلية للداعية، وقوة له، وضمان وكفالة من الله تجعل الداعية لا يلتفت إلى تخويف الشيطان له بتعطيله عن عمله، أو وظيفته إذا استمر في دعوته. إن كل ما على الداعية والجماعة المسلمة هو تحقيق معاني التقوى فيهم من فعل المأمور وترك المحظور، وإخلاص العمل لله، والثقة به، والتوكل عليه، فإذا فعلوا ذلك قاموا بالشرط (تقوى الله) فيأتيهم جواب الشرط ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾. وهذا هو المأمول والمرجو من الدعاة وجماعتهم.

١٤٨-ج- تيسير الأمور:

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾[٢٦٩]. قال مقاتل: من يتق الله في

(٢٦٧) سورة الطلاق، الآيتان ٢، ٣.
(٢٦٨) تفسير القرطبي ج١٨ ص١٥٩.
(٢٦٩) سورة الطلاق، الآية ٤.

اجتناب معاصيه يجعلْ له من أمره يسراً في توفيقه للطاعة[٢٧٠]. وقال ابن كثير رحمه الله تعالى في معنى هذه الآية: أي يسهل له أمره وييسرُهُ عليه، ويجعل له فَرَجاً قريباً، ومخرجاً عاجلاً[٢٧١]. وهذه بشارة أخرى للدعوة وللدعاة وللجماعة المسلمة، ذلك أنَّ الله تعالى يَعِدُ في هذه الآية كل من يتقيه بتيسير أمره بجعله سهلاً وفي متناول يده، وبالفرج والمخرج مما هو فيه وعندما يحتاج إلى هذا المخرج والفرج. ومن المعلوم أن أمور الدعاة والجماعة المسلمة هي أمور الدعوة أي أمر الإسلام، وليست هي أمورهم الدنيوية الشخصية، والآية الكريمة وإن كان فيها وعد الله بتيسير جميع أمور من يتقيه سواء أكانت أموراً خاصة به أو بغيره، فإنَّ أُمور الدعوة وهي أمور دينيةٌ أقرب وأولى بالتسهيل والتيسير واقترانها بالمخرج كلما ضاقت الأمور. فعلى الدعاة والجماعة المسلمةِ فقهُ ذلك، وشرحُه وتوضيحُه للدعاة حتى يزدادوا ثقة بربهم، وتوكلاً عليه في بلوغ أهدافهم، وحتى يزيدوا من جانبهم معاني التقوى في نفوسهم ويعمقوها.

١٤٩-د- تكفير السيئات وتحصيل الأجر:

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾[٢٧٢] أي ومن يتق الله يمحُ الله سيئاته، ويجزل له الثواب علىٰ العمل اليسير[٢٧٣]. وهذه أيضاً ثمرة طيبة من ثمرات التقوى وهي محو خطايا وذنوب المتقين، ويعظم أجورهم على أعمالهم. وهذه الآية تدل علىأن المسلمُ إن كان من المتقين إلا أنه يبقى غير معصوم، فيصدر عنه الذنب، فيحتاج إلى أن يغفر الله له ذنوبه ويمحو سيئاته، ولا يقدح هذا في منزلته وأنه من المتقين. إلا أنَّ المسلم المتقي إذا صدر منه ذنب سارع إلى التوبة فاستغفر ربه وأناب، والله تعالى يحب التوابين. جاء في الحديث النبوي الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر

---

(٢٧٠) تفسير القرطبي ج١٨ ص١٦٥.
(٢٧١) تفيسر ابن كثير ج٤ ص٣٨٢.
(٢٧٢) سورة الطلاق، الآية (٥).
(٢٧٣) تفسير ابن كثير ج٤ ص٣٨٢.

لهم»[٢٧٤] رواه مسلم.

١٥٠ - ثالثاً - الزهد في الدنيا وعدم الاغترار بها:

وهذا من سبل الوقاية العامة من الشيطان ومكايده التي لا يجوز إغفالها من قبل الدعاة وجماعتهم؛ لأن الدنيا تغرُّ الإنسان وتخدعه، لأنها واقع محسوسٌ مشهود، والإنسان بطبعه يتأثر بالواقع المحسوس، ويميل إليه إن كان فيه ما يشبع رغباته وشهواته، فيقبل على الدنيا إقبال الجائع إلى الطعام، والعطشان إلى الماء فينسى كونه في الدنيا غريباً أو عابر سبيل، وأن مستقره هناك في الدار الآخرة وليس هنا في هذه الدار الفانيةِ، فعليه الإعداد للرحيل إليها. والشيطان يستغل ميل الإنسان إلى الدنيا، فيدفعه إليها دفعاً، ويزيد من التصاقه بها، وقد ذكرنا فيما سبق شيئاً من ذلك وقلنا: إن من وسائل الوقاية من الشيطان ومكايده الزهدَ في الدنيا، وعدم الاغترار بالدنيا ومتاعها، وهذه الوسيلة ضرورية للدعاة وللجماعة المسلمة؛ لأنهم في مقام القدوة الحسنة، فلا بد أن يكون عندهم ترفع واضح عن الدنيا، وزهد في متاعها الزائل بحيث يدركه الناس فيهم من بعيد، فيأتون إليهم، ويسمعون منهم. وهكذا كان الدعاة الصادقون. وعلى هذا يجب على الدعاة وقادة الجماعة المسلمة وأعضائها أن يأخذوا أنفسهم بأحكامِ العزيمة لا بأحكام الرخصة، وأن يتركوا ما هو مباح في نفسه إن كان في هذا الترك قطع لألسنة أهل الباطل وإسكات لقالة السوء، وحتى لا يدعوا للشيطان منفذاً ينفذ منه بالوسوسة إلى الناس بأنَّ هؤلاء الدعاة والجماعة المسلمة عشاق دنيا وطلاب متاع فَيَنْفَضُّوا عنهم. وليس فيما أقوله تحريم للمباح على الدعاة، لأنَّ المباح هو ما جاز فعله وتركه، ولكن إذا كان ترك المباح وسيلة لجذب الناس إلى الدعوة، وقطعاً لأقوال أهل الباطل ووسوسة الشيطان، ودفعاً للشبهة، فإنَّ هذا الترك يصير هو المطلوب شرعاً طلب إيجابٍ أو استحبابٍ كما هو مقرر في أصول الفقه. والحق أن مطالبة الدعاة بترك ما هو مباح في الحالات التي ذكرتها هو بعض ما يقدّمونه للدعوة من تضحيات، فلا يبخلوا بها على الدعوة. وهي على كل حال أيسر بكثير من التضحية بالنفس، وهم مطالبون بها في وقتها، فكيف لا يطالبون بترك المباح في وقته؟!.

---

(٢٧٤) الترغيب والترهيب للمنذري ج٤ ص٩٩.

ومما يسهل على الدعاة حمل أنفسهم على الزهد في الدنيا، وترك المباح لمصلحة الدعوة أن يتخذوا من رسول الله ﷺ وصحبه الكرام القدوة الحسنة في استعلائهم وترفعهم على الدنيا، والزهد في متاعها. وبهذا يثبتون للناس أنهم عشاق الآخرة، وطلاب مرضاة الله، فهم لا يتزاحمون على الدنيا، وإنما يتنافسون في أعمال الآخرة، والآخرة لا تضيق بالمتزاحمين عليها؛ لأن ساحة أعمالها تسعهم جميعاً بخلاف ساحة الدنيا، فإنها تضيق بالمتزاحمين عليها من أجل متاعها.

١٥١ - رابعاً الكلمة الطيبة والدفع بالتي هي أحسن:

وهذه من وسائل الوقاية العامة من الشيطان ومكايده، وهي ضرورية للدعاة وللجماعة المسلمة. وقد تكلمت عن هذه الوسيلة فيما سبق وبينت أنها تهدف إلى صيانة وحدة الأمة الإسلامية، والأُخوة الإسلامية بين المسلمين، ومنع ما من شأنه إحداث الفرقة والعداوة بين المسلم والمسلم، وبين المسلمين عموماً، وبهذا نفوّت على الشيطان ما يبغيه من إحداث الفرقة والعداوة بين المسلمين. فعلى الدعاة والجماعة المسلمة أن يعلموا يقيناً أنَّ ساحة العمل للإسلام تسع جميع العاملين للإسلام أفراداً كانوا أو جماعات، فلا داعي ولا موجب للتقاطع فيما بينهم، ولا للخشونة في القول في مخاطباتهم، وأن يكون شعار الجميع: ادفع بالتي هي أحسن، وقابل السيئة بالحسنة. وأن لا يكون اختلافهم في مناهج العمل للإسلام داعياً للخصام، لأنَّ اختلافهم يشبه اختلاف المجتهدين في مسائل الفقه، واختلافهم لم يؤثر في علاقتهم فيما بينهم، ولا في أخوّتهم الإسلامية، ولا في مودتهم، فكذلك يجب أن يكون الدعاة إلى الإسلام أفراداً كانوا أو جماعات، وهذا لا يمنع أن يرى المسلم أن هذه الجماعة المسلمة أولى بالعمل معها من الجماعات الإسلامية الأخرى، فهذا أمر جائز شرعاً، كما يجوز للمسلم أن يأخذ بالمذهب الفلاني باعتباره أولى من غيره في الاتباع للوصول إلى حكم الشرع الذي جاء في الكتاب والسنة.

١٥٢ - نطاق الكلمة الطيبة والدفع بالتي هي أحسن:

وما قلته هو فيما بين الدعاة والجماعات الإسلامية، وأما بينهم وبين عموم المسلمين الذين يدعونهم إلى الرجوع إلى الإسلام عملاً به وتركاً لغيره، فإن ما بيّنتُهُ

من وسيلة الوقاية من الشيطان في الكلمة الطيبة والدفع بالتي هي أحسن يقال هنا، وعلى الدعاة والجماعة المسلمة أن تلتزم به وأن تتسع صدورهم لجهالة الجاهلين، وأنَ يتسع حلمهم لأذى السفهاء، وأن يقابلوهم بالإحسان كلما أساؤوا إليهم، فإن الداعية يكسب ثقة الناس، ويجذبهم إليه وإلى الدعوة بأخلاقه الحسنة وحلْمِهِ وصبره أكثر مما يجذبهم إليه بكلامه، وليكن رسول الله ﷺ قدوتهم الحسنة في هذا الباب.

١٥٣ - حاجة الدعاة للكلمة الطيبة والدفع فيما بينهم بالتي هي أحسن:

وكما أنَّ وسيلة الوقاية من الشيطان بالكلمة الطيبة، وبالدفع بالتي هي أحسن ضرورية للدعاة وللجماعات الإسلامية في علاقاتهم فيما بينهم، وفيما بينهم وبين الناس، فإنَّ هذه الوسيلة ضرورية أيضاً داخل الجماعة المسلمة، وفي علاقات أفرادها فيما بينهم. فإن الشيطان قد ينزغ بينهم، ويهيّجُ بعضهم على بعض لكلمة نابيةٍ تنفلِتُ من فم أحدهم فيكبّرها الشيطان، أو لتصرف خاطىء، أو لعمل سيء آذى الآخرين، فعلى أفراد الجماعة وقادتها أن لا يسمحوا لهذه الأمور أن تقع، وأن يأخذوا أنفسهم جميعاً بالالتزام بالكلام اللطيف المهذب في جِدّهم وهزلهم، وأن يجدوا المعاذير لأخيهم إذا أخطأ أو أساء أو تكلم بما لا ينبغي أن يتكلم به، وأن يأخذوا أنفسهم (بالفضل لا بالعدل) في علاقاتهم فيما بينهم. فإذا وقع المحذور، وحصلت القطيعة بين أحدهم أو بعضهم وبين الجماعة المسلمة التي يعملون فيها، فيجبُ عليهم أن يتنبهوا لئلا يستزلهم الشيطان مستغلاً قطيعتهم واختلافهم مع الجماعة، فيجرهم إلى الفجور في خصومتهم، فيصيبهم بعض أوصاف المنافق: «وإذا خاصم فجر»، أو يجرهم إلى الكذب والافتراء على الجماعة، فيصيبهم بعض أوصاف المنافق «وإذا حدث كذب»، أو يجرهم الشيطان إلى إبعاد الناس عن الجماعة، فيقعون في مجال الصدّ عن سبيل الله. والخلاصة يجب عليهم أن يبقوا (مسلمين) في حال اختلافهم مع الجماعة، وابتعادهم عنها أو خروجهم منها، فلا يتصرفون اتجاهها إلا في حدود الشرع. وأنْ تبقى علاقتهم معها محكومة بأحكام الشرع.

١٥٤- خامساً - الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم:

ومن وسائل الوقاية العامة من الشيطان الرجيم الاستعاذة بالله منه، فعلى الداعية أن يأخذ بهذه الوسيلة على النحو الذي فصّلْتُهُ فيما سبق، فإذا أراد إلقاء موعظة على الناس، أو درس أو خطبة ونحو ذلك من أساليب الدعوة، فعليه أن يستعيذ بالله من الشيطان قبل أن يبدأ بعمله يستعيذ بالله من الشيطان بقلبه وبلسانه، بقلبه بأن يتوجه إلى الله أن يكلأه ويحفظه من شره، وبلسانه ليواطىء لسانه ما في قلبه. وعليه أن لا يغفل عن اللجوء الدائم المستمر إلى الله تعالى من شر الشيطان؛ لأن أكره ما يكرهه الشيطان الدعوة إلى الله، فهو يسعى جهده للتشويش على الدعاة، والشغب ضدهم، وإخافتهم بواسطة أوليائه؛ لصرفهم عن الدعوة والعمل لها. وبالاستعاذة بالله من شره يجد الداعي إن شاء الله تعالى عوناً محسوساً من الله رب العالمين.

١٥٥ - سادساً - كشف خواطر الشيطان:

ومن وسائل الوقاية العامة من الشيطان: كشف خواطره ووزنها بميزان الإسلام، وهذه الوسيلة مهمة وضرورية للدعاة وللجماعة المسلمة، لأنَّ الشيطان أبغض ما يبغضه الدعوة إلى الله ودينه الإسلام، ولذلك فأبغض ما يبغضه الدعاة والجماعة المسلمة، فهو وذريته وأعوانه يحومون حول هؤلاء الدعاة والعاملين في الجماعة المسلمة، ويقذفون في قلوبهم الوساوس والخواطر؛ لصرفهم عن الدعوة، أو لشغلهم بهذه الخواطر. فعلى الدعاة والجماعة المسلمة الكشف عن هذه الخواطر الشيطانية، ووزنها بميزان الإسلام على النحو الذي فصلته من قبل؛ ليسلم عملهم من الخطأ والمخالفة للشرع، أو من الوقوفِ عن العمل.

الفصل الثاني

قصة ابني آدم عليه السلام

هابيل وقابيل

١٥٦ - خلاصة القصة:

قصّ الله علينا خبر ابنيْ آدم وهما هابيل وقابيل على ما ذكره غير واحد من السلف والخلف. وكان من خبرهما فيما ذكره غير واحد من السلف والخلف أن الله تعالى شرع لآدم أن يزوج بناته من بنيه لضرورة الحال، وكان يولد له في كل بطن ذكر وأنثى، فكان آدم عليه السلام يزوج أنثى هذا البطنِ لذكر البطن الآخر، وكانت أخت هابيل دميمّة، وأخت قابيل وضيئة، فأراد قابيل أن يستأثر بها على أخيه، فأبى آدم ذلك إلا أن يقربا قرباناً، فمن تُقُبِّلَ منه فهي له، فتُقُبِّلَ من هابيل ولم يتقبلْ من قابيل، فكان من أمرهما ما قصَّه الله في كتابه[٢٧٥].

١٥٧ - حسدَ أخاه فعزم على قتله:

قال تعالى: ﴿ ۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾[٢٧٦]. القربان اسم لما يتقرب به إلى الله تعالى من ذبيحة أو صدقة[٢٧٧].

والآية الكريمة تشير إلى أنَّ ابنيْ آدم قرّبا قرباناً، قال أهل التفسير في بيان هذا القربان: إنَّ ابنيْ آدم كان أحدهما صاحب زرع (قابيل). والآخر وهو (هابيل)

---

(٢٧٥) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤١.

(٢٧٦) سورة المائدة، الآية ٢٧.

(٢٧٧) تفسير الرازي ج١١ ص٢٠٥، وفي معجم مفردات القرآن للراغب الأصفهاني ص٤١٤-٤١٥: القربان ما يتقرب به إلى الله، وصار في التعارف اسماً للنسيكة التي هي الذبيحة وجمعه قرابين.

صاحب غنم، وإنهما أُمِرا أن يقربا قرباناً، وأنَّ هابيل قرَّبَ خير غنمه وأسمنها وأحسنها، طيبةً بها نفسه، وأنَّ قابيل قرّب شرَّ زرعه غير طيبة به نفسه، وأن الله تعالى تقبَّل قربان صاحب الغنم أي (هابيل) ولم يتقبل قربان صاحب الزرع أي (قابيل)[٢٧٨]. فقال قابيل لأخيه: تُقُبِّلَ قربانُك ولم يتقبّل مني، والله لأقتلنَّك. فهو إنما غضب عليه وحسدَه؛ لقبول قربانه. فقال له أخوه: ما ذنبي؟! إنما يتقبل الله من المتقين، أي ممّنِ اتقى الله في فعله. أي لا يقبل الله تعالى الصدقات وغيرها من الأعمال القبول المقترن بالرضا والإثابة إلا من المتصفين بالتقوى[٢٧٩].

١٥٨ - موقف هابيل من أخيه العازم على قتله:

لما سمع هابيل تهديد أخيه له بالقتل، وعزمه على قتله أجابه بما أخبرنا الله عنه: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[٢٨٠]. أي لئن مددت إليَّ يدك لتقتلني ظلماً، فأنا لا أمدّ يديَ لأقتلك، فلست بالذي يتصف بهذه الصفة المنكرة المنافية لتقوى الله، فلا أقابل صنيعك الفاسد بمثله، فأكون أنا وأنت سواءً في الخطيئة، ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي أخافُ من أن أصنع كما تريد أن تصنع، بل أصبرُ وأحتسبُ[٢٨١]. وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا تواجه المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار». قالوا: يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه»[٢٨٢].

١٥٩ - استمرار هابيل في وعظ أخيه:

ولما لم ينفع ما قاله هابيل لأخيه؛ لمنعه من الإجرام خوَّفَهُ بعذاب الآخرة، فقال

---

(٢٧٨) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٢. والتقبل قبول الشيء على وجه يقتضي ثواباً. مفردات الراغب ص٤٠٦.

(٢٧٩) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٣، تفسير المنار ج٦ ص٣٤٢.

(٢٨٠) سورة المائدة، الآية ٢٨.

(٢٨١) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٣،تفسير المنار ج٦ ص٣٤٣، تفسير القاسمي ج٦ ص١٥٩.

(٢٨٢) ذكر هذا الحديث ابن كثير في تفسيره ج٢ ص٤٣، والقاسمي في تفسيره ج٦ ص١٦٠ والقرطبي في تفسيره ج٦ ص١٣٧.

له: ﴿ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[٢٨٣].

أي إني أريد أن ترجع بإثم قتلي وإثمك الذي عليك قبل ذلك ﴿ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي تكون - بما حملته من الإثمين: إثم قتلي، وإثمك الخاص بك قبل أن تقتلني - من أهل النار في الآخرة؛ لأنك تكون ظالماً بقتلي، والنار جزاء كل ظالم[٢٨٤].

١٦٠ - تدرج هابيل في وعظ أخيه:

ويلاحظ في وعظ هابيل لأخيه تدرجُهُ في هذا الوعظ؛ ليصرفه عن عزمه على قتله، فقال له ابتداء: إني لم يصدر مني ذنب ولا إساءة إليك حتى تريد قتلي، وإن سبب عدم قبول قربانك يرجع إلى عدم تقواك؛ لأنَّ الله إنما يتقبل من المتقين. ثم بيّن لأخيه أنْ لانيّة عنده في قتله إذا أراد هو قتله؛ لأنه يخاف اللهَ ربَّ العالمين. ثم ذكّره بأنَّ المعتدي يحمل إثم نفسه وإثم من اعتدى عليه، وإنه بهذين الإثمين يكون من أصحاب النار، وهذا جزاء كل ظالم[٢٨٥]. ومع هذا الوعظِ الخالص من هابيل لم يرجع عن عزمه، وأخبرنا الله بتنفيذ جريمته.

١٦١ - فطوّعتْ له نفسه قتل أخيه:

وبعد هذا الحوار بين هابيل وهو يعظ أخاه بهذه المواعظ البليغة التي تثير في النفس معاني الإيمان والخوف من الله ومن عقابه في الآخرة، وتثير عاطفة الأخوة النسبية، والشفقة على هذا الأخ الناصح النبيل الذي يرفض مقابلة السيئة بالسيئة ولو كانت إرادة قتله أقول: بعد هذا كله أخبرنا الله عما آل إليه الأمر فقال تعالى: ﴿ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾[٢٨٦]. أي فحسنت وسولت له نفسه وشجعتْهُ على قتل أخيه فقتله ﴿ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ أي في الدنيا والآخرة[٢٨٧]. ويقول الشهيد سيد قطب في هذه الآية: (بعد هذا كله. بعد التذكيرِ

---

(٢٨٣) سورة المائدة، الآية ٢٩.

(٢٨٤) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٢، وتفسير المنار ج٦ ص٣٤٤.

(٢٨٥) تفسير المنار ج٦ ص٣٤٤.

(٢٨٦) سورة المائدة الآية ٣٠.

(٢٨٧) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٥.

والعظة والمسالمة والتحذير - أي من أخيه هابيل - بعد هذا كله اندفعت النفس الشريرة - أي نفس قابيل - فوقعت الجريمة، وقعتْ وقد ذللت له نفسه كل عقبة وطوّعت له كل مانع.. طوعت له نفسه القتل.. وقتل من؟ قتل أخيه.. وحق عليه النذير ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ خسر نفسه فأوردها موارد الهلاك، وخسر أخاه ففقد الناصر والرفيق، وخسر دنياه فما تهنأ للقاتل حياة، وخسر آخرته فباء بإثمه الأولِ والأخير)[٢٨٨].

١٦٢ - غراب يعلم القاتل دفن أخيه:

ولما قتل قابيل أخاه هابيل تركه لا يدري ما يصنع به، ثم خاف عليه السباع فحمله على ظهره حتى بعث الله غراباً؛ ليريه كيف يدفن أخاه، قال تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾[٢٨٩]. وجاء في تفسيرها أنَّ الله تعالى بعث غرابين أخوين فاقتتلا، فقتل أحدهما الآخر، فحفر له حفرة، ثم حَثَى عليه التراب - وعن ابن عباس قال: جاء غراب إلى غراب ميت، فبحث عليه من التراب حتى واراه، فلما رأى ذلك قال: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾[٢٩٠]، أي لما رأى ما فعل الغراب في دفن الغراب الآخر الذي قتله أو وجده ميتاً، قال: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ اعتراف على نفسه باستحقاق العذاب، وهي كلمة تقال عند وقوع الداهية العظيمة، ولفظها لفظ النداء كأن الويلَ غير حاضرٍ له فناداه ليحضر، أي أيها الويل احضر فهذا أوان حضورك، ثم قام قابيل ودفن أخاه. وبعد هذا الذي وقع أصبح قابيل من النادمين على قتل أخيه؛ لأنه لم ينتفع بقتله، وسخط عليه بسببه أبواه وإخوته، فكان ندمه لأجل هذه الأسباب لا لكونه معصية، فلم يكن ندمه توبة، فلم ينفعه ندمه[٢٩١].

---

(٢٨٨) في ظلال القرآن مجلد٢ طبعة دار الشروق ص٨٧٦.

(٢٨٩) سورة المائدة من الآية ٣١.

(٢٩٠) سورة المائدة من الآية ٣١.

(٢٩١) تفسير الرازي ج١١ ص٢٠٩-٢١٠.

١٦٣ - الحسد داء قديم:

الحسد داء قديم في البشر، بل هو بعض ما يحمله الإنسان في أصل خلقته، وإنما يقمع أو يستأصل من النفس بالإيمان العميق وبالمعرفة الإسلامية. والدليل على قدم هذا الداء واحتمال حصوله عند أي إنسان حسدُ قابيل لأخيه هابيل، وحسد إخوةِ يوسُفَ لأخيهم يوسف كما سنبينه فيما بعد إن شاء الله تعالى.

١٦٤ - تعريف الحسد:

الحسد كراهة النعمة وحب زوالها عن المنعم عليه. والغبطة أن لا تحب زوال النعمة، ولا تكره وجودها ودوامها، ولكن تشتهي لنفسك مثلها[٢٩٢]، وفي مفردات الراغب: الحسد تمني زوال نعمةٍ من مستحقٍ لها وربما كان مع ذلك سعي في إزالتها. وفي تفسير القرطبي: الحسد تمني زوال نعمة المحسود وإن لم يصرْ للمحسود مثلها[٢٩٣].

١٦٥ - تحذير الشرع من الحسد:

الحسد صفة ذميمة تؤذي صاحبها وتجره إلى صفات ذميمة كالكبر وردِّ الحق، ولذلك لما حسد إبليس آدمَ عليه السلام جره هذا الحسد إلى التكبر على أمر الله بالسجود لآدم فلم يسجد، فطرده الله تعالى، وجعل عليه اللعنة إلى يوم الدين. ثم الحسد من صفات أهل الكتاب اليهود والنصارى، قال تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[٢٩٤]. وقد حذرنا الشرع من الحسد، فقد قال تعالى آمراً لنا أن نستعيذ به من شر الحاسد قال تعالى: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾[٢٩٥].

---

(٢٩٢) إحياء علوم الدين للغزالي ج٣ ص١٧٤.

(٢٩٣) معجم مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني ص١١٦، تفسير القرطبي ج٢٠ص٢٥٩.

(٢٩٤) سورة البقرة الآية ١٠٩.

(٢٩٥) سورة الفلق.

وفي السنة النبوية أحاديث كثيرة في ذم الحسد والنهي عنه نذكر منها ما يأتي[٢٩٦].

(أ) - عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والحسد فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب» رواه أبو داود.

(ب) - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «إياكم والظنَّ... ولا تحاسدوا... الخ» رواه البخاري ومسلم.

(ج) - عن الزبير رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «دبَّ إليكم داء الأمم قبلكم: الحسد والبغضاء، والبغضاء هي الحالقة: أما إني لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين» رواه البيهقي والبزار.

(د) - عن ضمرة بن ثعلبة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «لا يزال الناس بخير ما لم يتحاسدوا» رواه الطبراني.

١٦٦ - ضرر الحسد بالحاسد:

الحسد يضر الحاسد ويضر المحسود، أما ضرره بالحاسد فمن وجوه كثيرة (منها): أنه يدخل الهمَّ والحزن إلى قلب الحاسد، ولذلك قيل في الحسد إنه مذموم وصاحبه مغموم. وغمه لا لمصيبة حلّتْ في نفسه أو في ماله أو في أهل بيته وإنما لنعمة أوتيها غيرُه فهو لا يشفى من غمه وحزنِه إلا بزوال نعمة المحسود، وهذا حزن لا مثيل له بين الأحزان، لأن المعهود فيها أنها تكون بسبب مكروه يحلّ في نفس الإنسان، أو في عزيز عليه من مال أو أهل أو قريب أو أخ في الإسلام، أما أن يحزنَ المسلم ويغتمَّ لنعمة يؤتاها مسلم من ربه فهذا لا نجده إلا في حزن الحاسد لنعمة المحسود.

(ومنها): أن الحسد يجر إلى معصية الله بمخالفة أمره أو بفعلِ ما نهىٰ عنه. وكان هو أول ذنب عُصِيَ الله به في السماء، وأول ذنب عُصِيَ به في الأرض: حَسَدَ إبليسُ آدمَ عليه السلام فلم ينفذ أمر الله له بالسجود لآدم حسداً منه له، وحسدَ قابيلُ أخاه هابيل على تقبل الله قربانه فقتله.

---

(٢٩٦) الترغيب والترهيب للمنذري ص٥٤٤-٥٤٧.

(ومنها): أنَّ الحاسد يعصي الشرع في حسده؛ لأنه ينهى عنه، بل إنَّ معصية الحاسد معصية كبيرة وقبيحة، لأنها تقوم على كراهته للمحسود من دون ذنب ارتكبه نحوه ومن دون مضرة منه إليه، وإنما لمجرد نعمة أنعمها الله عليه.

(ومنها): أنَّ الحاسد في حسده كأنه يتسخط على قضاء الله ويعترض على ربه أنْ أعطى المحسود هذه النعمة التي لا يرضاها الحاسد، وهذا أمر كبير جداً قد يجر الحاسد إلى الردة عن الإسلام إذا فقه هذا المعنى الذي يتضمنه الحسد واستمر عليه ولم يرجع عنه.

(ومنها): أنَّ الحسدَ يجعل صاحبه يحزن إذا أصاب المسلمين خيرٌ ويفرح إذا أصابهم ما يسوءهم فيلحق به بعض ما وصف الله به المنافقين، قال تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا﴾[٢٩٧].

(ومنها): أنَّ الحسد يسوّد قلب الحاسد ويشغله عن ذكر الله، وفي هذا خسران عظيم للحاسد.

١٦٧ - ضرر الحسد بالمحسود:

أمرنا الله تعالى بالاستعاذة به من شر الحاسد إذا حسد، فقال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾[٢٩٨]. فهل الحسد لا يضر المحسود إلا إذا ظهر في الخارج بشكل عمل أو قول يؤذي المحسود...؟ وإنه إذا بقي في قلب الحاسد ولم يظهر أثره في الخارج فلا ضرر منه على المحسود...؟ والجواب: هكذا قالوا، ففي تفسير القرطبي (قال العلماء: الحاسدُ لا يضر إلا إذا ظهر حسده بفعل أو قول، وذلك بأن يحمله الحسد على إيقاع الشر بالمحسود، فيتبع مساوئه ويطلب عثراته، قال ﷺ: «إذا حسدت فلا تبغ»[٢٩٩]. ومثله قال الزمخشري، فقد جاء في تفسير القاسمي ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ قال الزمخشري: (أي إذا أظهر حسده وعمل

(٢٩٧) سورة آل عمران، الآية ١٢٠.

(٢٩٨) سورة الفلق.

(٢٩٩) تفسير القرطبي ج٢٠ ص٢٥٩.

بمقتضاه من بغي الغوائل للمحسود، لأنه إذا لم يظهر أثر ما أضمره فلا ضرر يعود منه على من حسده، بل هو الضار لنفسه لاغتمامه بسرور غيره)[300] ولم يعقب القاسمي رحمه الله على قول الزمخشري فكأنه ارتضاه.

١٦٨ - الراجح أن نفس الحسد فيه ضرر للمحسود:

والراجح أن نفس الحسد فيه شر وأذى للمحسود، وإن لم يظهر الحاسد حسده بفعل أو قول يضر بالمحسود، ونسق الآية الكريمة يشير إلى هذا؛ لأن الأمر بالاستعاذة بالله من الحاسد ﴿إِذَا حَسَدَ﴾ دون تعليق الاستعاذة بوقوع الحسد بالعمل بمقتضاه. ثم إنَّ أغوار النفس البشريةِ لا يمكن أن يحيطَ بها ويعرف دقائقها وخصائصها وقواها وتأثيراتها إلا الذي خلقها وهو الله جل جلاله، فلماذا نستعجل وننفي الضرر عن المحسود إذا حسده الحاسد، ونقول: لا ضرر عليه إلا إذا أظهر حسده في الخارج بفعل أو قول، ولا حجة عندنا ولا دليل على هذا الادعاء إلا جهلنا بحقيقة النفس وقواها؟ وقد أجاد الشهيد سيد قطب في تعليل ميله إلى أن الحسد بذاته قد يؤذي، فيستحق الاستعاذة بالله منه، فقد قال رحمه الله تعالى في تفسير قوله تعالى ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾: (والحسد انفعال نفسي ازاء نعمة الله على بعض عباده مع تمني زوالها. وسواء اتبع الحاسد هذا الانفعال بسعي منه لإزالة النعمة تحت تأثير الحقد والغيظ، أو وقف عند حدّ الانفعال النفسي، فإن شراً يمكن أن يعقب هذا الانفعال. . .) ثم قال رحمه الله: (فإذا حسد الحاسد ووجّه انفعالاً نفسياً معيّناً إلى المحسود فلا سبيل لنفي أثر هذا التوجيه لمجرد أن ما لدينا من العلم وأدوات الاختبار لا تصل إلى سرّ هذا الأثر وكيفيته، فنحن لا ندري إلا القليل في هذا الميدان. . .)[301].

١٦٩ - اعتراض وردّه:

ولا يقال هنا على وجه السؤال أو الاعتراض على ما رجحناه: إننا لا نلاحظ ضرراً يحدث بالمحسود بمجرد حسد الحاسد مما يدل على أن الحسد بذاته لا يضر

---

(٣٠٠) تفسير القاسمي ج١٧ ص٣٠٥.

(٣٠١) في ظلال القرآن مجلد ٦ ص٤٠٠٨.

إذا لم يظهر أثره في الخارج، لا يقال هذا لأن قولنا إن الحسد بذاته فيه أذى وضرر أي أنه سبب من الأسباب الضارة شأنه شأن أي سبب سواءً أكان من الأسباب المادية أم المعنوية، ومن المعلوم أن كل سبب لا يظهر أثره ولا يؤدي إلى مسُبَّبه إلا إذا توافرت شروطه، وانتفت عنه موانعه، وهكذا القول في (الحسد) فهو سبب يفضي إلى أثره في إيذاء وإضرار المحسود إذا ما توافرت شروط هذا السبب وانتفت موانعه، فمن هذه الشروط أن يكون هذا الحسد بقدر كاف من التأثير، وأن يكون المحسود بقدر كاف من التأثر به، وبقدر كاف من انعدام الوقاية والحصانة منه، ومن الوقاية منه الإيمانُ العميقُ ودوام ذكر الله والتوكل عليه والاستعاذة به من شر الشيطان وشر الحاسد. وكان ﷺ يقرأ بالمعوذتين ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ . . . السورة و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ السورة وينفث في كفيه ويمسح بهما رأسه ووجهه وما أقبل من جسدِهِ[٣٠٢].

١٧٠ - موقف الدعاة والجماعة المسلمة من الحسد / تمهيد:

بينا فيما سبق أنَّ الحسد داء قديم، وأنّه من طبائع النفس البشرية، وأنه كما وقع بين الناس في الماضي فإنه يقع في الحاضر والمستقبل، فلا يجوز إغفاله وعدم الوقاية منه ومعالجته إذا وقع. . إنَّه داء خطير أشد خطورة من كثير من الأدواء المادية التي تصيب بدن الإنسان، وخطورته تأتي من خطورة وعظم آثاره ومن عدم الشعور به وبآثاره، فكثير من الناس يحملون جرثومة هذا الداء ويتصرفون بمقتضاه وهم لا يشعرون. وإذا كان الأمر كما وصفنا فما هو موقف الجماعة المسلمة والدعاة من هذا الداء الخَطيرِ: الحسد؟ أي ماذا يجب عليهم أن يفعلوه إزاء هذا الداء الخطير؟ والجواب ما يأتي:

١٧١ - أولاً - اعتبار الحسد من مواضيع الدعوة:

على الجماعة المسلمة وسائر الدعاة اعتبار «الحسد» من مواضيع الدعوة التي يجب التأكيد عليها في الخطب والدروس والمواعظ والمقالات التي يقوم بها الدعاة أو التي تقوم بها الجماعة المسلمة. على أن يجري التأكيد في موضوع «الحسد» على

---

(٣٠٢) ذكر هذا الحديث ابن كثير في تفسيره ج٤ ص٥٧٢.

كونه حراماً كحرمة أكل الميتة، وأنه يتضمن الطعن في حكمة الله وفي عدالته في توزيع نعمه على عباده والتسخط على هذا التوزيع، وهذه المعاني كفر وارتداد عن الإسلام قد لا يتنبه إليها الحاسد، فيجب تحذيره منها ومن الحسد الذي يتضمن هذه المعانيَ، وضرورة الإقلاع عن الحسد فوراً، وأن يبين الدعاة في خطبهم وفي دروسهم العامة أو الخاصّةِ لأعضاء الجماعة المسلمة أنَّ الحسد يناقض معاني الأخوة الإسلاميّةِ التي تقوم على المحبة وإرادة الخير للمتآخين، بأخوة الإيمان. إلى غير ذلك مما له علاقة بموضوع الحسد.

١٧٢ - ثانياً - حذر الدعاة والجماعة المسلمة من الحسد:

إن احتمال وقوع الحسد بين الدعاة أنفسهم، أو بين أعضاء الجماعة المسلمة نفسها، أو بين هؤلاء الأعضاء وأولئك الدعاة، هذا الاحتمال لوقوع الحسد بين من ذكرناهم هو احتمال قريب جداً، وليس بالاحتمال البعيد كما قد يظن البعض. وهذا يقتضي المزيد من الحذر؛ لأنَّ اقتراب الخطر يستدعي المزيد من الحذر، ولكن ما هو التعليل لما قلناه من أن احتمال وقوع الحسد بين من ذكرناهم هو احتمال قريب جداً وليس بالبعيد؟ والجواب: إن جرثومة الحسد موجودة في النفس البشرية، وإنما يظهر أثرها بين المشتركين في (وصف معين) ويعرف بعضهم بعضاً، ويوجدون في مكان واحد ويعملون فيه. وأعني (بالوصف المعين) ما يمكن أن يشترك فيه الناس مثل: القرابة، المهنة، الوظيفة في الدولة، الدعوة إلى فكرة معينة أو إلى مبدأ معين، أو غير ذلك مما قد يشترك فيه الناس. ولذلك نجد الحسد بين الأقارب أكثر منه بين الأباعد، بل حتى بين الأقاربِ نجد الحسد أكثر بين من هم أكثر قرباً من غيرهم، كما في حسد إخوة يوسف له وهو أخوهم، حسدوه لاستئثاره بثمرة القرابة دونهم، وهي محبة أبيهم له أكثر من محبته لهم. وقابيل حسد أخاه هابيل؛ لاستئثاره دونه بقبول قربانه مع أن كليهما ولدا آدم عليه السلام أي مع اشتراكهما في البُنُوَّة لآدم.

وكذلك نلاحظ وقوع الحسد بين المشتركين في مهنة واحدة، كالحسد بين القصابين، أو بين النجارين، أو بين الحدادين، ولا نجد مثل هذا الحسد بين قصاب ونجار، أو بين حداد وبناء. وكذلك نجد الحسد بين الموظفين في دائرة واحدة، أو

بين الكتّاب أو بين الشعراء أو بين غيرهم من المشتركين في عمل واحد. إلا أنَّ هذا الحسد بين المشتركين في (وصف معين) مما ذكرنا أمثلة له، إنما يشترط لوقوعه أن يكون هؤلاء المشتركون في هذا الوصف، يعرف بعضهم بعضاً، ويوجدون ويعملون في مكان واحد كأنْ يوجدوا في بلد واحد، أو في مدينة واحدة، أو في محلة واحدة، وكلما ضاق مكان تواجدهم وعملهم فيه كانت الفرصة كبيرةً لوقوع الحسد بينهم، ولهذا لا يقع الحسد بين من لا يعرفُ بعضهم بعضاً كشخص في بلد وآخر في بلد آخر، ولا يعرف أحدهم الآخر أصلاً، أو يعرفه بالاسم فقط. والدعاة يشتركون في وصف (الدعوة إلى الله) ويعرف بعضهم بعضاً إذا كانوا من أعضاء الجماعة الإسلامية وهذا هو الغالب، ويتواجدون في مكان معين - كبلد واحد أو مدينة معينة - ويقومون بسعيهم وعملهم المشكور في هذا المكان المعين، ويترتب على ذلك توافر المناخ الملائم لبروز جرثومة الحسد، وظهور أثرها فيما بينهم. وكذلك القول بالنسبة لأعضاء الجماعة المسلمة يشتركون في وصف الانتماء إليها، ويعرف بعضهم بعضاً، ويوجدون في مكان واحد، وعملهم في نطاق الجماعة في مكان واحد مما يجعل وقوع الحسد محتملاً جداً لتوافر شروطه. ولكن كيف يكون الحذر من الحسد لمنع وقوعه، ورفعه إذا وقع؟

١٧٣ - كيف يكون الحذر من الحسد؟

قلنا: إن الحسد محتمل الوقوع بين الدعاة أنفسهم أو بين أعضاء الجماعة المسلمة، وإن هذا الاحتمال يقتضي الحذر بل والمزيد منه فكيف يكون الحذر المجدي النافع الذي يمنع وقوع الحسد، ويرفعه إذا وقع؟ والجواب يكون بالوقاية منه باتخاذِ أسباب الوقاية، وبمعالجتِهِ بأسباب العلاجِ الناجعة إذا وقع، فما هي وسائل الوقاية من الحسد، وما هي وسائل معالجته لرفعه إذا وقع؟

١٧٤ - وسائل الوقاية من الحسد:

يمكن رد وسائل الوقاية من الحسد إلى ثلاث وسائل: التذكير، والإيمان، والإخلاص. فلنتكلم عن كل واحدة من هذه الوسائل بالقدر الذي نراه كافياً في بحثنا.

١٧٥ - أولاً - التذكير:

ذكرنا فيما مضى أضرار الحسد بالحاسد، ويستحسن أن تقال في مقام التذكير مع ما نذكره هنا لأن الإنسان ينسى، ولا عجب ولا غرابة في أن ينسى، فقد نسي أبونا آدم من قبل، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾[٣٠٣]. وبالتذكير نستدرك ما يفوّته علينا النسيان. وبالنسبة للحسد فإن المسلم قد لا يتنبه إليه؛ لأنه من أعمال القلوب، فعلى الدعاة أن يذكّروا أنفسهم، وأن يذكّروا غيرهم من أفراد الجماعة المسلمة بأضرار الحسد، ووجوب تزكية النفس من أكداره وأقذاره وضرب الأمثال، إلى غير ذلك مما له علاقة بالحسد، ويساعد على وقاية المسلم منه. ويمكن أن نجمل ما يقال في التذكير بما يأتي:

١٧٦ -أ- التذكير بتحريم الحسد:

ذكر فيما سبق تحريم الحسد، وأنه مما يجب ذكره والتأكيد عليه عند الكلام عن الحسد، وتكرار التذكير بتحريم الحسد ضروري؛ لأنه من المحرمات القلبية التي لا يتفطن إليها أكثر الناس. ومن المفيد تكرير النصوص من القرآن والسنة في تحريم الحسد حتىٰ يرسخ في نفس السامع هذا الحكم الشرعي، فمن هذه النصوص قوله تعالى: ﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ﴾[٣٠٤]، وظاهر الإثم ما تعلق بأعمال الجوارح، وباطنه ما تعلق بأعمال القلوب كالنيات الباطلة والكبر والحسد[٣٠٥]، ومثل قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾[٣٠٦] أي ما ظهر منها من أعمال الجوارح، وما بطن منها من أعمال القلوب[٣٠٧]. وقد ذكرنا أن من أعمال القلوب المحرمة الحسد.

---

(٣٠٣) سورة طه، الآية ١١٥.

(٣٠٤) سورة الأنعام، الآية ١٢٠.

(٣٠٥) تفسير المنار ج٨ ص٢١، وتفسير القاسمي ج٧ ص٦٥٧.

(٣٠٦) سورة الأعراف، الآية ٣٣.

(٣٠٧) تفسير القاسمي ج٧ ص٦٩، تفسير المنار ج٨ ص٣٩٥.

١٧٧ - ب - الحسد من أخلاق اليهود:

والحسد من أخلاق اليهود الذميمة، والشأن بالمسلم أن لا يتخلق بأخلاقهم الذميمة، قال تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ . . . ﴾[٣٠٨]، فاليهود أحبوا ارتداد المسلمين عن دينهم بدافع حسد اليهود للمؤمنين[٣٠٩].

وقال تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾[٣١٠]. والمراد بهؤلاء الحاسدين هم اليهود[٣١١]. وهذه الآية في معرض الإنكار عليهم[٣١٢].

١٧٨ - ج - مدح الله الأنصار لتخليهم عن الحسد:

والشأن بالمسلم أن يقتدي بأصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ . . . ﴾[٣١٣]، قال الرازي: فأثنى عليهم بعدم الحسد[٣١٤]، وقال ابن كثير: ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ ﴾ أي لا يجدون - وهم الأنصار - حسداً للمهاجرين فيما فضلهم الله به من المنزلة والشرف والتقديم في الذكر والرتبة. وقال الحسن البصري ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً ﴾ يعني الحسد[٣١٥]، ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ أي يقدم الأنصارُ المحاويجَ على حاجة أنفسهم[٣١٦].

---

(٣٠٨) سورة البقرة الآية ١٠٩.

(٣٠٩) تفسير الرازي ج٣ ص٢٤٤.

(٣١٠) سورة النساء الآية ٥٤.

(٣١١) تفسير القرطبي ج٥ ص٢٥١.

(٣١٢) تفسر الرازي ج٣ ص٢٣٨.

(٣١٣) سورة الحشر الآية ٩.

(٣١٤) تفسير الرازي ج٣ ص٢٣٨.

(٣١٥) تفسير ابن كثير ج٤ ص٣٣٦.

(٣١٦) تفسير ابن كثير ج٤ ص٣٣٨.

١٧٩ -د- في الحسد منزلق إلى الردة:

قال الإمام القرطبي: (وإنما كان الحسد مذموماً؛ لأن فيه تسفيه الحق سبحانه، وأنه أنعم على من لا يستحق)[٣١٧]. وقال الإمام الرازي: (إنك بالحسد كرهت حكم الله، ونازعته في قسمته التي قسمها لعباده، وعدله الذي أقامه في خلقه بخفي حكمته)[٣١٨] فعلى الداعية أن يفهّم الدعاة الآخرين، ويفهّم نفسه قبلهم، وعلى قادة الجماعة المسلمة أن يُفهموا أعضاءها، ما يتضمنه الحسد من معاني الكفر والردة والتي أشار إلى بعضها القرطبي والرازي، حتّىٰ يقلعوا فوراً عن الحسد، ويغسلوا قلوبهم من أقذاره بماء التوبة الطهور.

١٨٠- هـ- في الغبطة عِوَضٌ عن الحسد:

قلنا: إن الحسد أن تحب زوال النعمة التي أنعمها الله على أخيك، فإن اشتهيت لنفسك مثلها دون زوالها فهذا هو الغبطة، وهو جائز بخلاف الحسد إذ هو حرام. وعلى هذا فينبغي للمسلم أن يأخذ بالغبطة لا بالحسد، فينجو من الحرام، ويقع في الحلال مع احتمال ظفره بما يحب من نعمة تشبه نعمة أخيه، لأنه إذا أحب أن تصيبه نعمة مثل التي أعجبته فإنه يدعو الله بذلك، وقد يستجيب الله دعوته ويحصل مقصوده. أما إذا أخذ بالحسد، فهذا لا يفيده قطعاً؛ لأنه إذا زالت نعمة المحسود أو بقيت فهو لا يستفيد شيئاً سوى الحزن الدائم والإثم ومعصية الله، وهذا ما لا يرتضيه مسلم ولا عاقل لنفسه.

١٨١- ثانياً- في الإيمان وقاية من الحسد:

ومن وسائل الوقاية من الحسد: الإيمان العميق الصحيح، لأنه يطرد الحسد؛ لأنه يضادُّه فهو كالماء الطهور إذا صببته على الشيء القذر أزال قذارته، ولذلك لا يجتمع إيمان صحيح في قلب مع الحسد، جاء في الحديث النبوي الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يجتمع في جوف عبد مؤمن غبار في سبيل الله وفيحُ جهنم، ولا يجتمع في جوف عبدٍ الإيمان

---

(٣١٧) تفسير القرطبي ج٢ ص٧١.

(٣١٨) تفسير الرازي ج٣ ص٢٤٣.

والحسد»[٣١٩] وبيان ذلك أن من معاني الإيمان الاعتراف والتصديق بربوبيّةِ الله تعالى لجميع المخلوقات، ومن جملتها بنو آدم، ومن معاني هذه الربوبية أنَّ الله تعالى هو المعطي والمانع، وأنه هم المنعم المتفضل، وأنه هو الرزاق ذو القوة المتين، وأنه يربّي خلقه بما يشاء وكيف يشاء، وبحكمته التي لا نحيطُ بها علماً، وأنه لا اعتراض على حكمه وعطائه ومنعه، وأن الإنسانَ عبد لله، وليس من حق العبد الاعتراض على تصرف سيده، فكيف إذا كان السيد هو خالقه ومدبر أمره وهو الله جلّ جلاله؟ أيليق بهذا العبدِ أن يعقب على عدل الله في توزيع نعمه على خلقه؟ والجواب: لا. فكل اعتراض على مشيئة الله وتوزيع نعمه على خلقه اعتراض يناقض حقيقة الإيمان وإن جاء بلباس الحِسد، ولذلك لا يتصور وجود الإيمان الصحيح مع وجود الحسد في قلب المسلم، فتعميق الإيمان في قلب المسلمِ واستحضار معانيه ومستلزماته ومقتضياته من أهم وسائل الوقاية من الحسد. ثم إنَّ من آثار الإيمان ارتباط المسلم بأخيه المسلم برباط الأخوة الإيمانية، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾[٣٢٠] ومن مقتضيات هذه الأخوّةِ الإيمانية المحبة، وأن يحب المؤمن لأخيه ما يحبه لنفسه، وهو لا يحب زوال نعمته فلا يحبُّ زوال نعمة أخيه.

١٨٢- ثالثاً- الإخلاص والوقاية من الحسد:

المقصود بالإخلاص أنَّ المسلم يقصد بعمله مرضاة الله لا أي شيء آخر، ولا إشراك هذا الشيء الآخر مع مرضاة الله، فلا يقبل الله تعالى من العمل إلا ما كان خالصاً له. فقد جاء في الحديث الشريف عن أبي أمامة قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر- أي السمعة الحسنة- ماله؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا شيء له» فأعادها ثلاث مرات، ويقول رسول الله ﷺ: «لا شيء له» -أي من الأجر- ثم قال ﷺ: «إن الله عز وجل لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً وابْتُغِيَ وجهه». رواه أبو داوود[٣٢١]. وكما يشترط الإخلاصُ في العمل ليقبله الله، يشترط في العمل أيضاً أن يكون صحيحاً أي مشروعاً، فإن لم يكن

---

(٣١٩) رواه ابن حبان في صحيحه كما جاء في الترغيب والترهيب ص٥٤٦.

(٣٢٠) سورة الحجرات الآية: ١٠.

(٣٢١) الترغيب والترهيب للمنذري ج١ ص٥٥.

مشروعاً لم يقبله الله تعالى، فصار الشرط لقبول العمل عند الله أن يكون مشروعاً وخالصاً لله تعالى، قال سبحانه وتعالى: ﴿. . . فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[٣٢٢]. أي فمن كان يرجو ثواب الله فليعمل عملاً صالحاً أي موافقاً لشرع الله، ولا يشرك بعبادة ربه أحداً، أي لا يقصد بعمله وعبادته سوى الله تعالى، ولا يشركْ في قصده هذا أحداً مع الله تعالى. وهذان هما ركنا العمل المقبول: أن يكون العمل مشروعاً، وأن يكون خالصاً لله تعالى[٣٢٣]. وإذا عرف هذا، فالمأمول من الداعية أنه ما جاء إلى الدعوة والعمل لها ودعوة الناس إليها إلا لطلب مرضاة الله تعالى، فيتوفر في عمله شرط القبول وهو مشروعية العمل والإخلاص فيه. وكذلك يقال بالنسبة لعضو الجماعة المسلمة: لم ينتسب إليها إلاّ للعمل فيها طلباً لمرضاة الله فيتحقق في عمله شرط القبول، ومشروعية العمل والإخلاص فيه.

١٨٣- لا حسد مع وجود الإخلاص عند الدعاة:

قلت: إن الإخلاص أن يقصد المسلم بعمله مرضاة الله ولا يشرك أحداً مع الله في هذا القصد. ومعنى ذلك انتفاء موجبات الحسد مثل طلب السمعةِ والصيتِ والمنزلة عند الناس والرئاسة على الآخرين، فهذه الأشياء تكدر الإخلاص وتجعل صاحبها يكره من ينازعُهُ فيها أو يجد فيه معوقاً لبلوغه هذه الأغراض، فيحسده إذا وجد فيه ما يؤخر بلوغه هذه الأغراض. وإذا انتفت موجبات الحسد انتفى الحسد، وترتب على ذلك أنَّ الداعية إذا وجد داعية آخر يؤثر في الناس، ويستجيبون له، ويتجمعون حوله لا يبتئس ولا يضيق صدره، بل يسره ذلك ويفرحه، وهذا هو مقتضى إخلاصه، وقد يُلْبِسُ عليه الشيطان هذا الأمرَ فيُوغِرُ صدره وينفخ في قلبه موسوساً له بأنه لا يريدُ هذا الداعية أن يحتل الصدارة والمنزلة بين الناس، وإنما يجب أن يريدها لنفسه؛ ليكون نفعه للناس أكثر وأشمل، وبالتالي يوسوس له الشيطان بأن يسعى لإبعاده عن الدعوة وتبليغها للناس؛ ليقوم هو بذلك فهذا كله من إيحاء الشيطانِ وإغوائه، لأنَّ المقبول عند الله تعالى -كما ذكرناه- هو العمل المشروع والخالص

---

(٣٢٢) سورة الكهف الآية: ١١٠.

(٣٢٣) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٠٨.

لله، وليس من المشروعية في العمل إبعاد داعية يدعو إلى الله على الوجه الشرعي الصحيح، إبعاده بتنفيرِ الناس منه، أو بمنعِهِ من مباشرة عمله في الدعوة إلى الله، وإنما يفعل ذلك من في قلبه موجبات الحسد مع ضعف الإخلاص أو كدورته وعدم نقائه. ولدفع هذه الوسوسة الشيطانية وتزكية إخلاصه وإبقائه نقياً نظيفاً يجب أن يتذكر ويستحضر في ذهنه ما أخبرنا الله به من طلب موسى عليه السلام من ربه أن يرسل معه أخاه هارون، وأن يشركَهُ في مهمته معللاً ذلك أنه هو أفصح منه لساناً، وبالتالي هو أقدر منه على إنجاح مهمته في تبليغ رسالته إلى فرعون، وهذا شأن المخلص في دعوته، ولم يرَ موسى عليه السلامُ حرجاً في طلبه؛ لأن مقصده إنجاحُ دعوته ومهمته طلباً لمرضاة الله، وهكذا يجب أن يفعل الداعية المخلص. ولنذكر ما أخبرنا الله به من طلب موسى من ربه أن يرسل معه هارون، قال تعالى: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي هَٰرُونَ أَخِي ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي﴾[٣٢٤]. طلب موسى من ربه الإعانة؛ لتبليغ الرسالة بأن يجعل له معيناً من أهله وهو أخوه هارون، وأن يشركه معه في النبوة وتبليغ الرسالة[٣٢٥]. وقال تعالى مخبراً عما طلبه موسى: ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾[٣٢٦] فعلى الداعية المخلص أن يستعين بمن هو أقدر منه في الدعوة أو في جانب منها، ولا يجد في ذلك غضاضة، وإذا رأىٰ داعية ناجحاً في دعوة الناس إلى الإسلام، فعليه أن يفرح لا أن يكيد له بالإبعاد وتنفير الناس منه بحجة أنه أولى به في مهمة الدعوة وتبليغها، فهذا من وساوس الشيطان كما قلت.

١٨٤- من دقيق الحسد بين الدعاة:

وكذلك يفعل عضو الجماعة المسلمة فلا يضيق صدره إذا أسندت الجماعة إلى غيره مسؤولية معينةً، أو إمرة معينةً بحجة أنه هو الأولى بما أسند إلى غيره، وأنه يطمعُ بها لينفع الدعوة فهذا من إغواء الشيطان، ويدل على كدورة إخلاصه، فعليه أن يسارع ويطرد وسوسة الشيطان، ويستعيذ بربه من شره، ويدفع عن نفسه الحسد،

---

(٣٢٤) سورة طه الآية ٢٩- ٣٢.

(٣٢٥) تفسير القرطبي ج١١ ص١٩٢-١٩٤.

(٣٢٦) سورة القصص الآيتان ٣٤-٣٥.

وأن يتذكر سابقتين من سوابق صحابة رسول الله ﷺ:

(الأولى): أنَّ رسول الله ﷺ قبيل وفاته أَمَّر أسامة بن زيد على جيش عزم على إرساله إلى أطراف الشام ،لإرهاب الروم، وكان في الجيش أكابر الصحابة ومنهم عمر بن الخطاب، ولما توفي رسول الله ﷺ كان الجيش في أطراف المدينة، فلما سمع بوفاة رسول الله ﷺ توقف، فلما بويع أبو بكر بالخلافة أبقى أسامةَ على قيادة الجيش، وأمر بتسييره إلى الجهة التي أراد رسول الله ﷺ إرساله إليها، ولم يعترض أحد على إمرة أُسامة على الجيش بالرغم من صغَرِ سنة بالنسبة إلى من كان في الجيش.

(الثانية): عندما عزل عمر بن الخطاب رضي الله عنه خالد بن الوليد من قيادة جيش المسلمين في الشام لمحاربة الروم، وأسند القيادة إلى أبي عبيدة بن الجراح لم يحس خالد بضيق أو حسد لأبي عبيدة، ولم يقل أنا أولى منه بالقيادة، وإنما قال قولته المشهورة: أنا لا أحارب من أجل أبي بكر ولا من أجل عمر إنما أحارب في سبيل الله.

١٨٥- علاج الحسد:

قد لا يأخذ المسلم بوسائل الوقاية من الحسد، أو يأخذها بقدر غير كافٍ؛ فيقع في قلبه الحسد، وربما يجره إلى السعي إلى إيذاء المحسود، وإلحاق الضرر به فعلاً، فكيف يمكنه التخلص منه بعد ما وقع هذا الداء- الحسد- في قلبه، والجواب يكون ذلك، بعون الله تعالى، بما يأتي:

١٨٦- أولاً- الرجوع إلى وسائل الوقاية:

قلنا إنَّ من أسباب أو وسائل الوقاية التذكيرَ والإيمانَ والإخلاصَ، وإنَّ على من ابتُلِيَ بالحسد أن يسعى إلى تحصيل هذه الأسباب بقدر أكبرَ مما حصل عليه منها. فبالنسبة إلى (التذكير) يعيد إلى ذاكرته ما قلناه من تحذير الشرع من الحسد[٣٢٧]، وما قلناه مما يجب أن يتذكّر به ويذكّره للغير[٣٢٨].

(٣٢٧) انظر الفقرة ١٦٥.

(٣٢٨) انظر الفقرة ١٦٦.

١٨٧- ما يزيده المبتلى بالحسد على وسيلة التذكير:

وعليه، أن يذكّر نفسه بما كان عليه سلفنا الصالح من الصحابة الكرام من الترفع عن الحسد والاستعلاء عليه، وعدم الاكتفاء بطهارة قلوبهم من الحسد، بل تجاوزوا ذلك ووصلوا إلى مستوى (الإيثار). قال تعالى في حق (الأنصار) من أصحاب رسول الله ﷺ ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ . .﴾[٣٢٩]، قال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾: يعني حاجة أي يقدمون المحاويجَ على حاجة أنفسهم، ويبدؤون بالناس قبلهم في حال احتياجهم إلى ذلك[٣٣٠]. ثم قال ابن كثير رحمه الله تعالى: ومن هذا المقام- مقام الإيثار- تصدق أبو بكر الصديق رضي الله عنه بجميع ماله، فقال له رسول الله ﷺ: «ما أبقيت لأهلك؟» فقال رضي الله عنه: (أبقيت لهم الله ورسوله)[٣٣١]. وهكذا حالُ عكرمةَ رضي الله عنه وأصحابه يومَ اليرموك، وقد وقعوا جرحى في المعركة فجاء أحدهم (بالماء) ليسقيه عكرمةَ فسمع أنين جريح فأومأ إلى صاحب الماء أنِ اذهب بالماء إلى هذا الجريح، فلما وصل إليه ليناوله الماء سمع هذا الجريحُ أنينَ جريح آخرَ، فأومأ إلى صاحب الماء أنِ أذهبْ به إلى هذا الجريح ، فلما وصل إليه صاحبُ الماء وجده قد مات، ولما رجع إلى الثاني وجده قد مات، ولما رجع إلى الأول وجده قد مات، وهكذا آثر كل واحد منهم صاحبه بالماء وهو أحوج ما يكونون إليه حتى ماتوا جميعاً ولم يشربه أحد منهم رضي الله عنهم وأرضاهم[٣٣٢].

إن على الحاسد وهو يمرر على سمعه قصص أولئك الأخيار في ترفعهم على الحسد، وبلوغهم مرتبةَ «الإيثار» أن يخجل من نفسه، ويستحي وهو متمرغ في أقذار الحسد، ويدعى أنّهُ من المؤمنين، هؤلاء المؤمنون قد بلغوا مرتبة الإيثار،

(٣٢٩) سورة الحشر، الآية ٧.
(٣٣٠) تفسير ابن كثير ج٤ ص٣٣٨.
(٣٣١) تفسير ابن كثير ج٤ ص٣٣٨.
(٣٣٢) تفسير ابن كثير ج٤ ص٣٣٨.

فهل يليق به أن يبقى في هذا المستوى الهابط، ومن سبقوه من أهل الإيمان قد وصلوا إلى مرتبة «الإيثار»؟

١٨٨- شيء آخر يزيده على تذكير نفسه:

ومما يزيده على (تذكير) نفسه لغرض علاجها مما ابتلِيت به من الحسد أن يعرف يقيناً بأنَّ خلوصه من (الحسد) يؤدي به إلى الجنة، وهذا ثمن يسير جداً يدفعه المسلم؛ ليظفر بنعيم الجنة، وأقول: إنه ثمن يسير جداً للظفر بالجنةِ، أقول هذا على سبيل التنزل والتحريض على التخلي عن الحسد، وإلا فإنَّ ترفع المسلم عن الحسد وتخلية قلبه منه، هو مثل تخلصِهِ من مرض وبيلٍ قاطع، وتخلصه منه لا يعُدَّ ثمناً يقدمه لشيء آخر، بل هو يحتاج إلى ثمن للتخلص منه. وما أخبرنا رسول الله ﷺ يدل على ما قلته، فقد روي عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: «كنا جلوساً مع رسول الله ﷺ فقال: يطلع- أي يظهر- الآن عليكم رجل من أهل الجنة، فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وَضَوئهِ[٣٣٣]. قد علق نعليه بيده الشمال، فلما كان الغدّ- أي اليوم الثاني- قال النبي ﷺ مثل ذلك، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى، فلما كان اليوم الثالث، قال النبي ﷺ: مثل مقالته أيضاً فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأول. فلما قام النبي ﷺ تبعه عبد الله بن عمرو، وطلب منه أن يبيت عنده لينظر عمله فبات ثلاث ليال لم يرَ منه كبيرعمل، فقال عبد الله لذلك الرجل: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول لك ثلاث مرات: يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة فطلعت أنت الثلاث مرّاتٍ، فأردت أن أبيت عندك فأنظرَ ما عملك؟ فأقتديَ بك، فلم أرك عملتَ كبير عمل، فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ؟، قال: ما هو إلا ما رأيت، فلما ولّيْتُ دعاني، فقال: ما هو إلا ما رأيتَ غير أني لا أجد في نفسي لأحدً من المسلمين غشاً، ولا أحسد أحداً على خير أعطاه الله إياه، فقال عبد الله بن عمرو رضي الله عنه: هذه التي بلغت بك». رواه الإمام أحمد بإسناد على شرط البخاري ومسلم، والنسائي[٣٣٤].

---

(٣٣٣) تنطف لحيته من وضَوئه، جاء في مختار الصحاح للرازي ص٢٧٧ نطفان الماء سيلانُهُ، والفعل ينطف. فمعنى العبارة: تقطر أو تسيل لحيته من الماء الذي توضأ به.

(٣٣٤) الترغيب والترهيب للمنذري ج٣ ص٥٤٨-٥٤٩.

١٨٩- وشيء آخر يزيده على تذكير نفسه:

ومما يزيده على تذكير نفسه أن يذكر في دعائه بعد صلاة الفجر يومياً ما جاء في أدعية «المأثورات» للإمام حسن البنا رحمه الله «اللهم ما أصْبَحَتْ بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك فلك الحمد ولك الشكر».

١٩٠ - ومن علاج الحسد تعميق معاني الإيمان والإخلاص وما يزيد عليها:

وأما بالنسبة للإيمان والإخلاص والاستزادة منهما، فعلى المبتلىٰ بالحسد أن يسعى إلى تعميق معاني الإيمان في قلبه، وكذلك معاني الإخلاص، وذلك بالتأمل فيما ذكرتُهُ عن الإيمان والإخلاص، وأَنْ يزيد عليه باستحضار ما يعينه على ذلك، ومن ذلك أن يعلم أنَّ أعمالَ الدعوة والانتساب إلى الجماعة المسلمة هي من أعمال الدين التي يتقرب بها المسلم إلى الله، ويرجو من ورائها أحسن الجزاء من ربه تعالى، وإنَّ الشرط لذلك أن يكون مخلصاً في عمله، أي لا يريد من ورائه إلا مرضاة الله وثوابه، وأنَّ مما يكدر صفو إخلاصه (الحسد) الذي يسلِمُهُ إلى قبائح الأعمال، وبالتالي إلى محقِ إخلاصه وخسرانه الأجر من الله، وانكشافِ أمره في الدنيا فيخسر الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين.

١٩١- من سبل علاج الحسد لدى الداعية:

إن على الداعية والمنتسب إلى الجماعة المسلمة، أن ينزّلا نفسيهما منزلة من يأتي إلى المسجد للصلاة، يأتيه ليحصل على أجر الصلاة في جماعة، وليس مقصده أن يصير إماماً، لأنّ أجر الصلاة في جماعة يحصل له سواء أصار إماماً أم مأموماً، بل حصوله على هذا الأجر وهو مأموم أقرب وأيسر من حصوله على هذا الأجر وهو إمام. وهكذا الداعية والمنتسب إلى الجماعة المسلمة يحصل له الأجر إن شاء الله تعالى باشتراكه في عمل الدعوة كداعية، أو قائمٍ بأيِّ عمل متعلق بها، فهو لا يتطلع إلى تولّي الإمْرة في الجماعة ولا إلى الاستئثار والانفراد في أعمال الدعوة كداعية، وبالتالي لا يجد حرجاً في نفسه إذا رأى غيره يتولى إمْرةً أو رئاسةً في الجماعة المسلمة، أو رأى غيره من الدعاة يبرز اسمه ويقبل الناس عليه.

١٩٢- القيام بالأعمال المضادة لمقتضيات الحسد:

ومن سبل العلاج المهمة للحسد أن يقوم المسلم بالأعمال المضادة لموجبات الحسد التي يزينها له الشيطان، فإذا فعل ذلك واستمر عليه شفي إن شاء الله تعالى من داء الحسد. فمن هذه الأعمال المضادة، أن يدعو للمحسود، فإن كان حسده له بسبب نعمة المال، دعا الله له بأن يزيد ماله، وأن يوفقه للقيام بشكره كأن يقول: اللهم وسعّ رزقه، وزد ماله، ووفقه للقيام بشكر ما أنعمت عليه من مال، وأن تجعله وما له كما جاء في الحديث النبوي الشريف «نعم المال الصالح للرجل الصالح». وإن كان حسده لعلمه فإنه يدعو له بزيادة العلم النافع، وبأن يوفقه إلى العمل بما علم، وينفع بعلمه المسلمين ويؤجره عليه. بل عليه أن لا يقف عند حدّ الدعاء، وإنما يقوم بالأعمال المضادة لموجبات الحسد، فإن حمله الحسد على ذمه وتحقيره وتنقيص قدره، كلفّ الحاسدُ لسانَهُ المدحَ له وإظهار مآثره وفضله، وإن حمله الحسدُ على التكبر عليه، كلَّفَ نفسه التواضع له، وإن حمله الحسد على قطع أسباب الخير والعون له كلف نفسه السعي في إيصال الخيراتِ إليه، فإذا عرف المحسود ذلك من الحاسد طاب قلبه وأحبّ الحاسدَ، وذلك يفضي آخر الأمر إلى زوال الحسد من وجهين:

(الأول): أنَّ المحسود إذا أحب الحاسد فعل ما يحبه الحاسد فحينئذ يصير الحاسد محباً للمحسود، ويزول الحسد حينئذ إن شاء الله.

(والثاني): أنَّ الحاسد إذا أتى بضد موجبات الحسد على وجه التكلف يصير ذلك فيما بعد طبعاً وسجيةً، فيزول الحسد عنه[٣٣٥].

---

(٣٣٥) تفسير الرازي ج٣ ص٢٤٤.

الفصل الثالث

قصة نوح عليه السلام

المبحث الأول

خلاصة القصة وبيان ما ورد بشأنها في القرآن

١٩٣- خلاصة قصة نوح عليه السلام:

نوح عليه السلام هو أول رسول بعثه الله تعالى إلى أهل الأرض بعد آدم عليه السلام[٣٣٦]. أرسله الله تعالى إلى قومه؛ ليأمرهم بعبادة الله وحده، ونبذ عبادة ما سواه من أصنام ونحوها، وخوّفهم من عذاب الله إن خالفوه ولم يؤمنوا به، ولكنهم استمروا على كفرهم. وقد لبث نوح عليه السلام في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً[٣٣٧]. وظل يدعوهم هذه المدة ليلاً ونهاراً وسراً وعلانية، وجادلهم وجادلوه في دعوته، ومع هذا كله لم يؤمن من قومه إلا القليل.. وقد أخبره الله تعالى بأنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن، وهم قلة كما قلنا.. وحينئذ دعا نوح على قومه فقال تعالى عن دعاء نوح: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾[٣٣٨]. قال الضحاك: (فدعا عليهم نوح لما أخبره الله بأنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن)، ذكر ذلك الإمام القرطبي في تفسيره عن الضحاك. وقال ابن كثير: وإنما دعا نوح على قومه بهذا الدعاء لخبرته بهم، أي لخبرته بقومه، ومكثه بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عاماً[٣٣٩]. وقد استجاب الله سبحانه وتعالى دعوته فأمره بصنع السفينة، فلما أتمَّ صنعها، وحان وقت هلاكهم

---

(٣٣٦) تفسير ابن كثير ج٢ ص٢٢٣، ج٤ ص٧١.

(٣٣٧) قال تعالى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾: سورة العنكبوت الآية١٤.

(٣٣٨) سورة نوح، الآيتان ٢٦، ٢٧.

(٣٣٩) تفسير القرطبي ج٩ ص٢٩، تفسير ابن كثير ج٤ ص٤٢٧.

بالغرق أمره الله تعالى بأن يحمل فيها ما أخبرنا به، قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ﴾[٣٤٠]، وهكذا أهلكهم الله بالغرق بعد أن أمهلهم هذه المدة الطويلة؛ لأن الله تعالى يمهل ولا يهمل، وهذا جزاء الظالمين الكافرين.

١٩٤- دعوة نوح هي دعوة جميع الرسل:

إن ما دعا إليه نوح قومه هو عبادة الله وحده، فهو المعبود الحق ولا معبود بحق لقومه ولا لغيرهم من البشر إلا الله تعالى، قال ربنا جل جلاله: ﴿ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴾[٣٤١]. وعبادة الله وحده هي دعوة جميع رسل الله، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ ﴾[٣٤٢]. وإذا كانت عبادة الله وحده ونبذ عبادة ما سواه هي موضوع دعوة نوح ودعوة جميع رسل الله، فما معنى عبادة الله وحده؟

١٩٥- معنى عبادة الله:

العبادة اسم جامع يجمع غاية الحبّ لله وغاية الذلّ له، فمن ذلّ لغيره مع بغضه له لم يكن عابداً له، ومن أحبه من غير ذل له لم يكن عابداً له، والله سبحانه وتعالى يستحق أن يُحَبَّ غاية المحبة، بل يكون هو المحبوب المطلق الذي لا يُحبُّ شيء إلا له، وأن يُعظَّم ويُذلَّ له غاية الذل، بل لا يُذلُّ لشيء إلا من أجله[٣٤٣].

١٩٦- أساليب نوح في الدعوة:

سلك نوح عليه السلام في دعوة قومه إلى الله تعالى أساليب متعددة آملاً من وراء هذا التعدد أن يستجيب قومه لما يدعوهم إليه، ولكن مع ذلك لم يستجب له إلا القليل من قومه، وهذا يدل على أنَّ أحقية الدعوة، وصحة أسلوب تبليغها لا يكفيان لاستجابة المدعوين وقبولهم بها، بل لا بد من قابلية المدعوين إلى هذه الاستجابة. ومن أساليب نوح في الدعوة تلطفه في مخاطبة قومه وهو يدعوهم إلى الله تعالى،

---

(٣٤٠) سورة هود، الآية ٤٠.

(٣٤١) سورة الأعراف، الآية ٥٩.

(٣٤٢) سورة النحل، الآية ٣٦.

(٣٤٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ج١٥ ص١٦٢.

وإظهار شفقته بهم وترغيبهم بما يرغبون فيه في الدنيا إن هم استجابوا لدعوته، وتحذيرهم من مغبة عنادهم وإصرارهم على رفض دعوته، ودعوته لهم في أحوال وظروف متعددة فهو يدعوهم ليلاً ونهاراً، وسراً وعلانية مع تكرارٍ لدعوتهم وصبر على جهلهم وعنادهم. ونتكلم فيما يأتي بإيجاز عن هذه الأساليب، وما يمكن أن يستفاد منها للدعوة والدعاة.

١٩٧- أولاً - التلطف في مخاطبة قومه:

خاطب نوح عليه السلام قومه وهو يدعوهم إلى الله تعالى بما عسى أن يثير مشاعرهم نحوه فيقبلونَ عليه، ويقبلون منه ما يدعوهم إليه، خاطبهم بقوله «يا قوم» قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ..﴾[٣٤٤]. فهو يشعرهم بهذه الكلمة بأنهم (قومه) فهو منهم، والأصل أن الشخص يريد الخير لقومه، فعلى قومه أن يستمعوا لما يدعوهم إليه ويتأملوا فيه. وفي آية أخرى قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾[٣٤٥]. فكلمة (أخوهم) وهي تعني أخوّةَ النسب لا الدين، تثير فيهم عاطفة الأخوة النَّسبيَة وتوحي لهم بأنه يريد لهم الخير، فهو ليس بعيداً عنهم ولا غريباً منهم، إنه أخوهم.

١٩٨- ثانياً - إظهار شفقته عليهم ونصحه لهم:

ولم يكتف نوح عليه السلام بتلطفه في مخاطبة قومه وإنما أظهر لهم شفقته عليهم وحرصه على نصحهم وإرادة الخير لهم، ومن مظاهر شفقته عليهم، أنه أنذرهم من عذاب الله إن رفضوا دعوته، والشفيق يحذر من يشفق عليه مما يضره ومن أسباب هذا الضرر، قال تعالى مخبراً عن نوح: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[٣٤٦]، يقول تعالى مخبراً عن نوح عليه السلام إنه أرسله إلى قومه آمراً له أن ينذرهم بأس الله قبل حلوله بهم، فإن تابوا وأنابوا وقبلوا دعوة نوح رفع عنهم ما أنذرهم به[٣٤٧]، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا

---

(٣٤٤) سورة الأعراف الآية ٥٩.

(٣٤٥) سورة الشعراء، الآية ١٠٦.

(٣٤٦) سورة نوح الآيتان ١، ٢.

(٣٤٧) تفسير ابن كثير ج٤ ص٤٢٤.

إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[٣٤٨]، أيّ أخاف عليكم من عذاب يوم القيامة إذا لقيتمُ الله وأنتم مشركون به[٣٤٩]. ولما ردّ الملأ من قومه وهم السادة والكبراء والقادة على نوح عليه السلام بقولهم: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[٣٥٠] قال لهم نوح عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[٣٥١]، فقول نوح عليه السلام ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ أي أقصد صلاحكم بإخلاص[٣٥٢]، ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي أعلم من الأمور الغيبية التي لا تُعلم إلا من طريق الوحي، أعلم أشياء لا علم لكم بها، وأعلم من قدرة الله وشدة بطشه على أعدائه وأنَّ بأسه لا يُردَ عن القوم المجرمين الكافرين مالا تعلمونه أنتم[٣٥٣].

١٩٩- تعليق ابن كثير على ما قاله نوح لقومه:

قال ابن كثير: وهذا شأن الرسول أن يكون مبلغاً مبيناً في تبليغه ناصحاً لقومه عالماً بالله لا يدركه أحدٌ من خلق الله في هذه الصفات[٣٥٤].

٢٠٠- ثالثاً- الدعوة في الليل والنهار وبمختلف الكيفيات:

وكان نوح عليه السلام يغتنم كل فرصة ليدعو قومه إلى الله، سواء سنحت له هذه الفرصة في ليل أو نهار، كما أنه- عليه السلام- كان ينوع صيغ وكيفيات دعوته لهم، فكان يدعوهم جهاراً وسراً وعلانية على أمل أن تنجح معهم هذه الأساليبُ فيستجيبوا لدعوة نوح قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا . . .﴾ إلى قول تعالى: ﴿ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾[٣٥٥] أي دعوتهم مرة

---

(٣٤٨) سورة الأعراف، الآية ٥٩.

(٣٤٩) تفسير ابن كثير ج٢ ص٢٢٣.

(٣٥٠) سورة الأعراف، الآية٦٠.

(٣٥١) سورة الأعراف الآيتان ٦١،٦٢.

(٣٥٢) تفسير القاسمي ج٧ ص١٦٠.

(٣٥٣) تفسير القاسمي ج٧ ص١٦٠.

(٣٥٤) تفسير ابن كثير ج٢ ص٢٢٣.

(٣٥٥) سورة نوح الآيات ٥،٨،٩.

بعد مرة ليلاً ونهاراً على وجوه متنوعة ما بين مجاهرة وإظهار بلا إخفاء، وما بين إعلان وصياح بهم، وما بين إسرار فيما بيني وبينهم في خفاء. وهذه المراتب والتنوع في أساليب الدعوة أقصى ما يمكن للآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أن يفعلها لتكون أنجعَ فيهم(٣٥٦).

٢٠١- رابعاً- الترغيب:

رغّبَ نوح قومه في الاستجابة لدعوته بما وعدهم به من مغفرة الله تعالى لذنوبهم ومن إطالة أعمارهم، وفي إطالتها فرصة طيبة لهم؛ ليزدادوا من فعل الخير، وبهذا وبمغفرة ذنوبهم منفعة مؤكدة لهم في الآخرة، قال تعالى مخبراً عن نوح عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(٣٥٧) أمرهم نوح عليه السلام بثلاثة أشياء: أن يعبدوا الله ويتقوه ويطيعوه فيما يأمرهم به وينهاهم عنه، ورغّبَهم في هذه الأشياء الثلاثة بأنهم إن فعلوها غفر الله ذنوبهم، وأطال أعمارهم، وفي ذلك خير مؤكد ومنفعة لهم في الآخرة.

ثم وعدهم نوح عليه السلام أنهم إن استجابوا لدعوته، وعبدوا الله وحده، وتابوا إليه واستغفروه، فإنَّ الله تعالى سيسبغ عليهم نعمه في الدنيا، وييسر لهم ما يحبونه من منافعها، وهذا من نوح عليه السلام تشجيع لقومه على طاعته، وترغيب لهم في الاستجابة لدعوته بما وعدهم به من خيرات الدنيا ومتاعها. قال تعالى مخبراً عن نوح عليه السلام: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾(٣٥٨)، أي إذا تبتُمْ إلى الله، واستغفرتموه وأطعتموه كثر الرزق عليكم، وأسقاكم من بركات السماء، وأمدكم بأموال متنوعة وبنين، أي أعطاكم الأموال والأولاد وجعل لكم جنات، أي بساتين، فيها أنواع الثمار وخلّلَها بالأنهار الجارية بينها. وهذا أسلوب الدعوة بالترغيب(٣٥٩).

---

(٣٥٦) تفسير القاسمي ج١٦ ص٢٩٥.

(٣٥٧) سورة نوح الآيات ٢-٤.

(٣٥٨) سورة نوح الآيات ١٠-١٢.

(٣٥٩) تفسير ابن كثير ج٤ ص٤٢٥، تفسير الرازي ج٣٠ ص١٣٨.

٢٠٢- خامساً - الترهيب:

ولم يقتصر نوح عليه السلام على أسلوب الترغيب في تبليغ دعوته إلى قومه وحثهم على الاستجابة لها، وإنما أخذ أيضاً بأسلوب الترهيب أي تخويفهم من العذاب في الدنيا والآخرة إن هم عصوه ولم يستجيبوا لدعوته، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(٣٦٠)، قال مقاتل: يعني الغرق بالطوفان(٣٦١)، وهذا ترهيب لهم من عصيانه بعذاب الدنيا بالغرق. قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾(٣٦٢)، أي أخاف عليكم عذاب يوم القيامة إذا خالفتم أمري، ولقيتُم الله وأنتم مشركون به(٣٦٣). وهذا ترهيب لهم بعذاب الله يوم القيامة إن خالفوه، ولم يستجيبوا لدعوته، وقال تعالى عما قاله نوح لقومه: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾(٣٦٤) أي ما لكم لا ترون لله عظمة. وقال ابن عباس: ما لكم لا تعظمون الله حق عظمته أي لا تخافون من بأسه ونقمته(٣٦٥).

٢٠٣- التأكيد على العبودية لله في جميع أساليب الدعوة:

ويلاحظ أن التأكيد على أنَّ العبودية لله، ظاهر وبارز في جميع أساليب الدعوة، منها الآيات التي ذكرناها قبل قليل مثل قوله تعالى حكاية عن قول نوح: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ. . .﴾(٣٦٦) وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ . .﴾(٣٦٧). فنوح عليه السلام تلطف مع قومه في صيغ الخطاب، ولكن مع وضوح إخبارهم بأن الله هو المعبود الحق وأنَّ عليهم أن يعبدوه وحده ولا يشركوا بعبادته أحداً.

---

(٣٦٠) سورة نوح الآية ١.

(٣٦١) تفسير الرازي ج٣٠ ص١٣٤.

(٣٦٢) سورة الأعراف الآية ٥٩.

(٣٦٣) تفسير ابن كثير ج٢ ص٢٢٣.

(٣٦٤) سورة نوح، الآية ١٣.

(٣٦٥) تفسير ابن كثير ج٤ ص٤٢٥.

(٣٦٨) سورة الأعراف من الآية ٥٩.

(٣٦٧) سورة نوح الآيتان ٢،٣.

٢٠٤- جدال نوح مع قومه:

لقد أكثر نوح عليه السلام الجدال مع قومه، حتى قالوا ما أخبرنا الله عنهم: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا..﴾[٣٦٨]. وهذا يدل على أنه عليه السلام قد أكثر في الجدالِ معهم، وذلك الجدال ما كان إلا في إثبات التوحيد والنبوة واليوم الآخر[٣٦٩]. والجدال في الدين محمود كجدال نوح والأنبياء أقوامَهم حتى يظهر الحق، فمن قبله أفلح، ومن رده خاب وخسر. وأما الجدال لغير الحق حتى يظهر الباطل في صور الحق فمذموم وصاحبه في الدارين ملوم[٣٧٠].

٢٠٥- جدال قوم نوح معه:

وكان جدال قوم نوح يقوم على الباطل والافتراء والقول بلا علم ولا دليل ولا برهان، حتى إذا انقطعوا في الجدال وظهر باطلهم، وشدد نوح عليهم الخناق بالحجة والبرهان ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[٣٧١]. أي فأتنا بالعذاب الذي تعدنا به إن كنت صادقاً في قولك وفيما تدعيه لنفسك من أنك رسول الله.

٢٠٦- نماذج من الجدال بين نوح وقومه:

أ- قولهم عن نوح أنه في ضلال:

قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[٣٧٢] والملأ هم السادة والقادة والكبراء في المجتمع، وهؤلاء هم الذين قالوا لنوح عليه السلام ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي في دعوتك إيانا أن نترك عبادة هذه الأصنام التي وجدنا آباءنا يعبدونها.

فقال نوح عليه السلام في جوابه لهم: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن

---

(٣٦٨) سورة هود، الآية ٣٢.

(٣٦٩) تفسير الرازي ج١٧ ص٢١٨.

(٣٧٠) تفسير القرطبي ج٩ ص٢٨.

(٣٧١) سورة هود الآية ٣٢.

(٣٧٢) سورة الأعراف الآية ٦٠.

﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾(٣٧٣) . هكذا أجابهم نوح عليه السلام بجواب لطيف رقيق قوي الحجة، فنفى أن تكون به ضلالة؛ لأنه رسول من رب العالمين، والشأن في الرسول من رب العالمين أن يكون على الهدى والحق المبين، وليس على الضلال، وأنه جاء ليبلغهم رسالات ربه، وينصحَ لهم، وهذا هو شأن رسول الله: يكون مبلغاً عن ربه، صادقاً في تبليغه، ناصحاً لمن يبلغهم، عالماً بالله(٣٧٤).

ثم قال نوح في جوابه لهم: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾(٣٧٥) . أي لا تعجبوا من هذا، فإن هذا ليس بعجيب أن يوحي الله تعالى إلى رجل منكم رحمة بكم، ولطفاً وإحساناً إليكم؛ لينذركم ولتتقوا نقمة الله ولا تشركوا به(٣٧٦).

٢٠٧- ب - ما أثاروه من الشبهات في جدالهم مع نوح:

قال تعالى عن قوم نوح وما أثاروه من الشبهات في جدالهم مع نوح: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾(٣٧٧).

وقال تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾(٣٧٨) . وقال تعالى: ﴿۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾(٣٧٩).

---

(٣٧٣) سورة الأعراف الآية ٦٠.

(٣٧٤) تفسير ابن كثير ج٢ ص٢٢٣.

(٣٧٥) سورة الأعراف الآية ٦٣.

(٣٧٦) تفسير ابن كثير ج٢ ص٢٢٣، تفسير المنار ج٨ ص٤٩٣.

(٣٧٧) سورة هود، الآية ٢٧.

(٣٧٨) سورة المؤمنون، الآيتان ٢٤،٢٥.

(٣٧٩) سورة الشعراء، الآيات من ١١١-١١٤.

٢٠٨- تعداد شبهاتهم في جدالهم مع نوح:

والمستفاد من الآيات التي ذكرناها أنهم أثاروا في جدالهم مع نوح جملة شبهات تبريراً لرفضهم دعوة نوح عليه السلام، وهذه الشبهات هي: (أولاً) كون نوح عليه السلام من البشر. (ثانياً) النبي يكون ملكاً. (ثالثاً) إنّ أتباع نوح من الأرذلين (رابعاً) أنهم لا يرون لنوح ولا للمؤمنين به من فضل عليهم. (خامساً) أنه بدعوته يريد أن يتفضل عليهم. (سادساً) أنه رجل مجنون.

٢٠٩- الشبهة الأولى: كونه من البشر:

قال تعالى: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ أي أنت بشر مثلنا في الجنس لا مَزِيَّةَ لك علينا تكون بها نذيراً لنا، نطيعك ونتبعك مذعنين لنبوتك ورسالتك. فالمساواة في البشرية بينهم وبينه تنافي في زعمهم دعوى تفوق أحد المتساوين على الآخر بجعل أحدهما تابعاً طائعاً، والآخر متبوعاً مطاعاً[٣٨٠]. ثم إن نوحاً ليس بمَلَكٍ، ولكنه بشر فكيف يصح ويجوز - في زعمهم - أن يوحىٰ إليه من دونهم؟[٣٨١].

٢١٠- الرد على هذه الشبهة:

قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ . . . ﴾[٣٨٢]. ومعنى هذه الآية: أرأيتم إن كنت على يقين، وأمرٍ جلي، وحجة ظاهرة من ربي فيما جئتكم به، ﴿ وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ ﴾ وهي النبوة ﴿ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ ﴾ أي خفيت عليكم فلم تهتدوا إليها، ولا عرفتم قدرها، بل بادرتم إلى تكذيبها وردها، فلم تستبينوا بها على ما تدل عليه من التفرقة بيني وبينكم، وإن كنت من البشر مثلكم؛ لأنَّ حصول المساواة في البشرية لا يمنع من حصول المفارقة في صفة النبوة والرسالة، وما تستلزمه هذه الصفة- صفة النبوة والرسالة- من وجوب متابعتكم وطاعتكم لي، لأني بهذه الصفة أبلغكم ما يوحيه

---

(٣٨٠) تفسير المنار ج١٢ ص٦١، ٦٢.

(٣٨١) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٤٢.

(٣٨٢) سورة هود الآية ٢٨.

إليَّ ربي. فإذا أنتم جهلتم ما آتاني ربي من رحمة من عنده وهي النبوة، وعُمِّيَتْ عليكم فهل نلزمكم إياها بالجبر والإكراه؟ أي فهل أقدر على أن أجعلكم بحيث تصلون إلى معرفتها والإيمان بها شئتم أو أبيتم، والحال أنكم كارهون لها إنكاراً وجحوداً واستكباراً؟ أي لا أقدر على ذلك ولا أحاول فعله بالإكراه؛ لأنَّ الإيمان يكون عن رضا واختيار لا عن جبر أو إكراه(٣٨٣).

٢١١- الشبهة الثانية: النبي يكون ملكاً:

قال قوم نوح في تبرير رفضهم دعوة نوح: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾(٣٨٤) قولهم ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ أي لو شاء الله- بزعمهم- إرشاد البشر عن طريق إرسال أنبياء؛ لبعث لهذا الغرض ملائكة، فهم أقدر من البشر على تحقيق هذا الغرض؛ لعلو شأنهم وشدة سطوتهم، فالخلق ينقادونَ إليهم ولا يشكون في رسالتهم، فلما لم يفعل ذلك علمنا أنه ما أرسل رسولاً البتة، وقالوا: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي ما سمعنا بمثل هذا الذي يدعي، وهو بشر، أنه رسول الله(٣٨٥).

٢١٢- الرد على هذه الشبهة:

إن نوحاً عليه السلام أرسله الله ليبلغ رسالته إلى قومه، قال تعالى حكاية عما قاله نوح: ﴿وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى﴾(٣٨٦) ولا قيد ولا تقييد على إرادة الله فيمن يرسله رسولاً، فإن شاء أرسل رسولاً من البشر، ولا تعقيب على مشيئته. وقال تعالى حكاية عما قاله نوح لقومه: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾(٣٨٧) أي لا تعجبوا من هذا، فإنَّ هذا ليس بعجيب أن يوحي الله إلى رجل منكم رحمةً بكم ولطفاً وإحساناً إليكم؛ لينذركم

---

(٣٨٣) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٤٣، تفسير الرازي ج١٧ ص٢١٣، تفسير المنار ج١٢ ص٦٣-٦٤.

(٣٨٤) سورة المؤمنون الآية ٢٤.

(٣٨٥) تفسير الرازي ج٢٣ ص٩٢.

(٣٨٦) سورة الأعراف الآية ٦٠.

(٣٨٧) سورة الأعراف الآية ٦٣.

ولتتقوا نقمة الله ولا تشركوا به[٣٨٨]. ووجه الرحمة بإرسال رجل من قوم نوح إليهم، أي بإرسال رسول إليهم من البشر وليس من الملائكة. أنَّ البشر لا يطيقون رؤية الملائكة في صورتهمُ الأصلية، لأنَّ البشر في حالتهم العادية غير مستعدين لرؤية الملائكة في حالتهم التي خلقوا عليها، ولهذا لو أرسل الله تعالى رسولاً من الملائكة لجعله رجلاً أي في صورة رجل حتى يمكن للبشر أن يروه ويسمعوا منه، وعند ذلك يعتقدون أنه بشر وليس ملكاً، فلا يتحقق ما يريدونه من أن يكون الرسول ملكاً، قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ أي لو جعل الله تعالى الرسول المبعوث إلى البشر ملكاً لجعل الله تعالى هذا الملك متمثلاً في صورة بشر لتمكينهم من رؤيته وسماع كلامه الذي يبلغه عن الله تعالى، ولو جعله الله تعالى ملكاً في صورة بشر لاعتقدوا أنه بشر؛ لأنهم لا يدركون منه إلا صورته وصفاته البشرية التي تمثل بها، وحينئذ يقعون في نفس اللَّبْس والاشتباه الذي يلبسونه على أنفسهم باستنكار جعل الرسول بشراً، ولا ينفكون يقترَحون جعل الرسول ملكاً، ولا يمكن أن يأتيهم الملك إلا في صورة بشر، فلا يعتقدون أنه ملك وهكذا يبقى الاشتباه عليهم، وكانوا في غنى عن ذلك لو آمنوا أنَّ إرسال الرسول من البشر هو من رحمة الله بهم وإحسانه إليهم حتى يمكنهم أن يسمعوا منه ويفهموه، وبهذا يحصل مقصود النبوة والرسالة[٣٨٩].

٢١٣- الشبهة الثالثة - الأرذلون هم أتباع نوح:

قال تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ..﴾[٣٩٠].

الملأ هم السادة والكبراء والرؤساء والأشراف من الكافرين من قوم نوح عليه السلام، فهؤلاء قالوا لنوح عليه السلام رداً لدعوته: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ أي أرداؤنا وأخساؤنا، ومن هم دون طبقة الأشراف والأكابر، والذين لا حسب لهم ولا مال ولا جاه، أي الفقراء أو

---

(٣٨٨) تفسير ابن كثير ج٢ ص٢٢٣.

(٣٨٩) تفسير المنار ج٧ ص٣١٥ وآية ﴿ولو جعلناه ملكاً..﴾ في سورة الأنعام ورقمها ٩.

(٣٩٠) سورة هود، الآية ٢٧.

الضعفاء والخسيسو الصناعات، ولم يتبعْكَ الأشرافُ والرؤساء منا، ثم هؤلاء الذين اتبعوك لم يكن اتباعهم لك عن تروّ منهم، ولا فكر ولا نظر، بل بمجرد ما دعوتهم أجابوك فاتبعوك ولهذا قالوا: ﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ أي اتبعوك حين ابتدؤوا ينظرون وما احتاطوا في ذلك الرأي، وما أعطوه حقه من الفكر الصائب والتدبر الوافي، ولو أنهم أمعنوا النظر والفكر لم يتبعوك[٣٩١].

وقال تعالى في سورة الشعراء عن الملأ من قوم نوح وما قالوه له: ﴿ ۞ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾[٣٩٢]. أي أنصدق قولك وقد اتبعك الأرذلون أي أنؤمن لك نحنُ وأتباعك الأرذلون فنُعدَّ منهم[٣٩٣].

٢١٤- الرد على هذه الشبهة:

قال نوح عليه السلام في رد هذه الشبهة كما حكاه الله عنه: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ۝ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٣٩٤].

والمعنى أنَّ نوحاً عليه السلام قال لقومه: أنا لا أطلب مالاً منكم على تبليغكم رسالة ربي حتى يتفاوت الحال عندي بسبب كون المستجيب للدعوة فقيراً أو غنياً، وإذا كان الأمر كذلك فسواء أكانوا فقراء أم أغنياء، فأنا أدعوهم، ومن يستجيب فهو من أتباعي وجلسائي فقيراً كان أو غنياً. وكأنَّ القوم سألوا نوحاً عليه السلام أن يطرد الذين آمنوا عن مجلسه فقال لهم: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ أي ليس من شأني ولا بالذي يقع مني طرد الذين آمنوا من قربي وجواري، لاحتقاركم لهم ووصفكم إياهم بالأراذل جهلاً منكم بقدرهم

---

(٣٩١) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٤٢، تفسير الرازي ج١٧ ص٢١٢-٢١٣، تفسير القرطبي ج٩ ص٢٣ وتفسير المنار ج٧ ص٦١.

(٣٩٢) سورة الشعراء الآية ١١١.

(٣٩٣) تفسير القرطبي ج١٣ ص١١٩-١٢٠.

(٣٩٤) سورة هود، الآيات ٢٩-٣١.

ومنزلتهم عند الله الذي سيلاقونه، فيكون نوح عليه السلام قد قال هذا على وجه الإعظام لهم بلقاء الله عز وجل، وبمنزلتهم العالية عنده تعالى، ويمكن أن يكون نوح عليه السلام قد قال هذا على وجه الاختصام، أي لو فعلت ذلك وطردتهم من قربي ومن مجلسي لخاصموني عند الله تعالى، فيجازيهم على إيمانهم بأحسن الجزاء، ويجازي من طردهم بما يستحقه من العقاب.

ثم أكدَّ نوح عليه السلام عزمه على عدم طرد الذين آمنوا فقال: ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، أي من ينصرني من عذاب الله إن طردتهم بعد أن آمنوا لي واتبعوني فيما أبلغهم عن الله تعالى، أفلا تتذكرون؟ أي أتصرون على جهلكم وطلبكم في طردهم ولا تتذكرون أن لهم رباً ينصرهم وينتقم لهم.

ثم أكد نوح عليه السلام هذا البيان بوجه آخر فقال: ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾، أي كما لا أسألكم مالاً فكذلك لا أدعي أني أملك مالاً، ولا لي غرض في المال لا أَخْذاً ولا دفعاً، ﴿ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ حتى أصل به إلى ما أريد لنفسي، ولأتباعي، ﴿ولا أقول إني ملك﴾ حتى أتعظم بذلك عليكم، بل طريقي الخضوع والتواضع، ومن كان هذا شأنه وطريقه فإنه لا يستنكف عن مخالطة المؤمنين الفقراءِ والمساكينِ.

ثم أكد نوح عليه السلام عزمه على عدم طرد الذين آمنوا بقوله: ﴿ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ﴾، وهذا كالدلالة على أنهم كانوا ينسبون أتباع نوح مع الفقر والذلة إلى النفاق، فقال: إني لا أقول ذلك لأنه من باب الغيب، والغيب لا يعلمه إلا الله، وعلى هذا فأنا لا أقول عن هؤلاء الذين تحتقرونهم وتزدرونهم إنهم ليس لهم عند الله ثواب على أعمالهم، فالله تعالى أعلم بما في نفوسهم، فإن كانوا مؤمنين باطناً كما هو الظاهر من حالهم فلهم من الله حسن الجزاء، ولو ادعى لهم أحد بشرٍ بعدما آمنوا لكان ظالماً قائلاً ما لا علم له به(٣٩٥).

---

(٣٩٥) تفسير الرازي ج١٧ ص٢١٤-٢١٦، ابن كثير ج٢ ص٤٤٣، تفسير القرطبي ج٩ ص٢٦-٢٧، تفسير المنار ج١٢ ص٦٥-٦٨.

٢١٥- مزيد من الرد على شبهتهم:

وقال تعالى عن قوم نوح وما قالوه تبريراً لرفضهم الاستجابة له: ﴿ ۞ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ لَوۡ تَشۡعُرُونَ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴾[٣٩٦]. أي أنهم قالوا لنوح عليه السلام: لا نؤمن لك ولا نتبعك ونتأسى في ذلك بهؤلاء الأرذلين الذين اتبعوك وصدقوك وهم أراذلنا، وإنما استرذلوهم لاتضاع نسبهم، وقلة نصيبهم من الدنيا، أو لكونهم من أصحاب الصناعات الخسيسة، فإنَّ الشرف عندهم بالمال والحسب والنسب لا بالأخلاق الفاضلة التي تحمل على تعرُّفِ الحق والتوجه إليه، ثم اعتناقه والمحافظة عليه. وقوله ﴿ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ أي لم أُكَلَّفِ العلم بأعمالهم إنما كُلِّفْتُ أن أدعوهم إلى الإيمان، والاعتبار بالإيمان لا بالِحرفِ والصنائع، ولا بالغنى والفقر ولا بالحسب والنسب. فلا يختلف الحال من ذلك بسبب الفقر والغنى، ولا بشرف المكاسب ودناءتها، وكأنهم قالوا: إنما اتبعك هؤلاء الضعفاءُ طمعاً في العزة والمال، فقال نوح: إني لم أقف على باطنهم، وإنما لي ظاهرهم، فعليَّ أن أقبل تصديقهم إيَّاي، فعلينا الظاهر والله يتولى السرائر، فحسابهم في أعمالهم وإيمانهم على ربي تعالى وليس عليَّ، وقوله: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴾ كأنهم سألوا نوحاً عليه السلام أن يبعدهم عنه، ويتابعوه ويؤمنوا له، فأبى عليهم ذلك، وأجابهم بالجواب القاطع ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ مبيناً لهم أنَّ الذي يمنعه من طردهم أنهم آمنوا، ثم بيّن أن غرضه بما حمل من الرسالة يمنع من ذلك بقوله ﴿ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴾ أي إنما بعثت نذيراً فمن أطاعني واتبعني وصدقني كان مني وأنا منه، سواء أكان شريفاً أم وضيعاً، غنياً أم فقيراً[٣٩٧].

٢١٦ - الكفار هم الأراذل:

ويلاحظ على اعتراض قوم نوح عليه وعلى أتباعه أنه يدل على جهلهم وقلة

---

(٣٩٦) سورة الشعراء الآيات ١١١-١١٥.

(٣٩٧) ابن كثير ج٣ ص٣٤٠، تفسير القرطبي ج١٣ ص١١٩-١٢١، الرازي ج٢٤ ص١٥٥، القاسمي ج١٣ ص٣٠.

علمهم وعقلهم واختلال موازينهم، فإنه ليس بعيْبٍ على الحق رذالة من اتبعه، فإنَّ الحق في نفسه صحيح، ويستوجب اتّباعه سواء أَتّبَعَهُ الأشرافُ أم الأراذل، بل الحق الذي لا شك فيه أن أتباع الحق هم الأشراف، ولو كانوا فقراءَ ضعفاءَ، وأنَّ الذين يرفضون الحق هم الأراذلُ ولو كانوا أغنياء. ثم إن الواقع غالباً هو أنَّ من يتبع الحق هم ضعفاء الناس وفقراؤهم، والغالب على الأشراف والكبراء مخالفةُ الحق، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾[398]. ولما سأل هرقلُ ملكُ الروم أبا سفيان عن صفات النبي ﷺ قال له فيما قال: أأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟قالَ بل ضعفاؤهم. فقال هرقل: هم أتباع الرسل.

٢١٧ - الشبهة الرابعة: لا فضل لنوح ولا للمؤمنين:

وقال تعالى حكاية عن قول قوم نوح لنوح ولأتباعه ﴿... وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾[399] أي وما نرى لك ولمن اتبعك علينا أدنى فضل تمتازون به كالقوة والكثرة والعلم والرأي يحملنا على اتباعكم، والنزول عن جاهنا وامتيازنا عليكم بالجاه المال[400]. وقولهم: ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾، أي: كاذبين في جملتكم: نوح في دعواه النبوة، وأتباعه في تصديقه[401].

٢١٨ - الرد على هذه الشبهة:

وشبهتهم هذه تدل على جهلهم لأن الفضيلة المعتبرة عند الله هي بالعلم والعمل، فكيف اطلعوا على قلوب الخلق وعرفوا ما فيها حتى نفوا هذه الفضيلة؟ إن سبب جهلهم ما لنوح وأتباعه من فضل هو عنادهم واستكبارهم وأهواؤهم، ولو تجردوا من ذلك لعلموا كم آتاهُمُ الله من فضله: فقد أعطى الله لنوح النبوة، ووفَّقَ أتباعه إلى تصديقه والإيمان بما جاء به من ربه. وقولهم: ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾، هذا ظن لا

---

(٣٩٨) سورة الزخرف، الآية ٢٣.

(٣٩٩) سورة هود الآية ٢٧.

(٤٠٠) تفسير المنار ج١٢ ص٦١.

(٤٠١) تفسير المنار ج١٢ ص٦١.

أساس له من الصحة ولا دليل عليه، فإن ما يدعو إليه نوح هو حق في نفسه ويقبله العقل السليم.

٢١٩ - الشبهة الخامسة: أنه بدعوته يريد أن يتفضل عليهم:

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾[٤٠٢]. وقولهم: ﴿ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ﴾ أي يريد أن يرتفع عليكم على سبيل التجبر والتكبر، ويسودكم ويشرف عليكم بأن يكون متبوعاً ونحن له تبع[٤٠٣] بدعوى النبوة، وهو بشر مثلكم، فكيف أُوحِيَ إليه من دونِ قومه[٤٠٤]. ما سمعنا بهذا أي ما سمعنا بمثل دعوته في آبائنا الأولين، أي في الأمم السابقة، فهو رجل به جِنّةٌ أي جنون يجعله لا يدري ما يقول[٤٠٥]. فهو مجنونٌ فيما يزعُمُهُ من أن الله أرسله إليكم واختصه من بينكم بالوحي ﴿ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ أي انتظروا موته واصبروا عليه مدة حتى تستريحوا منه[٤٠٦].

٢٢٠ - رد هذه الشبهة:

زعمهم أنَّ نوحاً عليه السلام يريد التكبر عليهم بدعوىٰ النبوة، زعم باطل وإنما يريد هدايتهم، وتبليغ رسالة ربه إليهم، وهذا في مصلحتهم، وإرادة الخير لهم، فيجب الانقياد إليه. والحقيقةُ أنَّ سبب زعمهم هذا هو أنهم ينكرون نبوة نوح، وبإنكارهم نبوته يحملون دعوته على إرادةِ السيادة والتكبر عليهم. وقولهم: إنه به جِنَّةٌ، قول باطل وكذب، لأنهم كانوا يعلمون بالضرورة كمال عقله، ولأنَّ الله تعالى لا يرسل مجنوناً.

---

(٤٠٢) سورة المؤمنون الآيات ٢٣-٢٥.

(٤٠٣) تفسير القرطبي ج١٢ ص١١٨.

(٤٠٤) تفسير ابن كثير ج٣ ص٢٤٤.

(٤٠٥) تفسير القرطبي ج١٢ ص١١٩.

(٤٠٦) تفسير ابن كثير ج٣ ص٢٤٤.

٢٢١ - انقطاع حجة قوم نوح:

ولما لم يبق لقوم نوحٍ ما يتحجَّجون به من حجج باطلة في مواجهة نوح عليه السلام، انقلبوا إلى التهديد، وإخافة نوح بالأذى، أو حتى بالقتل إذا استمر بدعوته، وذم ما هم عليه من كفر وشرك، قال تعالى في بيان الحالة التي وصل إليها أولئك الكفرة من قوم نوح: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾[٤٠٧] أي لئن لم تنته يا نوح عن سبِّ آلهتنا وعيب ديننا لتكونن من المرجومين بالحجارة، وقال ابن عباس: من المقتولين[٤٠٨]. وفي تفسير ابن كثير في هذه الآية (أي لئن لم تنته من دعوتك إيانا إلى ذلك لتكونن من المرجومين أي لنرجمنك)[٤٠٩].

٢٢٢ - تحدي نوح لقومه:

وقال تعالى عن قوم نوح وما قاله لهم: ﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾[٤١٠] أي يا قوم: إن كان كَبُرَ أي شقَّ وعَظُمَ عليكم قيامي أي: إذا ثقل عليكم لبثي فيكم وتذكيري إياكم وتخويفي لكم بعذاب الله، فأجمعوا ما تريدون من أمركم مع شركائكم الذين تعبدونهم من دونه الله تعالى، ثمَّ لا يكن أمركم عليكم غمة، أي ليكن أمركم ظاهراً تتمكنون فيه مما شئتم؛ لا كمن يخفي أمره فلا يقدر على ما يريد ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ أي توجهوا إلي ولا تأخروني ساعة واحدة، أي مهما قدرتم فافعلوا فإني لا أباليكم ولا أخافكم، لأنكم لستم على شيء، وأنا متوكل ومعتمد على الله[٤١١].

٢٢٣ - طلب قوم نوح نزول العذاب بهم:

يقول تعالى مخبراً عن استعجال قوم نوح نقمة الله وعذابه: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ

---

(٤٠٧) سورة الشعراء الآية ١١٦.

(٤٠٨) تفسير القرطبي ج١٣ ص١٢١ وتفسير ابن كثير ج٣ ص٣٤١.

(٤٠٩) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٤١.

(٤١٠) سورة يونس الآية ٧١.

(٤١١) ابن كثير ج٢ ص٤٢٥، القرطبي ج١١ ص٤٥١-٤٦٢، تفسير القاسمي ج٢ ص٦٥.

جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾[٤١٢]. أي لقد حاججتنا فأكثرت من ذلك ونحن لا نتبعك ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ ﴾ أي من النقمة والعذاب، ادعُ علينا بما شئت فليأتنا ما تدعو به إن كنت من الصادقين في ادعائك النبوة، وأن الله يعاقبنا إن لم نؤمن لك[٤١٣]. فقال لهم نوح عليه السلام بما أخبرنا الله به: ﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾[٤١٤]. أي إن هذا لله، وبيده، لا أملكه أنا، وإنما هو الذي يأتيكم به إن تعلقت مشيئته به في الوقت الذي تقتضيه حكمته، ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ أي وما أنتم بمانعين الله تعالى من إنزال العذاب بكم إذا شاءه، وإذا شاء أخّره لحكمة يعلمها، ولكن متى شاء وقوعه فلا بد أن يقع[٤١٥].

٢٢٤ - دعاء نوح على قومه:

كان في استعجال قوم نوح نزول العذاب، ومللهم من كثرة جدال نوح، دلالة واضحة على أنهم لا يزالون مستمرين على تكذيب نوح، واتهامه بكذب ما يعدهم من العذاب، وأنهم لم يتزحزحوا عن كفرهم وضلالهم مما أدخل الأسى إلى قلب نوح وجعل اليأس يتسلل إلى نفسه. وقد تأكد هذا اليأس من إيمان قومه بما أخبره الله به بقوله تعالى: ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾[٤١٦]، أي لا تحزن ولاتغتم بما كانوا يفعلونه من تكذيبك، وإيذاءك وإيذاء من آمن لك، فأرحْ نفسك بعد الآن من جِدالهم وإعراضهم عن دعوتك، فقد حان زمن الانتقام منهم[٤١٧]. فلما أخبره الله بذلك دعا نوح عليهم بما أخبرنا الله به

---

(٤١٢) سورة هود، الآية ٣٢.

(٤١٣) تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٤٣-٣٤٤، تفسير المنار ج١٢ ص٦٩.

(٤١٤) سورة هود، الآية ٣٣.

(٤١٥) تفسير المنار ج١٢ ص٦٩، تفسير الرازي ج١٧ ص٢١٨، تفسير ابن كثير ج٢، ص٣٤٤.

(٤١٦) سورة هود الآية ٣٦.

(٤١٧) تفسير القرطبي ج٩ ص٣٠، تفسير الرازي ج١٧ ص٢٢١، تفسير المنار ج١٢، ص٧٢.

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾[٤١٨]، قال الإمام القرطبي في هذه الآية: (دعا عليهم حين يئس من اتباعهم إياه). وقال قتادة: (دعا عليهم بعد أن أوحى الله إليه ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾[٤١٩] وكذلك قال الضحاك مثل قول قتادة[٤٢٠]، وهو الذي ذكره الرازي في تفسيره عن ابن عباس[٤٢١]، وقد أخبر الله تعالى نبيَّه نوحاً عليه السلام بأنَّ إهلاكهم سيكون بالغرق وأمره بصنع السفينة؛ ليركبها هو والمؤمنون للنجاة بها من الغرق، قال تعالى مخاطباً نبيه نوحاً ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾[٤٢٢]، أي ولا تطلب إمهالهم فإني مغرقهم[٤٢٣].

٢٢٥ - الركوب في سفينة النجاة:

ولما حان وقت نزول العذاب بقوم نوح، وظهرت علامته، أمر الله نوحاً بما أخبرنا الله به بقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[٤٢٤] أي لما فار التنور - تنور الخبز - أي فار الماء من التنور، فعند ذلك أمر الله نوحاً بأن يحمل في السفينة ثلاثة أنواع من الأشياء: (الأول) قوله: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ والمقصود بالزوجين كل شيئين يكون أحدهما ذكراً والآخر أنثى، والتقدير: كل شيئين هما كذلك فاحمل منهما في السفينة اثنين: واحد ذكر والآخر أنثى. (الثاني): ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ والمراد ابنهُ وامرأةُ نوح فقد كانا كافرين حَكَمَ الله عليهما بالهلاك. و(الثالث): والنوع الثالث من تلك الأشياء قوله ﴿وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ

---

(٤١٨) سورة نوح، الآية ٢٦.

(٤١٩) تفسير القرطبي ج١٨ ص٣١٢.

(٤٢٠) تفسير القرطبي ج٩ ص٢٩.

(٤٢١) تفسير الرازي ج١٧ ص٢٢٠-٢٢١.

(٤٢٢) سورة هود، الآية ٣٧.

(٤٢٣) تفسير القرطبي ج٩ ص٣٠.

(٤٢٤) سورة هود، الآية ٤٠.

﴿ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[٤٢٥]، فلما حمل نوح في السفينة من أمره الله بحملهم فيها، قال كما أخبرنا الله: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ. . .﴾[٤٢٦].

٢٢٦ - نوح ينادي ابنه للركوب في السفينة:

قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾[٤٢٧] أي ونادى نوح ابنه وكان في معزل عن السفينة، ولم يكن يعلم نوح أنَّ ابنه كان كافراً، وإنه ظن أنه مؤمن ولذلك قال له ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾. قال: سأرجع إلى جبل يمنعني من الماء فلا أغرق. قال نوح: لا مانع اليوم من الغرق، لكن من رحمه الله فهو يعصمه من الغرق. وحال بينهما الموج يعني بين نوح وابنه فكان من المغرقين[٤٢٨].

٢٢٧ - هلاك القوم بالغرق:

قال تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٤٢٩] أي لما تم هلاك قوم نوح بالغرق بالماء الذي غطىٰ الأرض، ووصل إلى قمم الجبال، أمر الله الماء المنهمرمن السماء بالإمساك وأمر الله الأرض بابتلاع الماء، ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ أي نقص ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي أُحْكِمَ وفرغ منه يعني أُهلِك قوم نوح على تمام وإحكام، أي نفذ ذلك الأمر بإهلاك الظالمين، ونجاة المؤمنين تنفيذاً كاملاً تاماً ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ﴾ أي واستقرت السفينةراسية على الجبل المعروف بالجودي، وهو قرب الموصل كما ذكر القرطبي، ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي هلاكاً وسحقاً لهم من رحمة الله تعالى[٤٣٠].

---

(٤٢٥) تفسير الرازي ج١٧ ص٢٢٦-٢٢٨.

(٤٢٦) سورة هود الآيتان ٤١-٤٢.

(٤٢٧) سورة هود الآيتان ٤٢-٤٣.

(٤٢٨) تفسير القرطبي ج٩ ص٢٨-٣٠.

(٤٢٩) سورة هود الآية ٤٤.

(٤٣٠) تفسير القرطبي ج٩ ص٤٠-٤١، تفسير المنار ج١٢ ص٨٠.

٢٢٨ - نداء نوح ربه بشأن ابنه:

قال تعالى: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[٤٣١].

ذهب الإمام ابن كثير في تفسيره إلى أنَّ هذا النداء من نوح لربه هو سؤال عن حال ولده الذي غرق مع أنه من أهله، قال ابن كثير: (هذا سؤال استعلام وكشف من نوح عليه السلام عن حال ولده الذي غرق ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى ﴾ أي وقد وعدتني بنجاة أهلي، ووعدك الحق الذي لا يخلف، فكيف غرق وأنت أحكم الحاكمين؟ ﴿ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ ﴾ أي ليس من الذين وعدت بنجاتهم، لأني إنما وعدتك بنجاة من آمن من أهلك، ولهذا قال ﴿ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ ﴾ فكان هذا الولد ممن سبق عليه القول بالغرق، لكفره ومخالفته أباه نبيَّ الله نوحاً عليه السلام)[٤٣٢] وذهب غير ابن كثير من المفسرين إلى أن هذا النداء من نوح كان في أثر ندائه لابنه الذي تخلف عن السفينة ودعاه إليها فلم يستجب، ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى ﴾ أي فكان نداؤه أن قال: يارب إن ابني هذا من أهلي الذين وعدتني بنجاتهم إذ أمرتني بحملهم في السفينة ﴿ وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ ﴾ الذي لا خلف فيه وهذا منه ﴿ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ أي أحق من كل من يتصور منهم الحكم وأحسنهم وخيرهم حكماً. ومراد نوح عليه السلام بهذا أن ينجي ابنه الذي تخلف عن السفينة بعد أن دعاه إليها، فامتنع معللاً نفسه بأن يأوي إلى جبل يعتصم به من الغرق، ولم يقتنع بقوله له: ﴿ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ ﴾. فالمعقول أنَّ الدعاء وقع بعد هذه المحاورة مع ابنه، وقبل أن يحول بينهما الموج ويغرق الابن[٤٣٣].

﴿ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ ﴾ الذين أمرتك أن تسلكهم في السفينة لإنجائهم من الغرق، والسبب ﴿ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ ﴾ كأنه لفساده واجتنابه للصلاح، والتزامه العمل

---

(٤٣١) سورة هود الآيات ٤٥-٤٧.

(٤٣٢) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٤٧-٤٤٨

(٤٣٣) تفسير المنار ج١٢ ص٨٣-٨٤.

غير الصالح، كأنه صار نفس العمل غير الصالح. ومن المعلوم أن الكفر يقطع الولاية بين المؤمنين والكافرين من الأقربين، ويوجب براءة بعضهم من بعض[٤٣٤]. فكأن ابن نوح لم يعد من أهله لكفره، قال الإمام الرازي: وهذه الآية ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾ تدل على أنَّ العبرة بقرابة الدين لا بقرابة النسب، فإنَّ في هذه الصورة كانت قرابة النسب حاصلة من أقوى الوجوه، ولكن لما انتفت قرابة الدين لا جرم نفاه الله تعالى بأبلغ الألفاظ وهو قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾[٤٣٥]. وقد يقال كيف وقع هذا الدعاء من نوح؟ أي دعاؤُه ربه أن ينجي ابنه، وقد علم أنَّ الذين سبق عليهم القول هم الكافرون الذين قضى الله بهلاكهم، وكان ابنه منهم، ولا يعقل أن يخفى عليه أمره؟ والجواب يحتمل أن نوحاً حين رأى ابنه بمعزل عن الكفار ظن أنَّهُ جنح إلى الإيمان، وصار من أهله الذين وعد الله بنجاتهم. ويحتمل أن يكون قد فهم أنَّ ابنه غير داخل في عموم قوله تعالى: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ﴾، لأنه تعالى جعل الناجين صنفين: أهله إلا من استثني، ومن آمن من قومه. فجاز في فهمه عليه السلام أن يؤمن من أهله من كان كافراً، لأنهم صنف قائم بذاته، وليسوا قسماً من الصنف الآخر، وهم المؤمنون من قومه، ووافق هذا الفهم وقواه رحمة الأبُوّةِ وشفقتها، فسأل الله تعالى ما سأله بشأن ابنه، فعاتبه الله تعالى على ذلك بقوله: ﴿فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ﴾ أي فلا تسألني في شيء من الأشياء ليس لك به علم صحيح أنه حق وصواب[٤٣٦]. ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ أي أنهاك عن هذا السؤال، وأحذرك منه كراهية أن تكون من الجاهلين، أي الآثمين[٤٣٧]. ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٌۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾[٤٣٨]. والمعنى أنه تعالى لما قال له: ﴿فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ﴾ فكأنه قال عند ذلك: قبلت يارب هذا التكليف ولا أعود إليه، إلا أني لا أقدر على الاحتراز منه، إلا بإعانتك وهدايتك، فلهذا قال: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي

---

(٤٣٤) تفسير المنار ج١٢ ص٨٤.

(٤٣٥) تفسر الرازي ج١٨ ص٢-٣.

(٤٣٦) تفسير المنار ج١٢ ص٨٤-٨٥.

(٤٣٧) تفسير القرطبي ج٩ ص٤٨.

(٤٣٨) سورة هود الآية ٤٧.

بِهِۦ عِلۡمٌۖ﴾، ثم أعلن توبته مما قاله، وذلك بقوله ﴿وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾، لأنَّ التوبة تقوم بأمرين (الأول) في المستقبل وهو العزم على الترك وإليه الإشارة بقوله: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٌۖ﴾، و(الثاني) في الماضي وهو الندم على ما صدر منه، وإليه الإشارةُ بقوله: ﴿وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾[439].

---

(٤٣٩) تفسير الرازي ج١٨ ص٥.

المبحث الثاني
المستفاد من قصة نوح للدعوة والدعاة

٢٢٩- الاقتداء بالأنبياء في سيرتهم وأساليبهم في الدعوة إلى الله:

قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾[٤٤٠]، أي أولئك الذين هدى الله من الأنبياء - ومنهم نوح - الذين تقدم ذكرهم هُمُ الهداةُ المهديون، فتأسَّ واقتدِ بسيرتهم وبطرقهم التي سلكوها في الدعوة إلى الدين وإقامته[٤٤١]. وإذا كان هذا الاقتداء بالرسل السابقين، ومنهم نوح عليه السلام، أمراً لرسول الله ﷺ، فأمته تبعٌ له في هذا الاقتداء[٤٤٢]. وقوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ..﴾ أي كل أخبار نقصها عليك من أنباء الرسل المتقدمين من قبلك مع أممهم، وكيف جرى لهم من المحاجات والخصومات، وما احتمله الأنبياء من التكذيب والأذى، وكيف نصر الله حزبه المؤمنين، وخذل أعداءه الكافرين. كل هذا مما نثبت به فؤادك أي قلبك يا محمد، ليكون لك بمن مضى من إخوانك من المرسلين أسوةٌ[٤٤٣]. وفي ضوء ما تقدم: أذكر فيما يلي ما يمكن أن يستفاد للدعوة والدعاة من قصة نوح عليه السلام، وما جرى له مع قومه، وما اتبعه من أساليبَ في تبليغ الدعوة، وكيفية جدالِهِ مع قومه، وما كان يؤكده في جداله معهم، وسيرته معهم كرسول يريد هدايتهم إلى غير ذلك مما له علاقة بقصة نوح عليه السلام لا سيما وأنه عليه السلام لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله تعالى، ويجادلهم دون كلل ولا ملل.

---

(٤٤٠) سورة الأنعام الآية ٩٠.

(٤٤١) تفسير المنار ج٧ ص٥٩٦، وصفوة التفاسير ج١ ص٤٠٤.

(٤٤٢) تفسير ابن كثير ج٢ ص١٥٥.

(٤٤٣) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٦٥، والآية في سورة هود ورقمها ١٢٠.

٢٣٠- أولاً - التلطف مع المدعوين:

على الداعي المسلم أن يتلطف في مخاطبة من يدعوهم، وذلك باستعمال الألفاظ الرقيقة التي تساعد على إقبال المدعو على الداعي وإصغائه لما يقول، كأن يقول له «يا أخي»، أو يناديه بكنيته كأن يقول له: «يا أبا فلان»، وإذا كان يخاطب جمعاً من الناس فمن المستحسن أن يقول لهم: «يا قومي» كما كان يقول نوح عليه السلام لقومه وهو يخاطبهم. أو يقول لهم: يا أبناء عشيرتي، أو يا أبناء محلّتي، مما يشعرهم بأنه - أي الداعي - واحد منهم ليس بعيداً عنهم. ويجوز للداعي أن يخاطب المدعوين بما يذكّرهم بطيب أصلهم، وحسن سيرة آبائهم وأجدادهم، وجهادهم في خدمة الإسلام، وأنهم - أي من يخاطبهم ويدعوهم - أهل لأن يكونوا مثل آبائهم وأجدادهم جهاداً في سبيل الله، وخدمةً لدينه، على أن يكون مدح الداعي لآباء المدعوين بحدود ما يعلمه عنهم، وبدون إسراف في المدح والثناء.

٢٣١- التلطف يكون مع المدعوين الكفار والعصاة:

والتلطف يكون مع الكفار ومع المسلمين العصاة، قال الإمام القرطبي وهو يفَسِّرُ آية ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ وهذه الآيةُ نزلت بمكة في وقت الأمر بمهادنة قريش، فالله جل جلاله يأمُرُ رسوله ﷺ أن يدعو إلى دين الله وشرعه بتلطف ولين دون مخاشنةٍ وتعنيف ولو مع كفار قريش، وهكذا ينبغي أن يكون الوعظ والإرشاد للمسلمين إلى يوم القيامة[٤٤٤].

٢٣٢- التلطف مع المدعوين لا يعني المداهنة ولا النفاق:

وليكن معلوماً أن تلطف الداعي مع المدعو في القول على النحو الذي ذكرناه لا يعني المداهنة ولا النفاق، ولا إخفاء الحق وتحسين الباطل أو الرضا بما عليه المدعو من المخالفة لشرع الله، وإنما هو من الخلق الحسن، ومن باب التشويق للمدعو لقبول الحق، والتشويقُ بقبول الحق أمر مشروع في الإسلام.

---

(٤٤٤) تفسير القرطبي ج١٠ ص٢٠٠. والآية من سورة النحل ورقمها ١٢٥.

٢٣٣- ثانياً - الشفقة على المدعو والنصح له:

وعلى الداعي أن يُشعر المدعوَّ بالشفقة عليه، والنصح له، وأن يبتعد عن روح الاستعلاء على المدعو، أو احتقاره، أو إظهار فضله عليه، وإنما عليه أن يكلمه بروح الناصح الشفيق المخلص في نصحه وشفقته.. يكلمه كمبلغ لمعاني الإسلام، لا أن يكلمه كمبلغ له فضله وعلمه.. إنه كالطبيب، يكلمه كطبيب ناصح يخبره بما يعرفه من أُمور الطب في ضوء ما ظهر له من مرض المريض، ولا يكلمه ليبلغه ويخبره بما يعرفه من علوم الطب، أو يعلمه بمهارته في الطب وامتيازه عليه بهذه المهارة. إن إشعار الداعي للمدعو بالشفقة والنصح يكون بنظرة الداعي إليه، وبانبساط أسارير وجهه. وبنبرة صوته، وبإخباره بالحقائق كما هي دون تهويل، وبتحذيره من مخالفة الشرع. وعلى الداعي المسلم أن يبقى على هذا النهج ولا يحيد عنه، ولو قابله المدعو بما لا يليق. إن المدعوَّ مريض الروح، والمريض يصدر منه ما لا يصدر من الصحيح المُعَافى، فقوم نوح عليه السلام قالوا له: ﴿ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾، فأجابهم نوح: ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَـٰلَةٌ وَلَـٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾(٤٤٥). فنوح عليه السلام لم يغضب لقولهم واتهامهم له بالضلال، وإنما نفى عن نفسه الضلال، وأخبرهم بأنه رسول من رب العالمين؛ ليبلغهم ما أُرسِلَ به إليهم، فكيف يكون الرسول ضالاً؟ وبمثل هذا الجواب الخالي من الغضب والانفعال والانتصار للنفس يقبل المدعو على الداعي، ويستجيب لما يدعوه إليه إن لم يكن في المرة الأولى ففي المرات القادمة.

٢٣٤- ثالثاً - التبليغ بالكلام المبين:

وعلى الداعي أن يعلم بأنَّ عليه أنْ يُبلغ ما يريد تبليغه للمدعو بوضوح تام لا إبهام فيه ولا غموض، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾(٤٤٦). وجعل الله تعالى وظيفة الرسل الكرامِ التبليغ المبين، أي الواضح،

---

(٤٤٥) سورة الأعراف، الآيات ٦٠-٦٢.

(٤٤٦) سورة إبراهيم الآية ٤.

لتقوم الحجة على المخاطبين، وهذا واجب الرسل قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾[٤٤٧]، ولهذا قال نوح عليه السلام لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[٤٤٨]. ومقياس الوضوح في كلام الداعي للمدعو ليس نفس الداعي وفهمه، فقد يكون الكلام واضحاً بالنسبة له غير واضح بالنسبة للمدعو، وكذلك ليس مقياس الوضوح وضوح الكلام بذاته فقد يكون الكلام واضحاً بنفسه غير واضح بالنسبة للمدعو، فالمقياس إذن في وضوح كلام الداعي للمدعو هو أن يكون الكلام واضحاً بالنسبة للمدعو، وهذا هو ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ فالبيان لهم أي للمدعوين وليس للداعي. وفي الحديث النبوي الشريف عن عائشة رضي الله عنها قالت: (كان كلام رسول الله ﷺ كلاماً فصلاً) أي بيّناً ظاهراً يفهمه كل من يسمعه[٤٤٩].

٢٣٥- من لوازم الكلام المبين:

ومن لوازم (الكلام المبين) أن يتأنى الداعي في كلامه مع المدعو، فلا يسرع بل يتمهل حتى يستوعب السامع كلامه ويفهمه، جاء في الحديث الذي رواه الإمام البخاريُّ أنَّ النبي ﷺ كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً حتى تفهم عنه[٤٥٠].

ومن لوازم (الكلام المبين) أن يبتعد الداعي في كلامه مع المدعو عن التفاصح والتعاظم في الكلام والتكلف في نطقه، جاء في الحديث الشريف عن الرسول ﷺ أنه قال: «هلك المتنطعون، قالها ثلاثاً»[٤٥١]. والتنطع في الكلام التفاصح فيه والتعمق فيه. وفي حديث آخر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون»[٤٥٢].

---

(٤٤٧) سورة العنكبوت، الآية ١٨.

(٤٤٨) سورة نوح الآية ٢.

(٤٤٩) كتابنا أصول الدعوة ص٤٧١.

(٤٥٠) رياض الصالحين للنووي ص٢٩٦.

(٤٥١) تيسير الوصول إلى أحاديث الرسول ﷺ لابن الديبع الشيباني ج٣ ص٣١٧.

(٤٥٢) رياض الصالحين ص٢٧٤، والثرثار هو كثير الكلام تكلفاً. والمتشدق هو المتطاول على الناس بكلامه ويتكلم بملء فيه تفاصحاً وتعظيماً لكلامه. والمتفيهق الذي يملأ =

٢٣٦- رابعاً - الدعوة إلى الله في كل وقت ملائم:

والدعوة إلى الله يقوم بها الداعي في أي وقت ملائم في الليل وفي النهار، وبكل صيغة ملائمة لحال المدعو. فعلى الداعي أن يراعي الظروف والأحوال الملائمة للقيام بالدعوة، فلا يدعو في حالة غير ملائمة ولا مناسبة للمدعو، كأن يكون مشغولاً، أو في حالة شديدة من الإرهاق والتعب. وكذلك على الداعي أن يتخير الوقت المناسب فلا يقصد المدعو في وقت القيلولة مثلاً، أو في ساعة متأخرة من الليل.

٢٣٧- على الداعي أن لا يثقل على المدعو:

على الداعي أن لا يثقل على المدعو أو على المدعوين في تكرار تذكيرهم وموعظتهم مخافة السّآمة، وهذا بالنسبة لشخص مُعَيّن أو جماعة معينة يدعوهم الداعي. أما بالنسبة لأصل قيام الداعي بالدعوة إلى الله فهذا يجب أن يستمر ولا ينقطع، ويتكرر، ودليلنا على ما قلناه أن رسول الله ﷺ كان يتخول أصحابه الموعظة في الأيام كراهة السآمة عليهم، فقد أخرج الإمام البخاريُّ رحمه الله تعالى عن ابن مسعود قال: «كان النبي ﷺ يتخول بالموعظة في الأيام كراهة السآمة علينا» قال الإمام الخطابي تعليقاً على هذا الخبر: (كان النبي ﷺ يراعي الأوقات في تذكيرهم، ولا يفعل ذلك كل يوم لئلا يملّوا). وقال ابن حجر العسقلاني: ويستفاد من هذا الحديث استحباب ترك المداومة في الجدّ في العمل خشية الملال، وإن كانت المواظبة مطلوبة[٤٥٣]. وقد التزم عبد الله بن مسعود رضي الله عنه بنهج رسول الله ﷺ وسننه في وعظ الناس وتذكيرهم بمعاني الإسلام، فكان يقوم بذلك في كل خميس ولم يستجب لمن طلب منه أن يعظ الناس كل يوم محتجاً بسنة رسول الله ﷺ في تخولهم بالموعظة، فقد أخرج الإمام البخاريُّ رحمه الله عن أبي وائل قال: (كان ابن مسعود يذكّر الناس في كل خميس، فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن لَوددتُ أنك ذكرتنا كل يوم. قال ابن مسعود: أما إنه يمنعني من ذلك أن أملكم وإني أتخولكم

= فمه بالكلام ويتوسع فيه ويغرب به تكبراً وإظهاراً للفضيلة على غيره.

(٤٥٣) فتح الباري بشرح صحيح البخاري للعسقلاني ج١ ص١٦٢-١٦٣. ومعنى «يتخولهم» أي يتعهدهم.

بالموعظة كما كان النبي ﷺ يتخولنا بها مخافة السآمة علينا)[٤٥٤].

٢٣٨- تخير الصيغة المناسبة للدعوة:

وعلى الداعي أيضاً أن يختار الصيغة المناسبة للشخص المعين أو للجماعة المعينةِ من جهة دعوتهم سراً أو علناً، فقد يصلح لشخص أن تدعوه سراً لا علناً، وقد يصلح لآخر العكس، وكذا يقال بالنسبة لدعوة الجمع من الناس. والضابط في ذلك أن يلاحظ ظروف وأحوال من يريد أن يدعوه أو يدعوهم، وهل يصلح في دعوتهم ويحصل المقصود باستجابتهم دعوتهم سراً أو علناً، وفي ضوء ما يترجح عنده يأخذ بالدعوة سراً أو علناً.

٢٣٩- خامساً الترغيب والترهيب:

رأينا فيما سبق أنَّ سيدنا نوحاً عليه ا لسلام رغبَّ قومه في الاستجابة لدعوته بما وعدهم من مغفرة الله لذنوبهم وبما يسبغه عليهم ربهم من نِعمه في الدنيا. كما أنه عليه السلام خوّفهم من رفضهم دعوة الله بما يصيبهم من نقمة في الدنيا وعذاب في الآخرة. وهذا المسلك في الترغيب والترهيب في الدعوة، يجب أن يأخذ به الداعي، فيرغبّ المدعوين برضوان الله وجناته في الآخرة، وبالعيش الرضي في الدنيا إن هم أطاعوا الله، وأطاعوا رسوله، والتزموا بأحكام الشرع في جميع أمورهم. كما يرغبهم بخيرات الدنيا إن هم أطاعوا الله ورسوله، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[٤٥٥] فهذه الآيات فيها ترغيب بمغفرة الله، ودخول جنته في الآخرة لمن يؤمن بالله ورسوله، ويجاهد في سبيل الله بماله ونفسه، وترغيب لهم أيضاً بالنصر الذي يحبونه، والفتح القريب أي العاجل. فهذه الزيادة - النصر والفتح القريب - هي خير الدنيا موصول بنعيم الآخرة لمن أطاع الله ورسوله بعد أن آمن ونصر دين الله بماله

---

(٤٥٤) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج١ ص١٦٣.
(٤٥٥) سورة الصف، الآيات ١٠-١٣.

ونفسه[٤٥٦]، ومن الترغيب بالحياة الطيبة في الدنيا وبالثواب الحسن في الآخرة قوله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[٤٥٧].

ويكون الترهيب بعذاب الله في الآخرة، وبضنك العيش في الدنيا لمن يُعْرِضُ عن شرع الله، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾[٤٥٨]. ومن الآيات التي جمعت الترغيب والترهيب قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾[٤٥٩].

٢٤٠ - سادساً - التأكيد على عبادة الله وحده:

كان نوح يؤكد في دعوته على عبادة الله وحده ويقول لقومه: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾[٤٦٠] فعلى الداعي المسلم أن لا يغفل عن التأكيد على أنَّ الله هو المعبود الحق وأن لا إله إلّا الله، والقرآن الكريم مملوء بالآيات التي تأمر الناس بعبادة الله وحده وما يترتب عليها من ثواب، وما يترتب على تركها من عقاب.

٢٤١- سابعاً - جدال الداعي مع المخالفين:

يحتاج الداعي إلى الجدال مع المخالفين لدعوته، فعلى الداعي المسلم أن يجادلهم بالتي هي أحسنُ كما جادل نوح قومه، وكما أمرنا الله به صراحة، قال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ

---

(٤٥٦) تفسير ابن كثير ج٤ ص٣٦١.

(٤٥٧) سورة النحل، الآية ٩٧.

(٤٥٨) سورة طه الآيات ١٢٤-١٢٦.

(٤٥٩) سورة النساء الآيتان ١٣، ١٤.

(٤٦٠) سورة الأعراف، الآية ٥٩.

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾[٤٦١]. يأمر الله رسوله محمداً ﷺ أن يدعو الخلق إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ أي من احتاج منهم إلى جدال فليكن بالوجه الذي هو أحسن وجوه الجدل، فتجادلهم برفق ولين وحسن خطاب ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ أي قد علم الشقي منهم والسعيد، فادعهم إلى الله تعالى ولا تذهب نفسك حسرات على من ضل منهم، فإنه ليس عليك هداهم إنما أنت نذير، عليك البلاغ وعلينا الحساب[٤٦٢].

٢٤٢- غرض المخالف دحض الحق، وغرض الداعي هدايته:

غرض أهل الباطل في جدالهم مع الدعاة ودحض الحق ورد الدعوة وصرف الناس عنها، كما كان هذا الغرضُ هو غرض قوم نوح في جدالهم معه، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾[٤٦٣]. وقوله تعالى: ﴿وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ أي جادلوا رسلهم بالباطل أي إيراد الشبهات يحسبونها حججاً لهم، ﴿لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ أي ليزيلوا به الحق الذي جاءت به رسلهم[٤٦٤]. فهذا هو غرض أهل الباطل من جدالهم مع رسلهم، وهذا هو غرض أهل الباطل في جدالهم مع الدعاة في كل مكان وزمان إلا من رحم ربك. ومع هذا فإنَّ الدعاة يجادلونهم على أمل هدايتهم.

٢٤٣- أهل الباطل يفترون الكذب على الدعوة والدعاة:

ولما كان غرض أهل الباطل الكارهون دعوة الله، صدَّ الناس عنها، ورفضها وعدم قبولها، فإنهم يفترون الكذب، ويوردون الشبهات يحسبونها حججاً لهم في مواجهة الدعوة والدعاة. وقد ذكرنا أنَّ قوم نوح عليه السلام تشبثوا بكل ما ظنوه

---

(٤٦١) سورة النحل، الآية ١٢٥.

(٤٦٢) تفسير ابن كثير ج٢ ص٥٩١.

(٤٦٣) سورة المؤمن، الآية ٥.

(٤٦٤) تفسير الرازي ج٢٧ ص٣١، تفسير ابن كثير ج٤ ص٧١، تفسير القرطبي ج١٦ ص٢٩٣.

يصلح أن يكون شبهة تصرف الناس عن دعوة نوح، فقالوا: إنه بشر مثلنا، فكيف يختصُّهُ الله من بيننا بالنبوة والرسالة؟ واتهموه بالضلالة، ورموه بالجنون، وبأنه يريد بادعائه النبوة الرياسة عليهم، وبأنه لم يتبعه إلا الأرذلون من الفقراء والضعفاء والمغمورين والجهال الذين يسارعون إلى موافقته واتباعِهِ من دون روية ولا تبصر، ولهذا لم يتبعه أشراف القوم وأكابرهم، وأصحاب الرأي السديد فيهم، إلى غير ذلك من الأكاذيب التي أثاروها؛ لصرف الناس عن نوح ودعوته، وهذا هو ديدنهم في مواجهة الدعوة والدعاة، فلا يعجبُ الدعاة من ذلك.

٢٤٤- حِلْمُ الداعي على المخالفين:

ومع هذا فعلى الداعي أن يحلم على المخالفين وهو يجادلهم بالحسنىٰ وهم يفترون الكذب ويلصقون به وبالدعوة التهم، وليأخذ عبرة من مواقف نوح في جداله مع قومه، فلا يستفزه ما يقوله المبطلون عنه وعن الدعوة، وإنما للداعي فقط أن ينفي ما يتهمونه به بالحجة والبرهان، ويحصر جداله معهم في موضوع الدعوة، فالداعي لا ينتصر لنفسه ولا يغضب لها بل يحلم عليهم، ويصبر على أذاهم بما يفترون عليه من أكاذيب.

٢٤٥- من مكر المخالفين في جدالهم:

ومن مكر المخالفين في جدالهم مع الداعي طعنهم في أتباعه المؤمنين بدعوته. وتحقيرهم والازدراء بهم، ثم طلبهم من الداعي إبعادهم عنه كشرط لاتبّاعهم هم له. وهذا مكر قديم من أهل الباطل مَكَروهُ مع نوح عليه السلام، إذ احتقروا أتباعه المؤمنين، وقالوا له: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾[٤٦٥]. وطلبوا من نوح إبعادهم عنه حتى يمكن أن يتبعوه ويصدقوه، وهذا ما يوحي به قولهم الذي حكاه الله عنهم، ﴿۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾[٤٦٦]. وقد بينا فيما سبق أنَّ نوحاً عليه السلام رفض طلبهم هذا رفضاً قاطعاً باتاً.

---

(٤٦٥) سورة هود الآية ٢٧.

(٤٦٦) سورة الشعراء، الآية ١١١.

٢٤٦- على الداعي والجماعة المسلمة الحذر من هذا المكر:

فعلى الداعي المسلم والجماعة المسلمة الحذر من هذا المكر الخبيث من أهل الباطل المخالفين للدعوة الإسلامية، وإن على الدعاة والجماعة المسلمة إظهار اعتزازهم بأتباعهِمُ المؤمنين، وإن كانوا فقراء أو ضعفاء أو مغمورين أو أصحاب حرف بسيطة يستهين بها الناس، وإذا طلب أهل الباطل في جدالهم مع الدعاة أو مع الجماعة المسلمة إبعاد هؤلاء المؤمنين عنهم كشرط لاتباعهم لهم وللدعوة، فعلى الدعاة والجماعة المسلمة رفض هذا الطلب رفضاً قاطعاً وباتاً وحالاً، لأنه طلب غير قابل للمناقشة، وعلى الدعاة أن يتذكروا موقف نوح عليه السلام من هذا الطلب، وقد بيناه فيما سبق. وعلى الدعاة والجماعة المسلمة استحضارُ ما أوحاه الله إلى رسولنا ﷺ بشأن أتباعه المؤمنين عندما طلب كبار الكفار إبعادهم عن مجلسه ﷺ، استحضار ذلك في نفوسهم، ليزدادوا ثباتاً وإصراراً على رفضهم مثل هذا الطلب، فقد روى الإمام أحمد وابن جرير وابن أبي حاتم وغيرهم عن عبد الله بن مسعود قال: مرَّ الملأ من قريش على النبي ﷺ وعنده صهيب وعمار وخبّاب وغيرهم من ضعفاء المسلمين فقالوا: يا محمد أرضيت بهؤلاء من قومك؟ أهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا؟ أنحن نكون تبعاً لهؤلاء؟ اطردهم عنك، فلعلك إن طردتهم أن نتبعك، فنزلت هذه الآية ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[٤٦٧] ومعنى هذه الآية[٤٦٨]: ولا تطرد أيها الرسول هؤلاء المؤمنين الموحدين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي: أي في أول النهار وآخره، أو في عامة الأوقات، لأنه يُكَنىٰ بطرفي الشيء عن جملته﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ أي يدعون ربهم بالغداة والعشي مريدين بهذا الدعاء وجهه سبحانه وتعالى، وهم مخلصون فيما هم فيه من العبادات والطاعات، فلا يشركون معه أحداً، ولا يرجون من غيره ثواباً. فهذا التعبير ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ يدل على الإخلاص لله تعالى في العمل، وابتغاء مرضاته به وحده، وعدم الرياء فيه، كما قال تعالى حكاية عن المطعمين الطعام: ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ

---

(٤٦٧) سورة الأنعام الآية ٥٢.

(٤٦٨) تفسير ابن كثير ج٢ ص١٣٤، تفسير المنار ج٧ ص٤٣٣ وما بعدها.

جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾[469]. وقوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ﴾ أي ما عليك شيءٌ مَا مِنْ أمرِ حساب هؤلاء الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي، لا على دعائهم ولا على غيره من أعمالهم الدينية، كما أنه ليس عليهم شيءٌ مَا مِنْ أمرِ حسابك على أعمالك حتى يمكن أن يترتب على هذا أو ذاك طردك إياهم بإساءتهم في عملهم، أو في محاسبتك على عملك، فإنَّ الطرد جزاء وإنما يكون على عمل سيىءٍ يستوجبه ولا يثبت إلا بحساب، والمؤمنون ليسوا عبيداً للرسل ولا أعمالهم الدينية لهم بل هي لله تعالى يريدون بها وجهه لا أوجه الرسل، وحسابهم عليه تعالى لا عليهم، وإنما الرسل هداة معلمون. وقوله تعالى ﴿فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ جواب للنهي عن الطرد، أي لا تطرد هؤلاء فتكون بطردك إياهم من جنس الظالمين ومعدوداً في زمرتهم[470].

٢٤٧- قطع الجدال إذا انتفت فائدته:

إذا انتفت الفائدة من الجدل فعلى الداعي أن يقطعه ولا يستمر فيه، لأن الغرض من الجدل تبصير المخالف بالحق والسعي لهدايته، فإذا تبين للداعي انتفاء هذا الغرض لم يبق سبب مشروع ولا مبرر معقول للاستمرار في هذا الجدل العقيم. ويعرف الداعي أنَّ الجدل صار بهذه الكيفية أو وصل إلى هذه الحالة بما يصرح به المخالف، أو بما تدل عليه القرائن، فمن ذلك في قصة نوح عليه السلام أنَّ قومه قالوا له: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[471]. وقولهم كما حكاه الله عنهم ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾[472] أي لئن لم تنته من دعوتك إيانا إلى دينك لتكونن من المرجومين، أي لنرجمنك[473].

وقال تعالى حكاية عما قاله قوم نوح: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ

---

(٤٦٩) سورة الإنسان، الآية ٩.

(٤٧٠) تفسير المنار ج٧ ص٤٣٥-٤٣٨.

(٤٧١) سورة هود، الآية ٣٢.

(٤٧٢) سورة الشعراء، الآية ١١٦.

(٤٧٣) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٤١.

حِينٍ﴾[٤٧٤] أي هو - بزعمهم - رجل مجنون فيما يزعمه من أن الله أرسله إليكم واختصه من بينكم بالوحي ﴿فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي انتظروا به ريب المنون واصبروا عليه مدّة حياته حتى تستريحوا منه بعد ذلك[٤٧٥]. ومن الواضح أنَّ هذه الأقوال لا تدل على أنَّ أصحابها يريدون بجدالهم مع نوح الوصول إلى الحقيقة، ففي الآية الأولى: أظهروا مللهم من كثرة الجدال، وطلبوا من نوح أن يأتيهم بالعذاب الذي وعدهم به إن لم يؤمنوا. وفي الآية الثانية: هددوه برجمه بالحجارة إن لم يكف عن دعوته فلا يدعوَ أحداً لها. وهذا التهديد دليل قاطع على عدم الفائدة من الاستمرار بالجدال. وفي الآية الثالثة: رَمَوْهُ بالجنون فيما يدعيه أنه رسول الله، وطلبوا من قومهم انتظاره حتى يموت ويستريحوا منه، وهذا يدل على أنْ لا فائدة من التشبث بجدالهم لهدايتهم. ولهذا دعا نوح عليهم بالهلاك بعد أن سمع مقالتهم هذه، قال تعالى بعد أن ذكر قولهم إنَّ به جنة ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ..﴾[٤٧٦] الخ وقال تعالى حكاية عمّا دعا به ربه بعد أن هددوه بالرجم: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ﴾[٤٧٧] وكذلك يُعْرَفُ انتفاء الفائدة من الجدل مع المخالفين إذا تبين للداعي عدم جديتهم في الجدل، أو أظهروا السخرية بالداعي أو بالدعوة، وغير ذلك من القرائن.

٢٤٨- ثامناً - هلاك الأمم بالظلم:

ومما يستفاد من قصة نوح للدعوة والدعاة أن من أسباب هلاك الأمم الظلم، فقد أهلك الله قوم نوح بالغرق بسبب ظلمهم ولهذا قال تعالى بعد هلاكهم: ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٤٧٨] أي هلاكاً وسحقاً لهم وبعداً من رحمة الله تعالى بما كان من

---

(٤٧٤) سورة المؤمنون، الآية ٢٥.

(٤٧٥) تفسير ابن كثير ج٣ ص٢٤٤.

(٤٧٦) سورة المؤمنون، الآيات ٢٥-٢٧ وفي آخر الآية ٢٧: انهم مفكرقون.

(٤٧٧) سورة الشعراء الآيات ١١٦-١٢٠.

(٤٧٨) سورة هود الآية ٤٤.

رسوخهم في الظلم واستمرارهم عليه[٤٧٩]. وقال تعالى مبيناً هلاك قوم نوح بالغرق وأنه بسبب ظلمهم: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾[٤٨٠] والواقع أنَّ القرآن بيّن لنا في أكثرَ من آية أنَّ (الظلم) سبب مؤكد لهلاك الأمم، وأنَّ هذا الهلاك هو من مقتضيات ولوازم سنة الله في الظلم والظالمين. ومن هذه الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ﴾[٤٨١] أي أهلكناهم لما كفروا وأشركوا[٤٨٢].

٢٤٩- أعظم الظلم الكفر والشرك بالله:

هذا وإنَّ (ظلم) قوم نوح كان كفرهم وشركهم بالله، لأن (الظلم) يطلقُ عليهما، قال تعالى في وصية لقمان لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[٤٨٣]. وإنما كان الشرك ظلماً عظيماً، لأنَّ الظلم وَضْعُ الشيء في غير موضعه، وقوم نوح لم يؤمنوا لنوح عليه السلام، ولم يعبدوا الله بل جعلوا عبادتهم في غير موضعها، جعلوها لمعبوداتهم التي ذكر الله لنا أسماءها، قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾[٤٨٤] وهذه أسماء أصنامهم التي كانوا يعبدونها من دون الله[٤٨٥]، وهذا منهم ظلم عظيم لأنَّ الله وحده المستحق للعبادة، وقوم نوح وضعوا عبادتهم في موضع - وهي الأصنام - لا يصلح أبداً للعبادة؛ لأنه لا يجوز ولا يتصور أن يكون غير الله معبوداً أصلاً لا على وجه الاستقلالِ، ولا على وجه الشركة مع الله[٤٨٦].

---

(٤٧٩) تفسير المنار ج١٢ ص٨٠.

(٤٨٠) سورة العنكبوت الآية ١٤.

(٤٨١) سورة يونس الآية ١٣.

(٤٨٢) تفسير القرطبي ج٨ ص٣١٧.

(٤٨٣) سورة لقمان الآية ١٣.

(٤٨٤) سورة نوح الآية ٢١.

(٤٨٥) تفسير ابن كثير ج٤ ص٤٢٦.

(٤٨٦) تفسير الرازي ج٢٥ ص١٤٦.

٢٥٠- من الظلم تظالُمُ الناس فيما بينهم:

هذا وإنَّ (الظلم) يطلق على تظالم الناس فيما بينهم، كما هو معروف، وهذا الظلم يكون سبباً أيضاً لنزول العذاب، بل إنَّ الإمام القرطبي ذهب في تفسيره إلى أنَّ الكفر وحده لا يؤدي إلى الهلاك إلا إذا انضاف إليه التظالم بين الناس، وإحداث الفساد في الأرض، لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ قال القرطبي في تفسير هذه الآية: وما كان ربك ليهلك القرى، أي أهل القرى، ﴿بِظُلْمٍ﴾ أي بشرك وكفر ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ أي فيما بينهم في تعاطي الحقوق، أي لم يكن ليهلكهم بالكفر وحده حتى ينضاف إليه الفساد، كما أهلك قوم شعيب ببخس المكيال والميزان، وقومَ لوط باللواط، وفي صحيح الترمذي من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ: «إنَّ الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده»[٤٨٧].

٢٥١- ما يؤدي إلى التظالم بين الناس:

والظاهر أنَّ الكفر بالله وتكذيب رسله، والاستكبار على شرعه يؤدي غالباً - إن لم يكن دائماً - إلى التظالم بين الناس، فيستحقون العذاب بكفرهم، وهو ظلم عظيم، وبتظالمهم فيما بينهم. وحتى إذا قُدِّر أنهم ظلوا يتعاطون الحقوق دون تظالم فيما بينهم، فهذا وإن كان سبباً لبقائهم كما قيل: إن الأمم تبقى مع الكفر ولا تبقى مع الظلم، إلا أنهم يبقون حاملين (عِلّة) نزول العذاب بهم، وهي (كفرهم) الذي هو ظلم عظيم، فلا يكون بقاؤهم على أساس قويم، ولا إلى أمد بعيد، بل يأتيهُم العذاب ولو بعد حين.

٢٥٢- ربُّنا يمهل ولا يهمل:

وعلى الدعاة أن يفقهوا من قصة نوح بأنَّ الله تعالى يمهل ولا يهمل، أي يمهل الكفرة والمعاندين لشرعه، عسى أن يتوبوا ويرجعوا إلى ربهم فإنْ أصروا على عنادهم وكفرهم وعصيانهم أخذهم أَخْذَ عزيز مقتدر، وهذا ما لاحظناه في هلاك قوم

---

(٤٨٧) تفسير القرطبي ج٩ ص١١٤.

نوح، فقد أمهلهم الله تعالى مئات السنين، ثم بعد ذلك أهلكهم بالطوفان، وهذه هي سنته تعالى العامة في خلقه، قال تعالى: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾[٤٨٨]. وقوله تعالى ﴿ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ﴾ أي أنظرتهم وأخرتهم، ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أي فكيف كان إنكاري عليهم ومعاقبتي لهم. وذكر بعض السلف أنه كان بين قول فرعون لقومه ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴾ وبين إهلاكه أربعون سنة.

وفي الصحيحين عن أبي موسى عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» ثم قرأ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾[٤٨٩] وكذلك دلّ على أنَّ الله تعالى يمهل الظالم والظالمين ولا يهملهم ولا يتركهم، قوله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾[٤٩٠] أي أمهلتها ثم أخذتها بالعذاب وإليَّ المصير[٤٩١].

فهذا الإمهال للظالمين يتبعه هلاكهم في الوقت المعين الذي حدده الله لهلاكهم، قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾[٤٩٢] وقوله: ﴿ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾ أي جعلناه إلى مدة معلومة ووقت معين لا يزيد ولا ينقص[٤٩٣]. كما رأينا في هلاك قوم نوح حيث جعل بدء وقت هلاكهم فوران الماء في التنور، قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾[٤٩٤].

---

(٤٨٨) سورة الحج الآية ٤٤.

(٤٨٩) تفسير ابن كثير ج٣ ص٢٢٧، وآية ﴿وكذلك أخذ ربك﴾.. الخ، في سورة هود ورقمها ١٠٢.

(٤٩٠) سورة الحج، الآية ٤٨.

(٤٩١) تفسير القرطبي ج١٢ ص٧٨.

(٤٩٢) سورة الكهف الآية ٥٩.

(٤٩٣) تفسير ابن كثير ج٣ ص٩١.

(٤٩٤) سورة هود، الآية ٤٠.

٢٥٣- تاسعاً - العمل الصالح وليس النسب هو وسيلة النجاة:

ذكرنا في قصة نوح عليه السلام أنه نادى ابنه أن يركب معه في السفينة، لينجو من الغرق، فرفض الابن ذلك، فدعا نوح ربه بشأنه، وأخبره الله تعالى بأنه ليس من أهلك الذين وعدتك بإنجائهم لكونه كافراً، وهذا يبين لنا أنَّ نسب الإنسان لا يغني عنه شيئاً إذا كان صاحبه عارياً من الإيمان والعمل الصالح، فابن نوح لا شك في رفعةِ نسبه فهو ابن نوح رسول الله، ولكن لم ينفعه شيئاً، لكونه كافراً فالله تعالى يجزي الناس في الدنيا والآخرة بإيمانهم وأعمالهم الصالحة، وليس بأنسابهم، ولا يحابي أحداً منهم لأجل آبائه وأجداده الصالحين، وإن كانوا من الأنبياء المرسلين(٤٩٥).

وما قلنا هو من أصول شريعتنا الإسلامية فقد أخرج الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما نزلت ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ قام رسول الله ﷺ فقال: «يا فاطمة ابنة محمد، يا صفية ابنة عبد المطلب، يا بني عبد المطلب، لا أملك لكم من الله شيئاً سلوني من ما لي ما شئتم»(٤٩٦).

وفي كتاب الله إخبارٌ عن (أبي لهب) وأن مصيره إلى النار؛ لكفره ولم يغنِ عنه كونه عمَّ رسول الله ﷺ، فاعتبروا يا أولي الألباب.

ونستدل بقصة هلاك ابن نوح على أن الإيمان والعمل الصالح لا علاقة لهما بالوراثة والأنساب، وإلاّ لكان ابن نوح مؤمناً، وإنما يكون الإيمان والعمل الصالح بكسب الإنسان وتزكية نفسه(٤٩٧).

٢٥٤-عاشراً- مصاحبة المؤمنين لا تفيد إذا لم يكن المصاحب مؤمناً:

إن امرأة نوح لم تكن من أهل نوح الذين وعد الله نوحاً بإنجائهم، وإنما كانت من الذين سبق عليهم حكم الله بالغرق لكفرهم، وعلمنا ذلك بإخبار الله لنا بأن امرأته كانت من الكافرين، ولذلك استحقت دخول النار، قال تعالى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا

---

(٤٩٥) تفسير المنار ج١٢ ص٨٧.

(٤٩٦) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٤٩-٣٥٠.

(٤٩٧) تفسير المنار ج١٢ ص٨٦.

لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾[٤٩٨]، وقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي في مخالطتهم المسلمين ومعاشرتهم لهم أن ذلك لا يغني عنهم شيئاً، ولا ينفعهم عند الله تعالى إن لم يكن الإيمان حاصلاً في قلوبهم، ثم ذكر المثل فقال: ﴿ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ﴾ أي نبيين رسولين كانتا عندهما في صحبتهما ليلاً ونهاراً يؤاكلانهما ويضاجعانهما ويعاشرانهما أشد العشرة والاختلاط ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ أي في الإيمان، لم توافقاهما على الإيمان، ولا صدقتاهما في الرسالة، فلم يُجْدِ ذلك كله شيئاً، ولا دفع عنهما محذوراً، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي لكفرهما (وقيل) أي للمرأتين: ﴿ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ وليس المراد بقوله ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ في فاحشة بل في الدين، فإنَّ نساء الأنبياء معصومات عن الوقوع في الفاحشة لحرمة الأنبياء، أما خيانة امرأة نوح، فكانت تخبر أنه مجنون، وكانت على غير دينه، وتطلع على سره، فإذا آمن أحد برسالة نوح، وأنه رسول الله، أخبرت الجبابرة من قوم نوح بإيمانه[٤٩٩].

٢٥٥- أحد عشر - الداعي لا يطلب مالاً على دعوته:

والداعي لا يطلب من أحد مالاً على قيامه بالدعوة إلى الله تعالى، ولا يطلب أي شيء آخر مما يمكن أن يظنه الناس عوضاً عن قيامه بالدعوة، وهذا ما أخبر به نوح قومه، قال الله تعالى حكاية عما قاله نوح لقومه: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾، فنوح عليه السلام صرح لقومه بأنه لا يسألهم على ما يدعوهم إليه مالاً، فيكون متهماً فيه عندهم ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي ما أجري على تبليغ ما أرسلت به إلا على الله الذي أرسلني به. وهذا أمر مهم على الداعي المسلم أن يلتفت إليه، ويحذر من أن يطلب من المدعوين أو من أحدٍ من الناس شيئاً لمنفعته، لئلا يُظَنَّ به أنه يتخذ الدعوة وسيلة لجرّ المنافع لنفسه. ولأهمية هذا الأمر صرّح رسل الله به، فكلهم قالوا لأقوامهم ما قاله نوح لقومه من أنهم لا يسألونهم أجراً على قيامهم

(٤٩٨) سورة التحريم، الآية ١٠.

(٤٩٩) تفسير ابن كثير ج٤ ص٣٩٣.

بدعوتهم إلى الله تعالى. فهود عليه السلام، مثلاً، قال لقومه: ﴿ يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾(٥٠٠).

---

(٥٠٠) سورة هود الآية ٥١.



الفصل الرابع

قصة هود عليه السلام

المبحث الأول

خلاصة القصة وتفسير آياتها

٢٥٦- هود رسول إلى قوم عاد وخلاصة قصته معهم:

عاد اسم رجل ثم استمر اسماً لقوم انتسبوا إليه، فقيل قوم عاد. سكن قوم عاد في الأحقاف فيما بين عُمَانَ وحضرموت في اليمن، وكانوا أصحاب أوثان وأصنام يعبدونها من دون الله، وكانوا من أشد الأقوام تكذيباً للحق، فأرسل الله إليهم أخاهم في النسب والقومية هوداً عليه السلام، الذي كان من أشرف قومه نسباً، فدعاهم إلى عبادة الله وحده، ونبذ عبادة الأصنام، والكف عن ظلم الناس، فأبوا عليه ذلك، وكذبوه وتجبروا، وأكثروا في الأرض الفساد، فأهلكهم الله بالريح العقيم ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾. وتوفي هود ودفن في حضرموت(٥٠١).

٢٥٧- هود يدعو قومه إلى عبادة الله وحده:

قال تعالى مخبراً عما دعا إليه هود: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾(٥٠٢). أي أفلا تتقون ما يسخطه من الشرك والمعاصي لتنجوا من عقابه؟ فالاستفهام هنا للإنكار(٥٠٣)، وقال لهم وهو يأمرهم بعبادة الله وحده: إنهم بعبادتهم لغير الله يفترون الكذب عليه، قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ

---

(٥٠١) تفسير ابن كثير ج٢ ص٢٢٣-٢٢٥، تفسير القرطبي ج٩ ص٥٠-٥١، تفسير المنار ج٨ ص٤٩٥. والآية من سورة الحاقة ورقمها ٧.

(٥٠٢) سورة الأعراف الآية ٦٥.

(٥٠٣) تفسير المنار ج٨ ص٤٩٦.

هُودًاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ ﴾[٥٠٤] أي اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً ﴿ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ ﴾، فإنَّ المعبود الحق هو الله لا معبود بحق غيره ﴿ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ ﴾ أي ما أنتم في عبادة غيره إلا مفترون كذباً عليه باتخاذكم الأنداد شركاء مع الله في عبادتكم[٥٠٥].

٢٥٨- لا أسألكم عليه أجراً:

ثم إنَّ هوداً عليه السلام قال لقومه: ﴿ يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾[٥٠٦] أي إني فيما أدعوكم إليه من عبادة الله وحده لا أطلب منكم أجراً عليه، فتتهموني بطلب المنفعةِ لنفسي، ﴿ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ ﴾ أي أجري على الله الذي خلقني، والذي أرسلني إليكم؛ لأبلغكم رسالته، ﴿ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ ما يقال لكم، فتميزوا بين الحق والباطل، والنافع والضار، وأن تعلموا بأني منكم، وأنا أخوكم في النسب، وإن الأخَ لا يغش إخوته، ولا يعرض نفسه لغضب قومه بدعوتهم إلى ما يضرهم ولا ينفعه[٥٠٧].

٢٥٩- هود يرغّبهم بما يحبون:

ثم سلك هود عليه السلام مع قومه مسلك الترغيب بما يحبون من نزول المطر الذي ينبت لهم الزرع، ومن أنواع القوة التي يحبونها إن هم استجابوا لدعوته، فقال لهم: ﴿ وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارًا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ﴾[٥٠٨]. أمرهم بالاستغفار الذي فيه تكفير الذنوب السالفة، وبالتوبة عما يستقبلون، وإن من يتصف بهذه الصفات، فإنَّ الله تعالى ييسر عليه رزقه، وأنهم إن فعلوا ذلك بأن يرجعوا إلى الله بالتوبة، وإفراده بالعبادة، فإنَّ الله تعالى سيرسل لهم المطر متتابعاً يتلو بعضه بعضاً، ومثل هذا المطر كان ضرورياً لهم؛ لأن أرضهم رملية، وتحتاج إلى مطر كثير لسقي زروعهم وبساتينهم، ومع

---

(٥٠٤) سورة هود الآية ٥٠.

(٥٠٥) تفسير المنار ج١٢ ص١١٥.

(٥٠٦) سورة هود الآية ٥١.

(٥٠٧) تفسير المنار ج١٢ ص١١٥.

(٥٠٨) سورة هود الآية ٥٢.

إرسال السماء عليهم بالمطر المتتابع، فإنَّ الله تعالى يزيدهم قوة إلى قوتهم: أي شدّة إلى شدتهم، أو ولداً إلى ولدهم إن استجابوا لدعوة هود، ﴿ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴾ أي لا تعرضوا عما أدعوكم إليه وتقيموا على الكفر[509].

٢٦٠- جواب قومه على دعوته وترغيبه لهم بما يحبون:

دعاهم هود إلى عبادة الله وحده، ورغبّهم بما يحبون من وفرة المطر، والزيادة بالقوة، فبماذا أجابه قومه؟ أجابوه بما حكاه الله عنهم: ﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ﴾[510] أي قالوا: يا هود ما جئتنا بحجة وبرهان على أنَّ ما تدعيه هو من الله تعالى، وما نحن بتاركي آلهتنا بمجرد قولك لنا اتركوها فنتركها، وما نحن بمصدقين - وهذا إصرار منهم على الكفر - ولا نجدُ من قولٍ نقوله فيك إلاّ أن بعض آلهتنا أَصابك بجنونٍ وخبلٍ بسبب نهيك عن عبادتها وعيبك لها[511].

٢٦١- جواب هود على جواب قومه:

أجابهم هود عليه السلام بما حكاه الله عنه ﴿ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾[512]. أي إن هوداً عليه السلام قال: إني أشهد الله على نفسي، وأشهدكم لتعرفوا أني بريء مما تشركون، أي من أصنامكم التي تعبدونها، ومن عبادتكم لها. ﴿ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ﴾ أي فاجمعوا أنتم وشركاؤكم وآلهتكم إن كانت حقاً، ما تستطيعون من الكيد للإيقاع بي، ﴿ ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴾ ثم لا تمهلوني ولا تؤخروا الفتك بي إن استطعتم. ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي

---

(٥٠٩) تفسير القرطبي ج٩ ص٥١، تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٤٩.

(٥١٠) سورة هود الآيتان ٥٣، ٥٤.

(٥١١) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٤٩، تفسير الرازي ج١٨ ص١٢-١٣، تفسير القرطبي ج٩ ص٥١، تفسير المنار ج١٢ ص١١٧.

(٥١٢) سورة هود الآيات ٥٤-٥٧.

﴿وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ يقول هود عليه السلام محتجاً على قومه على ما دلّ عليه ما قبله من عدم الخوف منهم ومن آلهتهم، إني وكلت أمر حفظي وخذلانكم إلى الله معتمداً عليه وحده إذْ هو ربي وربكم أي مالكُ أمري وأموركم، المتُصَرفُ فيها وفي غيرها إذْ ما من دابة إلاّ وهي تحت قهره وسلطانه، وهو الحاكم العادل الذي لا يجور في حكمه، ولو أنه القاهر فوق عباده، فإنّه على صراط مستقيم ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ أي فإن تتولوا مجرمين، ولم تنتهوا بنهيي لكم عن التولي ولم تطيعوا أمري لكم بعبادة الله وحده، وترك الإشراك به ﴿فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡ﴾ أي فقد أبلغتكم رسالة ربي التي أرسلني بها إليكم، وليس عليَّ غير البلاغ المبين، ولزمتْكُمُ الحجة، وحقت عليكم كلمة العذاب ﴿وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾ إذا هو أهلككم بإصراركم على كفركم وإجرامكم، ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـًٔا﴾ أي لا تضرونه أيَّ ضرر بتوليكم وإعراضكم عن الإيمان، فإنه تعالى غني عنكم وعن إيمانكم، ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ﴾ أي لكل شيء حافظ، أي قائم ورقيب عليه بالحفظ والبقاء على ما اقتضته سنته، وتعلقت به مشيئتُهُ، ومنها أنه ينصر رسله، ويخذل أعداءه وأعداءهم إذا أصروا على الكفر بعد قيام الحجة عليهم(٥١٣).

٢٦٢- هود يخوّف قومه بعذاب الله:

الترهيب من أساليب دعوة الرسل لأقوامهم، وهكذا فعل هود عليه السلام قال تعالى: ﴿۞وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾(٥١٤) أي اذكر هوداً عليه السلام فهو أخوهم في النسب لا في الدين إذ أنذر قومه بالأحقاف وهي ديار قوم عاد، إني أخاف عليكم إن كذبتم وبقيتم مصرين أن يصيبكم عذاب الله(٥١٥).

٢٦٣- جواب قوم هود:

﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ

---

(٥١٣) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٤٩، تفسير المنار ج١٢ ص١١٧-١١٨.

(٥١٤) سورة الأحقاف، الآية ٢١.

(٥١٥) تفسير القرطبي ج١٦ ص٢١٣.

﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾[٥١٦] أي قال قوم هود: أجئتنا لتصدّنا عن آلهتنا ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ استعجلوا عذاب الله وعقوبته استبعاداً منهم لوقوعه ﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي الله أعلم بكم إن كنتم مستحقينَ تعجيل العذاب فسيفعل ذلك بكم، وأما أنا فشأني أَنْ أبلّغكم ما أُرسِلتُ به ﴿وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ أي لا تعقلون ولا تفهمون[٥١٧].

٢٦٤- هود يذكّرهم بنعم الله عليهم ويخوفهم من عذابه:

قال هود لقومه ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[٥١٨] أي اعبدوا ربكم وأطيعوا رسوله، ثم شرع يذكّرهم نعم الله عليهم، فقال ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي إن كذبتم وخالفتم، فدعاهم إلى الله بالترغيب والترهيب[٥١٩].

٢٦٥- من جدال هود مع قومه:

كان هود عليه السلام في جداله مع قومه يلتزم بآداب الجدال. ويظهر شفقته عليهم، وحرصه على إرداة الخير لهم. أمّا هم فكانوا يرمونه بالسفاهة والضلال، فمن هذا الجدل ما قصّه الله علينا في قوله تعالى: ﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٥٢٠]. والمعنى: قال الملأ الذين كفروا من قومه وهم السادة والقادة منهم: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ﴾ أي في ضلالة حيث تدعونا إلى

---

(٥١٦) سورة الأحقاف الآيتان ٢٢، ٢٣.

(٥١٧) تفسير ابن كثير ج٤ ص١٦٠.

(٥١٨) سورة الشعراء الآيات من ١٣١-١٣٥.

(٥١٩) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٤٢.

(٥٢٠) سورة الأعراف الآيات ٦٥-٦٩.

ترك عبادة الأصنام والإقبال على عبادة الله وحده، وإنا لنظنك كاذباً في دعوتك، فكان جواب هود عليه السلام: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ أي مُخْلِصٌ في نصحي لكم. وهذه هي الصفات التي يتصف بها رسل الله. البلاغ والنصح والأمانة. ثم قال لهم هود: ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ﴾ أي لا تعجبوا أن يبعث الله إليكم رسولاً من أنفسكم؛ لينذركم، بل احمدوا الله على ذلك، واذكروا نعمة الله عليكم في جعلكم من ذرية نوح الذي أهلك الله أهل الأرض بدعوته لمّا خالفوه وكذبوه، ﴿ وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ﴾ أي جعلكم أطول من أبناء جنسكم ﴿ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ ﴾ أي نعمه ومننه عليكم ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[٥٢١].

٢٦٦- جواب قوم هود واستعجالهم العذاب:

﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾[٥٢٢] أي أنكروا دعوة هود لهم لإفراد الله بالعبادة واستعجلوا العذاب.

٢٦٧- ردّ هود على جواب قومه:

﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾[٥٢٣]. قال هود قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب، أي قد وجب عليكم بمقالتكم هذه من ربكم رجس، أي سخط وغضب. ﴿ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم ﴾ أي أتحاجونني في هذه الأصنام التي سميتموها أنتم وآباؤكم آلهةً، وهي لا تضر ولا تنفع، وما جعل الله لكم على عبادتها حجةً ولا دليلاً، ولهذا قال: ﴿ مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾ وهذا تهديد ووعيد من هود لقومه[٥٢٤].

---

(٥٢١) تفسير ابن كثير ج٢ ص٢٢٤.

(٥٢٢) سورة الأعراف الآية ٧٠.

(٥٢٣) سورة الأعراف الآية ٧١.

(٥٢٤) نفسير ابن كثير ج٢ ص٢٢٥.

٢٦٨- كفر قوم عاد وغرورهم:

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾[٥٢٥] أي أنَّ قوم هود بغوا وعتوا وعصوا واستكبروا في الأرض على عباد الله المؤمنين هود عليه السلام ومن آمن معه، ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ قالوا ذلك غروراً وعجباً بقوتهم، واعتقدوا أنهم يمتنعون بقوتهم من بأس الله حين تهددهم هود بالعذاب وقالوا: نحن نقدر على دفع العذاب عن أنفسنا بفضل قوتنا، فقال تعالى رداً عليهم: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ وقدرة وإنما يَقْدِرُ العبد بإقدار الله له، فالله أَقْدرُ إذنْ ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ أي بمعجزاتنا يكفرون[٥٢٦].

٢٦٩- الوعظ وعدمه سواء عند قوم هود:

وبالرغم من تذكير هود عليه السلام ووعظه المستمر لقومه وجداله معهم، إلا أنَّ كل ذلك لم ينفع معهم، فصرحوا بذلك فقالوا كما أخبرنا الله عنهم ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[٥٢٧]. أي الوعظ وعدمه كل ذلك عندنا سواء لا نسمع منك ولا نقبل ما تقوله، ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ أي إنَّ دينهم الذي هم عليه هو دين الأولين، أي مذهبهم وما جرى عليه أمرهم، وما نحن بمُعَذبين على ما نفعل[٥٢٨].

٢٧٠- نزول العذاب بقوم هود:

ولمّا لم يبق أمل في استجابة قوم عاد لدعوة هود عليه السلام، وصرحوا بعدم فائدة أي وعظ من هود، وإصرارهم على الكفر والتكذيب، وطلبهم من هود أن يأتيهم بالعذاب إن كان من الصادقين، أقول: بعد كل هذا حان وقت إنزال العذاب

---

(٥٢٥) سورة فصلت الآية ١٥.

(٥٢٦) تفسير القرطبي ج١٥ ص٣٤٧.

(٥٢٧) سورة الشعراء، الآيات ١٢٦-١٢٨.

(٥٢٨) تفسير القرطبي ج١٣ ص١٢٥-١٢٦.

بهم، كما قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ﴾[٥٢٩] فأهلكهم الله تعالى بما أخبرنا به بقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾[٥٣٠] وقال تعالى في عذابهم وهلاكهم: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾[٥٣١]
أي فلما رأوا السحاب عارضاً سمي بذلك لأنه يبدو في عرض السماء، فلما رأوه حسبوه سحاباً يمطرهم، وكان المطر قد أبطأ عنهم، فلما رأوه ﴿مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ استبشروا و﴿قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ أي ممطر لنا. ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي قال لهم هود بل هو ما استعجلتم به من العذاب الذي كنتم تطالبون به على وجه التحدي وعدم التصديق به، ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍ﴾ أي كانت تلك الريح تدمر كل شيء مرت عليه من رجال عاد وأموالهم ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ أي: بإذن ربها، ﴿فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾، لأن القوم قد هلكوا، ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي مثل هذه العقوبة نعاقب بها المشركين[٥٣٢].

٢٧١- نجاة هود ومن آمن به:

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾[٥٣٣] أي لما جاء موعد هلاك قوم عاد نجينا هوداً والذين آمنوا معه ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾، لأن أحداً لا ينجو إلا برحمة الله، وإن كان له أعمال صالحة. وفي الحديث الصحيح الذي أخرجه البخاري ومسلم عن النبي ﷺ «لن يُنجي أحداً منكم عملُهُ» قالوا ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته منه»[٥٣٤].

---

(٥٢٩) سورة الشعراء الآية ١٢٩.
(٥٣٠) سورة فصلت الآية ١٦.
(٥٣١) سورة الأحقاف الآيتان ٢٤و٢٥.
(٥٣٢) تفسير القرطبي ج١٦ ص٢٠٥-٢٠٨.
(٥٣٣) سورة هود الآية ٥٨.
(٥٣٤) تفسير القرطبي ج٩ ص٥٤.

المبحث الثاني
ما يستفاد من قصة هود عليه السلام

٢٧٢- أولاً - التأكيد على توحيد الألوهية:

إن أول ما دعا إليه هود هو عبادة الله وحده قائلاً لهم ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾[٥٣٥] فعلى الداعي المسلم أن يؤكد على ذلك، ولا يقال إن هذا التأكيد هو بالنسبة لعبّاد الأصنام، أما بالنسبة للمسلمين فليسوا بحاجة إلى مثل هذه الدعوة، لا يقال هذا؛ لأن المسلمين بحاجة إلى أن يفهموا جيداً توحيد الألوهية أي معاني: «لا إله إله الله» وكم من هذه المعاني يطبقونها ويحسون بها في حياتهم، أما عبّاد الأصنام فهم محتاجون بالتأكيد إلى فهم كلمة التوحيد، وضرورة نبذِ عبادة ما سوى الله سواء كان صنماً أو حجراً أو وثناً أو أيَّ شيء آخر.

٢٧٣- ثانياً - لا أسألكم أجراً:

جميع رسل الله، وليس هود فقط، أخبروا أقوامهم بما قاله هود لقومه: ﴿ يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾[٥٣٦]. فعلى الداعي أن لا يطلب من المدعوين ومن الناس بصورة عامة أي شيء يظنه الناس أنه بدل أو عوض أو أجر عن قيام الداعي بالدعوة، سواء أكان هذا الطلب من الداعي بلسان المقال أو بلسان الحال؟ حتى يفهم الناس أنه لا مصلحة دنيوية له - أي للداعي - من قيامه بالدعوة، وإنما هو يطمع بثواب الله ورضاه.

٢٧٤- ثالثاً - الترغيب والترهيب في أسلوب الدعاة:

ويستحسن للدعاة أن يستعملوا الترغيب والترهيب في دعوتهم الناس إلى الله تعالى، ويرغبونهم بما عند الله من حسن الجزاء إذا التزموا بأحكام الإسلام وبالعيش

---

(٥٣٥) سورة الأعراف الآية ٦٥.

(٥٣٦) سورة هود، الآية ٥١.

الرضي في الدنيا مستشهدين بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، من ذلك قوله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[٥٣٧] ومن الترهيب بالهلاك بسبب الذنوب قوله تعالى: ﴿ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴾[٥٣٨].

٢٧٥- رابعاً - البراءة من الشرك وأهله وعدم الخوف منهم:

وعلى الداعي المسلم أن يكون صريحاً في براءته من الشرك وأهله، وعدم الخوف منهم، كما كان هود عليه السلام مع قومه، قال تعالى حكاية عن هود: ﴿ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴾[٥٣٩] وهكذا يجب أن يكون الداعي المسلم صريحاً واضحاً في ولائه وبراءته، وقوياً بربه لا يخاف غيره ولا يعتمد إلا عليه.

٢٧٦- خامساً - الحِلْمُ على الجاهلين:

وعلى الداعي المسلم أن يحمل نفسه على الحلم على الجاهلين إذا نسبوه إلى ما لا يليق به، أو اتهموه بما هو بريء منه، وأن يبقىٰ في موقف الشفيق عليهم الرحيم بهم، فقد رأينا كيف خاطب قوم هود هوداً عليه السلام، وبماذا أجابهم: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾، فأجابهم هود: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾. كما أنَّ على الداعي المسلم أن يحمل نفسه على الصبر، لأن الدعاة إلى الله قلّ ما ينجون من إيذاء الجاهلين.

٢٧٧- سادساً - وجادلهم بالتي هي أحسن:

وعلى الداعي المسلم أن يكون شعاره في جدال الخصوم ﴿ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ وأن يستعمل في خطابه معهم الكلمات الرقيقة ويشعرهم بأنه ناصح لهم يريد الخير لهم، ويخاطبهم بـ﴿ يَٰقَوْمِ ﴾ وإن كان المُخَاطَبُ واحداً ناداه بـ«يا أخي»

---

(٥٣٧) سورة النحل الآية ٩٧.

(٥٣٨) سورة الأنعام الآية ٦.

(٥٣٩) سورة هود الآية ٥٤.

وأن يختار الداعي لجداله معهم الوقت المناسب والمكان المناسب والصيغة المناسبة من جهة دعوتهم بالسر أو بالعلن.

٢٧٨- الحذر من صفات الكافرين:

وعلى الداعي المسلم أن يحذّر المدعوين من الغرور والعجب بالنفس والاستكبار في الأرض، فهذه صفات تصدّ أصحابها عن الحق، فقد رأينا كيف أنَّ قوم هود استكبروا في الأرض وأعجبتهم أنفسُهم وغرّهم بالله الغرور، قال تعالى عنهم: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً . . ﴾.



الفصل الخامس

قصة صالح عليه السلام

المبحث الأول

خلاصة القصة وتفسير آياتها

٢٧٩- خلاصة القصة:

ثمود من قبائل العرب العاربة قبل إبراهيم الخليل عليه السلام، وسموّا باسم جدهم ثمود. كانت مساكنهم بالحجر فيما بين الحجاز والشام إلي وادي القرى وما حوله، وقد مرَّ رسولنا ﷺ على ديارهم ومساكنهم وهو ذاهب إلى تبوك في سنة تسع للهجرة(٥٤٠).

وقد أرسل الله تعالى إلى ثمود رسولاً منهم هو صالح عليه السلام، فأمرهم بعبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام التي كانوا عليها، فلم يؤمن له منهم إلا القليل، ثم إنّهم قتلوا الناقة التي حذرّهم صالح من أن يمسوها بسوء فيأخُذَهُمْ عذاب أليم، فأهلكهم الله بذنوبهم ونجّى الله صالحاً ومن آمن معه.

٢٨٠- اعبدوا الله ما لكم من إلّه غيره:

قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ . . . ﴾(٥٤١) أي ولقد أرسلنا إلى قبيلة ثمود أخاهم صالحاً، وإنما سماه الله أخاهم باعتبار النسب، إذ هو من قبيلة ثمود فهو أخوهم نسباً لا ديناً. فكان - عليه السلام - أول ما دعاهم إليه عبادة الله وحده، وهكذا فعلت رسل الله جميعاً، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾(٥٤٢).

---

(٥٤٠) تفسير ابن كثير ج٢ ص٢٢٧، تفسير المنار ج٨ ص٥٠١.

(٥٤١) سورة الأعراف الآية ٧٣.

(٥٤٢) سورة النحل الآية ٣٦.

٢٨١- قد جاءتكم بيّنة من ربكم:

قال تعالى حكاية عما قاله صالح لقومه: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾(٥٤٣)، أي قد جاءتكم حجة من الله على صدق ما جئتكم به، وكانوا هم الذين سألوا صالحاً أن يأتيهم بآية، واقترحوا عليه بأن تخرج لهم من صخرة عينوها ناقة، فأخذ عليهم صالح العهود والمواثيق لئن أجابهُمُ الله إلى سؤالهم وأجابهم إلى طلبهم، ليؤمنُنَّ به، وليتبعنَّهُ، فلما أعطوه على ذلك عهودهم ومواثيقهم قام صالح عليه السلام إلى صلاته ودعا ربه أن يجيب القوم إلى ما طلبوه، فأجاب الله دعاءه، وانصدعتِ الصخرة وخرجت منها ناقة كما أرادوا واقترحوا، فقال لهم صالح: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(٥٤٤). وإنما أُضِيفَتْ هذه الناقة إلى الله تعالى فقيل عنها: ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ تعظيماً لشأنها، كما في إضافة الكعبة إلى الله، فقيل عنها «بيت الله»(٥٤٥)، وقد كان من أخبار تلك الناقة، أنها كانت تشرب من بئر معينة يوماً وللقوم يوم آخر، كما قال تعالى عن هذه القسمة في ماء البئر: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾(٥٤٦) وفسره قوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾(٥٤٧).

٢٨٢- صالح يذكّر قومه بآلاء الله عليهم:

قال تعالى حكاية عما قاله صالح لقومه: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾(٥٤٨)، أي تذكروا إذْ جعلكم الله تعالى خلفاء لقوم عاد في العمران والقوة والبأس ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي أنزلكم فيها وجعلها مباءة ومنازل لكم، تتخذون من سهولها قصوراً زاهية ﴿وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا

---

(٥٤٣) سورة الأعراف الآية ٧٣.

(٥٤٤) سورة الأعراف الآية ٧٣.

(٥٤٥) تفسير القاسمي ج٧ ص١٧٩.

(٥٤٦) سورة القمر الآية ٢٨.

(٥٤٧) سورة الشعراء الآية ١٥٥.

(٥٤٨) سورة الأعراف، الآية ٧٤.

﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ فاذكروا آلاء الله أي فتذكروا نعم الله عليكم، واشكروها له بتوحيده وإفراده بالعبادة، واستعمالِ هذه النعم التي أسبغها عليكم ربكم فيما فيه صلاحكم ومرضاة ربكم[٥٤٩]. ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِى ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ أي لا تفسدوا في الأرض، وتكرر المعنى تأكيداً لاختلاف اللفظ[٥٥٠].

٢٨٣- سؤال المستكبرين للمستضعفين:

قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾[٥٥١] أي قال الملأ من قومه وهم سادة القوم وكبراؤهم وقادتهم الذين استكبروا عن الإيمان بعد ظهور آية الناقة، وكلمات صالح الناصحة، قالوا للمؤمنين الذين استضعفوهم واسترذلوهم: ﴿أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ إليكم لعبادته تعالى وحده لا شريك له، وهذا قالوه على سبيل السخرية والاستهزاء، فأجابهم المؤمنون بقولهم: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾ أي إنا بما أُرْسِلَ به دون ما يخالفه من الشرك والفساد، مُصدّقون بأنه جاء به من عند الله تعالى، ومُذعِنونَ له بالفعل. ويلاحظ هنا أنهم لم يجيبوا بكلمة (نعم)، أو نعلم أنّهُ مُرسَلٌ من ربه، أو إنا برسالتِهِ عالمون، ولكنهم أجابوا بما يستلزم هذا المعنى ويزيد عليه، وهو أنهم علموا بذلك يقينياً إذعانياً له السلطان على عقولهم وقلوبهم إذ آمنوا به إيماناً صادقاً كاملاً حتى صار صفة من صفاتِهِمُ الراسخةِ التي تصدر عنها أعمالهم[٥٥٢].

٢٨٤- ردّ المستكبرين جواب المستضعفين:

قال تعالى عما أجابَ به المستكبرون رداً على جواب المستضعفين: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾[٥٥٣] ويُلاحظ على جواب

---

(٥٤٩) تفسير المنار ج٨ ص٥٠٣.

(٥٥٠) تفسير القرطبي ج١ ص٤٢١.

(٥٥١) سورة الأعراف الآية ٧٥.

(٥٥٢) تفسير المنار ج٨ ص٥٠٤، تفسير القاسمي ج٧ ص١٨٣.

(٥٥٣) سورة الأعراف، الآية ٧٦.

المستكبرين أنهم لم يقولوا: إنّا بما أرسِل به كافرون، لأنه يتضمن إثبات أصل الرسالة له، وهذا ما لا يريدونه، وإنما يريدون إظهار المخالفة لمن آمن والرد لمقالهم(٥٥٤).

٢٨٥- شبهاتهم في عدم إيمانهم:

وكانت شبهاتهم في إصرارهم على الكفر والتكذيب، وعدم إيمانهم بصالح وبرسالته من ربه، أنه بشر، وأنه واحد منا لا يفضل علينا بشيء، قال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ ﴾(٥٥٥). والمعنى: كذبت ثمود بما أنذرهم به نبيهم صالح عليه السلام، فقالوا: ﴿ أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴾ قالوا على وجه الإنكار: أنتبع بشراً مثلنا في الآدمية..!، وقولهم ﴿ مِنَّا ﴾، لأنه إذا كان منهم كانت المماثلة بينه وبينهم أقوى، وهذا بزعمهم، أدعى إلى ردّ ادعائه أنه نبي. وقولهم: ﴿ وَاحِدًا ﴾ إنكار لأنْ تتبع الأمة رجلاً واحداً، أو أرادوا واحداً من عامتهم وليس بأشرفهم وأفضلهم. ﴿ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴾ أي إنا في جنون إذا اتبعناه وحاله كما وصفنا ﴿ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا ﴾ يعنون النبوة، أي أخصَّهُ الله بالنبوة وفينا من هو أحق بها على زعمهم، ﴿ بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾ أي متكبر حمله كبره على استتباعنا له بقبول دعوته ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ ﴾ سيعلمون غداً، أي عند نزول العذاب بهم، أو يومَ القيامة مَنْ الكذاب الأشر، أي المتكبر عن الحق البطِرُ له(٥٥٦).

٢٨٦- مجادلة صالح لقومه وحرصه على هدايتهم:

قال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾(٥٥٧)، وهذا خطاب لين رقيق من أخيهم في النسب صالح، والشأن في الأخ أن يحرص على ما ينفع أخاه، وهو رسول من رب العالمين، أمين

---

(٥٥٤) تفسير المنار ج٨ ص٥٠٥، تفسير القاسمي ج٧ ص١٨٣.

(٥٥٥) سورة القمر، الآيات ٢٣-٢٦.

(٥٥٦) تفسير القاسمي ج١٥ ص٢٦٩.

(٥٥٧) سورة الشعراء الآية ١٤١-١٤٤.

على رسالته التي أُرسل بها إلى قومه بأن يتقوا الله فيعبدوهُ وحده، ثم بيّن لهم صالح أنه لا يبغي منفعة لنفسه، ولا أجراً منهم على دعوته، لأن أجره على الله رب العالمين، قال تعالى حكاية عما قاله صالح لقومه: ﴿ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(٥٥٨)، ثم قال لهم على وجه التذكير والنصح لهم: ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾(٥٥٩) أي أَتُتركونَ في الدنيا آمنين من الموت والعذاب، متنعمين بما أنبت الله لكم من الجنات، وفجر لكم من العيون الجاريات، فأخرج لكم من الزروع والثمرات، ﴿ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾ أي إذا أينع وبَلَغ، فهو هضيم أو إذا رطب واسترخى، ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ﴾ يعني حاذقين متقنين لنحتها، تفعلون ذلك أشراً وبطراً وعبثاً من غير حاجة إلى سكناها ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ أي أقبلوا على ما يعود نفعه عليكم في الدنيا والآخرة من عبادة ربكم الذي خلقكم ورزقكم لتعبدوه وتوحدوه ﴿ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ يعني رؤساءهم وكبراءهم الدعاة لهم إلى الشرك والكفر ومخالفة الحق(٥٦٠).

٢٨٧- جواب قوم صالح:

وبالرغم من تلطف صالح عليه السلام في وعظه وكلامه وجداله مع قومه، أجابوه بما أخبرنا الله عنه ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾(٥٦١) أي أنت من الذين سحروا حتى غلبوا على عقولهم(٥٦٢) وأنت بشر مثلنا فكيف تكون نبيناً؟

(٥٥٨) سورة الشعراء الآية ١٤٥.

(٥٥٩) سورة الشعراء الآيات من ١٤٦-١٥٢.

(٥٦٠) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٤٣، تفسير الرازي ٢٤ ص١٥٩، تفسير القرطبي ج١٣ ص١٢٧-١٢٩.

(٥٦١) سورة الشعراء الآية ١٥٣، ١٥٤.

(٥٦٢) تفسير الرازي ج٢٤ ص١٥٩.

٢٨٨- يطلبون نزول العذاب:

وبعد كل هذا الجدال والوعظ والتذكير من صالح عليه السلام مع قومه ثمود لم يؤمن به إلا القليل، وطلبوا منه أن يأتيهم بالعذاب الذي وعدهم به، ذلك أنَّ صالحاً قال لهم: ﴿قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٥٦٣] ولكنّ القوم لم يأخذوا هذا التحذير مأخذ الجدّ والتصديق لما يقوله صالح؛ ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[٥٦٤] أي نحروها. وأُسْنِد العقر إلى جميعهم؛ لأنه كان برضاهم، وإن لم يباشره إلا بعضهم ﴿وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ أي استكبروا عن امتثاله، وهو الحذر من مسّ الناقة بسوء وزادوا في الاستهزاء ﴿وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ اي من العذاب على عقر الناقة، والأمر للاستعجال لأنهم كانوا يعتقدون أنه لا يحصل ذلك، لاعتقادهم أنَّ صالحاً غير صادق في ادعائه النبوة، ولذلك قالوا: ﴿إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[٥٦٥].

٢٨٩- نزول العذاب:

قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾[٥٦٦] بعد أن عقروا الناقة، قالوا: ﴿يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.. ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ أي الزلزلة الشديدة التي حصلت من الصيحة الشديدة ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ أي ساقطين على وجوههم هامدين لا يتحركون. ﴿فَتَوَلَّىٰ﴾. اي فأعرضَ صالح عنهم ﴿وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ أي فلم تنتفعوا بذلك، لأنكم لا تحبون الحق، ولا تتبعون ناصحاً، ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾[٥٦٧].

---

(٥٦٣) سورة الأعراف. الآية ٧٣.

(٥٦٤) سورة الأعراف الآية ٧٧.

(٥٦٥) تفسير القاسمي ج٧ ص١٨٤.

(٥٦٦) سورة الأعراف الآيتان ٧٨، ٧٩.

(٥٦٧) تفسير ابن كثير ج٢ ص٢٣٠، تفسير القاسمي ج٧ ص١٨٥.

المبحث الثاني
ما يستفاد من قصة صالح وقومه ثمود

٢٩٠- أولاً - الدعوة إلى عبادة الله وحده:

أول شيءٌ دعا إليه صالح توحيد الألوهية أي: إفراد الرب تعالى بالعبادة ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾[٥٦٨] فهو عليه السلام بدأ بدعوة قومه إلى عبادة الله وحده كما فَعَلَ مثل هذا من سبقه من رسل الله. فعلى الداعي المسلم أن يؤكد على عبادة الله وحده، وأن يبين معنى العبادة، ومدىٰ شمولها وأثرها في سلوك المسلم، وضرورة استحضارها في الذهن، ونحو ذلك مما له علاقة بمفهوم العبادة.

٢٩١- ثانياً المستضعفون هم أكثر أتباع رسل الله:

لاحظنا في قصة صالح عليه السلام أنَّ المستضعفين من الفقراء والمغمورين هم أتباع صالح الذين آمنوا به، أما كبراء القوم وسادته وقادته، وهم الملأ، فكانوا يجادلون صالحاً والذين آمنوا معه، من ذلك ما قصه علينا ربنا في قوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾[٥٦٩]. والواقع أنَّ سنَّةَ الله قضت بأنَّ المستضعفين من الفقراء والمغمورين من الناس يسبقون غيرهم من الأغنياء والسادة وكبراء القوم، يسبقونهم في الإجابة لدعوة الرسل، وإلى كل دعوة إصلاح حقيقية، لأنه لا يثقل عليهم أن يكونوا تبعاً لغيرهم، وهذا بخلاف أكابر القوم المتكبرين والأغنياء المترفين فإن هؤلاء لا يشق عليهم أن يكونوا مرؤوسين، وأن يخضعوا للأوامر والنواهي التي تقيد من شهواتهم[٥٧٠]. فعلى الدعاة أن يوسعوا دائرة دعوتهم بين المستضعفين وأن

---

(٥٦٨) سورة الأعراف الآية ٧٣.

(٥٦٩) سورة الأعراف الآية ٧٤.

(٥٧٠) تفسير المنار ج٨ ص٥٠٤.

يفسحوا مجالسهم لهم دون إغفالٍ عن دعوة كافة طبقات المجتمع الأخرى بما فيها طبقة السادة وكبراء المجتمع. وعلى الدعاة أن يثيروا في هؤلاء المستضعفين الذين يقبلون الدعوة إلى الله أن يثيروا فيهم معاني الإيمان وعزّةَ المؤمن، وإعلانَ ذلك في وجه السادة والكبراء، كما قال من آمن بصالح ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ﴾ أي صالح ﴿مُؤۡمِنُونَ﴾[571].

٢٩٢- ثالثاً - من أساليب الدعوة التذكير بنعم الله:

من أساليب الدعوة التي لاحظناها في قصة صالح أنه كان يذكّر قومه بنعم الله عليهم من الزروع والثمار والجنات المختلفة والعيون الجارية والقوة والبأس والقدرة بمهارة على بناء البيوت في الجبال، ويقول لهم: هذا كله يدعوكم إلى شكر الله، والاستعانة بما أعطاكم على عبادة الله. وهذا أسلوب جيد ينبغي للدعاة المسلمين استعماله في دعوتهم الناس إلى عبادة الله، والتقيد بشرعِهِ واستعمال ما آتاهم الله من مال ونعمةٍ فيما يرضي الله تعالى لا فيما يسخطه.

---

(٥٧١) سورة الأعراف الآية ٧٤.

الفصل السادس

قصة إبراهيم عليه السلام

المبحث الأول

خلاصة قصة إبراهيم وتفسير آياتها

٢٩٣- خلاصة القصة:

إبراهيم هو الاسم العلم لخليل الرحمن، أبي الأنبياء الأكبر من بعد نوح عليهما السلام. ولد سيدنا إبراهيم في أور الكلدانيين في العراق[٥٧٢]. وأما أبوه فهو «آزر» كما ورد في القرآن الكريم[٥٧٣] وكان قوم إبراهيم الذين ولد فيهم يعبدون الكواكب السيارة والأصنام[٥٧٤]، وقد دلت آثار أولئك القوم التي اكشفت في العراق على صحة ما عرف في التاريخ من عبادتهم للأصنام الكثيرة، كما ورد في القرآن الكريم حتى كاد أن يكون لكل منهم صنمٌ خاص به سواءٌ الملوك والسوقة في ذلك، وكانوا يعبدون أيضاً الكواكب السيارة[٥٧٥]. وقد عاب إبراهيم على قومه في العراق شركهم بالله وعبادتهم للأصنام، وجادل أباه وقومه في ذلك، ثم أراد أن يلفت أنظارهم إلى باطل ما هم عليه من عبادة غير الله بما حاججهم به وبتكسيره الأصنام إلا كبيرها، ولكن لم يرجعوا عن كفرهم وضلالهم، وإنما قرروا قتله بإلقائه في النار، ففعلوا ذلك وأنجاه الله تعالى. ثم خرج إبراهيم عليه السلام ومعه ابن أخيه لوطٌ إلى أرض الشام إلى الأرض المقدسة منها[٥٧٦] وهي فلسطين، وكانت أرض

---

(٥٧٢) تفسير المنار ج٧ ص٥٣٤.

(٥٧٣) تفسير المنار ج٧ ص٥٣٥.

(٥٧٤) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٥١، تفسير المنار ج٧ ص٥٥٤، ٥٦٥.

(٥٧٥) تفسير المنار ج٧ ص٥٥٤.

(٥٧٦) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٨٤- ١٨٥.

الكنعانين وأقام في مدينة (شكيم) وهي مدينة (نابلس). ثم رحل إبراهيم إلى مصر ثم رجع إلى فلسطين[٥٧٧] فأقام فيها مدة، وقد ولدت له زوجته هَاجَرُ ابنه إسماعيل، وقد خرج بها وبابنها إسماعيل وهو رضيع إلى مكة، فقد جاء في صحيح البخاري عن ابن عباس «. . . ثم جاء بها- أي بهاجر أم إسماعيل- وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم فوق في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، ووضع عندهما جراباً فيه تمر وسقاء فيه ماء، ثم رجع إبراهيم فتبعتْه أم إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركُنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لا يضيعنا»[٥٧٨] ثم عاد إبراهيم إلى مكة وقد كبر إسماعيل فأراد إبراهيم ذبحه لرؤيا رآها كما سنبيّنُهُ فيما بعد إن شاء الله تعالى. وقد اشترك إسماعيل مع أبيه إبراهيم في بناء البيت. وقد خصّ الله إبراهيم بفضيلة اتخاذه خليلاً، قال تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ وإنما سمي إبراهيم خليل الله لشدة محبته لربه عزوجل لما قام به من الطاعة التي يحبها ويرضاها. والخلة التي انتهى إليها إبراهيم هي أرفع مقامات المحبة. ولم تثبت فضيلة (الخلة) إلا لإبراهيم لما ذكرناه من كتاب الله، ولنبينا محمد ﷺ لما ثبتَ في الصحيحين أنه ﷺ خطب في الناس، فقال فيما قاله: «أما بعد أيها الناس فلو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكن صاحبكم خليل الله»[٥٧٩]. ثم مات إبراهيم الخليل عليه السلام ودفن في الموضع الذي قامت عليه مدينة الخليل في فلسطين.

٢٩٤- إنكار إبراهيم على أبيه وقومه:

قال تعالى: ﴿ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى

---

(٥٧٧) قصص الأنبياء تأليف عبد الوهاب النجار ص٨٣ وما بعدها.

(٥٧٨) تفسير ابن كثير ج١ ص٧٦.

(٥٧٩) تفسير ابن كثير ج١ ص٥٦٠.

﴿هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾(٥٨٠) والمعنى: أنَّ إبراهيم عليه السلام أنكر على أبيه عبادة الأصنام ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ﴾ السالكين مسلكك ﴿فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ أي تائهين لا يهتدون أين يسلكون، وضلالكم هذا واضح لا شبهة فيه، فإنَّ هذا الأصنام التي اتخذتموها آلهة لكم لم تكن آلهة في أنفسها بل بإتخاذكم إياها آلهة. ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي نبين له وجه الدلالة في نظره إلى خلقهما على وحدانية الله عزوجل في ملكه وخلقه، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾ أي نُريه ذلك ليكون عالماً موقناً. ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ﴾ أي غطّاه وستره ﴿رَءَا كَوۡكَبٗاۖ﴾ أي نجماً ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ﴾ أي قال إبراهيم لقومه: هذا ربي على زعمكم، لأنهم كانوا يعبدون الكواكب والشمس والقمر. وكذلك قال إبراهيم لقومه عن القمر: إنه ربي على زعمكم، وللشمس: إنه ربي على زعمكم. قال ذلك إبراهيم على سبيل المناظرة والمحاججة لقومه. ثم قال لهم، وقد رأى أفولها، ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ أي أنا بريءٌ من شرككم بالله تعالى ومن هذه المعبودات التي جعلتموها آلهة مع الله. ﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ أي قصدت بعبادتي وتوحيدي الله عزوجل وحده ﴿حَنِيفٗاۖ﴾ أي مائلاً إلى الحق وما أنا من المشركين بعبادة ربي(٥٨١).

٢٩٥- وحاجّه قومه:

وبعد أن سمع قوم إبراهيم مقالته وما توصل إليه من الحق بشأن معبوداتهم الباطلة، لم يقنعهم قول الحق الذي قاله إبراهيم، وإنما أخذوا يجادلونه فيما قاله، قال تعالى: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن

---

(٥٨٠) سورة الأنعام، الآيات ٧٤- ٧٩.

(٥٨١) تفسير القرطبي ج٧ ص٢١- ٢٩، تفسير ابن كثير ج٢ ص١٤٩- ١٥٢.

كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[٥٨٢]
يقول تعالى مخبراً عما قاله إبراهيم حين جادله قومه فيما ذهب إليه من التوحيد، وجادلوه بشُبَهٍ من القول أنه قال: ﴿أَتُحَـٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ﴾ أي أتجادلونني في أمر الله وأنه لا إله إلا هو، وقد بصّرني وهداني إلى الحق، فكيف ألتفت إلى أقوالكم الفاسدة ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔا﴾ أي ومن الدليل على بطلان قولكم فيما ذهبتم إليه من أن هذه الآلهة التي تعبدونها أنها تؤثر، هو أني لا أخافها ولا أباليها ولا أقيم لها وزناً، فإن كان لها كيدٌ فكيدوني بها ولا تمهلوني، فالذي ينفع ويضر هو الله وحده أفلا تعتبرون وتتذكرون فيما بينتُهُ لكم لتعلموا أن هذه الآلهة باطلة فتنزجروا عن عبادتها ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ﴾ أي كيف أخاف من هذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا﴾ أي حجة ﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي فأي الطائفين أحق بالأمن من عذاب الله يوم القيامة: من يعبد الله الذي بيده الضرر والنفع، أو من يعبد ما لا يضر ولا ينفع كهذه الأصنام التي صنعتموها من الحجارة بأيديكم؟ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ أي هؤلاء الذين أخلصوا العبادة لله وحده لا شريك له ولم يشركوا به شيئاً هم الآمنون يوم القيامة المهتدون في الدنيا[٥٨٣].

٢٩٦- إبراهيم يتلطف مع أبيه في دعوته إلى التوحيد:

كان إبراهيم عليه السلام حريصاً جداً على هداية أبيه فكان يصارحه فيما هو عليه من كفر، وأنَّ هذا الكفر إن لم يقلع عنه سيذهب به إلى النار، ولذلك كان إبراهيم يكرر دعوته لأبيه بغاية التلطف واللين معه، مستعملاً في خطابة معه «يا أَبتِ» لُيشعره بأنه ابنه، والابن البار يكون حريصاً على ما ينفع أباه، قال الله تعالى عما قاله إبراهيم لأبيه وهو يدعوه إلى عبادة الله ونبذ عبادة ما سواه، قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَـٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا يَـٰٓأَبَتِ

---

(٥٨٢) سورة الأنعام الآيات ٨٠- ٨٢.

(٥٨٣) تفسير ابن كثير ج٢ ص١٥٢.

﴿إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾[٥٨٤] سلك إبراهيم في دعوته لأبيه أحسن منهاج، واحتج عليه أبدع احتجاج بحسن أدب وخلق جميل، لئلاّ تأخذه العزة بالإثم حيث طلب إبراهيم من أبيه علة عبادته لما لا ينفع ولا يضر ولا يستحق العبادة أصلاً ويترك عبادة الله الخالق الرازق النافع الضار المحي المميت، فكيف يستيسغ هذا عاقل؟[٥٨٥]. وقال إبراهيم في دعوته لأبيه إلى الحق مترفقاً به متطلفاً: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ فلم يصف أباه بالجهل المفرط، ولا نفسه بالعلم الفائق، ولكنه قال: إن معي طائفة من العلم وشيئاً منه ليس معك، وذلك علم الدلالة على الحق والطريق السوي، فلا تستنكف يا أبتِ من قبول قولي ونصحي لك، وهب أنا وأنت في مسيرٍ وعندي معرفة بالطريق، فمصلحتك تقتضي أن تتبعني لتنجو من الضلال والتيه[٥٨٦]. ثم قال إبراهيم لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾[٥٨٧] «أي إنَّ عبادتك لغير الله هي عبادة للشيطان، لأنه هو الآمر بها والمسوّل لها» ولا ينبغي أن تطيع الشيطان العاصي لربك الذي أنعم عليك ثم قال إبراهيم لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾[٥٨٨] أي إني أخاف عليك إن عصيتَ الله وواليت عدوهَ أن يقطع رحمته عنك كما قطعها عن الشيطان، فتكون للشيطان ولياً أي مقارناً له ومشاركاً معه في عذابه. وفي هذا الخطاب يخوّف إبراهيم أباه من سوء العاقبة ولم يَخْلُ هذا التخويف من حسن الأدب حيث لم يصرح بأنَّ العقاب لاحق له، وأن بأنَّ العذاب لاحق به، ولكنه قال: ﴿أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ﴾ فذكر الخوف والمسّ ونكّر العذاب، وجعل ولاية الشيطان ودخوله في جملة أشياعه وأوليائه أكبر نتيجة لازمةٍ لطاعته، أي لطاعة الشيطان. ويلاحظ أنَّ إبراهيم صدّر كل نصيحة من النصائح الأربع بقوله ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ توسلاً إليه واستعطافاً[٥٨٩].

---

(٥٨٤) سورة مريم الآيات ٤١، ٤٢.

(٥٨٥) تفسير القاسمي ج١١ ص١٢٨- ١٢٩.

(٥٨٦) تفسير القاسمي ج١١ ص١٢٩.

(٥٨٧) سورة مريم الآية ٤٤.

(٥٨٨) سورة مريم الآية ٤٥.

(٥٨٩) تفسير القاسمي ج١١ ص١٢٠.

٢٩٧- جواب الأب لابنه إبراهيم:

وبالرغم من تلطف إبراهيم مع أبيه في الخطاب، والتزام أقصى حدود الأدب في هذا الخطاب، واستعطافه بأن يسمع منه ويقبل نصحه، ومخاطبته له بـ (يا أبتِ) ليثير فيه عاطفة الأبوة نحوه، بالرغم من ذلك أجابه بما أخبرنا الله به ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾[٥٩٠] قال أبو إبراهيم مصراً على عناده وكفره: أمعرضٌ ومنصرفٌ أنت عن آلهتي يا إبراهيم؟ لئن لم تنته عن الطعن في آلهتي وعن نصحك لي بترك عبادتها لأرجمنَّك بالحجارة واهجرني ملياً أي تباعد عني زمناً طويلاً[٥٩١].

٢٩٨- بماذا ردّ إبراهيم على جواب أبيه؟:

لم يعارض إبراهيم أباه بسوء الرد، ولم يستمر معه بالجدال، وإنما قال له: ﴿ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴾[٥٩٢] وفي قول إبراهيم لأبيه ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾ مقابلة السيئة بالحسنة، أي لا أجيبك بمكروه بعد، ولكن سأدعو ربي أن يغفر لك إنه كان بي حفياً أي مبالغاً في اللطف بي[٥٩٣] وقال إبراهيم أيضاً: ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴾[٥٩٤]. أي

---

(٥٩٠) سورة مريم، الآية ٤٦.

(٥٩١) تفسير القرطبي ج١١ ص١١١، تفسير القاسمي ج١١ ص١٢١.

(٥٩٢) سورة مريم الآية ٤٧.

(٥٩٣) تفسير القرطبي ج١١ ص١١١، ١١٣. هذا وإن استغفار إبراهيم كان لوعد من أبيه له بالإيمان وترك عبادة الأصنام فلما مات كافراً ترك إبراهيم الاستغفار له. قال تعالى: ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إنَّ إبراهيم لأواه حليم﴾ سورة التوبة الآية ١١٤ وجاء في تفسير القرطبي في تفسيرها ج٨ ص٢٧٤: قال ابن عباس: كان أبو إبراهيم وعد إبراهيم الخليل أن يؤمن بالله ويخلع الأنداد، فلما مات على الكفر علم إبراهيم أنه عدو لله فترك الدعاء له. فالكناية في قوله ﴿إياه﴾ ترجع إلى إبراهيم والواعد أبوه. وقيل الواعد إبراهيم أي وعد إبراهيم أباه أن يستغفر له، فلما مات مشركاً تبرأ منه. ودلّ على هذا الوعد قول إبراهيم ﴿سأستغفر لك ربي﴾.

(٥٩٤) سورة مريم الآية ٤٨.

أجتنبكم وأتبرأ منكم ومن آلهتكم التي تعبدونها من دون الله ﴿وَأَدْعُواْ رَبِّي﴾ أي وأعبد ربي وحده لا شريك له ﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ أي خائباً ضائع السعي. (وعسى) هذه هي في حق سيدنا إبراهيم بمعنى الشيء المحقق، لأنه عليه السلام سيد الأنبياء بعد محمد ﷺ[٥٩٥]. وقال الزمخشري: وفيه تعريض بشقاوة قومه بعبادة آلهتهم مع التواضع لله بكلمة (عسى) وما فيه من هضم النفس ومراعاة حسن الأدب والتنبيه على أنَّ الإجابة والإنابة بطريق التفضل منه تعالى[٥٩٦].

٢٩٩- جدال إبراهيم مع قومه قبل تكسير الأصنام:

قال تعالى ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾[٥٩٧] أي آتينا إبراهيم النبوة أو آتيناه الاهتداء لوجوه الصلاح في الدين والدنيا من قبل موسى وهارون عليهما السلام. وكنا عالمين بما لإبراهيم من صفات جعلته أهلاً لما آتيناه[٥٩٨]. ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾[٥٩٩]. أي اذكر حين قال إبراهيم لأبيه وقومه: ما هذه التماثيل - أي: الأصنام - التي أنتم مقيمون على عبادتها، ﴿قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾[٦٠٠] أي نعبدها تقليداً لأسلافنا، فحجتهم تقليد آبائهم الضُلّال، ولهذا ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[٦٠١] أي فالكلام مع آبائكم الذين احتججتم بصنيعهم كالكلام معكم، فأنتم وهم في ضلال على غير الطريق المستقيم، وفي عمل باطل ظاهر البطلان، وإنَّ الباطل لا يصير حقاً بكثرة المتمسكين به[٦٠٢]، ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾[٦٠٣] أي أجئتنا

---

(٥٩٥) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٢٤.

(٥٩٦) تفسير القاسمي ج١١ ص١٢٢.

(٥٩٧) سورة الأنبياء الآية ٥١.

(٥٩٨) تفسير الرازي ج٢٢ ص١٧٩- ١٨٠.

(٥٩٩) سورة الأنبياء الآية ٥٢.

(٦٠٠) سورة الأنبياء الآية ٥٣.

(٦٠١) سورة الأنبياء الآية ٥٤.

(٦٠٢) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٨٢، الرازي ج٢٢ ص١٨١.

(٦٠٣) سورة الأنبياء الآية ٥٥.

بالجدّ في دعوى الرسالة ونسبتنا إلى الضلال، أم أنت من اللاعبين أي لاعب مازح في كلامك هذا فإنا لم نسمع به قبلك[٦٠٤]. ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾[٦٠٥] أي لست بلاعب، بل ربكم والقائم بتدبيركم خالق السموات والأرض الذي فطرهن أي خلقهن وأبدعهن هو الذي يجب أن يعبد وليس هذه الأصنام التي لا تضر ولا تنفع، وأنا على ذلكم من الشاهدين أي المبرهنين عليه بالحجة، أي على أنَّ الله هو خالق السموات والأرض، فلستُ مثلكم تعجزون عن إثبات ما تدعونه من أحقية عبادتكم للأصنام إذ ليس عندكم من حجة سوى أنكم وجدتم آبائكم يعبدونها[٦٠٦].

٣٠٠- إبراهيم يكسّر الأصنام ليلفت إلى دعوته الأنظار:

وبعد هذا الجدال بين إبراهيم وقومه، عزم على تكسير أصنامهم، قال تعالى حكاية عمّا عزم عليه إبراهيم: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾[٦٠٧] أخبر إبراهيم بهذا القسم على ما هو عازم على فعله بأنه لم يكتف بالمحاجة والجدل باللسان بل عزم على تكسير أصنامهم، فعْلَ واثقٍ بالله موطّنٍ نَفْسَهُ على مقاساة المكروه في الذبّ عن الدين، ﴿بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ أي بعد أن تخرجوا إلى عيدكم، وكان لهم عيد يخرجون إليه ويجتمعون فيه في كل سنة. وقد قال ذلك إبراهيم في سرّ من قومه ولم يسمعه إلا رجل واحد وهو الذي أفشاه عليه. وقيل إنما قاله بعد خروج القوم إلى عيدهم ولم يبق منهم إلا الضعفاء منهم الذين سمعوه[٦٠٨] ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾[٦٠٩] أي جعل أصنامهم قطعاً مكسرة بعد أن ولّوا عنها. إلا أنه لم يكسّر الصنم الكبير، بل تركه وعلق الفأس التي

---

(٦٠٤) القرطبي ج١١ ص٢٩٦، القاسمي ج١١ ص٢٦٤.

(٦٠٥) سورة الأنبياء الآية ٥٦.

(٦٠٦) الرازي ج٢٢ ص١٨٢، القاسمي ج١١ ص٢٦٤.

(٦٠٧) سورة الأنبياء الآية ٥٧.

(٦٠٨) تفسير القرطبي ج١١ ص٢٩٧.

(٦٠٩) سورة الأنبياء، الآية ٥٨.

كسّر بها الأصنام في عنقه، ليحتج به عليهم ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ أي لعلهم يرجعون إلى إبراهيم ودينه إذا قامت عليهم الحجة[٦١٠].

٣٠١- قالوا من فعل هذا بآلهتنا؟

ولما رجعوا من عيدهم ورأوا ما حصل لآلهتهم قالوا على وجه البحث والإنكار ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾[٦١١]. أي إنه ظالم لجرأته على إهانة آلهتنا بتكسيرها وهي الجديرةُ عندهم بالتعظيم[٦١٢] ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾[٦١٣] قال الذين سمعوا مقالة إبراهيم وقسمه على الكيد لهذه الأصنام، قال هؤلاء: سمعنا فتى أي شاباً يذكركم بمكروه منه يقال له إبراهيم. ﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ أي على رؤوس الأشهاد في احتفالهم الأكبر بحضرة الناس كلهم، ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ أي لعلهم يحضرون عقوبته، فلا يقدم أحد على مثل ما أقدم عليه، أو لعل قوماً يشهدون بأنهم رأوه يكسر الأصنام. وهذا هو المقصود الأكبر لإبراهيم عليه السلام بأن يُؤتَى به أمام هذا الحشد الكبير من الناس، حتى يبيّنَ لهم كثرة جهلهم، وقلة عقلهم في عبادة الأصنام التي لا تدفع عن نفسها ضراً،ولا تملك لها نصراً، ولو استطاعت ذلك لمنعت عن نفسها التكسير والتحطيم[٦١٤].

٣٠٢- إستنطاق إبراهيم أمام الناس:

فلما جيء بإبراهيم أمام الحشد الهائل من الناس ﴿قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾[٦١٥] وإنما أراد إبراهيم بهذا القول أن يبادروا من تلقاء أنفسهم، فيعترفوا أنهم لا ينطقون وأن هذا لا

---

(٦١٠) تفسير القرطبي ج١١ ص٢٩٧- ٢٩٨.

(٦١١) سورة الأنبياء الآية ٥٩.

(٦١٢) تفسير القرطبي ج١١ ص٢٩٨ تفسير القاسمي ج١١ ص٢٦٥.

(٦١٣) سورة الأنبياء، الآية ٦٠.

(٦١٤) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٨٢.

(٦١٥) سورة الأنبياء الآيتان ٦٢، ٦٣.

يصدر عن هذا الصنم، لأنه جماد[٦١٦]. فقصد إبراهيم تقريعهم وتوبيخهم على عبادة هذه الأصنام، فكأنه قال لهم على وجه الاستهزاء بهم: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ﴾ أي الصنم الكبير الذي لم يكسره فهو الذي كسر الأصنام، وواضح من هذا أنه يريد توبيخهم، والسخرية بهم لعبادتهمُ الأصنام. وتضمن جواب إبراهيم أيضاً: فإن ترددتم أن التكسير فعلي أو فعل الصنم الكبير فاسألوهم إن كانوا ينطقون، وإلا ظهر عجزهم الكلي المانع من القول بألوهيتها. ﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ﴾[٦١٧] أي فراجعوا عقولهم، أي رجع بعضهم إلى بعض رجوع المنقطع عن حجته المتفطِنِ لصحة حجة خصمه ﴿فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ﴾، أي أنتم الظالمون بعبادة من لا ينطقُ بلفظة ولا يملك لنفسه لحظة، وكيف ينفع عابديه ويدفع عنهم البأس من لا يرد عن رأسه الفأس[٦١٨]، ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ أي عادوا إلى جهلهم وعنادهم، ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ﴾، فكيف تقول لنا اسألوهم إن كانوا ينطقون، وأنت تعلم أنها لا تنطق؟ فعندها قال لهم إبراهيم لما اعترفوا بذلك ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾[٦١٩] أي إذا كانت لا تنطق وهي لا تنفع ولا تضر فلِمَ تعبدونها من دون الله؟[٦٢٠] ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[٦٢١] ﴿أُفٍّ﴾ صوت إذا صُوِّتَ به عُلِمَ أن صاحبه متضجرٌ. قال الزمخشري: أضجرهُ ما رأى من ثباتهم على عبادتها بعد انقطاع عذرهم، وبعد وضوح الحق وزهوق الباطل، فتأفَّفَ، ولما عجزوا عن المحاجة، أخذوا في المضارة شأنَ المبطل إذا قُرِعَتْ شبهتُهُ بالحجة لم يكن أحدٌ أبغض إليه من المحق[٦٢٢].

---

(٦١٦) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٨٣.

(٦١٧) سورة الأنبياء الآية ٦٤.

(٦١٨) تفسير القرطبي ج١١ ص٣٠٢.

(٦١٩) سورة الأنبياء الآية ٦٦.

(٦٢٠) تفسير القرطبي ج١١ ص٣٠٢، تفسير ابن كثير ج٣ ص١٨٣.

(٦٢١) سورة الأنبياء الآية ٦٧.

(٦٢٢) تفسير القاسمي ج١١ ص٢٦٨.

٣٠٣- قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم:

لما دحضت حجتهم، وظهر عجزهم، وظهرا الحق، واندفع الباطل أخذتهم العزة بالإثم، فقالوا: ﴿ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴾[٦٢٣]، أي لأنه استحق أشد العقاب عندهم، والنار أهول ما يعاقب به، وانصروا آلهتكم أي بالانتقام لها إن كنتم فاعلين به شيئاً[٦٢٤].

٣٠٤- وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين:

ولما قرروا تحريقه بالنار أوقدوا ناراً عظيمة، فلما ألقوه فيها قال: حسبي الله ونعم الوكيل، كما رواه البخاري عن ابن عباس أنه قال: حسبي الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم حين أُلقِيَ في النار. قال تعالى: ﴿ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾[٦٢٥] قال ابن عباس: لولا أنّ الله عزوجل قال ﴿ وَسَلَٰمًا ﴾ لآذى إبراهيمَ بَرْدُها[٦٢٦]. ﴿ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ﴾[٦٢٧] أي أرادوا أن يكيدوه بالإضرار به بتحريقه بالنار، فما كانوا إلا مغلوبين مقهورين حيث أنجاه الله من النار، ونصره عليهم[٦٢٨]. ﴿ وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ ﴾[٦٢٩]. وأتم الله نعمته على إبراهيم بأن أخرجه من بين قومه، ونجى معه ابن أخيه لوطاً بأن هاجر معه إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين، وهي أرض الشام، بورك فيها بكثرة الأنبياء وإنزال الشرائع التي هي طريق السعادتين، وبكثرة النعم والخصب والثمار وطيب العيش، وقد نزل إبراهيم عليه السلام بفلسطين من أرض الشام، ونزل لوط

---

(٦٢٣) سورة الأنبياء الآية ٦٨.

(٦٢٤) تفسير القاسمي ج١١ ص٢٦٩.

(٦٢٥) سورة الأنبياء الآية ٦٩.

(٦٢٦) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٨٤.

(٦٢٧) سورة الأنبياء الآية ٧٠.

(٦٢٨) تفسير الرازي ج٢٢ ص١٩٠.

(٦٢٩) سورة الأنبياء الآية ٧١.

عليه السلام ببلدة سدوم[٦٣٠]، وهي بلدة في دائرة الأردن[٦٣١]. وفي سورة الصافات بشأن إنجاء الله إبراهيم عليه السلام، وإخراجه إلى بلاد الشام قوله تعالى: ﴿فَأَرَادُوا بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ أي الأذلين بإبطال كيدهم. ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ أي قال إبراهيم: إني ذاهب إلى بلد أعبد فيه ربي وأعصم فيه ديني[٦٣٢].

٣٠٥- إبراهيم يبني الكعبة ويعاونه إسماعيل:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[٦٣٣] القواعد جمع قاعدة وهي الأساس والأصل لما فوقه، ورفع الأساس أي القواعد بالبناء عليها، لأنها إذا بني عليها نقلت عن هيئة الانخفاض إلى هيئة الارتفاع. ويجوز أن يكون المراد بها -أي القواعد- مسافات البناء، لأن كل مسافة قاعدة للذي يبني عليه ويوضع فوقه، ومعنى رفع القواعد رفعها بالبناء، لأنه إذا وضع سافاً فوق ساف فقد رفع السافات[٦٣٤]. وكان إسماعيل يعاون أباه إبراهيم في البناء حيث كان يناول أباه الحجارة، وإبراهيم يباشر البناء، فقد جاء في حديث مجيء إبراهيم لتفقد إسماعيل حيث تركه وأمه هاجر في مكة، جاء في هذا الحديث الذي أخرجه البخاري عن ابن عباس، قول إبراهيم لابنه إسماعيل: «يا إسماعيل إنَّ الله أمرني بأمر، قال إسماعيل: فأصنع ما أمركَ ربُكَ. قال: وتعينني. قال: وأعينك، قال: فإنَّ الله أمرني أن أبني هاهنا بيتاً، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها، قال فعند ذلك رفعا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة، وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه وهو يبني، وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾. قال فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ

---

(٦٣٠) تفسير القرطبي ج١١ ص٣٠٥، تفسير الرازي ج٢١ ص١٩٠، تفسير ابن كثير ج٣ ص١٨٤.

(٦٣١) قصص الأنبياء ص١١٢.

(٦٣٢) تفسير القاسمي ج١٤ ص١١٧، والآيتان في سورة الصافات ٩٨و٩٩.

(٦٣٣) سورة البقرة، الآية ١٢٧.

(٦٣٤) تفسير الرازي ج٤ ص٥٧.

﴿أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[635].

٣٠٦- أدعية إبراهيم وإسماعيل وهما يبنيان الكعبة:

حكى الله تعالى عن إبراهيم وابنه إسماعيل وهما يبنيان البيت أنهما ذكرا ثلاثة أنواع من الدعاء[636]:

النوع الأول- قولهما ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ وقد ذكرنا ما جاء في صحيح البخاري في حديث ابن عباس بشأن بناء البيت «الكعبة» شرّفها الله، وفيه أن إبراهيم وإسماعيل كانا يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، وهما يبنيان الكعبة. وعن بعض السلف أنه قرأ ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾ ثم يبكي ويقول: يا خليل الرحمن ترفع قواعد بيت الرحمن وأنت مشفق أن لا يتقبل منك. قال ابن كثير بعد أن ذكر هذه الحكاية: وهذا كما حكى الله تعالى عن حال المؤمنين الخلص في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ أي يعطون ما أعطوا من الصدقات والنفقات والقربات، وقلوبهم وجلة أي خائفة أن لا يتُقبَل منهم، كما جاء في الحديث الصحيح عن عائشة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ[637].

النوع الثاني من الدعاء- ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾[638] أي واجعلنا مستسلمينْ لأمرك خاضعينْ لطاعتك مخلصيْن لك ثابتيْن علَى طاعتك والإخلاص لك ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ أي واجعل من ذريتنا أمة مسلمة لك ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ أي علمنا شرائع حجنا إذ أمرتنا ببناء البيت، لنحجه وندعو الناس إلى حجه، فعلمّنا يا ربنا شرائعه وما ينبغي لنا أن نفعله- والنسك في الأصل هو التعبُّدُ، يقال للعابد ناسك، ثم سمي الذبح نسكاً والذبيحةُ نسيكة، وسمّيتْ أعمال الحج مناسك، قال صلى الله ﷺ: «خذوا عني مناسككم، لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا» والمواضع

---

(٦٣٥) تفسير ابن كثير ج١ ص١٧٧.

(٦٣٦) تفسير ابن كثير ج١ ص١٧٥ وما بعدها، الرازي ج٤ ص٥٧ وما بعدها، القاسمي ج٢ ص٢٥٥ وما بعدها.

(٦٣٧) تفسير ابن كثير ج١ ص١٧٥.

(٦٣٨) سورة البقرة، وآية «ربنا واجعلنا مسلمين لك.. إلى التواب الرحيم» رقمها ١٢٨.

التي تقام فيها شرائع الحج تسمى: مناسك أيضاً.

النوع الثالث من الدعاء- ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[٦٣٩]. أي رسولاً من ذرية إبراهيم وهم العرب من ولد إسماعيل. وقد أجاب الله تعالى لإبراهيم عليه السلام هذه الدعوة، فبعث في ذريته - من ولد إسماعيل - رسولاً منهم وهو محمد ﷺ، وقد أخبر ﷺ عن نفسه: أنه دعوة إبراهيم، ومراده هذه الدعوة التي دعا بها إبراهيم ربهً وإسماعيل. ﴿ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ ﴾ أي الفرقان الذي أنزل على محمد ﷺ، لأنَّ الذي كان يتلوه عليهم ليس إلا ذلك فوجب حمله عليه، ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ والمراد أنه يأمرهم تلاوة الكتاب، ويعلمهم معاني الكتاب وحقائقه، ﴿ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ أي ويعلمهم الحكمة، والحكمة هي الإصابة في القول والعمل، ووضع كل شيء في موضعه، والمراد بالحكمة في هذه الآية سنة رسول الله ﷺ، وهذا هو المنقول عن الشافعي رحمه الله تعالى. ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ أي ما يفعله ﷺ سوى التلاوة وتعليم الكتاب والحكمة حتى يكون ذلك كالسبب لطهارتهم، مثل ما كان يفعله ﷺ من وعظهم وتذكيرهم بما يلزمهم وتكرير ذلك عليهم، حتى تخلص عبادتهم لله، ويتخلصوا من كل معاني الشرك.

٣٠٧- أولاد إبراهيم:

أولاً- إسماعيل:

إسماعيل من أولاد إبراهيم، وقد ذهب به إبراهيم وهو رضيع مع أمه هاجر إلى مكة ولم تكن مسكونة، وتركهما هناك كما ذكرنا ذلك من قبل[٦٤٠]. وكان إبراهيم يتردد عليهما، يزورهما بين الحين والآخر ويرجع إلى فلسطين. وقد رأى إبراهيم في المنام أنه يذبح ابنه إسماعيل، فعزم على ذبحه وأطاعه إسماعيل، ولكن الله تعالى فداه بذبح عظيم، كما سأبينُهُ في قصة إسماعيل إن شاء الله تعالى. وقد عاون إسماعيلُ أباه في بناء البيت «الكعبة» كما ذكرنا.

---

(٦٣٩) سورة البقرة، الآية ١٢٩.

(٦٤٠) الفقرة ٢٩٣.

٣٠٨ -ثانياً- إسحاق:

ومن أولاد إبراهيم إسحاق، وقد أشار إليه القرآن الكريم قال تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴾ أي زيادة وفضلاً، ﴿ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴾(٦٤١) فيعقوب هو ابن إسحاق بن إبراهيم. وإسحاق هذا هو الذي وقعت به البشارة لأبيه وأمه، لأبيه بدلالة قوله تعالى: ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾(٦٤٢) أي بشرنا إبراهيم بابنه إسحق. وبشارة إلى أمه وذلك عندما جاءت الملائكة إلى إبراهيم تخبره بأنهم جاؤوا لإهلاك قوم لوط، وقالوا له: ﴿ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴾(٦٤٣) أي لإهلاكهم ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾(٦٤٤).

---

(٦٤١) سورة الأنبياء الآية ٧٢، وتفسير القاسمي ج١١ ص٢٧٠.

(٦٤٢) سورة الصافات الآية ١١٢.

(٦٤٣) سورة هود الآية ٧٠.

(٦٤٤) سورة هود الآية ٧١.

المبحث الثاني

ما يستفاد من قصة إبراهيم للدعوة والدعاة

٣٠٩- في قصة إبراهيم فوائد كثيرة:

قصة سيدنا إبراهيم مع قومه ومع غيرهم كأبيه وابنه، هذه القصة مملوءة بالعبر والفوائد للدعوة والدعاة فيجب التأمل فيها، والاتعاظ بمفرداتها، والتأسي بصاحبها سيدنا إبراهيم عليه السلام، لا سيما وأنَّ الله تعالى ندبنا إلى التأسي به، قال تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[٦٤٥].

ونذكر فيما يلي بعض العبر والفوائد من قصة أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام للدعوة والدعاة.

٣١٠- أولاً- وضوح شخصية إبراهيم الإسلامية:

الإسلام في جوهره هو الاستسلام الكامل المطلق لله رب العالمين عن رضا واختيار، ومظهره الانقياد التام الكامل لشرع الله، وهذا هو الدين المرضي عند الله تعالى، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ وهو بهذا الاعتبار دين جميع الأنبياء ومنهم سيدنا إبراهيم عليه السلام، فقد قال تعالى عنه: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[٦٤٦]. أي أسلم لربك أي انقدْ له وأخلص نفسك له[٦٤٧]. وقال ابن كثير: أمره الله بالإخلاص له والاستسلام والانقياد له فأجاب إلى ذلك[٦٤٨]. وقال تعالى: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ

---

(٦٤٥) سورة الممتحنة، الآية ٤.

(٦٤٦) سورة البقرة الآية ١٣١.

(٦٤٧) تفسير القاسمي ج٢ ص٢٦٣.

(٦٤٨) تفسير ابن كثير ج١ ص١٨٥.

﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[٦٤٩] والضمير في (بها) عائد لقوله: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ على تأويل الكلمة والجملة. فهم لحرصهم عليها، ومحبتهم لها، حافظوا عليها إلى حين الوفاة، ووصوا أبناءهم بها من بعدهم[٦٥٠]. والواقع أنه بقدر انصباغ نفس المسلم بمعاني الإسلام يكون بروز وظهور شخصيّتِهِ الإسلامية، وهذا ما كانت عليه شخصية إبراهيم الإسلامية، فقد كانت بارزة وظاهرة يدركها ويراها المؤمن به والمخالف له، لانصباغ نفس إبراهيم بالإسلام ومعانيه، بل إن إبراهيم عليه السلام كان من حرصه على شخصيته الإسلامية وبقائها والاستزادة من معانيها ومظاهرها بزيادة الانصباغ بمعاني الإسلام، أقول: كان من حرصه على ما ذكرتُ أنه كان وابنه إسماعيل يدعوان الله تعالى بقولهما ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ وهما يبنيان الكعبة شرفها الله.

٣١١- من مظاهر شخصية إبراهيم الإسلامية:

إن صاحب الشخصية الإسلامية لا يتأثر بالبيئة الفاسدة، ويسعى أن يؤثر فيها، وهكذا كان إبراهيم عليه السلام، فهو لم يتأثر قط ببيئته الكافرة، فقد بصّره الله بالحق، وهداه إلى التوحيد الخالص، وهذا هو الذي أوتيه من ربه، قال تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾[٦٥١] وهو عليه السلام لم يكتف بصيانة نفسه من تلك البيئة الفاسدة، وإنما أراد أن ينقذ أهلها منها ويؤثر فيها بتطهيرها من الشرك. وكان عليه السلام في درجة من الرسوخ وبروز شخصيته الإسلامية بحيث كان يرى قومه المبطلين كصغارٍ يلعبون ويعبثون بما يضرهم ولا ينفعهم. وهذا المظهر لشخصيته الإسلامية تلمحه في جداله مع قومه ومصارحته لهم ببطلان ما هم عليه من عبادة غير الله، مع كونه وحيداً فريداً، حيث لم يؤمن له إلا لوط ابن أخيه وزوجته سارة[٦٥١]. ومن مظاهر شخصيته الإسلامية أنه لا ترهبه كثرة

---

(٦٤٩) سورة البقرة، الآية ١٣٢.

(٦٥٩) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٨٥، تفسير القاسمي ج٢ ص٢٦٣.

(٦٥١) سورة الأنبياء، الآية ٥، تفسير القاسمي ج١١ ص٢٦٢، في ظلال القرآن للشهيد سيد قطب المجلد الرابع ص٢٣٨٥.

(٦٥٢) قصص الأنبياء ص٨٣.

المبطلين بل يبقى مستعلياً عليهم، لا يتسلل إلى قلبه أي معنى من معاني الإعجاب بهم أو الخوف منهم، لما يرى من كثرتهم وسطوتهم وسلطاتهم وعزمهم على إرادة الشر به. وقد بدا هذا المظهر من شخصية إبراهيم عندما كسّر أصنامهم فأرادوا استنطاقه ومحاكمته أمام الجمع الكبير من الناس قبل أن يُنْزلوا فيه العقاب، فلما جاؤوا به على أعين الناس وقد تجمعوا وصاروا حشداً هائلاً قاصدين التشهير به وإرهابه أمام هذا الجمع الهائل من الناس، نظر إليهم إبراهيم كصغار تافهين عابثين، أو كبار يحتاجون إلى التأديب والتوبيخ، وهذا ما فعله إبراهيم في هذا الموقف الذي حرص أن يوجد ويجادل فيه المبطلين في محضر من الناس، قال ابن كثير: (وقوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ﴾ أي على رؤوس الأشهاد بحضرة الناس كلهم، وكان هذا هو المقصود الأكبر لإبراهيم عليه السلام أن يبين في هذا المحفل العظيم كثرة جهلهم، وقلة عقلهم في عبادة هذه الأصنام التي لاتدفع عن نفسها ضراً، ولا تملك لها نصراً، فكيف يطلب منها شيء من ذلك؟)[٦٥٣] فلما سألوه: ﴿ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ؟﴾ فأجابهم على وجه السخرية منهم والهتكم بهم: ﴿ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾[٦٥٤].

٣١٢- شخصية الداعي الإسلامية:

فعلى الداعي المسلم أن يسعى جاهداً أن يجعل شخصيته الإسلامية مثل أو قريباً من شخصية إبراهيم الإسلامية، فلا يتأثر بالبيئة الفاسدة وأهلها إذا وجد نفسه فيها، بل يسعى إلى إزالة الفساد منها حتى يكون هو المؤثر فيها وليس هو المتأثر بها. كما عليه أن لا ترهبه جموع المبطلين ولو كان وحده، فقد كان إبراهيم وحده، لم يؤمن له إلا زوجه سارة وابن أخيه لوط كما قلنا، وليستحضر في ذهنه موقف إبراهيم من قومه في جداله معهم، وفيما قاله لهم وقد جاؤوا به على أعين الناس.. وليعلم يقيناً أنَّ الباطل لا يصير حقاً بكثرة أتباعه، وأنَّ الحق يبقى حقاً ولو لم يجد من يحمله ويدعو له غير واحد فقط.

---

(٦٥٣) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٨٢.

(٦٥٤) سورة الأنبياء، الآيتان ٦٢، ٦٣.

٣١٣- ثانياً- الأدب في التبليغ مع الصراحة في بيان الحق:

ذكرنا، كما جاء في القرآن الكريم، كم كان إبراهيم عليه السلام متمسكاً بالأدب الرفيع وبالكلام الطيب الرقيق وهو يدعو أباه إلى التوحيد ونبذ عبادةِ ما سوى الله، وهكذا قام إبراهيم بواجب البرّ نحو والده، وبواجب الصدق مع دعوته، فأمره بعبادة الله وحده، وبيّن ضلال ما هو عليه وضرره عليه. وهكذا يجب أن يفعل الداعيةُ المسلم، فإذا ابتلي بأب أو أم، أو قريب، غير مسلمين فعليه أن يرعى حقهم عليه من جهة مخاطبتهم بالحسنى، ولكن مع وضوح وصراحة ما يدعوهم إليه، ومن باب أولى أن يفعل الداعي المسلم ما قلناه إذا كان والداه أو أحدهما أو قريب له، من العصاة الباقين في دائرة الإسلام.

٣١٤- ثالثاً- تغيير المنكر باليد كوسيلة لتبليغ الدعوة:

لما لم ينفع جدال إبراهيم مع قومه ولم يؤثر فيهم قوله المدعوم بالحجة والبرهان والعقل السليم، تحول إلى وسيلة أخرى عملية تلفت إليه الأنظار وقد يتبعها رجوعهم عما هم عليه من شرك وضلال. وكانت تلك الوسيلة هي تكسير أصنامهم كما بينا. وهو باشر هذه الوسيلة مع علمه بما تسببه له هذه العملية من أذى وضرر، ولكن كل شيء في جنب الله يهون، وكل شيء في سبيل الدعوة إلى الله يهون. ويبدو لي- والله أعلم- أن إبراهيم عليه السلام قام بتكسير الأصنام، ليلفت إليه وإلى دعوته الأنظار، وليتجمع الناس إذا علموا ما حدث للأصنام، ليسمعوا ما يقوله من قام بالتكسير، ولا شك أنَّ في تجمعهم فرصة جيدة لأن يبين إبراهيم عليه السلام للناس بطلان وسخافة ما يقومون به من عبادة هذه الأصنام التي لم تستطع أن تمنع عن نفسها التحطيم والتكسير، وهذا ما حصل، وهذا ما أراده إبراهيم عليه السلامُ للناس، إذ تجمعوا وقالوا فأتوا به- أي ائتوا بإبراهيم على أعين الناس.

٣١٥- هل في تكسير الأصنام أسوة حسنة بإبراهيم؟:

وقد يقال هل في تكسير الأصنام من قبل إبراهيم أسوة حسنة به؟ بمعنى هل يجوز للداعي المسلم أن يقوم بعمل يشبه عمل إبراهيم في إغاظة المخالفين ولو أنَّ

هذا العمل يؤدي إلى قتل الداعي ، أو إيذائه إيذاءً شديداً في نفسه أو ماله؟ أم لا أسوةَ بإبراهيم في عمل يؤدي إلى قتل الداعي ، أو إيذائه إيذاءً شديداً في نفسه أو ماله، فيكون هذا العمل ممنوعاً كما في المنع من الاقتداء بإبراهيم بالاستغفار لأبيه؟

٣١٦- الجواب على هذا السؤال من وجوه عديدة:

الوجه الأول- أنَّ الله تعالى حكى لنا ما فعله إبراهيم من تكسير الأصنام، وتركه الصنم الكبير دون تكسير، حكى الله لنا دون إنكار بالرغم مما ترتب على ذلك من إلقاء إبراهيم في النار، فدَلَّ ذلك على مشروعية ما فعله إبراهيم، لأنَّ القاعدة أنَّ الله تعالى إذا حكى لنا أمراً دون إنكار دلَّ ذلك على مشروعية هذا الأمر، وهذا ما حصل بالنسبة لتكسير الأصنام وما ترتب عليه من إلقائه في النار، فيدخل ما فعله إبراهيم عليه السلام من تكسير الأصنام في دائرة القدوة الحسنة والاتّساء به.

٣١٧- الوجه الثاني:

إن الدعوة إلى الله جهاد في سبيله، والقائم بها مجاهد في سبيل الله، والمجاهد معرض للقتل أو الجرح أو أي أذى، فإذا قام الداعي المسلم بشيء في سبيل دعوته، وقد يترتب على فعله أذى له، فهذا من قبيل ما يصيب المجاهدَ في ساحة القتال، ويؤيد ما أقول ما جاء في الحديث النبوي الشريف «سيد الشهداء حمزة ورجل قام إلى سلطان جائر فأمره ونهاه فقتله» أو كما قال ﷺ.

٣١٨- الوجه الثالث:

قال الإمام محمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة رحمهما الله تعالى: ولا بأس أن يحمل الرجل وحده على المشركين وإن كان غالب رأيه أنه يقتل، إذا كان في غالب رأيه أنه ينكي فيهم بقتل أو جرح أو هزيمة، وإن كان غالب رأيه أنه لا ينكي فيهم أصلاً لا بقتْلٍ ولا بجرح ولا بهزيمة ويقتل هو، فإنه في هذه الحالة لا يباح له أن يحمل وحده على العدو[٦٥٥]. ومؤدى هذا الكلام جواز قيام المسلم بعمل فيه مصلحة مؤكدة أو راجحةٌ حسب غالب ظنه، وإن كان في هذا العمل موته أو لحوقُ الأذى به.

---

(٦٥٥) الفتاوي الهندية في فقه الحنفية ج٥ ص٣٥٩.

٣١٩- الوجه الرابع:

على أن يكون تقدير المصلحة الشرعية المترتبة على الفعل الذي يقوم به الداعي المسلم المُهلك أو المؤذي له، أن يكون تقدير هذه المصلحة بالموازين الشرعية. ولا شك أنَّ هذا التقدير من الأمور الاجتهادية، ولكن مع تقوى الله وسعة فقه الداعي المسلم أو الجماعة المسلمة، والتأمل في الفعل المراد فعله، أقول مع هذه الأمور: يمكن أن يقال: إنّ إدراك الصواب يكون هو الأقرب.

٣٢٠- رابعاً- الهجرة من بلاد الكفر:

ومن العبر والفوائد من قصة إبراهيم الهجرةُ من بلاد الكفر، فإذا وجد الداعي المسلم نفسه عاجزاً أن يفعل شيئاً للإسلام والدعوة إليه، فيباح له أو يندبُ إليه أو يجب عليه، حسب الظروف والأحوال، أن يهاجر من هذه البلاد إلى حيث يمكنه أن يعبد الله ويدعوَ إليه. ودليلنا على ذلك أنَّ الله تعالى امتن على إخراج إبراهيم من ديار الكفر إلى الأرض التي باركها الله، قال تعالى: ﴿ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ ﴾(٦٥٦)، وهي أرض الشام كما قلنا من قبل. وقال تعالى في خروج إبراهيم من ديار الكفر بعد أن أنجاه الله من النار ﴿ قَالُواْ ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا فَأَلۡقُوهُ فِي ٱلۡجَحِيمِ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴾(٦٥٧). قال الإمام الرازي في قوله تعالى: ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴾ دلّت هذه الآية على أن الموضع الذي تكثر فيه الأعداء تجبُ مهاجرته، وذلك لأنَّ إبراهيم صلوات الله عليه وسلامه مع أنَّ الله سبحانه خصه بِأعظم أنواع النصرة، لما أحسّ منهم بالعداوة الشديدةِ هاجر من تلك الديار، فَلأَنْ يجبَ ذلك على الغير كان أولى(٦٥٨). والظاهر لي أنَّ الداعي المسلم إذا وجد أَنَّ بقاءَه في دار الكفر أو في دار يغلب عليها سلطان جائر، ينظر: فإن رأى أَنَّ بقاءه أنفع للدعوة أو للمسلمين بقي

---

(٦٥٦) سورة الأنبياء الآيتان ٧٠، ٧١.

(٦٥٧) سورة الصافات الآيات ٩٧-٩٩.

(٦٥٨) تفسير الرازي ج٢٦ ص١٥٠.

ولو تحمل ضيقاً أو لم يستطع أن يعمل كثيراً للدعوة. وإن رأى أنَّ خروجه من هذه الدار إلى دار أخرى يستطيع فيها أن يعمل ويدعوَ إلى الله ويحصل بذلك نفعٌ كبير للمسلمين فعليه أن يهاجر إذا كان ذلك ميسوراً له. وسيدنا إبراهيم لم يعد بقاؤه في دار الكفر مفيداً ولا ممكناً بعد أن أرادوا قتله بتحريقه بالنار. فخروج الداعي المسلم من دياره إلى ديار أخرى، مسألة تقديرية، وتختلف بإختلاف الدعاة والظروف والأحوال ومدى المصلحة الشرعية التي تحصل للدعوة وللمسلمين في حال البقاء أو الهجرة.

٣٢١- خامساً- التأكيد على وصية إبراهيم:

قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[٦٥٩]. قوله تعالى لإبراهيم ﴿ أَسْلِمْ ﴾ أي كن منقاداً لأوامر الله، وأخلص عبادتك لله، واجعلها سليمة من الشرك، وملاحظة الاغيار، واستقم على الإسلام، واثبت على التوحيد، فقال إبراهيم ﴿ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ ثم إنَّ إبراهيم عليه السلام وصىّ بها أي بكلمة ﴿ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ بنيه، وهذه الوصية لبنيه بضرورة الإسلام لله رب العالمين تدل على عظم اهتمام إبراهيم بمضمونها، وبيان ذلك من وجوه:

(الأول): أنه تعالى لم يقل: وأمر إبراهيم بنيه، بل قال: وصاهم، ولفظ الوصية أوكد من الأمر، لأن الوصية تكون عادة عند الخوف من الموت، وفي ذلك الوقت يكون احتياط الإنسان لدينه أشد وأتم، فإذا عرف أنه عليه السلام في ذلك الوقت كان مهتماً بهذا الأمر متشدداً منه كان القول إلى قبوله أقرب.

(الثاني): أنه عليه السلام خصّ بنيه بتلك الوصية، وذلك لأن شفقة الرجل على أبنائه أكثر من شفقته على غيرهم فلما خصّهم بذلك في آخر عمره دلّ ذلك على عظيم اهتمامه بمضمون هذه الوصية.

(الثالث): أنه عليه السلام أطلق هذه الوصية غير مقيدة بزمان معين، ومكان

---

(٦٥٩) سورة البقرة الآيتان ١٣١، ١٣٢.

معين، ثم زجرهم أبلغ الزجر عن أن يموتوا غير مسلمين، وهذا يدل أيضاً على شدة اهتمام إبراهيم بمضمون هذه الوصية[٦٦٠]، فعلى الداعي المسلم أن يؤكد في خطبه ودروسه ومواعظه للناس على مضمون «وصية إبراهيم لبنيه» أي على عقيدة التوحيد والالتزام بشرائع الإسلام وإخلاص العمل والعبادة لله رب العالمين.

٣٢٢- سؤال وجوابه:

وقد يقال: إن الداعي المسلم يخاطب مسلمين فما الحاجة إلى التأكيد على الإسلام وعقيدة التوحيد؟ والجواب: أَنَّ من وصاهم إبراهُيم عليه السلام بوصيته هذه وهم بنوه، كانوا مسلمين، ومع هذا وصاهم بهذه الوصية، وحذّرهم من الغفلة عنها، والموتِ على غير مضمونها. ثم إن معاني الإسلام كثيرة جداً، والانصباغ بها والالتزام بها ليس بالأمر السهل لكل المسلمين، وإذا تيسر فإن الثبات على هذه المعاني ليس بالأمر السهل، فكان في التذكير بها، والتأكيد عليها فائدةٌ مؤكدة للمسلمين. ولقد كان شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: (إني لم أسلم بعدُ إسلاماً جيداً)، فعلى الداعي المسلم أن لا يغفل عما قلناه والله المستعان.

٣٢٣- سادساً- أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما:

رأى إبراهيم في المنام أنه يذبح ابنه ففهم من هذه الرؤيا أنها أمرٌ من الله تعالى بذبح ابنه إسماعيل، فقام يريد تنفيذ هذا الأمر، كما سنبينهُ في قصة إسماعيل. وإنما عزم إبراهيم على التنفيذ وأراده؛ لأن الله أَحبُّ إليه من ابنه، وبيان ذلك أنَّ الله إذ أمره بذبح إبنه دلَّ ذلك الأمر على أنه يحب من إبراهيم تنفيذه، فإذا قام إبراهيم يريد تنفيذ هذا الأمر دلّ ذلك منه على أنه جعل أمر الله أحبَ إليه من ابنه بإبقائه حياً. ومما يوضح الأمر أكثر أن إبراهيم يحب حياة إسماعيل لأنه ابنه، ولكن ما أمره الله به وهو ذبح ابنه يحبه الله، فقدم إبراهيم ما يحبه الله وهو ذبح ابنه على ما يحبه إبراهيم وهو إبقاء إسماعيل حياً. فعلى الداعي المسلم أن يبين هذه المعاني في دروسه وخطبه للناس ويذكر لهم قصة ذبح إسماعيل، وكيف أنَّ إبراهيم عزم عزماً أكيداً على ذبح

---

(٦٦٠) تفسير الرازي ج٤ ص٧٢-٧٣.

ابنه إسماعيل دون تردد، لأن الله أمره بذلك، وما أمره الله به أحبُ إليه من سواه، ولذلك قام يريد تنفيذه. وهذا هو شأن المسلمين الصادقين، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾[٦٦١]، ويلاحظ في هذه الآية الكريمة أنها لم ترتب المؤاخذة على أصل الحبّ لهذه الأشياء المذكورة فيها؛ لأنه حبٌ غريزيٌّ، وإنما رتبت المؤاخذة على تفضيل هذه المشتهيات في الحب على حب الله ورسوله وجهاد في سبيله. وعلى هذا يجب أن يكون حب العبد لله ولرسوله ﷺ فوق حبّ هذه المشتهيات المذكورة في الآية، بل وفوق كل حب لما سوى الله ورسوله. ومظهر هذا الحب الراجح- حب الله ورسوله- هو طاعة الله ورسوله بتنفيذ ما يأمرانه به أو يَنْهيان عنه. وقد عطف على حب الله ورسوله الجهاد في سبيل الله، وقد جاء الجهاد منكراً، ليفيد تنكيرُه وإبهامُه أنَّ كل نوع من أنواع الجهاد في سبيل الله قل أو كثر، فإنَّ تاركه لأجل حب شيء من تلك الأصناف الثمانية المذكورة في الآية، وتفضيلها عليه يستحق الوعيد الذي في الآية وهو قوله: ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾، أي انتظروا حتى يأتي الله بقضائه، وهو عذاب عاجل أو آجل. وإذا كان معنى الآية ما ذكرناه فلا ريب أنَّ من كان ما ذكر من الأصناف الثمانية كلها أو بعضها أحبَّ إليه من الله ورسوله، أي أحب إليه من طاعة الله ورسوله واتباع أمرهما، وجهادٍ في سبيله، فهو غير تام الإيمان أو غير صحيحه[٦٦٢].

٣٢٤- الميزان لمعرفة مدى حب المسلم لله ورسوله:

ولتسهيل الأمر على الداعي المسلم في تفهيمه للناس ضرورة تقديم المسلم ما يحبه الله ورسوله على ما سواهما، وبالتالي المبادرة إلى تنفيذ ما يحبه الله ورسوله،

---

(٦٦١) سورة التوبة الآية ٢٤.

(٦٦٢) تفسير المنار ج١٠ ص٢٧٠ وما بعدها، تفسير القرطبي ج٤ ص٦٠، تفسير القاسمي ج٨ ص١٥١.

أي تنفيذ ما يأمران به، لأن ما يأمران به يحبانه قطعاً، أقول: لتسهيل هذا الأمر على الداعي المسلم، عليه أن يبين للناس أنَّ السبيلِ لمعرفة المسلم مدى حبه لله ورسوله وهل يفضل هذا الحب على حب ما سواهما، هو أن ينظر إلى أمر الله ورسوله، وما يعيق تنفيذه من حب الأهل أو الولد أو الزوجة أو المال أو التجارة أو الراحة والسكن المريح، أو غير ذلك من حظوظ الدنيا ومشهياتها، فإذا لم يلتفت إلى هذه العوائق، ولم تمنعه أو تكسّله عن تنفيذ أمر الله ورسوله، فإنه يكون قد نجح في الامتحان بالنسبة لهذا الأمر، ويكون الله ورسوله أحب إليه في هذا الأمر من تلك العوائق المشتهاة. وعلى سبيل المثال، إذا سمع المسلم أذان المؤذن لصلاة الفجر في الليلة الباردة، وهو في فراشه الوثير الدافىء، فنهض من فراشه، وتوضأ وذهب إلى المسجد فصلى مع إخوانه، فهذا المسلم بالنسبة لما يحبه الله ورسوله منه بالنسبة لصلاة الفجر، وهو النهوض من فراشه، والتمهيد للصلاة بوضوئه، ولو بالماء البارد، يكون قد قدّم ما يحبه الله على ما تحبه نفسه من البقاء في فراشه ودفئه، وإن كسل عن النهوض، وآثر البقاء في فراشه، ولم يقم لصلاة الفجر، فيكون في هذه الحالة قد جعل البقاء في الفراش أحبَّ إليه مما يحبه الله ورسوله، ومعنى هذا أنَّ في إيمانه نقصاً وخللاً. وكذلك إذا حان وقت الجهاد، أو وجب عليه، ومنعه منه محبة البقاء مع الأهل، أو التلذذ بالعيش المرضي المريح في بيته، أو مزاولة تجارته، فإن في هذه الحالة يكون قد جعل هذه الأشياء أحبَ إليه من الله ورسوله، أي جعلها أحب إليه مما يحبه الله ورسوله وهو الجهاد في سبيله.

وهكذا يقوم الداعي المسلم بضرب الأمثال والحالات التي تقع للمسلم، وفيها أمر الله ورسوله أو نهيما، فينفذها المسلم فعلاً للمأمور وتركاً للمنهيّ عنه دون التفات لما يحبه من عوائق التنفيذ، فيكون المسلم في هذه الحالة قد جعل الله ورسوله أحبَّ إليه من هذه العوائق. وإن استجابَ لمحبته لهذه العوائق، فلم ينفذ أمر الله ورسوله، فإنه يكون في هذه الحالة قد جعل هذه العوائق أحبَّ إليه من الله ورسوله، وهذا خلل أو نقص في إيمانه. قال الإمام الرازي وهو يفسر الآية التي نحن بصددها ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ . . ﴾ الخ الآية: (وهذه الآية تدل على أنه إذا وقع تعارض بين مصلحة واحدة من مصالح الدين وبين جميع مهمات الدنيا

وجب على المسلم ترجيح الدين على الدنيا)[٦٦٣] لأن مصالح الدين هي التي يحبها الله ورسوله فيجب أن تكون هذه المصالح أحبَ عند المسلم من غيرها من جميع مهمات الدنيا.

٣٢٥- الدعوة إلى الله مما يحبُّه الله ورسوله:

الدعوة إلى الله مما يحبه الله ورسوله قال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾[٦٦٤] فعلى المسلم أن يقوم بهذا المحبوب لله وهو الدعوة إليه. والأحب لله في موضوع الدعوة أن يقوم بها المسلم بالتعاون مع غيره، قال تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ ﴾ ومن أعظم التعاون على التقوى التعاون على نشر الدعوة وتبليغ الناس بمضمونها، أي بالقيام بالدعوة بصورة جماعية بأن ينضَّم المسلم إلى الجماعة المسلمة؛ ليكون عمله في الدعوة من خلالها وبالتعاون مع أفرادها بصورة منظمة. وأن يكون انضمام المسلم إلى الجماعة المسلمة؛ لنشر الدعوة أحبَّ إليه من الجلوس غي بيته طلباً للراحة والسلامة من الأذى.

٣٢٦- سابعاً- أدعية إبراهيم فيها الأسوة الحسنة لمن يدعو الله:

كان إبراهيم عليه السلام دائم التوجه إلى الله والتوكل عليه والتعلق به، والثقة به، والذكر له بقلبه ولسانه، كثير الدعاء لربه، وكانت أدعيته (منها): لنفسه ومن ذلك ما حكاه الله عنه: ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾[٦٦٥]، ﴿ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[٦٦٦] (ومنها): دعاؤه لنفسه ولابنه ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[٦٦٧] (ومنها): دعاؤه لنفسه ولابنه ولذريتهما ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ

---

(٦٦٣) تفسير الرازي ج١٦ ص١٩.
(٦٦٤) سورة النحل الآية ١٢٥.
(٦٦٥) سورة إبراهيم الآية ٤٠.
(٦٦٦) سورة الصافات الآية ١٠٠.
(٦٦٧) سورة البقرة الآية ١٢٧.

أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[٦٦٨] (ومنها): دعاؤه لنفسه ولوالديه وللمؤمنين ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾[٦٦٩] (ومنها): دعاؤه لذريته المسلمة بأن يبعث فيها رسولاً ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[٦٧٠] (ومنها): الدعاء لذريته بخيرات الدنيا ليستعينوا بها على عبادة الله ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾[٦٧١].

٣٢٧- أدعية الداعي المسلم:

ويستحب للداعي المسلم أن تكون أدعيته مشابهة لأدعية إبراهيم عليه السلام، يدعو لنفسه بالإيمان والتقوى والإسلام والثبات عليه ونحو ذلك مما ينفعه في الدنيا والآخرة. فقد رأينا أنَّ إبراهيم دعا الله لنفسه ولابنه بأن يجعلهما (مسلمين).. والداعي المسلم بحاجة إلى مثل هذه الأدعية؛ لأنَّ فيها قوةً وتذكيراً بأنه موصول بالله.

ويدعو الداعي المسلم لوالديه؛ لأنَّ هذا من البرّ لهما، ويدعو لذريته بالصلاح، وهذا من صلَةِ الرحم، ويدعو لعموم المسلمين، وهذا الدعاء يذكره بالرابطة الإيمانية التي تربطه بهم، وبحقوقهم عليه وباهتمامه بهم. ولا بأس أَنْ يدعوا الداعي لنفسه ولغيره بما هو مباح للمسلم من خيرات الدنيا ناوياً بذلك الاستعانة به في عبادة الله تعالى.

ويلاحظ في أدعية إبراهيم أنها كلها توسل بالله وطلب منه وذكر لأسمائه وصفاته، وتبدأ بنداءِ الله تعالى بـ «ربنا» أو «رَبِّ» وما يتضمنه هذا النداء من اعتراف الداعي بربوبيته الله لكل شيء، وبعبودية الداعي لله رب العالمين.

---

(٦٦٨) سورة البقرة الآية ١٢٨.

(٦٦٩) سورة إبراهيم الآية ٤١.

(٦٧٠) سورة البقرة الآية ١٢٩.

(٦٧١) سورة إبراهيم الآية ٣٧.

فينبغي للداعي المسلم أن يدعو ربه بمثل هذه الصيغ، ولا يدعو غير الله، لأنَّ ما عدا الله لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعاً ولا ضراً. وعلى الداعي أن يبين في محاضراته ودروسه للناس أهمية الدعاء وما يتضمنه من إقرار بربوبية الله وبألوهيته وبعبودية الداعي لربه ولهذا جاء في الحديث الشريف عن النبي ﷺ «الدعاء مخُ العبادة».

الفصل السابع

قصة إسماعيل عليه السلام

المبحث الأول

خلاصة القصة وتفسير آياتها

٣٢٨- خلاصة القصة:

إسماعيل بن سيدنا إبراهيم عليه السلام، وأمّه هاجر، خرج به وبأُمه سيدنا إبراهيم عليه السلام إلى مكة، وكان إسماعيل رضيعاً وأسكنهما هناك على النحو الذي بينّاه من قبل[٦٧٢]. وكان إبراهيم يتردد عليهما في مكة، وقد عاون إسماعيل أباه إبراهيم في بناء الكعبة كما ذكرنا من قبل[٦٧٣]. وقد رأىٰ إبراهيم عليه السلام أنّهُ يذبح ابنه إسماعيل، وعزم فعلاً على تنفيذ هذه الرؤيا ولكنّ الله تعالى فداه بذبحٍ عظيم كما سنذكره بعد قليل إن شاء الله تعالى.

٣٢٩- إسماعيل هو دعوة أبيه إبراهيم:

قال تعالى حاكياً دعوة إبراهيم وما طلبه من ربّه: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ ﴿١٠١﴾﴾[٦٧٤].

وكان هذا الدعاء من إبراهيم بعد إنجاءِ الله له من كيد الكافرين ببابل، فدعا اللهَ أن يرزقه ولداً صالحاً يعينه على الدعوة إلى الله فبشره الله تعالى بغلام حليم، وهذا الغلام هو إسماعيل، فإنه أول ولد بُشِّرُ به إبراهيم عليه السلام وهو أكبر من أخيه إسحاق باتفاق العلماء. ومن صفات هذا الغلام - إسماعيل - أنه حليم، أي متسع

---

(٦٧٢) الفقرة ٢٩٣.

(٦٧٣) الفقرة ٣٠٥.

(٦٧٤) سورة الصافات الآية ١٠٠-١٠١.

الصدر حسن الصبر[٦٧٥].

٣٣٠- رؤيا إبراهيم في ذبح ابنه إسماعيل وإخباره بها:

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾[٦٧٦]، أي فلما بلغ إسماعيل السن التي يقدر فيها على السعي والعمل، قال له أبوه إبراهيم: يا بُنَيَّ إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى، أي فانظر هل تصبر على إمضائي أمر الرؤيا، لأنَّ رؤيا الأنبياء وحيٌ، وما رأيتُه يعتبر أمراً لي بذبحك، أو لا تصبر[٦٧٧].

٣٣١- أحسن جواب قاله إسماعيل:

﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾[٦٧٨] وأنا، والله، لا أدري، بأيهما أكثر إعجاباً، بالوالد، إبراهيم الشيخ الجليل، الذي يكلفه ربه بأمر لا تكاد تطيقه النفس البشرية إلاَّ نفس إبراهيم، يكلفه ربه بأن يذبح بيده ابنه الوحيد الذي رزقه الله به وهو في كبر سنه وشيخوخته، أَمْ أنا أكثرُ إعجاباً بهذا الصبي أو الفتى النجيب إسماعيل الذي يقول له أبوه: إني مكلف بذبحك فانظر ماذا تقول وماذا ترى، هكذا بكل بساطة يطرح إبراهيم المسألة على ابنه، فانظر ماذا ترى؟ فيقول له ذلك الفتى العظيم منادياً أباه باسم الأبوة: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ هكذا ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ لم تتغير بعينه الصورة ولا العلاقة مع أبيه، إنه أبوه ولو أنه يستشيرهُ في ذبحه. ولم يكتف إسماعيل بالقبول ساكتاً، والسكوت في معرض الحاجة للبيانِ، ولم يُبدِ تذمراً، ولا اعتراضاً ولا سؤالاً في أمر خطير كهذا الأمر وهو ذبحه دون جنايةٍ اقترفها، ولا عقوق نحو والده ارتكبه، ولا عصيان لربه صدر منه، بل أكثر من ذلك: أراد ذلك المسلم العظيم الشابُّ إسماعيلُ أن يشجع أباه على المضي فيما هو قادم وعازم عليه وهو ذبحه. . أراد أن يشجع أباه على ذبحه بتذكيره بأنه ينفذ أمر الله،

---

(٦٧٥) تفسير ابن كثير ج٤ ص١٤، تفسير القاسمي ج١٤ ص١١٧.

(٦٧٦) سورة الصافات، الآية ١٠٢.

(٦٧٧) تفسير القاسمي ج١٤ ص١١٧.

(٦٧٨) سورة الصافات الآية ١٠٢.

وأَمْرُ الله على العين والرأس، فقال له: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ..﴾ ثم أراد إسماعيل أن يزيد والده تشجيعاً، ويُزيلَ ما قد يعتريه من قلق لما قد يظنه فيه من جزع وقلة صبر، وقال له: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ فكأنه يقول لأبيه: امضِ يا أبت لتنفيذ ما أُمرتَ به، فإني بمعونة الله سأكون صابراً.. إنه لم ينسب لنفسه القوة والصبر، وإنما علّق ذلك على مشيئة الخالق العظيم الذي يتطلع إلى عونه وتصبيره على هذا البلاء، حتى يتم أبوه ما كُلِّفَ به وليساعده هو على تنفيذ هذا التكليف، وقال له: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

٣٣٢- البدء بالتنفيذ:

وبعد هذه المحاورة القصيرة الحاسمة بين أبي الأنبياء إبراهيم خليل الرحمن وبين ابنه البار المسلم العظيم إسماعيل، التي كشفت عن استسلام الوالد وولده، استسلاماً مطلقاً وانقياداً تاماً لله رب العالمين، لم يعد إبراهيم ينظر إلى ابنه نظرته الأولى له: ابناً حبيباً لأنَّ إبراهيم كان ينظر في تلك اللحظات إلى الذي تخللت محبته شغاف قلبه فلم تزاحمها محبتُه لولده، إنه كان ينظر إلى من اتخذه خليلاً من دون العالمين.. إنه كان ينظر إلى ربه الودود الذي يأمره بذبح ولده بيده، وصدقُ المحبة يظهر عند تنفيذ ما يأمر به المحبوب، فصار إسماعيل ولده الوحيد في نظره كشاة يريد أن يذبحها قرباناً لله رب العالمين.. وبدأ التنفيذ الذي يصوره لنا القرآن العظيم بقول ربنا جلّ جلاله: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ۝١٠٣﴾[٦٧٩] أي صرعه على شقه فوقع جبينُه على الأرض وهو أحد جانبي الجبهة. ويقول ابن كثير: ﴿وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ أي صرعه على وجهه ليذبحه من قفاه، ولا يشاهِدَ وجهه عند ذبحه ليكون أهون عليه[٦٨٠].

٣٣٣- إيقاف التنفيذ وتقديم الفداء:

فلما تم إضجاع الولد إسماعيل، وهوىٰ إبراهيم على ابنه والسكين بيده ليذبحه جاءه الأمر بإيقاف التنفيذ ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ۝١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي

---

(٦٧٩) سورة الصافات الآية ١٠٣.

(٦٨٠) تفسير الرازي ج٢٦ ص١٥٧، تفسير ابن كثير ج٤ ص١٥.

ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾﴾[٦٨١]. جاءه النّداءُ من رب العالمين أن يا إبراهيم قد صدّقت الرؤيا أي: قد حصل المقصود من رؤياك بإضجاعك ولَدَكَ للذبح، وعزمك على ذبحه وإمرارك السكين على رقبة ابنك، ولكن لم تَقطع شيئاً، وبهذا ظهر وانكشف انقيادك وانقياد ولدك لأمر الله، وكمال طاعتكما لله رب العالمين، فلا حاجة للاستمرار وتنفيذ الذبح ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، أي: هكذا نصرف عمّن أطاعنا المكاره والشدائد، ونجعل لهم من أمرهم فرجاً ومخرجاً ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾[٦٨٢]، أي: إنَّ ما أُمِرَ به إبراهيم هو الاختبار البيّنُ الواضح الجلي حيث أُمِرَ بذبح ولده فسارع مستسلماً لأمر الله تعالى منقاداً لطاعته، وهو اختبار أيضاً لابن إبراهيم إسماعيلَ أيصبر أم لا؟ وقد نجح الوالد وولده في هذا الامتحان الصعب الذي استحق به أن فداه الله ﴿بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ أي بكبش عظيم لعظمه وسمنه[٦٨٣].

٣٣٤- ثناء الله على إسماعيل:

ولما كبر إسماعيل أكرمه الله بالرسالة والنبوة، ومدحه لصدق الوعد وأَمْرِ أَهْلِهِ بالصلاة والزكاة، وبصبره وانقياده لأمر الله في قضية ذبحه، ومن أجل ذلك كله كان عند الله مرضياً، قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾[٦٨٤].

٣٣٥- التعريف بإسماعيل:

والمقصود بإسماعيل المذكور في الآية الكريمة التي ذكرناها، إسماعيلُ الذبيحُ ابنُ إبراهيم الخليل وهو أبو العرب أو كما يقول ابن كثير: والد عرب الحجاز كلهم[٦٨٥].

---

(٦٨١) سورة الصافات الآيتان ١٠٤، ١٠٥.

(٦٨٢) سورة الصافات الآيات ١٠٦، ١٠٧.

(٦٨٣) تفسير ابن كثير ج٤ ص١٦، تفسير الرازي ج٢٦ ص١٥٨.

(٦٨٤) سورة مريم، الآيتان ٥٤، ٥٥.

(٦٨٥) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٢٥، تفسير القرطبي ج١١ ص١١٤.

٣٣٦- التعريف بفضائله - أولاً - صدق الوعد:

وقد أثنى الله تعالى على إسماعيل بصدق الوعد وإن كان موجوداً في غيره من الأنبياء تشريفاً له وإكراماً، ولأنه المشهورُ من خصاله، فكان لا يَعِدُ أحداً بشيء إلاّ وفّى به. وقد وعد من نفسه الصبر على الذبح فوفّى به حيث قال: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٠٢﴾[٦٨٦].

٣٣٧- ثانياً - وكان رسولاً نبياً:

وفي قوله تعالى عن إسماعيل: ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ دلالةٌ على تقدمه بالفضل على أخيه إسحاق بن إبراهيم، حيث وصفه الله بالنبوة فقط، وإسماعيل وصفه الله بالنبوة والرسالة. وقد ثبت في صحيح مسلم أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنّ الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل»[٦٨٧] وقيل إنَّ الله أرسله إلى قبيلة جُرْهُمَ في الحجاز[٦٨٨].

٣٣٨- ثالثاً - يأمر أهله بالصلاة والزكاة:

وكان إسماعيل عليه السلام يأمر أهله، بالصلاة والزكاة، فكان يبدأُ أهله بالأمر بالصلاح والصلاة والزكاة ليجعلهم قدوة لمن وراءهم، ولأنّهم أولى من سائر الناس بذلك، كما قال تعالى مخاطباً رسوله الكريم محمداً ﷺ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾[٦٨٩]. وقال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾[٦٩٠]. وأيضاً فأهل الرجل أحق من يُتصدَق عليهم، فوجب أن يكونوا بالإحسان الديني أولى من غيرهم، وهذا لا يمنع من أن تُدَعى الأمّةُ كلها إلى الصلاة والزكاة وعدم الإخلال بهما[٦٩١].

---

(٦٨٦) تفسير القرطبي ج١١ص١١٥، تفسير الرازي ج٢١ص٢٢٢، تفسير القاسمي ج١١ص١٢٤.

(٦٨٧) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٢٥.

(٦٨٨) تفسير القرطبي ج١١ ص١١٦.

(٦٨٩) سورة الشعراء، الآية (٢١٤).

(٦٩٠) سورة طه، الآية ١٣٢.

(٦٩١) تفسير الرازي ج٢١ ص٢٢٢، تفسير القاسمي ج١١ ص١٢٥.

٣٣٩- رابعاً - وكان عند الله مرضياً:

وهذا أيضاً من الثناء الجميل والصفة الحميدة، فهو في غاية المدح لأنَّ المرضيَّ عند الله هو الفائز في كل طاعاته بأعلى الدرجات[٦٩٢].

(٦٩٢) تفسير الرازي ج٢١ ص٢٢٢، تفسير ابن كثير ج٣ ص١٢٥.

المبحث الثاني
ما يستفاد من قصة إسماعيل للدعوة والدعاة

٣٤٠- في قصة إسماعيل عبر وعظات:

في قصة إسماعيل عبر وعظات يجب على الدعاة استيعابها وجعلها من جملة مواضيع الدعوة التي يحرصون على تبيانها للناس لا سيما للشيوخ والشباب والآباء والأبناء، ونذكر فيما يلي بعض هذه العبر والعظات المستفادة من قصة إسماعيل عليه السلام.

٣٤١- أ- الانقياد لأمر الله:

الشأن بالمسلم انقياده لأمر الله ومبادرتُه إلى تنفيذه بكامل الرضا والقبول دون تردد ولا كسل ولا تعقيب، وهذا ما كان عليه إبراهيم عليه السلام وقد تلقى أمر ربه بذبح ابنه إسماعيل. فعلى الدعاة المسلمين تعميقُ هذا المعنى في قلوب المدعوّين، فما أحوج المسلمين اليوم لهذا الانقياد لأوامر الله.

٣٤٢- ب- في إسماعيل أسوة حسنة للشباب المسلم:

قصة إسماعيل، هي قصة شاب مسلم آمن بالله، امتُحِنَ امتحاناً شديداً بأن يموت ذبحاً على يد أبيه إبراهيم، ومع هذا لم يرتجف، ولم يهتز عندما أخبره أبوه بأنه رأى في المنام أنه يذبحه، بل راح يشجع أباه على المضيِّ في تنفيذ ما يأمره به الله، فعلى الدعاة المسلمين أن يُذكّروا الشباب المسلم بقصة إسماعيل، ويستشهدوا بها في أحاديثهم معهم ليكون للشباب المسلم أسوة حسنة في إسماعيل. إنَّ شبابنا المسلم الضائع لا بد لهم من مُثُل عليا تملأ عيونهم، وتثير فيهم معاني الإيمان، وتحملهم على طاعة الرحمن، والاستعلاء على الشهوات وإغواء الشيطان، ومن أعظم ما يثير فيهم هذه المعانيَ عرضُ النماذج الإيمانية العالية من المؤمنين السابقين ومن سلفنا الصالح من الصحابة والتابعين لهم بإحسان.

٣٤٣ - جـ- تفريجُ الكرباتِ بإحسان الطاعة لله:

إنَّ الله تعالى يفرج عن المسلمين المنقادين لأمر الله ما هم فيه من شدائد وكربات ما داموا حاضرين ومستعدين وعازمين على تنفيذ أمر الله، وهذا ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

٣٤٤- د - ابتلاء الله عباده المؤمنين:

وليعلم الدعاة المسلمون أنَّ الله تعالى يبتلي عباده المؤمنين على وجه الاختبار والامتحان؛ ليتبين مخبوء نفوسهم، ومدى طاعتهم في الشدائد، ومدى استمساكهم بمعاني الإسلام في أوقات الشدائد والصعاب، وعلى هذه السُنّةِ الإلهية امتحن الله خليله إبراهيم بذبح ابنه إسماعيل كما امتحن بهذا إسماعيل نفسه، أيعصي أباه أم يطيعه..؟، وليكن معلوماً أيضاً للدعاةِ أنَّ امتحان الله عباده المؤمنين من اختصاص وتفرد رب العالمين، فهو الذي يقرر امتحان المؤمن في الوقت الذي يريده وبالكيفية التي يريدها، ولا اعتراض ولا تعقيب على حكم أحكم الحاكمين. وهذا ما يجب على الدعاة توضيحُهُ للمدعوين لأنه يتعلق بالعقيدة، والعقيدة أهم مطالب الدين.

٣٤٥- هـ- لا بد من التحلي بأخلاق الإسلام:

مدح الله إسماعيل بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾ وصِدْقُ الوعد من أخلاق الإسلام ومن صفات أهل الإيمان، كما أنَّ خُلْفَهُ من الصفات الذميمة، قال رسولنا ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان». ولما كانت هذه صفات المنافقين كان التلبس بضدها من صفات المؤمنين. فعلى الدعاة المسلمين أن يجعلوا موضوع (أخلاق الإسلام) موضوعاً مهماً من مواضيع الدعوة، ويبينوا للناس أنَّ عدم التخلق بالأخلاق الإسلامية دليل على عدم صفاء الإيمان وتلوثه بالنفاق. والملاحظ أنَّ من أمراض المسلمين اليوم عدم الالتزام بالأخلاق الإسلامية، ولذا نجد الخُلْفَ بالوعد وعدم الالتزام بالمواعيد من الأمور الفاشية في المسلمين، وعلى الدعاة تذكيرهم بذلك.

٣٤٦- و - القيام بحق الأهل:

ومما مدح الله به عبده إسماعيل أنه: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ﴾، ومعنى ذلك أنه كان يهتم بأمور دينهم، فهو كما قال الإمام الرازيُّ: «وكان نظره لهم في الدين يغلِبُ على شفقته عليهم بالدنيا بخلاف ما عليه أكثر الناس»[٦٩٣]، فعلى الدعاة تذكير المسلمين بواجبهم نحو بيوتهم وأهليهم، وذلك بأن يحملوهم على طاعة الله والالتزام بشرعه، وأن يكون اهتمامهم بهم في أمورهم الدينية أكْثَرَ من اهتمامهم بأمورهُم الدنيوية والمعيشية، وهذا مما أمر الله به المسلمين نحو أسرهم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ . .﴾[٦٩٤] وإنما تكون وقايتهم من النار بحملهم على طاعة الله ومنعهم من عصيان شرع الله. فعلى الدعاة أن يذكّروا المسلمين بواجبهم نحو أهليهم بأنْ يراقبوهم ويعلّموهم أمور دينهم ويأمروهم بالالتزام بأوامر الشرع، وأن يربوا أولادهم على معاني الإسلام وأحكامه، وأن يدربوهم على ذلك، جاء في الحديث الشريف عن النبي ﷺ بشأن الأولاد الصغار وتعليمهم الصلاةَ: «مروهم لسبعٍ واضربوهم لعشر»، أي مروهم بالصلاة إذا بلغوا من العمر سبع سنوات، فإن لم يصلّوا وقد بلغو من العمر عشر سنوات فيجب ضربهم على عدمِ قيامهم بالصلاة، والملاحَظُ أَنَّ كثيراً من المسلمين الصادقين بل ومن الدعاةِ أيضاً لا يهتمون بأسرهم وأولادهم، فلا يعلمونهم أمور دينهم ولا يهتمون بها، وهذا تقصير منهم لأَنَّ الأهل أولى بأنْ تدعوَهم إلى معاني الإسلام. قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾.

٣٤٧- ليس من حق الأهل معصية الله من أجلهم:

وليكن معلوماً أنه ليس من حق الأهل على رب الأسرة ارتكاب معصية الله من أجلهم، وقد حذرنا الله تعالى من ذلك فقال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ . .﴾[٦٩٥] عن عطاء بن يسار قال نزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾ نزلت في

---

(٦٩٣) تفسير الرازي ج٢١ ص ٢٣٢.

(٦٩٤) سورة التحريم الآية ٦.

(٦٩٥) سورة التغابن الآية ١٤.

عوف بن مالِك الأشجعيّ كان ذا أهل وولد، وكان إذا أراد الغزو بكوا إليه ورققوه فقالوا: إلى من تدعنا؟ فيرقُّ قلبه عليهم، فيقيم ولا يخرج إلى الغزو - الجهاد - فنزلت هذه الآية. وقال أبو بكر بن العمري موضحاً وجه عداوة الأزواج والأولاد، فقال رحمه الله تعالى: (فإنَّ العدو لم يكن عدواً لذاته وإنما كان عدواً بفعله، فإذا فعل الزوج والولد فعل العدو كان عدواً، ولا فعلَ أقبح من الحيلولة بين العبد وطاعة ربه)[٦٩٦]. والقانون في هذه المسألة: لا يجوز للمسلم أن يترك أمر ربه وشرعه بصورة ما إيثاراً منه وتفضيلاً لرغبة أو لمنفعة ولده أو زوجه أو كائناً من كان من البشر. كما لا يجوز للمسلم أن يرتكب الحرام من أجل ولده، كأن يرتشي أو لا يعمل مع الدعاة أو لا ينضَمَّ إلى الجماعة المسلمة؛ لئلا يلحقه أذى أو نحو ذلك. ولْيَجْعَلِ الداعي المسلم شعاره: (تنفيذُ أمر الله مقدم على ما سواه)، فعلى الدعاة أن يفقهوا هذه المسألة جيداً وليعملوا بعيدين عن تأثرهم بالأهل والولد إذا كان من شأن هذا التأثر صرفهم عن الدعوة.

(٦٩٦) تفسير القرطبي ج١٨ ص١٤٠-١٤١.

الفصل الثامن

قصة لوط عليه السلام

المبحث الأول

خلاصة القصة وتفسير آياتها

٣٤٨- خلاصة القصة:

لوط هو ابن أخِ إبراهيم الخليل عليه السلام. ولد في (أورالكلدانيين) في منطقة بابل من أرض العراق. وكان لوط قد آمن مع إبراهيم عليه السلام، وهاجر معه إلى أرض الشام. ثم أسكنه إبراهيم في شرق الأردن، وكان في ذلك المكان- المسمى بعمق السديم بقرب البحر الميت الذي سمي ببحر لوط أيضاً- القرى أو المدن الخمس: سدوم، وعمورة، وأدمة، وصويم، وبالع، فسكن لوط في عاصمتها سدوم، التي كانت تعمل الخبائث. وقد بعثه الله إلى أهل سدوم وما حولها من القرى يدعوهم إلى الله عزوجل وعبادته وحده، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عما كانوا يرتكبونه من الفواحش التي اخترعوها لم يسبقهم بها أحد من بني آدم ولا غيرهم، وهو إتيان الذكور دون الإناث، وهذا شيء لم يكن بنو آدم تعهده ولا تألفه ولا يخطر ببالهم، حتى صنع ذلك أهل سدوم(٦٩٧). وبالرغم من دعوة لوط، وإخباره لهم أنه رسول الله إليهم، وأنه يريد لهم الخير بدعوته لم يؤمن له قومه بل قالوا: أخرجوه ومن آمن معه من أهله بحجة أنهم أناس يتطهرون، ثم هددوه بالقتل رجماً بالحجارة إن لم يكف عن دعوته، عند ذلك دعا لوط ربه أن ينجيه وأهله مما يعملون، فأنجاه الله وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين فهلكت مع قومها الذينَ أهلكهم الله، بالصيحة، كما قال تعالى: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ

---

(٦٩٧) تفسير ابن كثير ج٢ ص٢٣٠، تفسير المنار ج٨ ص٥٩.

﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ۝٧٤﴾[698].

٣٤٩- لوط يدعو قومه إلى عبادة الله وطاعةِ رسوله:

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ۝١٦٠ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٦١ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٦٢ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٦٣ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٦٤﴾[699]. دعاهم لوط عليه السلام إلى عبادة الله وحده، ودعاهم أيضاً إلى أن يطيعوه لأنَّهُ رسول الله إليهم. وقال لهم: إنه لا يريد منهم عن دعوته أجراً، فأجره على الله رب العالمين[700].

٣٥٠- لوط يدعو قومه إلى ترك الفاحشة:

ومع دعوة لوط عليه السلام لقومه إلى عبادة الله وحده، دعاهم أيضاً إلى ترك فاحشة إتيان الذكور، قال تعالى حكايةً عما قاله لوط لقومه: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ۝١٦٥ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ۝١٦٦﴾[701]. أي أتأتون الفاحشة بالذكور وتتركون ما خلق لكم الله من أزواج، بل أنتم قوم تجاوزتم حدود الله[702].

٣٥١- تهديد لوط بالإخراج:

لم يكتف قوم لوط بتكذيبه ورفض الاستجابة لدعوته، وإنما هددوه بالإخراج من قريتهم إذا لم يكف عن الدعوة إلى الله، قال تعالى: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ۝١٦٧ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ ۝١٦٨﴾[703] أَيْ إني لعملكم من القالين أي من المُبغِضين لا أحبه ولا أرضى به، وإني بريءٌ منكم[704].

---

(٦٩٨) سورة الحجر، الآيتان ٧٣، ٧٤.

(٦٩٩) سورة الشعراء، الآيات ١٦٠-١٦٤.

(٧٠٠) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٤٤.

(٧٠١) سورة الشعراء الآيتان ١٦٥، ١٦٦.

(٧٠٢) تفسير القرطبي ج١٣ ص١٣٢.

(٧٠٣) سورة الشعراء الآيتان ١٦٧و١٦٨.

(٧٠٤) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٤٥.

٣٥٢- يريدون إخراج آل لوط لأنهم يتطهرون:

ومن أسباب إخراج لوط ومن آمن معه من أهله، من قريتهم، أنهم أناس يتطهرون، أي عن إتيان الذكور، فكان هذا من لوط وأتباعه جريمة في نظر قومه، قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾[٧٠٥] قوله: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ يعني إتيان الذكور، ذكرها الله باسم الفاحشة ليبين أنها زنى ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ أي لم يكن اللواط في أمة قبل قوم لوط. قوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ أي في جمعكم إلى الشرك هذه الفاحشةَ. وقولُهُ: ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ أي قال قوم لوط: أخرجوا لوطاً وأتباعه إنهم أناس يتعففون عن إتيان الذكور ويتنزهون عن هذا الفعل[٧٠٦].

٣٥٣- مجيء الملائكة إلى لوط وما قال لهم:

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾[٧٠٧]. والمعنى: لما جاءت الملائكة، الذين أرسلهم الله إلى لوط بهيئة بشر حسانِ الوجوه ﴿سِىٓءَ بِهِمْ﴾ أي ساءه مجيئهم لأنه خاف قومه عليهم، ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ أي ضاق صدره بمجيئهم وكَرِهَهُ ﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ أي شديد في الشر. ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي يسرعون إليه ﴿وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي ومن قبلِ مجيء الرسل كانوا يعملون السيئات أي كانت عادتهم إتيانَ الرجال. فلما جاؤوا إلى لوط وقصدوا أضيافه قام إليهم لوط مدافعاً وقال لهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى﴾ أي نَدَبَهمْ في هذه الحالة إلى نكاح بناته، ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ أي أزوجكموهنَّ فهو أطهر لكم مما تريدون، والتطهر

---

(٧٠٥) سورة الأعراف الآيات ٨٠-٨١.

(٧٠٦) تفسير القرطبي ج٧ ص٢٤٣-٢٤٦.

(٧٠٧) سورة هود الآيات ٧٧-٨٠.

التنزه عما لا يحل. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾ أي لا تهينوني ولا تذلوني في ضيفي بالتعرض لهم وهم في داري وفي ضيافتي ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ أليس منكم رجل ذو رشد يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ أي: ليس لنا إلى بناتك تعلق ولا هنَّ قصدنا ولا لنا عادة نطلب ذلك ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾﴾ إشارة إلى الأضياف.

قوله تعالى عن لوط: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ أي لما رأى لوط استمرارهم في غيِّهم ولم يقدر على دفعهم تمنى لو وجدَ عوناً على ردهم، فقال على جهة التفجع والاستكانة ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ أي أنصاراً وأعواناً لرددتُ أهل الفساد وحلْتُ بينهم وبين ما يريدون ﴿أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ أي ألجأ إلى ركن شديد. ومراد لوط بالركن العشيرة والمنَعَة بالكثرة. قال ابن عباس وأهل التفسير: أغلق لوط بابه والملائكة معه في الدار، وهو يجادل قومه ويناشدهم من وراء الباب، وهم يحاولون تسوُّرَ الجدار والدخول عليه، فلما رأت الملائكة ما لقي من الجهد والكرب والنّصَبِ بسببهم، قالوا: يا لوط إنَّ ركنك لشديد، وأنهم آتيهم عذاب غير مردود وإنّا رسل ربك، فافتح الباب ودعنا وإياهم، ففتح الباب فضربهم جبريل بجناحه فطمس أعينهم، وقيل أخذ جبريل قبضة من تراب فأذراها في وجوههم فطمس أعينهم، فلم يعرفوا طريقاً ولا اهتدوا إلى بيوتهم، وجعلوا يقولون: النجاء النجاء فإنَّ في بيت لوط قوماً هم أسحر مَنْ على وجهِ الأرض، وقد سحرونا فأعموا أبصارنا، وجعلوا يقولون: يا لوط كما أنت حتى نصبح فسترى، يتوعدونه[٧٠٨].

٣٥٤- دعاء لوط وهلاك قومه:

ولما يئس لوط من استجابة قومه، دعا الله تعالى أن ينجيه وأهله ويهلكم، قال تعالى: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾﴾[٧٠٩]، وفي سورة هود بيان لكيفية إهلاكهم وبما أُهلكوا قال تعالى مخبراً عن الملائكة الذين زاروا لوطاً وما قالوه له: ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ

---

(٧٠٨) تفسير القرطبي ج٩ ص٧٤ وما بعدها.

(٧٠٩) سورة الشعراء الآيات ١٦٧-١٧٢.

مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾(٧١٠)
قال ضيفُ لوط: إنّا رسل ربك لن يصلوا إليك بمكروه فأسر بأهلك بعد مضي صدر من الليل ولا يلتفت منكم أحد، أي لا يتخلف منكم أحدٌ أو لا ينظرْ وراءه منكم أحد إلاّ امرأتك، أي فأسرِ بأهلك إلاّ امرأتك إنه مصيبها من العذاب ما أصابهم إن موعدهم الصبح وهو قريب، فخرج لوط بابنتيه ليس معه غيرهما. ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ أي عذابنا ﴿جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ أي من طين صلب ﴿مَّنضُودٍ﴾ أي متتابع ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ أي الحجارة مُعَلّمة ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ يعني من قوم لوط، أي لم تكن الحجارة لتخطئهم(٧١١).

٣٥٥- ضرب المثل بامرأة لوط:

قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾(٧١٢) أي ضرب الله مثلاً للذين كفروا في مخالطتهم المسلمين ومعاشرتهم لهم أنَّ ذلك لا يجدي عنهم شيئاً، ولا ينفعهم عند الله إن لم يكن الإيمان حاصلاً في قلوبهم. ثم ذكر المثل فقال تعالى: ﴿ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ﴾ أي نبيين رسولين عندهما في صحبتهما ليلاً ونهاراً يؤاكلانهما ويصاحبانهما ويعاشرانهما أشد المعاشرة والاختلاط، ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ أي في الإيمان لم يوافقاهما على الإيمانِ ولا صدقاهما في الرسالة، فلم ينفعهما ذلك شيئاً، ولا دفع عنهما محذوراً بسبب كفرهما، وقيل للمرأتين: ﴿ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ وليس المراد بقوله ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ في فاحشة بل في الدين، فإنَّ نساء الانبياء معصومات عن الوقوع في الفاحشة لحرمة الأنبياء. أمَّا خيانة امرأة نوح فكانت تخبر أنّه مجنون، وإذا آمن مع نوح أحدٌ أخبرت الجبابرة من قوم نوح به، وأمَّا امرأة لوط فكانت على غير دين لوط، وكانت تخبر قومها بضيوف لوط(٧١٣).

---

(٧١٠) سورة هود الآيات ٨١-٨٣.

(٧١١) تفسير القرطبي ج٩ ص٧٩ وما بعدها.

(٧١٢) سورة التحريم الآية ١٠.

(٧١٣) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٩٣.

المبحث الثاني
ما يستفاد من قصة لوط للدعوة والدعاة

٣٥٦- أولاً - للداعي المسلم أن ينكر على الكافر غير الكفر:

قد يتلبس الكافر بمعاصٍ زيادة على كفره الذي هو جريمته الكبرى، فيجوز للداعي المسلم أن ينكر عليه كفره ومعاصيه الأخرى. فقد رأينا أنَّ لوطاً عليه السلام أنكر على قومه الكفر وأنكر عليهم إتيانهم الذكور، وأمرهم بتقوى الله وطاعته كما أمرهم بترك عمل الفاحشة بإتيان الذكور. ولا يعلق الداعي المسلم إنكاره على معصية الكافر إلى حين إسلامه، أو يبقى الداعي المسلم يدعو الكافر إلى الإسلام ولا ينهاه عن أية معصية يرتكبها، ويبدو لي أنَّ هذا المسلك في الدعوة وهو الجمع بين الإنكار على كفر الكافر وبين معاصيه الأخرى، هذا المسلك إنما يُستَحَبُ ويترجح أو يجب إذا كانت معصية الكافر تلحق الضرر بالمجتمع، وتشيع الفساد في الأرض، وكأنها جريمة مستقلة عن جريمة الكفر كما في إتيان الذكور.

٣٥٧- ثانياً - التطلع إلى القوة المادية لا يقدح في الإيمان والتوكل على الله.

وجود قوة مادية تحفظ الحق وترد الاعتداء وتمنع الظلم أمرٌ جيد، ولذا أمر الله تعالى بإعداد القوة. وقد تمنى لوط أن تكون له قوةٌ مادية يردُّ بها اعتداء قومه على أضيافه، فقال: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيَ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ وهذا التمني صَدَرَ من لوط لشدة غيظه على قومه، وقبيح فعلهم معه بالنسبة لضيوفه، فقال هذا القول وهو غير قادح في إيمانه وتوكله على ربه وثقته به، ولكن كان الأولى أن لا يقول ذلك لأنَّهُ في مقام النبوة والرسالة، ولهذا روي أنَّ الملائكة وَجَدَتْ عليه حين قال هذه الكلمات وقالوا: إنَّ ركنك لشديدٌ، وفي البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «يرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد» وخرّجه الترمذي وزاد: ما

بعث الله بعده نبياً إلاّ في ثروة من قومه. والثروة الكثرة والمنعة[٧١٤]. والخلاصة أَنَّ إعداد القوة واجب لحماية الحق ومنع الظلم، وتمني القوة المادية دون خدش لمعاني التوكل على الله لغرض ردّ الظلم، مجرد هذا التمني لا بأس به على أنْ لا يغيب عن المسلم توكله على الله.

٣٥٨- ثالثاً الصلة النسبية أو الزوجية بالمؤمن لا تنفع الكافر:

إذا كان للكافر صلة نسب أو زوجية أو قرابة من مؤمن أو صالح، فهذه الصلة لا تنفع الكافر كما رأينا في امرأة نوح وامرأة لوط وهما زوجتا نبيين كريمين، ولكنَّ هذه الرابطة الزوجية لم تغنيا عنهما من الله شيئاً لكفرهما، وكذلك يقال بالنسبة للعاصي إذا كانت له صلة قرابة أو زوجية برجل صالح، وفي الحديث النبوي الشريف: «من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه». فعلى الدعاة أن يبينوا ذلك ويوضحوه في مواعظهم للناس.

(٧١٤) تفسير القرطبي ج٩ ص٧٨.



الفصل التاسع
قصة شعيب عليه السلام مع قومه
المبحث الأول
خلاصة القصة وتفسير آياتها

٣٥٩- خلاصة القصة[٧١٥]:

أرسل الله تعالى رسوله شعيباً إلى (مدين)، وهذه الكلمة تطلق على القبيلة وعلى المدينة وهي التي بقرب معان من طريق الحجاز، قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ ﴾[٧١٦] وهم أصحاب الأيكة، فدعاهم شعيب عليه السلام إلى عبادة الله وحده ونهاهم عن المفاسد التي فشت فيهم، والتي سنذكرها إن شاء الله تعالى، فكذبوه وجادلوه وجادلهم ونصحهم فلم ينفع معهم جداله ولا نصحه فأهلكهم الله تعالى بأن أصابهم عذاب يوم الظلة، وهي سحابة أظلتهم فيها شرر ولهب ووهج عظيم، ثم جاءتهم صيحة من السماء ورجفة من الأرض فزهقت أرواحهم وخمدت أجسادهم فأصبحوا في دارهم جاثمين.

٣٦٠- شعيبٌ يدعو قومه إلى عبادة الله:

قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ... ﴾[٧١٧] خاطب شعيب قومه بقوله: ﴿ يَٰقَوْمِ ﴾ تلطفاً بهم وتذكيراً لهم بأنهم قومُهُ وأنه أخوهم في النسب والقرابة، وأنَّ من كان هذا شأنه وصلته بمن يخاطبهم فلا شك أنه يريد لهم الخير، وأعظمُ الخير أن يدعوهم إلى عبادة الله وحده، لأنَّ الله تعالى هو المعبود الحق، فلا معبود بحقٍّ

---

(٧١٥) تفسير ابن كثير ج٢ ص ٢٣١-٢٣٢.

(٧١٦) سورة القصص، الآية ٢٣.

(٧١٧) سورة الأعراف، الآية ٨٥.

لهم ولغيرهم إلاّ الله تعالى، ولهذا قال لهم: ﴿يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ وقال لهم: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، والبينةُ هي كل ما يبين الحقَّ، أي يكشفه ويظهره، فيشمل هذا اللفظ «البيّنةُ» الآيات والمعجزات التي يؤيد الله بها أنبياءه الذين يرسلهم؛ ليظهر صدقهم وتقوم الحجة بها على أقوامهم. ولم يبين القرآن الكريم نوع (البنية) التي أُوتيها شعيب وأيده الله بها، وإن كنا جازمين بأنَّ الله تعالى قد أيده بآية هي البيّنةُ التي دلت على أنه رسولٌ من رب العالمين وبها قامت الحجة على قومه، قال نبينا وسيدنا محمد ﷺ: «ما من الأنبياء نبيٌ إلا قد أُعطِيَ من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أُوتِيتُ وحياً أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة» قال صاحب تفسير المنار: روى هذا الحديث الشيخان وغيرُهما ثم قال: ومعناه أنَّ كل نبي مُرسَل أعطاه الله من الآيات الدالة على صدقه وصحة دعواه ما شأنه أن يؤمن البشر بدلالة مثله[718]. وإنَّ الذي أوتيه نبينا محمد ﷺ هو ما أوحاه الله إليه وهو هذا القرآن العظيم.

٣٦١- شعيب ينهى قومه عن المنكرات:

ولم تقف دعوة شعيب إلى قومه عند دعوتهم إلى عبادة الله وحده ونبذ عبادة ما سواه، وإنما دعاهم إلى الإقلاع عن المفاسد والمنكرات التي فشت فيهم وانغمسوا فيها، قال تعالى مخبراً عما نهاهم عنه: ﴿فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا . .﴾[719] فشعيبٌ عليه السلام أمرهم بإيفاء الكيل والميزان، وهذا يتضمن نهيهم عن التطفيف فيهما، ونهاهم عن بخس الناس أشياءهم، ونهاهم عن الإفساد في الأرض، ونهاهم عن قطع الطريق الحسي والمعنوي، وعن سعيهمُ الخبيثِ في تشويه دعوة شعيب. ونتكلم فيما يلي عن هذه الأمور التي نهاهم عنها شعيب.

---

(٧١٨) تفسير المنار ج٨ ص٥٢٤-٥٢٥ أخرجه مسلم في باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ: صحيح مسلم بشرح النووي ج٢ ص١٨٦.

(٧١٩) سورة الأعراف، الآيتان ٨٥،٨٦.

٣٦٢- أولاً - النهي عن التطفيف:

كان قوم شعيب من المطففين الذين إذا اكتالوا على الناس أو وزنوا عليهم لأنفسهم ما يشترون من المكيلات والموزونات يستوفون حقهم أو يزيدون عليه، وإذا كالوهم أو وزنوهم ما يبيعون لهم يخسرون الكيل والميزان أي ينقصونه، فنهاهم شعيب عليه السلام عن ذلك بأمره لهم بإيفاء الكيل والميزان وعدم إنقاصه إذا باعوا، وعدم الزيادة عليه إذا اشتروا.

٣٦٣- ثانياً - ولا تبخسوا الناس أشياءهم:

ونهاهم عن بخس الناس أشياءهم، والبخس نقص الشيءِ على سبيل الظلم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾[٧٢٠] فيشمل البخس المنهيُّ عنه، بَخْسَ الناس حقوقهم المادية والمعنوية، قال الزمخشري في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ هو عام في كل حق ثابت لأحد لا يجوز هضمه[٧٢١]. وعلى هذا يعتبر مِن بَخْسِ الناس أشياءهم: خيانةُ الناسِ في أموالهم المادية بأخذها بغير وجه حق عن طريق نقص المكيال والميزان خَفية وتدليساً، أو نقص غيرها من المبيعات كالمواشي والمعدودات، كما يعتبر مِن بَخْسِ الناس أشياءهم هضمُ حقوقهم المعنوية كالعلوم والمعرفة والمهارة بالصنائع بعدمِ الاعتراف لهم بها، وعدم تنزيلهم المنزلة التي يستحقونها بموجبها[٧٢٢].

٣٦٤- ثالثاً - النهي عن الإفساد في الأرض:

ونهاهم شعيب عليه السلام عن الإفساد في الأرض بالكفر والظلم بعد إصلاحها أي بعد ما أَصْلَحَ أمرها وأهلَها الأنبياءُ وأتباعُهم الصالحون العاملون بشرائعهم ومنها: الوفاء بالكيل والوزن وإقامةُ العدل. وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي إنَّ ما آمركم، به وأنهاكم عنه هو خير لكم في دينكم

---

(٧٢٠) معجم مفردات ألفاظ القرآن للعلامة الراغب الأصفهاني ص٣٥.

(٧٢١) تفسير القاسمي ج١٣ ص٤٢.

(٧٢٢) تفسير المنار ج٨ ص٥٢٥-٥٢٦، تفسير القاسمي ج٧ ص٢٠٧.

ودنياكم، لأنَّ ما آمركم به وأنهاكم عنه هو مما أمرني الله به، والله ربكم لا يأمركم إلاَّ بما هو نافع لكم، ولا ينهاكم إلاّ عما هو ضارٌّ بكم، وإنما تتحقق هذه الخيرية لكم بما أمرتكم به ونهيتكم عنه بشرط الإيمان والتوحيد، وإلا فلا ينفع عمل دون إيمان(٧٢٣).

٣٦٥- رابعاً - النهي عن قطع الطريق الحسي والمعنوي:

ونهاهم شعيبٌ عليه السلام عن قطع الطريق الحسي والمعنوي، أما الطريق الحسي ففي قوله تعالى مخبراً عما قاله شعيب لقومه: ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ ﴾ أي: لا تجلسوا على كل طريق فيه ممر للناس تتوعدونهم بالقتل إن لم يعطوكم أموالهم، وتمنعون من يريد المجيء إلى شعيب لسماع دعوته.

وأمّا عن قطعهم الطريق المعنوي ففي قوله تعالى: ﴿ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ أي تُبعِدون عن دين الله وطاعته من آمن بشعيب بتهديدهم بما يؤذيهم ويضرهم إن ظلوا مؤمنين متبعين شعيباً ودعوته، وتريدون أن تجعلوا دعوة شعيب ذات عوج بما تلقونه من شبهات باطلة حولها، وبما تصفونها بما يشينها وينفرّ الناس عنها(٧٢٤).

٣٦٦- الترغيب والترهيب في دعوة شعيب:

واستعمل شعيب عليه السلام أسلوب الترغيب والترهيب في دعوته، من ذلك أنه ذكرّهم بنعم الله عليهم وما تقتضيه من الشكر لتبقى لهم وليزيدها الله عليهم، وشُكْرُها يكون بعبادة الله وحده وبطاعته فيما أمر به ونهى عنه، كما حذرهم إن ظلوا على كفرهم وضلالهم أن يصيبهم ما أصاب الكفرة قبلهم، فقال تعالى مخبراً عما رغبّهم فيه شعيب وعما حذّرهم منه: ﴿وَاذْكُرُوٓا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ

---

(٧٢٣) تفسير ابن عطية ج٥ ص٥٧٤، تفسير المنار ج٨ ص٥٢٧، تفسير القاسمي ج٧ ص٢٠٧.

(٧٢٤) تفسير ابن كثير ج٢ ص٢٣١-٢٣٢، تفسير القرطبي ج٧ ص٢٤٩، تفسير القاسمي ج٧ ص٢٠٨.

﴿وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[725]. أي وتذكروا ذلك الزمن الذي كنتم فيه قليلي العدد فكثركّم الله تعالى بما بارك في نسلكم، فاشكروا له ذلك بأن تعبدوه وحده وتتبعوا أوامره في الحق والعدل، وتقلعوا عن الإفساد في الأرض، وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين من قبلكم، وكيف أهلكهم الله تعالى بكفرهم وظلمهم وفسادهم، فيجب أن يكون لكم عبرة في ذلك[726].

٣٦٧- مثال آخر من الترهيبِ والترغيب:

ومن الترهيب والترغيب من شعيب لقومه قوله لهم: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾[727] أي لا تحملنّكم عداوتكم وبغضكم لي على الإصرار على ما أنتم عليه من الكفر والفساد، وعلى عدم الإيمان بي والاستجابة لدعوتي، فيصيبكم ما أصاب الكفار قبلكم: قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح أو قوم لوط. واستغفروا ربكم من سالف الذنوب ثم توبوا إليه فيما تستقبلونه من الأعمال السيئة، إن ربي رحيم ودود لمن تاب، وهذا فضل من الله عظيم[728].

٣٦٨- مثال آخر للترهيب:

ومن الترهيبِ في أسلوب شعيب في الدعوة قوله لقومه: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾﴾[729]. أي إني أراكم بخير وسَعَةٍ في معيشتكم ورزقكم، وإني أخاف عليكم أن تُسْلبوا ما أنتم فيه بعصيانكم شرعَ الله، وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط أي في الدار الآخرة[730].

---

(٧٢٥) سورة الأعراف، الآية ٨٦.

(٧٢٦) تفسير المنار ج٨ ص٥٣٢.

(٧٢٧) سورة هود الآيتان ٨٩-٩٠.

(٧٢٨) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٥٧، تفسير القرطبي ج٩ ص٩٠.

(٧٢٩) سورة هود، الآية ٨٤.

(٧٣٠) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٥٥-٤٥٦.

٣٦٩- التلطف في تبليغ الدعوة وإزالةُ الشبهة عنها:

كان شعيب عليه السلام يتلطف في تبليغ الدعوة إلى قومه، ويمتنع عما يورث الشبهة بدعوته، ويذكّرهم بصفته ليحملهم على الاستجابة، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾﴾(٧٣١) والتلطف ظاهر في قوله: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ فهو عرض رقيق ليّن، كما في قوله تعالى لنبيه موسى عندما أرسله إلى فرعون: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾(٧٣٢) وقول شعيب عليه السلام لقومه: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ تذكير لهم بصفته وهو أنه رسول لهم من رب العالمين، وأنه أمين على رسالته يبلغها لهم كما أمره الله، وهذا من شأنه أن يقبلوا دعوته ويستجيبوا له، ثم أخبرهم بما يزيل الشبهة عن دعوته وعن الدافع لقيامه بتبليغها لهم وهو قوله: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ فهو عليه السلام يقول لهم: أنا لا أريد منكم أجرة ولا منفعة ولا مغنماً على ما أدعوكم إليه، لأنَّ أجري وثوابي على ما أقوم به على الله رب العالمين، ولأنَّ واجبي أن أبلغكم رسالة ربي وأنصحَ لكم وأحرصَ على استجابتكم لي لأني أريد الخير لكم.

٣٧٠- جدال شعيب مع قومه:

أكثر شعيبٌ عليه السلام الحوار والجدل مع قومه ليحملهم على الإيمان به وبما جاء به من ربّه، وكان يقال له: خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومَهُ، ولفصاحة عبارته وجزالة موعظته(٧٣٣). وكان عليه السلام في جداله مع قومه مترفقاً بهم، ولكن كان صريحاً معهم فيما ينكره عليهم، ويسمع جوابهم على ما يدعوهم إليه ويردُّ عليهم بما يكشف باطلهم ويحملهم على الاستجابة له لولا عنادهم وإصرارهم على الكفر تقليداً لأسلافهم. ونذكر فيما يلي نماذج من جداله معهم وردهم عليه ورده عليهم.

---

(٧٣١) سورة الشعراء الآيات ١٧٧-١٨٠.

(٧٣٢) تفسير ابن عطية ج١١ ص١٤٦. وآية: ﴿فقل هل لك إلى أن تزكى﴾ في سورة النازعات ورقمها ١٨.

(٧٣٣) تفسير القرطبي ج٧ ص٢٥١، ابن كثير ج٢ ص٢٣١.

٣٧١- أولاً - الله هو الذي يحكم بين المؤمنين وبين الكافرين:

قال شعيب لقومه: ﴿ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾[٧٣٤] أي وإن اختلفتم في رسالتي فصرتم فرقتين: مؤمنة وكافرة، فانتظروا حتى يحكم الله بيننا وبينكم وهو خير الحاكمين، فإنه سيجعل العاقبة للمؤمنين والدمار على الكافرين، وهذا هو حكمه العادل[٧٣٥].

٣٧٢- ثانياً - قليل الحلال خير من كثير الحرام:

وقال شعيب لقومه: ﴿ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ ﴾[٧٣٦] أي ما يفضل لكم من الربح القليل الحلال بعد وفاء الكيل والميزان خير لكم من أخذ أموال الناس عن طريق التطفيف في الكيل والوزن إن كنتم مؤمنين بالله واليوم الآخر ﴿ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ أي وما أنا عليكم برقيب، فافعلوا ذلك لله عز وجل لا تفعلوه ليراكم الناس[٧٣٧].

٣٧٣- ثالثاً - إن أريدُ إلاّ الإصلاح ما استطعت:

وقال شعيب عليه السلام لقومه: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ ﴾[٧٣٨]. أي أرأيتم يا قومي إن كنت على بينة من ربي أي على بصيرة فيما أدعو إليه، ورزقني منه رزقاً حسناً أي رزقاً حلالاً واسعاً وهدىً وتوفيقاً وعلماً ومعرفة أفلا أنهاكم عن الضلال؟ وإذا كنت على الوصف الذي ذكرتُ أأتّبعُ الضلال والضالين؟ وتأمرونني بالعصيان في البخس والتطفيف؟ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه، أي لم أكن أنهاكم عن شيءٍ وأفعله ﴿ إِنْ أُرِيدُ

---

(٧٣٤) سورة الأعراف، الآية ٨٧.

(٧٣٥) تفسير ابن كثير ج٢ ص٢٣٢، تفسير القاسمي ج٧ ص٢٠٨-٢٠٩.

(٧٣٦) سورة هود، الآية ٨٦.

(٧٣٧) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٥٦.

(٧٣٨) سورة هود، الآية ٨٨.

﴿إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ أي لست أبغي فيما آمركم به وأنهاكم عنه إلاّ صلاحكم وإصلاحكم بقدر جهدي وطاقتي، بأن تصلحوا دنياكم بالعدل وآخرتكم بالعبادة وما توفيقي في إصابة الحق فيما أريده إلا بالله عليه توكلتُ في جميع أموري وإليه أنيب أي أرجع[٧٣٩].

٣٧٤- رابعاً - ينكشف الكاذب وينال جزاءه:

قال شعيب لقومه: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾﴾[٧٤٠].

لما يئس شعيب من استجابة قومه له قال لهم: اعملوا على مكانتكم أي على طريقتكم- وهذا تهديد شديد- إني عامل على طريقتي فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه أي يهلكه ومن هو كاذب يستحق هذا الجزاء: أنا ومن اتبعني أو أنتم؟، فانتظروا إني معكم من المنتظرين، انتظروا العذاب وسخط الله فأني منتظرٌ النصر ورحمة ربي[٧٤١].

٣٧٥- خامساً- قوم شعيب يهددونه بالإخراج من قريتهم وردُّه عليهم:

قال تعالى حكاية عما قاله الملأ من قوم شعيب: ﴿۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾[٧٤٢] هذا خبر من الله تعالى عما واجهت به الكفار نبيَّه شعيباً ومن معه من المؤمنين في توعدهم إياه ومن معه من المؤمنين بالإخراج من قريتهم أو بالإكراه على الرجوع في ملتهم والدخول معهم فيما هم فيه. وهذا خطاب مع الرسول شعيب والمرادُ أتباعُه الذين كانوا معه إذ كانوا قبل الإيمان به على ملة الكفار. قال شعيب

---

(٧٣٩) تفسير القرطبي ج٩ ص٨٩-٩٠، تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٥٦.

(٧٤٠) سورة هود، الآية ٩٣.

(٧٤١) تفسير القرطبي ج٩ ص٩٢، تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٥٨.

(٧٤٢) سورة الأعراف، الآيتان ٨٨، ٨٩.

في رده على تهديدهم: أو لو كنا كارهين؟ أي أتجبروننا على ذلك وإن كنا كارهين له؟ أي على الخروج من القرية أو العوْدِ في مِلّتكم؟ فإن فعلتم ذلك أتيتم شيئاً عظيماً، وإن رجعنا إلى ملتكم ودخلنا معكم فيما أنتم فيه افترينا على الله الكذب في موافقتكم على كفركم. فما يكون لنا وما ينبغي لنا أن نعود في ملتكم إلاَّ أن يشاء الله ذلك وسع ربُّنا كل شيءٍ علماً، أي علم ما كان وما سيكون، على الله توكلنا، ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق أي احكم بيننا وبين قومنا وانصرنا عليهم وأنت خير الفاتحين أي خير الحاكمين فأنت العادل الذي لا يجور أبداً[٧٤٣].

٣٧٦- سادساً - استهزاء القوم بشعيب:

قال قوم شعيب مستهزئين به: ﴿ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ ﴾[٧٤٤] أي أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا من الأوثان والأصنام أو أَنْ نفعل في أموالنا ما نشاء فنترك التطفيف كما تريد وهي أموالنا ومن حقنا أن نفعل فيها ما نشاء؟ إنك لأنت الحليم الرشيد فكيف تأمرنا بذلك؟[٧٤٥].

٣٧٧- سابعاً - لولا رهطك لرجمناك وردُّه عليهم:

وقال قوم شعيب ما أخبرنا الله به بقوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ ﴾[٧٤٦]. أي قال قوم شعيب مخاطبين رسولهم شعيباً: ما نفهم كثيراً من قولك؛ لأنك تحملنا على أمور غائبة من البعث بعد الموت، وتعظنا بما لا عهد لنا بمثله، وإنا لنراك فينا ضعيفاً أي: وحيداً ليس لك جندٌ ولا أعوان تقدر بهم على مخالفتنا ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ﴾ أي لولا عشيرتك ومعزتهم علينا لقتلناك بالرجم ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ أي ما أنت علينا بغالب ولا قاهر ولا ممتنع وليس لك عندنا معزة. فردّ عليهم شعيب عليه السلام:

---

(٧٤٣) تفسير ابن كثير ج٢ ص٢٣٢، تفسير القرطبي ج٧ ص٢٥٠-٢٥١، تفسير القاسمي ج٧ ص٢٠٩.

(٧٤٤) سورة هود الآية ٨٧.

(٧٤٥) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٥٦، تفسير القرطبي ج٩ ص٨٧.

(٧٤٦) سورة هود، الآية ٩١.

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي أتتركونني لأجل عشيرتي ولا تتركونني ولا تؤذنني إعظاماً لجناب الله تبارك وتعالى الذي أرسلني إليكم لتبليغكم رسالته ﴿ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ أي اتخذتم ما جئتكم به من أمر ربي ظهرياً أي جعلتموه وراء ظهوركم لا تطيعونه ﴿ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ أي إنَّ ربي بما تعملون من الكفر والمعصية عليم[٧٤٧].

٣٧٨- ثامناً - قولهم لشعيب إنك مسحور ورده عليهم:

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾[٧٤٨] يخبر تعالى عن قوم شعيب بأنهم أجابوه بمثل ما أجابت به ثمود لرسولها حيث قالوا له: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ أي: من المسحورين فلا حقيقة لما تدعيه لنفسك من النبوة، ﴿ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ وهي حجة داحضة، وشبهة قديمة قالها الكفرة لرسلهم، وهي استبعادهم أن يكون المُرسَل من الله بشراً، ورتبوا على شبهتهم هذه أن أتهموا شعيباً بالكذب، فقالوا: ﴿ وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي تتعمد الكذب فيما تقوله من أنك رسول الله ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي فأسقط علينا قطعاً من السماء أو أنزل علينا عذاباً من السماء إن كنتَ صادقاً فيما تدعيه لنفسك من النبوة والرسالة. فردّ عليهم شعيبٌ عليه السلام بقوله: ﴿ قَالَ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[٧٤٩] أي الله تعالى أعلم بكم، فإن كنتم تستحقون ذلك -أي ما طلبوه من نزول العذاب بهم- جازاكم الله به وهو غير ظالم لكم، وهكذا وقع بهم وحصل لهم ما طلبوه وسألوه جزاءً وِفاقاً[٧٥٠].

٣٧٩- هلاك قوم شعيب:

ولما أصروا على تكذيب شعيب عليه السلام، ووصل بهم العنادُ والإصرارُ على

---

(٧٤٧) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٥٧-٤٥٨، تفسير القرطبي ج٩ ص٩١-٩٢.

(٧٤٨) سورة الشعراء، الآيات ١٨٥-١٨٧.

(٧٤٩) سورة الشعراء الآية ١٨٨.

(٧٥٠) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٤٦.

الكفر أن قال الملأ الذين كفروا لقومهم: إن اتبعتم شعيباً وآمنتم به كنتم الخاسرين، أقول: لما وصل بهم الحال إلى هذا الحدّ أهلكهم الله تعالى بما أخبرنا به، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾[751] فاستحقوا بكفرهم وإصرارهم عليه الهلاك. وكان هلاكهم بأنواع العذاب: بالصيحة، وبالرجفة، وبعذاب يوم الظلة. ففي هذه الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ وفي سورة هود أخبرنا الله تعالى بأخذهم بالصيحة، قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾[752] وفي سورة الشعراء قال تعالى مخبراً عن هلاكهم: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾[753]. وهكذا اجتمع عليهم ذلك كله: أصابهم عذاب يوم الظلة وهي سحابة أظلتهم فيها شرر من نار ولهب ووهج عظيم، ثم جاءتهم صيحة من السماء ورجفة من الأرض شديدةٌ من أسفل منهم، فزهقت أرواحهم وخمدت أجسامهم ﴿ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ ﴾ أي: كأنهم لما نزل بهم العذاب لم يقيموا بديارهم التي أرادوا إخراج شعيب وصحبه المؤمنين منها. ثم قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾، فهؤلاءِ الكفرة الفجرة الذين كذبوا شعيباً هم الخاسرون حقاً وليس الذين آمنوا بشعيب كما ادعى أولئك الكفرة الأشرار.

٣٨٠- ما قاله شعيب بعد هلاك قومه:

قال تعالى مخبراً عما فعله نبيُهُ شعيبٌ عليه السلام بعد أن أهلك قومه: ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾[754]. أي فتولى شعيب عليه السلام عن قومه بعد أنْ أهلكهم الله

---

(٧٥١) سورة الأعراف، الآيات ٩٠-٩٢.

(٧٥٢) سورة هود الآية ٩٤.

(٧٥٣) سورة الشعراء، الآية ١٨٩.

(٧٥٤) سورة الأعراف، الآية ٩٣.

تعالى، وقال مقرعاً وموبخاً لهم: ﴿ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ ﴾ أي قد أديت إليكم ما أرسلني الله به فلا آسَفُ عليكم وقد كفرتم بما جئتكم به من ربكم، فلهذا قال: ﴿ فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ﴾(٧٥٥).

---

(٧٥٥) تفسير ابن كثير ج٢ ص٢٣٣.

المبحث الثاني

ما يستفاد من قصة شعيب للدعوة والدعاة

٣٨١- مجمل ما يستفاد من قصة شعيب:

وفي ضوء ما ذكرناه من أخبار شعيب عليه السلام مع قومه، يمكن تلخيص المستفاد من ذلك للدعوة والدعاة بجملة أمور هي: (أ) موقف الداعي من مفاسد المجتمع الكافر. (ب) موقف الملأ - أكابر المجتمع وسادته - من الدعوة والدعاة. (جـ) الإصلاح بقدر الاستطاعة. (د) ابتعاد الدعاة عن الشبهات.

ونذكر فيما يلي شيئاً موجزاً عن هذه الأمور:

٣٨٢- أولاً - موقف الداعي من مفاسد المجتمع الكافر:

إنَّ شيوع الكفر في المجتمع لا يمنع الداعي من الإنكار على مفاسد المجتمع الفاشية فيه مع استمراره في الإنكار على انحرافه عن العقيدة الإسلامية، وهذا ما لاحظناه في موقف شعيب عليه السلام من قومه حيث كانوا قوماً مشركين، وقد فشت فيهم مفاسد تؤذي الناس وتوقع فيهم الظلم كالتطفيف في الكيل والوزنِ، فدعاهم عليه السلام إلى التخلي عن هذه المفاسد والمنكرات، إلاّ أنه عليه السلام في إنكاره هذه المنكرات ربط هذا الإنكار بمعاني العقيدة الصحيحة والإيمان بالله كالتحذير من عقابه في الدنيا والآخرة. وعلى هذا فيجب على الدعاة المسلمين أن يلاحظوا ذلك ولا يغفلوا عن مفاسد المجتمع أو يتركوا الإنكار على هذه المفاسد، أو يعلقوا هذا الإنكار على قيام الدولة الإسلامية المنشودة أو تحقق صلاح العقيدة الإسلامية، وإنما عليهم أن يستمروا في الدعوة إلى إصلاح هذه العقيدة وتبيين معالمها ومعانيها، وما يناقضها أو يخدشها، وبنفس الوقت يدعون إلى إصلاح المجتمع وإزالة المنكرات التي فيه على أن يربطوا دعوتهم الإصلاحية هذه وإنكارهم على منكرات المجتمع بمعاني العقيدة الإسلامية. كما أَنَّ عليهم أَيضاً ملاحظة قواعد

الإنكار على المنكرات وكيفية تغييرها، ومراتب هذا التغيير وأولوياته في ضوء عملهم الجماعي في مجال الدعوة.

٣٨٣- ثانياً - موقف الملأ من الدعوة والدعاة:

كان الملأ الذين كفروا من قوم شعيب يصدون الناس عن دعوة شعيب، والملأ هم أكابر المجتمع الكافر والسادة فيه، وكانت أساليبهم في الصد عن سبيل الله ودعوته، تضليل الناس وافتراء الكذب على شعيب ودعوته لصرف الناس عنه، وتهديدَ الذين آمنوا بإيقاع الأذى والضرر بهم، وتهديد شعيب ومن معه من المؤمنين بالإخراج من قريتهم، وتهديد شعيب بالقتل رجماً، وأنهم لم يقتلوه لمكانة عشيرته عندهم. إنهم تحّولوا عن طريق أسلوب الحجة والبرهان إلى إسلوب البطش والإرهاب واستغلال سلطانهم في المجتمع. إنَّ على الدعاة اليوم أن يفهموا جيداً بأَنَّ ما فعله الملأ الذين كفروا من قوم شعيب ضد دعوته وضد المؤمنين به يتكرر في الوقت الحاضر ضد الدعوة والدعاة بصور وصيغ وأشكال متماثلة أو متشابهة أو مقاربة لما فعله أكابر قوم شعيب وغيرُهم من الأقوام الكافرة. والذين يتولون كبر هذا الصنيع ضد الدعوة والدعاة هم أكابرُ المجتمع الذي يعيش فيه الدعاة ويدعون الناس فيه، فعلى الدعاة أن يعرفوا ذلك ويفهموه جيداً، ويأخذوا الحذر المطلوب المشروع حتى لا يُؤَخذوا على حين غرة، وحتى لا يقعوا في مكايد أكابر القوم الفاسقين.

٣٨٤- ثالثاً - الإصلاح بقدر الاستطاعة:

قال تعالى مخبراً عما قاله شعيب لقومه: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ فعلى الداعي المسلم أن تكون له إرادة جازمة للإصلاح في ضوء معاني الإسلام ومناهجه في الإصلاح، وأن تكون إرادته للإصلاح كاملة وثابتة ودائمة، وأن يسعى لتحقيق هذه الإرادة في الواقع بتغيير المنكرات والمفاسد والإنحرافات التي يبصرها في المجتمع، وأن يكون سعيه هذا بقدر استطاعته، التي يجب أن يعرف مقدارها بميزان الشرع لتكون استطاعته حقيقية لا متوهمة، وعلى أساسها يكون مقدار ما يُكَلف به شرعاً من سعي وفعلٍ لتحقيق الإصلاح الإسلامي المنشود. وعلى الداعي أن يعرف جيداً أنَّ الاستطاعة على الإصلاح ليست شيئاً واحداً، وإنما هي أنواعٌ متعددة تختلف

باختلاف نوع الإصلاح المطلوب ونوع الجزيئةِ المطلوب منه إصلاحها في ظرف معين ومكان معين، وتختلف باختلاف الأشخاص والأحوال، إنَّ مسألة الإصلاح بقدر الاستطاعة، هذه المسألة يجب أن يفهمها الداعي في ضوء الضوابط التالية:

يزن مقدار استطاعته بالميزان الشرعي، وأن يعرف لأي نوع من الإصلاح تصلح استطاعته القيام به، وما هي الأولويات في سلّم ودرجات الإصلاح ومراحله التي يجب أن يُقدِّم لها قدرته واستطاعته ويستنفدها فيها قبل غيرها، وبعد هذا كله يتقدم بكل جدّ وبسعي منظم معتمداً على الله في بلوغ هدفه في الإصلاح وشعاره في ذلك: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

٣٨٥- رابعاً - الابتعاد عن الشبهات:

إنَّ من أساليب أعداء الدعوة إلى الله إثارة الشبهات حولها لتقبيحها وتشويه صورتها في أعين الناس؛ لصرفهم عنها وعن الدعاة إليها. وسبيلُهم في ذلك الدسُّ والافتراء والكذب دون تقيد بضابط ولا وازع من خُلُقٍ أو دين، ولهذا قال الملأ من قوم شعيب: إنه مسحور وإنه كاذب بعد مسلسل التضليل والافتراء ضد شعيب ودعوته؛ قالوا لقومهم بكل وقاحة وجرأة ما أخبرنا الله عنهم: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ قالوا هذا القول مستهينين بعقول القوم بعد أن روّضوها بالمزيد من الأكاذيب وإظهار الحرص على صيانة ملتهم وما كان عليه أسلافهم. وإزاء هذه الحرب النفسية والدعائية التي أثارها الملأ الذين كفروا من قوم شعيب، ظل شعيب عليه السلام ثابتاً ومستمراً في تبليغ دعوته مبيناً أنها هي الحق وأنَّ ما عليه الكفرة من قومه هو الباطل، دون أن يغفل عما قد يثيره الملأ من شبهات حوله وحول دعوته، فأسرع عليه السلام في إبلاغ قومه بأنه لا يريد منهم لقاء دعوته أي أجر، فأسقط هذا البلاغ منه ما كان الملأ يفكرون فيه لإثارة الشبهة حول شعيب وحول الدافع لدعوته، ثم أعلن لهم بأنه لا يفعل ما ينهاهم عنه، ولا يترك ما يأمرهم به، قال تعالى مخبراً عن قوله: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُۚ﴾ وبهذا قطع ما يمكن أن يتشبث به الملأ من قومه، ويجعلوه مثار الشبهة إذا رأوا من شعيب ما يمكن أن يكون مخالفاً لما يأمرهم به أو ينهاهم عنه.

٣٨٦- على الداعي أن يبتعد عن الشبهات:

وعلى ذلك، ينبغي للداعي المسلم أن ينأى بنفسه عن كل ما يمكن أن يجعله أعداءُ الدعوة شبهةً تحول دون إقبال الناس على الدعوة. إنَّ الشبهات كقنابل الدخان التي تمنع الرؤية إلى حين، وليس عند كل الناس من الصبر ما يحملهم على الانتظار إلى زوال الدخان حتى ينظروا في الدعوة ويقبلوا عليها، بل إنَّ أكثرهم ينصرف بمجرد ظهور علاماتِ الدخان من بعيد.. فعلى الدعاة أن يعرفوا ذلك ويبتعدوا حتى عن المباح إذا كان من شأنه أن يستغله أعداء الدعوة ويجعلوه شبهة حولهم. وعليهم في سبيل الابتعاد عن الشبهات، أن يوافق عملُهم ما يدعون إليه، وأن يلتزموا بذلك بكل صرامة وجدّيةٍ، وأن يأخذوا بالعزائم لا بالرُّخُّصَ، لأنَّهم ليسوا كأحدٍ من الناس، إنّهم دعاة.. وأن يترفعوا عما في أيدي الناس، وعما يمكن أن يعتبر أجراً أو عوضاً عما يدعون إليه، لأنَّ أجرهم مضمون يقيناً، لأنه عند الله رب العالمين.

الفصل العاشر
قصة يوسف عليه السلام

المبحث الأول
وقائع القصة وتفسير آياتها

٣٨٧- رؤيا يوسف:

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾﴾[٧٥٦]. ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ﴾ يعني يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام، وجاء في حديث البخاري أنّ رسول الله ﷺ قال: «الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن إبراهيم»[٧٥٧]، وإنما ناجىٰ يوسف أباه بهذه الرؤيا لاعتقاده بكمال علمه وشفقته عليه بحيث لو كانت رؤياه تسوؤه لأمكنه صرفها عنه[٧٥٨]. وروى البخاري عن أبي قتادة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الرؤيا الحسنةُ من الله، فإذا رأى أحدكم ما يحبُّ فلا يُحّدث به إلاّ من يحب، وإذا رأى ما يكره فليتعوّذ بالله من شرها وليتفل ثلاث مرات ولا يحدثْ بها أحداً فإنها لا تضره». قال العلماء في هذا الحديث: فجعل الله الاستعاذة من رؤياه التي فيها ما يكره، مما يدفع أذاها[٧٥٩].

٣٨٨- تحذير يوسف من إخباره إخوته برؤياه:

قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ

---

(٧٥٦) سورة يوسف، الآية ٤.

(٧٥٧) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٦٨.

(٧٥٨) تفسير القاسمي ج٩ ص١٨٧.

(٧٥٩) تفسير القرطبي ج٩ ص١٢٨.

﴿لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[٧٦٠]. فلما سمع يعقوب عليه السلام رؤيا يوسف حذره من تحديث إخوته بها، إذ قد يعرفون تأويلها فيحسدونه على ذلك، وقد يحملهم الحسد على إلحاق الضرر به، ولهذا قال له: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا﴾ ومن هذا يُؤخذ الأمر بكتمان النعمة حتى توجد وتظهر كما ورد في حديث: «استعينوا على قضاء الحوائج بكتمانها، فإنَّ كل ذي نعمة محسود»[٧٦١]، كما يستفاد من نهي يعقوب لابنه يوسف عن الحديث لإخوته برؤياه، على جواز ترك إظهار النعمة لمن يُخْشَى منه حسد ومكروه، وأنّهُ يجب في بعض الأوقات إخفاء فضيلة تحرزاً من المحسود[٧٦٢].

٣٨٩- حسد إخوة يوسف لمحبة أبيهم له ولأخيه أكثر منهم:

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨﴾[٧٦٣]. أي قالوا فيما بينهم: والله ليوسف وأخوه - يعنون بنيامين وكان شقيقه - أحبُّ إلى أبينا منا ونحن عصبة أي جماعة، فنحن أحق بأن يحبنا أبونا أكثر منهما، فكيف أحبَّهما أكثر منا ونحن جماعة ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي إنَّ أبانا في ذهاب وابتعاد عن طريق الصواب في ذلك، لتفضيله المفضول بزعمهم على الفاضل[٧٦٤].

٣٩٠- تشاور إخوة يوسف في التخلص منه:

قال تعالى: ﴿اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩﴾[٧٦٥] وإنما قالوا هذا، لأنَّ خبر رؤيا يوسف بلغهم، فتشاوروا في كيده فقال ذلك بعضهم: تخلصوا منه بالقتل أو بطرحه في أرض مجهولة لا يعرفها الأب،

---

(٧٦٠) سورة يوسف، الآية ٥.

(٧٦١) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٦٩.

(٧٦٢) تفسير القاسمي ج٩ ص١٨٩.

(٧٦٣) سورة يوسف الآية ٨٠.

(٧٦٤) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٧١.

(٧٦٥) سورة يوسف الآية ٩.

ولا يمكن ليوسف أن يعرف طريق الوصول إليه. ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾؛ لأنه إذا فقده أقبل عليكم بالمحبة ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ أي تكونوا من بعد الفراغ من قتله أو طرحه أرضاً قوماً صالحين، أي تائبين إلى الله عما أجرمتم، وتصيرون من القوم الصالحين(٧٦٦).

٣٩١- الرجوع عن قتل يوسف والاتفاق على إلقائه في الجبّ:

قال تعالى: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾﴾(٧٦٧) اقترح أحدهم إلقاء يوسف في غور الجُبِّ يلتقطه أي يأخذه بعض الأقوام الذين يسيرون في منطقة الجب، وبهذا تتخلصون من يوسف من غير ارتكاب جريمة قتل نفس بريئة، ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ أي عازمين مصرين على أن تفرقوا بينه وبين أبيه. وقد وافق الجميع على هذا الاقتراح(٧٦٨).

٣٩٢- البدء بتنفيذ المؤامرة:

قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴿١١﴾﴾(٧٦٩) لما تواطؤوا على أخذه وطرحه في البئر كما أشار به عليهم أخوهم الكبير، جاؤوا أباهم يعقوبَ عليه السلام، فقالوا له: لِمَ تخافنا عليه ونحن نريد له الخير ونحبه ونشفق عليه؟ أرسِلْهُ معنا أي ابعثه معنا غداً يرتع ويلعب، أي يسعى وينشط ونحن نحفظه ونحوطه من أجلك(٧٧٠).

٣٩٣- جواب يعقوب لبنيه عما طلبوه منه:

قال تعالى حكاية عما قاله يعقوب لبنيه جواباً عما طلبوه منه من إرسال يوسف معهم إلى الرعي في الصحراء: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ

---

(٧٦٦) تفسير الرازي ج١٨ ص٩٤، تفسير ابن عطية ج٧ ص٤٤١، تفسير القاسمي ج٩ ص١٩٨.

(٧٦٧) سورة يوسف الآية ١٠.

(٧٦٨) تفسير القاسمي ج٩ ص١٩٩-٢٠٠.

(٧٦٩) سورة يوسف الآية ١١.

(٧٧٠) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٧٠، تفسير القاسمي ج٩ ص٢٠٠.

يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾﴾[771]. أي يشق عليَّ مفارقة يوسف مدة ذهابكم به إلى أن يرجع وذلك لفرط محبته له لما يتوسم فيه من الخير العظيم وشمائل النبوة والكمال في الخَلْقَ والخُلُق ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾ يقول: وأخشى أن تشتغلوا عنه برميكم ورعيكم فيأتيه ذئب فيأكله وأنتم لا تشعرون. فقالوا له: ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ أي لئن عدا عليه الذئب فأكله من بيننا ونحن جماعة إنّا إذن لهالكون عاجزون[772].

٣٩٤- خروج إخوة يوسف به إلى الصحراء:

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[773]. أي فلما ذهبوا بيوسف بعد مراجعة أبيهم في شأنه وأجمعوا - أي عزموا واتفقوا - أن يجعلوه في غيابة الجب، وجعلوه فيها فعلاً، وأوحى الله تعالى إلى يوسف بأنَّكَ ستنجو مما أنت فيه وتحدثهم بما فعلوا بك وهم لا يشعرون بوحينا هذا إليك[774].

٣٩٥- وجاؤوا أباهم عشاء يبكون:

وبعد أن ارتكبوا جريمتهم البشعة بحق أخيهم يوسف، رجعوا إلى أبيهم، قال تعالى مخبراً عما قالوه لأبيهم: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾[775]. جاؤوا أباهم عشاءً لكونه وقت الظلمة المانعة من تفرسه من وجوههم الكَذِبَ، وأوهموا ببكائهم وتفجعهم عليه إفراط محبتهم له المانعة من الجرأة عليه، ثم نادوه باسم «الأب» المضاف إليهم ليرحمهم فيترك غضبه عليهم

---

(٧٧١) سورة يوسف الآية ١٣و١٤.

(٧٧٢) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٧٠.

(٧٧٣) سورة يوسف الآية ١٥.

(٧٧٤) تفسير ابن عطية ج٧ ص٤٥٢-٤٥٣، تفسير القاسمي ج٩ ص٢٠١-٢٠٢.

(٧٧٥) سورة يوسف الآيتان ١٦، ١٧.

الداعي إلى تكذيبهم، ثم بينوا عذرهم وهو أنهم ذهبوا يستبقون في العدو والرمي بالنصل، وتركوا يوسف عند متاعهم من الثياب والأزواد وغيرها ليحفظه فأكله الذئب، ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾ أي ونحن نعلم أنك لا تصدقنا في هذه الحالة ولو كنا عندك صادقين، فكيف وأنت تتهمنا وغير واثق بقولنا؟[٧٧٦].

٣٩٦- وجاؤوا على قميصه بدم كذب:

قال تعالى: ﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾[٧٧٧] وهذا بيان لما تآمروا عليه من المكيدة، وهو أنهم جاؤوا على قميصه بدم مكذوب فيه، وذلك بتلطيخ قميص يوسف بدم سخلة ذبحوها موهمين أنَّ هذا هو قميصه الذي أكله فيه الذئب وقد أصابه من دمه، ولكنهم لما أرادوا أن يجعلوا الدم علامة على صدقهم نسوا أن يخرقوا قميص يوسف الذي لطخوه بالدم الكذب، فكان ذلك آية كذبهم المفضوح، إذ لا يمكن افتراس الذئب ليوسف وهو لابس القميص ويسلم القميص من التخريق، ولهذا لما تأمل يعقوب عليه السلام القميص فلم يجد فيه خرقاً ولا أثراً استدل بذلك على كذبهم وقال لهم - كما روي عن ابن عباس وغيره -: متى كان الذئب حكيماً يأكل يوسف ولا يخرق القميص! فلهذا قال لهم يعقوب عليه السلام معرضاً عن كلامهم إلى ما وقع في نفسه من كذبهم عليه فيما يدعون ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ أي زينت لكم أنفسكم أمراً، أي صنيعاً قبيحاً ليوسف، فسأصبر صبراً جميلاً على هذا الأمر الذي اتفقتم عليه ونفذتموه حتى يفرجه الله بعونه ولطفه، والله المستعان على ما تصفون، أي على ما تذكرونه من الكذب[٧٧٨]. وقد استدل الفقهاء بهذه الآية على مشروعية الأخذ بالقرائن والأمارات؛ لأنَّ يعقوب عليه السلام استدل على كذبهم بسلامة القميص من التخريق[٧٧٩].

---

(٧٧٦) تفسير الرازي ج١٨ ص١٠١، تفسير القاسمي ج٩ ص٢٠٢.

(٧٧٧) سورة يوسف الآية ١٨.

(٧٧٨) تفسير القرطبي ج٩ ص١٤٩-١٥١، تفسير ابن عطية ج٧ ص٤٥٩ تفسير القاسمي ج٩ ص٢٠٤.

(٧٧٩) تفسير القرطبي ج٩ ص١٥٠.

٣٩٧- ما جرى ليوسف بعد إلقائه في الجبّ:

قال تعالى: ﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَـٰبُشْرَىٰ هَـٰذَا غُلَـٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَـٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾[٧٨٠].

والسيارة جمع سيّار، والمعنى: جاءت رفقة تسير للسفر فأرسلوا واردهم، والوارد: هو الذي يرد الماء ويأتي به ليسقي رفقته، فأدلى دلوه: أي أرسله في الجبّ ليملأها ماءً فتعلق بها يوسف للخروج، فلمّا رآه قال: يا بشرى هذا غلام، وأسرّوه بضاعة: أي أخفوه وجعلوه متاعاً للتجارة، وباعوه لقافلة مرّتْ بهم سائرة إلى مصر بثمن قليل دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين: أي الراغبين عنه[٧٨١].

٣٩٨- يوسف يباع في مصر:

ولمّا وصلت القافلة إلى مصر ومعها يوسف باعته، وكان الذي اشتراه من مصر عزيزها واسمه (قطفير) كما روي عن ابن عباس وكان هو وزيرَ الملك والقائم على خزائن مصر. وقد أوصى زوجته بيوسف وقال لها: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ﴾ أي اجعلي مقامه عندنا مقاماً حسناً، عسى أن ينفعنا هذا الغلام إذا بلغ بالقيام ببعض مهامنا، أو نتخذه ولداً بالتبني. لأنه كان حصوراً لا يولد له ولد[٧٨٢] وقد دلّ على ما قلناه قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ... ﴾[٧٨٣].

٣٩٩- التمكين ليوسف في الأرض:

قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ

---

(٧٨٠) سورة يوسف، الآيتان، ١٩-٢٠.

(٧٨١) تفسير الرازي ج١٠ ص١٠٥-١٠٦، تفسير ابن عطية ج٧ ص٤٦٠-٤٦١، تفسير القاسمي ج٩ ص٢٠٦-٢٠٧.

(٧٨٢) تفسير الرازي ج١٠ ص١٠٨-١٠٩، تفسير القاسمي ج٩ ص٢٠٨.

(٧٨٣) سورة يوسف، الآية ٢١.

غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[٧٨٤] أي كما أنعمنا على يوسف بالخلاص والسلامة من الجب مكَّنَّاه بأن عطفنا عليه قلب العزيز حتى توصل بذلك إلى أن صار متمكناً من الأمر والنهي في أرض مصر، ليكون عاقبة ذلك تعليمه تأويل الرؤيا التي ستقع من الملك وتفضي بيوسف إلى المكانة التي سيؤول إليها أمره، بأن يكون المتصرّفَ في خزائن مصر ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ ﴾ أي لا يُمنَع عما يشاء ولا يُنازعُ فيما يريد، وهو غالب على أمر يوسف يدبره ويحوطه ولا يتركه إلى غيره حتى لا يصل إليه كيد كائد، فقد أُريدَ به من الفتنة والشر ما أريد أكثْرَ من مرّةٍ، فلم يكن ولم يحصل إلاّ ما أرد الله له من العاقبة الحميدة. ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي لا يعلمون لطائف صنعه وخفايا لطفه بعباده، وأنَّ الأمر كله بيد الله[٧٨٥].

٤٠٠- من ألطاف الله بيوسف:

قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[٧٨٦] ومعنى بلَغَ أشده، أي بلغ زمان اشتدادِ جسمه وقوته قبل أن يأخذ بالنقصان، وذلك ببلوغه الأربعين سنةً وقيل: ببلوغه ثلاثاً وثلاثين سنة، وهذا هو الذي رجحه ابن عطية في تفسيره[٧٨٧]. وقوله تعالى: ﴿ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ ﴾ أَيْ سلطاناً في الدنيا وحكماً بين الناس بالحق وعلماً بأمور الدين وبتأويل الرؤيا ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ تنبيهٌ على أنَّهُ كان محسناً في عمله متّقياً ربه، وأَنَّ الله تعالى آتاه الحكم والعلم جزاء إحسانه[٧٨٨]. وهكذا مضت سُنَّةُ الله فيما يصنعه الله لعبادة المحسنين.

٤٠١- امرأة العزيز تراود يوسف عن نفسه:

قال تعالى: ﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ

---

(٧٨٤) سورة يوسف الآية ٢١.

(٧٨٥) تفسير الرازي ج١٨ ص١١٠، تفسير القرطبي ج٩ ص١٥٩-١٦١، تفسير القاسمي ج٩ ص٢٠٨-٢٠٩.

(٧٨٦) سورة يوسف الآية ٢٢.

(٧٨٧) تفسير ابن عطية ج٧ ص٤٦٩.

(٧٨٨) تفسير القرطبي ج٩ ص٤٦٢، تفسير ابن عطية ج٧ ص٤٧٠-٤٧١، تفسير القاسمي ج٩ ص٢٠٩.

﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[789] والمراودة: المطالبة برفق أي طلبت منه أن يواقعها ويعمل الفاحشة معها. وقد غلّقت الأبواب التي كانت في بيتها ﴿وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ﴾ أي هلّم وأَقبلْ وتعالَ ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ﴾: أي أعوذ بالله وأستجير به ممّا دعوتني وتدعيني إليه ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ﴾ يعني زوجها، أي هو سيدي أكرمني فلا أخونه، وفيه إرشاد لها إلى رعاية حق زوجها بألطف وجه. وقال الزّجاج: أي أنَّ الله ربي تولاني بلطفه فلا أركب ما حرّمه[790]. ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ تعليل آخر للامتناع عن فعل الفاحشة، إنّهُ لا يفلح، أي: لا يَظْفَرُ بالخير الظالمون، والمراد بـ(الظالمين) كل من ظلم كائناً من كان، فيدخل في ذلك المجازون للإحسان بالإساءة والعصاةُ لأمر الله ومنهم: الزناة[791].

٤٠٢- كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾[792]. ولقد همت به أي بمخالطته أي قصدتْ وعزمتْ عليها عزماً جازماً لا يلويها عنه صارف بعدما باشرت مقدماتها ومقتضياتها من المراودة وتغليق الأبواب ودعوتِهِ إلى الإسراع إليها بقولها: ﴿هَيۡتَ لَكَۚ﴾ مما اضطره إلى الهرب منها. ومعنى قوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ﴾ أي لولا رؤيته برهان ربه لهمَّ بها كما همت به، لتوفر الدواعي، ولكنه رأى من تأييد الله له بالبرهان ما صرف عنه السوء والفحشاء، فالآية حينئذٍ ناطقة بأنه لم يهمّ أصلاً[793]. وهناك تفسير آخرُ للهمّ الذي كان من يوسف، وهو أنَّ يوسف همَّ بدفعها عن نفسه ومنعها عن ذلك الفعل القبيح الذي تريده منه، لأَنَّ الهمّ هو القصد فيجب أن يحمل في حق كلٍ منهما على القصد الذي يليق به، فاللائق بالمرأة القصدُ إلى مضاجعته، أي إلىٰ أن يطأها، واللائق بيوسُفَ القصد إلى زجرها ودفعها عن نفسه

---

(٧٨٩) سورة يوسف الآية ٢٣.

(٧٩٠) تفسير القرطبي ج٩ ص١٦٣-١٦٥.

(٧٩١) تفسير القاسمي ج٩ ص٢١١.

(٧٩٢) سورة يوسف الآية ٢٤.

(٧٩٣) تفسير القاسمي ج٩ ص٢١٢-٢١٣.

ولو بضربها، يقال: هممت بفلان أي بضربه ودفعه[٧٩٤]، والبرهان الذي رآه هو ما ألقاه الله في قلبه وأعلمه به أنَّ الامتناع من ضربها أولى، لأنه لو اشتغل يوسف بدفعها عن نفسه لأوهم أنه قصدها بالفاحشة فامتنعت فضربها، وربما تعلقت به فكان يتمزق ثوبه من قدام فيكون ذلك شبهة في أنه هو الذي قصدها، وأراد فعل الفاحشة بها، فالله تعالى أعلمه بهذا المعنى، فلا جَرَمَ أنْ لم يشتغل بدفعها عن نفسه بل ولّى هارباً عنها[٧٩٥]. وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ وهذه حجة قاطعة على أنَّ يوسف عليه السلام لم يقع منه همّ بالمعصية، ولا توجُّهٌ إليها قط، وإلا لقيل: لنصرفَهُ عن السوء والفحشاء. ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ أي من الذين أخلصهم الله لطاعته بأَنْ عصمهم عن ﴿ٱلسُّوٓءَ﴾ وهو المنكر والفجور والمكروه ﴿وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ وهو ما تناهى فحشه[٧٩٦].

٤٠٣- وألفيا سيدها لدى الباب:

قال تعالى: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾[٧٩٧] والمعنى: ولقد همّتْ به، ورفض هو، واستبقا الباب، أي قصد كل واحد منهما سبْقَ الآخر إلى الباب؛ فيوسف عليه السلام ليخرج وهي لتمنعه من الخروج، وقدت قميصه من دبُرُ أي اجتذبته من خلفه فانشق قميصه ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ أي وجدا زوجها ثمَّةَ قادماً[٧٩٨] ﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قالت امرأة العزيز ذلك تبرئة لساحتها وافتراءً على يوسف، عندما وجدا العزيز، زَوْجَهَا، لدى الباب، وعُنِي بالسيّدِ زوجُها، والقِبْطُ يسمّون الزوج سيداً، فلما رأت زوجها طلبت وجهاً للحيلة فقالت: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ أي زنى ﴿إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ

---

(٧٩٤) تفسير الرازي ج١٨ ص١١٨.

(٧٩٥) تفسير الرازي ج١٨ ص١١٨، تفسير القرطبي ج٩ ص١٦٦.

(٧٩٦) تفسير القاسمي ج٩ ص٢١٥.

(٧٩٧) سورة يوسف الآية ٢٥.

(٧٩٨) تفسير القاسمي ج٩ ص٢١٦.

﴿أَلِيمٌ﴾ إلاَّ أن يوضع في السجن أو يُعذَّبَ عذاباً إليماً[799].

٤٠٤- وشهد شاهدٌ من أهلها:

قال تعالى حكاية عما قاله يوسف: ﴿قَالَ هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾[800] قال يوسف مدافعاً عن نفسه بإظهار حقيقة ما وقع: هي راودتني عن نفسي، وشهد شاهد من أهلها، وهو من أهل المرأة وقيل: إنه ابن عمها واتفق في ذلك الوقت أنه كان مع زوجها يريد أن يدخل إلى بيتها، فقال: قد سمعنا الجلبة من وراء الباب وشق القميص إلاّ أنَّا لا ندري أيكما كان قدام صاحبه، فإن كان شق القميص من قدامه فأنت صادقة والرجل كاذب، وإن كان من خلفه فالرجل صادق وأنت كاذبة.

٤٠٥- براءة يوسف وإدانة المرأة:

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِي لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾[801]. لما شهد الشاهد بما حكاه الله عنه من شق قميص يوسف ووجه الدلالة فيه على صدق أحدهما وكذب الآخر، فإنهم لما نظروا إلى القميص ورأوا الشق من خلفه، قال الشاهد ابن عمها: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ أي من مكركن وحيلكن، وإنما استعظم كيدهن لأنَّهُ ألطف وأعلق بالقلب، وأشد تأثيراً في النفس، ولعظم فتنتهن واحتيالهن في التخلص من ورطتهن. ويحتمل أنْ يكون قائل هذا القول هو زوجها وليس الشاهد ابن عمها، قال هذا القول عند قولها: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾. ولما ظهرت براءة يوسف عليه السلام عن ذلك الفعل المنكر حكى الله تعالى عنه أي عن الشاهد أنّه قال: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ﴾. ومعناه: أعرض عن ذِكْرِ هذه الواقعة حتى لا ينتشر خبرها ولا يحصل العار بسببها. وكما أمر يوسفَ بكتمان هذه الواقعة

---

(٧٩٩) تفسير القرطبي ج٩ ص١٧١.

(٨٠٠) سورة يوسف الآيتان ٢٦، ٢٧.

(٨٠١) سورة يوسف، الآيتان ٢٨، ٢٩.

أمر المرأة بالاستغفار فقال: ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ أي اطلبي العفو والمغفرة من زوجك، إنك كنتِ من الناس الخاطئين. وقيل: إن القائل ليوسف: أعرضْ عن هذا، وللمرأة: استغفري هو زوجها وليس الشاهد(٨٠٢).

٤٠٦- إشاعة أمر المرأة وموقفها من هذه الإشاعة:

قال تعالى: ﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾(٨٠٣)، إنَّ خبر امرأة العزيز مع يوسف شاع في المدينة، والذي تولى هذه الإشاعة نسوةٌ كانت امرأة العزيز قد أسرّت إليهن حبّها ليوسف، وطلبت منهنَّ كتمان هذا السرّ، فلما أظهرنَ هذا السرّ كان ذلك غدراً ومكراً، فلما سمعت بمكرهن أي سمعت قولهن أرسلت إليهن وأعدّتْ لكل واحدة منهن مجلساً معيناً، وآتت كل واحدة منهن سكّيناً لأجل الفاكهة أو لأجل قطع اللحم، ثم إنّها أمرت يوسف بأن يخرج إليهن، فلما رأينه أكبْرنَه وقطّعنَ أيديهن، أي أعظمنه لجماله الفائق وحسنه الكامل، وجرحن أيديهن بالسكاكين التي كانت في أيديهن لاندهاشهنَّ بجمال يوسف وقلن: حاش لله أي تنزيهاً له سبحانه عن صفات النقص والعجز وتعجباً من قدرته على خلق هذا الجميل الفائق الجمال. وإنما نَفَيْنَ عنه البشرية لغرابة جماله، وأثبتن له المَلَكية بناء على ما ركز في طباع البشر أَنْ لا أحسن من المَلَك، وأن لا أقبح من الشيطان، ولذلك يُشبَه كل متناه في الحسنِ والقبح بهما(٨٠٤).

٤٠٧- عودة المرأة إلى المراودة مع التهديد:

وبعد الذي حصل من جرح النسوة أيديهن لمّا رأين يوسف لدهشتهن بجماله، قالت امرأة العزيز ما أخبرنا الله عن قولها: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن

---

(٨٠٢) تفسير الرازي ج١٨ ص١٢٣-١٢٥، تفسير القرطبي ج٩ ص١٧٥، تفسير القاسمي ج٩ ص٢١٧.

(٨٠٣) سورة يوسف الآيتان ٣٠، ٣١.

(٨٠٤) تفسير الرازي ج١٨ ص١٢٦-١٢٨، تفسير القاسمي ج٩ ص٢١٨-٢٢٠.

﴿ نَفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾[٨٠٥] قالت امرأة العزيز للنسوة: فذلكنّ - أي يوسفُ - الذي لمتنّني في الافتتان به، ولقد راودته عن نفسه فاستعصم أي امتنع طالباً للعصمة مستزيداً منها، ولئن لم يفعل وينفذ ما أريده منه ليعاقبَنَّ بالسجن، وليكونن من الصاغرين أي الأذلاء المهانين[٨٠٦].

٤٠٨- قال ربِّ السجن أحب إليّ مما يدعونني إليه:

ولما سمع يوسف تهديد امرأة العزيز له بالسجن إن لم يحقق لها رغبتها وينفذ لها ما تطلبه منه، كان جواب يوسف الرفض القاطع، وأنّ السجن والبقاء فيه خير له من البقاء في بيت هذه المرأة. قال تعالى حكاية عما قاله يوسف رداً على تهديد المرأة: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾[٨٠٧] فالسجن أحب إلى يوسف مما تدعوه إليه امرأة العزيز والنسوة اللاتي أخذن يطلبن منه إجابة طلب امرأة العزيز، وإجابةَ طلبهنَّ أيضاً، ثم التجأ يوسف إلى الله متوسلاً إليه أَنْ يصرف عنه كيدهن أي ما أردنه منه، لأنه إذا لم يلطف به ويصرفْ عنه كيدهن يقعُ في الميل إليهن ويكونُ من الجاهلين، أي ممن يعمل عمل الجهال[٨٠٨].

٤٠٩- استجاب الله دعاء يوسف:

قال تعالى: ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ﴾[٨٠٩] فاستجاب الله دعاء يوسف ولطف به وعصمه من الوقوع في الزنا، فصرف عنه كيدهن لأنهن قد راودنه عن نفسه وألححن عليه بإجابة طلب سيدته امرأة العزيز منه، إنه تعالى هو السميع لدعاء المتضرعينَ إليه، العليمُ بما يصلحهم[٨١٠].

---

(٨٠٥) سورة يوسف الآية ٣٢.

(٨٠٦) تفسير القاسمي ج٩ ص٢٢٠.

(٨٠٧) سورة يوسف الآية ٣٣.

(٨٠٨) تفسير القرطبي ج٩ ص١٨٤-١٨٥، تفسير القاسمي ج٩ ص٢٢١.

(٨٠٩) سورة يوسف، الآية ٣٤.

(٨١٠) تفسير القرطبي ج٩ ص١٨٥، تفسير القاسمي ج٩ ص٢٢١.

٤١٠- القرار بسجن يوسف:

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ ﴾[٨١١] أي ظهر للعزيز وأهله من بعدما رأوا الآيات، أي الشواهد على براءته ليسجننَّه حتى حين، أي إلى مدة يرون رأيهم فيه، ويقطعون بسجنه كلام الناس وأحاديثهم في شأن مراودة امرأة العزيز ليوسف، لأنَّ بهذا السجن يبدو للناس براءتها[٨١٢].

٤١١- يوسف في السجن ورؤيا السجينين:

وهكذا أدخل يوسف السجن بتحريض من زوجة العزيز التي يئست من يوسف وبأمر من زوجها، ودخل معه السجن فتيان، قصّ الله لنا خبرهما مع يوسف، قال تعالى: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾[٨١٣]، رُوِيَ أنهما غلامان كانا لفرعون مِصرَ، أحدهما رئيس سُقاته والآخر رئيس طعامه، غضب عليهما فحبسهما، قال أحدهما: إني أراني أعصر خمراً أي عنباً تسمية للعنب بما يؤول إليه وهذا في المنام، وقال الآخر: وهو صاحب طعامه: إني رأيت في المنام أَحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه، وطلبا من يوسف تأويلَ ما رأياه في المنام. فقال لهما: لا يأتيكما طعام ترزقانه في يومكما إلا أعلمتكما به وذكرتُ ما هو قبل أن يصلكما، وهذا مما علمني ربي لأني اجتنبت ملة الكافرين بالله واليوم الآخر[٨١٤].

٤١٢- يوسف يدعو إلى توحيد الله وهو في السجن:

واغتنم يوسف عليه السلام سؤال السجينين له عن رؤيا رأياها، فطفق يتكلم معهم في أمور العقيدة، ويبين كيف أنَّهُ ترك مِلّةَ قوم لا يؤمنون بالله واليوم

---

(٨١١) سورة يوسف الآية ٣٥.

(٨١٢) تفسير الرازي ج١٨ ص١٣٠-١٣١، تفسير القاسمي ج٧ ص٢٢١.

(٨١٣) سورة يوسف، الآيتان ٣٦،٣٧.

(٨١٤) تفسير القاسمي ج٩ ص٢٢٢.

الآخر، وأنه اتبع ملة آبائه القائمةَ على التوحيد، ثم خاض معهم في حوار حول الشرك وبطلانه، وتوحيد الله وأحقيته، فقال تعالى حكاية عما قاله يوسف للسجينين اللذين سألاه عن تأويل رؤياهما: ﴿. . . إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾[815] يقول يوسف عليه السلام: إني هجرت ملة الكفرة الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسماعيل وإسحاق، وملتهم تقوم على توحيد الله وعبادته وحده ونبذ عبادة ما سواه، وهذا التوحيد وهو الإقرار بأنه لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له هو من فضل الله علينا، أي أوحاه إلينا وأمرنا به ﴿وَعَلَى النَّاسِ﴾ إذ جعلنا دعاةً لهم إلى ذلك التوحيد ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي لا يعرفون نعمة الله عليهم بإرسال الرسل إليهم[816].

٤١٣- يوسف يغتنم سؤال الفتيين ليدعوهما إلى الله تعالى:

ثم قال لهما يوسف عليه السلام: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾[817] أي أنَّ يوسف عليه السلام أقبل على الفتيين بالمخاطبة والدعاء لهما إلى عبادة الله وحده لا شريك له وخلع ما سواه من الأوثان التي يعبدها قومهما فقال: ﴿أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أي الذي ذلَّ كلُّ شيءٍ لعزّ جلاله وعَظَمَةِ سلطانه. ثم بيَّن لهما أنَّ التي يعبدونها ويسمونها آلهة إنما هو جعلٌ منهم وتسميةٌ من تلقاءِ أنفسهم تلقاها خَلَفُهُمْ عَنْ سَلَفِهم وليس لذلك مُسْتَنَدٌ من عند الله ولهذا قال: ﴿مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ أي حجةٍ ولا برهانٍ. ثم أخبرهم يوسف عليه السلام أنَّ الحكم والتصرف والمشيئة والمُلْكَ كُلَّهُ لله وقد أمر عباده قاطبة أَنْ لا يعبدوا إلاّ إياه ﴿ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أي هذا الذي أدعوكم إليه من توحيد الله وإخلاص

---

(٨١٥) سورة يوسف الآيتان ٣٧، ٣٨.

(٨١٦) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٧٨.

(٨١٧) سورة يوسف الآيتان ٣٩، ٤٠.

العمل له هو الدين المستقيم الذين أمر الله به، وأنزل به الحجة والبرهان، والذي يحبه ويرضاه ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي فلهذا كان أكثرهم مشركين. وهكذا جعل يوسف عليه السلام سؤالَهُما له عن رؤياهما وسيلةً وسبباً إلى دعائهما إلى التوحيد والإسلام[818].

٤١٤- يوسف يَعْبُرُ للفتيين رؤياهما:

ولما فرغ يوسف من دعوتهما إلى التوحيد والإسلام شرع في تعبير رؤياهما من غير تكرار سؤالهما فقال: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ ﴾[819] أي أمّا أحدكما فسيعود إلى عمله السابق ساقياً للملك، وأمّا الآخرُ فسيصلب، قُطِعَ ما تستفتيان فيه. ولكنَّ يوسف عليه السلام لم يعين الذي ينجو ولم يعيِّن الذي يصلب، لئلاّ يحزن ولهذا أبهمه، ولكنه أعلمهما بأنَّ هذا الأَمْرَ قد فرغ منه وهو واقع لا محالة[820].

٤١٥- يوسف يطلب من الذي ظن أنّهُ ناجٍ أن يذكره عند الملك:

قال تعالى حكاية عما قاله يوسف لأحد الفتيين الذي ظنَّ يوسف أنَّهُ سيخرج من السجن ويعودُ إلى عمله ساقياً للملك: ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾[821] ولمّا ظَنَّ يوسفُ عليه السلام أنَّ الساقي ناج وأنَّه سَيُخرج من السجن، قال له يوسف خفية عن الآخر لئلا يشعر أنه المصلوب، قال له: ﴿ ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ أي اذكر قصتي عند ربك وهو الملك. فنسيَ أَنْ يذكر عند الملك ما أوصاه به يوسفُ عليه السلام، وكان هذا النسيانُ من مكايد الشيطان؛ لئلا يَخْرُجَ نبيُّ الله من السجن[822].

---

(٨١٨) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٧٩.

(٨١٩) سورة يوسف الآية ٤١.

(٨٢٠) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٧٩.

(٨٢١) سورة يوسف، الآية ٤٢.

(٨٢٢) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٧٩.

٤١٦- تعبير يوسف لرؤيا الملك:

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾(٨٢٣).

أي وقال الملك للملأ: إني أرى.. الخ ما رآه في منامه ثم طلب من أشراف قومه وهم الملأ أن يعبروا له رؤياه فقالوا له: أضغاث أحلام أي تخاليطها، والأحلام جمع حلم وهو ما يراه النائم فهو مرادف للرؤيا إلاّ أنها غلبت في رؤيا الخير والشيء الحسن، وغلب الحلم على خلافه، وفي الحديث الذي أخرجه البخاريُّ: «الرؤيا من الله والحلم من الشيطان». وقال الملأ للملك: وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين. وقال الذي نجا وخرج من السجن من الفتيين اللذينِ كانا في السجن مع يوسف، وتذكر بعد مدة: أنا أخبركم بتأويل رؤيا الملك بالتلقي عمن عنده علمه لا من تلقاء نفسي، فابعثوني إلى يوسف. فلما جاءه سأله عن تأويل رؤيا الملك. فقال له: تزرعون سبع سنينِ دَأَباً أي دائبين مواظبين كل عام، فما من حصدتم من الزرع فذروه في سنبلة أي لا تدوسوه فإنه أبقى له إلاّ قليلاً مما تأكلون في تلك السنين يعني بقدر ما تأكلون. ثم يأتي من بعد ذلك أي من بعد السبع المذكورات سبعُ سنينَ صعابٌ على الناس لقوة القحط يأكلن ما قدمتم لهن أي ما رفعتم لهنَّ من الحبوب المتروكة في سنابلها إلاّ قليلاً مما تحصنون أي تحرزون وتخبئون للزراعة. ثم يأتي من بعد ذلك أي من بعد السنين الموصوفة بالشدَّة عام فيه يغاث الناس أي يمطرون وفيه يعصرون أي ما كانوا يعصرونه على عادتهم من العنب والزيتون ونحوهما(٨٢٤).

---

(٨٢٣) سورة يوسف الآيات ٤٣-٤٩.

(٨٢٤) تفسير القاسمي ج٩ ص٢٢٢ - ٢٢٣.

٤١٧- الملك يعجبه تعبير يوسف لرؤياه ويأمر بإخراجه من السجن:

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ ﴾[٨٢٥] لقد أعجب الملكَ تعبيرُ يوسف لرؤياه فأمر بإخراجه من السجن وإحضاره إليه لما علم من علمه وفضله، فلما جاء الرسول إلى يوسف يستدعيه إلى الملك، قال يوسف له: ارجع إلى ربك أي إلى سيدك الملك ﴿ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ أي ما شأنُهن وخبرهن؟ أمره أن يسأله ويستفهمه عن ذلك، ولم يكشف له عن القصة ولا أوضحها له، لأَنَّ السؤال مجملاً مما يهيجُ الملكَ على الكشف والبحث والاستعلام فتظهر براءته. كما أَنَّ يوسف عليه السلام تأنّىٰ ولم يستعجل في إجابة الملك بالخروج من السجن، وقدّم سؤال النسوة ليظهر براءته عما أُتِهِمَ به وسجن من أجله، وليسدّ مجال التقوُّلِ عليه من حساده وأعدائه بادعائهم أنه ما سجن إلاّ لأمر عظيم وجرم كبير مما يوهن منزلته عند الملك. وفيه دليل على أَنَّ الاجتهاد في نفي التهم واجب وجوب اتقاء الوقوف في مواقفها[٨٢٦].

٤١٨- الملك يسأل النسوة عما جرى لهنَّ مع يوسف:

﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ﴾[٨٢٧]. هذا إخبار عن الملك حين جمع النسّوة اللاتي قطعن أيديهن عند امرأة العزيز ومعهن هذه المرأة، فقال مخاطباً لهنَّ كلهنَّ وهو يريد امرأة وزيره وهو العزيز، قال الملك للنسوة اللاّتي قطعن أيديهن: ﴿ مَا خَطْبُكُنَّ ﴾ أي ما شأنكنَّ وخبركنَّ إذ راودتن يوسف عن نفسه يوم الضيافة؟ قلن: حاش لله ما علمنا عليه من سوء، أي قالت النسوة جواباً للملك: حاش لله أن يكون يوسف متهماً، واللهِ ما علمنا عليه من سوء، فعند ذلك: ﴿ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ ﴾ أي الآن تبين الحق وظهر وبرز ﴿ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ أي إنه لمن الصادقين في قوله: هي راودتني عن

---

(٨٢٥) سورة يوسف، الآية ٥٠.

(٨٢٦) تفسير القاسمي ج٩ ص٢٢٤.

(٨٢٧) تفسير سورة يوسف الآية ٥١.

نفسي[828].

٤١٩- تعليل اعتراف امرأة العزيز:

قال تعالى حكاية عما قالته امرأة العزيز تعليلاً وتبريراً لاعترافها على نفسها: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ۝٥٢ ۞ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥٣﴾[829]. تقول امرأة العزيز: إنما اعترفت بهذا على نفسي ليعلم زوجي أني لم أَخُنْهُ بالغيب في نفس الأمر، ولا وقع المحذور الأكبر، وإنما راودت هذا الشاب مراودة فامتنع، فلهذا اعترفت ليعلم أني بريئة. أو اعترفت بهذا ليعلم يوسف أنّي لم أكذب عليه في حال الغيبة، وجئت بالصحيح والصدق فيما سُئلت عنه ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ أي لا يرضاه ولا يسدده. ﴿۞ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ﴾ تقول المرأة: ولست أبرىء نفسي ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ﴾ فإنَّ النفس تتحدث وتتمنىٰ ولهذا راودته، أو تعني: إنّي ما أبّرئُ نفسي من الخيانة، فإني قد خنته عندما اتهمت يوسف بما اتهمته به وأودعته السجن، تريد الاعتذار مما كان منها. بأنَّ كل نفس تأمر بالسوء إلاَّ نفساً رحمها الله بالعصمة كنفس يوسف، إنَّ ربي غفور رحيم[830].

٤٢٠- قال اجعلني على خزائن الأرض:

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ۝٥٤ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ۝٥٥﴾[831] يقول تعالى إخباراً عن الملك حين ثبتت براءة يوسف مما نسب إليه قال: ﴿ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ﴾ أي اجعله من خاصتي وأهل مشورتي ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ﴾ أي خاطبه الملك وعرفه ورأى فضله وبراعته وعلم ما هو عليه من خُلُقٍ وكمالٍ، قال له الملك: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ أي إنك عندنا قد بقيت ذا مكانة وأمانة، فقال يوسف عليه السلام: ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ

---

(٨٢٨) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٨١.

(٨٢٩) سورة يوسف، الآيتان ٥٢، ٥٣.

(٨٣٠) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٨١، تفسير القاسمي ج٩ ص٢٢٧.

(٨٣١) سورة يوسف، الآيتان ٥٤، ٥٥.

﴿ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ أي ولّني خزائن أرضك يعني جميع الغلّات لما يستقبلونه من السنين التي أخبرهم بشأنها، فيتصرف لهم على الوجه الأرشد والأصلح، ثم بيّن يوسف عليه السلام اقتدارهُ في ذلك فقال: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ أي أمين أحفظ ما أُؤتمن عليه عالم بوجوه التصرف فيه(٨٣٢).

٤٢١- وكذلك مكنّا ليوسف في الأرض:

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾(٨٣٣).

أي وكذلك مكنّا ليوسف في أرض مصر ينزل منها حيث يشاء ويتصرف فيها كيف يشاء، وذلك أنه عليه السلام لمّا وّلاه الملك النَظَرَ على خزائن مصر تجول في قطرها وطافَ قراها، والأمر أمره والإشارة إشارته عنايةً منه تعالى ورحمة كما قال: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي الذين أحسنوا عملاً، فما أضعنا صبر يوسف على أذى إخوته وصبره على الحبس بسبب امرأة العزيز، فلهذا أعقبه الله عز وجل العاقبة الحميدة ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ أي ثوابها خير من ثواب الدنيا للمؤمنين المتقين، فما ادّخره تعالى لنبيِّه يوسف عليه السلام في الدار الآخرة أعظم وأكمل وأكثر وأجلّ مما خوله من التصرف والنفوذ في الدنيا، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ المطلب الأعلى هو ثواب الآخرة، وأنَّ ما يدخر الله للمؤمنين المتقين أعظم مما يخوّلونه به في الدنيا من التمكين في الأرض والجاه والثروة والملك(٨٣٤).

٤٢٢- وجاء إخوة يوسف:

قال تعالى: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟

---

(٨٣٢) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٨٢، تفسير القاسمي ج٩ ص٢٤٢.

(٨٣٣) سورة يوسف، الآيتان ٥٦، ٥٧.

(٨٣٤) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٨٢، تفسير القاسمي ج٩ ص٢٤٤-٢٤٥.

بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[٨٣٥].

ولما عمّ القحط البلاد: مصر وما جاورها، جاء الناس يشترون الطعام من مصر، وكان يوسفُ عليه السلام يبيع الطعامَ للناس بثمنه، وهو الذي ادخره وحفظه مدة سنين الخصب، وكان من جملة من ورد إلى مصر للميرة إخوة يوسف، وجاؤوا معهم ببضاعة - فضة - يشترون بها طعاماً، فلما دخلوا على يوسف عرفهم حين نظر إليهم وهم له منكرون، أي لا يعرفونه؛ لأنهم فارقوه وهو صغير وفعلوا فيه ما فعلوه، ولم يخطر ببالهم أنه يصير الآمرَ الناهيَ في توزيع الطعام على الناس في مصر. ثم شرع يخاطبهم، فقال لهم كالمنكر عليهم: ما أقدمكم إلى بلادي؟ فقالوا: أيها العزيز إنا قدمنا للميرة، قال: لعلكم جواسيس، قالوا: معاذ الله. قال: فمن أين أنتم قالوا: جئنا من بلاد كنعان وأبونا يعقوب نبيُّ الله. قال يوسف: وله أولاد غيركم؟ قالوا: نعم كنا اثني عشر فهلك أصغرنا في البرية وكان أحبَّه إلى أبينا وبقي شقيقه فاحتبسه أبوه ليتسلى به عنه، فقال لهم يوسف: ائتوني بهذا الأخ الذي تدّعون حتى أَعْلَمَ صدقكم وأطمئنَّ على أنكم لستم بجواسيس، وإذا لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي أي لاميرة لكم عندي إذا جئتم إلى مصر. قالوا: سنحرص على مجيئه معنا وسنطلب ذلك من أبينا. ولما جَهزّهم يوسف بجهَازهم أعطاهم استحقاقهم من الطعام إذ كان لا يعطي لكل شخص أكثر من حِمْلِ بعيرٍ في السنة، أمر يوسف غلمانه وخدمه بأن يضعوا بضاعتهم التي جاؤوا بها - وهي فضة - ليشتروا بها طعاماً، أمر غلمانه بأن يضعوا هذه البضاعة في أمتعتهم من حيث لا يشعرون لعلهم يرجعون بها إذا رجعوا إلى أهلهم. فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا: يا أبانا منع منا الكيل، أي أُنذرنا بعدم بيعنا أيَّ طعام إذا لم نأت بأخينا ﴿فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ﴾، أي نرفع المانع من الكيل ونشترِ من الطعام ما نحتاج إليه ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ أي من أن يناله مكروه[٨٣٦].

---

(٨٣٥) سورة يوسف الآيات ٥٨-٦٣.

(٨٣٦) تفسير القاسمي ج٩ ص٢٤٧.

٤٢٣- حوار بين يعقوب وبنيه:

قلنا: إنَّ إخوة يوسف لما رجعوا إلى بلدهم أبلغوا أباهم بأنهم أُنذروا بعدم بيعهم أيَّ طعام إذا لم يأتوا بأخيهم وهو شقيق يوسف والذي يبقيه يعقوب عنده دائماً خوفاً عليه، وعلى هذا طلبوا من أبيهم أن يرسله معهم إلى مصر حتى يسهل عليهم شراء الطعام، وتعهدوا لأبيهم بحفظه. فلما سمع أبوهم مقالتهم هذه جرى حوار بينه وبينهم على النحو التالي:-

٤٢٤- أولاً- ما قاله لهم أبوهم:

﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾[٨٣٧]. أي قال لهم يعقوب: هل أقدر أَنْ آخذ عليكم العهد والميثاق أكثر مما أخذت عليكم في يوسف وقد قلتم بشأنه ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ ثم خنتم بضمانكم؟ فما يؤمنني من مثل ذلك؟ فلا أثق بكم ولا بحفظكم، وإنما أفوض الأمر إلى الله ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا﴾ أي منكم ومن كل أحد ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ أي أرحم من والديه وإخوته، فأرجو أن يرحمني بحفظه. وهذا يشعر بميل يعقوب إلى الموافقة على إرساله معهم لما بدا له من المصلحة فيه[٨٣٨].

٤٢٥- ثانياً- ما قالوه لأبيهم:

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾[٨٣٩] أي لما فتح إخوةُ يوسف متاعهم وجدوا بضاعتهم ردّتْ إليهم، وهي التي أمر يوسف فتيانه بوضعها في رحالهم، وبضاعتهم هذه وهي الدراهم التي جاؤوا بها ليشتروا بها الطعام. فلما وجدوا بضاعتهم هذه في متاعهم ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى﴾ أي ماذا نريد ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ أي ماذا نريد وراء هذا، إنَّ بضاعتنا ردت إلينا وقد أُوفي لنا الكيل ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ أي إذا أرسلت أخانا معنا نأتي بالميرة أي نأتي بالطعام إلى

---

(٨٣٧) سورة يوسف الآية ٦٤.

(٨٣٨) تفسير القاسمي ج٩ ص٢٤٨.

(٨٣٩) سورة يوسف، الآية ٦٥.

أهلنا ﴿ وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ﴾ أي لا يصيبه شيءٌ مما تخافه ونزداد باستصحابه معنا حمل بعير؛ لأنَّ يوسف كان يعطي كل رجل حِمْلَ بعير ﴿ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ ﴾ أي سهل على ذلك الوزير- يقصدون يوسف- المحسن لسخائه. أو المعنى: ذلك الذي يكال لنا دون أخينا شيء يسير قليل، فابعث أخانا معنا حتى نتسع ونتكثر بمكيله[٨٤٠].

٤٢٦- ثالثاً- ما قاله لهم أبوهم:

﴿ قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴿٦٦﴾ ﴾[٨٤١]. أي قال لهم أبوهم: لن أرسله معكم بهذه المقالة حتى تؤتوني موثقاً من الله لتأتنَّني به، أي عهداً موثوقاً بالله بسبب القسم بالله عليه لتردنّه عليَّ ﴿ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ ﴾ أي إلاّ أن تُغلبوا كلكم فلا تقدرون على تخليصه وردّه إليّ، ﴿ فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴾ أي الله على ما نقول شهيد، لأنَّ الشهيد وكيل أي موكول إليه هذا العهد، فإنْ وفيتم به جازاكم بأحسن الجزاء، وإن غدرتم فيه كافأكم بأعظم العقوبات[٨٤٢].

٤٢٧- رابعاً- ما قاله لهم أيضاً أبوهم:

﴿ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾[٨٤٣]. يقول تعالى إخباراً عن يعقوب عليه السلام: إنه أمر بنيه لمّا جهزهم مع أخيهم (بنيامين) إلى مصر أن لا يدخلوا كلهم من باب واحد، وليدخلوا من أبوابٍ متفرقة؛ لئلاّ يستلفت دخولهم من باب واحد أنْظارَ من يقف عليه من الجند، ومن يتجسس للحاكم فيرتاب

---

(٨٤٠) تفسير الرازي ج١٨ ص١٧١، تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٨٤.

(٨٤١) سورة يوسف الآية ٦٦.

(٨٤٢) تفسير الرازي ج١٨ ص١٧٢، فسير ابن عطية ج٨ ص٢١، تفسير القاسمي ج٩ ص٢٥٠.

(٨٤٣) سورة يوسف الآية ٦٧.

في أمرهم إذ ليس دخول الجماعة كدخول الفرد[٨٤٤]. والذي عليه جمهور المفسرين أنَّ يعقوب أوصى بنيه أن لا يدخلوا من باب واحد؛ لأنه خاف من العين عليهم، وذلك أنهم كانوا ذوي جمال وهيئة حسنة ومنظر وبهاء، فخشي عليهم أن يصيبهم الناس بعيونهم، فإنَّ العين حق تستزل الفارس عن فرسه[٨٤٥]. وقد قال ﷺ: «إنَّ العين لتُدْخل الرجل القبر والجملَ القدر»[٨٤٦]. وفي تعوذه ﷺ: «أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة وكل عين لامة»[٨٤٧]، وينبغي لمن أعجبه شيء أن يُبرِّك، جاء في تفسير القرطبي «واجب على كل مسلم أعجبه شيء أن يبرّك، فإنه إذا دعا بالبركة صُرِفَ المحذور لا محالة، ألا ترى قوله عليه السلام لعامر بن ربيعة- وقد أعجبه حسن سهل بن حنيف فأصابه بعينه- ألا برّكتَ، فدلَّ على أنَّ العينَ لا تضر إذا برّك العائن، وإنما تضر إذا لم يبرّك. والتبريك أن يقول: تبارك الله أحسن الخالقين، اللهم بارك فيه»[٨٤٨]. ﴿وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ وقال لهم أيضاً أبوهم: إنَّ هذا الاحتراز بطلبي منكم الدخول من أبواب متفرقة لا من باب واحد لا يردُّ قدر الله وقضاءه، فإنَّ الله إذا أراد شيئاً لا يخُالَفُ ولا يمانَعُ، وإنَّ الحذر لا يمنع القدر ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أي الأمر والقضاء لله، فلا يشاركهُ أحد ولا يمانعه شيء في أمره وقضائه، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ أي عليه اعتمدت وبه وثقتُ، وعليه فليعتمد المؤمنون والمتوكلون[٨٤٩].

(٨٤٤) تفسير القاسمي ج٩ ص٢٥٠-٢٥١.
(٨٤٥) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٨٤.
(٨٤٦) أخرجه ابن عدي في الكامل وأبو نعيم في الحلية: هامش (١) من صفحة ٢٠ من تفسير ابن عطية ج٨.
(٨٤٧) تفسير ابن عطية ج٨ ص٢١ وجاء في هامش (١) من هذه الصفحة: أخرجه البخاري في الأنبياء، وأبو داود في السنّة والترمذيُّ في الطب وكذلك ابن ماجه في الطب، والإمام أحمدُ في مسنده ولفظه فيه أنّ رسول الله ﷺ كان يعّوذ حسناً وحسيناً بهذه التعويذة.
(٨٤٨) تفسير القرطبي ج٩ ص٢٢٧.
(٨٤٩) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٨٤، تفسير القاسمي ج٩ ص٢٥١.

٤٢٨- الأخذ بالأسباب ووقوع المقدور:

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾[٨٥٠] قال المفسرون: لما قال يعقوب: وما أغني عنكم من الله من شيء، صدقه الله في ذلك فقال تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾، أي أنَّ دخولهم متفرقين ما كان يرد قضاء الله ولا أمراً قدرّه الله، قال الزجاج: لوقدر أن تصيبهم العين لأصابتهم وهم متفرقون كما تصيبهم وهم مجتمعون، فالحذر لا يدفع القدر. أما قوله تعالى: ﴿إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾ فإنه استثناء منقطع، والمعنى: لكن حاجة في نفس يعقوب، يعني أنَّ الدخول على صفة التفرق قضاءُ حاجةٍ في نفس يعقوب قضاها، وهذه الحاجة: خوفه عليهم من إصابة العين. ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ أي إنَّ يعقوب لذو علم بأمر دينه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يعلمون ما يعلم يعقوب من أمر دينه[٨٥١].

٤٢٩- دخول إخوة يوسف عليه:

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾[٨٥٢] يخبر سبحانه وتعالى بأنَّ إخوة يوسُفَ لما قدموا عليه ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ أي أنزله في الموضع الذي كان يأوي إليه، وأعلمه أنه أخوه، وقال له: لا تبتئس أي لا تحزن بما كانوا يعملون بنا فيما مضى فإنَّ الله تعالى قد أحسن إلينا وجمعنا على الخير[٨٥٣].

٤٣٠- جعل السقاية في رحل أخيه:

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ

---

(٨٥٠) سورة يوسف، الآية ٦٨.

(٨٥١) تفسير الرازي ج١٨ ص١٧٦، تفسير القرطبي ج٩ ص٢٢٩.

(٨٥٢) سورة يوسف الآية ٦٩.

(٨٥٣) تفسير الرازي ج١٨ ص١٧٧، تفسير القاسمي ج٩ ص٢٥٧.

﴿لَسَٰرِقُونَ ۝٧٠ قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ۝٧١ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ ۝٧٢﴾[٨٥٤]. أي لمّا جهزهم يوسف بجهازِهِمْ من الطعام جعل يوسف السقاية في رحل أخيه حيث لم يطلع عليه أحد. ثم أذنَّ مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون، أي نادى منادٍ وأَعْلَمَ: يا أصحاب العير إنكم لسارقون. قالوا، أي إخوة يوسف: ماذا تفقدون؟ قالوا: نفقد صُواعَ الملك، أي صاعه الذي يكيل به ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم: أي كفيل وضامن. هذا وإنَّ السقاية هي الإناء الذي كان يشرب به الملك أو يوسف وبه كان يكيل الطعامَ للناس، والسقاية والصواعُ والمكيال شيء واحد[٨٥٥].

٤٣١- إخوة يوسف ينكرون سرقة صواع الملك:

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾[٨٥٦] قال إخوة يوسف مقسمين بالله تعالى على أمرين: (الأول) أنهم ما جاؤوا للإفساد في الأرض، (والثاني) أنهم ما كانوا سارقين[٨٥٧].

٤٣٢- حوار فتيان يوسف مع إخوته:

﴿قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ۝٧٤ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧٥﴾[٨٥٨] أي قال فتيان يوسف لإخوته: فما جزاؤه أي السارق إن كنتم كاذبين؟. قال إخوة يوسف: جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه، أي جزاء سرقته أخذ من وجد في رحله رقيقاً، أي فأخذُهُ جزاؤه لا غيره. ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي بالسرقة، أي استعباد السارق هو جزاء سرقته[٨٥٩].

---

(٨٥٤) سورة يوسف، الآيات ٧٠-٧٢.

(٨٥٥) تفسير الرازي ج١٨ ص١٧٨-١٧٩، تفسير ابن عطية ج٨ ص٢٨، تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٨٥.

(٨٥٦) سورة يوسف الآية ٧٣.

(٨٥٧) تفسير الرازي ج١٨ ص١٨٠.

(٨٥٨) سورة يوسف الآيتان ٧٤، ٧٥.

(٨٥٩) تفسير القاسمي ج٩ ص٢٥٩.

٤٣٣- يوسف يفتش أوعية إخوته قبل وعاء أخيه:

﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾(٨٦٠). أي فبدأ يوسف بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرج السقاية من رحل أخيه، كذلك دبرنا الأمر ليوسُفَ لتحصيل غرضه بإبقاء أخيه بنيامين معه، إذ ما كان يمكن ليوسف أن يأخذ أخاه بحجة سرقته في دين الملك أي بشرعه وقانونه، ﴿ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ يعني أنَّ ذلك الأمر كان بمشيئة الله وتدبيره حتى جرى الأمر وفق المراد. ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ﴾ أي بالعلم كما رفعنا يوسف عليه السلام بالعلم، وفوق كل ذي علم عليم(٨٦١).

٤٣٤- ما قاله إخوة يوسف بعد استخراج الصواع من رحل أخيه:

﴿ ۞ قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾(٨٦٢). أي لما أخرج الصواع من رحل أخي يوسف نكس إخوتُه رؤوسهم وقالوا ليوسف: إنَّ هذا الأمر ليس بغريب منه، فإنَّ أخاه الذي هلك كان أيضاً سارقاً، وكان غرضهم من هذا الكلام أنَّا لسنا على طريقته ولا على سيرته، وهو وأخوه مختصان بهذه الطريقة؛ لأنهما من أم أخرى. ﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ﴾ يعني الكلمة التي بعدها وهي قوله: ﴿ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ أي تذكرون، قال هذا في نفسه ولم يبده لهم(٨٦٣).

٤٣٥- خذْ أحدنا مكانه:

﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ

---

(٨٦٠) سورة يوسف الآية ٧٦.

(٨٦١) تفسير القاسمي ج٩ ص٢٥٩.

(٨٦٢) سورة يوسف الآية ٧٧.

(٨٦٣) تفسير الرازي ج١٨ ص١٨٣، تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٨٦.

﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[٨٦٤] لما تعين أخذُ بنيامين وإبقاؤه عند يوسف بمقتضى فتواهم، وهي أَنَّ مَنْ وُجِد المسروق في رحله فجزاؤه أن يُستَرقَّ طفِقوا يتوسلون إلى يوسف ليعطف عليهم ويقبل منهم اقتراحهم بأَنْ يأخذ واحداً منهم يسترقُّه عنده بدلاً وعوضاً عن بنيامين، لأنَّ له أَبَاً شيخاً كبيراً يحبه حباً شديداً لا يقوى على فراقه، ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي إلينا فأتمم إحسانك إلينا بأن تجيب طلبنا والتماسنا[٨٦٥].

٤٣٦- يوسف يرفض التماس إخوته:

﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ۝٧٩﴾[٨٦٦] أي قال يوسف عليه السلام: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ أي أعوذ بالله معاذاً أن نأخذ إلاّ من وجدنا متاعنا عنده، أي أعوذ بالله أن آخذ بريئاً بمذنب ﴿إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ﴾ أي إنا إذن لظالمون إن أخذنا بريئاً بمذنب، أي لقد تعديت وظلمت إن آذيت إنساناً بجرم غيره[٨٦٧].

٤٣٧- ما فعلوه بعد رفض التماسهم:

﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨٠ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ۝٨١ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ۝٨٢﴾[٨٦٨].

يخبر تعالى عن إخوة يوسف أنهم لما يئسوا من تخليص أخيهم بنيامين لرفض يوسف أن يأخذ أحدهم مكانَه ﴿خَلَصُوا۟﴾ أي انفردوا عن الناس ﴿نَجِيًّا﴾ يتناجون فيما بينهم ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ أي أخوهم الأكبر في السن: ألم تعلموا أنَّ أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله لتردّنّهُ إليه، فقد رأيتم كيف تعذر عليكم ذلك مع ما تقدم لكم من

---

(٨٦٤) سورة يوسف الآية ٧٨.

(٨٦٥) تفسير القاسمي ج٩ ص٢٦٠-٢٦١.

(٨٦٦) سورة يوسف الآية ٧٩.

(٨٦٧) تفسير الرازي ج١٨ ص١٨٦.

(٨٦٨) سورة يوسف الآيات ٨٠-٨٢.

إضاعة يوسف عنه ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ ﴾ أي لن أفارق هذه البلدة ﴿ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ ﴾ في الرجوع إليه راضياً عني ﴿ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ﴾ أي أو يحكم الله لي بالخروج من مصر أو بخلاص أخي بسببٍ ما، ﴿ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ لأنه لا يحكم إلاّ بالحق والعدل. ثم أمرهم أخوهم الكبير بأن يخبروا أباهم بما جرى فقال لهم: ﴿ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ ﴾ أي نسبَ إلى سرقة صواع الملك ﴿ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا ﴾ أي ما شهدنا عليه بالسرقة إلاّ بما تيقناه من إخراج الصواع من رحله ﴿ وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴾ أي: وما علمنا أنه سيسرق حين أعطيناك الموثق ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا ﴾ أي مصر، أي أرسل إلى أهلها فاسألهم عما وقع ﴿ وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾ أي واسأل القافلة التي جئنا معها، اسألها عن أمانتنا وصدقنا وحفظنا لأخينا ﴿ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ فيما أخبرناك به من أنه سرق وأخذوه بسرقته(٨٦٩).

٤٣٨- جواب يعقوب على مقالة أولاده:

فلما سمع يعقوب مقالة أولاده بشأن أخيهم (بنيامين) واعتذارهم عمّا وقع وبراءتهم مما وقع لأخيهم، لم يصدّقهم يعقوب لسابقتهم مع أخيهم يوسف، فقال ما أخبرنا الله به: ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ ﴾ أي زينت وسهلت لكم أنفسكم أمراً ففعلتموه، فصبرٌ جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً، أي يأتيني بيوسف وأخيه بنيامين وأخيهم الكبير الذي بقي في مصر(٨٧٠).

٤٣٩- حال يعقوب بعد هذه المصيبة:

قال تعالى عن يعقوب: ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ ﴾ أي وأعرض يعقوب عن بنيه كراهة لما جاؤوا به ﴿ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ أي يا حزني الشديد على يوسف ﴿ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ ﴾

---

(٨٦٩) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٨٧، تفسير الرازي ج١٨ ص١٨٦-١٩١، تفسير القاسمي ج٩ ص٢٦١-٢٦٤.

(٨٧٠) تفسير ابن كثير ج٢ ص٢٦٤، تفسيرالقاسمي ج٩ ص٢٦٤، وآية ﴿قال بل سولت.﴾ في سورة يوسف ورقمها ٨٣.

أي ابيضت عيناه من ملازمة البكاء الذي هو ثمرة الحزن ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ بمعنى كاظم وهو الممسك على حزنه فلا يظهره. ووصف يعقوب عليه السلام بذلك؛ لأنه لم يشكُ إلى أحد وإنما كان يمسك همه وحزنه في صدره، وكان يكظمه أي يردّ حزنَه أو همّه إلى قلبه ولا يظهره بالشكوى والغضب والضجر(٨٧١).

٤٤٠- خوف أولاد يعقوب عليه من الهلاك:

قال تعالى حكاية عما قاله أولاد يعقوب له: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾﴾ أي قال أولاد يعقوب لأبيهم على سبيل الشفقة عليه: لا تزال تذكر يوسف حتى تكون حرضاً أي مشرفاً على الهلاك مرضاً ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾ أي بالموت. والمعنى إن استمر بك هذه الحال من تذكرك يوسف وحزنك عليه عرضت نفسك إلى الهلاك، أو أنك تهلك فعلاً بالموت وهذا ما نخشاه عليك(٨٧٢).

٤٤١- إنما أشكو بثي وحزني إلى الله:

قال تعالى عما قاله يعقوب: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾(٨٧٣) قال يعقوب عليه السلام رداً على ما قاله له أولاده تخوفاً عليه من الهلاك حزناً على يوسف ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي أشكو همي وحزني وحالي وما أنا فيه إلى الله تعالى، لا أشكو إلى أحد منكم ومن غيركم، إنما أشكو إلى ربي داعياً له وملتجئاً إليه ليفرج همي وما أنا فيه. وقوله: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي أعلم من رحمته وحسن ظني به أن يأتيني بالفرج من حيث لا احتسب(٨٧٤). وحقيقة الشكوى إظهار بث النفس، وبث النفس يعني ما

---

(٨٧١) تفسير ابن عطية ج٨ ص٥٠-٥١، تفسير الرازي ج١٨ ص١٩٦، تفسير القاسمي ج٩ ص٢٦٦-٢٦٧، وآية ﴿وتولى عنهم..﴾ رقمها ٨٤ في سورة يوسف.

(٨٧٢) تفسير الزمخشري ج٢ ص٤٩٩، وتفسير القاسمي ج٩ ص٢٦٨ والآية في سورة يوسف ورقمها ٨٥.

(٨٧٣) سورة يوسف الآية ٨٦.

(٨٧٤) تفسير الزمخشري ج٢ ص٤٩٩، وتفسير القاسمي ج٩ ص٢٨٨.

انطوت عليه من الغم أو السّرّ[٨٧٥]. والشكوى إلى الله جائزة، ومشروعة ولهذا حكاها الله تعالى عن يعقوب عليه السلام دون إنكار، فدلّ على مشروعيتها. ولأنَّ الشكوى إلى الله تتضمن دعاء الشاكي ربه وطلبه منه أن يكشف عنه الغم الذي هو فيه، ودعاءُ العبد ربه وطلبهُ منه من الأمور المشروعة، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾[٨٧٦] أما الشكوى إلى غير الله فغير جائزة، لأنَّ الشاكي إن أراد بشكواه رفع الضر عنه، فالله وحده هو القادر على ذلك قال تعالى: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ﴾ وإن كان بشكواه يريد التفجع والتضجر أو التظلم مما ابتلاه الله به فهذا حرام وخطيئة كبيرة. جاء في تفسير الزمخشري دخل على يعقوب جاره فقال له: يا يعقوب قد تهشمت وفنيت. فقال يعقوب: هشمني وأفناني ما ابتلاني الله به من هم يوسف. فأوحى الله إليه: يا يعقوب أتشكوني إلى خلقي؟ قال: يا رب خطيئة أخطأتُها فاغفر لي فغفر له[٨٧٧].

٤٤٢- ولا تيأسوا من روح الله:

قال تعالى حكاية عما قاله يعقوب لبنية: ﴿ يَٰبَنِىَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾[٨٧٨] لما شعر يعقوب عليه السلام بقرب وجدان يوسف ولقائه به بناء على رؤياه الصادقة وما تستلزمه من لقائه به وسجوده وسجود إخوته له، قال لبنيه: اذهبوا إلى الأرض التي جئتم منها وتركتم أخويكم فيها، فتحسسوا خبراً من أخبار يوسف، واستعلموا بعض أخباره وأخبار أخيه ﴿ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ ﴾ أي من فرجه ورحمته المريحة من الشدة ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَٰفِرُونَ ﴾ أي الكافرون بالله ورحمته وقدرته على إفاضة الرَّوْحِ بعد مضي المدة في الشدة، وسنته تعالى في إفاضة اليسر بعد

---

(٨٧٥) مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني ص٣٤، ٢٧٣.

(٨٧٦) سورة البقرة، الآية ١٨٦.

(٨٧٧) تفسير الزمخشري ج٢ ص٤٩٩. وحكى الإمام ابن عطية عن الطبري شبيهاً بهذه القصة عن يعقوب انظر تفسير ابن عطية ج٨ ص٥٦.

(٨٧٨) سورة يوسف الآية ٨٧.

العسر لا سيما في حق من أحسن الظن به[٨٧٩].

٤٤٣- دخولهم على يوسف:

﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾[٨٨٠] أي فلما دخل إخوة يوسف عليه بعدما رجعوا إلى مصر، ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ ﴾ أي الشدة من الجدب والقحط ﴿ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ ﴾ أي بدراهم قليلة في مقابلة ما نأخذه من الطعام ﴿ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ ﴾ أي أتممه ووفره بهذه الدراهم المزجاة كما توفره بالدراهم الجياد الكثيرة ﴿ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ ﴾ أي بردّ أخينا أو بإيفاء الكيل أو بالمسامحة وقبول ما لا يُعَدُّ عوضاً ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ أي يثيبهم أحسن الثواب[٨٨١].

٤٤٤- يوسف يكشف شخصيته لإخوته:

﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾[٨٨٢] لما رأى يوسف إخوته قد تضرعوا إليه ووصفوا ما هم عليه من الشدة والضيق وطلبوا التصدق عليهم أدركته الرِّقةُ فصرح حينئذ بأنه يوسف. وقوله ﴿ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ ﴾ استفهام يفيد تعظيم الواقعة، ومعناه: ما أعظم ما ارتكبتم في يوسف وما أقبح ما أقدمتم عليه، وهو كما يقال للمذنب هل تدري من عصيت وهل تعرف من خالفت؟ ﴿ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴾ فهذا كالاعتذار عنهم، وهذا من تلطفه بهم، لأن فعل القبيح على جهل بمقدار قبحه أسهل من فعله على علم بقبحه[٨٨٣].

٤٤٥- عاقبة التقوى والصبر:

﴿ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ

---

(٨٧٩) تفسير الرازي ج١٨ ص١٩٨، تفسير القاسمي ج٩ ص٢٩٦.

(٨٨٠) سورة يوسف، الآية ٨٨.

(٨٨١) تفسير القاسمي ج٩ ص٢٦٩.

(٨٨٢) سورة يوسف الآية ٨٩.

(٨٨٣) تفسير القاسمي ج٩ ص٢٧١.

﴿وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾[٨٨٤].

قال إخوة يوسف لأنت يوسف؟ لأَنَّ ما ذكّرهم بفعلهم بيوسف لا يعلمه إلا هم ويوسف، فقال لهم: أنا يوسف الذي فعلتم به ما فعلتم ﴿وَهَٰذَآ أَخِي﴾ أي شقيقي ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ﴾ بالخلاص مما ابتلينا به وبالاجتماع بعد الفرقة، وبالعزة بعد الذلة، وبالأُنس بعد الوحشة. ثم علل ذلك بقوله ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ﴾ أي يتقي ربه في جميع أحواله ﴿وَيَصْبِرْ﴾ أي على الضراء وعن المعاصي، فإنَّ الله لا يضيع أجرهم لأنَّ المتقين الصابرين يوصفون بالإحسان[٨٨٥].

٤٤٦- اعتراف إخوة يوسف بذنبهم:

﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾﴾[٨٨٦] قال إخوة يوسف حالفين له بالله، إنَّ الله فضّلك بما ذكرت من التقوى والصبر ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ أي وإنَّ شأننا وحالنا أنا كنا متعمدين ارتكاب الذنب والمعصية بحقك، فلم نتق الله ولم نصبر ففعلنا بك ما فعلنا، ولذلك فضّلكَ الله علينا ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ والخاطىء هو المتعمد للخطأ، والمخطىء من أخطأ وهو الذي قصد الصواب فلم يُوَفَّقْ إليه[٨٨٧].

٤٤٧- كرم يوسف وعفوه عن إخوته:

﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾[٨٨٨] أي قال يوسف لإخوته: لا تعيير ولا توبيخ ولا تقريع ولا لوم عليكم اليوم، ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ دعا الله لهم بالمغفرة والرحمة[٨٨٩]. وهذا كرم عظيم وحِلْمٌ واسع من يوسف عليه السلام.

---

(٨٨٤) سورة يوسف الآية ٩٠.

(٨٨٥) تفسير القاسمي ج٩ ص٢٧٢.

(٨٨٦) سورة يوسف الآية ٩١.

(٨٨٧) تفسير ابن عطية ج٨ ص٦٨، تفسير القاسمي ج٩ ص٢٧٢، تفسير القرطبي ج٩ ص٢٥٧.

(٨٨٨) سورة يوسف الآية ٩٢.

(٨٨٩) تفسير القرطبي ج٩ ص٢٥٧.

٤٤٨- إرسال يوسف قميصَه إلى أبيه:

﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾[٨٩٠] أراد يوسف عليه السلام تبشير أبيه بحياته وإدخال السرور عليه بإرسال قميصه إليه وإلقائه على وجهه بمعنى المبالغة في تقريب القميص منه ﴿يَأْتِ بَصِيرًا﴾ أي يصير بصيراً، ويقال: المراد يأتي إلي وهو بصير، وإنما أفرده بالذكر تعظيماً له وقال في الباقين ﴿وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي بجميع بني يعقوب[٨٩١].

٤٤٩- إني لأجد ريح يوسف:

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾﴾[٨٩٢] أي ولما خرجت العير - وهي الجمال التي تحمل الميرة أي الطعام - من مصر، قال أبوهم أي يعقوب عليه السلام لمنْ حضر عنده من أهله وقرابته وولد ولده: ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ أي لأشم ريح يوسف ﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ أي لولا أن تنسبوني إلى الخرف أي إلى ضعف العقل من الهرم والكبر ولولا ذلك لصدقتموني[٨٩٣]، ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾[٨٩٤] أي قالوا ليعقوب وهم حفدته ومن كان عنده: تالله إنك لفي خطأك القديم وحبك القديم ليوسف لا تنساه ولا تسلوه، وإنما خاطبوه بذلك لاعتقادهم أنَّ يوسف قد مات[٨٩٥].

---

(٨٩٠) سورة يوسف الآية ٩٣.

(٨٩١) تفسير الرازي ج١٨ ص٢٠٦، تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٨٩.

(٨٩٢) سورة يوسف، الآية ٩٤.

(٨٩٣) تفسير الرازي ج١٨ ص٢٠٧-٢٠٨، معجم مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني ص٣٦٦.

(٨٩٤) سورة يوسف الآية ٩٥.

(٨٩٥) تفسير الرازي ج١٨ ص٢٠٨.

٤٥٠- وجاء البشير:

قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٩٦﴾[٨٩٦] أي فلما جاء المخبر بما يَسُرُّهُ من أمر يوسف ﴿أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ أي طرح البشير القميص على وجه يعقوب فارتد بصيراً أي فعاد بصيراً ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي أعلم أَنَّ يوسف حي بدلالة رؤياه وأعلم أنَّ الله تعالى سيرده إليَّ[٨٩٧].

٤٥١- إنَّا كنا خاطئين:

﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ۝٩٧﴾[٨٩٨] أي فلما رجع إخوة يوسف من مصر ووصلوا إلى أبيهم، قالوا لأبيهم: يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا، وإنما سألوه المغفرة؛ لأنهم أدخلوا عليه من ألم الحزن ما لم يسقط المأثم عنه إلاّ بإحلاله[٨٩٩]. كذلك سألوا أباهم أن يطلب لهم المغفرة من الله تعالى لما فرط منهم في حق يوسف وفي حقه[٩٠٠]، لأنَّ في هذا التفريط تفريطاً في حقِّ الله عليهم بأنْ لا يفعلوا ما فعلوه لما فيه من اعتداء وظلم وتجاوز لحدود الله، فقال لهم يعقوب عليه السلام: ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩٨﴾[٩٠١]. أي سوف أدعوه لكم فإنه المتجاوز عن السيئات الرحيم لمن تاب. وقد روي أنه أخرَّ الاستغفار لهم إلى السحر ويقويّ هذا التأويلَ قولُ النبي ﷺ: «ينزل ربنا كُلَّ ليلة إذا كان الثلث الآخر إلى سماء الدنيا فيقول: من يدعوني فأستجيبَ له؟ من يستغفرني فأَغفرَ له..» ويقوى هذا التأويلَ أيضاً قولُه تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ وتخصيصُ الأوقات الفاضلةِ بالاستغفار والدعاء معروف في شِرْعَةَ الإسلام، ومنه

---

(٨٩٦) سورة يوسف الآية ٩٦.

(٨٩٧) تفسير الرازي ج١٨ ص٢٠٩، تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٩٠.

(٨٩٨) سورة يوسف الآية ٩٧.

(٨٩٩) تفسير القرطبي ج٩ ص٢٦٢.

(٩٠٠) تفسير ابن عطية ج٨ ص٧٧.

(٩٠١) سورة يوسف الآية ٩٨.

الاستغفار في السحر وعقب الصلاة وعند الأذان وبينه وبين الإقامة. . الخ[٩٠٢].

٤٥٢- وصول يعقوب وأهله إلى يوسف:

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾[٩٠٣]. أي فرحل يعقوب بأهله أجمعين وساروا حتى بلغوا يوسف، فلما دخلوا عليه ﴿ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ ﴾ أي ضمّهما واعتنقهما وأظهر الحفاوة بهما، وقال لهما ولمن جاء معهما من أهله: ﴿ ٱدْخُلُوا مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ أي تمكنوا واسكنوا واستقروا في مصر إن شاء الله آمنين، فالاستثناء عائد إلى الأمن لا إلى دخول مصر، والمعنى ادخلوا مصر آمنين إن شاء الله، ومعنى (آمنين) يعني آمنين على أنفسكم وأموالكم وأهليكم لا تخافون أحداً[٩٠٤].

٤٥٣- تحقق رؤيا يوسف:

قال تعالى: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا . . ﴾[٩٠٥] أي أجلس يوسفُ أبويه معه على العرش أي على السرير الذي كان يجلس عليه يوسف، ﴿ وَخَرُّوا لَهُۥ سُجَّدًا ﴾ أي سجد له أبواه وإخوته الباقون وكانوا أَحد عشر رجلاً. ﴿ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ ﴾ أي التي رآها يوسف من قبل وقصّها على أبيه، وكان هذا السجود سائغاً في شرائعهم، إذا سلموا على الكبير يسجدون له، ولم يزل هذا جائزاً من لدن آدَمَ عليه السلام إلى شريعة عيسى عليه السلام، فحرم الله هذا النمط - أي السجود - من التحية في الشريعة الإسلامية، وجعل السجود مختصاً بجناب الرب جلّ جلاله. وفي الحديث أنَّ معاذاً قدم الشام فوجدهم يسجدون لأساقفهم فلما رجع سجد للنبي ﷺ فقال: «ما هذا يا معاذ؟» فقال: إني رأيتهم يسجدون لأساقفتهم، وأنت أحق أن يسجد لك يا رسول الله، فقال ﷺ: «لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرتُ المرأة أَنْ تسجد لزوجها

---

(٩٠٢) تفسير ابن عطية ج٨ ص٧٧-٧٨، تفسير القاسمي ج٩ ص٢٧٨.

(٩٠٣) سورة يوسف الآية ٩٩.

(٩٠٤) تفسير الرازي ج١٨ ص٢١١، تفسير ابن عطية ج٨ ص٧٨-٧٩.

(٩٠٥) سورة يوسف الآية ١٠٠.

لعظم حقه عليها». والغرض أنَّ هذا كان جائزاً في شريعتهم، ولهذا خروا له سجداً فعندها قال يوسف: ﴿ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ ﴾ أي هذا ما آل إليه أمر رؤياي، فإنَّ التأويل يطلق على ما يصير إليه الأمر[٩٠٦].

٤٥٤- يوسف يذكر إحسان الله إليه:

قال تعالى مخبراً عما قاله يوسف بعد أن رفع أبويه على العرش: ﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ﴾[٩٠٧] ذكر يوسف نعم الله عليه وإحسانَهُ به، فذكر نعمة الله عليه وإحسانَهُ إليه بإخراجه من السجن، ولم يذكر إخراجه من الجبّ استعمالاً للكرم مع إخوته، لئلا يذكّرهم بقبيح صنيعهم معه بعد عفوه عليهم بقوله لهم: ﴿ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ ﴾ وأيضاً فإنه خرج من الجبّ إلى الرق، ولما خرج من السجن آل أمره إلى السلطة والملك، فالنعمة بالإخراج من السجن أوضح وأقرب أن تكون إنعاماً كاملاً. ﴿ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ ﴾ أي وجاء بكم من البادية وأسكنكم الحاضرة مع جمع الشمل والانتقال من الشقاوة إلى النعمة بسكنى الحاضرة[٩٠٨].

٤٥٥- إكرام يوسف لإخوته وذكره لطف الله به وبأهله:

قال تعالى مخبراً عما قاله يوسف لأبويه وإخوته وبعد أن ذكر إحسان الله إليه بإخراجه من السجن ومجيئهم من البادية ﴿ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[٩٠٩]. قول يوسف: ﴿ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾ أي من بعد أن أفسد الشيطان بيني وبين إخوتي بالحسد، وأسنده إلى الشيطان لأنه بوسوسته وإلقائه، وفي هذا الإسناد إلى الشيطان إكرامٌ من يوسف لإخوته بعدم تثريبهم ولومهم على ما فعلوه به[٩١٠]. وقوله: ﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ والمعنى أنَّ حصول الاجتماع بين يوسف وبين أبيه وإخوته مع الإلفة والمحبة وطيب العيش وفراغ البال ونسيان الماضي وعدم الالتفات إلى ما

---

(٩٠٦) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٩١.

(٩٠٧) سورة يوسف من الآية ١٠٠.

(٩٠٨) تفسير القرطبي ج٩ ص٢٦٧، تفسير ابن عطية ج٨ ص٨٣.

(٩٠٩) سورة يوسف الآية ١٠٠.

(٩١٠) تفسير القرطبي ج٩ ص٢٦٧.

حدث وما تسبب به إخوة يوسف، كل ذلك كان حصوله في غاية البعد في حساب العقول بل وما كان يخطر بالبال، وإذا قدر وروده بالبال وبالخاطر فإنه ما كان يُعرَف كيف يحصل، إلاّ أنّه سبحانه وتعالى لطيف فإذا أراد حصول شيءٍ سهلّ أسبابه فحصل، وإن كان في غاية البعد عن الحصول، وقال الخطابي: اللطيف هو البرّ بعباده الذي يلطف بهم من حيث لا يعلمون ويسبب لهم مصالحهم من حيث لا يحتسبون ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ أي إنَّ كونَهُ لطيفاً في أفعاله إنما كان لأجل أنه عليم بجميع الاعتبارات الممكنة فيكون عالماً بالوجه الذي يسهل تحصيل ذلك المطلوب وإن كان صعباً. وحكيم أي حاكم في قضائه حكيم في أفعاله مُبَرَّأً عن العبث والباطل[911].

٤٥٦- توفني مسلماً وألحقني بالصالحين:

دعا يوسف ربه بما أخبرنا به بقوله تعالى: ﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾[912] أي أعطيتني بعضاً عظيماً من ملك مصر وعلمتني تعبير الرؤيا، ﴿ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي مبدعهما وخالقهما، ﴿ أَنتَ وَلِىِّۦ ﴾ أي أنت ناصري ومالك أموري ﴿ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا ﴾ أي توفني إذا حان أجلي على الإسلام ﴿ وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ من النبيين والمرسلين. دعا يوسف عليه السلام بهذا الدعاء لما تمت نعمة الله عليه باجتماعه بأبويه وإخوته، وما آثره الله به من العلم والملك، فسأل ربَّه عز وجل، كما أتمَّ عليه نعمته في الدنيا أن يحفظها عليه باقي عمره حتى إذا حان أجله قبضه على الإسلام وألحقه بالصالحين، فليس في دعائه تمنٍّ للموت ولا طلب له حالاً وإنما فيه تمني موته على الإسلام إذا حان أجله[913].

---

(٩١١) تفسير الرازي ج١٨ ص٢١٦.

(٩١٢) سورة يوسف الآية ١٠١.

(٩١٣) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٩٢، تفسير ابن عطية ج٨ ص٨٦-٨٧، تفسير القاسمي ج٩ ص٢٨١.

٤٥٧- قصة يوسف مما أوحاه الله لنبيه ﷺ:

قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾[٩١٤] يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ لما قصَّ عليه نبأ إخوة يوسف وكيف رفعه الله عليهم وجعل له العاقبة والنصر والملك والحكم مع ما أرادوا به من السوءِ والهلاك، فهذا وأمثاله يا محمد من أنباء الغيوب السابقة نوحيه إليك ونعلمُكَ به يا محمد لما فيه من العبرة لك والاتعاظ لمن خالفك ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ أي حاضراً عندهم ولا مشاهِداً لهم ﴿إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ﴾ أي على إلقائه في الجب ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ به إذ حثوه على الخروج معهم، وبأبيهم في استئذانه ليرسله معهم أي فلم تشاهده ولكنا أعلمناك به وحياً إليك وإنزالاً عليك[٩١٥].

٤٥٨- وما تسألهم عليه من أجر:

قال تعالى: ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾[٩١٦]. أي وما أكثر الناس ولو حرصت أي جهدت كل الجهد على إيمانهم وبالغت في إظهار الآيات القاطعة الدالة على صدقك، بمؤمنين[٩١٧] وما تسألهم عليه من أجر أي وما تسألهم على هذا النصح والدعاء إلى الخير والرشد من أجرة ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي ما هو، يعني القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ أي عظة لهم، يتذكرون به ويهتدون وينجون في الدنيا والآخرة. يعني أنَّ هذا القرآن يشتمل على العظة البالغة، وأنتَ لا تطلب في تلاوته عليهم مالاً ولاجعلاً، فلو كانوا عقلاءَ لقبلوا ولم يتمردوا[٩١٨].

٤٥٩- لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب:

أي كان في قصص يوسف وإخوته أو في قصص الأنبياء وأممهمْ عبرة وعظة

---

(٩١٤) سورة يوسف، الآية ١٠٢.

(٩١٥) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٩٣.

(٩١٦) سورة يوسف الآيتان ١٠٣ و١٠٤.

(٩١٧) تفسير القاسمي ج٩ ص٢٨٦.

(٩١٨) تفسير القاسمي ج٩ ص٢٨٦.

الأصحاب العقول. ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ ﴾ أي ما كان القرآن حديثاً يُختَلَقُ ﴿ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أي لكن هو تصديقُ الذي بين يديه أي ما كان قبله من التوراة والإنجيل وسائر كتب الله ﴿ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ مما يحتاج العباد إليه من الحلال والحرام والشرع والأحكام ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾(٩١٩).

(٩١٩) تفسير القرطبي ج٩ ص٢٧٧.

المبحث الثاني
ما يستفاد من قصة يوسف
للدعوة والدعاة

٤٦٠- أولاً - الكتمان والتحذير من شخص بعينه:

يبدو أن يعقوب عليه السلام كان على علم بتأويل الرؤى، يدلُّ على ذلك أنه لما سمع رؤيا ابنه يوسف علم ما تدل عليه من مكانة رفيعة سيصل إليها يوسف ولهذا منعهُ من أن يقص رؤياه على إخوته معللاً ذلك بخوفه عليه من كيدهم له، أي من احتيالهم في إهلاكه إذا سمعوا الرؤيا وعلموا ما تدل عليه، وبأنَّ الشيطان لعداوته للإنسان يغريهم على الكيد ليوسف ولو أنه أخوهم. وعلى هذا فينبغي للدعاة وللجماعة المسلمة كتمان الوقائع والفضائل عمن يُخشَى ضرره ولو كان قريباً أو صديقاً أو عضواً في الجماعة، لأنَّ يعقوب أوصى ابنه يوسف بكتمان خبر رؤياه عن إخوته في النسب لما كان يخافه من ضررهم المتعمد بيوسف، وقد يكون الضرر المخوف يتأتى من الشخص من غير قصد منه للإضرار، وإنما يصدر عنه جهلاً وغفلة وسذاجة كالذي يثرثر بما علمه من أسرار الجماعة وأخبار دعاتها وفضائلهم وأثرهم في نشر الدعوة فيتلقف ذلك الأعداءُ فيكيدوا للجماعة وللدعاة، فينبغي للدعاة وللجماعة أن يحذروا ذلك ويكتموا ما يستحسن كتمانه عمّن يُخشى ضرره المتعمد وغير المتعمد، كما يجوز لهم أن يحذروا أعضاء الجماعة من شخص أو أشخاص معينين، ولا يدخل ذلك التحذير في مفهوم الغيبة المحرمة؛ لأنَّ يعقوب حذّر يوسف أن يقصَّ رؤياه على إخوته فيكيدوا له كيداً.

٤٦١- ثانياً - الحسد يحمل على قطيعة الرحم:

الحسد من أمهات الكبائر يقع حتى بين الأقارب بل إنَّ وقوعه فيما بينهم أقرب من وقوعه بين الأباعد، وإنه ليحمل صاحبه على الكذب وقطيعة الرحم وعقوق الوالد، وهذا ما حصل لإخوة يوسف: حملهم الحسد على الكذب، وعلى التفكير جدياً في

إبعاد يوسف عن أبيه ولو بقتله أو بتغييبه عنه، وإن كان فعلهم من أقبح صور قطيعة الرحم وعقوق الوالد ومعصية الله. فلْيفقهِ الدعاة ذلك وليحذّروا الناس في وعظهم وإرشادهم من الحسد، ولتحذّر الجماعة المسلمة أعضاءَها من هذا الداء المهلك: الحسد، فإنَّهُ قد يقع فيما بينهم، ويحمل صاحبه على إيذاء الجماعة لغرض إيذاء المحسود، ويلبس فعلَه لبوس الحرص على مصلحة الدعوة.

٤٦٢ - ثالثاً - لا بُدَّ من الامتحان والعاقبة للصابرين.

وليعلم الدعاة ويعلّموه للناس بأَنْ لا بد من الامتحان، امتحان الله عباده، بما يشاء ومتى يشاء وكيف يشاء، فقد امتحن الله يعقوب بفقد يوسف ثم بفقد أخيه وبفقد بصره. وامتحن يوسُفَ بإلقائه في الجبّ ثم بيعه كعبد رقيق - وهو الحرُّ الأصيل - وامتُحِن عليه السلام بامرأة العزيز ثم بالسجن.. والدعاةُ إلى الله أكثر من غيرهم امتحاناً، لأنَّهم يفعلون ما يغيظ أهل الباطل وحزبَ الشيطان فيتعرضون لكيدهم وإيذائهم، ولكنَّ العاقبة دائماً للمتقين الصابرين، فقد جمع الله بين يعقوب وابنيه يوسف وأخيه، وردّ الله إليه بصره، ومن قبل هذا أخرج الله يوسف من الجب ثم عصمه من مراودة المرأة له، ثم أخرجه من السجن ثم جعله متصرفاً في أقوات مصر.. وكل ذلك كان بعضَ آثار الصبر الجميل القائم على تقوى الله من يعقوب وابنه يوسف عليهما السلام. فما على الدعاة إلاَّ الصبر الجميل لما يلاقونه في سبيل الله موقنين بأنَّ العاقبة دائماً وأبداً للمتقين الصابرين.

٤٦٣- رابعاً - يوسف هو القدوة في العفّةِ:

على الدعاة أن يذكّروا الناس لا سيما الشبابَ منهم بموقفِ يوسف عليه السلام من امرأة العزيز إذ راودته عن نفسه، وكيف أنه استعصم وأبىٰ ورفض ما أرادته منه مع توافر الدواعي وقوتها الدافعةِ إلى إجابة طلبها، فمن هذه الدواعي التي تجاوزها يوسف عليه السلام واستعلى عليها أنه عليه السلام كان شاباً عزباً وفي بلاد غربة، وأنّهُ رقيق في بيت سيده، وأنَّ المرأة هي التي طلبته وراودته عن نفسه، والشأن في المرأة أن تكون هي المطلوبة لا الطالبة، وكانت ذاتَ منصبٍ وجمالٍ، وراودته في

بيتها وهي وحيدة ليس في الدار غيرها وغيره، واتخذت الوقاية فغلّقت الأبواب، وكان هو مملوكها فرفض طلبها، ثم استعانت عليه بالنساء الماكرات، ثم هددته بالسجن إن لم يطاوعها على فعل الفاحشة بها، ومع هذا كله رفض رفضاً قاطعاً ورفع شعاره الذي يجب أن يكون حاضراً في ذهن كل شاب ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ﴾.

إن هذه الصورة المشرقة العالية جداً في العفة والاستعلاء على الرذيلة يجب أن تكون حاضرةً في الأذهان لا سيما أذهانِ الشبابِ وأَن يتذكروها ولا ينسوها ويستحضروها كلما أحسوا بتزيين الشيطان لهم فعلَ الفاحشة أو الاقتراب منها، وكلما انجذبوا نحو صورة جميلة في مجلةٍ أو على شاشة التلفاز أو مرّت من أمامهم فتاة أو وقعتْ في أيديهم مجلة خليعة من هذه المجلات التي فشت وانتشرت في البلاد الإسلامية.

٤٦٤- خامساً - شعار المسلم السجنُ أحب إليَّ مما يدعونني إليه:

قلت: إنَّ يوسف قال قولة عظيمة هي شعاره في تلك المحنة التي وقع فيها في بيت امرأة العزيز. وهي: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ﴾ وذلك أنَّ امرأة العزيز هددته بالسجن إن لم يجب طلبها ويفعلْ معها الفاحشة، وأعانها على ذلك صواحبُها - وهنَّ النسوة اللائي جئن إليها بدعوة منها - والظاهر أنهنَّ أردن منه ما أرادته منه امرأة العزيز بدليل قول يوسف: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ﴾ فلم تنفرد امرأة العزيز بدعوتها الآثمة منه، وإنما اشتركن معها في هذه الدعوة الفاجرة، ومع هذا أصرّ يوسف على رفضه وأعلن بأنَّ السجن أحب إليه من دعوتهن له ومن إجابة هذه الدعوة.

وهكذا يجب أنْ يكون شعار الداعية وشعار كل مسلم إذا وجد نفسه أمام أحد خيارين: إما سعة العيش ومتعُ الدنيا ولكن عن طريق معصية الله تعالى، وإما رفض ذلك مع ما سيلقاه - نتيجة هذا الرفض - من خشونة العيش وضيق الدنيا وتحمُّلِ الأذى بجميع أنواعه، ومنه دخول السجن أو الإبعادُ في سبيل استمساكه بمقتضيات الدعوة ومتطلبات الإيمان، أقول: على الداعية إذا وُجِدَتْ نفسُه أمام هذا الاختيار الصعب أن لا يتردد في اختيار طاعة الله، والاستمساك بمقتضيات الدعوة ومتطلبات

الإيمان وأنْ يهتف بلسانه وقلبه ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ﴾ فعلى الدعاة أن يفقهوا مدلولَ هذا الشعار ونظامه وما يذكّر الداعية به، كما أنَّ عليهم أن يفهموا الناس مدلول هذا الشعار، ويضربوا لهم الأمثال حتى يرسخ في نفوسهم فيقولوا لهم مثلاً إذا عرض أهل الباطل على أحدهم مالاً وفيراً - رشوةً له - ليقلب الحق باطلاً، والباطل حقاً، فليتذكر هذا الشعار فيرفض المعروض عليه من المال، ولو كان هو موظفاً محتاجاً، وإذا كان من ولاة الأمور، وعُرِض عليه الأموال الطائلة على أن يخون أمانة الحكم والبقاء في السلطة، فعليه أن لا يتردد في الرفض وليقل بلسان المقال ولسان الحال: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ﴾ وإن كان رفضه هذا سيؤدي به إلى الاتهام الباطل بما هو بريءٌ منه أو إلى إلقائه بالسجن أو نفيه خارج البلاد. فالشعار هذا لا يقتصر على رفض الفاحشة، وإنما يمتد ويشمل جميع معاصي الله إذا دعي إليها الداعية أو أيُّ مسلم وإلاّ هُدِّد بالأذى وبالسجن.

٤٦٥- سادساً - الداعي، يدعو إلى الله في جميع حالاته:

إن الدعوة إلى الله تعالى واجب شرعي، وهي من وظائف رسل الله، ولكن أراد الله تعالى تكريم وتشريف المسلم فكلفه بما كلف به رسله، وهو الدعوة إلى الله. وأداءُ هذا الواجب الشرعي ليس له وقت محدد كواجب الصلاة، وإنما يجب القيام به كلما أمكن ذلك، ولذلك لما دخل السجنَ مع يوسُفَ فتيان، وقد رأى كل منهما رؤيا وطلبا من يوسف تأويلهما، اغتنم يوسف هذه الفرصة ودعاهما إلى الله تعالى قبل أن يجيبهما إلى ما طلباه من تأويل رؤياهما، ولم يشغله السجن وضيقُهُ عن الدعوة إلى الله، وهكذا يجب أن يكون الدعاة إلى الله لا يشغلهم شيء عن الدعوة، حتى لو وقعوا في ضيق، فإنَّ ما يشغلهم هو الدعوة وليس الضيق الذي وقعوا فيه، وهكذا كان نبينا ﷺ لا يشغله إلاّ أمر الدعوة في جميع حالاته، فعندما هاجر إلى المدينة ومعه أبو بكر الصديق رضي الله عنه لقي في طريقه بريدة بن الحصيب الأسلمي في ركب من قومه، فدعاهم إلى الإسلام فأسلموا[٩٢٠]. وهذا يدل على أنّهُ ﷺ لم يَغْفُلْ عن الدعوة حتى وهو في طريقة مهاجراً إلى المدينة والقوم يطلبونه، وهكذا يجب أن يكون الداعي إذا كان صادقاً في دعوته منشغلاً بها لا يفكر إلاّ بها،

(٩٢٠) إمتاع الأسماع للمقريزي ص١٨.

ولا يتحرك إلاَّ من أجلها، ولا يبخل عليها بشيءٍ من وقته وجهده، لا يشغله عنها شاغل حتى في أحرج الساعات، وأضيق الحالات، وأدق الظروف وأصعبها، وحتى عند ابتلائه بالمصائب والنكبات.

٤٦٦- سابعاً - العفو عند المقدرة:

لقد عفا يوسف عن إخوته وقد فعلوا فيه ما لا يفعله العدو بعدوه، ألقوه في غيابة الجب ولم يمنعهم من ذلك صِغَرُ يوسف وتعلقُ أَبيهم به وعدم صدور أي إساءةٍ منه لهم، عفا عنهم وهو في مقام السلطة والقدرة وهم في مقام الذلة والضعف، ولما اعترفوا بذنبهم بعد أن عرّفهم بنفسه بأَنْ ذكّرهم بما فعلوه بيوسف، قال لهم: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ أي لا تعيير ولا توبيخ ولا تقريع عليكم اليوم، ثم زادهم تكريماً بأَنْ دعا لهم بالمغفرة لما فرط منهم بقوله: ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ وقوله: ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ تحقيق لحصول المغفرة لأنه عفا عنهم، فالله هو أولى بالعفو والرحمة لهم[٩٢١]. هذا وإنَّ تجاوَزَ يوسُفَ عن ذنب إخوته يعلّمنا أن نغفر لمن يسيء إلينا ونحسن إليه، فعلى الدعاة أن يفقهوا ذلك وأن يعفو بعضُهم عن بعض إذا صدرت منه إساءة لأخيه في الإسلام وزميله في العمل في الجماعة المسلمة.

٤٦٧- ثامناً - تمني الموت:

في قول يوسف عليه السلام: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ إنَّ هذا الدعاءَ من يوسف عليه السلام يحتمل أنه قاله عند احتضاره، كما ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ جعل يرفع إصبعه عند الموت ويقول: «اللهم الرفيق الأعلى» ثلاثاً. ويحتمل أنَّ يوسُفَ بدعائه هذا سأل الوفاة على الإسلام واللّحاقَ بالصالحين إذا جاء أجله وانقضى عمره لا أنه سأل ربه الوفاة منجزاً. وعلى كلٍ فإنه لا يجوز للمسلم في شريعتنا أن يتمنى الموت حالاً لضُرٍ نزل به، وفراراً من الحياة، فعلى الدعاة أن يفقهوا ذلك فلا يطلبوا الموت، لأذى يصيبهم أو ضر يلحق بهم بسبب الدعوة أو بسبب غيرها، وإنما لهم أن يسألوا الثبات على الإسلام

---

(٩٢١) تفسير القاسمي ج٩ ص٢٧٢-٢٧٣

والموت عليه، جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يتمنَيَنَّ أحدُكُمُ الموتَ لضرّ نزل به، فإن كان ولابدَّ متمنياً الموت فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي»، وأخرجه البخاريُّ ومسلم، وعندهما: «لا يتمنَيَنَّ أحدكم الموت لضُرٍّ نزل به، إما محسناً فيزداد، وإما مسيئاً فلعله يستعتب، ولكن ليقل اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي وتوفني إذ كانت الوفاة خيراً لي». ولكن إذا ما نزل بالمسلم فتنةٌ في الدين يخاف أن لا يتجاوزها، فيجوز له تمني الموت وحصولُه له حالاً كما فعل السحرةُ لمّا تهددهم فرعون بالقتل إن لم يرجعوا إلى دينهم ويتركوا إيمانهم بموسى ودينه، قال تعالى عما قالوه: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ . فعنْدَ حلول الفتنة في الدين يجوز سؤالُ الموت، يدلُّ على ذلك أيضاً ما رواه الإمام أحمد عن محمود بن لبيد مرفوعاً أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «اثنتان يكرههما ابن آدم: يكره الموت، والموت خير للمؤمن من الفتن، ويكره قلة المال، وقلة المال أقلُّ للحساب»، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في آخر خلافته لما رأى أن الأمور لا تجتمع له ولا يزداد الأمر إلاّ شدة فقال: (اللهم خذني إليك فقد سئمتهم وسئموني). وفي حديث عن رسول الله ﷺ جاء فيه: «إنَّ الرجل ليمر بالقبر - أي في زمان الدجال - فيقول: يا ليتني مكانَكَ» لما يرى من الفتن والزلازل والأمور الهائلة التي يخشى فيها المؤمن على إيمانه فيتمنى الموت لينجو بإسلامه[٩٢٢].

٤٦٨- تاسعاً - الأخذ بالأسباب والتوكل على الله في بلوغ الغايات:

أمر يعقوب عليه السلام بنيه بأنْ لا يدخلوا مصر من بابٍ واحدٍ بل من أبواب متفرقة؛ لئلا يصيبَهم مكروهٌ إمّا بإصابتهم بـ(العين) وهو قول جمهور المفسرين كما ذكرنا من قبل، وإمّا أن يُظَنَّ بهم أنهم جواسيس وجاؤوا يريدون شراً بمصر، فيخافهم مِلكُ مصر على ملكه فيحبسهم[٩٢٣]. وعلى أي التفسيرين حملنا وصية يعقوب لبنيه بالدخول من أبواب متفرقة فهو يدل على أخذ يعقوب عليه السلام

---

(٩٢٢) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٩٢-٤٩٣، تفسير القرطبي ج٩ ص٢٦٩.

(٩٢٣) تفسير الرازي ج١٨ ص١٧٢، ١٧٤.

بالأسباب إلاَّ أنه قال لهم بعد أن أمرهم بذلك: ﴿وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ﴾ وهذا إشارة منه إلى عدم الالتفات إلى الأسباب، أو التعلق بها والاعتماد عليها، والاعتقاد بأنَّ مجرَّدَ الأخذ بها يوصل حتماً إلى تحصيل المقصود منها، ذلك أن الأمور مرجعُها إلى الله تعالى فلا يقع في الكون إلاَّ ما قدّره ويقدره الله تعالى، وما يقضي به، وإنَّ الأسباب لا تفضي إلى مسبباتها إلاَّ بإزالة الموانع عن إفضائها إلى هذه المسببات بقضاء الله ومشيئته، فالاعتماد ينبغي أن يكون على الله - وهو أمر قلبي - وليس على مباشرة الأسباب، ولهذا قال لهم يعقوب: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ وعلى هذا يجب على الدعاة أن يبذلوا كل جهدهم في مباشرة الأسباب المشروعة في تحقيق أغراضهم في دعوتهم، ولكنَّ اعتمادهم في نجاحهم في دعوتهم وبلوغ غاياتهم فيها، يكون هذا الاعتماد على الله تعالى وحده وليس على الأسباب.

٤٦٩- عاشراً - مدح النفس وطلب الولاية:

الأصل أن لا يمدح المسلم نفسه، قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾[٩٢٤] ولا يطلب الولاية لنفسه، ولهذا من قواعد الفقه (طالب الولاية لا يُولَّى)، ويدل على هذه القاعدة حديثُ البخاريّ الذي أخرجَهُ في صحيحه عن أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه، قال: دخلت على النبي ﷺ أنا ورجلان من قومي، فقال أحد الرجلين: أمِّرْنا يا رسول الله، وقال الآخر مثلَه، فقال النبي ﷺ: «إنّا لا نولّي هذا مَنْ سَألَهُ ولا من حرص عليه»[٩٢٥]. وإذا كان الأصل ما ذكرناه فإنَّ الاستثناء جوازه أي جواز الأمرين: مَدْحُ الإنسان المسلم نفسه وطلب الولاية لنفسه، على أنْ يكون لهذا الاستثناء مبرر شرعي مثل تحقيق مصلحة للمسلمين أو دفع ضَرَر عنهم، أو إقامة العدلِ بين الناس ونحو ذلك، وقد نستأنس لذلك بمدح يوسف عليه السلام نَفْسَهُ بذكر بعض صفاته ومزاياه، وبطلبه ولاية توزيع الأقوات على الناس. قال تعالى مخبراً عما قاله يوسف عليه السلام للملك - ملك مصر - بعد أن أخرجه من السجن: ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ أي ولّني

---

(٩٢٤) سورة النجم الآية ٣٢.

(٩٢٥) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج١٣ ص١٢٥.

خزائن أرضك يعني جميع الغلات لما يستقبلونه من السنين التي أخبرهم بشأنها، فيتصرف لهم على الوجه الأرشد والأصلح. فيوسف عليه السلامُ مدح نفسه وطلب الولايةَ لنفسه - ولاية جمع الغلات وتوزيعها على الناس - وذكر عن نفسه أَنَّهُ خازنٌ أمينٌ وعليم أي ذو علم وبصيرة بما يتولاه. وإنما قال ذلك يوسف عليه السلام لعلمه بقدرته على ما يتولاه، ولما فيه من المصالح للناس، فيجوز للمسلم أن يفعل ذلك فيمدح نفسه بذكر صفاته وكفاءاتِهِ على العمل الذي يطلب الولاية عليه إذا وجد في ذلك مصلحةً شرعيةً. وفي تعليلِ طلب يوسف الولاية على خزائن الأرض ومَدْح نفسه ببيان قدرته على هذه الولاية، قال الزمخشري: (وإنما قال ذلك ليتوصل إلى إمضاء أحكام الله تعالى، وإقامة الحق وبسط العدل، ولعلمه أَنَّ أَحداً غيره لا يقوم مقامه في ذلك، فطلب التولية ابتغاء وجه الله لا لحبّ المُلْك والدنيا)[٩٢٦] فهذه الآية أصلٌ في جواز مدح الإنسان نفسه، وفي طلب الولاية لنفسه لمصلحة شرعية إذا كان واثقاً من نفسه بالقدرة على القيام بحقوق هذه الولاية ومتطلباتها[٩٢٧].

٤٧٠- سؤال وجوابه:

وقد يقال: كيف جاز ليوسف أن يتولى عملاً من يد كافِر وهو ملكُ مصر، وكيف يكون تبعاً له بقبوله أو بطلبه هذه الولاية؟ والجواب: روي عن مجاهد أنَّ المَلِكَ كان قد أسلم، وقيل كان الملك يصدر عن رأي يوسُفَ ولا يعترض عليه في كل ما رأى، فكان الملك هو في حكم التابع والمطيع ليوسف، وعن قتادة قال: ما فعله يوسف من طلبه الولاية من الملك الكافر دليل على أنَّهُ يجوز أن يتولى الإنسان عملاً من يد سلطان جائر. وقد كان السّلَفُ يتولون القضاء من جهة البغاة. وعلى هذا إذا علم العالِمُ أَنَّهُ لا سبيل إلى الحكم بأمر الله ودفع الظلم إلّا بتمكين من الملك الكافر أو الفاسق فله أن يستظهر به ويستعين به[٩٢٨].

---

(٩٢٦) تفسير الزمخشري ج٢ ص٤٨٢.

(٩٢٧) تفسير القاسمي ج٩ ص٢٤٣.

(٩٢٨) تفسير الزمخشري ج٢ ص٤٨٢.

٤٧١- للداعي أن يبين كفاءته ويطلب ولاية في نظام كافر:

وبناء على ما تقدم يجوز للداعي أن يبين كفاءته وقدرته على عمل معين، ويبديَ رغبته أو استعداده لعمل معين في الجماعة المسلمة، ولا يَقْدَحُ ذلك في إخلاصه واستمساكه بمعاني الشرع. كما يجوز للداعي أن يتولى وظيفة معينة في ظل نظام كافر أو سلطان جائر إذا رأىٰ مصلحةً شرعية في تولي هذه الوظيفة كإحقاقِ حق أو إقامةِ عدل، أو دفع ضرر عن المسلمين.

٤٧٢- أَحَد عشر - حرمة اليأس من رَوْحِ الله:

إنَّ مصائب الدنيا وشدائدها كثيرة، والداعي يلاقي غالباً مصاعب ومصائب وأذى وشدائد، فعليه أن لا ييأس من رحمة الله وفرجه وكشف الضر عنه وتسهيل الشدائد عليه، وليعلم بأن لا سهل إلاّ ما سهلّه الله، وهو تعالى يجعل الصعب سهلاً، وهو الذي يكشف الضُرَّ عن عبده، ولهذا أمر يعقوب عليه السلام بنيه أَنْ لا ييأسوا من رحمة الله وفرجه، أمرهم بذلك عندما طلب منهم البحث عن يوسف وأخيه وتسقّط أخبارهما، فقال تعالى حكاية عما قاله يعقوب لبنيه: ﴿يَـٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾[٩٢٩] أي أَنَّ يعقوب عليه السلام أَمَرَهُمْ أن لا ييأسوا من رَوْحِ الله أي من رحمته وفرجه وفضله، وأنْ لا يقطعوا رجاءهم وأملهم من الله فيما يرومونه ويقصدونه، فإنّه لا يقطع الرجاءَ ولا ييأس من رحمة الله إلاّ القوم الكافرون[٩٣٠].

٤٧٣- اثنا عشر - ضرورة الصبر للدعاة:

إنَّ قصة يوسف ترينا حسن عاقبة الصبر الجميل، فقد صبر يوسف على ما أصابه من كيد إخوته، وما تبع ذلك من بيعه رقيقاً في مصر وهو الحر الأصيل، ثم امتحن بمراودة امرأة العزيز، ثم بإدخاله السجْنَ ولبثه فيه بضع سنين، وهو في كل هذه البلايا صابر، وصابر أيضاً على ما يحسه من ألم لما يعلمه من ألم أبيه على فراقه، وامتحن الله يعقوب بفقد ابنه الحبيبِ يوسف ثم بفقد أخيه وفقد بصره، وهو في ذلك

---

(٩٢٩) سورة يوسف الآية ٨٧.

(٩٣٠) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٨٨، تفسير الرازي ج١٨ ص١٩٩.

صابر محتسبٌ يردد بلسانه وبقلبه ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ ولا يشكو حزنه وما يحسّ به إلاَّ إلى الله ﴿ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ ثم جاء الفرج بعد الشدة، حيث جمع الله يعقوب بابنه يوسف وبأخيه وببقية أبنائه، وردّ عليه بصره، وكلُّ ذلك عاقبة الصبر الجميل، كما قال يوسف لإخوته بعد أنْ عرفوه: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ أي أجرهم، أَجْرَ المتقين والصابرين، الذين وصفهم بالمحسنين، فعلى الدعاة أن يتحلّوْا بالصبر الجميل الذي لا شكوى فيه، فإنَّ عاقبة الصبر الظفر بالمطلوب وإن طال انتظاره، فإنَّ زوال الشدة عن يُوسَف وأبيه لم يحصل إلاّ بعد عشرات السنين، فلا يجوز أن يستعجل الدعاة بلوغ الغاية والظفر بالمطلوب، فإنَّ الأمر بيد الله، وكل ما عليهم هو أن يثقوا تماماً بأنَّ العاقبة للصابرين، ولا يشترط في هذه العاقبة أنْ تكون عاجلةً كما رأينا في عاقبة يوسف وأبيه.



الفصل الحادي عشر

قصة موسى عليه السلام

المبحث الأول

نشأة موسى إلى بعثته

٤٧٤- موسى تلقيه أمه في البحر خوفاً من فرعون:

كان فرعون مصر يقتل الذكور من بني إسرائيل حين ولادتهم، فلما ولد موسى خافت عليه أمه من القتل، فألقى الله في قلبها أن ترضعه فإذا خافت عليه فعليها أن تلقيه في اليم، أي في البحر وهو نهر النيل، وهكذا فعلت إذ وضعته في تابوت وألقته في نهر النيل، فالتقطه بعض جواري فرعون، فاحتملنه وذهبن به إلى إمرأة فرعون، فلما فتحت التابوت رأتْ طفلاً من أحسن الخلق وأجمله، فأوقع الله محبتَهُ في قلبها، فكان عاقبة التقاطه ليكون لهم عدواً وحزنا، فأراد فرعون قتله فمنعته زوجته وجادلت عنه وقالت: قرة عين لي ولك، لا تقتلوه عسى أن ينفعنا إذا كبر أو نتخذه ولداً؛ لأنَّهُ لم يولد لها من فرعون ولد، وهم لا يشعرون أي لا يدرون ما أراد الله منه بالتقاطهم إياه من الحكمة العظيمة البالغة[٩٣١]، قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ۝٨ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾[٩٣٢].

٤٧٥- فرددناه إلى أمه كي تقرعينها:

قال تعالى: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ

(٩٣١) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٨٠-٣٨١.

(٩٣٢) سورة القصص الآيات ٧-٩.

قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(٩٣٣). والمعنى أنَّ فؤاد أم موسى أصبح فارغاً أي من كل شيء من أمور الدنيا إلاّ من موسى، إن كادت من شدة حزنها على ابنها لتظهر أنه ذهب لها ولد وتخبر بحالها لولا أَنَّ الله ثبتها وصبرّها لتكون من المؤمنين، أي المصدّقين بوعد الله وهو قوله تعالى: ﴿ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ ﴾ وقالت لأخته: قصّيه، أي اتبعي أثره لتنالي خبره فَبَصُرَتْ به عن بُعدٍ وهم أي آل فرعون لا يشعرون أنها تعرف حاله. وحرّمنا عليه المراضع من قبل تتبع أثره من قبل أخته، فلم يأخذ ثدي أي مرضعة، فخرجوا به لعلهم يجدون امرأة تصلح لرضاعته، فلما رأته بأيديهم عرفته ولم تظهر ذلك ولم يشعروا بها، فلما رأتهم حائرين فيمن ترضعه ﴿ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴾ فذهبوا معها إلى منزل أم موسى فدخلوا به عليها، فقبل ثديها ففرحوا بذلك، وأخبروا امرأة فرعون بذلك، فاستدعت أمَّ موسى لترضعه عندها، فأبت إلاَّ أنْ ترضعه في بيتها، فقبلت امرأة فرعون بذلك وتركت موسى عند أمه لترضعه، وهكذا ردّ الله تعالى موسى إلى أمه؛ لتقر به عينها ولا تحزن عليه ولتعلم أنَّ وعد الله في رده إليها حق(٩٣٤).

٤٧٦- موسى يقتل قبطياً:

قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾(٩٣٥) والمعنى لما بلغ موسى شِدَّةَ البدن واستوى أي تكامل عقله وحَزْمُهُ وذلك ببلوغ الأربعين من عمره آتاه الله حكماً أي حكمة وعلماً أي معرفة بشرع

---

(٩٣٣) سورة القصص الآيات ١٠-١٣.

(٩٣٤) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٨١-٣٨٢.

(٩٣٥) سورة القصص الآيتان ١٤، ١٥.

إبراهيم عليه السلام وهي مقدمات النبوة[٩٣٦].

ودخل موسى المدينة - مدينة من مدن مصر - في وقت القائلة وهو وقت الغفلة حيث أنَّ الغالب نوم الناس في هذا الوقت، فوجد في المدينة رجلين يتنازعان، أحدهما من شيعة موسى أي من بني إسرائيل، والآخر قبطي من قوم فرعون، فاستغاثه الذي من شيعته أي طلب منه العون والنصرة على خصمه لأنه كان مظلوماً ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾ أي ضربه بِجمْعِ كفه ﴿فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ﴾ أي فقتله، وما كان يريد قتله وإنما كان يريد دفع ظلمه، فقال موسى هذا أي قتل القبطي من عمل الشيطان أي من إغوائه[٩٣٧].

٤٧٧- موسى يستغفر ربه مما فعله:

ندم موسى على ما صدر منه واعتبر قتل القبطي الكافر من عمل الشيطان وبأنّه ظُلم لنفسه، فاستغفر ربه من ذلك فغفر له، قال تعالى حكاية عن قول موسى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ١٦﴾[٩٣٨] وإنما اعتبر موسى قتل الكافر من عمل الشيطان وسماه ظلماً لنفسه واستغفر منه، لأنه قتله قبل أن يُؤذَن له في القتل، فكان ذنباً يُستَغفر منه، وإنْ كان غير مُتعمَد[٩٣٩]. لأنَّ الأنبياء يشفقون مما لا يشفق منه غيرهم، بل إن موسى عليه السلام لم يزل يعدد ذلك على نفسه مع علمه أنه قد غُفِرَ له، حتى إنه في يومِ القيامة يقول: (إني قتلت نفساً لم أُؤمَر بقتلها) كما جاء في حديث الشفاعة[٩٤٠].

٤٧٨- موسى يعاهد ربه ألا يكون ظهيراً للمجرمين:

قال تعالى حكاية عن قول موسى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا

---

(٩٣٦) تفسير ابن عطية ج١١ ص٢٧٣.

(٩٣٧) تفسير القرطبي ج١١ ص٢٥٩-٢٦١.

(٩٣٨) سورة القصص الآية ١٦.

(٩٣٩) تفسير الزمخشري ج٣ ص٣٩٨.

(٩٤٠) تفسير ابن عطية ج١١ ص٢٧٦، تفسير القرطبي ج١٣ ص٢٦١.

﴿لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾[٩٤١] قال الإمامُ ابن عطية في تفسيره لهذه الآية: (ثم قال موسى عليه السلام معاهداً لربه عز وجل: ربِّ بنعمتك عليَّ وبسبب إحسانك وغفرانك فأنا ملتزم ألّا أكون معيناً للمجرمين)[٩٤٢]. وقد احتجَّ أهل الفضل والعلم بهذا الآية في منع خدمة أهل الجور ومعونتهم في شيءٍ من أمورهم، ورأوا أنَّ هذه الآية تتناول ذلك، وهذا ما ذهب إليه الفقيه التابعي عطاء بن أبي رباح فقد رويَ عنه قوله: (لا يحلُّ لأحد أن يعين ظالماً ولا يكتب له ولا يصحبه، وإنه إن فعل شيئاً من ذلك فقد صار معيناً للظالمين)[٩٤٣].

٤٧٩- فرعون يريد قتل موسى لقتله القبطي:

قال تعالى عن موسى بعد أن قتل القبطي: ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾[٩٤٤]. أي أصبح موسى خائفاً من قتل القبطي أن يؤخذ به ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ أي يتلفت من الخوف ينتظر الطلب وينتظر ما يتحدث به الناس، فإذا بصاحبه الإسرائيليِّ الذي خلصه بالأمس يخاصم قبطياً آخر ويستغيث بموسى لينصره على القبطي، فقال له موسى: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ أي ظاهر الغواية كثير الشرّ تخاصم من لا تستطيع دفع شره عنك. ثم عزم موسى على البطش بذلك القبطي، فاعتقد الإسرائيليُّ لخوره وضعفه وذلّته أنَّ موسى إنما يريد البطش به لما سمعه يقول له: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ فقال يدافع عن نفسه: ﴿يَا مُوسَىٰ﴾ أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس، فلما سمعها ذلك القبطي ذهب بها إلى باب فرعون وألقاها عنده، فعلم فرعون بأنَّ موسى هو الذي قتل القبطيَّ فاشتد غضبه عليه وأراد قتله، فبعث إليه من يحضره عنده للقتل[٩٤٥].

---

(٩٤١) سورة القصص الآية ١٧.

(٩٤٢) تفسير ابن عطية ج١١ ص٢٧٦.

(٩٤٣) تفسير القرطبي ج١٣ ص٢٦٣، تفسير ابن عطية ج١١ ص٢٧٧.

(٩٤٤) سورة القصص الآيتان ١٨و١٩.

(٩٤٥) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٨٣، تفسير القرطبي ج١٣ ص٢٦٤-٢٦٥.

٤٨٠- خروج موسى من مصر فراراً من فرعون:

قال تعالى: ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ ﴾(٩٤٦) والمعنى: وجاء رجل، وهو عند أكثر المفسرين، مؤمنُ آل فرعون، لما علم بنيّةِ فرعون ومن معه من الملأ قتل موسى جاء مسرعاً إلى موسى وقال له: إنَّ الملأ يتشاورون في قتلك بالقبطي الذي قتلته بالأمس، فاخرج إني لك من الناصحين، فخرج موسى من مصر خائفاً ينتظر الطلب، وأفلت من القوم فلم يجدوه، وخرج بحكم فزعه إلى الطريق إلى مدين، وهي مدينة قوم شعيب عليه السلام، وكان موسى عليه السلام لا يعرف الطريق ولم يصحب أحداً، واثقاً بالله متوكلاً عليه، ولم يكن معه زادٌ ولا راحلة. ولما رأىٰ حاله وعدم معرفته بالطريق أسند أمره إلى الله تعالى بقوله: ﴿ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ أي فلا يلحقني فيه الطالبون(٩٤٧).

٤٨١- وصول موسى إلى ماء مدين وما جرى له عنده:

قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾(٩٤٨) والمعنى: لما وصَل موسى ماء مدين، وهو ماؤهم الذين يستقون منه، وكان بئراً فيما روي، وجدَ عليه جماعة كثيفة العدد من أناس مختلفين، ووجد من دونهمْ في مكانٍ أسفل من مكانهم امرأتين تذودان، أي تمنعان غنمهما عن الماء، فلما رآهما موسى عليه السلام رقَّ لهما ورحمهما ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ﴾ أي ما خبرُكما وشأنكما لا تسقيان غنمكما مع هؤلاء؟ ﴿ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ﴾ أي لا يحصل لنا سقي حتى يصدر الرعاء -جمع راعٍ - عن الماء ويخلو منهم، أي لا يتيسر لنا سقي إلّا بعد فراغ هؤلاء الناس من سقي أغنامهم وصرفها عن الماء، عجزاً

---

(٩٤٦) سورة القصص، الآيات ٢٠-٢٢.

(٩٤٧) تفسير القاسمي ج١٣ ص١٠١.

(٩٤٨) سورة القصص الآية ٢٣.

منا عن مدافعتهم وحذراً من مخالطتهم ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ أي فيعجزُ عن الخروج والسقي، أي ما لنا رجل يقوم بذلك إلا هو، وقد أضعفه الكبر أن يباشر أمر غنمه، فاضطرنا الحال إلى ما ترى من الانتظار حتى يفرغ الرعاء من سقي أغنامهم وينصرفوا وأغنامهم عن الماء، فنستطيع عند ذلك سقيَ أغنامنا بعدهم، فلا بد لنا من التأنيَ والانتظار ولو نتأخرو يطول انتظارنا[949].

٤٨٢- موسى يساعد المرأتين على سقي غنمهما:

وبعد هذه المحاورة من موسى مع المرأتين اللتين وجدهما عند ماء مدين وهما تكفكفان غنمهما أن ترد مع غنم أولئك الرعاء، قام موسى بما أخبرنا به الله تعالى بقوله: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾[950]. أي فسقى موسى غنمهما لأجلهما من غير أجر ثم تحول إلى ظل شجرة صغيرة الورق كما روىٰ ابن مسعود رضي الله عنه، ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ أي محتاجٍ، وقد روى سائر المفسرين أنه طلب في هذا الكلام ما يأكله حيث لم يذق طعاماً منذ أيام، فالخير في هذه الآية بمعنى الطعام، ويأتي بمعنى المال كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾[951].

٤٨٣- سؤال وجوابه:

وقد يقال كيف ساغ لنبي الله الذي هو شعيب عليه السلام أن يرضى لابنتيه بسقي غنمه؟ والجواب أنَّ هذا السقي في نفسه ليس بمحظور، فالدين لا يأباه وأما المروءة ومكارم الأخلاق فالناس مختلفون في ذلك والعادات متباينة فيه، ومذهب أهل البدو فيه غير مذهب أهل الحضر، خصوصاً إذا كانت الحالة حالة ضرورة[952].

٤٨٤- شعيب يدعو موسى للمجيء إليه:

قال تعالى: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ

---

(٩٤٩) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٨٣، تفسير القاسمي ج١٣ ص١٠١.

(٩٥٠) سورة القصص، الآية ٢٤.

(٩٥١) تفسير ابن عطية ج١١ ص٢٨٧، تفسير القرطبي ج١٣ ص٢٦٩-٢٧٠.

(٩٥٢) تفسير الكشاف ج٣ ص٤٠١-٤٠٢، تفسير القرطبي ج١٣ ص٢٦٩.

﴿مَا سَقَيْتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٩٥٣). والمعنى، لما رجعت المرأتان سريعاً بالغنم إلى أبيهما أنكر حالهما بسبب مجيئهما سريعاً، فسألهما عن خبرهما، فقصتا عليه ما فعله موسى عليه السلام من قيامة بالسقي لهما، فبعث إحداهما إليه لتدعوه إلى أبيها ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ أي مستحيية شديدة الحياء قد سترت وجهها، بكمّ درعها كما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَاۚ﴾ فأجاب موسى.دعوة أبيها، وقال لها: امشِ خلفي وانعتي لي الطريق، فلما وصل إلى شعيب عليه السلام وقصَّ عليه قصته قال له: لا تخف نجوت من القوم الظالمين فلا سلطان لفرعون في أرضنا(٩٥٤).

٤٨٥- سؤال وجوابه:

وقد يقال: كيف ساغ لموسى عليه السلام أن يأخذ بقول امرأة وهو قولها: إنَّ أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا؟ وأيضاً كيف ساغ له أن يمشي معها وهي أجنبية منه؟ والجواب: أما أخذه وعمله بقول امرأة فهذا كما يأخذ ويعمل بقول الواحد في الأخبار حراً كان المخبر أو عبداً، ذكراً كان أو أنثى، وما كانت ابنة شعيب إلاَّ مخبرة عن أبيها بأنه يدعوه ليجزيه أجر ما سقىٰ لهما. وأما مماشاته امرأة أجنبية فهذا لا بأس به في نظائر تلك الحال مع ذلك الاحتياط والتورع من قبل المرأة ومن قبل موسى عليه السلام(٩٥٥).

٤٨٦- إنَّ خير من استأجرت القوي الأمين:

قال تعالى حكاية عن قول ابنة شعيب لأبيها: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾(٩٥٦). أي لرعي هذه الغنم، إنَّ خير من أردت جعله أجيراً القوي على العمل المؤتمن فيه(٩٥٧). وهذا الكلام من ابنة شعيب كلام حكيم

---

(٩٥٣) سورة القصص، الآية ٢٥.

(٩٥٤) تفسير الكشاف للزمخشري ج٣ ص٤٠٢، تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٨٤.

(٩٥٥) تفسير الزمخشري ج٣ ص٤٠٣.

(٩٥٦) سورة القصص الآية ٢٦.

(٩٥٧) تفسير القاسمي ج١٣ ص١٠٢.

جامع لا يزاد عليه، لأنَّهُ إذا ضُمِنَتْ هاتان الخَصلتان أعني الكفاية والأمانة في القائم بأمرك، فقد فرغ بالك من القلق وتم مرادك في الاطمئنان على حقك، لأنَّ أمرك بيدٍ قوية أمينة[٩٥٨]، ولما وصفت ابنة شعيب موسى بالقوة والأمانة قال لها أبوها: ومن أين عرفت هذا منه؟فقالت: أما قوته ففي رفع الصخرة عن البئر ليسقي لنا غنمنا، وأما أمانته ففي طلبه مني أن أسير خلفه، فإذا اختلف عليه الطريق قال لي: فارم لي بحصاة أعلم بها كيف الطريق لأهتدي إليه[٩٥٩]. وما أحسن ما أخذ عمر بن الخطّاب رضي الله عنه هذا المعنى فقال: أشكو إلى الله ضعف الأمين وخيانة القوي، ففي مضمون الشكاية سؤال الله تعالى أن ييسر له من يجمع الوصفين: القوةَ والأمانة ليستعين به في إدارة شؤون دولته[٩٦٠].

٤٨٧- شعيب يعرض ابنته على موسى ليتزوجها:

قال تعالى مخبراً عما قاله شعيب لموسى عليهما السلام: ﴿ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴾[٩٦١] ولما سمع شعيب قول ابنته في موسى من القوة والأمانة عرض عليه أن يزوجه إحدى ابنتيه على أن يرعى غنمه ثماني سَنين، فإنْ تبرع بزيادة سنتين فهذا له، وإلَّا ففي الثماني كفاية. فقال موسى: أيما المدتين قضيت فلا حرجَ عليّ ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ﴾ أي شاهد وحفيظ[٩٦٢].

٤٨٨- عرض الرجل ابنته على الرجل الصالح سنة قديمة وقائمة:

ويستفاد من قول الله تعالى حكاية عن شعيب: ﴿ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ . . ﴾ جواز أن يعرض الرجل ابنته أو من هي تحت ولايته على الرجل

---

(٩٥٨) تفسير الزمخشري ج٣ ص٤٠٣.
(٩٥٩) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٨٥، تفسير ابن عطية ج١١ ص٢٨٩.
(٩٦٠) تفسير القاسمي ج١٣ ص١٠٣.
(٩٦١) سورة القصص الآيتان ٢٧، ٢٨.
(٩٦٢) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٨٥، تفسير القاسمي ج١٣ ص١٠٣.

الصالح ليتزوجها، ولا غضاضة في ذلك، فعله شعيب، وفعله الصالحون من أمّةِ محمد ﷺ، مما يدل على أنَّ هذا الأمر سُنَّةٌ قديمة وهو سنة قائمة في الشريعة الإسلامية، فقد أخرج الإمام البخاريُّ في صحيحه أنَّ عمر بن الخطاب عرض ابنته حفصة على عثمان بن عفان ولما لم يبدِ رغبة في نكاحها، قال عمر: فلقيت أبا بكر فقلت: إن شئتَ زوّجْتُكَ ابنتي حفصة فصمت أبو بكر فلم يُرْجِعْ إليّ شيئاً فلبثت ليالي ثم خطبها رسول الله ﷺ فأنحكتُها إياه.. الخ. وجاء في شرح هذا الحديث «وفيه عرض الإنسان بنته وغيرها من مولياته على من يعتقد خيره وصلاحه لما فيه من النفع العائد على المعروضة عليه وأنه لا استحياء في ذلك»[٩٦٣].

٤٨٩- خروج موسى بأهله من مدين:

قال تعالى عن موسى: ﴿ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾[٩٦٤]. والمعنى: لما قضىٰ موسى الأجل المتفق عليه، وهو ثماني سنين أو عشر، وإنه اختار الأكمل منهما، سار بأهله خارجاً من مدين متوجهاً إلى مصر، فأبصر ناراً فقال لأهله: ابقوا هنا فأني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بخبر عن الطريق من ضوئها أو ممن عندها، أو جذوةٍ من النار، أي قطعة منها لعلكم تصطلون أي تستدفئون بها[٩٦٥].

٤٩٠- تكليم الله لموسى:

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ

(٩٦٣) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٩ ص١٧٥-١٧٨.
(٩٦٤) سورة القصص الآية ٢٩.
(٩٦٥) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٨٧.

فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾[966] والمعنى: ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا ﴾ يعني أتى موسى الشجرة، قدم ضميرها عليها، ﴿ نُودِىَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ﴾ أي أتاه النداء من شاطىء الوادي من قبل الشجرة ﴿ ٱلْأَيْمَنِ ﴾، أي عن يمين موسى. وقيلَ عن يمين الجبل ﴿ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ ﴾ وبركة البقعة هي ما خصت به من آيات الله تعالى وأنواره وتكليمه لموسى عليه السلام ﴿ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ أي من ناحية الشجرة، وهذا يقتضي أَنَّ موسى عليه السلام سمع ما سمع من كلام الله من جهة الشجرة، أي أنَّ الله تعالى كلّم موسى عليه السلام من فوق عرشه وأسمعه كلامه من ناحية الشجرة على ما شاء الله تعالى[967].

٤٩١- ما كلّم الله به موسى:

وجاء في كلام الله تعالى لموسى: ﴿ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي الذي يخاطبك ويكلمك هو الله ربُّ العالمين الفعال لما يشاء لا إله غيره ولا ربَّ سواه تعالى وتقدس وتنزه عن مماثلة المخلوقات في ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله[968].

وقال تعالى لموسى: ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴾.

والمعنى أنَّ الله تعالى أمر موسى بإلقاء العصا فألقاها، فانقلبت حيّة عظيمة ولها اضطراب الجانّ ولها صفير الحيات، فجمعت هول الثعبان ونشاط وسرعة حركة الجانّ ﴿ وَلَّىٰ مُدْبِرًا ﴾ أي أعرض موسى بوجهه عنها جاعلاً ظهره إليها وهو فزع خائف منها ﴿ وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ أي لم يرجع من توليه، فقال الله تبارك وتعالى له: ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴾ وهذا من تأمين الله تعالى إياه، فرجع موسى ووقف في مقامه الأول. ثم قال الله تعالى له: ﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾ أي

---

(٩٦٦) سورة القصص الآيات ٣٠-٣٢.

(٩٦٧) تفسير ابن عطية ج١١ ص٢٩٦، تفسير القرطبي ج١٣ ص٢٨١-٢٨٢.

(٩٦٨) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٨٨.

أدخل يدك في جيبك وهو فتح الجبة من حيث يخرج رأس الإنسان، تخرج بيضاء من غير برص أو عيب، أي إذا أدخلتَ يدك في جيب درعك ثم أخرجْتَها فإنها تخرج تتلألأ كأنها قطعة قمر في لمعان البرق، ولهذا قال: ﴿ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾ أي من غير برص ونحوه من العيوب ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ﴾ والجناح اليد، والرهب الخوف، والمعنى: إذا هالك أي إذا أخافك أمر يدك وشعاعها فأدخلها في جيبك واردها إليه تعد كما كانت. وقيل: أمره الله تعالى أن يضم يده إلى صدره فيذهب عنه خوف الحية، وقال ابن كثير: والظاهر أنَّ المراد أعم من هذا وهو أنَّ الله تعالى أمر موسى عليه السلام إذا خاف من شيءٍ أن يضم إليه جناحه أي يده فيضعه على صدره، فإذا فعل ذلك ذهب عنه ما يجده من الخوف، وربما إذا استعمل أحدٌ ذلك على سبيل الاقتداء بموسى عليه السلام فوضع يده على فؤاده فإنه يزول عنه ما يجده من الخوف إن شاء الله تعالى، وهذا مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما(٩٦٩).

قوله تعالى مخاطباً موسى: ﴿ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴾ يعني إلقاءَ العصا وجعلها حية تسعى، وإدخالَه يده في جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء دليلان قاطعان واضحان على قدرة الله تعالى الفاعل المختار وعلى صحة نبوة موسى، ولهذا قال تعالى: ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ﴾ أي وقومِهِ من الرؤساء والكبراء والأتباع ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴾ أي خارجين عن طاعة الله مخالفين لأمره ودينه(٩٧٠).

٤٩٢- ما قاله موسى لربه تعالى:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾(٩٧١) لما أمر الله تعالى موسى بالذهاب إلى فرعون وهو الذي إنما خرج من ديار مصر فراراً منه وخوفاً من سطوته قال موسى

---

(٩٦٩) تفسير القرطبي ج١٣ ص٢٨٤، تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٨٨، تفسير ابن عطية ج١١ ص٢٩٧، تفسير القاسمي ج١٣ ص١٠٥.

(٩٧٠) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٨٨.

(٩٧١) سورة القصص الآيتان ٣٣، ٣٤.

عليه السلام لربه تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا ﴾ يعني ذلك القبطيَّ الذي كان يخاصم الإسرائيليَّ ﴿ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ أي إذا رأوني. ﴿ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا ﴾ أي فيكون أحسن مني بياناً، ولا يتحمل ذلك ما لم يُكَلف بمثل ما كُلفت به، ﴿ فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا ﴾ أي وزيراً ومعيناً ومقوياً يصدقني فيما أقوله ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ أي أخاف أن يتفقوا على تكذيبي المؤدي إلى إلحاق أنواع الأذى بي، وإنما طلب موسى من ربه أن يرسل معه أخاه هارون بأنْ يجعله رسولاً فيتفضّلَ عليه بالنبوة والرسالة إلى فرعون كما جاء في آية أخرى حكاية عما قاله وطلبه موسى: ﴿ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴾[٩٧٢] أي أشركه فيما أمرتني به من القيام بأعباء النبوة والرسالة إلى فرعون، هذا الملك المتكبر الجبار العنيد[٩٧٣]. وفي تفسير الزمخشري: ﴿ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴾ أي أجعله شريكي في الرسالة[٩٧٤].

٤٩٣- معنى: ﴿ فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي ﴾

ومعنى قوله تعالى حكاية عن قول موسى: ﴿ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي ﴾ قال ابن كثير: يصدقني فيما أقوله وأخبر به عن الله عز وجل لأنَّ خبر الاثنين أكثر تأثيراً في النفوس من خبر الواحد، وأقرب إلى القبول والتصديق ولهذا قال: ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ وقال محمد بن إسحاق: ﴿ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي ﴾ أي يبين لهم عني ما أكلمهم به فإنه يُفْهِمُ عني مالا يفهَمون[٩٧٥]. وما قاله محمد بن اسحاق قاله الزمخشري في تفسيره فقد جاء فيه: فإن قلت: تصديق أخيه ما الفائدة فيه؟ قلت: ليس الغرض بتصديقه أن يقول له: صدقت؟ أو يقول للناس صدق موسى، وإنما هو أن يلخص بلسانه الحقَّ الذي جاء به موسى من ربه، ويبسط القول فيه ويجادلَ به الكفار كما يفعل الرجل المنطيقُ ذو العارضةِ، فذلك جارٍ مجرى التصديق المفيد كما يصدق القول بالبرهان، ألا ترى إلى قوله: ﴿ وَأَخِي

---

(٩٧٢) سورة طه الآيات ٢٩-٣٢.

(٩٧٣) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٨٩.

(٩٧٤) تفسير الزمخشري ج٣ ص٦٠.

(٩٧٥) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٨٩.

﴿هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ وفضل الفصاحة إنما يُحتاج إليه لذلك، لا لقوله صدقت[٩٧٦].

٤٩٤- الراجح في معنى الآية:

والراجح عندي في معنى الآية: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ﴾ هو ما قاله ابن كثير ومحمد بن اسحاق والزمخشري، ذلك أنَّ بيان هارون يتضمن تصديق موسى فيما يخبر به عن ربه، فيتحقق فيه ما قاله ابن كثير: أنَّ خبر الاثنين أنجع في النفوس من خبر الواحد، وأنَّ بيان هارون أو فصاحته في توضيح ما جاء به موسى من ربه يعني تصديقه به ويحمل السامعين على تصديقه لما في توضيحه من احتمال قبوله.

٤٩٥- أجاب الله طلب موسى:

قلنا: إنَّ موسى عليه السلام طلب من ربه أن يُرسِلَ معه أخاه هارون ويشركه في الرسالة إلى فرعون؛ لأنّهُ أفصح من موسى لساناً، وقد أجابهُ الله تعالى إلى طلبه: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾[٩٧٧] أي سنقوي أمرك ونعز جانبك بأخيك الذي سألت له أن يكون نبياً معك كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَـٰرُونَ نَبِيًّا﴾ ولهذا قال بعض السلف: ليس أحد أعظم منه على أخيه من موسى على هارون فإنه شفع فيه حتى جعله الله نبياً ورسولاً معه إلى فرعون وملئه. وقوله تعالى: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا﴾ أي حجة باهرة ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ أي لا سبيل لهم إلى الوصول إلى أذاكما بسبب إبلاغكما آياتِ الله ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ أي أَنَّ العاقبة لكما ولمن اتبعكما في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾[٩٧٨].

---

(٩٧٦) تفسير الزمخشري ج٣ ص٤٠٩-٤١٠.

(٩٧٧) سورة القصص الآية ٣٥.

(٩٧٨) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٨٩.

المبحث الثاني
استكبار فرعون وإفساده
وحال الناس معه

٤٩٦- استكبار فرعون وظلمه وإفساده:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾(٩٧٩) أي إنَّ فرعون تكبر وتجاوز الحدّ في الطغيان والظلم في أرض مصر، وجعل أهلها شيعاً أي فِرقاً وأصنافاً في خدمته وطاعته، يستضعف طائفة منهم وهم بنو إسرائيل يذبّح أبناءهم ويستحيي نساءهم إماتةً لرجالهم وتقليلاً لعددهم، إنه كان من المفسدين أي المتمكنين في الإفساد في الأرض بالمعاصي والتجبر وقهر العباد(٩٨٠).

٤٩٧- كان فرعون ممتازاً في الظلم والإفساد والاستكبار:

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ۝٣٠ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾(٩٨١). قوله تعالى: ﴿ مِن فِرْعَوْنَ ﴾ بدل من العذاب المهين كأنه في نفسه كان عذاباً مهيناً لإفراطه في تعذيب بني إسرائيل وإهانتهم(٩٨٢) ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ أي مستكبراً جباراً عنيداً(٩٨٣). وهذا كقوله تعالى فيه - أي في فرعون -

---

(٩٧٩) سورة القصص، الآية ٤.

(٩٨٠) تفسير الزمخشري ج٣ ص٣٩١، تفسير القرطبي ج١١ ص٢٤٨، تفسير القاسمي ج١٣ ص٩٥.

(٩٨١) سورة الدخان الآيتان ٢٩، ٣٠.

(٩٨٢) تفسير الزمخشري ج٤ ص٢٧٨.

(٩٨٣) تفسير ابن كثير ج٤ ص١٤٣.

في آية أخرى: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ أي إنه كان قاهراً في أرض مصر، وإنه لمن المسرفين المبالغين في الظلم والفساد والكبر والعتو والمتجاوزين الحدّ في الكفر، لأنُّه كان عبداً فادعى الربوبية[٩٨٤].

٤٩٨- جنود فرعون هم أدوات إفساده وظلمه:

قال تعالى بشأن الظالمين ومنهم فرعون: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَـٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْاْ فِي ٱلْبِلَـٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُواْ فِيهَا ٱلْفَسَادَ﴾ قال العوفي عن ابن عباس: الأوتاد الجنود الذي يشدون له أمره[٩٨٥]. فالجنود، وهم أعوان فرعون، هم أدوات ظلمه وبطشه وهكذا شأن كل متجبر ظالم حاكم في الأرض، لا يمكنه أن يظلم ويبطش بالناس إلاّ بجنوده، وهم أعوانه سواء كانوا عساكره أو غيرهم الذين يطيعونه وينفذون أوامره، ولهذا جمعهم الله بوصف الخطيئة قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَـٰطِـِٔينَ﴾[٩٨٦].

٤٩٩- حال قوم فرعون وملئه:

كان الملأ من قوم فرعون وأتباعُهم متلبسين بالفسق والظلم، قال تعالى: ﴿.. فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ۝٣٢﴾[٩٨٧] أي إلى فرعون وقومه من الرؤساء والكبراء والأتباع، ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾ أي خارجين عن طاعة الله مخالفينَ لأوامر دينه[٩٨٨]. وقال تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝١٠ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ﴾[٩٨٩] فقوم فرعون كانوا ظالمين، وقد استحقوا هذا الاسم من جهتين: من جهة ظلمهم أنفسهم بالكفر، ومن جهة ظلمهم

---

(٩٨٤) تفسير الزمخشري ج٢ ص٣٦٣، تفسير القرطبي ج٨ ص٣٧.

(٩٨٥) سورة الفجر الآيات ٩-١٢ وتفسير ابن كثير ج٤ ص٥٠٨.

(٩٨٦) سورة القصص، الآية ٨.

(٩٨٧) سورة القصص الآية ٣٢.

(٩٨٨) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٨٨.

(٩٨٩) سورة الشعراء الآيتان ١٠و١١.

لبني إسرائيل باستعبادهم لهم[990].

٥٠٠- استكبار أعوان فرعون:

إِن فرعون ما كان يستطيع أن يطغى ويتجبر ويظلم الناس ويفسد في الأرض لولا أنه يجدُ العون من أعوانه وعلى رأسهم جنده وعساكره، وقد علم أعوان فرعون هذه الحقيقة وهي أنهم في الحقيقة حماةُ فِرْعَونَ وبهم يحكم ويبطش ويظلم، فقاموا هم أيضاً بالاستكبار والظلم والإفساد في الأرض، قال تعالى عن فرعون وجنوده: ﴿ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ . . ﴾[991] أي طغوا وتجبروا وأكثروا في الأرض الفساد[992]. وهذا شأن كل حاكم طاغية في الأرض لا يتكبر ويتجبر ويطغى ويظلم ويفسد في الأرض إلاّ بإسنادٍ وعون من جنده وسائر أعوانه، ثم لا يلبث هؤلاء الأعوان أن يطغوا ويظلموا الناس ويفسدوا في الأرض مثل سيدهم وحاكمهم لأنهم يعلمون بأنهم هم سند الحاكم الطاغية، وأنه لولاهم لما بقي في حكمه وطغيانه، فهم إذن، إذا ظلموا الناس وأفسدوا في الأرض فلا يعاقبهم هذا الحاكم الطاغيةُ، لأنهم هم سنده وهو نفسه ظالم طاغية، وهكذا يعم البلاءُ عموم الناس لأنّهم أصبحوا محكومين من طغاة وظلمة على رأسهم الحاكم الطاغية، وليسوا محكومين من هذا الحاكم الطاغية فقط، وهذا أمرٌ مُشَاهَدٌ في الماضي والحاضِرِ في كل أمة ابتِليتْ أو تُبتَلى بحاكم ظالم طاغية، فهو لا يطغى وحده ولا يظلم وحده وإنما يشاركه في ظلمه وطغيانه سائرُ جنده وأعوانه، وهكذا يكثر الفساد في الأرض ويعمُّ الظلم والبلاء عموم الناس، حتى إذا حان أجل الظالمين وآنَ أوانُ هلاكهم هلكوا جميعاً: الحاكم الطاغية وأعوانه الطغاة كما حصل لفرعون وأعوانه وكما سنبينه فيما بعد ونذكر آيات القرآن العظيم في هلاكهم جميعاً.

---

(٩٩٠) تفسير الزمخشري ج٣ ص٣٠١.

(٩٩١) سورة القصص، الآية ٣٩.

(٩٩٢) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٩٠.

المبحث الثالث

مجيء موسى إلى فرعون
وما جرى له في مصر

٥٠١- الأمر بالذهاب إلى فرعون:

قال تعالى مخاطباً موسى وأخاه هارون: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾[٩٩٣]، أي اذهب أنت وأخوك بحججي وبراهيني ومعجزاتي، ولا تفترا في ذكر الله بل اذكرا الله في حال مواجهة فرعون ليكون ذكر الله عوناً لكما عليه وقوة وسلطاناً كاسراً له[٩٩٤].

﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ وفي هذه الآية وهذا الأمر الرباني عبرة عظيمة وهي أنَّ فرعون في غاية العتو والاستكبار وموسى صفوة الله من خلقه إذ ذاك ومع هذا أمره الله تعالى ألاّ يخاطب فرعون إلاَّ بالملاطفة واللين[٩٩٥]. كما أن في هذه الآية دليلاً على جواز الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأنَّ ذلك يكون باللين من القول لمن معه القوة وضمنت له العصمة، ألا ترى أنّ الله تعالى أمر نبيّهُ موسى بهذا الأسلوب من تبليغ الدعوة مع قوله تعالى لهما: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ فكيف بنا، فنحن أولى بذلك بالأخذ بهذا الأسلوب في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أي في تبليغ الدعوة إلى الله[٩٩٦] وقال ابن مسعود: القول الليّنُ قوله تعالى: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ والقول الجامع في القول الليّن أنّهُ هو القول الذي لا

---

(٩٩٣) سورة طه، الآيتان ٤٣، ٤٤.

(٩٩٤) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٥٣.

(٩٩٥) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٥٣.

(٩٩٦) تفسير القرطبي ج١١ ص١٩٩.

خشونة فيه مع وضوح الحق فيه. وإذا كان موسى قد أمره اللهُ بأنْ يقول لفرعون قولاً ليناً فَمَنْ دونَهُ أَحرى أن يقتديَ بذلك في خطابه وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر في كلامه(٩٩٧). ولعلَّ بهذا القول الليّنِ يتذكر فرعونُ أو يخشى، أي لعله يرجع عما هو فيه من الضلال والهلكة أو يخشى أي يُوجد طاعة لربه من خشيته منه(٩٩٨).

٥٠٢- خوف موسى وهارون من فرعون وتطمين الله لهما:

قال تعالى مخبراً عما قاله موسى وهارون بعد أن سمعا أمر الله لهما بالذهاب إلى فرعون: ﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾(٩٩٩). أي إننا نخاف أن يبادرنا بالعقوبة أو أن يطغى أي يزداد طغياناً بالعناد في دفع حججنا ثم يأمر بقتلنا، أو أن يطغى بالتخطي إلى أن يقول فيك ما لا ينبغي لجرأته عليك وقسوة قلبه(١٠٠٠). قال تعالى: ﴿ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ أي أنا حافظكما وناصركما أسمع وأرى ما يجري بينكما وبينه من قول وفعل فأفعل ما يوجبه حفظي ونصرتي لكما، وكأنه قيل: أنا حافظ لكما وناصر وسامع ومبصر، وإذا كان الحافظ والناصر كذلك تم الحفظ وصحت النصرةُ وذهبت المبالاة بالعدو(١٠٠١).

٥٠٣- ما أمر الله به موسى وأخاه أن يقولاه لفرعون:

قال تعالى مخاطباً موسى وأخاه هارون بعد أن طمأنهما وأزال عنهما الخوف من فرعون، قال تعالى لهما: ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾(١٠٠٢). أي فأتيا فرعون وقالا له: إنهما رسولا الله فخلّ عن بني إسرائيل بإطلاقهم من الأسر والعبودية وتسريحهم معنا بالسماح لهم بالخروج من

---

(٩٩٧) تفسير القرطبي ج١١ ص٢٠٠.
(٩٩٨) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٥٣.
(٩٩٩) سورة طه، الآيتان ٤٥، ٤٦.
(١٠٠٠) تفسير القاسمي ج١١ ص١٦٦.
(١٠٠١) تفسير الزمخشري ج٣ ص٦٦.
(١٠٠٢) سورة طه الآيتان ٤٧، ٤٨.

مصر، ولا تعذبهُم بذبح أبنائهم واستخدام نسائهم وتكليفهم من الأعمال ما لا يطيقون، قد جئناك بآية أي ببرهان وحجة على ما ادعيناه من الرسالة عن رب العالمين، والسلام على من اتبع الهدى، أي من اتبع هدى الله سلم من سخطه وعذابه، وفي هذا ترغيب في اتباعهما بألطف وجه، إنا قد أُوحِيَ إلينا من ربنا أَنَّ العذاب على من كذّب بآياته تعالى وتولى أي أعرض عنها، وفي هذا الأسلوب تلطيف في الوعيد حيث لم يُصرّحا بحلول العذاب به[١٠٠٣].

٥٠٤- حوار بين فرعون وموسى:

قال تعالى مخبراً عما قاله فرعون لموسى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾[١٠٠٤] قال موسى عليه السلام كما أخبرنا الله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[١٠٠٥] أي أعطى ربنا تعالى كل شيءٍ من الأنفس البشرية وغيرِها صورتَه وشكلَهُ الذي يطابق المنفعة المنوطة به فسوّاه بها وعدّله، فأعطى العين الهيئة التي تطابق الإبصار، والأذن الشكل الذي يوافق الاستماع وكذلك الأنف واليد والرجل واللسان. كلٌّ واحد منها مطابق لما علق به من المنفعة غيرُ نابٍ عنه، فالله تعالى خصَّ كل مخلوق بهيئة وصورة تناسبه، كما خصّ كل جزء من كل مخلوقٍ بهيئة وصورة تناسب المنفعة المنوطة به. كما أنَّ من معنى هذه الآية ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ أَنَّ الله تعالى أعطى كل شيء زوجه من جنسه ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ أي ثم إنَّ الله تعالى عرّف مخلوقه من الإنسان والحيوان كيف يرتفق بما أعطاه ووهبه ربه وكيف يتوصل إلى ما ينفعه ويحتاجه[١٠٠٦].

وخلاصة القول في معنى هذه الآية: إنَّ الله تعالى أعطى كل موجود من مخلوقاته خلقته وصورته وهيأته الخاصة به والمناسبة له، وأكمل الله تعالى ذلك له وأتقنه ثم

(١٠٠٣) تفسير القرطبي ج١١ ص٢٠٣، تفسير الزمخشري ج٣ ص٦٦-٦٧، تفسير القاسمي ج١١ ص١٦٧.

(١٠٠٤) سورة طه الآية ٤٩.

(١٠٠٥) سورة طه، الآية ٥٠.

(١٠٠٦) تفسير الزمخشري ج٣ ص٦٧، تفسير القرطبي ج١١ ص٢٠٤، تفسير القاسمي ج١١ ص١٦٧.

هدى، أي يسرَّ كل شيءٍ لما يتوصل به إلى منافعه ومرافقه[1007].

٥٠٥- سؤال فرعون وجواب موسى له:

قال تعالى مخبراً عما سأل عنه فرعونُ بعد أن سمع جواب موسى له: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾[1008] أي إنَّ فرعون لما أخبره موسى بأنَّ ربه الذي أرسله هو الذي أعطى كل شيءٍ خلقه ثم هدى، شرع فرعون يحتج بالقرون الأولى أي الذين لم يعبدوا الله، أي فما بالهم إذا كان الأمر كذلك لم يعبدوا ربّك بل عبدوا غيره؟ فأجابه موسى: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾[1009] أي هم - وإن لم يعبدوا الله - فإنَّ عملهم عند الله مضبوط عليهم وسيجزيهم بعملهم، فإنَّ أعمالهم محصيّة عليهم في كتاب الله فإنّهُ ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ أي لا يشذُّ عنه شيءٌ ولا يفوته صغير ولا كبير ولا ينسى شيئاً، فعلمه تعالى محيط بكل شيءٍ[1010]، ثم قال موسى لفرعون مبيناً له بعض ما وصف به ربَّه الذي سأل فرعون عنه: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ (٥٣) كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِي ٱلنُّهَىٰ (٥٤) ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾[1011]. أي هو الذي جعل لكم الأرض قراراً تستقرون عليها وتقومون وتنامون عليها، وجعل لكم طرقاً تمشون في مناكبها، وأنزل من السماء ماء فأخرج به أصنافاً من مختلف النباتات من الزروع والثمار، وإنَّ في ذلك لدلالاتٍ وحججاً وبراهينَ لذوي العقول السليمة المستقيمة على أنْ لا إله إلاّ الله ولا ربَّ سواه، الذي خلقكم من الأرض، لأنَّ أباكم آدم مخلوق من تراب من أديم الأرض، وفي الأرض معادكم، أي إليها تصيرون بعد موتكم ومن الأرض تخرجون تارة أخرى[1012].

(١٠٠٧) تفسير ابن عطية ج١٠ ص٣٦.

(١٠٠٨) سورة طه، الآية ٥١.

(١١٠٩) سورة طه، الآية ٥٢.

(١٠١٠) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٥٥.

(١٠١١) سورة طه، الآيات ٥٣-٥٥.

(١٠١٢) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٥٦.

٥٠٦- فرعون يذكّر موسى بماضيه وبما فعله:

وكان من جملة محاورة فرعون لموسى أن ذكّره بنشأته في بيته وبقتله القبطيَّ من قومه قال تعالى حكاية عما قاله فرعون لموسى: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[١٠١٣] أي قال فرعون لموسى أنت الذي ربيناه في بيتنا وأنعمنا عليه مُدّةً من السنين ثم بعد هذا قابلت ذلك الإحسان بتلك الفعلة التي فعلتها بأنْ قتلت منا رجلاً وبهذا كنت من الكافرين أي الجاحدين لنعمتنا عليك[١٠١٤].

٥٠٧- جواب موسى لفرعون:

﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[١٠١٥] أي قال موسى لفرعون: فعلتها حينئذ وأنا من الجاهلين بأنَّ وكزتي إياه تقضي عليه، ففررت منكم لما خفتكم أن تقتلوني على القتل الخطأ الذي وقع مني، فنجانيَ الله منكم وزادني إنعاماً فوهب لي حكماً أي حكمة أو نبوة وجعلني من المرسلين لإبطال دعواك الربوبيةَ ودعوتك وقومك إلى عبادة الله وحده[١٠١٦]. ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي وما أحسنت إليّ وربيتني مقابل ما أسأتَ إلى بني إسرائيل، فجعلتهم عبيداً وخدماً تصرفهم في أعمالك، فهل يفي إحسانُكَ إليَّ وأنا رجل واحد منهم بما أسأتَ إلى مجموعهم؟ أي ليس ما ذكرته من إحسانك لي شيئاً بالنسبة إلى ما فعلته بهم[١٠١٧].

٥٠٨- فرعون يدعي لنفسه الألوهية:

قال تعالى مخبراً عن ادعاءِ فرعون لنفسه الألوهية: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ

(١٠١٣) سورة الشعراء الآيتان ١٨، ١٩.

(١٠١٤) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٣٢.

(١٠١٥) سورة الشعراء الآيات ٢٠-٢٢.

(١٠١٦) تفسير ابن عطية ج١١ ص٩٩، تفسير القاسمي ج١٣ ص٩.

(١٠١٧) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٣٢.

﴿... إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾(١٠١٨).

يخبر تعالى عن كفر فرعون وطغيانه وافترائه في دعواه الألوهيّةَ لنفسه وأنّهُ لا إله لهم غيره، وأنَّ ادعاء موسى بأنَّ له إلهاً غيره ادعاءٌ كاذب، وأنّهُ - لعنه الله - أمرَ وزيره ومدير رعيته ومشيره هامان أن يوقد له على الطين، أي يتخذ له آجُرّاً لبناء الصرح، وهو القصر المنيف الرفيع العالي ليطلع بزعمه إلى إله موسى، وإنما أراد بهذا أن يظهر لرعيته تكذيب موسى فيما زعمه من دعوى وجود إله غير فرعون، ثم إنَّ فرعون واجه موسى عليه السلام بهذه الدعوى، دعوى الألوهيّة لنفسه وهدده بالسجن إن لم يصدقه بذلك ويطعْهُ ويسلِّمْ له بألوهيّته، فقال كما أخبرنا الله عنه: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾(١٠١٩).

٥٠٩- فرعون يدعي لنفسه الربوبية:

وكما ادعى فرعون لنفسه الألوهية كذباً وزوراً ادعى لنفسه الربوبية تجبراً وطغياناً قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾(١٠٢٠).

والمعنى أنَّ الله تعالى أمر موسى بالذّهاب إلى فرعون الذي تمرد وتجبر وعتا، وأَنْ يقول له: هل لك أَنْ تتطهر من الكفر والشرك وأُرشدَكَ إلى معرفة الله ولزوم عبادته فتخشى، لأنَّ الخشية لا تكون إلاّ بمعرفة الله معرفة تفضي إلى عبادته قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ أي العلماء بالله، وَذَكَر الخشية لأنَّها ملاك الأمر، فإنَّ من خشي الله أتى منه كل خير ومن أَمِنَ ولم يخشَ اللهَ اجترأ على كل شر. فأراه موسى الآية الكبرى وهي قلب العصا حيَّةً فكذّب فرعونُ بموسى وبالآية الكبرى ثم أدبر يسعى، أي تولى عن موسى يسعى ويجتهد في مكايدته، فحشر: أي فجمع السحرة فنادى في المقام الذي اجتمعوا فيه معه أو قام في قومه فنادى قائلاً: ﴿أَنَا۠

(١٠١٨) سورة القصص الآية ٣٨.

(١٠١٩) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٩٠.

(١٠٢٠) سورة النازعات الآيات ١٥-٢٤.

﴿رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: وهذه الكلمة قالها فرعون بعد قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ بأربعين سنة[١٠٢١].

٥١٠- استهزاء فرعون وملئه بموسى وآياته:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾[١٠٢٢] يقول تعالى مخبراً عن موسى عليه السلام: إنه أرسله إلى فرعون وملئِهِ من الأمراء والوزراء والقادة والأتباع والرعايا من القِبْطِ وبني إسرائيل يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وينهاهم عن عبادة ما سواه، وأنه تعالى بعث معه آياتٍ عظاماً كيدِهِ وعصاه، وما أرسل معه من الطوفان والجراد والقمّلِ والضفادع والدم وغيرها التي سنتكلم عنها فيما بعد إن شاء الله تعالى، ومع هذا كله استكبروا عن اتباعها والانقياد لها وكذبوها وسخروا منها وضحكوا ممن جاء بها[١٠٢٣]، وخصّ الله تعالى الملأ بالذكر لأنهم يسدّون مسدّ جميع الناس[١٠٢٤] أي باعتبار أنَّ الناس تبعٌ لهم.

٥١١- منطق فرعون في تفضيل نفسه على موسى:

قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾[١٠٢٥] ولما رأى فرعون تلك الآيات التي جاء بها موسى خاف ميل قومه إليها وإلى موسى، فجمع قومه فنادى فيهم متبجحاً مفتخراً بمُلْكِ مصر وتصرفه فيها، وبجريان الأنهار من تحت قصره أو قصوره قاصداً بذلك أن يبيّن فضله على موسى عليه السلام، إذ هو مَلِكُ مصر وصاحب الأنهار والمتنفذ فيها، وموسى عليه السلام - بزعم فرعون - خامل متعطل ضعيف حقير لا سلطان له، وأنه لو أنَّ إله موسى يكون حقاً كما يزعم لما تركه

(١٠٢١) تفسير الزمخشري ج٤ ص٦٩٥-٦٩٦، تفسير ابن كثير ج٤ ص٤٦٨.

(١٠٢٢) سورة الزخرف، الآيتان ٤٦، ٤٧.

(١٠٢٣) تفسير ابن كثير ج٤ ص١٢٨.

(١٠٢٤) تفسير ابن عطية ج١٣ ص٢٣٢.

(١٠٢٥) سورة الزخرف الآيات ٥١-٥٣.

هكذا، ثم احتجَّ بمنطقة الهزيل على ما يقول بأنَّ موسى لا يكاد يبين، أي لا يكاد يوضح ما يريد بكلامه. ثم خلص فرعون بمنطقه هذا إلى القول لقومه بأنه هو خير من موسى. ثم أراد فرعون أن يزيد في حجته الساقطة فقال: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ وهي ما يُجْعَل في الأيدي من الحلي على عادة أهل ذلك الزمن وزي أهل الشرف، ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ أي مقترنين به يمشون معه ويعاونونه على من خالفه، والمعنى: هلا ضمَّ إليه الملائكة التي يزعم - أي موسى - أنها عند ربه حتى يتكثر بهم ويستعين بهم على أمره ونهيه فيكون ذلك أهيب في القلوب؟[١٠٢٦].

٥١٢- اتهامُ فرعونَ موسى بالسحر:

قال تعالى حكاية عن حوار فرعون مع موسى: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾[١٠٢٧]. لما انقطع فرعون في باب الحجة والبرهان رجع إلى الاستعلاء والتغلب، وهذا أبين علاماتِ الانقطاع، فتوعَّدَ موسى عليه السلام حين أعياه خطابه وظهرت حجته، توعَّدَهُ بالسجن. فقال له موسى عليه السلام على جهة التلطف والطمع في إيمانه: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ﴾ يتضح لك معه صدقي أفكنت تسجنني؟ فلما سمع فرعون ذلك طمع في أن يجد أثناءه موضع معارضة فقال له: ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ أي إنَّ فرعون طلب من موسى أن يأتي بما عنده مما يدل على صدقه بأنه رسول رب العالمين، فألقى موسى عصاه فإذا هي ثعبان مبين أي ظاهر الثعبانية، والثعبان ما يكون من الحيّاتِ. ونزع موسى عليه السلام يده من جيبه فإذا هي تتلألأ كأنها قطعة من الشمس، وكان بياضها النوريُّ مما يجتمع النظارة على النظر إليه لخروجه عن المألوف والمعتاد. فلما رأى فرعون ذلك هاله وأفزعه ولم

(١٠٢٦) تفسير القرطبي ج١٦ ص٩٨-١٠٠، تفسير ابن كثير ج٤ ص١٢٩-١٣٠، تفسير الزمخشري ج٤ ص٢٥٧- ٢٥٨، تفسير ابن عطية ج٣ ص٢٣٥-٢٣٧.

(١٠٢٧) سورة الشعراء الآيات ٢٩-٣٤.

يكن عنده ما يدفعه به غيرَ رميه بالسحرِ، وطمع - لعنه الله - بما عند قومه من المعرفة بالسحر أن يكون له فيه سبب لمقاومة موسى عليه السلام فأوهم قومه وأتباعه بأنَّ موسى عليه السلام ساحر[1028].

٥١٣- فرعون وملؤه يتهمون موسى بالسحر وبالرغبة في الملك:

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ۝٧٥ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧٦ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ۝٧٧ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾[1029]. أي بعثنا من بعد الرسل بموسى وهارون إلى فرعون وملئِهِ، والملأ يطلق على كبراء القوم وسادتهم، كما يطلق ويراد به عامّةُ القوم، وفي هذه الآية يراد بالملأ قومُ فرعون؛ لأَنَّ بعثة موسى وهارون كانت إلى فرعون وجميع قومه من شريف ومشروف[1030]. فاستكبروا عن قبول آيات الله تعالى التي أيدَّ بها موسى وهارون، وكانوا قوماً مجرمين: أي كفاراً ذوي آثام عظام فلذلك استكبروا عنها واجترؤوا على ردها: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا ﴾ أي فلما عرفوا أنّهُ هو الحق وأنه من عند الله لا من قبل موسى وهارون قالوا - لحبهم الشهوات والرياسةَ - إنَّ هذا لسحرٌ مبين[1031].

ثم قالوا لموسى عليه السلام: ﴿ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا ﴾ أي لتصرفنا عن دين آبائنا وعبادتهم الأصنام[1032]، ﴿ وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ثم جاء فرعون وملؤه باتهام جديد لموسى وأخيه هارون وهو رغبتهما في العظمة والرياسة في أرض مصر[1033]، وفي تفسير القرطبي ﴿ وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي تكون لكما

(١٠٢٨) تفسير ابن عطية ج١١ ص١٠٣-١٠٥، تفسير الزمخشري ج٣ ص٣١٠.

(١٠٢٩) سورة يونس، الآيات ٧٥-٧٨.

(١٠٣٠) تفسير ابن عطية ج٧ ص١٩٠-١٩١.

(١٠٣١) تفسير الزمخشري ج٢ ص٣٦٢.

(١٠٣٢) تفسير ابن عطية ج٧ ص١٩٣، تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٢٦ تفسير الزمخشري ج٢ ص٣٦٣.

(١٠٣٣) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٢٦.

العظمة والملك والسلطان في أرض مصر. ويقال للمُلْكِ: الكبرياء لأنَّهُ أعظم ما يطلب في الدنيا(١٠٣٤).

٥١٤- فرعون يستشير الملأ فيما يفعله بموسى:

ولما رأى فرعون معجزة موسى: العصا واليد، قال تعالى: ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ۝٣٢ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ قال فرعون - كما أخبرنا الله عنه -: ﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ۝٣٤ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾(١٠٣٥) استشار فرعون الملأ حوله وهم كبراء القوم وساداتهم وأعوان فرعون وخاصته، استشارهم في أمر موسى وماذا ينبغي أن يفعلَ به، وأغراهم به في قوله: ﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ﴾ أي قال فرعون للملأ: إنَّ موسى يريد أن يستجلب قلوب الناس بسحره هذا، فيكثُرَ أعوانه وأنصاره وأتباعه ويغلبكم على دولتكم فيأْخُذَ البلاد منكم، فأشيروا عليَّ فيه ماذا أصنع به(١٠٣٦)؟. والواقع أنَّ فرعون تحيّر لما رأى معجزتيْ موسى: العصا واليد، وأصابه الخوف، حتى زال عنه ذِكْرُ ادعائه الألوهية، وذهب عنه كبرياؤه وادعاؤه الربوبية، وبلغت به الاستكانة والضعف للملأ الذين هم بزعمه عبيده وهو إلّههم إلى مرتبة أصبح فيها يستشيرهم بأمر موسى، ويستأمرهم فيه أي يطلب أمرهم فيما يفعله مع موسى، وهكذا جعل فرعون العبيد آمرين، وربَّهم - وهو فرعون بزعمه - مأموراً لما استولى عليه من فرط الدهشة والحيرة(١٠٣٧). وهكذا تظهر حقيقة الطغاة المتجبرين المستكبرين إذا قرعتهم حجج الحق وظهر زيفهم وباطلهم.

٥١٥- ما أشار به الملأ على فرعون بشأن موسى:

وقد أشار الملأ على فرعون ما أخبرنا الله به بقوله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝٣٦ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾(١٠٣٨) أي قال الملأ لفرعون مشيرين

(١٠٣٤) تفسير القرطبي ج٨ ص٣٦٧.

(١٠٣٥) سورة الشعراء الآيتان ٣٤، ٣٥.

(١٠٣٦) تفسير ابن عطية ج١١ ص١٠٥، تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٣٣.

(١٠٣٧) تفسير الزمخشري ج٣ ص٣١٠.

(١٠٣٨) سورة الشعراء الآيتان ٣٦، ٣٧.

عليه بتأخير أمر موسى وأخيه حتى يجْمَعَ السحرةَ لمقاومته، ولم يشيروا بقتله؛ لأَنَّ حجته ظاهرة، فخشوا الفتنة وطمِعوا أن تكون الغلبةُ للسحرة فتسقط حجةُ موسى.
وهكذا فعل فرعون: جمع لموسى كلَّ سحّار عليم من مدائن مصر، ليقابلوا موسى ويأتوا بنظير ما جاء به، فتكون الغلبة والنصر له على موسى. وكانت مشورة الملأ لفرعون واستجابتهُ لهذه المشورة من تسخير الله وتدبيره، ليجتمع الناس في صعيد ليشهدوا هذه المقابلة والمغالبة بين موسى وسحرة فرعون، فتظهر آيات الله وحججه وبراهينه واضحةً جلية للناس(١٠٣٩).

٥١٦- مجيءُ السحرة إلى فرعون طامعين بمتاع الدنيا:

وهكذا أمر فرعون بتجميع السحرة من مختلف أنحاء مصر، فجاؤوه طامعين بمتاع الدنيا - الأجرة على مجيئهم - إن غلبوا موسى بما عندهم من السحر، فوعدهم فرعون ذلك وزاد عليه أَنْ وعدهم المنزلة الرفيعة عنده، قال تعالى: ﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾(١٠٤٠) أي قال السحرة لفرعون على وجه الاستخبار: هل يجعل لهم أجراً إن غلبوا أولاً، فلم يوجبوا على فرعون ذلك وإنما كانوا طامعين بالأجر فاستخبروه عنه، فقال لهم: نعم، وإنكم لمن المقربين أي لمن أهل المنزلة الرفيعة لدينا، فزادهم فرعون على ما طلبوا، ليحثهم على بذل أقصى الجهد لإظهار سحرهم على ما عند موسى(١٠٤١). وهكذا أتباع الطغاة يخدمونهم على طغيانهم وفجورهم طمعاً بما عندهم من متاع الدنيا، والطغاةُ يعلمون ذلك ويعطونهم ما يريدون، ليبقوا في خدمتهم وتبعيتهم لهم.

٥١٧- تعيين يوم المنازلة بين السحرة وموسى:

قال تعالى حكاية عما قاله فرعون لموسى وردّ موسى عليه: ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ

(١٠٣٩) تفسير ابن عطية ج١١ ص١٠٥، تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٣٣.
(١٠٤٠) سورة الأعراف الآيتان ١١٣، ١١٤.
(١٠٤١) تفسير القرطبي ج٧ ص٢٥٨.

﴿وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ۝٥٨ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾[1042]. يقول تعالى مخبراً عن فرعون إنه قال لموسى حين أراه الآية الكبرى، وهي إلقاء عصاه فصارت ثعباناً عظيماً، ونزع يده من تحت جناحه فخرجت بيضاء من غير سوء، فقال فرعون لموسى: هذا سحر جئت به لتسحرنا وتستولي به على الناس، فيتبعونك وتكاثرنا بهم ولا يتم لك هذا فإنَّ عندنا سحراً مثل سحرك، فلا يغرنَّك ما أنت فيه، فاجعل بيننا وبينك يوماً نجتمع نحن وأنت فنعارضُ ما جئت به بما عندنا من السحر في مكان معين ووقت معين، فعند ذلك قال لهم موسى: موعدكم يوم الزينة وهو يوم عيدهم وتفرغهم من أعمالهم، وأن يجمع الناس لمشاهدة المعارضة بين السحرة وموسى، في ضحوة من النهار ليكون الوقت أظهر وأجلى وأبين وأوضح للحق، وهكذا شأن الأنبياء، كلُّ أمرهم بيّنٌ واضحٌ ليس فيه خفاء، ولهذا لم يقل ليلاً ولكن نهاراً ضحى في مكان سُوى أي عدلاً منصفاً أي حالنا فيه مستوية، فكأنه قال: مكاناً قريباً منا قربَهُ منكم[1043].

٥١٨- اجتماع الناس في يوم المعارضة بين موسى والسحرة:

قال تعالى: ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝٣٨ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ۝٣٩ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾[1044] اليوم المعلوم: يوم الزينة وميقاته: وقت الضحى لأنه الوقت الذي وقتّه لهم موسى من يوم الزينة في قوله: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ واجتهد الناس في الاجتماع ذلك اليوم، وقال قائلهم: ﴿هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ﴾ استبطاءً لهم في الاجتماع، والمراد منه استعجالُهم واستحثاثُهم عليه، أي على الاجتماع والحضور في يوم ومكان المعارضة، وقولُ قائلهم: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ ليس معناه نتبعهم في السحر، وإنما أراد ما معناه: نتبعهم في نصرة ديننا وملتنا[1045].

(١٠٤٢) سورة طه، الآيات ٥٧-٥٩.

(١٠٤٣) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٥٦، تفسير ابن عطية ج١٠ ص٤٣-٤٤.

(١٠٤٤) سورة الشعراء، الآيات ٣٨-٤٠.

(١٠٤٥) تفسير ابن عطية ج١١ ص١٠٦، تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٣٤.

٥١٩- ما قاله موسى للسحرة وما تناجوا به فيما بينهم قبل المنازلة:

اجتمع الناس في مكان المعارضة في ضحى يوم الزينة، يوم عيدهم، وجلس فرعون على سرير مملكته، واصطف له أكابر دولته ووقف الناس يمنةً ويسرةً، وأقبل موسى عليه السلام متوكئاً على عصاه ومعه أخوه هارون، ووقفَ السحرة بين يدي فرعون صفوفاً، وهو يحرضهم ويحثهم ويرغّبهم في إجادة عملهم في ذلك اليوم ويتمنون عليه وهو يعدهم ويمنيهم. قال لهم موسى: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي لا تخيلوا للناس بأعمالكم إيجاد أشياء لا حقائق لها وبأنها مخلوقة وليست بمخلوقةٍ فتكونوا قد كذبتم على الله، كما حذرهم موسى بهذه المقالة أنْ لا يعتبروا ما يرونه منه من الآيات سحراً، وأن يتبعوا الحق إذا ظهر لهم وسيظهر، وإن لم يفعلوا ذلك أهلكهم الله بعذاب من عنده، وقد خسر من افترى على الله الكذبَ. ﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ﴾ أي تشاجروا فيما بينهم، فقائل يقول: ليس هذا بكلام ساحر إنما هذا كلام نبي، وقائل يقول: بل هو ساحر، وقيل غير ذلك، ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ﴾: أي تناجوا فيما بينهم في عرض آرائهم بجعلها سراً فيما بينهم، لأنَّ النجوى تعني السرّ والمسارة، وأنهم جعلوا عرض آرائهم سراً مخافة فرعونَ أن يتبين له أَنَّ فيهم ضعفاً وعدم تصميم على غلبة موسى. ثم قالوا: إنّ موسى وهارون ساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويغلباكم وقومكم ويستوليا على الناس، وتتبعهما العامة ويقاتلا فرعون وجنوده فينتصران عليه، ويخرجاكم من أرضكم ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ﴾، أي يذهبا بسيرتكم الفاضلة الحسنة وحالتكم الطيبة التي أنتم عليها، ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ﴾ أي ضمّوا سحركم بعضَهُ إلى بعضٍ ﴿ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا﴾ أي مصطفين، وتداعَوْا إلى هذا لأنه أهيبُ وأظْهَرلُهمْ، ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ﴾ أي ظفر ببغيته اليوم من طلب العلُوَّ في أمره وسعى سعيَه[١٠٤٦].

٥٢٠- بطلان سحر السحرة:

قال تعالى حكاية عما قاله موسى للسحرة: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا

(١٠٤٦) تفسير ابن عطية ج١٠ ص٤٥ وما بعدها، تفسير ابن كثير ج٣ ص١٥٧.

﴿يَأْفِكُونَ﴾[1047] وعندما حضر السحرةُ وحضر موسى بدأت المعارضة، فقال السحرة لموسى كما جاء في سورة طه: ﴿قَالُوا يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾[1048] وقد اختصر هذا هنا فقال لهم موسى: ﴿أَلْقُوا مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ...﴾، وقولهم ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما القسم، فكأنهم أقسموا بعزة فرعون، كما نقول بالله لا أفعل كذا وكذا فكان قسمهم بعزة فرعونَ غيرَ مبرور. والوجه الآخر أن يكون على جهة التعظيم لفرعون- إذ كانوا يعبدونه- والتبرُّك بإسمه، كما تقول إذا ابتدأت بعمل: باسم الله، وعلى بركة الله، ونحوَ هذا[1049]. وقد ذكر الله تعالى في سورة الأعراف أنهم: ﴿سَحَرُوٓا أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾[1050] وقال في سورة طه: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾[1051]، وقال تعالى ها هنا: ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ أي تختطفه وتجمعه من كل بقعة وتبتلعه فلم تدع منه شيئاً. وقال تعالى في سورة الأعراف عن نتيجة هذه المناظرة: ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1052] أي فظهر الحق وبطل سحر السحرة[1053].

٥٢١- إيمان السحرة:

ولما رأى السحرة انقلاب عصا موسى التي ألقاها إلى ثعبان مبين ابتلع ما ألقاه السحرة من عصي وحبال، عرفوا أنَّ هذا ليس بسحر، وإنما هو معجزة وبرهان ساطع على أنَّ موسى رسول من رب العالمين، فخروا ساجدين لله معلنين إيمانهم بالله رباً وبموسى رسولا، قال تعالى عن إيمان السحرة: ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾

(١٠٤٧) سورة الشعراء، الآيتان ٤٣، ٤٤.

(١٠٤٨) سورة طه، الآية ٦٥.

(١٠٤٩) تفسير ابن عطية ج١١ ص١٠٧.

(١٠٥٠) سورة الأعراف، الآية ١١٦.

(١٠٥١) سورة طه، الآيات ٦٦-٦٩.

(١٠٥٢) سورة الأعراف الآية ١١٨.

(١٠٥٣) تفسير القرطبي ج٧ ص٢٦٠.

﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٤٧ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾[1054] فكان إيمانهم أمراً عظيماً جداً وبرهاناً قاطعاً للعذر، وحجة دامغة على أنَّ موسى عليه السلام رسولٌ من رب العالمين، وذلك أنَّ الذين استنصر بهم فرعون وطلب منهم أن يغَلبوا غُلِبوا وخضعوا وآمنوا بموسى في الساعة الراهنة، وسجدوا لله رب العالمين الذي أرسل موسى وهارون بالحق وبالمعجزة الباهرة، فَغُلِبَ فرعونُ غُلباً لم يشاهد العالمُ مثله، فعدل إلى المكابرة والعناد ودعوى الباطل، فشرع يتهددهم ويتوعدهم[1055].

٥٢٢- فرعون يتهدد السحرة بالقتل لإيمانهم:

قال تعالى حكاية عن تهديد وتوعد فرعون للسحرة لإيمانهم: ﴿قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَ فَلَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٤٩﴾[1056] لما رأى فرعون والملأ إيمان السحرة، وقامت الحجة بإيمان أهل علمهم ومظنة نصرتهم، وقع فرعون في الورطة العظمى، فرجع إلى السحرة موبخاً لهم على إيمانهم بموسى قبل إذنه لهم بالإيمان، باعتباره أنه الحاكم المطاع[1057]. ثم احتج عليهم متهماً إياهم بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَ﴾ وهذه مكابرة يعلم كل أحد بطلانها، فإنَّهم لم يجتمعوا بموسى قبل ذلك اليوم، فكيف يكون كبيرَهُمُ الذي علمّهم صناعة السحر؟. ثم توعدهم فرعون بقطع الأيدي والأرجل والصلب[1058].

وفي سورة الأعراف قال تعالى حكاية عما اتهم به فرعون السحرة بعد إيمانهم: ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ۝١٢٣ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾[1059]. يتهم فرعونُ السحرة بالمكر، أي يتهمهم بأنه جرت بينهم وبين موسى مواطأة في الذي

(١٠٥٤) سورة الشعراء الآيات ٤٥-٤٨.

(١٠٥٥) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٣٤.

(١٠٥٦) سورة الشعراء، الآية ٤٩.

(١٠٥٧) تفسير ابن عطية ج١١ ص١٠٩.

(١٠٥٨) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٣٥.

(١٠٥٩) سورة الأعراف الآيتان ١٢٣-١٢٤.

جرى وهم في المدينة قبل أن يبرزوا إلى مكان المبارزة والمعارضة، وذلك لغرض الاستيلاء على مصر وطرد أهلها منها[١٠٦٠].

٥٢٣- جواب السحرة لفرعون:

تهددهم فرعون فلم ينفع ذلك فيهم، وتوعدهم فما زادهم إلاّ إيماناً وتسليماً، وذلك لأنه قد كُشِفَ عن قلوبهم حجاب الكفر، وظهر لهم الحق بعلمهم ما جهل قومهم من أَنَّ هذ الذي جاء به موسى لا يصدر عن بشر إلاَّ أن يكون الله قد أيده وجعله له حجة ودلالة على صدق ما جاء به من ربه، ولهذا لما هددهم بقطع الأيدي والأرجل والصلب، قالوا كما أخبرنا الله تعالى عنهم: ﴿قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ۝٥٠ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[١٠٦١]. الضر والضير والضرر واحد، أرادوا: لا ضرر علينا فيما تهددنا به ولا نبالي به ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ أي إنَّ مرجعنا إلى الله عز وجل وهو لا يضيع أجر من أحسن عملاً، ولا يخفى عليه ما فعلتَ بنا وسيجزينا على ذلك أَتمَّ الجزاء، ولهذا قالوا: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ﴾ أي ما قارفنا من الذنوب وما أكرهتنا عليه من السحر ﴿أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. أي بسبب أنا بادرنا قومنا من القبط وسبقناهم إلى الإيمان بالله وبما جاء به موسى من ربه[١٠٦٢]، فما كان من فرعون وقد سمع جوابهم إلاَّ أن يُنَفِّذَ فيهم ما هددهم به، فقتلهم وصلبهم على النيل، قال ابن عباس رضي الله عنه: (أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء)[١٠٦٣].

وفي سورة الأعراف حكى الله عنهم بعد أَنْ هددهم فرعون: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾[١٠٦٤] قالوا لفرعون: وما تنكر منا وتعيبنا عليه إلاَّ أن آمنا بالله وهو الحق لما جاءتنا آياته وبيناتُه: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ أي قالوا: ربنا هب لنا صبراً واسعاً تفيضه وتفرغه علينا

(١٠٦٠) تفسير القرطبي ج٧ ص٢٦٠.

(١٠٦١) سورة الشعراء، الآيتان ٥٠،٥١، وتفسير ابن كثير ج٣ ص٣٣٤.

(١٠٦٢) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٣٥.

(١٠٦٣) تفسير ابن عطية ج١١ ص١١٠.

(١٠٦٤) سورة الأعراف، الآية ١٢٦.

إفراغاً بتثبيتك إيانا على الإيمان، كما يفرغ الماء من القرب حتى لا يبقى في قلوبنا شيء من خوف غيرك، ولا من الرجاءِ فيما سوى فضلك، وتوفّنا إليك حال كوننا مسلمين لك مذعنين لأمرك ونهيك مستسلمين لقضائك غير مفتونين بتهديد فرعون وغير مطيعين له في قول ولا فعل(١٠٦٥).

وقال تعالى في سورة طه حكاية عما أجاب به السحرة فرعون على تهديده لهم بالقتل: ﴿ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾(١٠٦٦).

أي قال السحرة لفرعون لمّا توعدهم: ﴿ لَن نُّؤْثِرَكَ ﴾ أي لن نفضلك ونفضل السلامة منك على ما رأينا من حجة الله وآياته المبينات، ولن نختارك على ما حصل لنا من الهُدىٰ واليقين، وعلى الذي فطرنا، أي خلقنا وهو الله جلّ جلاله، الذي أنشأنا من العدم، المبتدىءُ خلقنا من الطين، فهو المستحق للعبادة والخضوع لا أنت ﴿ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ﴾ أي فافعل يا فرعون ما شئت ﴿ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴾ أي إنما قضاؤك في هذه الحياة الدنيا وتسلطك في هذه الدار، وهي دار الزوال ونحن قد رغبنا في دار القرار، التي لنا فيها النعيم ولك فيها العذاب المقيم. ﴿ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا ﴾ أي ما كان منا من الآثام، خصوصاً ما أكرهتنا عليه من السحر لتعارضَ به آية الله ومعجزة نبيه، ﴿ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ أي خير لنا منك ﴿ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ أي أدوم ثواباً مما كنت وعدتنا ومنيتنا به. وقال محمد بن كعب القُرظي: (والله خير لنا منك إن أطعناه وأبقى منك عذاباً إن عصيناه)(١٠٦٧). ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ.. ﴾ الخ الظاهر من السياق أنَّ هذا من تمام ما وعظ به السحرةُ فرعون يحذرونه من نقمة الله وعذابه الدائم السرمدي، ويرغبونه في ثوابه الأبديّ

(١٠٦٥) تفسير المنار ج٩ ص٧٥-٧٦.

(١٠٦٦) سورة طه، الآيات: ٧٢-٧٦.

(١٠٦٧) تفسير ابن عطية ج١١ ص٥٧-٥٩، تفسير ابن كثير ج٣ ص١٥٩.

الدائم، وذلك بقولهم بعد أن بينوا جزاءَ من يأتي ربه مجرماً: ﴿ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾(1068).

٥٢٤- إضلال فرعون قومه ومتابعتهم له:

قال تعالى: ﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴾(1069) أي أضلهم عن الرشد وما هداهم إلى خير ولا نجاة(1070)، فهو قد أضلهم من أول أمره إلى أنْ أهلكه اللهُ وأهلكهم بالغرقِ، ثم أكد الله تعالى إضلاله بقوله تعالى: ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ مقابلة لقول فرعون لقومه: ﴿ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾(1071).

وقال تعالى عن فرعون: ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ﴾(1072). أي استخف عقولهم، أي وجدهم خفاف العقول، فدعاهم إلى الضلالة ومتابعته في دعواه الألوهيَّةَ والربوبيّة لنفسه، فاستجابوا له وأطاعوه فيما دعاهم إليه من الكفر؛ لفسقهم ولما كانوا بسبيله من الفساد(1073).

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾(1074) يقول تعالى مخبراً عن إرسال موسى بآياته ودلالاته الباهرة إلى فرعون وملئِهِ ﴿فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ أي اتبعوا منهجه ومسلكه وطريقته في الغي ﴿ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ أي ليس فيه رشد ولا هدى، وإنما هو جهل وضلال وكفر وعناد(1075). وفي الآية تجهيلٌ لمتبعيه حيث شايعوه على أمره

(١٠٦٨) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٥٩-١٦٠، والآيات في سورة طه ٧٤-٧٦.

(١٠٦٩) سورة طه، الآية ٧٩.

(١٠٧٠) تفسير القرطبي ج١١ ص٢٢٩.

(١٠٧١) تفسير ابن عطية ج١٠ ص٦٤ والآية من سورة غافر ورقمها ٢٩.

(١٠٧٢) سورة الزخرف الآية ٥٤.

(١٠٧٣) تفسير ابن كثير ج٤ ص١٣٠، تفسير القرطبي ج١٥ ص١٠١، تفسير ابن عطية ج١٣ ص٢٣٨.

(١٠٧٤) سورة هود، الآيتان ٩٦، ٩٧.

(١٠٧٥) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٥٨.

وهو ضلال مبين لا يخفىٰ على من فيه أدنى ملكةٍ من العقل، ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴾[1076]. أي كما كان قدوة لهم في الضلال كذلك يتقدمهم إلى النار وهم يتبعونه، بئس الورد الذي يَرِدونَهُ النار[1077].

٥٢٥ إصرار قوم فرعون على كفرهم:

قال تعالى عن قوم فرعون: ﴿ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ ﴾[1078]. هذا إخبار من الله عز وجل عن تمرد قوم فرعون، وعتوهم وعنادهم للحق وإصرارهم على الباطل في قولهم: ﴿ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ. . ﴾ الخ أي: أيّةُ آيةٍ جئتنا بها أو دلالةٍ وحجّةٍ أقمتها رددناها فلا نقبلها منك ولا نؤمن بك ولا بما جئت به[1079].

٥٢٦- الملأ يهيّجون فرعون على موسى وقومه:

قال تعالى مخبراً عما قاله الملأ من قوم فرعون تهييجاً له على موسى وقومه: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَـٰهِرُونَ ﴾[1080] أي قال الملأ من قوم فرعون وهم كبراء القوم وساداتهم وخاصة فرعون، قالوا له: أتدع موسى وقومه آمنين أحراراً لتكون عاقبتُهم أن يفسدوا قومك عليك في أرض مصر بإدخالهم في دينهم أو جعلهم تحت سلطانهم ورياستهم ويتركك مع آلهتك فيظهر لرعيتك عجزك وعجز آلهتك، وقد رأيتَ من أمر إيمان السحرة وما نتج عنه - إذ الظاهر من السياق أنَّ هذا القول كان بعد قصة السحرة - وجمهور المفسرين على أنَّ المراد بتركه وآلهته عدم عبادته وعبادتها، قال فرعون: ﴿ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ﴾ أي قال مجيباً للملأ: سنقتّل أبناء قوم موسى تقتيلاً ما تناسلوا، ونستبقي نساءهم أحياء كما كنا نفعل من قبل ولادة موسى حتى ينقرضوا ﴿ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَـٰهِرُونَ ﴾ أي وإنا مستعلون عليهم بالغلبة

(١٠٧٦) سورة هود، الآية ٩٨.

(١٠٧٧) تفسير الزمخشري ج٢ ص٢٢٤.

(١٠٧٨) سورة الأعراف، الآية ١٣١.

(١٠٧٩) تفسير ابن كثير ج٢ ص٢٤٠.

(١٠٨٠) سورة الأعراف الآية ١٢٧.

والسلطان قاهرون لهم كما كنا من قبل، فلا يستطيعون إفساداً في أرضنا ولا خروجاً من حظيرة تعبيدنا[1081].

٥٢٧- فرعون يريد قتل موسى:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ۝٢٦ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾[1082].

كان فرعونُ إذا همَّ بقتل موسى كفوه عنه ومنعوه منه بقولهم: إنَّ موسى ليس بالذي تخافُه وإذا قتلتَه أدخلتَ الشبهةَ على الناس واعتقدوا أنك قد عجزت عن معارضتِهِ بالحجة. ويبدو أنَّ قول فرعون: ﴿ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾. كان تمويهاً على قومه وإيهاماً أنهم هُمُ الذين يكفوّنه، وما كان يكفّه إلاّ ما في نفسه من هول الفزع الذي أصابه من موسى لما ظهرت آياته وأدت إلى اضطرابٍ في معتقدات قومه، بدليل أنَّ قوله: ﴿ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ فهذه العبارة ليست من ألفاظ الجبابرة المتمكنين من إنفاذ أوامرهم. ودليلٌ آخر على ما نقول هو مقالة المؤمن من قوم فرعون وما صَدَعَ به وما كاشف به فرعونَ، وحُكْمُهُ بنبوّةِ موسى كما سنذكره بعد قليل. وقوله: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ أي لا أبالي منه، ثم رجع إلى قومه يريهم النصيحة والحماية لهم فقال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ أي أن يغير ما أنتم عليه، وكانوا يعبدونه ويعبدون الأصنام ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ ويقصد فرعون بالفساد الذي يخافه على قومه التهارج الذي يذهب معه الأَمْنُ وتتعطل المكاسب والمزارع والمعايش، ويهلِكُ الناسُ قتلاً نتيجة التأييد والمعارضة لما جاء به موسى، كأنه قال: إني أَخاف أن يفسد عليكم دينكم بدعوتكم إلى دينه أو أن يفسد عليكم دنياكم بما يظهر من الفتن بسببه[1083].

(١٠٨١) تفسير المنار ج٩ ص٧٨.

(١٠٨٢) سورة غافر الآيتان ٢٦، ٢٧.

(١٠٨٣) تفسير ابن عطية ج١٣ ص٢٩-٣٠، تفسير الزمخشري ج٤ ص١٦٠-١٦١.

٥٢٨- مقالة موسى لما سمع بعزم فرعون على قتله:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾[١٠٨٤]. لما سمع موسى عليه السلام بما أجراه فرعون من حديث قتله قال موسى لقومه: ﴿إِنِّي عُذْتُ﴾ بالله الذي هو ربي وربكم، وقوله: ﴿وَرَبِّكُم﴾ فيه بعث لهم على أن يقتدوا به فيعوذوا بالله عياذه ويعتصموا بالتوكل عليه اعتصامه. وقوله: ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ لتشمل استعاذته من فرعون وغيره من الجبابرة. وأراد بالتكبر: الاستكبار عن الإذعان للحق وهو أقبح استكبار وأدلُّه على دناءة صاحبة ومهانة نفسه وعلى فرط ظلمه وعسفه. وقوله: ﴿لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ لأنه إذا اجتمع في الرجل التجبر والتكذيب بالجزاء في اليوم الآخر، وقلة المبالاة بالعاقبة، فقد استكمل أسباب القسوة والجرأة على الله وعباده، ولم يترك عظيمة ولا سيئة إلاّ ارتكبها[١٠٨٥].

٥٢٩- مؤمن من آل فرعون يدافع عن موسى:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾[١٠٨٦] المشهور أنَّ هذا الرجل المؤمن كان قبطياً من آل فرعون، وقال السدّي: كان ابن عم فرعون وكان يكتم إيمانه. وقال ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما: لم يؤمن من آل فرعون سوى هذا الرجل وامرأةِ فرعونَ والذي قال: ﴿يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ..﴾ وكان هذا الرجل يكتم إيمانه كما قلت، ولم يظهره إلاّ في هذا اليوم حين قال فرعون: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ فأَخذت الرجلَ غضبةٌ لله عز وجل، وأفضلُ الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر كما جاء في الحديث النبوي الشريف، ولا أعظَم من هذه الكلمة عند فرعون وهي قوله: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أي كيف تقتلون رجلاً لكونه يقول: ربي الله وقد

(١٠٨٤) سورة غافر الآية ٢٧.

(١٠٨٥) تفسير الزمخشري ج٤ ص١٦١.

(١٠٨٦) سورة المؤمن «غافر» الآية ٢٨.

جاءكم بالبينات العظيمة التي عهدتموها وشهدتموها وهي دليل صدقه أنه رسول الله[١٠٨٧].

٥٣٠ - مؤمن آل فرعون يجادل عن موسى:

ثم إنَّ مؤمن آل فرعون تنزّل معهم في المخاطبة فأخذهم بالاحتجاج على طريقة التقسيم قطعاً للّجاج في الجدال، فقال لهم: لا يخلو موسى من أن يكون كاذباً أو صادقاً: ﴿وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ﴾ أي يعود عليه ضرر كذبه وحده دون غيره، ﴿وَإِن يَكُ صَـٰدِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ أي يصبْكم بعضُ ما يعدكم من العذاب إنْ تعرضتُمْ له بسوء، لأنه توعدهم إن كذّبوه أن يصيبَهُمْ العذاب في الدنيا والآخرة. فهذا الكلام من هذا الرجل المؤمن كلامُ منصفٍ في مقاله غير مشتط فيه، لأنه سلك معهم طريق الإنصاف في القول والمناصحة لهم، وجاءهم بما هو أقرب إلى تسليمهم لقوله، وأدخل في تصديقهم له وقبولهم منه، وفي الحالتين: أي سواء كان صادقاً أو كان كاذباً كما يدعون، فينبغي أن لا يتعرضوا له أي لموسى عليه السلام بسوء، بل ينبغي تركُهُ وقومَهُ يدعوهم ويتبعونه إن شاؤوا[١٠٨٨].

٥٣١ - مؤمن آل فرعون يطلب ترك موسى وشأنه:

ويلاحظ هنا أنَّ ما طلبه مؤمن آل فرعون من قومه بضرورة ترك موسى وعدم قتله أو إيذائه هو ما طلبه موسى من فرعون من قبلُ، قال تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ۝١٧ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٨ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ۝١٩ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ۝٢٠ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ﴾[١٠٨٩] أي إنَّ موسى عليه السلام قال لقوم فرعون: إني رسول مأمون على ما أبلغكم به، وإنَّ عليكم أن لا تستكبروا عن اتباع الحق والإيمان بالله، وإني آتيكم بالآيات البينات الدالة على صدقي. وإني أعوذ بالله الذي خلقني وخلقكم من أن تصلوا إليَّ

(١٠٨٧) تفسير ابن كثير ج٤ ص٧٧.

(١٠٨٨) تفسير ابن كثير ج٤ ص٧٨، تفسير الزمخشري ج٤ ص١٦٢-١٦٣، تفسير الرازي ج٢٧ ص٥٨.

(١٠٨٩) سورة الدخان الآيات ١٧-٢١.

بسوءٍ من قول أو فعل أو تقتلوني بالرجم بالحجارة، وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون، أي فلا تتعرضوا لي واتركوني ودعوا الأمر بيني وبينكم مسالمة إلى أن يقضيَ الله بيننا[1090].

٥٣٢- مؤمن آل فرعون يحذر قومه وينصحهم:

قال تعالى حكاية عما قاله الرجل المؤمن من آل فرعون لقومه: ﴿ يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ ﴾[1091]. أي قال ذلك الرجل المؤمن لقومه: يا قوم قد أنعم الله عليكم بهذا الملك والسلطان والكلمة النافذة في أرض مصر، فراعوا هذه النعمة بشكر الله وتصديق رسوله موسى عليه السلام، واحذروا نقمة الله إن كذبتم رسوله[1092]. وتذكيرهم بالمُلْكِ والسلطان أسلوب من الوعظ المفيد لما يثيره فيهم من شهوة الحرص عليهما والتعلق بما يبقيهما وهو الإيمان بالله ورسوله، وتحذيرهم مما يزيلهما وهو تكذيبهم برسوله[1093] ﴿ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ ﴾ يقول الرجل المؤمن بصيغة الجمع ﴿ فَمَن يَنصُرُنَا ﴾ و﴿ إِن جَآءَنَاۚ ﴾ جاعلاً نفسه معهم، لأنه منهم في القرابة وليعلمهم بأنَّ الذي ينصحهم به أو يحذرهم منه هو مشارك لهم فيه، فكأنه يقول لهم: إنَّ جنودكم وعساكركم لا ترد عنا شيئاً من بأس الله إن أراد إنزال العذاب بنا بسبب كفركم وعنادكم[1094].

٥٣٣- رد فرعون على الرجل المؤمن:

قال تعالى حكاية عما قاله فرعون رداً على قول الرجل المؤمن: ﴿ قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ أي قال فرعون لقومه راداً على ما أشار به الرجل المؤمن من ترك موسى وشأنه: ما أقول لكم وأشير عليكم إلاَّ ما أراه لنفسي

(١٠٩٠) تفسير ابن كثير ج٤ ص٧٧-٧٨.

(١٠٩١) سورة المؤمن من الآية ٢٩.

(١٠٩٢) تفسير ابن كثير ج٤ ص٧٨.

(١٠٩٣) تفسير ابن عطية ج١٣ ص٣٥.

(١٠٩٤) تفسير الزمخشري ج٤ ص١٦٤، تفسير الرازي ج٢٧ ص٥٩.

ومن ذلك أنّي لا أرى إلاّ قتل موسى ولا أَستصوب غير ذلك، كما أني لا أرى لكم إلاّ ما أرى لنفسي من الثبات والاستمرار على تكذيب موسى والإيمان بي، وما أهديكم بهذا الرأي الذي أقوله لكم إلاّ سبيل الرشاد أي سبيل الصواب والصلاح(١٠٩٥).

٥٣٤- عودة الرجل المؤمن إلى التحذير والنصيحة لقومه:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ٣٠ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾(١٠٩٦) وهذا إخبارٌ من الله عز وجل عن هذا الرجل الصالح مؤمنِ آل فرعون أنه حذّرَ قومه بأسَ الله تعالى في الدنيا وفي الآخرة، وذكّرهم بما حلّ بالأمم المكذِّبة لرسلهم، وكيف حلّ بهم بأس الله وعذابُه، وما رده عنهم رادُّ ولا صدّه عنهم صادٌّ ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ أي إنما أهلكهم الله تعالى بذنوبهم وتكذيبهم رسله، وإنَّ سننه تعالى في المكذبين واحدة، وإنه يخاف عليهم أن يصيبهم ما أصابهم. ثم قال لهم ذلك الرجل الصالح مؤمنُ آلِ فرعون: ﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ٣٢ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾(١٠٩٧)، ويوم التنادِ هو يوم القيامة؛ لأنَّ فيه ينادي أَهْلُ الجنة أهلَ النار: ﴿فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ﴾ ونداء أهل النار لهم: ﴿أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾(١٠٩٨) ﴿يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ﴾ أي فارّين هاربين من الفزع، ﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ﴾ أي لا مانع يمنعكم من بأس الله وعذابه(١٠٩٩).

٥٣٥ - استمرار الرجل المؤمن على تحذيره ونصحه لقومه:

ثم استمر الرجل المؤمن موبخاً ومحذراً قومه فقال: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ

(١٠٩٥) تفسير الزمخشري ج٤ ص١٦٤، تفسير الرازي ج٢٧ ص٦٠، تفسير القرطبي ج١٥ ص٣١٠، والآية في سورة غافر «المؤمن» ورقمها ٢٩.

(١٠٩٦) سورة المؤمن، الآيتان ٣٠و٣١.

(١٠٩٧) تفسير ابن كثير ج٤ ص٧٨-٧٩.

(١٠٩٨) تفسير ابن عطية ج١٣ ص٣٨.

(١٠٩٩) تفسير ابن عطية ج١٣ ص٤١، تفسير ابن كثير ج٤ ص٧٩.

رَسُولًاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾[١١٠٠]، وبخهم بأنَّ يوسف عليه السلام أتاكم بالمعجزات فشككتم فيها ولم تزالوا شاكين كافرين حتى إذا توفي يوسف ﴿قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًاۚ﴾ حكماً من عند أنفسكم من غير برهان، وبعزم مسبق منكم على تكذيب الرسل، فإذا جاءكم رسول جحدتم وكذبتم بناء على حكمكم السابق الباطل، وليس قولهم: ﴿لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًاۚ﴾ بتصديق لرسالة يوسف، وكيف وقد شكوا فيها وكفروا بها، وإنما هو تكذيب لرسالة من بعده مضموم إلى تكذيب رسالته[١١٠١].

ثم قال الرجل المؤمن: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ أي كحالكم هذا يكون حال من يضله الله لإسرافه في أفعاله وارتياب قلبه. ثم قال عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْۖ﴾ أي الذين يدفعون الحق بالباطل ويجادلون الحجج بغير دليل ولا حجة معهم، فإن الله عز وجل يمقت على ذلك أشد المقت ولهذا قال تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ﴾ أي والمؤمنون أيضاً يبغضون من تكون هذه صفته فإنَّ من كانت هذه صفته، يطبع الله على قلبه فلا يعرف بعد ذلك معروفاً ولا ينكر منكراً ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ﴾ أي عن اتّباع الحق ﴿جَبَّارٍ﴾ أي الذي يقتل بغير حق[١١٠٢].

٥٣٦- الرجل المؤمن يستمر في وعظه:

قال تعالى حكاية عما قاله الرجل المؤمن - مؤمن آل فرعون - في وعظه لقومه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾[١١٠٣].

أي قال مؤمن آل فرعون لقومه اقتدوا بي بالدين أهدكم سبيل الرشاد، أي طريق الهدى الموصل إلى الجنة. ثم زهّد في الدنيا وذمّها وصغّرَ شأنها لأنَّ الإخلاد إليها

(١١٠٠) سورة المؤمن، الآيات، الآيتان ٣٤ و٣٥.

(١١٠١) تفسير الزمخشري ج٤ ص١٦٦.

(١١٠٢) تفسير ابن كثير ج٤ ص٧٩.

(١١٠٣) سورة غافر «المؤمن» الآية ٣٩.

هو أصل الشرّ، ومنه يتشعب ما يؤدي إلى سخط الله ويجلب الشقاوة في الآخرة، فأخبرهم عن الحياة الدنيا بأنَّها شيءٌ يُتمتَّع به أياماً قليلة ثم تزول هذه الدنيا ومتاعها، ورغبّهم في الآخرة إذ هي دار الاستقرار التي لا زوال لها ولا انتقال منها إلى غيرها بل هي إمّا نعيم دائم وإما جحيم دائم، فليسلك العاقل ما يوصله إلى نعيمها لا ما يوصله إلى جحيمها، والنعيم الدائم خير من المتاع القليل الزائل، وقال بعض العارفين: لو كانت الدنيا ذهباً فانياً، والآخرة خزفاً باقياً، لكانت الآخرةُ خيراً من الدنيا، فكيف والدنيا خزف فانٍ، والآخرة ذهب باقٍ[1104].

٥٣٧- قانون المجازاة في وعظ الرجل المؤمن:

قال تعالى حكاية عما قاله الرجل المؤمن - مؤمن آل فرعون - في وعظه لقومه: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1105].

وهذا الذي قاله ذلك الرجل المؤمن يعتبر سُنَّةً من سنن الله أي قانوناً عاماً في المجازاة لا يتخلف ولا يتبدل وهو: من عمل سيئةً - وأعظمها الشركُ والكفرُ بالله - فلا يُجزَىٰ من العذاب إلاّ بقدر ما تستحق سيئتُهُ من الجزاء، لأنَّ الزيادة على مقدار جزاء السيئة الذي تستحقه ظلم، ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ وعلى رأس العمل الصالح: لا إله إلاّ الله، يقولها ويعمل بمقتضاها، وهو مؤمن بالله ورسله وبما يجب الإيمان به، فهذا يجزىٰ على عمله الصالح بغير حساب. فقوله: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ واقع في مقابلة ﴿إِلَّا مِثْلَهَا﴾ يعني: إنَّ جزاء السيئة له حساب وتقدير لئلا يزيد على استحقاقها من الجزاء، وأما جزاء العمل الصالح فبغير تقدير وحساب بل بما شاء الله تعالى من الزيادة على ما يستحقه هذا العمل الصالح من الجزاء، لأَنَّ هذه الزيادةَ فضلٌ والله ذو الفضل العظيم[1106].

(١١٠٤) تفسير ابن كثير ج٤ ص٨٠، تفسير القرطبي ج١٥ ص٣١٦-٣١٧، تفسير ابن عطية ج١٣ ص٤٥، تفسير الزمخشري ج٤ ص١٦٨، تفسير الرازي ج٢٧ ص٦٨-٦٩.

(١١٠٥) سورة غافر «المؤمن» الآية ٤٠.

(١١٠٦) تفسير الزمخشري ج٤ ص١٦٨، تفسير الرازي ج٢٧ ص٦٩-٧٠.

٥٣٨- سبب دخول النار والنجاة منها في وعظ الرجل المؤمن:

قال تعالى حكاية عما وعظ به مؤمن آل فرعون قومه: ﴿ ۞ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾[١١٠٧] كرر الرجل المؤمن نداء قومه لما في ذلك من تنبيه لهم وإيقاظ من غفلتهم، وتذكيرهم بأنّهم قومه وهو واحد منهم يريد لهم الخير والنصيحة الخالصة فهو يتطلف بهم بتكرير ندائهم بـ﴿ ۞ وَيَٰقَوۡمِ﴾ وهذا يستدعي أن لا يتهموه فيما يقوله لهم وينصحهم به، كما كرر إبراهيم عليه السلام في نصيحة أبيه بقوله: يا أبت[١١٠٨]. ودعوتُه قومه إلى النجاة تعني دعوته لهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له وتصديق رسوله موسى عليه السلام لأنَّ هذه الدعوة إلى عبادة الله وتصديق رسوله هي وسيلة النجاة من النار. وكذلك دعاء قومه له إلى الكفر واتباع دينهم هو دعاءٌ إلى وسيلة وسبب دخول النار. ثم بينَّ لهم الفرق ما بين الدعوتين: دعوتِه لهم إلى عبادة الله وحده التي هي وسيلة النجاة من النار، ودعوتهمْ له إلى الكفر بالله والشركِ به وهي وسيلة الدخول إلى النار، فلا شك أنَّ الذي تدعونني إليه لا يجيب داعيه لا في الدنيا ولا في الآخرة، وليس له قَدْرٌ وحق يجب أن يُدَعى أحدٌ إليه ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي أنَّ مرجعنا جميعاً إلى الله أي في الدار الآخرة فيجازي كلاًّ بعمله، فأي عاقل يجوّز له عقله الاشتغال بعبادة غير الله ويعرض عن عبادة الله الذي لا بد أن يكون مرجعه إليه ﴿وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾﴾ وأن جزّاء المشركين في اليوم الآخر هو دخول النار[١١٠٩].

٥٣٩- ما ختم به الرجل المؤمن وعظه لقومه وما آل إليه أمره:

قال تعالى حكاية عما قاله مؤمن آل فرعون خاتماً به كلامه مع قومه:

(١١٠٧) سورة غافر، الآيات ٤١-٤٣.

(١١٠٨) تفسير الزمخشري ج٤ ص١٦٨-١٦٩.

(١١٠٩) تفسير ابن عطية ج١٣ ص٤٨، تفسر ابن كثير ج٤ ص٨٠، تفسير الرازي ج٢٧ ص٧١.

﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴾[١١١٠] وبعد أن أنهى مؤمن آل فرعون وعظه لقومه وتحذيره لهم مما هم فيه من كفر وشرك دون أن يأخذوا بقوله ووعظه، توعَّدَهُمْ بأنَّهم سيذكرون قوله هذا عند حلول العذاب بهم وسيعلمون صدق ما أمرهم به ونهاهم عنه وسيندمون حيث لا ينفعهم الندم: ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ وهذا كلام من هُدِّدَ بأمر يخافه، فكأنهم خوّفوه بالقتل وهو أيضاً خوفهم بقوله: ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ﴾ ثم اعتمد في دفع ما خوفوه به على الله تعالى فقال: ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ فيهدي من يستحق الهداية ويضل من يستحق الإضلال وله الحجة البالغة والحكمة التامة. وقوله تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ﴾ أي في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فنجاه الله تعالى مع موسى عليه السلام، وأمَّا في الآخرة فبالجنة، وهذا ما آل إليه أمر مؤمن آل فرعون: ﴿ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴾ وهو الغرق في اليم ثم النّقلَةُ منه إلى الجحيم[١١١١].

٥٤٠- إصابة آل فرعون بالشدائد لعلهم يتذكرون:

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾[١١١٢].

أي ابتلينا آل فرعون بالسنين أي بالجدبِ والقحط ، والسَّنَةُ في كلام العرب: القحط والجدب، يقالُ: أصابتهم سَنَةٌ أي جدبٌ، وسنين في الآية جمع سنة وهي كما قلنا تعني الجدْبَ والقحط[١١١٣]. وآل فرعون: قومه أو خاصته وأعوانه في أمور الدولة، وهم الملأ من قومه، لأنهم هم المعاندون لموسى في الأصل وإنما وقوع العذاب والشدائد على غيرهم بالتبع لهم، لأنَّهم كانوا موافقين ومقرين لهم على ظلمهم وكفرهم. والظاهر أنَّ المراد بـ ﴿ ءَالَ فِرْعَوْنَ ﴾ في الآية: قومه وهم أهل مصر في عهده لأنَّ عامة قوم فرعون ينالهم من عذاب الأخذ بالقحط والجدْبِ ونقص

(١١١٠) سورة غافر «المؤمن» الآيتان ٤٤ و٤٥.

(١١١١) تفسير ابن عطية ج١٣ ص٤٨، ابن كثير ج٤ ص٨١، تفسير الرازي ج٢٧ ص٧١.

(١١١٢) سورة الأعراف، الآية ١٣٠.

(١١١٣) تفسير ابن عطية ج٦ ص٤٦، تفسير القرطبي ج٧ ص٢٦٣-٢٦٤.

الثمرات ما لا ينالُ فرعونَ وأهل بيته وخاصةً ملأه. وقومُهُ نالهم العذاب لأنَّهُمْ مؤاخَذون بظلمه وطغيانه، لأنَّ قوته المالية والجندية منهم، وهذا فضلاً عن متابعتهم له في الكفر والشرك بالله، فكان حقاً عليهم أن لا يقبلوا استعباد فرعون لهم وجعلهم آلة لطغيانه ورضاهم باتّباعه في كفره، لا سيما بعد بعثة موسى عليه السلام ووصول دعوته إليهم، ورؤيتهم لما أيده الله به من المعجزات. وإنما أخذهم الله بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذَّكَّرون أي يتَّعظون بأنَّ ما أصابهم هو بسبب كفرهم وإسنادهم لظلم فرعون وطغيانه ومتابعتهم له، فيقلعوا عن ذلك ويؤمنوا بما جاء به موسى من ربه فيزول عنهم العذاب، عذابُ القحط والجدبِ ونقص الثمرات، ولأنَّ الناس في وقت الشدائد يضرعون إلى الله وترق قلوبهم، وربما يحملهم ذلك إلى الإيمان بالله وترك ما هم فيه من كفر وظلم وعصيان لله(١١١٤).

٥٤١ - جهل قوم فرعون بسنين الله.

قال تعالى في وصف حال قوم فرعون في عدم اتعاظهم بما يصيبهم من خير وشر مما يَدلُّ على شدة كفرهم وضلالهم وجهلهم لسنين الله، قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾(١١١٥). كان القصد من إصابتهم بالقحط والنقص في الثمرات أن ينيبوا إلى الله ويرجعوا إليه بالتوبة والإيمان به وبرسوله، فإذا بهم قد ضلوا وجعلوها تشاؤماً بموسى ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ﴾ أي الخصب والسّعَةُ في الرزق ﴿قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ أي هذا لنا بما نستحقه ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ أي جدبٌ وقحط ﴿يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ أي يتشاءموا به وبمن معه، أي هذا بسببهم وما جاؤوا به ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي ما قُدِّر لهم وعليهم فهو عند الله ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن ما أصابهم من القحط والشدائد إنما هو من عند الله عز وجل بسبب ذنوبهم وكفرهم وظلمهم وعصيانهم لا من عند موسى وقومه(١١١٦). أي أنَّ الشؤم الذي نسبوه إلى موسى والشدائدَ التي حَلَّتْ بهم، ونسبوها إلى موسى وقومه

(١١١٤) تفسير الزمخشري ج٢ ص١٤٤، تفسير المنار ج٩ ص٨٣-٨٤.

(١١١٥) سورة الأعراف الآية ١٣١.

(١١١٦) تفسير ابن عطية ج٦ ص٥٧، تفسير القرطبي ج٧ ص٢٦٤-٢٦٧.

وجعلوها من آثار وجوده عليه السلام فيهم هو عند الله تعالى لا عند موسى ومن معه، فهو تعالى قد جعل لكل شيءٍ قدراً من حسنة وسيئة بمعنى أنه تعالى وضع لنظام الحياة سنناً تكون فيها المسببات على قدر الأسباب، والنتائج بما يناسب مقدماتها، فبمقتضىٰ هذه السننِ والأقدار ينزل البلاء عليهمْ، لأَنَّ من سنن الله أنَّ الكفْرَ والعصيانَ من أسباب نزول العذاب والشدائد(١١١٧).

٥٤٢-إصرار فرعون على كفرهم وعدم اتعاظهم بآيات الله:

قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

إنَّ قوم فرعون، بتضليلٍ منه ومن ملئه، لم يتعظوا بما أخذهم الله من القحط والجدبِ ونقص من الثمرات، ولم يذعنوا لما أيدَّ الله به تعالى موسى من الآيات بل أصرّوا على كفرهم، حتى بعد إيمان كبار السحرة بعدما تبيّن لهم أنَّ ما جاء به موسى هو من عند الله وليس من السحر. وفي هذه الآية بيانٌ لإصرار قوم فرعون على كفرهم، فقالوا لموسى عليه السلام: مهما تأتنا به من معجزة أو آية تستدل بها على صدقك ودعوتك لأجل أن تسحرنا بها أي تصرفنا بها بدقة عما نحن عليه من ديننا ومن تسخيرنا لقومك بني إسرائيل فما نحن لك بمصدقين ولا لرسالتك بمتبعين(١١١٨).

٥٤٣- ابتلاء قوم فرعون بشدائد جديدة:

ابتلى الله تعالى قوم فرعون بالسنين وبنقص من الثمرات لعلهم يتذكرون، إلاَّ أنهم لم يتذكروا ولم يتعظوا وظلوا مصرين على كفرهم وعنادهم ورفضهم مقدماً لكل آية يستدل بها على صدقه ورسالته كما ذكرنا في الفقرة السابقة، وبناء على هذا الإصرار ابتلى الله تعالى قومَ فرعون بما ذكره الله في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾(١١١٩). أي فأنزلنا عليهم هذه النكبات والشدائد: ﴿ٱلطُّوفَانَ﴾ أي المطر الشديد حتى عاموا فيه ودام

(١١١٧) تفسير المنار ج٩ ص٨٦-٨٧.

(١١١٨) تفسير ابن كثير ج٢ ص٢٣٩-٢٤٠، تفسير المنار ج٩ ص٨٧.

(١١١٩) سورة الأعراف، الآية ١٣٣.

عليهم أياماً، فقالوا لموسى عليه السلام: ادع لنا ربك يكشفْ عنا فنؤمِنَ بك، فدعا ربه فرفع عنهم الطوفان فلم يؤمنوا، فأنبتَ الله لهم في تلك السّنَةِ ما لم ينبته قبل ذلك من الكلأ والزرع، فقالوا: كان ذلك الماء نعمة؟ فبعث الله عليهم ﴿الجراد﴾ فأكل زروعهم وثمارهم، فعاهدوا موسى أن يؤمنوا لو كشف عنهم الجراد، فدعا موسى ربه فكشف، وكان قد بقي من زروعهم شيء فقالوا: يكفينا ما بقي، ولم يؤمنوا فبعث الله عليهم ﴿القمل﴾، فأكلت دوابّهم وزروعهم ولزمت جلودهم كأنها الجدري عليهم ومنعتهم النومَ والقرارَ، فتضرعوا فلما كُشِفَ عنهم لم يؤمنوا فأرسل الله عليهم ﴿الضفادع﴾ وهي المعروفة التي تكون في الماء، فشكوا إلى موسى وقالوا: نتوب فكشف الله عنهم ذلك فعادوا إلى كفرهم، فأرسل الله إليهم ﴿الدم﴾ فسال النيل عليهم دماً[1120] ﴿ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ ومعنى: ﴿مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ مبينات ظاهرات لا يشكل على عاقل أنها من آيات الله التي لا يقدر عليها غيره، وأنها عبرة لهم ونقمة على كفرهم. أو فَصَلَ بين آية وآية بزمانٍ تمتحن فيه أحوالهم ويُنْظَرُ أيستقيمون على ما وعدوا به أنفسهم أم ينكثون إلزاماً للحجة عليهم[1121]، ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ أي توقفوا عن الإيمان بالله بالرغم من هذه الآيات الباهرات الدالة على صدق رسوله، وكانوا قوماً مجرمين، لهم اجترام على الله وعلى عباده[1122].

٥٤٤- تكرار نكث العهد من فرعون وقومه:

قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾[1123] والمعنى: لما وقع على فرعون وقومِهِ ذلك العذابُ المذكورُ في الآية السابقة من الطوفان والجراد.. الخ، وقال قوم من المفسرين: الإشارة هنا بالرجز - أي العذاب - إنما هي إلى طاعون أنزله فيهم فحصَدَ منهم خلقاً كثيراً، فقالوا عند نزول كل نوع من العذاب؟ أو عند نزول العذاب

(١١٢٠) تفسير القرطبي ج٧ ص٢٦٧-٢٧٠.

(١١٢١) تفسير الزمخشري ج٢ ص١٤٨.

(١١٢٢) تفسير ابن عطية ج٦ ص٥٢، تفسير القرطبي ج٧ ص٢٧١.

(١١٢٣) سورة الأعراف الآيتان ١٣٤، ١٣٥.

الجديد - الطاعون - يا موسى ادع ربك بالذي عهد به إليك أن تدعوه به فيعطيك الآيات ويستجيب لك الدعاء، أن يكشف عنا هذا الرجز ونحن نقسم لك لئن كشفته عنا لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل. ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ أي فلما كشفنا عنهم العذاب مرة بعد مرة إلى أجل هم بالغوه ومنتهون إليه في كل مرة منها إذا هم ينكثون عهدهم ويحنثون في قسمهم، فلا يؤمنون بموسى ولا يدعونه يخرج ببني إسرائيل[1124] وكان هذا النكث منهم والإصرارُ على كفرهم وتكذيبهم بآيات الله سبباً لإهلاكهم كما سنبينُه فيما بعد.

٥٤٥- إيمان امرأة فرعون:

ذكرنا فيما سبق وجود رجل مؤمن من آلِ فرعونَ كان يكتم إيمانه، ثم أعلنه مجادلاً قومه عما آمن به ومدافعاً عن موسى وعما جاء به، وواعظاً قومه على النحو الذي بيّنّاه من قبل. ونذكر فيما يلي ما جاء في كتاب الله العزيز بشأن إيمان امرأة فرعون بالرغم من عيشها في بيته وكونها زوجة له، لأَنَّ الإيمان إذا خالطت بشاشتُهُ القلب لم يبال صاحبه بكثافة الباطل وجبروت المبطلين. قال تعالى عن إيمان امرأة فرعون: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[1125]، قال أهل التفسير في هذه الآية: إنه مثلٌ ضَرَبَهُ الله تعالى للمؤمنين أنهم لا تضرهم مخالطة الكافرين إذا كانوا محتاجين إليهم بهذه المخالطة، فقد كان فرعون أعتى أهل الأرض وأكفرهم وما ضرَّ امرأتَهُ كفرُ زوجها حين أطاعت ربها بإيمانها به وبرسوله موسى عليه السلام. ولما علم فرعون بإيمانها وأراد منها الرجوع إلى دينها والكفر بما آمنت به رفضت ذلك فأمر بتعذيبها فدعت ربها بأنْ يثبتها على الإيمان ويعوضها عن بيتها الذي تعيش فيه ببيت في الجنة، وأن ينجيها من فرعون ومن كفره ومما هو عليه من الضلال ومن ظلمه وتعذيبه، ومن قومه الظالمين المشاركين له في الكفر والظلم، فاستجاب لها ربها وتوفّاها ونجاها من فرعون وقومه. وفي دعائها دليل على أنَّ

(١١٢٤) تفسير ابن عطية ج٦ ص٥٢، تفسير المنار ج٩ ص٩٣.

(١١٢٥) سورة التحريم، الآية ١١.

الالتجاء إلى الله عند المحن والشدائد من سير الصالحين[١١٢٦].

٥٤٦- من آمن بموسى من قوم فرعون:

قال تعالى: ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾[١١٢٧] يخبر تعالى أنه لم يؤمن بموسى عليه السلام مع ما جاء به من الآيات البينات والحجج القاطعات إلَّا قليل من قوم فرعون من الذرية وهم الشباب على وجل وخَوْفٍ منه ومن ملئه أن يردُّوهم إلى ما كانوا عليه من الكفر، لأنَّ فرعون كان جباراً عنيداً مسرفاً في التمرد والعتو، وكانت له سطوة ومهابة تخاف رعيتُهُ منه خوفاً شديداً[١١٢٨]. ومن الذين آمنوا بموسى من قوم فرعون الرجل الذي كان يكتم إيمانه وهو من آل فرعون وقد مرّت قصته. وكذلك آمنتْ زوجة فرعون كما ذكرنا من قبل.

٥٤٧- الحوار بين موسى وقومه في مصر:

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[١١٢٩]. يقول تعالى مخبراً عن موسى إنه قال لقومه بني إسرائيل، طالباً منهم التوكل على الله والاعتمادَ عليه إن كانوا مؤمنين بالله مطيعين له مستسلمين منقادين لأوامره. فقالوا: على الله توكلنا ولا نلتفت إلى غيره، ثم دعو الله تعالى قائلين: ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ ولفظ ﴿ فِتْنَةً ﴾ هنا يحتمل معنىٰ الفاتن والمفتون، فكأنهم قالوا: ربنا لا تسلطهم علينا فيفتنونا، ولا تفتنا بهم فنتولىٰ عن اتباع نبينا أو نضعف فيه فراراً من شدة ظلمهم لنا، ولا تفتنْهم بنا فيزدادوا كفراً وعناداً وظلماً بظهورهم علينا، فيظنوا أنهم على الحق وأننا على الباطل. ومن الثابت بالتجارب أنَّ سوء حال المؤمنين وضعفهم وتسلط الكفار عليهم يجعلهم

(١١٢٦) تفسير ابن كثير ج٤ ص٣٩٣-٣٩٤، تفسير الزمخشري ج٤ ص٥٧٢-٥٧٣، تفسير ابن عطية ج١٤ ص٥٢٥، تفسير الرازي ج٣٠ ص٤٩.

(١١٢٧) سورة يونس الآية ٨٣.

(١١٢٨) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٢٧-٤٢٨.

(١١٢٩) سورة يونس الآيات ٨٤-٨٦.

موضعاً أو موضوعاً لافتتان الكفار وأهل الباطل بهم باعتقاد أنهم خيرٌ من المؤمنين، كما أنَّ تسلط الكفار على المؤمنين يصير فتنة للمؤمنين لما قد يتسلل إلى قلوبهم - بسبب تسلط الكفار عليهم - من شك في أنهم على الحق، وأنَّ أعداءهم الكفار على باطل ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي نجنا برحمتك وإحسانك من سلطان وتسلط وحكم الكافرين، لأنَّ حكم الكافر لا يطاق[١١٣٠].

٥٤٨- موسى يأمر قومه بجعل بيوتهم مساجد:

قال تعالىٰ: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[١١٣١].

أمر الله تعالى موسى وأخاه هارون عليهما السلام أن يتخذا لقومهما بمصر بيوتاً ﴿وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ أي اتخذوها مساجد، حيثُ إنهم كانوا خائفين فأمروا أن يصلّوا في بيوتهم، وكأنَّ هذا، والله أعلم، لمّا اشتد بهم البلاءُ من قِبَلِ فرعون وقومه وضيقوا عليهم، أُمِروا بالصلاة في بيوتهم في خِفْيَةٍ من الكَفَرَةِ، لئلا يظهروا عليهم فيؤذوهم ويفتنوهم عن دينهم، كما كان المؤمنون على ذلك في أول الإسلام بمكة[١١٣٢]. ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي بالثواب والنصر القريب[١١٣٣].

٥٤٩- موسى يأمر قومهُ بالصبر والاستعانة بالله:

قال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[١١٣٤].

قال لهم ذلك موسى عليه السلام حين قال فرعون: سنقتل أبناءهم فجزعوا منه وتضجروا، فأراد موسى عليه السلام أن يسكنّهم ويسليهم ويعدهم النصرة على أعدائهم: فرعون وقومِهِ، وتوريثهم أرضهم وديارهم، وأنَّ العاقبة دائماً وأبداً

(١١٣٠) تفسير المنار ج١١ ص٤٧٠-٤٧١، تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٢٨.

(١١٣١) سورة يونس، الآية ٨٧.

(١١٣٢) تفسير الزمخشري ج٢ ص٣٦٤، تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٢٨.

(١١٣٣) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٢٨-٤٢٩.

(١١٣٤) سورة الأعراف، الآية ١٢٨.

للمتقين في الدنيا والآخرة، فهم أصحاب العاقبة المحمودة لإيمانهم بالله واستعانتهم به وصبرهم على ما يصيبهم في سبيل الله[١١٣٥].

٥٥٠- جواب قوم موسى ورده عليهم:

قال قوم موسى له وقد سمعوا أمره لهم بالاستعانة بالله وبالصبر: ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ﴾[١١٣٦] يعنون أنهم لم يستفيدوا من إرساله - إرسال موسى - لإنقاذهم من ظلم فرعون شيئاً، فهو يؤذيهم ويظلمهم ويقتّل أبناءهم بعد إرساله كما كان يفعل من قبل إرساله وأشد. فقال لهم موسى: ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ﴾ أي قال موسى عليه السلام لقومه رداً على ما قالوا: إنَّ المرجوَ من فضل ربكم أن يُهلِكَ عدوكم فرعونَ الذي سخركم لخدمته وآذاكم بظلمه، ويجعلكم خلفاءَ في الأرض التي وعدكم إياها والتي يمنعكم فرعونُ من الخروج إليها، فينظر سبحانه كيف تعملون بعد استخلافه إياكم فيها: هل تشكرون النعمة أمْ تكفرون؟ وهل تصلحون في الأرض أم تفسدون؟ ليجازيكم في الدنيا والآخرة بما تعملون[١١٣٧].

٥٥١- دعاء موسى على فرعون وملئه:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةٗ وَأَمۡوَٰلٗا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[١١٣٨].

هذا إخبار من الله تعالى عما دعا به موسى عليه السلام على فرعون وملئِهِ لما أَبَوْا قبول الحق، واستمروا على كفرهم وضلالهم معاندين جاحدين، فقال موسّى في دعائه ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةٗ وَأَمۡوَٰلٗا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن

(١١٣٥) تفسر الزمخشري ج٢ ص١٤٣، تفسير ابن كثير ج٢ ص٢٣٩.

(١١٣٦) سورة الأعراف، الآية ١٢٩.

(١١٣٧) تفسير المنار ج٩ ص٨٠-٨١.

(١١٣٨) سورة يونس الآيتان ٨٨، ٨٩.

سَبِيلِكَ﴾ أي أعطيت فرعون وأشراف قومه وكبراءهم زينةً من الحلي والحلل والآنية والأثاث وغيرها من متاع الدنيا، وأموالاً كثيرة الأنواع والمقادير ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ﴾ أي ليفتتنن بما أعطيتهم مَنْ شئت من خلقك ليظُنَّ من أغويته أنك إنما أعطيتهم هذا لحبك إياهم واعتنائك بهم ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ أي أهلكها، ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي اطبع عليها ﴿فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ وهذه الدعوة كانت من موسى عليه السلام غضباً لله تعالى ولدينه على فرعون وملئه الذين تبين له أنَّهُ لا خير فيهم، ولا يحصل منهم شيء ولا إيمان. قال تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ حيث إنَّ موسى كان يدعو وهارون يؤمِّنُ على دعائه، أي قد أجبناكما فيما سألتما من تدمير فرعون وملئه ﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾ أي كما أجيبت دعوتكما فاستقيما على أمري وعلى ما أنتما عليه من دعوة فرعون وقومه إلى الحق، ومن إعداد بني إسرائيل للخروج بهم من مصر ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: ولا تسلكانِّ طريق الذين لا يعلمون سُنَّتي في خلقي وإنجازَ وعدي لرسلي، فتستعجلان الأمر قبل أوانه(١١٣٩).

٥٥٢- خروج موسى بقومه من مصر وهلاك فرعون وجنوده(١١٤٠).

لما طال مقام موسى عليه السلام بمصر، وأقام فيها حُجَجَ الله وبراهينَهُ على فرعون وملئه، وهم مع ذلك يكابرون ويعاندون لم يبق لهم إلاَّ العذاب بعد هذا الإمهال الطويل من رب العالمين. فأمر الله تعالى موسى عليه السلام أنْ يخرج بقومه بني إسرائيل ليلاً من مصر، وأن يمضي بهم حيث يُؤمَر، ففعل موسى عليه السلامُ ما أمره به ربُّه عزوجل، وأعلمه بأنَّ فرعون سيتبعكم هو وجنوده، قال تعالى: ﴿۞وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾(١١٤١). وذلك أنَّ فرعون لما علم بخروج موسى بقومه غاظه ذلك، فأرسل سريعاً في أنحاء بلاده، حاشرين أي من

(١١٣٩) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٢٩، تفسير المنار ج١١ ص٤٧٢-٤٧٤ تفسير ابن عطية ج٧ ص٢٠٤-٢٠٨، تفسير الزمخشري ج٢ ص٣٦٦.

(١١٤٠) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٣٥-٣٣٧، تفسير القاسمي ج١٣ ص١٨-٢٠.

(١١٤١) سورة الشعراء، الآية ٥٢.

يحشر له الجند ويجمعهم من مختلف أنحاء بلاده قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾[١١٤٢] فلما تكامل جمعهم سار بهم فرعون يريد اللحاق بموسى وقومِهِ، قال تعالى: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾[١١٤٣] أي أتبعهم فرعون وجنوده وقت شروق الشمس ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾[١١٤٤] أي لما تقارب الجمعان: جَمْعُ موسى وقومِهِ، وجَمْعُ فرعون وجندِهِ، بحيث صار كل فريق يرى الفريق الآخر، قال أصحاب موسى ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ أي سيدركنا ويصل إلينا فرعون وجندُهُ ﴿قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾[١١٤٥] أي قال موسى عليه السلام لقومه: كلا، أي لن يدرككم فرعون وجنده لأنَّ الله وعدكم بالخلاص منهم، وإن ربي سيهديني إلى طريق النجاة منهم ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾[١١٤٦]. ولما وصل موسى وقومه إلى ساحل البحر، ومن ورائهم فرعون وجنوده، أوحى الله تعالى إلى موسى أن أضرب بعصاك البحر، أي فضربه فانفلق فكان كل جزء متفرق منه كالجبل الكبير. قال ابن عباس رضي الله عنهما: صار البحر اثني عشر طريقاً لكل سبط من بني إسرائيل طريق. وقد جعل الله تعالى هذه الطرق في قاع البحر يابسة يمكن السير عليها بسهولة ويسر، كما أشار إلى ذلك قوله تعالى في سورة طه ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾[١١٤٧] أي لا تخاف دركاً من فرعون فلن يصل إليك، ولا تخاف من البحر أن تغرق أنت وقومك فيه. ولما حصل انفلاق البحر وسار في طرقه موسى ومن معه حصل ما أخبرنا الله به بقوله تعالى: ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ﴾[١١٤٨] أي قربنا من البحر فرعون وجنوده وأدنيناهم إليه فدخلوا فيه على آثر بني إسرائيل ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۝٦٥ ثُمَّ أَغْرَقْنَا

(١١٤٢) سورة الشعراء، الآية ٥٣.

(١١٤٣) سورة الشعراء، الآية ٦٠.

(١١٤٤) سورة الشعراء، الآية ٦١.

(١١٤٥) سورة الشعراء الآية ٦٢.

(١١٤٦) سورة الشعراء، الآية ٦٣.

(١١٤٧) سورة طه، الآية ٧٧.

(١١٤٨) سورة الشعراء الآية ٦٤.

﴿ٱلْءَاخَرِينَ﴾[1149] أي أنجينا موسى ومن معه فلم يهلكْ منهم أحد، وأغرقنا الآخرين بإطباق البحر عليهم فهلكوا جميعاً بالغرق، والذين كانوا مع فرعون جنودُه الذين جمعهم، كما جاء في آية أُخرى ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾[1150] وكما جاء في قوله تعالى ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾[1151].

٥٥٣- إيمان فرعون، وإلقاء جثته على الساحل:

قال تعالى: ﴿۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾[1152]. أي لما جاوز بنو إسرائيل البحر بمعونة الله تعالى وهم بصحبة موسى عليه السلام، فلما خرج آخرهم من البحر انتهى فرعون وجنوده إلى حافته من الناحية الأخرى، فتبعهم فرعون وجنوده لأجل البغي والاعتداء عليهم، فلما صاروا جميعاً في طرق البحر التي سلكها موسى ومن معه أمر الله القديرُ البحر أَنْ يطْبِقَ عليهم، فأطبق عليهم فلم ينج منهم أحد، وتراكمت الأمواجُ فوق فرعون وغشيته سكرات الموت، فقال وهو كذلك: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ فآمن حيث لا ينفعه الإيمان، لأنَّهُ إيمانٌ وقت مشاهدة العذاب، وهذه هي سنة الله في عدم قبول إيمان الكافر وقت نزول العذاب به قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[1153] ولهذا قال الله تعالى في جواب فرعون حين قال ما قال: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ أي أهذا الوقت تقول ما تقول وقد عصيت الله قبل فيما بينك وبينه ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي في الأرض مع الذين أضلوا الناس ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ

(١١٤٩) سورة القصص الآية ٤٠.

(١١٥٠) سورة القصص الآية ٤٠.

(١١٥١) سورة طه الآية ٧٨.

(١١٥٢) سورة يونس الآيات ٩٠-٩٢.

(١١٥٣) سورة غافر، الآيتان ٨٤-٨٥.

﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ قال ابن عباس وغيره من السلف: إنَّ بعض بني إسرائيل حصل عندهم شك في موت فرعون، وأظهروا ذلك لموسى عليه السلام، فأمر الله تعالى البحر أن يلقي بجسد فرعون سوياً بلا روح على نجوة من الأرض، وهي المكان المرتفع ليتحققوا موته وهلاكه، ولهذا قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ﴾ أي نرفعك على نشز من الأرض ﴿بِبَدَنِكَ﴾ أي بجسدك بلا روح سوياً صحيحاً لم يتمزق، ليعرفوه ويتحققوا من موته ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ أي لتكون لبني إسرائيل دليلاً على موتك وهلاكك، وأَنَّ الله هو القادر الذي ناصيةُ كلِّ دابة بيده. وقال بعض العلماء: ﴿لِمَنْ خَلْفَكَ﴾ أي لمن يأتي بعدك من القرون. والواقع أنَّ قوله تعالى: ﴿لِمَنْ خَلْفَكَ﴾ يتسع للقولينِ أي لمن قال: المقصود بهذا هم بنو إسرائيل، ولمن قال: لمن يأتي بعدك من القرون. ومعنى كونِهِ ﴿ءَايَةً﴾ أي أن تظهر للناس عبوديةُ فرعون ومهانته، وأنَّ ما كان يدّعيه من الربوبية باطل محال، وأنه مع ما كان فيه من عِظَم الشأنِ وكبرياء الملكِ آلَ أمْرُهُ إلى ما ترونه لعصيانه ربَّهُ عزوجل، فما الظن بغيره؟ أو المعنى: لتكون عبرة تعتبر بها الأُمم بعدك فلا يجترؤوا على نحو ما اجترأت عليه إذا سمعوا بحالك وبهوانك على الله وما صنع الله بك جزاء طغيانك وكفرك[١١٥٤] ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ أي معرضون عن تأمل آياتنا والتفكر فيها[١١٥٥].

٥٥٤- أسباب هلاك فرعون وجنوده:

المستفاد من آيات القرآن العظيم المتعلقة بهلاك فرعون وجنوده بإغراقهم في البحر أَنَّ أسباب هلاكهم هذا، هي: ادعاءُ فرعون الربوبية والألوهيةَ لنفسه، ومتابعةُ قومه ومنهم جنده له في هذه الدعوى الباطلة، وتكذيبهُم بآيات الله وغفلتُهم وإعراضُهم عنها، واستكبارُهم وظلمُهم وإنكارُهم بعثَهم بعد الموت لحسابهم، وإفراطهم في المعاصي على نحوٍ يستدعي إنزالَ العقاب بهم، وعدمَ إمهالهم أكثر مما أُمهلوا.

(١١٥٤) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٣٠-٤٣١، تفسير الزمخشري ج٢ ص٣٦٩.

(١١٥٥) تفسير القرطبي ج٨ ص٣٨١.

٥٥٥- أولاً - ادعاء فرعون الربوبية والألوهية:

ادعى فرعونُ الربوبيةَ والألوهية لنفسه، وقد أخبرنا الله تعالى بذلك فقال تعالى حكاية عن فرعون في دعواه الباطلة: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾[1156]. وهدّد موسى بالسجن إن اتخذ إلهاً غيره، فقال تعالى حكاية عما قاله فرعون لموسى: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾[1157]. وفي ادعاء فرعون الربوبية قال تعالى عنه: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[1158]. وقد أطاعه قومُه ومنهم جنودُهُ واتبعوه في دعواه الباطِلَةِ هذه، وفيما أمرهم به من ضلال بناء على دعواه هذه، قال تعالى عنهم: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾[1159]. ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾[1160].

٥٥٦- ثانياً - التكذيب بآيات الله:

قال تعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾[1161]. يخبر تعالى عن فرعون وقومه ومنهم جنوده أنهم لما عتوا وتمردوا مع ابتلائه إياهم بالآيات واحدة بعد واحدة، انتقم الله منهم بإغراقه وإغراق جنوده معه في البحر الذي فرقه الله لموسى فجاوزه وبنو إسرائيل معه، ثم جاء فرعون وجنوده على أثرهم، فلما صاروا فيه أطبقه الله عليهم، فغرقوا عن آخرهم بسبب تكذيبهم بآيات الله وإعراضهم وتغافلهم عنها[1162].

(١١٥٦) سورة القصص الآية ٣٨.

(١١٥٧) سورة الشعراء الآية ٢٩.

(١١٥٨) سورة النازعات، الآية ٢٣، ٢٤.

(١١٥٩) سورة الزخرف الآية ٥٤.

(١١٦٠) سورة هود، الآيتان ٩٦، ٩٧.

(١١٦١) سورة الأعراف الآية ١٣٦ وانظر الآيتين ٤١ و٤٢ من سورة القمر.

(١١٦٢) تفسير ابن كثير ج٢ ص٢٤٢.

٥٥٧- تكذيبهم كان جحوداً بما استيقنته أنفسهم:

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾(١١٦٣). يخبرنا الله تعالى عن فرعون وقومه، لمّا جاءتهم آيات الله مبصرة، أي واضحة ظاهرة ﴿ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾. ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا ﴾ أي جحدوا آيات الله التي أيدَّ الله بها موسى، جحدوها في ظاهر أمرهم ﴿ وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ﴾ أي اعتقدوا في أنفسهم أنها حق من عند الله ولكن جحدوها وأنكروها وعاندوها وكابروها ﴿ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ أي ظلماً من أنفسهم وعلواً أي استكباراً عن اتباع الحق. ولهذا قال تعالى: ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ أي انظر يا محمد كيف كان عاقبة أمرهم في إهلاك الله إياهم وإغراقهم عن آخرهم في صبيحة يوم واحد(١١٦٤).

٥٥٨- ثالثاً - الاستكبار والظلم:

قال تعالى مخبراً عن استكبار فرعون وجنوده وظلمهم: ﴿ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(١١٦٥). أي إنَّ فرعون وجنودَه طغوا وتجبروا وأكثروا في الأرضِ الفسادَ وظلمَ العباد(١١٦٦). واستكبارهم واستكبار غيرهم لا يكون إلاَّ بغير الحق، لأنَّ الاستكبار بالحق إنما هو لله وحده وهو المتكبر على الحقيقة أي المتبالغ في كبرياء الشأنِ(١١٦٧)، ومن أسماءِ اللهِ الحُسنىٰ «الجبار المتكبر»، أي الذي لا يليق الجبروت إلا له ولا التكبر إلاَّ لعظمته كما جاء في الحديث الصحيح الذي يرويه ﷺ عن ربه: «العظمة إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني واحداً منهما عذبته»(١١٦٨) وقال تعالى عن ذاته المقدسة: ﴿ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى

(١١٦٣) سورة النمل، الآيتان ١٣ و١٤.

(١١٦٤) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٥٧.

(١١٦٥) سورة القصص الآيتان ٣٩، ٤٠.

(١١٦٦) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٩٠.

(١١٦٧) تفسير الزمخشري ج٣ ص٤١٥.

(١١٦٨) تفسير ابن كثير ج٤ ص٣٤٣.

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[1169] قال مجاهد: يعني له السلطان أي هو العظيم الممجد الذي كل شيء خاضع لديه فقير إليه[1170]، فكل مستكبر سوى الله تعالى فاستكباره بغير الحق. ومع استكبار فرعون وجنوده إنكارهم البعث بعد الموت وحسابَهم يوم القيامة، ولذلك أهلكهم الله تعالى، قال تعالى عن إهلاكهم وحلول العقاب بهم: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ﴾ أي أغرقناهم في صبيحة يوم واحد فلم يبق منهم أحد. وتعبير القرآن الكريم بـ﴿فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ﴾ من الكلام المفخم الذي يدل على عظمة الله تعالى وكبرياء سلطانه فقد شبههم استحقاراً لهم واستقلالاً لعددهم وإن كانوا كثيرين، شبههم بما يطرح، كحصيات أخذها آخذ في كفه فطرحهن في البحر[1171].

٥٥٩- رابعاً - الإفراط بالمعاصي:

قال تعالى عن فرعون وجنده: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾[1172]. أي فلما أسخطونا وأغضبونا بإفراطهم في المعاصي استوجبوا أن نعجل لهم عذابنا وانتقامنا وأن لا نمهلهم أكثر مما أمهلناهم[1173].

٥٦٠- من جريمة جنود فرعون إعانتهم له:

هذا وإنَّ من جريمة جنود فرعون التي تضاف إلى أسباب هلاكهم واستحقاقهم العقاب الذي نزل بهم مِثْلَ فَرعونَ أَنهم كانوا أعوانَه وأنصارَه على البغي والظلم واستعباد العباد، جاء في مختار الصحاح «الجند: الأعوان والأنصار»[1174]، وجاء في مفردات الراغب: «ويقال للعسكر الجند»[1175]. فجنود فرعون إذَنْ هم أعوانه وأدواتُه في بغيه وظلمه ولولاهم لما استطاع بمفرده أنْ يفسد في الأرض ويظلمَ

(١١٦٩) سورة الجاثية الآية ٣٧.

(١١٧٠) تفسير ابن كثير ج٤ ص١٥٣.

(١١٧١) تفسير الزمخشري ج٣ ص٤١٥.

(١١٧٢) سورة الزخرف الآية ٥٥.

(١١٧٣) تفسير الزمخشري ج٤ ص٢٥٩.

(١١٧٤) مختار الصحاح للإمام محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي ص٤٨.

(١١٧٥) معجم مفردات ألفاظ القرآن للعلامة الراغب الأصفهاني ص٩٨.

العباد. وكان جنودُهُ من الكثرة بحيث مكنّوه من بغيه وإفساده وظلمه، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَـٰدِ ۝ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِي ٱلْبِلَـٰدِ ۝ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾[١١٧٦] وجاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴾ قيل له: ذو الأوتاد، لكثرة جنوده ومضاربهم التي كانوا يضربونها إذا نزلوا، أو لتعذيبه بالأوتاد[١١٧٧]. ومن المعلوم أنَّ تعذيبه بالأوتاد إنما يكون بجنوده، يأمرهم بتعذيب من يريد بالأوتاد أو بغيرها فينفذون ما يأمرهم به.

(١١٧٦) سورة الفجر ٦-١٤.

(١١٧٧) تفسير الزمخشري ج٤ ص٧٤٨.

المبحث الرابع
ما يستفاد من قصة موسى عليه السلام
مع فرعون للدعوة والدعاة

٥٦١- قد يكون الفرج بعد الشدة سريعاً:

على الدعاة أن يجعلوا من مواضيع الدعوة تذكيرَ المسلمين بأنَّ الفرج بعد الشدة قد يأتي سريعاً وقد يأتي بعد حين، وكل ذلك بمشيئة الله وحكمته فهو الذي يدفع الضر عن الإنسان ويأتيه بالفرج بعد الشدة. فعلى المسلم أن يتوجه إلى ربه لرفع ما حلّ ويحل به من شدة وضرر، ولكنْ لا يجوز له أبداً أن يوقّتَ لله تعالى وقتاً لاستجابة دعائه ورفع ما به من ضرّ، فالفرج قد يكون سريعاً كما قلت وقد يكون بعد أمد طويل. ومن أمثلة الفرج السريع ردُّ موسى وهو رضيع إلى أمه بعد أن ألقته في اليم قال تعالى عن هذا الردّ: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾(١١٧٨).

وبشأن هذا الردّ وزوال الشدة التي كانت فيها أمُّ موسى بسبب فراقها لابنها موسى وخوفها عليه حيث ألقته باليم، قال ابن كثير: ولم يكن بين الشدة والفرج إلاّ القليل: يوم وليلةٌ أو نحوه والله أعلم، فسبحان من بيده الأمر، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، الذي يجعل لمن اتقاه بعد كل هم فرجاً وبعد كل ضيق مخرجاً(١١٧٩).

٥٦٢- وقد يكون الفرج بعد حين:

وكما قد يكون الفرج بعد الشدة سريعاً، قد يكون بعد طول أمد الشدة، ومن أمثلة ذلك مجيء الفرج ليعقوب عليه السلام بردّ يوسف، ابنه، إليه بعد طول أمد ما عاناه

(١١٧٨) سورة القصص، الآية ١٣.

(١١٧٩) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٨٤.

من فقد يوسف عشرات السنين كما مرّ بنا في قصة يوسف عليه السلام. ومن أمثلة هذا الفرج أيضاً ابتلاء أيوب عليه السلام بالمرض وملازمته له سنين طويلة، ولم يأته الفرج إلاّ بعد طول أمد معاناته به، قال تعالى: ﴿ ۞وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾[1180] والضرُّ هو الضرر في النفس من مرض وهزال، وقد ألطف عليه السلام في السؤال حين ذكَّر نفسُه بما يستعطف به نزول الرحمة عليه من ربه، وذكر ربّه بغاية الرحمة التي وسعت كل شيءٍ وطمع أن لا تضيق بحاله. وقد جاء في تفسير هذه الآية: إنَّ الله ابتلاه بهلاك ولده وماله وبالمرض في بدنه أكثر من عشر سنوات أو أقل منها بقليل، ثم جاءه الفرج بعد الشدة حيث عافاه الله وأزال ما به من مرض وعوّضه عما فقده من ولد ومال[1181].

٥٦٣- الفرج للجماعات المسلمة:

والفرج بعد الشدة غير مقصور على الأفراد بل يشمل الجماعات المسلمة أيضاً، فيرفع الله عنهم الشدائد وهي غالباً ظلم الطغاة وبطشهم بهم، ويأتيهم الفرج بإهلاك هؤلاء الطغاة، كما فعل الله تعالى بفرعون وجنودِهِ الذين آذوا قوم موسى بتقتيل أبنائهم وتسخيرهم في أشق الأعمال وأرذلها، وكان الفرج لهم بإغراق فرعون وجنوده في البحر وخروج موسى وقومه من مصر سالمين كما قال تعالى: ﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴾[1182] أي فرعون وجنده كما قال تعالى: ﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1183] فكان في هلاكهم عبرةٌ للمعتبرين وبيان لسنة الله في الفرج بعد الشدّة للجماعات المؤمنة. قال تعالى في هلاك فرعون وجنده وسبب هذا الهلاك وما فيه من عبرة ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْـَٔاخِرِينَ ﴾[1184]. ووقت الفرج للجماعة المسلمة التي حلت بها الشدائد قد

(١١٨٠) سورة الأنبياء، الآية ٨٣.

(١١٨١) تفسير الزمخشري ج٣ ص١٣١، تفسير ابن كثير ج٣ ص١٨٨.

(١١٨٢) سورة الشعراء الآيتان ٦٥، ٦٦.

(١١٨٣) سورة القصص الآية ٤٠.

(١١٨٤) سورة الزخرف، الآيتان ٥٥، ٥٦.

يكون عاجلاً وقد يكون آجلاً، وهو على كل حال راجع إلى مشيئة الله وحكمته ومرتبط بسنن الله في خلقه وبما تقومُ به الجماعة من أسباب رفع الشدائد عنها واستدعاء مقتضيات الفرج وعلى رأسها: الإستعانة بالله والصبر على طاعته وعن معصيته وعلى قضائه، كما قال موسى لقومه وقد اشتد عليهم ظلم فرعون وتوعدهم بما حكى الله عنه قوله: ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ قال موسى لهم كما حكى الله عنه: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾(١١٨٥).

٥٦٤- نصرة المظلوم واجبة:

ذكرنا في قصة موسى أنه انتصر للذي استغاثه ضد ظالمه، لأنَّ نصرة المظلوم واجبة، ولكنها ينبغي أن تكون بقدر ما يندفع به ظلم الظالم وبغيُهُ، ولهذا لما وكز موسى الرجُلَ المعتديَ فقضى عليه، قال عن فعله هذا إنه من عمل الشيطان لتجاوز موسى عليه السلام حدَّ الدفاع الشرعي عن المظلوم، وإن كان هذا التجاوز دون قصد ولا عمد من موسى عليه السلام، ولذلك قال عليه السلام كما يحكيه الله عنه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾(١١٨٦) وعلى هذا فينبغي للدعاة أنْ يؤكدوا في دروسهم ووعظهم للناس هذا المعنى وهو: وجوب نصرة المظلوم، وهو بعض حق المسلم على أخيه المسلم، فقد جاء في الحديث النبوي الشريف: «المسلم أخو المسلم لا يسلمه ولا يخذله» ومن الخذلان أنْ لا تدفع الظلم عنه وأنت قادر على ذلك. ولكن يجب التأكيدُ على أنَّ دفع الظلم عن المظلوم يكون بقدر ما يندفع به الظلم لا بأكثر من ذلك؛ لئلا يصير الظالمُ مظلوماً من قبل المنتصر للمظلوم، وهذا لا يجوز لأنَّ الظلم حرام بالنسبة لكل الناس، وبالنسبة للظالم نفسه أيضاً.

(١١٨٥) سورة الأعراف ١٢٨، ١٢٩.

(١١٨٦) سورة القصص الآية ١٦.

٥٦٥- من الحرام شرعاً معونة الظالم:

غفر الله لموسى قتله ذلك الظالم المعتدي دون قصد من موسى ولا تعمد في قتله، فقال موسى عند ذلك معاهداً ربه بعدم معاونة المجرمين، قال تعالى حكايةً عما قاله موسى: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾[١١٨٧]. قال الإمام ابن عطية وهو يفسر هذه الآية: (احتج أهل الفضل والعلم بها - أي بهذه الآية - في منع خدمة أهل الجور ومعونتهم في شيءٍ من أمرهم ورأوا أنَّ هذه الآية تتناول ذلك، نصَّ عليه عطاء بن أبي رباح)[١١٨٨]. ونصُّ كلام عطاء بن أبي رباح الذي يشير إليه ابن عطية هو - كما نقله الإمام القرطبي - (فلا يحل لأحدٍ أن يعين ظالماً، ولا يكتب له ولا يصحبه وأنه إن فعل شيئاً من ذلك فقد صار معيناً للظالمين)[١١٨٩].

٥٦٦- تحذير الأمة من معونة الحاكم الظالم:

واضح من كلام ابن عطية والمنقول عن عطاء بن أبي رباح وتأييد القرطبي لهما فيما ذكراه أنهم يريدون بالظالم المحظور عونه ومعونَتُهُ هو الحاكم الظالم، وحتى إذا لم يريدوا ذلك على وجه الخصوص فمن المؤكد أنَّ أولى من يشمله التحذير من معونة الظالمين هو الحاكم الظالم. والواقع أنَّ المسلمين عموماً إلاَّ القليل منهم يغفلون عن حرمة وخطورة معونة الحاكم الظالم، ومن هنا كان من واجبات الداعي المسلم، بل من أولويات واجباته في الدعوة: تبصير الأمة بحرمة وخطورة معونة الحاكم الظالم. ويؤكد هذا الواجبَ أمران: **(الأول)**: أنَّ الحاكم الظالم ما كان يمكنه الاستمرار في ظلمه وبغيه لولا معونة أعوانه و**(الثاني)**: أنَّ كثيراً من المسلمين لا يرون بأساً ولا تناقضاً بين معونة الحاكم الظالم وبين الالتزام المطلوب بأحكام الإسلام، ولهذا تراهم يصلّون ويصومون بل ويبني بعضهم المساجد وهم من أكثر الناس عوناً للحاكم الظالم وتنفيذاً لأوامره الجائرة في حق الإسلام ودعاتِهِ.

(١١٨٧) سورة القصص، الآية ١٧.

(١١٨٨) تفسير ابن عطية ج١١ ص٢٧٧.

(١١٨٩) تفسير القرطبي ج١٣ ص٢٦٣.

٥٦٧- كيف يقوم الداعي بالتحذير المطلوب للأمة:

نريد بالتحذير المطلوب للأمة من معونة الحاكم الظالم، ذلك التحذيرَ الذي يحملهم على الفرار من كل ما يمكن اعتباره معونة للحاكم الظالم كما يفرون من الاقتراب من النار المحرقة أو الأسد الهائج الجائع، فكيف يمكن ذلك للداعي المسلم؟ والجواب: عليه أن يقوم بما يأتي:

٥٦٨- أولاً - تبصير الأمة بما ورد في النهي عن معونَةِ الظالم:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾[(١١٩٠)]. وجاء في تفسيرها: الركون هو الميل اليسيرِ إلى الشيءِ، والنهيُ متناوِلٌ للانحطاط في هوى الذين ظلموا والانقطاع إليهم، ومصاحبتهم ومجالستهم وزيارتهم ومداهنتهم والرضا بأعمالهم، والتشبه بهم والتزيي بزيهم، وذكرِهِمْ بما فيه تعظيم لهم[(١١٩١)]، فإذا كان هذا داخلاً في معنى الركون إلى الذين ظلموا المنهيِّ عنه والمترتب عليه دخولُ النار، فكيف بمن يعينهم فعلاً علىٰ ظلمهم وينفذ أوامرهم الظالمة؟.

٥٦٩- ثانياً-أعوان الظلمةِ ظلمة مثلهم:

من حدود الله، أي ما شرعه الله تعالى: عدم الركون إلى الظَّلَمَةِ، ومنه معونة الحاكم الظالم، فمن أعانه فقد تعدى حدودَ الله، وقد قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[(١١٩٢)]. فأعوان الظلمة ظلمة مثلهم، وقد دلّ على هذا أيضاً قوله تعالى عن فرعون وأعوانه: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ﴾[(١١٩٣)] فقد وصفهم الله تعالى جميعاً بالخطيئة، ومن خطيئتهم: الظلم الذي كان يرتكبه فرعون بحق بني إسرائيل في مصر ويعاونه عليه هامان وجنوده وجنود فرعون.

(١١٩٠) سورة هود، الآية ١١٣.

(١١٩١) تفسير الزمخشري ج٢ ص٤٣٣.

(١١٩٢) سورة البقرة، الآية ٢٢٩.

(١١٩٣) سورة القصص، الآية ٨.

٥٧٠- ثالثاً- اشتراك الظالم وأعوانه بالعذاب:

وعذاب الدنيا الذي يصيب الحكامَ الظلمةَ يصيب أعوانَهم أيضاً لأنهم ظَلَمةٌ مثلهم. ولهذا لما نزل العذاب بفرعون نزل بأعوانه أيضاً، قال تعالى عن هلاك فرعون وجنوده بالغرق: ﴿ فَأَخَذْنَهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَهُمْ فِى ٱلْيَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1194]. فجعلهم الله تعالى جميعاً ظالمين: فرعون لمباشرتِهِ الظلمَ إرادة له وأمراً به، وجنوده لمعاونتهم له بتنفيذ ظلمه وما يأمرهم به من أنواع بغيه وظلمه، فأهلكهم الله جميعاً بالغرق في البحر، وأمّا في الآخرة فإنَّ نصيب أعوان الظلمة كنصيب الظلمة من العذاب، قال تعالى عما يصيب فرعون وأعوانه يوم القيامة من العذاب: ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴾[1195] وقال تعالى عن مؤمن آل فرعون وما حلّ بفرعون وجنود من سوء العذاب: ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴾[1196]. وسوء العذاب الذي حلّ بهم هو الغرق في البحر كما قال المفسرون[1197]. وما قالوه هو الصواب بدلالة قوله تعالى: ﴿ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴾[1198]. والذين غرقوا في البحر عقاباً لهم هم فرعون وجنوده لقوله تعالى: ﴿ فَأَخَذْنَهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَهُمْ فِى ٱلْيَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1199]. ثُمَّ يوم القيامة يدخل فرعونُ وأعوانه الذين أهلكهم الله بالغرق في الدنيا، يدخلهم الله تعالى في أشد العذاب، قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾[1200].

(١١٩٤) سورة القصص الآية ٤٠.

(١١٩٥) سورة هود الآية ٩٨.

(١١٩٦) سورة غافر، الآية ٤٥.

(١١٩٧) تفسير ابن كثير ج٤ ص٨٠، تفسير الرازي ج٢٧ ص٧٣، تفسير ابن عطية ج١٣ ص٤٩.

(١١٩٨) سورة الأنفال، الآية (٥٤).

(١١٩٩) سورة القصص، الآية ٤٠.

(١٢٠٠) سورة غافر، الآية ٤٦.

٥٧١- رابعاً - عدم الإنكار على الظالم سبب للعقاب العام:

ويبين الداعي المسلم لمن يدعوهم ويعظهم بما أخرجه الترمذي في جامِعِهِ عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال: يا أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ ﴾ وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الناس إذا رأوا ظالماً فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم بعقاب منه»[١٢٠١].

ومن الواضح أنَّ معونة الحاكم الظالم أدعى إلى نزول العقاب العام من مجرد عدم الإنكار عليه.

٥٧٢- خامساً - لا يُدعَى لظالم بالبقاء:

لا يجوز للمسلم أن يدعو لظالم بالبقاء أو بطول العمر، لأنَّ في هذا الدعاء رغبةً من الداعي في إبقاء الظالم وبالتالي تمكينهِ من الظلم، وقد جاء النهيُ عن هذا الدعاء في الحديث النبوي الشريف: «من دعا لظالم بالبقاء فقد أحبَّ أن يُعصَى الله في أرضه»[١٢٠٢]. ومن الواضح الجليّ أنّ معونة المسلم للظالم أشدُّ عصياناً لله تعالى من مجرد الدعاء له بالبقاء، فإذا نُهِيَ المسلمُ عن مجرد الدعاء للظالم فنهيه عن معونته أولىٰ.

٥٧٣- سادساً - لا يسعى المسلم إلى دفع الهلاك عن الظالم:

سئل الإمام سفيانُ الثوريُّ عن ظالم أشرف على الهلاك في برّية، هل يسقى شربة ماء لتخليصه من الموت عطشاً؟ فقال: لا، فقيل له: نتركه يموت؟ فقال: دعه يموت[١٢٠٣]. وهذا الخبر عن سفيان الثوري - وهو إمامٌ جليل في الفقه - يرينا نظرة فقهائنا للظلمة، إلى درجة أنَّ هذا الإمام الورع الجليل لا يجيزُ للمسلم أن يسقي الظالم شربة ماء تدفع الهلاك عن نفسه، وأكبر الظن أنَّ الثوري يقصد بالظالم في هذه

(١٢٠١) تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي ج٨ ص٤٢٣.

(١٢٠٢) تفسير الزمخشري ج٢ ص٤٣٣، وقال مخرج أحاديث التفسير: رواه البيهقي في شعب الإيمان.

(١٢٠٣) تفسير الزمخشري ج٢ ص٤٣٣.

المسألة الحاكم الظالم، فمن بابٍ أولى أنه يغلِّظُ النهيَ عن معونة الحاكم الظالم؛ لأنَّ في معونته استمراراً لظلمه وأذاه للناس.

٥٧٤- سابعاً - ضرب الأمثال لإظهار قبح معونة الظالم:

وقد يكون من المفيد للداعي المسلم ضربُ الأمثالِ لإظهار قبح معونة الحاكم الظالم وأي ظالم غيره، بأنْ يقال لهذا الذي يعين الحاكمَ الظالم بالقول أو بالفعل: أترضىٰ وتقبل أن تزوج ابنتك لرجل نصراني مهما دفع من مهر لابنتك ومالٍ كثير لك؟ فإنه سيقول: لا. فقل له لماذا؟ فسيقول لك لأنه مسلم، والإسلام يحرم أن ينكح الكافر مسلمة. فقل له: وكذلك يحرم الإسلام على المسلم أن يعين ظالماً. وقل له أيضاً: أترضى وتقبل أن تعين أحداً على فعل الفاحشة بامراة، أو أن تكون خادماً تقدم الخمور لرواد نوادي الفحش والخمور بأجر كثير جداً؟ فإنه سيقول: لا، فقل له: لماذا لا تقبل ذلك والأجر كثير جداً؟ فسيقول لك: إنه فعلٌ حرام ومشينٌ ولا يليق بكرامة المسلم، فقل له: وكذلك خدمتك للحاكم الظالم فعلٌ حرام ومشينٌ ولا يليق بذي الكرامة والعزة.

٥٧٥- لا يجوز للجماعة المسلمة أن تعين ظالماً:

الجماعة المسلمة، هي جماعة الدعاة إلى الإسلام، فيلزمها ما يلزم الفرد المسلم شرعاً. ومن ذلك أَنْ لا تركن للذين ظلموا ولا تعين ظالماً، حاكماً كان هذا الظالم أو ذا نفوذ في المجتمع، لأنها إن فعلت ذلك وقعت في معصية الله، وفقدت ثقة الناس وفقدت ما هو أكبر من ثقة الناس وهو عون الله وتأييدُه وتخليه عنها، لأنها صارت جماعة ظالمة بإعانتها للظالمين، والله يقول: ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾(١٢٠٤) ويقول تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾(١٢٠٥) وعلى الجماعة المسلمة أنْ تعرف جيداً ما يدخل في مفهوم معونة الظالم وبالتالي لا يجوز، وما لا يدخل في هذا المفهوم وبالتالي يجوز، ولكن الفارق بينهما دقيق جداً، ولكن بتقوى الله وبالتزام الجماعة المسلمة بالنهجِ السديد في الدعوة إلى الله يكون لها بصرٌ حديدٌ

(١٢٠٤) سورة الشورى، الآية ٨.

(١٢٠٥) سورة البقرة الآية ٢٧٠.

يفرق بين الجائز والمحظور، قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾[1206]. وكلمة ﴿ فُرْقَانًا ﴾ في الآية الكريمة كلمة جامعة مطلقة مثل كلمة (تقوى)، فالتقوى إذا شبهناها بالشجرة المثمرة فالفرقان هو بَعْضُ ثمارها. ومعنى الآية: إن تتقوا الله في كل ما يجب أن يُتقَى بمقتضى دينه وشرعه وبمقتضى سنته في نظام خَلْقِهِ يجعل لكم بمقتضى هذه التقوى وبسببها مَلَكَةً من العلم والهداية والنور في قلوبكم، تفرقون بهذا كله بين الحق والباطل، وبين ما يجوز وما لا يجوز من الأقوال والأفعال، كما تسلمكم هذه التقوى إلى نصر به يُفْرَقُ بين المحق والمبطل وبه يكون إعزاز المؤمنين وإذلال الكافرين[1207].

٥٧٦- خروج الداعي من بلده فراراً من عدوه:

ويجوز عند الضرورة خروج الداعي من بلده فراراً من عدوه، ولهذا قبل موسى نصيحة مؤمن آل فرعون بالخروج من مصر؛ لأنَّ الملأ من قوم فرعون يتشاورون في قتله، قال تعالى: ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴾[1208]. والفرار المشروع من العدو عند الضرورة لا يشترط فيه أن يكون فراراً من القتل بل يكفي أن يكون مما يؤذي ويمنع الداعيَ من الدعوة، كحبسه مثلاً وإيذائه بدنياً بما هو دون القتل، كما لا يعتبر هذا الفرار جبناً من الداعي، لأنَّ الداعي في كر وفرّ مع أعداء الدعوة، أي هو معهم في حالة حرب، وفي الحرب كرٌّ وفرٌّ وتحولٌ من جهة إلى أخرى، واتباعُ خِطّةٍ دون أخرى، ومن خطط الحرب عدم مواجهة العدو، والاختفاء منه والذهاب بعيداً عنه وأخيراً بالفرار الموغل في البعد عن العدو إلى درجة الخروج من بلد الداعي. والداعي إذ يفعل ذلك لأنَّ حياته ليست ملكاً له بل هي ملك لله، والله تعالى يريد إبقاءها خدمة لدعوته فلا يجوز له أن يعرضها للهلاك بالبقاء في مواجهة العدو مع عدم التكافىء

(١٢٠٦) سورة الأنفال الآية ٢٩.

(١٢٠٧) تفسير الزمخشري ج٢ ص٢١٤، تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٠٠، تفسير الألوسي ج٩ ص١٩٦، تفسير القرطبي ج٧ ص٣٩٦، تفسير الرازي ج١٥ ص١٥٣. وانظر كتابنا السنن الإلهية ص١٢٩-١٣٤.

(١٢٠٨) سورة القصص الآية ٢٠.

في القوة بينه وبين عدوه، ولهذا أَذِنَ ربنا تعالى لنبيه سيدنا محمد ﷺ بالهجرة إلى المدينة والخروج من مكة متخفياً من قريش. ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1209] أي فخرج موسى عليه السلام من مصر وهو خائف أن يتعرض له العدو في طريقه، ودعا ربه أن ينجيه من القوم الظالمين فخروج الداعي من بلده عند الضرورة من سبل الحذر المشروع الذي يدفع به الداعي الضرر الأشد بتحمل الضرر الأخف.

٥٧٧- التقدم لمساعدة المحتاج للمساعدة ولو لم يطلبها:

ومن المستحسن جداً أن يتقدم الداعي لمساعدة من يتوسم فيه الحاجة إلى المساعدة وإن لم يطلبْها منه، إذا رأى الداعي من أحواله ما يستدعي إلى السؤال منه عما به، تمهيداً لمساعدته إذا تبينت حاجته إلى المساعدة، وهذا ما فعله موسى، فإنّهُ لما توجه تلقاء مدين وصل إلى مائها حيث يستقي منها الناس هناك، جرى له ما قصه الله علينا، بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾[1210].

أي وجد موسى على ماء مدين أمّةً كثيفة العدد يسقون أغنامهم، ووجد في مكان أسفلَ مِن مكانهم امرأتين تطردان وتدفعان عن الماء أو تمنعان مواشيهما عن الماء، فجلب هذا المنظر انتباه موسى، فتقدم إليهما وسألهما: ما شأنكما؟ فقالتا: لا نسقي حتى يصدر الرعاء، أي عادتنا أن لا نسقي حتى يصرف الرعاة مواشيَهم عن الماء لعجزنا عن مزاحمتهم وحذراً من مخالطة الرجال، فسقى لهما موسى أي سقى غنمهما من غير أجر ثم رجع إلى الظل الذي كان جالساً فيه[1211].

إنَّ قيام الداعي المسلم أو الجماعة المسلمة بمساعدة المحتاجين إلى المساعدة قبل أن يتقدم هؤلاء المحتاجون بطلب المساعدة، إنَّ هذا الصنيع من الدعاة والجماعة المسلمة شيء مؤثر جداً في الآخرين ويجذبهم إلى الدعوة. هذا وإنَّ

(١٢٠٩) سورة القصص الآية ٢١.

(١٢١٠) سورة القصص الآيتان ٢٣، ٢٤.

(١٢١١) تفسير القاسمي ج١٣ ص١٠١-١٠٢.

المساعدة التي ندعو الدعاة والجماعة المسلمة إلى تقديمها للمحتاجين لا تقتصر على المساعدة المادية بل تشمل أية مساعدة يحتاجها المحتاجون ماديةً كانت أو معنوية بل قد تكون المعنوية أكبر أثراً من المادية، ومن هذه المساعدة المعنوية الدفاعُ أمام المحاكم والجهات المختصة عن الموقوفين والمعتقلين من قبل الدولة ظلماً وعدواناً.

٥٧٨- يجوز عند الضرورة اشتغال المرأة خارج بيتها:

في سؤال موسى المرأتين اللتين كانتا تذودان عن ماء مدين ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ فقولهما ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ بيان للسبب الذي حملهما على القيام بمهمة سقي أغنام أبيهما عوضاً عنه، وهذا السبب هو أَنَّ أباهما شيخ كبير، أي فلكونه كبيراً فهو عاجز عن الخروج وسقي غنمه، وليس في بيتنا رجل يقوم بذلك إلاّ هو، وهو عاجز فاضطرنا الحال إلى أن نقوم نحن بسقي الغنم، فعلى الداعي المسلم عند كلامه عن حكم الشرع في عمل المرأة خارج بيتها أَنْ يبينَ أنَّ الأصل وإن كان هو القرار بالبيت بالنسبة للمرأة إلاَّ أنه يجوز عند الضرورة اشتغالها خارج البيت، كما فعلت ذلك ابنتا شعيب، وكما كانت أسماء امرأة الزبير تفعل ذلك فقد كانت تأتي بالنوىٰ تحمله على رأسها من مكان بعيد عن المدينة، لأنّ زوجها الزبيرَ رضي الله عنه كان مشغولاً بالجهاد، فكانت مضطرة إلى مثل هذا العمل خارج البيت[١٢١٢]. وقصة أسماء هذه وحمْلُها النوىٰ من أرضٍ بعيدة عن بيتها لحاجة زوجها لهذا العمل واطلاعُ النبي ﷺ على حالها وفعلها وسكوته ﷺ دليل واضحٌ على جواز عمل المرأة خارج البيت إذا كان هناك ضرورة لعملها، ووجه الضرورة في عمل أسماء أنَّ زوجها الزبير كان في حال انشغال بنصرة الإسلام والجهاد في سبيله، وعجزه عن استئجار من يقوم له بما كانت تقوم به زوجته أسماء رضي الله عنها[١٢١٣].

(١٢١٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ج٩ ص٣١٩-٣٢٠.

(١٢١٣) كتابنا أحكام المرأة والبيت المسلم في الشريعة الإسلامية ج٤ ص٢٧٠-٢٧١.

٥٧٩- الخوف مما جرت العادة بأذاه لا يقدحُ بإيمان الخائف:

خوف الداعي المسلم مما جرت العادة بأذاه لا يقدحُ بإيمان الداعي المسلم الخائف، فقد خاف موسى عليه السلام من العصا عندما أمره الله بإلقائها وانقلابها إلى حية تسعى، قال تعالى مخاطباً موسى: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾(١٢١٤). فموسى عليه السلام خاف من انقلاب العصا حية، فكان سبيل الخلاص من أذاها الهرب، فناداه الرب جلّ جلاله بالرجوع وعدم الخوف فإنه آمنٌ من أذاها. فإذا خاف الداعي المسلم مما يُخاف منه عادة فلا حرج عليه من أخذ الحذر منه والخلاص من أذاه بالوسيلة الممكنة.

٥٨٠- للداعي أن يبين حاله ويقترح ما يعينه على الدعوة:

لا مانع من ذكر الداعي عذره وبيان حاله واقتراح ما يعينُهُ على الدعوة إذا أرسلته الجماعة المسلمة للقيام بعمل معين أو مهمة خاصة، ودليلنا على ذلك القياس على ما تقدم به موسى من بيانٍ لحاله وظروفه عندما أمره الله تعالى بالذهاب إلى فرعون، قال تعالى حكاية عما قاله موسى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾(١٢١٥)، وقد أجابه الله تعالى إلى طلبه بإرسال هارون معه باعتباره رسولاً معه إلى فرعون، كما أَنَّ الله تعالى طمأن موسى مما خاف منه فقال تعالى: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾(١٢١٦).

٥٨١- الخوف من ذي السلطة لا يعيب الداعي:

والخوف من ذي السلطة لا يعيب الداعي، ولا ينقص من قدره، ولا يقدح في توكله على الله تعالى، وإنما يحمله على الحذر وبيان الواقع لمرجعه، وهذا يستفاد

(١٢١٤) سورة القصص الآية ٣١.

(١٢١٥) سورة القصص الآيتان ٣٣، ٣٤.

(١٢١٦) سورة القصص الآية ٣٥.

من قول موسى لربه: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ فدلّ ذلك على أنَّ الخوف من ذي السلطة والسلطان قد يصحب الأنبياء والفضلاء والأولياء مع معرفتهم بالله ويقينهم بأنَّ الأمر كله بيد الله إذ قد يسلط الله من يشاء على من يشاء[1217]. إلاّ أنَّ خوف العارفين بالله يحملهم على أخذ الأسباب ومنها الحذر من المخوّفِ وعرضُ الأمر على مرجع الداعي، أو إلى إخوانه الدعاة ليتعاونوا على دفع ما يتوقعونه من هذا الذي يخافه الداعي.

٥٨٢- الحرص على إنجاح الدعوة ولو بإشراك الغير في عمل الداعي:

ومن علامات الداعي الصادق حرصه على إنجاح الدعوة وبلوغ أهدافها ولو بإشراك غيره في عمله، ويزداد حرص الداعي على إشراك غيره معه في أعمال الدعوة كلما خاف من نفسه تقصيراً في متطلبات الدعوة، وعدم قدرته على الانفراد والاستقلال في أعمالها ومتطلباتها. ونستفيد هذا المعنى من طلب موسى من ربه تعالى أن يرسل معه أخاه هارون، مبيناً سبب هذا الطلب بأنه أفصح منه لساناً، وليكون معه معيناً في تبليغ دعوته، وقد ذكرنا قول الله تعالى في طلب موسى ونعيده هنا: ﴿ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾[1218].

وقال تعالى في هذا الطلب من موسى، في آية أخرى: ﴿ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴾[1219] فالداعي المسلم الصادق المخلص في دعوته لا يتردد أبداً في الاستعانة بغيره من الدعاة أعضاء الجماعة المسلمة، والطلب من مسؤولي هذه الجماعة بإشراك الكفؤ معه في أعمال الدعوة، أو بإسنادها إليه عوضاً عنه إذا رأى المصلحة في ذلك، وإذا أحس الداعي بضيق في صدره من عمل المسلم الكفءِ في الدعوة وفي إقبال الناس عليه، فليعلم أنَّ إخلاصه مشوب بحب السمعة والرياء فليُسرع إلى تنقية إخلاصه من هذه الشوائب، وليفسح المجال لغيره من الدعاة

(١٢١٧) تفسير القرطبي ج١٣ ص٩٢.

(١٢١٨) سورة القصص الآية ٣٣.

(١٢١٩) سورة طه، الآيات ٢٩-٣٥.

الأكفاء في جهاد الدعوة إلى الله تعالى.

وليعلم الدعاة إلى الله تعالى أنَّ شرّ ما تبتلىٰ به جماعتهم: الفرقة والتحاسد الخفي فيما بينهم. ومظهر هذا التحاسد التطلع إلى تولي مسؤوليات العمل الجماعي في جماعتهم المسلمة إشباعاً لرغباتهم الخفية في حبِّ الظهور والإمارة، وقد يُلْبِسون رغباتهم هذه لباس الحرص على مصلحة الدعوة.

٥٨٣- العاقبة للمتقين:

كان من جملة ما ذكَّر به موسى قومَهُ قولُه لهُم: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1220].

وقوله: ﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ سُنَّةٌ إلَهية لا تتخلف مطلقاً وهي أنَّ العاقبة الحسنة هي للمتقين في الدنيا والآخرة، فليست هي مقصورةً على الآخرة بدخول الجنان وإنما تشمل عاقبتهم الحسنة المرضية في الدنيا، وهذه العاقبة الحسنة تشمل انتصارهم على أعدائهم وإزاحة الظلم عنهم، واستردادَ حقوقهم وعزتهم وكرامتهم وعلوَّ مكانتهم، وكلَّ ما يدخل في مفهوم العاقبة الحسنة التي تخلفُ وتعقُب حالتهم السيئة من ذل وهوانٍ وضياعِ حقوقهم وثَلْمٍ في كرامتهم وعزتهم وتبعية ذليلةٍ لغيرهم من الكفرة والمنافقين. وهذه العاقبة الحسنةُ هي ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ وهم القائمون بمقتضيات ولوازم ومعاني التقوى. والتقوى كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (تجمع فعل ما أمر الله به وترك ما نهى عنه)[1221]، ومن جملة ما أمر الله به الصبر والاستعانة به، ويدخل في مفهوم التقوى: تقوى الله بمراعاة سننه تعالى في الخلق وفي أسباب الإرث في الأرض، والنصر على الأعداء، كالاعتصام بالحق والعدل والصبر على المكاره، والاستعانة بالله في جميع الأحوال والاتحاد، وجمع الكلمة وإقامة شرع الله في شؤون الحياة وعلاقات الأفراد، وإعداد القوة اللازمة للغلبة والانتصار[1222]، فالقائمون بمعاني التقوى ومستلزماتها ومقتضياتها هم

(١٢٢٠) سورة الأعراف الآية ١٢٨.

(١٢٢١) مجموع فتاوى ابن تيمية ج٨ ص٥٢٦.

(١٢٢٢) تفسير المنار ج٩ ص٧٩.

الموصوفون حقاً بالتقوى ويستحقون نعتهم باسم ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾، وبالتالي هم الذين تكون لهم العاقبةُ الحسنةُ في الدنيا والآخرة.

إنَّ على الدعاة إلى الله تعالىٰ توضيحَ هذه السُنَّةِ الإلهية للمسلمين وتذكيرَهم بها دائماً، لرفع اليأس من نفوسهم، وإشاعة الأمل في قلوبهم، وحثهم على تحقيق الشرط - شرط التقوى - لينالوا الجزاء الذي جاء في هذه السنة الإلهية: وهي العاقبة الحسنة. إنَّ على الدعاة أن لا يملوا من تكرار الكلام عن هذه السنّة الإلهية وتوضيحها للمسلمين وضرب الأمثال لها، لأنَّ المسلمين أصابهم إحباطٌ شديدٌ وخيبة أمل مريرة من شدة ما عانوه من تضليل أهل الدجل والضلال، وعجز وخيانة ولاة الأمور، وضياع الديار والحقوق، حتى غدوا في حالة يخشى معها على إيمانهم.

٥٨٤- اختلاف الناس في الاستجابة للحق:

ومما ينبغي للداعي معرفته جيداً حتى لا يضجر من عدم استجابة الناس لدعوته أنَّ الناس بطبيعتهم يختلفون في مدى استعدادهم للاستجابة لصوت الحق، وفي سرعة هذه الاستجابة. ونستدل على ذلك بإيمان السحرة، فقد جاؤوا عازمين على إبطال معجزة موسى عليه السلام، معتقدين أنها من جنس سحرهم، فلما تبيَّنَ لهم الحق، وأنَّ ما جاء به موسى ليس بسحر بل هو برهان صدقه ونبوته آمنوا حالاً، ولم يهتموا بتهديد فرعون لهم، وهذا شأن الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب. ومن الأمثلة على سرعة الاستجابة، إيمان أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فقد جاء في الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلَّا كانت فيه عنده كبوة ونظر وتردد إلاّ ما كان من أبي بكر بن أبي قحافة ماعكم - أي ما تلبث - حين ذكرتُه لهُ وما تردد فيه»[١٢٢٣]. وبين السريع جداً في الاستجابة للدعوة وصوت الحق والبطيءِ جداً في الاستجابة درجات كثيرة جداً تستعصي على العدّ والإحصاء، فمن الناس من يقبل الحق الذي تنادي به الدعوة إلى الله بدون تردد حتى كأنه كان ينتظر سماع الدعوة ليؤمن، ومن الناس مَنْ لا يقبل الدعوة إلى الله ويظل يقاومها ويحاربها ثم

(١٢٢٣) سيرة ابن هشام ج١ ص٢٦٨.

يقبلها بعد ذلك كما حصل لإيمان أبي سفيان. فعلى الداعي أن يفقه ذلك ولا يتعجب منه ولا يضجر منه، ولا ييأس من الاستجابة له حتى من أعتى الناس وأشدهم مقاومة للدعوة.

٥٨٥- إظهار الإيمان حيث يحسن الإظهار:

ويحسن من المؤمن إظهار إيمانه حيث يحسن الإظهار، كما لو كان في هذا الإظهار مصلحة للدعوة إلى الله، أو كان فيه تشجيع للآخرين على الإيمان بالدعوة، وهكذا فعل السحرة، فإنهم آمنوا لمّا تبيّنَ صدقُ دعوة موسى، ولم يكتموا إيمانهم، لأنَّ إظهار إيمانهم كان هو المطلوبَ وليس كتمانه، لما في هذا الإظهار من إعلاء صوت الحق، ودعوة صامتةٍ للناس للإيمان بما آمنوا به، وهذا كان، فقد جاء في تفسير القرطبي: (إنه آمن بموسى عند إيمان السحرة ستمائة ألف)[١٢٢٤] وهذا العدد وإن لم يدعمه القرطبي بدليل، إلاَّ أنه مما لا شك فيه أَنَّ من أسلم وآمن في ذلك اليوم عدد كبير سواء أظهروا إيمانهم أو كتموه، لأنَّ الناس خرجوا لمشاهدة ما سيحدث في مقابلة السحرة لموسى، وكانوا قد علموا بمكان وموعد هذه المقابلة كما ذكرنا من قبل. وعلى هذا فعلى الداعي إلى الله أَنْ يظهر صفته وهي أنه من الدعاة إلى الله، كلما كان هذا الإظهار مفيداً للدعوة ومستحباً في شرع الإسلام. وكذلك على المستجيب للدعوة إلى الله أَنْ يظهر استجابته كلما كان هذا الإظهار مفيداً للدعوة ومأذوناً فيه شرعاً.

٥٨٦- من الإظهار المستحب للإيمان:

ومن الإظهار المستحب للإيمان، إظهار مؤمن آل فرعون إيمانه بعد أن كان يكتم إيمانه، لأنَّ الكتمان كان هو المستحب، ولكن لما علم بتآمر القوم: فرعون والملأ معه، على قتل موسى، أظهر هذا الرجل المؤمن إيمانه الذي كان يكتمه ليدافع عن موسى بالحجة والبرهان، ويبيّن لهم سوء ما عزموا عليه، إذ لا مبرر لقتله إلاَّ أَنْ يقول ربيَ الله، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ

(١٢٢٤) تفسير القرطبي ج٧ ص٢٦١.

﴿رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ إلاّ أنّ حب جدال هذا الرجل المؤمن مع فرعون وملئه دفاعاً عن موسى ودعوته، هذا الجدال منه كشف عن شخصيته المؤمنة وأظهر إيمانه بموسى وبدعوته[1225]. قال ابن كثير رحمه الله: وكان هذا الرجل يكتم إيمانه عن قومه القبط فلم يظهره إلاّ في هذا اليوم حين قال فرعون: ﴿ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ﴾ فأخذت الرجلَ غضبةٌ لله عزوجل، وأفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر ولا أعظم من هذه الكلمة عند فرعون وهي قوله: ﴿أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾[1226].

٥٨٧- استغلال الصلة بالسلطان لمصلحة الدعوة والدعاة:

وللداعي أن يستغل صلته بذي السلطة لمصلحة الدعوة والدعاة، كما استغل مؤمن آل فرعون صلته بفرعون إذ كان ابن عم له[1227]. فانطلق يتكلم بكل صراحة أمام فرعون وملئه مبيناً لهم أحقيّة دعوة موسى، وأنه لا ينبغي لهم أن يعاقبوه أو يمنعوه من الدعوة متنزلاً معهم في الحوار وفي الجدال على نحوٍ يظهر نصحه لهم، وأنه لا ينبغي لهم معاداته لأنّه لَيس من مصلحتهم هذه المعاداة. وقد استمع القوم لكلامه ونصحه وتوبيخه لهم على عنادهم وكفرهم وإن جاء ذلك التوبيخ بأسلوب ناعم رقيق[1228].

وهكذا ينبغي للداعي أن يستغل علاقته بذي الصلة، سواء كانت علاقة قرابة أو صداقة فيستغلها لمصلحة الدعوة والدعاة، بما يُبَيِّنُهُ لذي السلطة من ضرورة الكف عن معاداةِ الدعوة والدعاة وإلحاق الأذى بهم، لأَنَّ هذه الصلة بين الداعي وذي السلطة تسمح لذي السلطة أن يسمع للداعي ويصغي لما يقول، وقد يستجيب له في بعض ما يقول ويريده منه بشأن الدعوة والكف عن إلحاق الأذى بها وبالدعاة.

٥٨٨- التلطف في الحجاج والجدال:

وعلى الداعي- وهو يستغل صلته بالسلطان- أن يتلطف بالجدال مع السلطان،

(١٢٢٥) انظر الآيات من ٢٨-٤٥ من سورة المؤمن.

(١٢٢٦) تفسير ابن كثير ج٤ ص٧٧.

(١٢٢٧) تفسير ابن كثير ج٤ ص٧٧، تفسير الزمخشري ج٤ ص١٦٢.

(١٢٢٨) تفسير ابن كثير ج٤ ص٧٧ وما بعدها، تفسير الزمخشري ج٤ ص١٦٢ وما بعدها.

ومن هذا التلطف ما سلكه مؤمنُ آلِ فرعونَ مع فرعونَ وملئه، فقد أخذهم بالجدال والحوار على طريقة التقسيم فقال لهم: لا يخلو موسى من أن يكون كاذباً أو صادقاً، ﴿ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ﴾ أي يعود عليه كذبه وضرر هذا الكذب، ﴿ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ﴾ ولم يكن ذلك من هذا الرجل المؤمن لشكٍ منه في رسالةِ موسى وصدقه، ولكن تلطفاً في استجلاب كف أذاهم عن موسى، وإظهاراً للنصح لهم فخاطبهم بما علم أنه أقرب إلى تسليمهم لقوله، وأَدْخَلُ في تصديقهم له وقبولهم منه، وإنما قال لهم: ﴿ يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ﴾ ولم يقل كل الذي يعدكم، لأنَّ كلمة البعض قد تستعمل في موضع الكل تلطفاً في الخطاب وتوسعاً في الكلام[1229].

وهكذا ينبغي للداعي أن يتلطف في الكلام مع من له صلة به من ذوي السلطة والسلطان، ولكن مع وضوح القول وبيان الحق الذي تدعو إليه دعوة الداعي.

٥٨٩- الحاجة إلى الجو الهادىء ومسالمة الأعداء:

والدعوة في أول نشأتها وقبل استكمال قوتها تحتاج هي وأصحابها من الدعاة إلى جو هادىء خالٍ من المجابهة والمخاصمة مع ذوي السلطة والقوة في المجتمع، ليتمكن الداعي من نشر دعوته بالكلمة الطيبة، والجدال الهادىء، وبالتي هي أحسن. ونستدل لما نقوله بقول موسى لفرعون وقومه: ﴿ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ۝ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴾[1230]. قال ابن كثير في تفسير هاتين الآيتين: قال موسى أعوذ بالله الذي خلقني وخلقكم من أن تصلوا إليّ بسوءٍ من قول أو فعل ﴿ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴾ أي فلا تتعرضوا لي ودعوا الأمر بيني وبينكم مسالمة إلى أَنْ يقضَي الله بيننا[1231].

ويفهم من هذا أنَّ الدعوة في أَوّلِ نشأتها وقلة أنصارها تحتاج إلى جو هادىء ومسالَمَةٍ مع الأعداء، ليتمكن الداعي من تبليغ دعوته، وعلى هذا لا يجوز للدعاة

(١٢٢٩) تفسير الزمخشري ج٤ ص١٦٢-١٦٣، تفسير القرطبي ج٥ ص٣٠٧.

(١٢٣٠) تفسير ابن كثير ج٤ ص١٤١.

(١٢٣١) تفسير ابن كثير ج٤ ص١٤١.

تعمد مخاصمة الحكام مع إمكانهم نشرَ الدعوة بالكلمة الطيبة، وإذا أحسوا من الحكام المضايقة فعليهم المطالبة بالمسالمة والتمكين من حرية الكلمة. وكذلك، في ضوء ما قلناه، على الدعاةِ أن يبتعدوا عما يبعدهم عن جو المسالمة ما داموا غير مضطرين إلى الاقتراب من جو المجابهة والمخاصمة.

٥٩٠- دعوى الإصلاح والفساد في منطق الطغاة:

الطغاة يعتبرون أَنفسهم هم المصلحون وهم الغيارى والقوّام على مصلحة الشعب، ويعتبرون الدعاةَ إلى الله مفسّدين يجب إخماد أنفاسهم، وهذا من الطغاة منهج قديم ومنطق معروف، يتجدد كل حين، فلا يعجبْ منه الدعاة، وإنما عليهم تذكير الناس به وتحذيرهم منه، وفي هذا المنهج والمنطق للطغاة وعلى رأسهم فرعون، قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾[١٢٣٢].

٥٩١- أعوان الطاغية يزينون له ما يهواه:

وأعوان الطاغية يزينون له ما يحبه ويهواه ليزدادوا عنده حظوة ومكانة، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾[١٢٣٣].

وهذا أيضاً أسلوب قديم وعادة متبعة من قبل أعوان الطاغية، يتحسسون ما يهواه الطاغية وما يراه فيشُيرون عليه بما يوافق هواه. وهذا الأُسلوب من أعوان الطاغية يتكرر في كل وقت، فعلى الدعاة أن يعرفوا ذلك ويعرّفوه للناس.

٥٩٢- سياسة الطغاة مع الدعاة لا تتبدل ولا تتغير:

والسياسة التي اتبعها فرعون وسائر الطغاة مع الدعاة في الماضي يتبعها الطغاة معهم في الحاضر، فهي سياسة لا تتبدل ولا تتغير وتقوم على البطش والتنكيل بالحبس والقتل، قال تعالى عن فرعون وما قاله لموسى عليه السلام: ﴿قَالَ لَئِنِ

(١٢٣٢) سورة غافر، الآية ٢٦.

(١٢٣٣) سورة الأعراف، الآية ١٢٧.

﴿ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ﴾[١٢٣٤] وقال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓ﴾[١٢٣٥] فالطغاة لا يقابلون الدعاةَ إلى الله بالحجة والبرهان، وإنما يقابلونهم بالحديد والنار، مستغلين سلطانهم وتبعية الناس لهم، ومسارعتهم في معاونتهم في ظلمهم وبغيهم. فعلى الدعاةِ أن يفقهوا ذلك وأن يكونوا على حذر شديد منهم مثل حذر الجند لأعدائهم في ساحة الحرب.

٥٩٣- العبرة بما حلّ بفرعون وجنوده:

قال تعالى في إهلاك فرعون بالغرقِ جزاءَ كفره وعصيانه: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾[١٢٣٦]، ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ أي نخرجك من البحر بجسدك الذي لا روح فيه، ونلقيك على نجوة من الأرضِ، وهو المكان المرتفع ﴿لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ﴾ أي لبني إسرائيل ولمن بقي من قوم فرعون ممن لم يدركه الغرقُ ولم يصلهم خبر غرقه وهلاكه، وللأمم اللاحقة الكافرة، لتكون لهؤلاء جميعاً ﴿ءَايَةً﴾ أي عبرةً من الطغيان والتمرد على أوامر الله تعالى، وليظهر للناس جلياً أنَّ ما كان يدعيه فرعون من الربوبية هو باطل محال، وأنَّ مع ما كان فيه من عظم الشأن وكبرياء الملك وسعة الطغيان وكثرة الأعوان آل أمره إلى ما قصّه الله علينا وشاهده بنو إسرائيل، فما الظن بغيره من الفراعنة الصغار، طواغيت الأرض في الوقت الحاضر؟ ألا يكون ذلك عبرة لهم فلا يجترؤوا على ما اجترأ عليه فرعون إذا علموا بما آل إليه أمره؟ ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ أي لا يتعظون بها ولا يعتبرون بها، فهم مُعْرِضون عنها وعن التأمل والتفكر فيها[١٢٣٧].

(١٢٣٤) سورة الشعراء الآية ٢٩.

(١٢٣٥) سورة غافر الآية ٢٦.

(١٢٣٦) سورة يونس الآية ٩٢.

(١٢٣٧) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٣١، تفسير الزمخشري ج٢ ص٣٦٩، تفسير القرطبي ج٨ ص٣١١، تفسير القاسمي ج٩ ص٧٥.

٥٩٤- تذكير الناس بمصير الطغاة:

فعلى الدعاة تذكيرُ الناس بما حلَّ بفرعون وجنوده حتى لا ييأسوا من هلاك الطغاة وأعوانهم، وحتى لا يكبروا في عيونهم إذا رأوا نفاذ حكمهم ودوام بغيهم وبطشهم وطغيانهم، فهم فراعنة صغار، وقد قصَّ الله علينا ما حلَّ بفرعونهم الأكبرِ في الماضي وما سيحلّ بأمثاله في الحاضر والمستقبل، وهذه هي سَنَّةُ الله في الطغاة الظالمين ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلًاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾.

المبحث الخامس

قصة موسى مع الخضر[١٢٣٨]

٥٩٥- سبب هذه القصة:

قال الإمام ابن كثير وهو يفسر الآيات المتعلقة بقصة موسى مع الخضر: إنه ذُكِرَ لموسى (أنَّ عبداً من عباد الله بمجمع البحرين عنده من العلم ما لم يحط به موسى، فأحب الرحيل إليه)، ثم ذكر الإمام ابن كثير حديثاً أخرجه البخاري عن ابن عباس، عن أبيّ بن كعب عن النبي ﷺ: وفيه أنَّ موسى سئل: «أي الناس أعلم؟ قال: أنا، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه، فأوحى الله إليه أنَّ لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك» والظاهر أن المقصود بعبارة «هو أعلم منك»، أي أعلم منك فيما اختصَّ به الخضر، ولم يحط به موسى علماً كما جاء في قول ابن كثير الذي ذكرناه. ويؤيد هذا الذي أقوله أنه جاء في هذا الحديث أنَّ موسى عندما لقي الخضر وطلب مصاحبته ليتعلم منه قال له الخضر: إنك لن تستطيع معي صبراً، وعلل ذلك بقوله: (يا موسى إني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه). وأعود إلى حديث ابن عباس حيث جاء فيه: «قال موسى: يارب وكيف لي به؟- أي كيف الوصول إلى عبدك بمجمع البحرين الذي هو أعلم مني؟- قال: تأخذ معك حوتاً فتحمله في مكتلٍ- وهو زنبيل يصنع من الخوص- فحيثما فقدت الحوت فهو ثمَّ- أي هو هناك في المحل الذي فقدت فيه الحوت- فأخذ موسى حوتاً- سمكة- فجعله بمكتلٍ ثم انطلق، وانطلق معه يوشع بن نون، فقال له موسى: لا أكلُفك إلاَّ أن تخبرني حيث يفارقك الحوت. حتى إذا أتيا الصخرة عند مجمع البحرين نام موسى عليه السلام، فاضطرب الحوت في المكتل،

(١٢٣٨) تفسير ابن كثير ج٣ ص٩١ وما بعدها، تفسير الزمخشري ج٢ ص٧٣٠ وما بعدها، تفسير ابن عطية ج٩ ص٣٤٦ وما بعدها، تفسير القرطبي ج١١ ص٨ وما بعدها، تفسير القاسمي ج١١ ص٦٠ وما بعدها.

فخرج منه فسقط في البحر، فاتخذ سبيله في البحر سرباً، وأمسك الله عن الحوت جريان الماء فصار عليه مثل الطاق، ولم يوقظ يوشع بن نون موسىٰ من نومه، فلما استيقظ موسى نسي يوشع أن يخبره بما حدث للحوت...» إلى آخر ما جاء في حديث ابن عباس وأشارت إليه الآيات التي أذكرها في الفقرة التالية.

٥٩٦- موسى يسير إلى الخضر:

عزم موسى عليه السلام على الرحلة إلى الخضر، وسار متوجهاً إلى المكان الذي أُخبر أنه فيه، مصطحباً معه يوشُع بن نون، وحدث له ما أخبرنا الله به في هذه الآيات، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾[١٢٣٩]. قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾ أي لخادمه وهويوشع. والفتى في لغة العرب: الشاب، ولما كان الخدم أكثر ما يكونون فتياناً قيل للخادم: فتى على جهة حسن الأدب وإن كان كبير السن، وقد ندبت الشريعةُ إلى ذلك في حديث رسول الله ﷺ الذي رواه الإمامُ مسلمٌ وجاء فيه: «ولا يقل أحدكم عبدي ولا أمتي وليقل فتاي وفتاتي»[١٢٤٠].

وقوله: ﴿لَآ أَبْرَحُ﴾ أي لا أزال سائراً، وقد قال موسى هذه المقالة وهو سائر إظهاراً لعزيمته على الاستمرار في سيره حتى يصل إلى مطلوبِهِ، وهو لقاء الخضر عليه السلام عند مجمع البحرين، ﴿حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ أي المكان الذي فيه مجمع البحرين، قال محمد بن كعب القرظي: مجمع البحرين عند طنجة في أقصى بلاد المغرب. وقوله: ﴿أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا﴾ أي ولو أني أسير حقباً من الزمان أي زماناً طويلاً. وقوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾، والنسيان إنما كان من يوشع وإنْ نُسِبَ إليهما كقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ وإنما يخرج من المالح

(١٢٣٩) سورة الكهف، الآيات من ٦٠-٦٥.

(١٢٤٠) شرح صديق حسن خان على ملخص صحيح مسلم للمنذري ج٨ ص١٩٠.

على أحد القولين. ووجه النسيان من يوشع أنه نسي أَنْ يخبر موسى بعد استيقاظه من نومه بما رآه من حال الحوت ودخوله البحر. وقوله: ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾ والسَّبيل: المسلك. والسربُ: المسلك في جوف الأرض، فشُبِّه به مسلك الحوت في الماءِ حين لم ينطبق الماء بعده وإنما صار كالطاق، وهذا قول جمهور المفسرين: إنَّ موضع سلوك الحوت في البحر بقي ماءً جامداً، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: بل صار موضع سلوكه حجراً صلداً. وقوله: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ أي لما جاوزا مجمع البحرين وهو المكان الذي نسيا الحوت فيه وما حدث له في هذا المكان، قال موسى لفتاه: آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً أي تعباً ومشقة.

وقوله تعالى حكاية عما قاله يوشع لموسى: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ أي نسيتُ أَنْ أُخبرك بخبر الحوت وكيف أنه دخل البحر واتخذ سبيله في البحر سبيلاً عجباً أي عجيباً، حيث أَنَّ الماء وقف جريانه وصار عليه كالطاق، وصار موضع مسلكِهِ ماءً جامداً أو حجراً صلداً كما قلنا. ويحتمل أن يكون يوشع قد قال ﴿عَجَبًا﴾ في آخر كلامه عن الحوت، تعجباً من حاله في رؤيته تلك العجيبة من الحوت ونسيانه لها دون أن يخبر موسى بها، مع أنَّها هي العلامة لمكان الخضر الذي يقصده موسى. فقال له موسى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي المكان الذي اتخذ فيه الحوت سبيله إلى البحر ﴿مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ أي المكان الذي نطلب فيه الخضر عليه السلام. وقوله تعالى: ﴿فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا﴾ أي رجعا ماشيينِ على آثار أَقدامهما يتبعانها ﴿قَصَصًا﴾ أي اتباعاً لهذه الآثار لئلا يخطئا طريقهما فيفوتهما مكان الخضر مرةً أخرى. وقوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا﴾ أي فأتيا المكان المنسيَّ فيه الحوت وما جرى له فيه: ﴿عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ﴾ وهذا العبد هو الخضر عليه السلام في قول جمهور العلماء، وعليه نصّت الأحاديث الصحيحة، وتنكير (العبد) للتفخيم والإضافة فيه في قوله تعالى ﴿مِّنْ عِبَادِنَآ﴾ للتشريف.

وقوله تعالى: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ والرحمة هنا النبوة، وعلمناه من لدنا علماً أي علماً جليلاً آثرناه به، وهو علم لدّنيٌّ يكون بتأييد رباني.

قال الإمام ابن عطية عن هذا العلم الذي أوتيه الخضر: (كان علم الخضر معرفة بواطنَ قد أوحيت إليه لا تعطي ظواهر الأحكام أفعاله بحسبها. وكان علم موسى عليه السلام علم الأحكام والفُتيا بظاهر أقوال الناس وأفعالهم)(١٢٤١).

٥٩٧- هل كان الخضر نبياً أم ولياً؟:

قال الأكثرون إنه نبي، وقيل إنه ولي ولم يكن نبياً، والقول بأنه نبي هو الصحيح وتشهد له الآية الكريمة: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ لأنَّ الظاهر من هذا أنه فعله بأمر الله أي بوحي مباشر له يختص به النبي(١٢٤٢).

٥٩٨- هل الخضر حي أم ميت؟:

الجمهور على أن الخضر مات؛ لأنه لو كان حياً لزمه المجيءُ إلى النبي ﷺ. وقد روي عنه ﷺ أنه قال: «لو كان موسى حياً ما وسعه إلاّ اتباعي». وقال شيخ الإسلام ابن تيمية فيما ينقل عنه القاسمي في تفسيره: (الخضر الذي كان مع موسى عليه السلام مات. ولو كان حياً على عهد رسول الله ﷺ لوجب عليه أن يأتي إلى النبي ﷺ ويؤمن به ويجاهدَ معه، فإنَّ الله فرض على كل نبي أدرك محمداً ﷺ أن يؤمن به ويجاهد معه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾(١٢٤٣) قال ابن عباس رضي الله عنهما: لم يبعث الله نبياً إلاّ أخذ عليه الميثاق على أمته لئن بُعِث محمد وهم أحياء ليؤمنُنَّ به ولينصرنَّهُ، ولم يذكر أحد من الصحابة أنه رأى الخضر، ولا أنه أتى إلى النبي ﷺ، فإنَّ الصحابة كانوا أعلم وأجل قدراً من أن يُلّبس الشيطان عليهم، ولكن لبّس على كثير من بعدهم، فصار يتمثل لأحدهم في صورة النبي ويقول له: أنا الخضر وإنما هو شيطان(١٢٤٤). فالقول بموت الخضر عليه السلام هو الصحيح الذي

(١٢٤١) تفسير ابن عطية ج٩ ص٣٥٧.

(١٢٤٢) تفسير القاسمي ج١١ ص٧٦.

(١٢٤٣) سورة آل عمران الآية ٨١.

(١٢٤٤) تفسير القاسمي ج١١ ص٧٦-٧٨ وتفسير ابن كثير ج٣ ص٩٩-١٠٠ وتفسير ابن عطية ج٩ ص٣٨٦.

يجب المصير إليه ولا يعول على ما سواه.

٥٩٩- موسى يطلب العلم من الخضر:

ولما لقي موسى عليه السلام الخضر قال له ما أخبرنا الله به: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾[١٢٤٥]. يخبر الله عن قول موسى عليه السلام لذلك الرجل العالم وهو الخضر عليه السلام، الذي خصه الله بعلم لم يطلع عليه موسى، كما أنه أعطى موسى من العلم ما لم يعطه الخضر، ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ سؤال الملاطف المبالغ في حسن الأدب، والمعنى هل يتفق ويخف عليك؟ وهكذا ينبغي أن يكون سؤال المتعلم من العالم. وقوله: ﴿أَتَّبِعُكَ﴾ أي أصحبك وأرافقك ﴿عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ أي تعلمني مما علمك الله شيئاً أسترشد به في أمري من علم نافع وعمل صالح.

٦٠٠- جواب الخضر على طلب موسى:

فلما سمع الخضر طلب موسى منه قال له: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾[١٢٤٦]. أي إنك لا تقدر على مصاحبتي لما ترى مني من الأفعال التي تخالف شريعتك، لأني على علم من علم الله ما علمكه الله، وأنت على علم من علم الله ما علمنيه الله، فكل منا مكلف بأمور من الله دون صاحبه، فلهذا فأنت لا تقدر على صحبتي. ثم إن الخضر ذكر العذر لموسى في عدم استطاعته على صحبته والصبر عليها فقال له: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ أي فأنا أعرف أنك ستنكر عليّ ما أنت معذور فيه، لأنك ما اطلعت على حكمته ومصلحته الباطنة التي اطلعت أنا عليها دونك[١٢٤٧].

٦٠١- جواب موسى على جواب الخضر:

قال تعالى حكاية عن جواب موسى على جواب الخضر: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾ أي قال موسى للخضر ستجدني صابراً على ما أرى من أمورك وأفعالك،

(١٢٤٥) سورة الكهف الآيتان ٦٧، ٦٨.

(١٢٤٦) تفسير ابن كثير ج٣ ص٩٦، تفسير القرطبي ج١١ ص١٧.

(١٢٤٧) تفسير ابن كثير ج٣ ص٩٦.

وعلق صبره على مشيئة الله تعالى، وكان ذلك من موسى لأنه كان حريصاً على تحصيل العلم وازدياده، ورجا أن يستطيع معه صبراً بعد إفصاح الخضر عن حقيقة أمره وما قد يصدر منه من أفعال لا يعرف موسى وجه الحكمة فيها، فوعده موسى بالصبر معلقاً بمشيئة الله علماً منه بشدة الأمر وصعوبته. ﴿وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا﴾ ومع وعد موسى للخضر بالصبر وعده أيضاً بأن لا يخالفه في شيء[١٢٤٨].

٦٠٢- ما اشترطه الخضر على موسى لمصاحبته:

قال تعالى حكاية على ما اشترطه الخضر على موسى ليقبل مصاحبته له: ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا﴾[١٢٤٩]. يعني: فمن شرط اتباعك لي أن لا تفاتحني بالسؤال عن شيء أنكرتَه مني ولم تعلم وجه صحته وحكمته حتى أبدأك أنا ببيانه ووجه الحكمة فيه[١٢٥٠].

٦٠٣- إنكار موسى على الخضر لخرقه السفينة:

قال تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرٗا﴾[١٢٥١] يقول تعالى مخبراً عن موسى وصاحبه وهو الخضر: إنهما انطلقا لما توافقا، واشترط الخضر على موسى أن لا يسأله عن شيء أنكره حتى يكون هو الذي يبتدئه من تلقاء نفسه بشرحه وبيانه، فركبا في السفينة، ولما سارت بهما السفينة وصارت في لجة البحر قام الخضر فخرقها، واستخرج لوحاً من ألواحها ثم رقعها، فقال موسى منكراً عليه فعله: ﴿أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا﴾ وهذه اللام في ﴿لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا﴾ هي لام العاقبة وليس لام التعليل، ﴿لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرٗا﴾ أي قال موسى للخضر: لقد جئت بخرقك السفينة شيئاً منكرا[١٢٥٢].

(١٢٤٨) تفسير ابن كثير ج٣ ص٩٦، تفسير الزمخشري ج٢ ص٧٣٤.
(١٢٤٩) سورة الكهف الآية ٧٠.
(١٢٥٠) تفسير الزمخشري ج٢ ص٧٣٥، تفسير ابن كثير ج٣ ص٩٦.
(١٢٥١) سورة الكهف الآية: ٧١.
(١٢٥٢) تفسير ابن كثير ج٣ ص٩٧.

٦٠٤- الخضر يذكّر موسى بشرطه وموسى يعتذر له:

قال تعالى عما قاله الخضر لموسى مذكراً إياه بما قاله له من قبل، وما اشترطه عليه، وما اعتذر به موسى عن مخالفتِهِ الشرط، فقال تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾[١٢٥٣] ذكّره الخضر بما تقدم من الشرط. يعني أنَّ هذا الصنيع - وهو خرق السفينة - فعلته قصداً، وهو من الأمور التي اشترطت معك أن لا تنكر عليَّ فيها لأنَّك لم تحط بها خبراً، إذ لها سرٌّ لا تعلمه أنت[١٢٥٤]. فقال موسى معتذراً: ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾[١٢٥٥] أي قال موسى: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ من الشرط فإنَّ المؤاخذة تفضي إلى العسر. والمراد التماس عدم المؤاخذة لقيام المانع وهو النسيان، ﴿وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ أي لا تحمل عليّ من أمري، في تحصيل العلم منك عسراً، لئلا يلجئني إلى تركه، أي لا تعسر عليّ متابعتك بل يسرها عليّ بالإغضاء وترك المؤاخذة[١٢٥٦].

٦٠٥- الخضر يقتل غلاماً وموسى ينكر عليه:

قال تعالى: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾[١٢٥٧]. أي انطلقا بعد أن خرجا من السفينة إلى الساحل، حتى إذا لقيا غلاماً فقتله الخضر، فلما شاهد موسى عليه السلام ذلك أنكره أشد من إنكاره الأولِ على خرق السفينة، وبادر فقال: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي نفساً طاهرة لم ترتكب ما يوجب قتلها ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾ أي ظاهر النكارة، وأنكر من الأول وهو خرق السفينة، لأن خرقها يمكن تداركه، وقتل الغلام لا يمكن تداركه[١٢٥٨].

(١٢٥٣) سورة الكهف الآية ٧٢.

(١٢٥٤) تفسير ابن كثير ج٣ ص٩٧، تفسير القاسمي ج١١ ص٦٤.

(١٢٥٥) سورة الكهف، الآية ٧٣.

(١٢٥٦) تفسير القاسمي ج١١ ص٦٤-٦٥.

(١٢٥٧) سورة الكهف الآية ٧٤.

(١٢٥٨) تفسير ابن كثير ج٣ ص٩٧، تفسير القاسمي ج١١ ص٦٥.

٦٠٦- الخضر يكرر تذكير موسى بالشرط:

قال تعالى حكاية عما قاله الخضر لموسى تأكيداً لتذكيره بالشرط: ﴿۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾[١٢٥٩]. تأكيد بالتذكار بالشرط الأول. ويلاحظ ورود كلمة ﴿لَّكَ﴾ في قول الخضر وتذكاره بالشرط، بينما لم ترد كلمة (لك) في قول الخضر الأول عندما اعترض موسى عليه عند خرقه السفينة، إذ قال له: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ بدون كلمة (لك)، قال الزمخشري في تعليل ذلك: فإنْ قلت ما معنى زيادة ﴿لَّكَ﴾؟ قلت: زيادة المكافحة بالعتاب على رفض الوصية - الإنكارُ على فعل الخضر أو السؤال عنه قبل أن يبينه له الخَضْرُ - والوسمُ بقلة الصبر عند الكرَّة الثانية[١٢٦٠].

٦٠٧- موسى يعد الخضر بالالتزام بشرطه:

قال تعالى حكاية عما قاله موسى للخضر: ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾[١٢٦١].

أي قال موسى: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا﴾ أي بعد هذه المرة ﴿فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾، أي فلا تقاربني، وإن طلبت صحبتك فلا تتابعني على ذلك، أي لا تقبل صحبتي لك ولا تجعلني صَاحبَك[١٢٦٢]: ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ أي قد أعذرت إليّ مرة بعد مرة، وبهذا قد وجدتَ من جهتي عذراً لعدم مصاحبتي[١٢٦٣].

٦٠٨- الاعتراض الأخير من موسى:

قال تعالى مخبراً عن موسى والخضر عليهما السلام: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ

(١٢٥٩) سورة الكهف الآية ٧٥.

(١٢٦٠) تفسير الزمخشري ج٢ ص٧٣٧.

(١٢٦١) سورة الكهف الآية ٧٦.

(١٢٦٢) تفسير الزمخشري ج٢ ص٧٣٦.

(١٢٦٣) تفسير ابن كثير ج٣ ص٩٧، تفسير القاسمي ج١١ ص٦٦.

﴿لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾[1264]. يقول تعالى مخبراً عنهما: إنهما انطلقا بعد المرتين الأوليين حتى إذا أتيا إلى أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما، أي امتنعوا من أن يطعموهما الطعام الذي هو حق ضيافتهما عليهم. ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾، أي يوشك أن ينهدم ويسقط ﴿فَأَقَامَهُۥ﴾، أي فردّه إلى حالة الاستقامة. وجاء في الأثر أنه ردّه بيده ودعمه حتى ردّ ميله، وهذا شيء خارق جرى على يد الخضر. فعند ذلك قال موسى للخضر: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾، أي لأجل أنهم لم يضيفونا فكان ينبغي أنْ لا تعمل لهم مجاناً مع حاجتنا لأخذ الأجرة لنشتري طعاماً[1265].

٦٠٩- الفراق بين موسى والخضر:

وكان في اعتراض موسى عليه السلام على الخضر في إقامة الجدار مجاناً مبررٌ للفراق بين موسى والخضر، لأنَّ قول موسى عليه السلام: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ وإن لم يكن سؤالاً، ولكن في ضمنه الإنكارُ على فعله وتصويب أخذ الأجرة على فعله، وفي ذلك تخطئةُ ترك الأجرة عن إقامة الجدار[1266]. وهذا أعظم من السؤال عن سبب فعله الذي وعد موسى الخضر أن لا يسأله عن شيءٍ حتى يبين الخضر سببه.

وبعد اعتراض موسى على الخضر فيما فعله من إقامة الجدار مجاناً، قال الخضر لموسى: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ لأنك شرطت على نفسك بعد حادثة قتل الغلام: أنك إن سألتني عن شيءٍ بعده فإني لا أصاحبك وأكون في حلّ من فراقك. ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ أي قال الخضر لموسى قبل أن يفارقه: سأخبرك عن حكمة وأسباب ما فعلته أنا وأنكرته أنت عليَّ ولم تصبر حتى أخبرك عن سبب وحكمة ما فعلته.

(١٢٦٤) سورة الكهف الآية ٧٧.

(١٢٦٥) تفسير ابن كثير ج٣ ص٩٨، تفسير القاسمي ج١١ ص٦٦.

(١٢٦٦) تفسير ابن عطية ج٩ ص٣٧٥-٣٧٦.

٦١٠- الخضر يبين سبب خرقه السفينة:

قال تعالى حكاية عما قاله الخضر بشأن السفينة: ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾[١٢٦٧]. قال الخضر عليه السلام مبيناً سبب ما فعله بشأن السفينة التي خرقها: أنها كانت لمساكين، أي لفقراء يعملون في البحر، أي يحترفون بالعمل في البحر لنقل الناس من ساحل إلى آخر: ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾، أي إنما خرقتها لأعيبها لأنهم أي الفقراء أصحاب السفينة يمرون بها على ملك ظالم يأخذ كل سفينة سليمة جيدة غصباً، فأردت أن أعيبها لأردّهُ عنها فلا يأخذها لعيبها[١٢٦٨].

٦١١- الخضر يبين سبب قتله الغلام:

قالى تعالى حكاية عن بيان الخضر لسبب قتله الغلام: ﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾[١٢٦٩] والمعنى أنَّ الغلام الذي قتله الخضر كان أبواه مؤمنين، وخشينا أن يحملهما حبّهُ على متابعته على الكفر الذي طُبع هو عليه، قال قتادة: فقد فرح به أبواه حين ولد وحزنا عليه حين قتل، ولو بقي لكان فيه هلاكهما، فليرض المؤمن بقضاء الله، وقد صحّ في الحديث: «لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له». وقوله: ﴿ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ أي ولداً أزكى من هذا وهما أرحم به منه. وقال قتادة أبرُّ بوالديه[١٢٧٠].

٦١٢- الخضر يبيّن سبب إقامته الجدار مجاناً:

قال تعالى حكاية عما قاله الخضر لموسى: ﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا

(١٢٦٧) سورة الكهف، الآية ٧٩.

(١٢٦٨) تفسير القاسمي ج١١ ص٦٧.

(١٢٦٩) سورة الكهف الآيتان ٨٠، ٨١.

(١٢٧٠) تفسير ابن كثير ج٣ ص٩٨.

﴿كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾[1271]. ومعنى الآية أنَّ هذا الجدار المائل إنما أصلحته لأَنّهُ كان لغلامين يتيمين في المدينة، وكان تحته كنز لهما، قال عكرمة وقتادة وغير واحد: كان تحته مال مدفون لهما. وقوله: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ فيه دليل على أنَّ الرجل الصالح يُحفَظ في ذريته وتشمل بركة عبادته لهم في الدنيا، وفي الآخرة بشفاعته فيهم ورفع درجتهم في الجنة لتقر عينه بهم. قال سعيد بن جبير عن ابن عباس: حُفِظا بصلاح أبيهما ولم يُذكَر لهما صلاح.

وقوله: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾ أي أقام الخضر الجدار ليحفظ الكنز لهما، حتى يكبرا ويستخرجا الكنز ويتصرفا فيه.

وقوله: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ أي هذا الذي فعلته في هذه الأحوال الثلاثة إنما هو من رحمة الله بمن ذكرنا من أصحاب السفينة، ووالدَيْ الغلام، وولديْ الرجل الصالح، وما فعلت ذلك باجتهاد ورأي مني، وإنما فعلته بأمر من الله تعالى. وفي هذه دلالة واضحة على نبوّةِ الخضر عليه السلام.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ أي هذا الذي أخبرتك به الآن هو تفسير وتوضيح ما ضقت به ذرعاً ولم تصبرْ حتى أخبرك به ابتداء[1272].

(١٢٧١) سورة الكهف، الآية ٨٢.

(١٢٧٢) تفسير ابن كثير ج٣ ص٩٩.

المبحث السادس
ما يستفاد من قصة موسى مع الخضر
للدعوة والدعاة

٦١٣- الاستزادة من العلم:

علمنا مما تقدم أنَّ موسى عليه السلام رغب في لقاء الخضر عليه السلام ليتعلم منه ما لا يعرفه موسى عليه السلام، ولم يمنعه من ذلك كونهُ رسول الله وكليمه، وأنزل عليه التوراة فيها من العلم والهدى الشيءُ الكثير. ولصدق رغبة موسى عليه السلام في لقاء الخضر والتلقي منه ما عنده من علم، طَلَبَ من الله تعالى أن يدُلَّه على طريق الوصول إليه، ودلّه الله تعالى فعلاً على هذا الطريق على النحو الذي فصلناه. وفي هذا أكبر الدلالة على حرص موسى عليه السلام على الاستزادة من العلم. فعلى الدعاةِ أن يتطلعوا دائماً إلى المزيد من العلم بتعلم ما يجهلونه، لأنَّ الإنسان مهما أوتي من العلم فهو قليل، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[١٢٧٣]. ولهذا أمر الله تعالى نبينا محمداً ﷺ أن يطلب من ربه المزيد من العلم. قال تعالى مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾[١٢٧٤]. أي زدني منك علماً، وما أمر الله رسوله ﷺ بطلب الزيادة في شيء إلا في العلم[١٢٧٥].

٦١٤- المراد بالعلم المطلوب الاستزادةُ منه:

قال الإمام العسقلاني في شرحه لصحيح البخاري: قوله: (وقوله عز وجل: ﴿رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ المراد بالعلمِ العلمُ الشرعي الذي يفيد معرفة ما يجب

(١٢٧٣) سورة الإسراء الآية ٨٥.

(١٢٧٤) سورة طه الآية ١١٤.

(١٢٧٥) تفسير الزمخشري ج٣ ص٩٠، العسقلاني في شرحه صحيح البخاري ج١ ص٤١.

على المكلف من أمر دينه في عباداته ومعاملاته، والعلم بالله وصفاته، وما يجب له من القيام بأمره وتنزيهه عن النقائص..)[1276]. ويبدو لي أنَّ العلم المطلوب الاستزادَةُ منه، منه ما يكون طلبه وتحصيله والاستزادة منه فَرْضَ عين وهو العلْمُ الشرعي بأنواعه التي ذكرها الإمام العسقلاني، ومنه ما يكون طلبه وتحصيله والاستزادة منه فرضَ كفاية يجب وجوده في الأمة، وهو كل ما تحتاج الأمة الإسلامية ويعطيها قوة ومكنة على استعمال هذا العلم فيما ينفع المسلمين والناس عموماً، لأنَّ العلم النافع يدخل في العلم المرغوب فيه شرعاً، ولهذا جاء في دعاء رسول الله ﷺ الذي أخرجه ابن ماجه وذكره الإمام ابن كثير في تفسيره: «اللهم انفعني بما علمتني وعلمني ما ينفعني وزدني علماً»[1277]. ومن العلوم التي يعتبر تحصيلها من فروض الكفاية جميع العلوم الحديثة في مختلف مجالات الحياة وشؤونها، والتي تستفيد الأمة منها قوة كالعلوم المتعلقة بالصناعات المختلفة ومنها صناعة الأسلحةِ بأنواعها، ومنها العلوم المتعلقة بالطب والكيمياء والفيزياء والفلك والزراعة والكشف عن سنن الله في خلقه، وعرض هذه العلوم على نحو يبين أنها أدلة يقينيةٌ على أنَّ الله هو الخالق لهذا الكون، وأنه هو رب العالمين، وبالتالي فهو وحده دون غيره المعبود الحق فلا إله إلا الله.. وهذا فضلاً عما في تحصيل هذه العلوم من قوة للأمة الإسلامية، فيتهيأ لها إن شاء الله تعالى القوة المعنوية بالإيمان. والقوة المادية بهذه العلوم التي تتعلمها.

٦١٥ - جماعة الدعاة والاستزادة من العلم:

وعلى الجماعة المسلمة - جماعة الدعاة إلى الله - أن تحث وتحرّض منتسبيها على تحصيل العلم الشرعي الذي يحتاجونه، كما تحرضهم على تعلم العلم النافع من هذه العلوم المادية، وأن تُعينَ الأكفاء والموهوبين ذكاءً متميزاً على تحصيل هذه العلوم - بعد تحصيلهم العلم الشرعي الذي يحتاجونه - ومن هذه العلوم العلوم الحديثةُ في شتى مجالات الحياة ومنها: علوم الفيزياء والذرة وما يستلزمه صنع الأسلحة من علوم.

(١٢٧٦) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج١ ص١٤١.

(١٢٧٧) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٦٧.

٦١٦ - الرحلة في طلب العلم:

وإذا كان طلب العلم والاستزادة منه من الأمور المرغوبة فيها شرعاً، فإنَّ الرحلة لتحصيل ذلك مرغوبةٌ فيها شرعاً أيضاً، وقد ذكرنا من قبل رحلة موسى عليه السلام لملاقاة الخضر بعد أن طلب من الله تعالى أن يرشده إلى طريق الوصول إليه وقد أرشده ربّه إلى ما أراد، ورحل فعلاً ولقي الخضر وصحبه ليتعلم منه كما بينا ذلك.

٦١٧- الجماعة المسلمة والرحلة في طلب العلم:

من نهج سلفنا الصالح من الصحابة والتابعين السفر لطلب العلم، حتى إنَّ أحدهم كان يسافر من المدينة إلى الشام أو إلى مصر ليسمع حديثاً من رجل بلغَهُ أنه سمعه من رسول الله ﷺ. ولهذا النهج الثابت في الرحلة في طلب العلم عند سلفنا الصالح جَعَلَ الإمامُ البخاريُّ باباً خاصاً بذلك فقال: باب الخروج - أي السفر - في طلب العلم. وقال في هذا الباب: (ورحل جابر بن عبد الله مسيرة شهر إلى عبد الله بن أُنيس في حديث واحد)[١٢٧٨]. وأضاف الإمام العسقلاني وهو يعلق على الباب الذي ذكره البخاري، جملة آثار عن سلفنا الصالح في الرحلة في طلب العلم، فكان مما قاله: إنَّ عبد الله بن مسعود كان يقول: لو أعلم أحداً أعْلَمَ بكتاب الله مني لرحلت إليه. وإنَّ مما روي عن الإمام مالك عن سعيد بن المسيب قوله: إنْ كنتُ لأرحَلُ الأيامَ والليالِيَ في طلب الحديث الواحد. وقيل للإمام أحمد: رجلٌ يطلب العلم يلزم رجلاً عنده علم كثير أو يرحل قال: يرحل، يكتب عن علماء الأمصار فيشافِهُ الناس ويتعلم منهم[١٢٧٩].

٦١٨-على الجماعة المسلمة أن تحث منتسبيها على الرحلة لطلب العلم:

وعلى هذا ينبغي للجماعة المسلمة، جماعة الدعاة، أن تحث منتسبيها القادرين على تعلم العلوم المادية النافعة، على الرحلة إلى حيث يتعلمون هذه العلوم، وأن تعينهم على ذلك، وإن كان ذلك يسلتزم السفر إلى بلاد الكفرة وتعلم هذه العلوم على أيديهم لأنَّ العلم ليس بكافر.. ولكن لا يجوز السفر إلى بلاد

(١٢٧٨) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج١ ص١٧٣.

(١٢٧٩) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج١ ص١٧٥.

الكفرة لتعلم الشريعة الإسلامية أو التاريخ الإسلامي أو نحو ذلك، في معاهدهم أو على أيدي الكفرة من معلميهم، كما يفعل بعض المسلمين حيث يسافرون إلى هناك لتعلم الشريعة أو تاريخ الإسلام.

٦١٩- تحمل المشقة في طلب العلم:

الغالب أن تحصيل العلم لا يتم إلاّ باحتمال المشقة والصبر على هذا الاحتمال.. والعلم في الحقيقة يستحق هذا الاحتمال والصبر عليه لتحصيله على الوجه المقبول.. فعلى الداعي أن يفقه ذلك إذا قُدِّرَ له التوجه إلى طلب علم معين، وليتذكر ما لقيه موسى عليه السلام، وهو رسول كريم، من مشقة السفر إلى الخضر لملاقاته والتلقي عنه بعض ما عنده من علم وقد ذكرنا ذلك.. ومما يهوّنُ على الداعي مشقة طلب العلم إخلاصُهُ لله، وأنه يريد بطلب العلم نفع المسلمين ابتغاء مرضاة الله.

٦٢٠- التواضع في طلب العلم:

قد يحتاج الداعي إلى أن يتعلم من غيره بعضَ ما يحتاجه في دعوته، فلا يجوز له أن يترفع عليه فلا يتعلم منه ما يحتاجه تكبراً منه عليه، إن التواضع ضروري لتحصيل العلم؛ لأنه يحمل صاحبه على الإقبال على العالِم والتلقي منه، والاستماع إليه، والطلب منه صراحة أن يعلمه، وقد رأينا تواضع موسى عليه السلام في طلبه العلم من الخضر، ورغبتَه في مصاحبته وإظهار عزمه على عدم عصيانه فيما يوجهه إليه ويأمره به. فليفقه الداعي ذلك وليطرد عن نفسه الكبْرَ الذي يمنعه من تلقي العلم من غيره.. وليكن متواضعاً يظهر تواضعه في إقباله على من يعلمه. وليعلم يقيناً أنَّ من فَقَدَ التواضع وتلبَّس بالكبر فاتهُ من العلم الشيء الكثير، إن لم نقل فاته أن يتعلم أيَّ شيءٍ يجهله وهو يحتاجه، قال الإمام مجاهد: (لا يتعلم العلمَ مستحي ولا متكبر)[١٢٨٠]. والمستحي هو الذي يمنعه حياؤه من أن يسأل عما ينفعه أو يتعلمَ ما يحتاجه، وهذا الحياءُ مذمومٌ لأنه يؤدي إلى ترك أمر مشروع وهو التعلم. أما الحياءُ الممدوح فهو الذي لا يمنع صاحبه من أن يسأل عما يجهله، ولهذا قالت عائشة

(١٢٨٠) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج١ ص٢٢٨.

رضي الله عنها: «نِعْمَ النساءُ نساءُ الأنصار لم يمنعْهُنَّ الحياءُ أن يتفقهن في الدين»[١٢٨١]. وكما لا يتعلم العلمَ المستحي، كذلك لا يتعلم العلم متكبرٌ، لأَنَّ تكبره يمنعه من أن يسأل غيره عما يجهله أو يطلب منه أن يعلمه، لئلا يظهر بأنه أقل منزلة ممن يسأله أو يعلمه، وفي هذا - حسب تقديره - منقصة في حقه فيظل على جهله ولا يتعلم ما ينفعه ويحتاج إليه.

٦٢١- المكاشفة والمشارطة والمبايعة بين الجماعة المسلمة وبين منتسبيها:

قد يكون من منتسبي الجماعة الإسلامية من يرغب أن يكون من الدعاة العاملين فيها الملتزمين بمنهاجها ونظامها. وفي هذه الحالة على الجماعة المسلمة أن تكاشف هذا الراغبَ بما تراه فيه من قدرة أو عجز عن الوفاء بمتطلبات ما يرغب فيه، فإذا رأت منه إصراراً على تحقيق رغبته فلها أن تشترط عليه شروطاً معينة يتعهد بالوفاء بها، والالتزام الصارم بها، ومبايعة الجماعة عليها، ونستأنس لهذا الذي نقوله بما فعله الخضر مع موسى عليهما السلام. فقد ذكرنا أنَّ موسى عليه السلام عرض على الخضر رغبته في مصاحبته ومتابعته على أن يعلمه مما علمه الله من الهدى والرشاد، فكان جواب الخضر له أَنْ كاشفه وصارحه بما يراه فيه، وهو عدم صبره على ما يرى من أفعال الخضر؛ لأَنَّهُ لا يعرف حكمة ودوافع ما يفعله الخضر. فأجابه موسى عليه السلام بإعلان تعهده على الصبر وعدم الاعتراض على ما يراه من أفعال الخضر، وأكَّدَ موسى تعهده بأَنْ قال للخضر: ﴿وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا﴾ وعند ذلك اشترط الخضر على موسى شرطاً قبلَهُ موسى وهو: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا﴾ وبعد هذه المكاشفة والمشارطة والمبايعة بين الخضر وموسى عليهما السلام انطلقا..

٦٢٢- إذا تعارضت مفسدتان ارتكبت أخفهما لدفع أشدهما:

وفي خرق السفينة من قبل الخضر دليل على العمل بالمصلحة الراجحة، وإن استلزمت مفسدة مرجوحة، وأنه إذا تعارضت مفسدتان وجب ارتكاب أخفهما لدفع

(١٢٨١) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج١ ص٢٢٨.

أشدهما، وهذا مقرر في شريعتنا والأمثلة عليه كثيرةٌ، ومنها إتلاف مال الغير أو تعييبه لوقايته من الغصب، كما في خرق السفينة لتخليصها من الاستيلاء عليها غصباً من قبل ملك ظالم كان يأخذ كل سفينة جيدةٍ غصباً، فإذا رآها معيبة لخرقها تركها. وعن الإمام أبي يوسف: لوليّ اليتيم أن يعطيَ من مال اليتيم شيئاً ليدفع عن اليتيم مصادرة ماله كله[١٢٨٢].

فهذه الفقه المستفاد من خرق السفينة يمكن للداعي أن يجعله موضوعاً لدرسه أو خطبته أو موعظةً وتعليماً لغيره. كما ينبغي للداعي أن يستفيد مما قلناه في مواجهة أحوال شاذّة وظروف صعبة، كأن يوقف عمله الدعوي في مكان معين أو في زمان معين أو لمدة معينة، أو يتركَ الكلام في دروسه وخطبه عن مواضيعَ أو معانٍ معينة في الشريعة الإسلامية يثيرُ الكلامُ عنها غضب الحكام الظالمين فيحملهم ذلك على منعه عن الكلام بالكلية. إن معاني الإسلام كثيرة جداً، والناس بحاجة إليها ويمكنه الكلام عنها دون معارضة كأمور العقيدة الإسلامية ونحوها فليفقه الداعي ذلك.

٦٢٣- صلاح الآباء ينفع الأولاد:

ذكرنا من قبل أنَّ الخضر عليه السلام أقام الجدار ولم يأخذ عليه أجراً. ثم بيَّن لموسى السبب فيما فعله والحكمة فيه فقال له ما أخبرنا الله به: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ...﴾[١٢٨٣].

قال الإمام القرطبي في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾: (فيه ما يدل على أنَّ الله تعالى يحفظ الصالح في نفسه وفي ولده وإن بعدوا عنه)[١٢٨٤] ومثله عن الإمام السيوطي في هذه الآية: وإنَّ الولد يُحفظ بصلاح أبيه[١٢٨٥].

(١٢٨٢) تفسير القرطبي ج١١ ص١٩، تفسير القاسمي ج١١ ص٦٩.

(١٢٨٣) سورة الكهف، الآية ٨٢.

(١٢٨٤) تفسير القرطبي ج١١ ص٣٨-٣٩.

(١٢٨٥) تفسير القاسمي ج١١ ص٦٩.

٦٢٤- الولد يحفظ بصلاح أبيه:

فعلى الداعي أن يجعل هذا المعنى- الولد يُحفظَ بصلاح أبيه - موضوعاً لدرسه أو خطبته، ويبين للناس بأنَّ حفظ الأولاد بصلاح الآباء هو من سنن الله في خلقه، وفي ربط المسببات بأسبابها التي جعلها الله أسباباً، يقول لهم هذا ليثير فيهم الرغبةَ والعزيمة على فعل الصالحات، لينتفع أولادهم بصلاحهم، لأنَّ من غريزة الإنسان حبَّه لأولاده وحرصَهُ على نفعهم في الحاضر والمستقبل، والمسلم يؤمن بكتاب الله العزيز فيؤمن بما دلّتْ عليه الآية، فينشَطُ ويندفع إلى فعل الصالحات لنفع أولاده، والتسبب في حفظ الله لهم، فيكون كلام الداعي في دلالة هذه الآية من سبل الترغيب في العمل الصالح.

٦٢٥- الدعاة والضيافة:

قد يخرج الدعاة إلى القرى والمدن والبوادي لتبليغ الناس دعوتَهم، دعوةَ الله، فهل يجوز لهم أن يطلبوا من أهل هذه الأماكن أن يضيفوهم أو لا يجوز لهم ذلك؟ وهل جائزٌ لهم قبولُ ضيافتهم إذا عرضوها ابتداء قبل أن يطلبوها منهم؟ أو لا يجوز لهم لا هذا ولا ذاك؛ لأنهم خرجوا إلى الدعوة فلا يريدون أن يثقلوا على الناس بقبول ضيافتهم أو طلبها منهم؟.

والجواب على ذلك: يجوز لهم أن يقبلوا ضيافتهم إذا عرضوا عليهم ولم يكن مانع من قبولها، كما لهم أن يطلبوا الضيافة إذا كانوا محتاجين إليها، ولهم أيضاً أن لا يطلبوا الضيافة ويعتذروا عن قبولها إذا عرضت عليهم، لأنَّ الضيافة حق لهم ولا يلزم صاحبَ الحقِّ استعمالُ حقه إذا لم يكن في ذلك ضرر فاحش عليه. والدليل على ما نقول ما جاء في قصة الخضر مع موسى عليهما السلام، وما جاء في شريعتنا بصدد الضيافة، وبصدد الخضر وموسى قال تعالى عنهما: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ اَسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾[١٢٨٦]. والاستطعام يعني سؤال الطعام من الغير، والمراد به في هذه الآية الكريمة سؤالُ الضيافة بدليل قوله تعالى: ﴿فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ ويظهر من ذلك أَنَّ الضيافة كانت واجبة على أهل تلك القرية، وأنَّ

(١٢٨٦) سورة الكهف الآية ٧٧.

الخضر وموسى عليهما السلام إنما سألا ما وجب لهما من الضيافةِ، وهذا هو الأليق بحال الأنبياء والأولياء[١٢٨٧].

٦٢٦- ما جاء في شريعتنا بشأن الضيافة:

ومما جاء في شريعتنا، ما رواه الإمام البخاريُّ عن عقبة بن عامر رضي الله عنه، قال قلنا: يا رسول الله إنك تبعثنا فننزلُ بقومٍ فلا يقروننا فما ترى فيه؟ قال لنا رسول الله ﷺ: «إن نزلتم بقوم فأمروا لكم بما ينبغي للضيفِ فأقبلوا، فإنْ لم يفعلوا فخذوا منهم حق الضيف الذي ينبغي لهم»[١٢٨٨]. قال ابن حجر العسقلاني في شرحه لهذا الحديث: يدُلُّ على أنَّ قرى الضيف - أي ما يقدم للضيف عادة من طعام ونحوه - واجبٌ، وأنَّ المنزول عليه لو امتنع من الضيافة أُخِذَتْ منه قهراً وبهذا قال الليث مطلقاً، وهو مذهب الظاهرية، وخصّهُ الإمام أحمد بن حنبل بأهل البوادي دون القُرى. وقال الجمهور: الضيافة سنّةٌ مؤكدة وأجابوا عن هذا الحديث بأجوبة:

(أحدها) حمله على المضطرين. وهذا ما رجحه ابن حجر العسقلاني[١٢٨٩].

والراجح وجوب الضيافة على أهل البوادي كما ذهب إلى ذلك الإمام أحمد، لحاجة المسافر في البوادي أن يجد حاجته من الطعام، إذ لا يوجد عادة بيع وشراء للطعام كما في القرى والمدن، كما يصعب على المسافر أن يحمل كل حاجته من الطعام، وكذلك تجب الضيافة للمحتاجين في ا لبوادي وغيرها.

٦٢٧ - على الدعاة أن يتخيروا ما هو الملائم بشأن الضيافة إذا خرجوا للدعوة إلى الله:

وفي ضوء ما قدمنا يتخيَّرُ الدعاة ما هو الأليق والأنسب والأوفق لهم باعتبارهم دعاةً خرجوا للدعوة إلى الله تعالى، وعلى هذا إذا رأوْا أَنَّ أهل المكان الذي قصدوه يرغبون صادقين في ضيافتهم وأنَّ رفضها يحزنهم وربما يغضبهم، ففي هذه الحالة

(١٢٨٧) تفسير القرطبي ج١١ ص٢٥.

(١٢٨٨) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج١٠ ص٥٣٢.

(١٢٨٩) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٥ ص١٠٨-١٠٩، المحلى لابن جزم ج٩ ص١٧٤.

عليهم أن يقبلوا الضيافة لأنّها في هذه الحالة تكون وسيلة مسهلة لتبليغ الدعوة. وإذا رأوا أنَّ أهل هذا المكان لا يرغبون في ضيافتهم أو يحبون لو لم يضيفوهم، وعرفوا ذلك من القرائن ومن أحوالهم وكلامهم ففي هذه الحالة على الدعاة أن يعتذروا بلطف وأدب عن قبول ضيافتهم إذا عرضوها عليهم، وأن لا يطلبوها إذا لم يعرضوها ليكون ذلك أدعى إلى تسهيل مهمتهم في تبليغ الدعوة. ولهذا يكون من المرغوب فيه أن يحمل الدعاة معهم دائماً شيئاً من الطعام الذي يحتاجونه في سفرهم لمواجهة مثل هذه الحالة، سواءٌ كان سفرهم في البوادي أو في القرى والمدن.

الفصل الثاني عشر
قصة داود عليه السلام
وما يستفاد منها للدعوة والدعاة

٦٢٨- تمهيد ومنهج البحث:

لقد رأيت من المفيد في عرض قصة داود عليه السلام وذكر ما يستفاد منها للدعوة والدعاة، أن أذكر ما ورد بشأنها في كتاب الله العزيز، وأن أتبع كل جزئية من هذا الوارد بشأنها في كتاب الله العزيز بما يستفاد منها للدعوة والدعاة، حتى يكون هذا المستفاد قريباً أو تالياً للآية الكريمة التي تتعلق بقصة داود عليه السلام، فيكون استحضار هذا المستفاد في أذهان الدعاة أيسر - على ما أظن - مما لو أخرت جميع المستفاد من القصة في مبحث على حدة، كما هو نهجي في هذا الكتاب، لأنَّ في قصة داود - كما يبدو لي - مداخلات يحسن فيها ذكر المستفاد من كل آية تتعلق بها عند أو بعد ذكر الآية وتفسيرها مباشرة.

٦٢٩- من أخبار داود قبل النبوة:

قال تعالى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾[(١٢٩٠)] داود هو من سبط يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام. ومن أخبار داود قبل النبوة أنه قتل الطاغية جالوت قائد عسكر الكفر. وتفصيل ذلك أو بيانه ما يأتي:

لما برز طالوت وجنوده المؤمنون لجالوت وجنوده الكافرين، خرج هذا الطاغية - جالوت - يطلب مبارزاً له فجبن الناس وخافوا ولم يَجْرُؤْ أحد من جند طالوت على مبارزته لما عُرِفَ عن جالوت من شدة بأسه في القتال، حتى قال طالوت قائد جيش المؤمنين: من يبرز إلى جالوت ويقتله فأنا أزوجه ابنتي وأحكّمه في مالي. فبرز داود، وكان غلاماً، فقال: أنا أبرز له وأقتله. ولم يقبل أن يلبس درعاً ولا أن

(١٢٩٠) سورة البقرة، من الآية ٢٥١.

يحمل سلاحاً، بل حمل مقلاعه وحجارته فسخر منه جالوت حين رآه لصغر سنه، فرماه داود بحجارة من مقلاعه فأصاب رأسه فقتله وحزَّ رأسه وجاء به إلى طالوت قائد جيش المؤمنين[١٢٩١].

٦٣٠- الطغاة قد يهلكهم ضعاف الناس:

وفي قوله تعالى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾ عبرة يجب أن يستحضرها الدعاةُ في أذهانهم ويذكّروا الناس بها، وهي أنَّ الطغاة الذين يرهبون الناس هم في الحقيقة ضعاف ضعاف يغلبهم الفتية الصغار حين يشاء الله أن يقتلهم[١٢٩٢]. لأنَّ هؤلاء الطغاة يقومون على باطل ويقاومون الحق وأهله ويفسدون في الأرض، وإنما يحتملهم حِلْمُ الله إلى حين، وليبتلي الله بهم المؤمنين، ليتبين من يجاهدهم ومن يركن إليهم فيصيبهم ما يصيب الظالمين.

٦٣١- وضع الجوائز لمن يقوم بالعمل العظيم:

قال الإمام القرطبي: وفي قول طالوت: (من يبرز له - أي لجالوت - ويقتله فإنّي أزوجه ابنتي وأحكّمه في مالي) معناه ثابت في شرعنا وهو أن يقول الإمام: من جاء برأس - أي برأس كافر في الحرب - أو أسيرٍ فله كذا[١٢٩٣]. وعلى هذا يجوز لولاة الأمور وضعُ الجوائز المادية والمعنوية لمن يقوم بأعمال مشروعةٍ عظيمة تنفع المسلمين، سواء كان ذلك في حالة السلّم أو الحرب. كما أنَّ للجماعة المسلمة أن تضع جوائز رمزيةً ومعنوية لأعضائها الذين يقومون بأعمال عظيمة في مجال الدعوة مثل إهدائهم بعض الكتب الإسلامية المفيدة لهم، أو إعلان الجماعة شكرها وتقديرها لهم ونحو ذلك، تشجيعاً وتحريضاً لهم على بذل المزيد من العمل النافع في مجال الدعوة.

(١٢٩١) تفسير القرطبي ج٣ ص٢٥٧-٢٥٨، تفسير المنار ج٢ ص٤٨٨، والمقلاع هو الذي يُرمَى به الحجر.

(١٢٩٢) تفسير سيد قطب ج١ ص٢٧٠.

(١٢٩٣) تفسير القرطبي ج٣ ص٢٥٨.

٦٣٢- فضل الله ونعمه على داود:

قال تعالى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾(١٢٩٤).

والمراد بـ﴿ٱلْمُلْكَ﴾ هو الملك أي الحكم الذي كان بيد طالوت، فقد أُوتِيه داود على بني إسرائيل بعد موت ملكهم طالوت، فدلّ ذلك على أنَّ الحكم - أي تولي الإمرة على الناس من نعم الله على من يتولى هذه الإمرة. وإنما تكون هذه الإمرة على الناس - من نعم الله على الأمير أو على الحاكم إذا قام بالحكم الصالح. وإنما يقوم بالحكم الصالح الرجل الصالح، وهكذا كان حكم داود فقد حكم بين الناس وساس رعيته بالعدل فكان هو الحاكم العادل الصالح.

وأما ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾: فهي النبوة على ما قاله المفسرون. ﴿وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ أي مما شاء الله تعالى، وهذا الذي شاء الله تعليمه لداود عليه السلام هو صنعة الدروع وتعليمه كلامَ الطيرِ وما يتعلق بمصالح الدنيا وضبطِ الملك، وهذا فضلاً عما أوحى به إليه من معاني النبوة(١٢٩٥). وفي هذا التعليم دلالة على أنَّ العبد قط لا ينتهي إلى حالة يستغني فيها عن التعلم سواء كان نبياً أو لم يكن، ولهذا السبب قال لمحمد ﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾(١٢٩٦).

٦٣٣- الجماعة المسلمة تتطلع إلى الحكم:

ولا ضير على الجماعة المسلمة أن تتطلع إلى الحكم وتسعى إليه، لأنَّ تولي الحكم أو الإمرة على الناس لغرض تنفيذ شرع الله هي من نعم الله تعالى، ولا ضير على الجماعة المسلمة أن تسعى إلى الحصول على هذه النعمة: نعمة الحكم وتولي الإمرة على الناس لغرض تنفيذ شرع الله، كما لا ضير على المسلم أن يسعى إلى الحصول على المال الحلال لأداء فريضة الحج، ولهذا امتنَّ الله على داود عليه

(١٩٢٤) سورة البقرة، الآية ٢٥١.

(١٢٩٥) تفسير ابن كثير ج١ ص٣٠٣، تفسير القرطبي ج٣ ص٢٥٩، تفسير الكشاف ج١ ص٢٩٦، تفسير الرازي ج٦ ص١٨٩.

(١٢٩٦) تفسير الرازي ج٦ ص١٨٩، وآية ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ في سورة طه: ١١٤.

السلام بأَنْ آتاه الملك أي الحكم، لأنَّهُ عليه السلام حقق به الحكم الصالح ونفذ به شرع الله.

٦٣٤- تعليم داود كيفية صنع الدروع:

قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾[١٢٩٧]. أي أنَّ الله تعالى علّم نبيه داود عليه السلام صنعةَ الدروع الملبوسة، وكانت الدروع قبل داود صفائحَ فحلّقها وسردّها أي جعلها حلقاً وأدخلَ بعضها في بعض كما قال تعالى عن داود: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾[١٢٩٨]. أي جعلنا الحديد في يد داود ليناً كالطين أو العجين أو الشمع يصرفه بيده كيف يشاء من غير نار ولا ضرب بمطرقة. ومعنى ﴿سَٰبِغَٰتٍ﴾ وهي الدروع الواسعة الضافية. وقوله: ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ أي لا تجعل المسامير دقاقاً فتقلق ولا غلاظاً فتقصم الحلق. والسرد: نسجُ الدروع[١٢٩٩]. وهذا إرشاد من الله تعالى لنبيه داود عليه السلام في تعليمه صنعة الدروع[١٣٠٠]. وقوله تعالى عن الدروع التي علَّم الله تعالى نبيه داود صنعها ﴿لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾، أي لتحفظكم هذه الدروع من جراحات قتالكم ومن آلات حربكم كالسيف والسهم والرمح التي تسبب لكم الجراحات أو القتل[١٣٠١]. وفي هذه الآية دلالة - كما يقول الإمام الرازي - على أنَّ أول من عمل الدروع ثم تعلم الناس منه صنعتها هو داود عليه السلام، حيث توارث الناس عنه ذلك، فعمّتِ النعمة بها كل المحاربين من الخلق إلى آخر الدهر، فلزمهم شكر الله تعالى على هذه النعمة، ولهذا قال تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ أي اشكروا الله على مايسرّه الله عليكم من هذه الصنعة[١٣٠٢].

(١٢٩٧) سورة الأنبياء، الآية ٨٠.

(١٢٩٨) سورة سبأ، الآيتان ١٠و١١، تفسير القاسمي ج١٦ ص٢٧٩.

(١٢٩٩) تفسير الكشاف ج٣ ص٥٧١.

(١٣٠٠) تفسير ابن كثير ج٣ ص٥٢٧.

(١٣٠١) تفسير القرطبي ج١١ ص٣٢٠.

(١٣٠٢) تفسير الرازي ج٢٢ ص٢٠١.

٦٣٥- ضرورة تعلم الصنائع ومستلزمات الحرب:

وفي قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ.. ﴾ الخ الآية قال الإمام القرطبي يرحمه الله: (هذه الآية أصل في اتخاذ الصنائع والأسباب وهو قول أهل العقول والألباب، لا قول الجهلة الأغبياء القائلين بأنَّ ذلك إنما شُرِّع للضعفاء، فالسبب سنة الله في خلقه، فمن طَعَنَ في ذلك فقد طعن في الكتاب والسنة ونسب مَنْ ذَكَرْنا - أي داود عليه السلام - إلى الضعف وعدم المنعة)[١٣٠٣].

وخلاصة قول القرطبي رحمه الله تعالى أنَّ اتخاذ الصنائع والحرف وتعلمها وكذا أخذ أدوات الحفظ والوقاية في الحروب وغيرها كل ذلك أمر مشروع وتدل عليه هذه الآية الكريمة، آية تعليم داود صنعه الدروع، التي فيها حفظ المقاتل في الحروب من الجراحات ونحوها. وما قاله القرطبي واستدل به حق واضح، فعلى ولاة الأمور إيجاد الصنائع والحرف وسائر وسائل ومستلزمات الحرب والوقاية من العدو. وقد أخبرنا الله تعالى عن نبيه داود عليه السلام أنه كان يصنع الدروع، وهي من مقتضيات الحرب ومستلزمات الوقاية من العدو عند القتال، ليدلّ بذلك على أهمية وضرورة اتخاد كل أدوات القتال ومستلزماته، وما به الوقاية والتحرز من العدو، وهذه الأدوات تتغير بتغير الزمان والمكان وما يتعلمه الإنسان. وعلى هذا فأدوات الحرب والقتال والتحرز من العدو في زماننا قد أصبحت متنوعة جداً وتحتاج إلى معرفة فنون وعلوم كثيرة وإيجاد مصانع لها، مما يلزم المسلمين تعلم هذه العلوم وإيجاد المصانع لعمل هذه الأدوات.

٦٣٦- يجب تعلم الحرف التي تحتاجها الأمة:

وكما يجب تعلم صنعة أدوات الحرب والقتال وما به تحصل الوقاية من العدو والغلبة عليه، كذلك يجب تعلم الحرف التي تحتاجها الأمة؛ لأنَّ وجود هذه الحرف والقائمين عليها من فروض الكفاية، ولهذا كان أنبياء الله والصالحون يتعاطون الحرف التي يحتاجها الناس، ليكون ذلك منهم دلالة على مشروعية هذه الحرف وتعلمها وتعاطيها، فقد ذكر الإمامُ القرطبي في تفسيره أنَّ آدم عليه السلام كان

(١٣٠٣) تفسير القرطبي ج١١ ص٣٢١.

حراثاً، ونوحاً كان نجاراً ولقمانَ كان خياطاً وطالوتَ كان دباغاً[1304]. ومن الواضح أنَّ الحرف والصنائع التي يحتاجها الناس تتغير بتغير المكان والزمان وتقدم الإنسان في المعرفة، فيجب أن توجد هذه الحرف والصنائع الجديدة، وعدم الاكتفاء بالصنائع القديمة التي لم تعد تفي بحاجات الناس.

٦٣٧- تعلم أعضاء الجماعة المسلمة الصنائع وما يلزمها:

وفي ضوء ما تقدم يجب على الجماعة المسلمة، جماعة الدعاة، توجيه أعضائها ومؤيديها وأنصارها إلى تعلم الصنائع الجديدة والعلوم اللازمة لها التي تحتاجها الأمة الإسلامية، لأنَّ تعلم هذه العلوم والصنائع لا تمنع متعلميها ومتعاطيها من الدعوة إلى الله تعالى، كما لا تمنعهم من القيام بالصلاة والصيام وسائر الفروض الشرعية، على أن يكون توجيه أعضاء الجماعة المسلمة إلى تعلم هذه الصنائع والعلوم اللازمة لها، أو المتصلة بها على أساس مواهبهم وقدراتهم ورغباتهم في هذا التعلم، وفي نوع الصناعة التي يرغبون فيها، والعلم المتصل بها، لا سيما الشباب منهم، والذين هم في أول مراحل هذه الصنائع وعلومها. وكذلك توجيههم للعمل في مختلف مؤسسات الدولة ذات الاختصاصات المختلفة، لما في ذلك من مران لهم عليها ونفع للمسلمين.

٦٣٨- وجوب الحكم بالحق:

قال تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾[1305].

والمعنى: إنا-أي الله جلّ جلاله-ملكناك، أي آتيناك الملك والحكم، لتقوم بالدعوة إلى الله وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتسوس الناس بالعدل، وتحكم بينهم بالحق، فتخلف بسيرتك هذه من كان قبلك من الأنبياء والأئمة الصالحين[1306].

﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي لا تتبع ولا تقتدِ بهوى نفسك من الميل

(١٣٠٤) تفسير القرطبي ج١١ ص٣٢١.

(١٣٠٥) سورة ص الآية ٢٦.

(١٣٠٦) تفسير الرازي ج٢٦ ص١٩٩، تفسير القرطبي ج١٥ ص١١٨.

إلى مال أو جاه أو قريب أو صاحب، إذا كان في هذا الميل مخالفة لشرع الله، لأنَّ متابعة الهوى، هوى النفس، المخالف لشرع الله، توجب الضلال عن سبيل الله، أي توجب الحيدة والانحراف عن طريق الله القويم الموصل إلى مرضاتِهِ وجزيل ثوابه، وهذا الضلال عن سبيل الله يوجب سوء العذاب يوم الحساب أي يومَ القيامة، فينتج عن ذلك أنَّ متابعة الهوى توجب سوء العذاب في الآخرة، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾(١٣٠٧).

٦٣٩- على ولاة الأمور أن يحكموا بالحق:

وقد دلّت الآية الكريمة التي ذكرناها على إلزام وإلتزامِ ولاة أمور المسلمين أن يحكموا بالحق بين الناس. والحكم بالحق هو الحكم بما أنزل الله تعالى في كتابه العزيز وبسنة نبيه محمد ﷺ، ولا يعدلوا عن ذلك فيضلوا عن سبيل الله. وليعلم ولاة الأمور أنَّ الله تعالى حذر نبيه داود عليه السلام من الحيدة عن الحكم بالحق وعن اتباع الهوى، هوى النفس، في حكمه بين الناس وفي سياسته لهم، وتوعده إن فعل ذلك، فهم - أي ولاة الأمور - أولى بهذا التحذير من داود عليه السلام(١٣٠٨).

٦٤٠- الحاكم الجائر والحاكم العادل:

ومن أعظم ما تبتلى به الأُمة أن يتولى حكمها حكام جائرون، وعن الحق ناكبون، ولأهوائهم متبعون، لأنَّ بحكم هؤلاء يعظم ضررهم وإضرارهم بالناس، ويفضي ذلك إلى خراب البلاد وإشاعة الفساد، ثم هلاك الأمّة.

ومن أعظم ما تسعد به الأمة أن يتولى حكمها الحكام الصالحون، الذين يحكمون بالعدل وبالحق. قال الإمام الرازي: (إنَّ مصالح الخلق لا تنتظم إلاّ بسلطان قاهر سائس، ثم إنَّ ذلك السلطان إن كان حكمه على وفق هواه ولطلب مصالح دنياه عظم ضرره على الخلق، فإنه يجعل الرعية فداء لنفسه، ولا تهمه مصلحتهم ويتوسل بهم

(١٣٠٧) تفسيرالرازي ج٢٦ ص١٩٩، تفسير القرطبي ج١٥ ص١٨٩، تفسير القاسمي ج١٤ ص١٦٣.

(١٣٠٨) تفسير ابن كثير ج٤ ص٣٣.

إلى تحصيل مقاصد نفسه، وذلك يفضي إلى خراب العالم ووقع الهرج والمرج في الخلق، وذلك يفضي أخيراً إلى هلاك ذلك الملك، أي الحاكم. أما إذا كانت أحكام ذلك الملك مطابقة للشريعة الحقة الإِلهية انتظمت مصالح العالم واتسعت أبواب الخيرات على أحسن الوجوه[1309].

٦٤١- النهي عن اتباع الهوى لا عن وجوده:

ويلاحظ في قوله تعالى لنبيه داود عليه السلام: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ ملاحظتان:

الملاحظة الأولى - أنَّ النهيَ انصب على اتباع الهوى وليس على وجوده في النفس، وهذا يشعر بأن المطلوب من المسلم مخالفة هوى النفس وليس المطلوب منه محو الهوى، وإزالته من النفس، فإنَّ هذا قد يكون من قبيل تكليف ما لا يطاق، وتكليفُ ما لا يطاق ممنوع وغير وارد في الشرع.

الملاحظة الثانية - أنَّ النهي عن اتباع الهوى جاء مطلقاً عن تقييد الهوى بكونه مخالفاً للشرع، وهذا يعني أنَّ الغالب في هوى النفس مخالفته للشرع، فيكون إطلاق الهوى والنهي عن اتباعه يعني النهي عن هوى النفس المخالفِ للشرع.

والدليل على الملاحظتين المذكورتين أنَّ آيات الكتاب العزيز المتعلقة بالهوى أنها جاءت تنهى عن اتباعه وليس عن وجوده. كما أنها نهت عن الهوى مطلقاً دون تقييده بكونه مخالفاً للشرع، وذلك لغلبة مخالفتِهِ للشرع وبالتالي ذمِّه وحرمَة اتباعه، فإطلاقُهُ يعني أنَّ المراد به هو الهوى المخالف للشرع وهو المطلوب عدم اتباعه. ومن هذه الآيات التي تنهى عن اتباع الهوى لا عن وجوده ودون تقييده بالمخالفة للشرع، وذمِّ من يتبع هوى نفسه أو هوى غيره، ونذكر فيما يلي بعض هذه الآيات:

أ- ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟﴾[1310].

(١٣٠٩) تفسير الرازي ج٢٦ ص٢٠٠.

(١٣١٠) سورة النساء، الآية ١٣٥.

ب- ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾(١٣١١).

جـ- ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾(١٣١٢).

د- ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ﴾(١٣١٣).

هـ- ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾(١٣١٤).

و- ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾(١٣١٥).

٦٤٢- التزام الجماعة المسلمة بالحكم بالحق والعدل:

وكما يلزم الخليفةَ وسائرَ ولاة المسلمين الحكمُ بالحق أي بالشريعة الإسلامية، يلزم ذلك أيْضاً كل من ولي أمورَ غيره، سواء كان هذا الغير فرداً أو جماعة، وعلى هذا فأيُّ خلاف بين أفراد الجماعة المسلمة، أو بينهم وبين قادة هذه الجماعة يجب على ولاة أمور الجماعة حسمه والحكم فيه بموجب الشريعة الإسلامية، دون اتباع هوى أحد، قال تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾(١٣١٦). قال الرازي في تفسير هذه الآية: (القوّام مبالغة من قائم، والقسط هو العدل، فهذا أمرٌ منه تعالى لجميع المكلفين بأنْ يكونوا مبالغين في اختيار العدل والاحتراز عن الجور والميل)(١٣١٧). وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾(١٣١٨). قال الرازي في تفسيرها: (أجمعوا على أنَّ من كان حاكماً وجب عليه

(١٣١١) سورة النازعات الآية ٤٠.

(١٣١٢) سورة الكهف الآية ٢٨.

(١٣١٣) سورة المائدة الآية ٧٧.

(١٣١٤) سورة البقرة الآية ١٢٠.

(١٣١٥) سورة المائدة الآية ٤٩.

(١٣١٦) سورة النساء الآية ١٣٥.

(١٣١٧) الرازي ج١١ ص٧٣.

(١٣١٨) سورة النساء الآية ٥٨.

أن يحكم بالعدل)[1319]. ومن الواضح أنَّ الأمر بالحكم بالعدل يشمل الجماعة إذا آل إليها الحكم في الخلاف بين أعضائها أو بينهم وبينها.

٦٤٣- قصة الخصمين مع داود:

قال تعالى: ﴿ ۞وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ۝٢١ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴾[1320]. الخصم يطلق على المفرد والمثنى والجمع، والمراد به في هذه الآية ملكان جاءا بصورة آدميين، وقد تسوّروا المحراب، أي أتوا داود من أعلى سور المحراب. أي عَلَوْا سوره ونزلوا على داود من فوق المحراب، والمحراب هو الموضع الأرفع من الدار أو المسجد وهو موضع التعبد. ﴿ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ﴾ أي خاف منهم، وإنما كان ذلك لأنَّهُ عليه السلام كان في محرابه، ودخلوا عليه من غير استئذان ومن غير باب الدخول، وكان دخولهم عليه ليلاً، فإن قيل لِمَ لم يأمر داود عليه السلام بإخراجهم وكان دخولهم بالكيفية التي ذكرناها؟ والجواب - كما يبدو - اعتذارُهُمْ بأنَّ الموكلين على قصر داود أو على بابه لم يأذنوا لهم بالدخول، فاضطروا إلى الدخول عليه عن طريق التسور، لئلا يتفاقم الخصام بينهما، فقبل داود اعتذارهما. وقالو له: ﴿ لَا تَخَفْ ﴾ فما جئنا للفتك بك ولا للاعتداء عليك وإنما نحن ﴿ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ أي شخصان متخاصمان تحاكمنا إليك بسبب أنَّ أحدنا بغىٰ على الآخر بتعديه على حقوقه وخروجه على واجبه نحوه، ﴿ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ أي بما يطابق شرع الله ﴿ وَلَا تُشْطِطْ ﴾ أي لا تبعد عن الحق ولا تتجاوزه ﴿ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴾ أي وسطه، وهذا مَثَلٌ ضُرِبَ لعين الحق وعدم الميل عنه[1321].

(١٣١٩) تفسير الرازي ج١٠ ص١٤١.

(١٣٢٠) سورة ص الآية ٢١.

(١٣٢١) تفسير ابن عطية ج١٢ ص٤٣٦، تفسير القرطبي ج١١ ص١٦٥ وما بعدها، تفسير ابن كثير ج٤ ص٣١.

٦٤٤- موضوع دعوى الخصم:

وبعد أن طمأن الخصمان داود عليه السلام، وبيّنا له أنهما ما جاءا للاعتداء عليه وإنما جاءا للتحاكم إليه، بدأ أحدهما بعرض دعواه أو شكواه فقال: ﴿ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسۡعٌ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةً وَلِىَ نَعۡجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلۡخِطَابِ ﴾[١٣٢٢] أي إنَّ هذا أخي له تسع وتسعون نعجة أي أنثى من الضأن، ولي نعجةٌ واحدةٌ أي فلم ينظرْ إلى غناه عنها ولا إلى افتقاري إليها، بل أراد التغلُّب عليّ: ﴿ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا ﴾ أي: ملّكْنيها بأنْ تجعلني كافلها كما أكْفُلُ ما تحت يدي، أو بمعنى اجعلها كفلي أي نصيبي: ﴿ وَعَزَّنِى فِى ٱلۡخِطَابِ ﴾ أي وقهرني وغلبني في المكالمة، وأراد بالخطاب مخاطبة المحاج المجادل[١٣٢٣].

٦٤٥- اعتراض ودفعه:

قلنا: إنَّ المراد بالخصم فيما نتحدث عنه، ملكانِ جاءا إلى داود بصورة آدميين، فكيف جازلهما نسبة البغي إلى أحدهما على الآخر، والادعاء بوجود الخصومة بينهما، وقولُ أحدهما ليَ تسع وتسعون نعجةً، وقول الآخر لي نعجةٌ واحدةٌ، ولا حقيقة لشيء مما ادعياه؟ أليس هذا من الكذب الذي لا يجوز نسبته إلى الملائكة وهما منهم؟ والجواب: ما قاله الملكان اللذانِ جاءا بصورة آدميين، هو تصوير للمسألة وفَرْضٌ لها، فصوروها في أنفسهم وكانوا في صورة الآدميين، كما نقول في تصوير المسائل: زيدٌ له أربعون شاةً وعمرو له أربعون شاة، وأنت تشير إليهما، فخلطاها وحال عليها الحول، كم يجب فيها؟ وما لزيد وعمرو لا قليل ولا كثير من الشياه[١٣٢٤].

٦٤٦- داود يصدر حكمه في الدعوى:

قال تعالى مخبراً عمّا حكم به داود في فرضيةِ الخصم: ﴿ قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِى بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا

(١٣٢٢) سورة ص الآية ٢٣.

(١٣٢٣) تفسير الزمخشري ج٤ ص٨٣، تفسير القاسمي ج١٤ ص١٥٤-١٥٥.

(١٣٢٤) تفسير الزمخشري ج٤ ص٨٥.

هُمۡۗ..﴾[١٣٢٥]. أي قال داود عليه السلام: لقد ظلمك بطلب نعجتك الوحيدة ليضمها إلى نعاجه مع حاجتك الشديدة لها، وغناه هو عنها، ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ﴾ أي الشركاء أو الإخوان والأصدقاء المتخالطين في شؤونهم ﴿لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ﴾ بغيَ الأعداء، مع أنَّ من واجب خلطتهم وأخوّتهم النصفة والعدل فيما بينهم، وعدم تعدي بعضهم على حقوق بعض، وهذا في الأقل من حقوقِ بعضهم على بعض إن لم يقوموا بفضيلة الإيثار ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي فإنهم لا يبغون ﴿وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ﴾ أي وهم قليل[١٣٢٦].

٦٤٧- إصدار الحكم قبل سماع دفع المدعىٰ عليه:

أخبرنا الله تعالى عن داود عليه السلام أنه سمع قول المتظلم من الخصمين وهو المدعي، ولم يخبرنا الله تعالى عن داود أنه سأل المدعىٰ عليه - المتظلم منه - عما يقوله المدعي، وهل يقرّ بما قاله وادعاه أم لا؟ وهل عنده ما يدفع به دعوى المدعي وتظلمه. فكان ظاهر ذلك أنَّ داود عليه السلام رأىٰ في المدعي - المتظلم - مخائل الضعف والهضيمة فجعل أمره على أنه مظلوم، ودعاه ذلك أَنْ لا يسأل الخصم الآخر المتظلم منه، فقال داود مستعجلاً للمتظلم: ﴿لَقَدۡ ظَلَمَكَ﴾ مع إمكان أنه لو سأل المتظلمَّ منه لنفى ذلك ولم يعترف به[١٣٢٧].

٦٤٨- امتحان داود بالدعوى المرفوعة إليه:

قال تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّۤ رَاكِعٗاۤ وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾[١٣٢٨]. ﴿وَظَنَّ﴾ معناه: شعر وعلم، والعرب تعبر بهذه الكلمة عن العلم الذي يقارب اليقين، ولكن ليس لهذه الكلمة معنى اليقين التام البتة، فبينها وبين اليقين درجة[١٣٢٩]. وقوله تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ أي علم داود أنَّ الله تعالى ابتلاه أي امتحنه بتلك الحكومة، أي بتلك الدعوى.

(١٣٢٥) سورة ص الآية ٢٤.

(١٣٢٦) تفسير الزمخشري ج٤ ص٨٧، تفسير القاسمي ج١٤ ص١٥٥.

(١٣٢٧) تفسير القرطبي ج١٥ ص١٧٥.

(١٣٢٨) سورة ص الآيتان ٢٤، ٢٥.

(١٣٢٩) تفسير ابن عطية ج١٢ ص٤٤٧-٤٤٨.

٦٤٩- داود يستغفر ربّه من تعجله بالحكم:

قال تعالى: ﴿فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعٗا وَأَنَابَ﴾ واختلف المفسرون في الذنب الذي استغفر منه داودُ عليه السلام على أقوال، أرجّحُ منها قولَ من قال: إنّهُ عليه السلام حكم لأحد الخصمين في الدعوى التي دفعها إليه الخصمان قبل أن يستمع إلى حجة الخصم الآخر وإنما اكتفىٰ باستماع ادعاء المتظلِّم المدعي فقط[١٣٣٠].

وقال الإمام أبو جعفر النحاس في قوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ﴾ فيقال: إنَّ هذه كانت خطيئة داود عليه السلام لأنه قال: ﴿لَقَدۡ ظَلَمَكَ﴾ من غير تثبُّتٍ ببينة ولا إقرار من الخصم، هل كان هذا كذا أو لم يكن. وقد قال الإمام القرطبي عن هذا القول الذي ذكره النحاس: وهو حسن إن شاءَ الله تعالى[١٣٣١].

وقال الإمام البرهان البقاعي في تفسيره على ما يرويه عنه القاسمي في تفسيره، في قوله تعالى: ﴿فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ أي وقوع داود عليه السلام في إسناد الظلم إلى أحد الخصمين بدون سماعٍ لكلامه ودفعه لما أسند إليه أو إقراره به. ثم قال البقاعي رحمة الله عليه: (وهذه الدعوى - دعوى الخصمين أمام داود - تدريب لداود عليه السلام في الأحكام، وذكْرُها للنبي ﷺ تدريبٌ له في الأناة بجميع أموره على الدوام)[١٣٣٢]. وأيد البقاعيُّ ما ذهب إليه بقوله: (ولما ذكر ربنا سبحانه وتعالى هذا، ربما أوهم شيئاً في مقام داود عليه السلام فدفعه تعالى بقوله: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾ فقصة الخصمين مع داود عليه السلام وردت للتدريب في الحكم لا لشيء آخر)[١٣٣٣]. وقال الشهيد سيد قطب في بيان وجه الفتنة التي امتحن الله بها نبيه داود عليه السلام: (إنَّ شخصين تسورا على داود المحراب ففزع منهم، فبادرا يطمئنانه وقالوا: لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض وجئنا للتقاضي أمامك. والقضيةُ كما عرضها أحد الخصمين تحمل ظلماً صارخاً مثيراً لا تحتمل

(١٣٣٠) تفسير القرطبي ج١٥ ص١٨٠.

(١٣٣١) تفسير القرطبي ج١٥ ص١٧٥.

(١٣٣٢) تفسير القاسمي ج١٥ ص١٥٨.

(١٣٣٣) تفسير القاسمي ج١٤ ص١٥٨-١٥٩.

التأويل، ولهذا اندفع داود عليه السلام يقضي على أثر سماعه لهذه المظلمة الصارخة، ولم يوجه إلى الخصم الآخر حديثاً، ولم يسأله عما يقول رداً على ادعاء خصمه، وهكذا أصدر حكمه قائلاً: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ..﴾ ويبدو أنه عند هذه المرحلة اختفى عنه الرجلان - فقد كانا ملكين جاءا للامتحان، امتحان النبيِّ الملكِ الذي ولاه الله أمر الناس ليقضي بينهم بالحق والعدل وليتبين الحقَّ قبل إصدار الحكم، وقد اختارا أن يعرضا عليه القضية في صورة صارخة مثيرة.. ولكنَّ القاضي عليه ألا يُستثار وعليه ألا يتعجل، وعليه ألاّ يأخذ بظاهر قول واحد قبل أن يمنح الآخر فرصة الإدلاء بقوله وحجته فقد يتغير وجه المسألة كلها أو بعضُه وينكشف أنَّ ذلك الظاهر كان غير صحيح، عند هذا تنبَّهَ داود إلى أنه الابتلاء: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ وهنا أدركته طبيعته.. إنه أواب... ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾[1334]. ومعنى ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾ أي خرّ ساجداً وقد يعبر عن السجود بالركوع ﴿وَأَنَابَ﴾ أي تاب من خطيئته ورجع إلى الله[1335]. وخطيئته هي استعجاله في إصدار الحكم قبل أن يسمع حجة الخصم الآخر، وذكرنا أقوالَ من ذهب إلى ذلك وهو ما رجحناه. وقوله تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ أي غفرنا له ما استغفر منه ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ أي لقرباً ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ أي مرجعاً حسناً وكرامة في الآخرة[1336].

٦٥٠- ما يستفاد من قصة الخصمين مع داود:

ويستفاد من قصة الخصمين مع داود، أنَّ على الدعاة أن يعرضوا ما يريدون عرضه من أمور الدعوة على الناس، بشكل مشوق إلى استماعه، كما يستفاد من هذه القصة أنَّ على الجماعة المسلمة أن لا تتعجل في إصدار حكمها فيما يُعرض عليها من أمورٍ قبل أن تتبين وجه المسألة، وأذكر فيما يلي هذا المستفاد من هذه القصة ووجه استفادته.

(١٣٣٤) تفسير سيد قطب ج٥ ص٣٠١٨.

(١٣٣٥) تفسير القرطبي ج١٥ ص١٨٢.

(١٣٣٦) تفسير القاسمي ج١٤ ص١٥٦.

٦٥١- أولاً - يعرض الداعي الموضوع بشكل مشوق:

وهذا يستفاد من عرض قصة الخصمين مع داود بقوله تعالى: ﴿ ۞وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ . . ﴾ الخ قال الإمام الزمخشري بصدد هذه الآية: (ظاهره الاستفهام ومعناه الدلالة على أنه من الأنباء العجيبة التي تشيع ولا تخفى على أحد، والتشويق إلى استماعه)[١٣٣٧]. فعلى الداعي عند عرضه موضوعاً ما في خطبته أو في درسه على الناس أن يبدأه بما يشد السامعين إليه ويجلب انتباههم ويشوقهم إلى سماع تفاصيل هذا الموضوع. وقد يكون التشويقُ بذكر مَثَلٍ أو قصَّةٍ صغيرة قبل الخوض في الموضوع، أو يكون التشويق بطرح سؤال جوابُهُ معروف وطرحُهُ يثير اهتمام السامعين عما عسى أن يكون الجواب غير الذي يعرفونه، كما جاء في الحديث النبوي الشريف الذي رواه الإمامُ مسلم عن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال: «أتدرون من المفلس؟ قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع فقال: المفلس من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا، فيُعَطىٰ هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يُقَضى ما عليه أُخِذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار»[١٣٣٨].

٦٥٢- على الجماعة المسلمة التأنّي في إصدار حكمها:

وعلى الجماعة المسلمة - جماعة الدعاة - أن لا تتعجل في إصدار حكمها في القضايا التي ترفع إليها من الدعاة للبت فيها، وإنما عليها الوقوف على جميع جوانب القضية واستماعُ أقوال من له علاقة بها، وإذا آل الأمر في نظر قضية ما إلى تحديد المسؤولية لمحاسبة الشخص المسؤول عن هذه القضية فعلى الجماعة أو من يمثلها أن تسمع حجته ودفاعه عن نفسه، فإنَّ من قواعد الإسلام: «البيّنةُ على من ادعى واليمين على من أنكر». وكذلك تفعلُ الجماعة المسلمة في حالة حصول خصومة بين الدعاة، فعليها أن تسمع كلام الخصمين ولا تكتفيَ أبداً بسماع كلام طرفٍ واحدِ

(١٣٧٧) تفسير الزمخشري ج٤ ص٨٢.

(١٣٣٨) المنتقى من الترغيب والترهيب للمنذري ج٢ ص٨٤٤.

أو خصم واحدٍ دون سماع كلام الطرف أو الخصم الآخر، وأَنْ لا تتأثر بما يشاع ويقال فتكتفيَ بالشائع، ولا تسألَ من يتعلق به الأمر، فكم من باطل مشهورٍ ومذكور وهو عين الزور كما قال الإمامُ البقاعيُّ في تفسيره[١٣٣٩].

(١٣٣٩) تفسير القاسمي ج١٤ ص١٥٩.

الفصل الثالث عشر

قصة سليمان عليه السلام

وما يستفاد منها للدعوة والدعاة

٦٥٣- تمهيد ومنهج البحث:

سأذكر إن شاء الله تعالى، ما يستفاد من قصة سليمان عليه السلام للدعوة وللدعاة، في أثناء ذكر ما ورد في القرآن الكريم من جزئياتٍ وأحداث ووقائع هذه القصة، كما فعلت في كلامي على قصة داود عليه السلام، ولذات الأسباب التي ذكرتها عندعرض قصة داود وما يستفاد منها للدعوة والدعاة.

٦٥٤- العلم من نعم الله على سليمان وأبيه:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[١٣٤٠]. وفي الآية دليل على شرف العلم وتقدم حملته وأهله على غيرهم، وأن نعمة العلم من أجلّ النعم، وأن من يؤتاه فقد أُوتي فضلاً كبيراً على كثير من عباد الله، والكثير المُفضَّل عليه: مَن لم يُؤتَ علماً أو من لم يُؤتَ مثل علمهما. وفي الآية أيضاً: أنهما فُضّلا على كثير، وفضل عليهما كثير من العباد. وفي الآية أيضاً دلالة على أنَّ من يوتى نعمة العلم يلزمه أن يحمد الله ويشكره على هذه النعمة، وأن يتذكر بأنه وإن فُضِّل بنعمة العلم علىكثير من العباد فقد فُضِّل عليه كثير من العباد أيضاً، وهذا يحمله على التواضع، وأن يطلب دائماً المزيد من العلم. وفي الآية إشارة إلىأن العلم كله هبة من الله تعالى، وأن اللائق بكل ذي علم أن يعرف أن مصدره هو الله تعالى، وأن يحمده على نعمة العلم كما قلنا، وأن يستعمله فيما يُرضي اللهَ تعالى.

ومجيء (العلم) في الآية بصيغة التنكير ﴿عِلْمًا﴾ لتعظيم نعمة العلم الذي أُوتياه؛

(١٣٤٠) سورة النمل الآية ١٥.

لأنه جاء في سياق الامتنان عليهما، فكأنه قال: علماً وأيَّ علم، وهو كذلك؛ فإن علمهما كان مما يستعظم ويستغرب، ومنه علم منطق الطير[١٣٤١].

٦٥٥- على الدعاة أن يعرفوا نعمة العلم ويستزيدوا منها:

إنّ حاجة الدعاة إلى العلم أكثر من حاجة غيرهم إليه؛ لأنهم يدعون الناس إلى الله، أي: إلى دينه، فيجب أن تكون دعوتهم عن علم وبصيرة بمعاني الإسلام والتفقه فيها. ولْيعلموا أنَّ تفقههم بالدين ومعانيه وتيسُّره لهم نعمةٌ عظيمة؛ لأنه قرينة على إرادة الله لهم الخير، قال ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»، وأن يشكروا الله على ما يتعلمونه، وأن يطلبوا المزيد من العلم. والعلم المطلوب: هو كل علم نافع، وعلى رأسه علم معاني الإسلام، ومعرفة الداعي غايتَه في الحياة ومركزَه فيها. ومع علم الدين يتعلم ما استطاع مما يخدم دعوته، ويفيد المسلمين من مختلف العلوم الدنيوية، وأن ينوي بتعلمه هذه العلوم خدمة الإسلام والمسلمين.

٦٥٦- على الجماعة المسلمة توجيه أعضائها إلى العلم النافع:

ومن المرغوب فيه جداً أن تقوم الجماعة المسلمة بتوجيه الدعاة وسائر أعضائها إلى طلب العلم الذي يستطيعونه من العلوم الدنيوية المختلفة، زيادة على تعلمهم أمورَ الدين التي يحتاجونها في دعوتهم، والاستزادةِ منها حسب قدرتهم، وأن يكون جميعهم على قدر كاف من المعرفة بالعلوم المختلفة، ليستدلوا بها على تعميق الإيمان بربوبية الله وعظيم قدرته وتفرده بالعبادة له، مثل تعلم شيء من علوم الفلك وعجائب قدرة الله في خلقه، وفي خلق الإنسان على الخصوص. وقد يكون من المفيد تزويد الجماعة أعضاءها بالنشرات العلمية المبسطة في مختلف العلوم.

٦٥٧- الاعتراف بفضل الله والتحديث بنعمه:

قال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ

(١٣٤١) تفسير الزمخشري ج٣ ص٣٥٢-٣٥٣ وتعليق أحمد عليه، تفسير سيد قطب ج٥ ص٢٦٣٣.

﴿هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾[1342] أي: وورث سليمانُ عليه السلام مُلْكَ داود ومنزلته من النبوة، بمعنى: صار ذلك إليه بعد موت أبيه، ويسمى ذلك ميراثاً تجوُّزاً، وهذا نحو قولهم: «العلماء ورثة الأنبياء»، فليس المراد في الآية وراثة المال، إذ لو كان كذلك لم يُخصَّ سليمان وحده من بين سائر أولاد داود؛ ولكن المراد بذلك وراثة الملك ومنزلة النبوة، والأنبياء لا تورث أموالهم؛ لأن نبينا ﷺ قال: «إنّا معاشَر الأنبياء لا نُورَث، ما تركنا فهو صدقة».

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ اعترافاً بنعمة الله وتحديثاً بها، واعترافاً بمكانها ودعاء للناس إلى التصديق بذكر المعجزة التي هي علم منطق الطير. والمنطق: كل ما يُصوَّت به من المفرد والمؤلف المفيد وغير المفيد، والمراد بعلم سليمان منطق الطير: فهمه من أصوات الطير المعاني التي في نفوسها. ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: أُوتينا ما يصلح لنا ونتمناه وهو شيء كثير، كما تقول: فلان يقصده كل أحد ويعلم كل شيء، تريد: كثرة قصّاده وغزارة علمه، ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾: قول وارد على سبيل الشكر والمحمدة والتحديث بنعمة الله، كما قال نبينا ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر» أي: أقول هذا القول شكراً لله، وتحديثاً وإظهاراً لفضله ونعمته، ولا أقوله فخراً.

فإن قيل: كيف قال سليمان عليه السلام بصيغة الجمع: ﴿عُلِّمْنَا﴾، ﴿وَأُوتِينَا﴾ وهو من كلام المتكبرين، يتكلم أحدهم بصيغة الجمع وهو واحد؟ والجواب من وجهين: (الأول): أن سليمان عليه السلام أراد بكلامه هذا نفسه وأباه، فجاء كلامه بصيغة الجمع. (والثاني): أن هذه (النون) ليست نون الجمع وإنما يقال لها. نون الواحد المطاع، وكان سليمان عليه السلام مَلِكاً مطاعاً، فكلَّمَ رعيته على صفته وحاله التي هو عليها، وقد يتعلق بهذه الصيغة من الكلام وما تدلُّ عليه من تعظيم قائلها مصالحُ عامة، فيصير ذلك التعظيم الذي يدل عليه التعبير (بنون الجمع) واجباً[1343].

(١٣٤٢) سورة النمل، الآية: ١٦.

(١٣٤٣) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٥٨، تفسيرالزمخشري ج٣ ص٣٥٤.

٦٥٨- تحديث الدعاة بفضل الله عليهم:

ويجوز للدعاة أن يتحدثوا بفضل الله عليهم: بما يسَّره لهم من سبل الخير وعلى رأسها الدعوة إلى الله، وبما أعانهم عليه من القيام بمتطلباتها، وبإقبال الناس عليهم، وبتعريفهم وتبصيرهم بوسائل الدعوة الصحيحة وبما يأخذون ويتركون، يعلنون ذلك ويصرحون به إظهاراً لفضل الله عليهم، واعترافاً بنعمائه عليهم، شاكرين اللهَ على هذا الفضل العظيم، الذي حباهم به من دون غرور أو استعلاء أو تكبر على الناس أو منّة على أحد.

٦٥٩- النظام والتنظيم في جنود سليمان عليه السلام:

قال تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾[١٣٤٤] أي: جُمع لسليمان جنوده المذكورون، ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي: يكف أولهم على آخرهم؛ لئلا يتقدم أحد منهم عن منزلته إلى منزلة غيره، وقال مجاهد رحمه الله: جَعل -أي سليمان- على كل صنف من جنوده (وزعة) يردون أُولاها على أُخراها؛ لئلا يتقدموا في السير على غيرهم كما يفعله الملوك اليوم[١٣٤٥]. والوازع في الحرب هو الموكل بصفوف الجنود، يزع من تقدم منهم، أي يكف ويمنع من يتقدم منهم على غيره خلافاً لما يقضي به النظام والتنظيم[١٣٤٦] وقال الإمام الرازي في قوله تعالى ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾: معناه يُحبسون، وهذا لا يكون إلا إذا كان في كل قبيل -صنف- منها وازع، ويكون له تسلط على من يرده ويكفه ويصرفه، وقد جاء في الخبر: أنهم كانوا يمنعون من يتقدم، خلافاً لمقتضيات النظام؛ ليكون مسيره مع جنوده على ترتيب ونظام[١٣٤٧].

وإنما كان لكل صنف من جنود سليمان (وزعة) يقومون بما ذكره مجاهد والرازي؛ حتى لا يتفرقوا وتشيع في صفوفهم الفوضى، فهم يمثلون حشداً عسكرياً

(١٣٤٤) سورة النمل الآية ١٧.

(١٣٤٥) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٥٨.

(١٣٤٦) تفسير القرطبي ج١٣ ص١٦٨.

(١٣٤٧) تفسير الرازي ج٢٤ ص١٨٧.

منظماً، يطلق عليه اصطلاح: الجنود، إشارة إلى الحشد والتنظيم[١٣٤٨]. والظاهر أن هذا الحشد الذي سخره الله تعالى لسليمان عليه السلام كان يشمل طائفة من الجن وطائفة من الطير، كما سخّر له طائفة من الإنس، وكما أنه لم يكن كل أهل الأرض من الإنس جنداً لسليمان؛ فكذلك لم يكن جميع الجن ولا جميع الطير مسخرين له[١٣٤٩].

٦٦٠- ما تدل عليه الآية:

وفي الآية دليل على اتخاذ الإمام والحكام (وزعة) يكفون الناس ويمنعونهم من تجاوز بعضهم على حقوق بعض، إذ لا يمكن أن يقوم الحكام بذلك بأنفسهم، وقال الحسن البصري وهو في مجلس قضائه لما رأى ما يصنع الناس: والله ما يُصلح هؤلاء الناسَ إلا وَزَعَةٌ. وقال أيضاً: لا بد للناس من وازع، أي من سلطان يكفهم[١٣٥٠].

٦٦١- لا بد للجماعة المسلمة من تنظيم وأمير مطاع:

واستئناساً بما كان عليه جنود سليمان من نظام وتنظيم، واقتداءً بهم وبسياسة سليمان معهم، نقول: على الجماعة المسلمة جماعة الدعاة إلى اللهِ أن تلتزم بالنظام والتنظيم على نحو جدي يلتزم به جميع أعضائها، ويَعرف به كل داعية موقعَه في صفوف الجماعة، ويعرف منزلته فيها ونوع العمل المنوط به، وأن يكون للجماعة (وزعة) يمنعون الأعضاء من تجاوز حدودهم ومراتبهم في صفوف الجماعة. وأن يكون لهذه الجماعة بجميع أعضائها أمير مطاع، يشرف على أعضاء الجماعة وعلى «الوزعة» المكلَّفين بالإشراف على النظام والتنظيم ومستلزماته في الجماعة، حتى يمكنها أن تحقق هذه الجماعة المباركة- أهدافها في الدعوة وخدمة الإسلام والمسلمين.

وقد يكون من المرغوب فيه للجماعة المسلمة أن يكون لكل صنف من أعضائها (وازع) يكون مسؤولاً عن صنفه من جهة نظامه وتنظيمه، فيكون لصنف العمّالِ

(١٣٤٨) تفسير سيد قطب ج٥ ص٢٦٣٦.

(١٣٤٩) تفسير سيد قطب ج٥ ص٢٦٣٥.

(١٣٥٠) تفسير القرطبي ج١٣ ص١٦٨.

وازع، وآخر لصنفِ الطلاب وهكذا، قياساً على ما كان يفعله سليمان عليه السلام في جنوده،مِن جعلِه (وزعة) لصنوفهم، أي: لكل صنف وازع أو أكثر-كما قال مجاهد والرازي.

٦٦٢- نعم الله على سليمان لم تزده إلا تواضعاً وشكراً لله:

قال تعالى عن سليمان وجنوده: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝١٨ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[١٣٥١]. والمعنى: حتى إذا مرَّ سليمانُ عليه السلام بمن معه من الجنود على وادي النمل قالت نملة ما قالته. وقولها: ﴿لَا يَشۡعُرُونَ﴾ التفافة مؤمن، أي: من عدل سليمان وفضله وفضل جنوده أنهم لا يقتلون نملة فما فوقها بغير وجه حق، إلا إذا وقع منهم ذلك بدون علم ولا قصد.

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا﴾ أي: تبسم سليمان شارعاً في الضحك، بمعنى: أنه قد تجاوز حدّ التبسم إلى الضحك، وإنما ضحك عليه السلام لأمرين: (الأول): إعجابه بما دلّ عليه قولها: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ على ظهور رحمته ورحمة جنوده وفضله وفضلهم، وعلى شهرة حاله وحالهم في باب التقوى، (والثاني): سروره بما آتاه الله مما لم يؤتِ أحداً، من سماعه لكلام النملة وإحاطته بمعناه[١٣٥٢].

وقوله تعالى حكاية عن قول سليمان: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ﴾ أي: ألهمني أن أشكر نعمتك التي مننت بها عليَّ: من تعليمي منطق الطير والحيوان، وما مننتَ به على والديَّ بالإسلام لك وبالإيمان بك، وأن تُعينني على أن أعمل صالحاً تحبه وترضاه، ﴿وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: إذا توفيتني فألحقني بالصالحين من عبادك، وبالرفيق الأعلى من أوليائك[١٣٥٣].

ويلاحظ على دعاء سليمان عليه السلام: أنه دعا ربه أن يلهمه شكر نعمته التي

(١٣٥١) سورة النمل، الآيات ١٨، ١٩.

(١٣٥٢) تفسيرابن كثير ج٣ ص٣٥٩، تفسير الرازي ج٢٤ ص١٨٨.

(١٣٥٣) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٥٩.

أنعمها عليه وعلى والديه؛ لأن الإنعام على الآباء إنعام على الأبناء؛ لأن انتساب الابن إلى أب صالح نعمة من الله تعالى على الابن يستحق الشكر.

وقوله: ﴿بِرَحْمَتِكَ﴾ يدل على أن دخول الجنة يكون برحمة الله وفضله، لا باستحقاقٍ من جانب العبد(١٣٥٤).

٦٦٣- الدعاة يشكرون الله دائماً:

والدعاة إلى الله تعالى يشكرون الله دائماً على ما أنعم عليهم من توفيقه لهم إلى الدعوة إلى دينه، لما في هذا التوفيق إلى الدعوة من جزيل الثواب، ولهذا فهم لا يمنون على أحد بما يقومون به من جهد مشكور في سبيل الدعوة إلى الله تعالى، ولا يريدون من أحد أجراً على عملهم.

٦٦٤- ما يتعلمه الدعاة من قول النملة:

وفي قول النملة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ إشعارٌ باهتمامها بأُمور جماعتها، باعتبارها واحدة من هذه الجماعة وليست أميرة عليها، وكان يسعها أن تنجوَ بنفسها من سليمان وجنوده، بأن تختفيَ في مكان أمين، وتدع بني جنسها من النمل وشأنَهم، ولكنها لم تفعل ذلك، بل قامت بتحذيرهم مع بيان وجه هذا التحذير، مما يدل على شعورها بالمسؤولية نحوهم، وأن من الواجب عليها أن تحرص على نجاتهم، ودفعِ الشر عنهم؛ كما تحرص على نجاة نفسها ودفع الشرِّ عنها.

فعلى الدعاة - وهم أعضاء في الجماعة المسلمة -: أن يشعروا بما شعرت به «نملة» نحو بني جنسها من ضرورة الإهتمام بهم، وأمرهم بما يدفع الشر عنهم، فيقوم هؤلاء الدعاة، بتحذير الجماعة وعموم المسلمين من أي خطر وضرر يتهددهم، وأن لا يهتموا فقط بنجاة أنفسهم من هذا الضرر أو الخطر؛ لأن قصر اهتمام المسلم بنفسه فقط من مظاهر الأنانية المقيتة، وفي الحديث النبوي الشريف: «من لا يهتم بأمر المسلمين فليس منهم»، والدعاة أحق الناس بالإهتمام بأمر المسلمين، وأمرِهم بما يجلب الخير والمصلحة لهم ويدفع الشر والضرر عنهم.

(١٣٥٤) تفسير الرازي ج٢٤ ص١٨٨.

٦٦٥- سليمان يتفقد الطير:

قال تعالى حكاية عن تفقد سليمان الطير: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾[١٣٥٥] التفقّد: تَطَلُّبُ ما غاب عنك من شيء، والمراد بالطير هنا جنس الطير وجماعتها، وكانت تصحبه في سفره وتُظله بأجنحتها. واختلف أهل التفسير في معنى تفقده الطير، والدافع لهذا التفقد: فقالت فرقة منهم: ذلك بحسب ما تقتضيه العناية بأمور المُلك وشؤون الدولة والوقوف على أحوال الرعية، وهذا هو ظاهر الآية؛ وقالت فرقة أخرى: إنما تفقد الطير ليأمر الهدهد بأن يدلّه على موقع الماء، حتى يأمر سليمان من يحفر له المكان لاستخراج الماء؛ لأن الهدهد كان يرى الماء في أعماق الأرض[١٣٥٦].

والظاهر: أنه افتقد الهدهد وهو ينظر ويفتش في الطير، وأن الهدهد الذي افتقده ولم يره كان هدهداً خاصاً، وليس هدهداً ما من تلك الألوف من الهداهد[١٣٥٧]. ويؤيد هذا القول ما جاء في تفسير ابن كثير عن محمد بن إسحاق بشأن هذا الهدهد: أنه كان يأتي إلى سليمان ويكون من جنده كل يوم طائر، فنظر سليمان عليه السلام فرأى من أصناف الطير كلها من حضر إلا الهدهد[١٣٥٨].

٦٦٦- دلالة الآية على واجب الأمير نحو رعيته:

وتَفَقُّدُ سليمان للطير كما ورد في الآية الكريمة دليل على تفقد الإمام أحوال رعيته، وأن هذا من واجبه نحوهم، فانظر إلى الهدهد مع صغره كيف لم يخفَ على سليمان حاله والسؤالُ عنه وعن سبب عدم حضوره، فكيف بعظائم الأمور!.

ويرحم الله عمر بن الخطاب فإنه كان على سيرته الحميدة، وعدله الشامل يقول: لو أن سخلة على شاطىء الفرات أخذها الذئب يُسْألُ عنها عمر. فما ظنك بحاكم تذهب على يديه البلدان ويستولي عليها الكفار، وتضيع الرعية ويضيع الرعيان!، ألا

(١٣٥٥) سورة النمل الآيتان ٢٠، ٢١.

(١٣٥٦) تفسير القرطبي ج١٣ ص١٧٧.

(١٣٥٧) تفسير سيد قطب ج٥ ص٢٦٣٨.

(١٣٥٨) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٦٠.

يقتدي هؤلاء الحكام بعمر بن الخطاب الذي كان يتفقد أحوال رعيته وأحوال أمرائه وولاته بنفسه؟!(١٣٥٩).

٦٦٧- أخذ سليمان الأمور بالحزم مع العدل:

قال تعالى عن تفقد سليمان الطير وإعلانه عما سيفعله بالهدهد الغائب: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ۝ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾(١٣٦٠). أي: هل أخطأه بصري فلم أره مع حضوره لساتر ستره عني، أم غاب فلم يحضر؟(١٣٦١) وحيث قد تبين لجنود سليمان من صيغة سؤال سليمان عن الهدهد أنه غائب بغير إذن من سليمان؛ فقد تعين أن يُؤخَذ الهدهد بكل حزم، وأن يعاقَب على تغيّبه بدون إذن سليمان، ليكون عبرة لغيره، وليمتنع غيره من التصرف بدون إذن القائد، وبهذا يتحقق الضبط والإنضباط والتنظيم والنظام. وهكذا كان، إذ هدّد سليمان بإنزال العذاب بالهدهد فقال: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾؛ ولكن استدرك سليمان عليه السلام فقال: ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي: إن الهدهد لا يُرفع عنه العذاب والمسؤولية عن تغيبه بدون إذني؛ إلا إذا جاء بعذر واضح مقبول عن تغيبه، إذ قد تكون للهدهد حجة وعذر، فلا يجوز لسليمان وهو نبي قبل أن يكون ملكاً -أن يُصدرَ حكماً نهائياً على الهدهد قبل أن يستمعَ إلى حجته وعذره، إن كان له عذر أو حجة(١٣٦٢).

٦٦٨- استماع سليمان لعذر الهدهد عن غيابه:

قال تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾(١٣٦٣) أي: إن الهدهد غاب زمناً يسيراً، ثم جاء فقال لسليمان: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ أي: علمتُ ما لم تعلمه من الأمر، فكان في هذا الجواب تنبيه لسليمان على أنَّ في أدنى خلق الله مَنْ أحاط علماً بما لم يحط به، فيكون ذلك لطفاً في ترك

(١٣٥٩) تفسير القرطبي ج١٣ ص١٧٨.

(١٣٦٠) سورة النمل الآيتان ٢٠، ٢١.

(١٣٦١) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٦٠ وتفسير الزمخشري ج٣ ص٣٥٨.

(١٣٦٢) تفسير سيد قطب ج٥ ص٢٦٣٨.

(١٣٦٣) سورة النمل الآية ٢٢.

الإعجاب بالنفس، الذي هو فتنة العلماء. وفي جواب الهدهد دليل على أن الأنبياء لا يعلمون الغيب(١٣٦٤). كما أن في هذا الجواب براعةً في الدفاع عن النفس، وعرض العذر وضمان إصغاء الحاكم لحجة المتهم، فالهدهد بدأ حديثه بمفاجأة تطغى على موضوع غيبته، وتضمن إصغاء سليمان له، إذ قال له: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ فأي حاكم لا يستمع وأحدُ رعيته يقول له: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾؟! فإذا ضمن الهدهد إصغاء سليمان بعد هذه المفاجأة؛ أخذ الهدهد في تفصيل النبأ اليقين الذي جاء به من مملكة سبأ(١٣٦٥).

٦٦٩- النبأ اليقين الذي جاء به الهدهد عن سبأ:

قال تعالى حكاية عما قاله الهدهد لسليمان بشأن مملكة سبأ: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾(١٣٦٦) أي: قال الهدهد: إني وجدت امرأة تملك أهل سبأ، وأوتيتْ من كل شيء، أي: من أسباب الدنيا التي تحتاجها في إدارة مملكتها، واللائقة بها كملكة متمكنة في حكمها. ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ أي: سرير تجلس عليه، عظيم هائل مزخرف بالذهب وأنواع الجواهر، وكان هذا السرير في قصر عظيم رفيع البناء(١٣٦٧)؛ وكانت تلك المرأة هي بلقيس بنت شراحيل على ماقاله بعض أهل العلم، وقد أكثر بعض الناس في قصتها، وما كانت عليه في ملكها وحكمها، والاكتفاء بما جاء عنها في القرآن الكريم هو النهج السديد. والذي يُفهم مما ورد في القرآن بشأنها: أنها كانت ملكة على سبأ في اليمن وكان لها ملك عظيم، وتتمع بطاعة الناس وكبرائهم، وأنها كان كافرة من قوم كفار(١٣٦٨).

٦٧٠- الهدهد يصف حال أهل سبأ وملكتهم:

قال تعالى حكاية عما قاله الهدهد في وصفه لحال سبأ وملكتهم: ﴿وَجَدتُّهَا

(١٣٦٤) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٦٠، تفسير الرازي ج٢٤، ص١٩٠، القرطبي ج١٣ ص١٨١.

(١٣٦٥) تفسير سيد قطب ج٥ ص٢٦٣٨.

(١٣٦٦) سورة النمل الآية ٢٣.

(١٣٦٧) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٦٠-٣٦١.

(١٣٦٨) تفسير ابن عطية ج١١ ص١٩٣.

وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾[١٣٦٩] أي: يقول الهدهد: وجدتُ الملكة وقومَها يعبدون غير الله، فهم يسجدون للشمس من دون الله، وعللّ كفرهم وضلالهم بأن الشيطان زين لهم أعمالهم فجعلها في أعينهم حسنة، وصدهم هذا الشيطان عن طريق التوحيد، طريق الحق، فهم لا يهتدون إلى الله تعالى وتوحيده وإفراده بالعبادة، ومنها السجود له وحده[١٣٧٠].

٦٧١- الهدهد يعقب على حال سبأ وملكتهم:

قال تعالى حكاية عما قاله الهدهد تعقيباً على ما رآه من كفر قوم سبأ وملكتهم، قال الهدهد: ﴿ أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴾[١٣٧١] أي: هلاّ يسجدون لله الذي يخرج الخبء، أي: يظهر ما هو مخبوء، وسمّي المخبوء بالمصدر «الخبء» وهو النبات والمطر وغيرهما مما خبأه الله من غيوبه، وهي كناية عن كل مخبوء وراء ستار الغيب في الكون العريض، ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾: وهي مقابلة للخبء في السموات والأرض بالخبء في أطواء النفس، ما ظهر منه وما بطن، ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴾ أي: هو المدعو (الله)، وهو الذي لا إله إلا هو رب العرش العظيم، الذي ليس في المخلوقات أعظم منه[١٣٧٢].

فإن قلت: كيف سوّى الهدهد بين عرش بلقيس وعرش الله في الوصف بالعظيم؟ فالجواب: بين الوصفين فرق عظيم؛ لأن وصف عرشها بالعظم: تعظيم له بالإضافة إلىعروش أبناء جنسها من الملوك، ووصف عرش الله بالعظيم: تعظيم له بالنسبة إلى سائر ما خلق من السموات والأرض[١٣٧٣].

(١٣٦٩) سورة النمل، الآية ٢٤.

(١٣٧٠) تفسير القرطبي ج١٣ ص١٨٤، تفسير سيد قطب ج٥ ص٢٦٣٨.

(١٣٧١) سورة النمل الآيتان ٢٥، ٢٦.

(١٣٧٢) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٦١، تفسير سيد قطب ج٥ ص٢٦٣٩، تفسيرالزمخشري ج٣ ص٣٦٢.

(١٣٧٣) تفسيرالزمخشري ج٣ ص٣٦٢.

٦٧٢- جواب سليمان على اعتذار الهدهد وما ادعاه:

قال تعالى عما قاله سليمان بعد سماعه أقوال الهدهد عن ملكة سبأ، وما عرفه من كفرهم، وأن هذا كان سبب غيابه: ﴿ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٢٧ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ [١٣٧٤]. أي: إن سليمان عليه السلام لما سمع مقالة الهدهد وما تضمنته من اعتذار عن غيابه؛ قال عليه السلام: ﴿سَنَنظُرُ﴾ وهو من النظر الذي هو التأمل والصفح. وأراد بقوله: أصدقت أم كذبت، إلا أن سليمان عليه السلام قال: ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾؛ لأن هذه العبارة أبلغ من قوله: «أم كذبت»؛ لأنه إذا كان معروفاً بالانخراط في سلك الكاذبين؛ كان كاذباً لا محالة، وإذا كان كاذباً اتهم بالكذب فيما أخبر به، فلم يوثق به[١٣٧٥].

ويلاحظ هنا أن سليمان لم يشرع في تصديقه ولا تكذيبه، ولم يستخفه النبأ العظيم الذي جاء به، إنما أخذ في تجربة الهدهد ليتأكد من صحة ما قاله، فقال له سليمان عليه السلام: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ أي: ألقه إلى بلقيس ملكة سبأ وقومها، ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي: تنّح عنهم إلى مكان قريب تتوارى فيه، ليكون ما يقولونه بمسمع منك، ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ أي: ماذا يجيبون، وماذا يردون من القول[١٣٧٦].

٦٧٣- الإمام يقبل عذر رعيته:

وفي الآية دليل على أن على الإمام أن يقبل عذر رعيته إذا جاء بعذر سائغ، ولكن للإمام أن يتأكد من صحة ما اعتذر به المعتذر، وهذا ما فعله سليمان عليه السلام، فإنه لم يعاقب الهدهد حين اعتذر إليه عن سبب غيابه عن الحضور مع جنده، وهو أنه كان في غيبة قد اطلع على قوم كافرين يستحقون الجهاد، وكان سليمان يحب الجهاد، فكان صدقُ الهدهد عذراً مقبولاً، ولكن سليمان لم يتعجل تصديقه، كما لم يتعجل عقابه، وإنما أراد التأكد من صحة ما قال. وهكذا ينبغي أن يكون الإمام العادل، يقبل عذر من اعتذر من رعيته، لا سيما الصادق في عذره، وفي الحديث

(١٣٧٤) سورة النمل الآيتان ٢٧، ٢٨.

(١٣٧٥) تفسيرالزمخشري ج٣ ص٣٦٣.

(١٣٧٦) تفسير الزمخشري ج٣ ص٣٦٣، تفسيرالقرطبي ج١٣ ص١٩١.

الصحيح عن رسول الله ﷺ: «ليس أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك أنزل الكتاب وأرسل الرسل»[١٣٧٧].

٦٧٤- خلاصة سياسة سليمان في رعيته:

سليمان عليه السلام كان ملكاً مع كونه نبياً رسولاً، وكانت رعيته من الإنس والجن والطير، وكانت سياسته فيهم تقوم على العدل والحزم والسهر الدائم على شؤونهم، وقد رأيناه يتفقد الطير ولم يفته غياب الهدهد، وكيف أنه أعلن عن عزمه على عقاب الهدهد لغيابه دون إذنه، ولكن علّق هذا العقاب على عدم العذر المقبول، ثم إن سليمان اتسع حلمه لسماع دفاع الهدهد عن نفسه، والتصريح بأنه علم من الأمور ما لم يعلمه سليمان، وأن تحصيله هذا العلم والإحاطة بمضمونه هو سبب غيابه، فقبل سليمان عذر الهدهد وحجته قبولاً معلّقاً على ظهور صدقه فيما يجربه فيه، وهو إرساله برسالته إلى قوم سبأ وملكتهم، وإعادته بالجواب منهم.

٦٧٥- ما تستفيده الجماعة المسلمة من سياسة سليمان في رعيته:

على أمير الجماعة المسلمة أن يتفقد شؤون جماعته ويتفقد أحوال أعضائها، ويسوس أُمور الجماعة بالحزم والعدل، دون رخاوة وتسيب وإهمال وعدم مبالاة، فإذا استدعى بعض مسؤولي الجماعة أو قادتها أو جميع أعضائها، فعليه أن يتأكد من حضور جميع المطلوب حضورهم، وأن يسأل عن الغائب منهم، وحيث أن غيبة الغائب قد تكون مشهورة ومعروفة فعلى أمير الجماعة أن يعلن عزمه على محاسبة الغائب على غيابه ومعاقبتهِ إن لم يكن له عذر، حتى يعلم الجميع أن الأمر جد لا هزل، وأن الالتزام بالنظام ومقتضيات الضبط من الأمور المطلوبة التي يُحاسب المقَصِّر فيها.

كما أن على أمير الجماعة أن يسمع حجة المقصر لعدم حضوره، أو لعدم القيام بالمطلوب منه، وأن لا يتعجل في إصدار حكم الإدانة والعقاب قبل أن يسمع حجة المتعلِّق به هذا الحكم.

ولأمير الجماعة الحق في التأكد من مواقف أعضاء الجماعة، عن طريق النظر

(١٣٧٧) تفسير القرطبي ج١٣ ص١٨٩.

والتأمل فيما يفعلونه أو يعتذرون به أو فيما يُكلَّفون به.

إن أخذ الأمير أعضاء جماعته بالحزم والجدية والمحاسبة يقوم على الحرص على مصلحة الجماعة، وعلى مصلحة أعضائها، ولا يقوم أبداً على أي معنى من معاني الهوى والتعسّف في استعمال السلطة.

إن أعضاء الجماعة في نظر أميرها كأولاده، فكما أن محبته لأولاده تحمله على رعاية شؤونهم بالحزم والجدية، ولا يقدح ذلك في أُبوته لهم وحنانه عليهم ورحمته بهم؛ فكذلك يجب أن يُنظَر إلى حزم الأمير في سياسته لأعضاء جماعته.

٦٧٦- ما يتعلمه أعضاء الجماعة من كلام الهدهد:

وكما أن على رئيس الجماعة سياسة جماعته بالعدل والحزم وعدم التسرع في مؤاخذة أعضاء جماعته، فإن من حق العضو في الجماعة -وهو داعية إلى الله- أن يُبَيِّن حجته وعذره في أي مؤاخذة توجه إليه، وأن يكون صريحاً في بيان حجته لأميره، ثم يترك الأمر له ليزن أقواله، وليتصرف نحوه في ضوء ما سمعه منه. وأن لا يضيق الداعية -وهو عضو في الجماعة- بما يمتحنه به أميره؛ ليتبين له ما يريد تبينه من أمره.

ولعضو الجماعة أن يقول لأميره: علمت ما لم تعلمه، إذا كان ما علمه العضو واقعاً حقاً، كما قال الهدهد لسليمان.

وعلى الداعية - وهو عضو في الجماعة المسلمة - أن ينقل إلى أميرها ما يعلمه من أمور يعلم أنها من اهتمامات الجماعة وأميرها، وإن لم يُكلَّف هو بها، فالهدهد نقل إلى سليمان ما رآه من أمر ملكة سبأ وقومها وضلالهم، وإن لم يُكلَّف الهدهد بالتحري عنهم؛ لأنه يعلم أنَّ هذه أمور منكرة يهتم سليمان بمعرفتها لإزالتها. ومعنى ذلك: أن على عضو الجماعة المسلمة أن يستحضر في نفسه اهتمامات الجماعة، وأن يكون اهتمامه هو نفس اهتمام الجماعة وأميرها، فينقل إليه كل ما يرى ضرورة نقله إليه، فلا يكون كموظف في دائرة من دوائر الدولة: لا يهتم إلا بواجبات وظيفته دون الاهتمام بدائرته فضلاً عن الاهتمام بوزارته ودولته.

٦٧٧- عود إلى هدهد سليمان وكتابه:

أخذ الهدهد كتاب سليمان عليه السلام وألقاه إلى ملكة سبأ كما أمره سليمان، فقالت كما أخبرنا الله تعالى: ﴿قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾(١٣٧٨).

والمعنى: فذهب الهدهد فألقاه إلى ملكة سبأ، فسمعها وهي تقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟..﴾ الخ والملأ: هم أشراف الناس الذين ينوبون مناب الجميع.

ووصفت الكتابَ بالكرم؛ لما تضمن من لين القول والموعظة في الدعاء إلى عبادة الله عز وجل(١٣٧٩). ويجوز أن يكون وصفها لكتاب سليمان بالكرم؛ لأنه من سليمان، وتصديره ببسم الله، وسليمان عليه السلام لم يقدم اسمه على قوله: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ وإنما ذكرت بلقيس -ملكة سبأ- أن هذا الكتاب من سليمان، ثم حكت ما في الكتاب، والله تعالى حكى ذلك، فالتقديم -تقديم اسم سليمان على بسم الله- واقع في حكاية قول بلقيس(١٣٨٠).

٦٧٨- مضمون كتاب سليمان:

وتضمن كتاب سليمان طلباً صريحاً، عبّر عنه كما حكى الله تعالى: ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾، فمضمون الكتاب في غاية البساطة والقوة، فهو مبدوء باسم الله الرحمن الرحيم، ومطلوب فيه أمر واحد هو: أن لا يستكبروا -الملكة وقومها- على مرسله، وأن يأتوا إليه مستسلمين لله الذي يخاطبهم باسمه(١٣٨١).

٦٧٩- الدعوة إلى الله وظيفة رسل الله:

إن وظيفة رسل الله جميعاً دعوة الخلق إلى الله، أي: إلى الإيمان به رباً ومعبوداً، وإفراده بالعبادة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟

(١٣٧٨) سورة النمل الآيتان ٢٩-٣١.

(١٣٧٩) تفسير القرطبي ج١٣ ص١٩٢.

(١٣٨٠) تفسير الرازي ج٢٤ ص١٩٤.

(١٣٨١) تفسير سيد قطب ج٥ ص٢٦٤٠، تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٦٢، تفسير القرطبي ج١٣ ص١٩٣.

ٱلطَّـٰغُوتَ ﴾، ومن أجل هذا طلب سليمان عليه السلام من ملكة سبأ وقومها أن يستسلموا إلى الله تعالى وينقادوا إليه، وما يتضمن ذلك من إفراده بالعبادة، وأن ينقادوا إليه -سليمان- ويطيعوه؛ لأنه رسول الله.

٦٨٠- رسولنا وأتباعه يدعون إلى الله:

و ما دامت الدعوة إلى الله هي وظيفة رسل الله جميعاً، فقد أمر الله تعالى نبيه محمداً ﷺ أن يعلن للناس بأن سبيله هو الدعوة إلى الله، وكذا سبيل أتباعه المؤمنين، قال تعالى: ﴿ قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾.

٦٨١- من لوازم الإيمان: القيام بالدعوة إلى الله:

وفي الآية التي ذكرتها في الفقرة السابقة دليل واضح على أن من لوازم الإيمان بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً القيام بالدعوة إلى الله؛ لأن سبيل النبي ﷺ والمؤمنين هوالدعوة إلى الله.

٦٨٢- الدعوة إلى الله بكل وسيلة مشروعة:

وواجب الدعوة إلى الله يُؤَدَّى بكل وسيلة مشروعة: بالمشافهة وبالكتابة وبإرسال الرسل إلى من يُراد تبليغهم بالدعوة إلى الله. وسليمان عليه السلام أخذ بوسيلة الكتابة في دعوته لملكة سبأ وقومها بضرورة الإيمان بالله والإنقياد له باعتباره رسول الله. وقد أخذ رسولنا محمد ﷺ بوسيلة الكتابة لتبليغ دعوته، فأرسل كتباً إلى كسرى وقيصر وغيرهما يدعوهم فيها إلى الإيمان بالله وبرسوله ﷺ، والانقياد لشرع الإسلام. وهكذا ينبغي للدعاة أن يفعلوا، فيرسلوا الكتب لمن يدعونهم إلى الإسلام إذا تعذر الذهاب إليهم ومشافهتهم بالدعوة. كما يجوز للدعاة ولجماعتهم إرسال من ينوب عنهم لتبليغ الدعوة. ولهم أيضاً عقد الاجتماعات العامة، أو المؤتمرات العامة؛ ليقوم الدعاة بتوضيح معاني الدعوة للحاضرين، وإزالة الشبهات عنها، وضرورة الاستجابة لها؛ لأنها دعوة الإسلام.

٦٨٣- بلقيس تشاور الملأ بشأن كتاب سليمان:

قال تعالى عن بلقيس ملكة سبأ: ﴿ قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا

﴿حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ﴾[١٣٨٢]، والمعنى: أن ملكة سبأ قرأت الكتاب وعرفت مضمونه وما فيه، فجمعت «الملأ» من قومها، لتشاروهم بشأن هذا الكتاب الذي ألقى إليها، كتابِ سليمان وما طلبه فيه.

والملأ هم أشراف قومها الذين ينوبون مناب الجميع، فقالت لهم: ﴿أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ﴾، والظاهر أنها أبلغتهم بمضون الكتاب، أو قرأته عليهم، والظاهر أيضاً أنها أخذت ما في كتاب سليمان مأخذ الجدّ، لما فيه من الحزم والاستعلاء، والظاهر أنها رأت في نفسها أن المقاومة أو الخصومة مع سليمان لا تفيد، وأنها أرادت أن تُشعر الملأ بذلك، فمهدت لما تريد بوصفها الكتاب بأنه ﴿كَرِيمٌ﴾ ثم طلبت منهم المشورة بقولها: ﴿أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي﴾ والفتوى: طلب الجواب في الحادثة من المُفتي الذي يُستفتَى فيها. والمراد بالفتوى التي طلبتها الملكة من الملأ: الإشارة عليها بما عندهم من الرأي والتدبير بشأن هذا الكتاب -كتابِ سليمان عليه السلام وما طلبه فيه. والظاهر أن الملكة أرادت بالرجوع إلى مشاورتهم واستطلاع آرائهم: تطيب نفوسهم، ولتختبر مدى عزمهم على مقاومة سليمان إذا آل الأمر إلى مقاومته ومخاصمته. وقد ذكّرتهم بأن مشاورتهم والرجوع إلى معرفة آرائهم من الأمور المعتادة والمطَّردة عندها في تدبير شؤون المملكة، وفيما يعرض لها من الأمور المهمة، فقالت لهم: ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ﴾ أي: تظهرون وتُستشَارون وتشيرون، فكيف في هذه النازلة العظيمة التي نزلت بها وبهم- وهي ما طلبه سليمان في كتابه من الخضوع إليه، والمجيء إليه مستسلمين!![١٣٨٣].

٦٨٤- جواب الملأ إلى بلقيس:

قال تعالى حكاية عن جواب الملأ إلى بلقيس -ملكتِهم- : ﴿نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ﴾[١٣٨٤]. أرادوا بقوتهم: قوتهم بالأبدان وبآلات

(١٣٨٢) سورة النمل، الآية ٣٢.

(١٣٨٣) تفسير ابن عطية ج١١ ص٢٠٢، تفسير الكشاف ج٣ ص٢٦٤، تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٦٢، تفسير القرطبي ج١٣ ص١٩٤، تفسير سيد قطب ج٥ ص٢٦٣٩-٢٦٤٠.

(١٣٨٤) سورة النمل، الآية ٣٣.

الحرب وبعددهم. والبأس الشديد الذي نسبوه إلى أنفسهم: النجدة وشدة البلاء في الحرب. ثم فوضوا الأمر إليها، وتركوا اتخاذ القرار النهائي لها، معلنين طاعتهم لها فيما تأمرهم به من الحرب أو السلم[١٣٨٥].

٦٨٥- بلقيس تمهد لرأيها قبل أن تعلنه:

اطمأنت بلقيس إلى استعداد «الملأ» لطاعتها فيما تأمر به من حرب أو سلم، ولكنها أحست منهم الميل إلى المحاربة، لِما أظهروه من قوتهم وشدة بأسهم، فرأت أن من حسن الرأي الميلَ إلى المسالمة والمداراة في أول الأمر، وأن لا تتعجل في رفض أو قبول طلب سليمان كما جاء في كتابه، ليكون لها فسحة من الوقت للنظر فيه، حرصاً على ملكها وعلى قومها، بدفع الهلاك عنهم وتحقيق المصلحة لهم، ولأن القتال إنما يُؤثَر ويُقَدَّم على المسالمة إذا غلب على الظن الانتصار على العدو، أما إذا لم يحصل هذا الظن، أو حصل الشك فيه، أو غلب على الظن انتصار العدو؛ فإن الراجح يكون الميل إلى المسالمة والمهادنة ولو إلى حين؛ لأن القتال في هذه الحالة- أي: مع غلبة الظن بانتصار العدو -يعتبر مجازفة ويعرِّضُ البلاد وأهلها إلى الهلاك والهوان، وهذا ما رأته بلقيس، ومهدت له بقولها كما حكى الله تعالى عنها: ﴿قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾ أي: إنَّ الملوك إذا تغلبوا خربوا القرى، قال ابن عباس: أي: إذا دخلوا بلداً عنوة أفسدوه، أي: خربوه، ﴿وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ﴾ أي: وقصدوا من فيها من الأشراف والقادة والجنود فأذلوهم وأهانوهم، إما بالقتل أو بالأسر أو بالمعاملة المهينة التي لا يرضاها أي عزيز يحس بكرامته، ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾ أي: قالت بلقيس: وهذه عادة الملوك المستمرة الثابتة التي لا تتغير، وقيل: هذا تصديق لها من الله تعالى فيما قالته بشأن الملوك إذا انتصروا ودخلوا بلداً عنوة. وواضح من قولها هذا أنها كانت شديدة الحرص على مصلحة قومها، ودفع الأذى والضرر عنهم، مع إشارة إلى استعظام أمر سليمان[١٣٨٦].

(١٣٨٥) تفسير الزمخشري ج٣ ص٣٦٤، تفسير الرازي ج٢٣، ص١٩٥.

(١٣٨٦) تفسير القرطبي ج١٣ ص١٩٥، تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٦٢، تفسير الكشاف ج٣ ص٣٦٥. والآية في سورة النمل ورقمها ٣٤.

٦٨٦- بلقيس تعلن رأيها:

وبعد أن مهدت بلقيس لرأيها ببيان ما يحلّ بها وبقومها في حالة دخولهم الحرب مع سليمان وانتصاره عليهم؛ قالت معلنةً رأيها كما حكى الله تعالى عنها: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾[١٣٨٧]. فهذا القول من بلقيس إعلان لرأيها، وهو عدولها عن الحرب إلى المهادنة والمسالمة والمداراة إلى حين، حتى يتبين لها أمر سليمان، وذلك بإرسال هدية له تليق به لتنظر ماذا يكون جوابه، فتعمل وتتصرف معه على حسب ذلك، فلعله يقبل هديتها ويكف عنها، أو يفرض عليها خراجاً تحمله إليه كل عام ويترك قتالها ومحاربتها.

قال قتادة رحمه الله: ما كان أعقلها في إسلامها وشركها، علمت أن الهدية تقع موقعاً من الناس.

٦٨٧- توضيح رأي بلقيس ومبرراته:

كان رأي بلقيس عدم الاستعجال برفض أو قبول طلب سليمان كما جاء في كتابه، ورأت التأني في الجواب حتى تستكشف حال سليمان وحقيقته: أهو مَلِك من الملوك، لا يريد إلا الغلبة على الآخرين والاستئثار بالملك والسلطان ومتع الحياة، وليس له وراء ذلك غاية؛ أم هو نبي ورسول من الله، يعمل لتبليغ رسالة الله.

وكان مسلك بلقيس لاستكشاف حال سليمان إرسالَ هدية تليق به، فإن قبلها كان ذلك قرينة على أنه ملك كالملوك، غايته حطام الدنيا ومتاعها، وأمكن عند ذلك النظر الجدي في قتاله إن لم يقنع بالهدية، بل ويترجح قتاله، وإن رفض الهدية وأصرّ على طلبه في الإذعان له ولدعوته، دلَّ ذلك على أنه نبي ورسول من الله، وعليها في هذه الحالة إجابة طلبه، إذ لا قوة لها على محاربته، ولا معنى لهذه المحاربة وقد تبين أنه رسول الله، قال ابن عباس رضي الله عنه وغير واحد: قالت بلقيس لقومها: إن قَبِلَ الهدية فهو ملك فقاتلوه، وإن لم يقبلها فهو نبي فاتبعوه[١٣٨٨].

(١٣٨٧) سورة النمل الآية ٣٥.

(١٣٨٨) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٦٢.

وقد يقال: كيف وقع في نفس بلقيس احتمال أن يكون سليمان عليه السلام نبياً مرسلاً من الله تعالى؟ والجواب من وجهين:

(الأول): أن صيت سليمان كان ذائعاً في هذه الرقعة أي: في البلاد المجاورة لسليمان والقريبة منه[1389]، وأغلب الظن أنه عرف في هذه البلاد بالنبوة والملك العظيم.

(الثاني): أن إلقاء الكتاب إليها من قبل الهدهد -وهو طائر-، وما حواه هذا الكتاب من ذكر اسم الله والدعوة إليه؛ يوحي إليها أنه نبي ورسول من الله تعالى، وليس ملكاً فقط، إذ لا يَقْدِرُ أي مَلِكٍ أن يكون رسوله في إيصال كتابه إليها طائراً. جاء في تفسير ابن كثير في تفسير قوله تعالى حكاية عما قالته بلقيس: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾: «تعني بكرمه ما رأته من عجيب أمره، كون طائرٍ ذهب به فألقاه إليها، ثم تولى عنها أدباً، وهذا أمرٌ لا يقدر عليه أحد من الملوك، ولا سبيل لهم إلى ذلك ثم قرأته عليهم: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلُواْ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ فعرفوا أنه من نبي الله سليمان عليه السلام»[1390].

ولا يقال: إذا وقع في نفسها أن سليمان نبي فلماذا لم تسارع إلى إجابة طلبه وتسلم لله رب العالمين؟ والجواب: أنها كانت تعبد غير الله، وأرادت التأكد والاطمئنان إلى أنه نبي ورسول من الله، فأرسلت إليه الهدية لتستدل بقبولها أو رفضها على حقيقة حاله، -كما قال ابن عباس-، ثم تتصرف معه في ضوء ذلك.

وفي تفسير ابن عطية ما يؤيد ما ذكرناه، فقد جاء فيه: «روي: أن بلقيس قالت لقومها: إني أجرب هذا الرجل -تعني سليمان عليه السلام- بهدية أعطيه فيها نفائس الأموال، فإن كان ملكاً دنيوياً، أرضاه المال، فعملنا معه بحسب ذلك، وإن كان نبياً لم يرضه المال، ولا زَمَنَا في أمر الدين، فينبغي أن نؤمن به ونتبعه على دينه»[1391].

(١٣٨٩) تفسير سيد قطب ج٥ ص٢٦٣٩.

(١٣٩٠) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٦١.

(١٣٩١) تفسير ابن عطية ج١١ ص٢٠٣.

٦٨٨- سليمان يرفض هدية بلقيس:

قلنا: إن رأي بلقيس الذي أعلنته للملأ: هو أن ترسل هدية إلى سليمان تليق به، لتنظر ماذا يكون وقعها في نفسه، وقد أرسلت الهدية فعلاً، وفيها نفائس الأموال، فلما وصلته؛ قال سليمان لمن جاء بها ما أخبرنا اللهُ تعالى به حكاية عن قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَـٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُمۚ بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ﴾(١٣٩٢). عبرَّ عن المرسَلين الذين جاؤوا بالهدية بـ﴿جَآءَ﴾، لما أراد به الرسول الذي يقع على الجمع والإفراد، والتأنيث والتذكير(١٣٩٣).

وفي قول سليمان: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ﴾: عدم اكتراثه بذلك المال على كثرته والمعنى: أتصانعونني وتستميلونني بمال لأترككم على كفركم وشرككم وملككم وأتركَ دعوتكم إلى الإسلام؟ ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُمۚ﴾ أي: الذي أعطاني الله تعالى من الإسلام والنبوة والملك والمال خير مما آتاكم، ﴿بَلۡ أَنتُم﴾ قوم لا تعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا، فلذلك ﴿تَفۡرَحُونَ﴾ بما تُزادون من مال، وبما يُهدَي إليكم؛ لأن ذلك منتهى غايتكم ومبلغ علمكم، ولذلك لا تعرفون سبباً لرضا الغير وفرحه إلا بما يُهدَى إليه من متاع الدنيا، هذا هو حالكم. أما حالي فهو خلاف حالكم: فلا أرضى منكم بشيء، ولا أفرح به إلا بأن تُسلموا، فالإسلام وحده هو الذي أقبله منكم، ولا أقبل شيئاً سواه(١٣٩٤).

٦٨٩- سليمان يهدد بالحرب إن لم تسلم بلقيس وقومها:

قال تعالى حكايةً عن تهديد سليمانَ لبلقيس وقومها إن لم يسلموا: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾(١٣٩٥) والمعنى: أن سليمان عليه السلام قال لمن جاؤوا بالهدية موجهاً تهديده إلى رئيسهم: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ﴾ أي: ارجع بهديتهم ﴿فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ أي: لا طاقة لهم بقتالهم ﴿وَلَنُخۡرِجَنَّهُم

(١٣٩٢) تفسير ابن عطية ج١١ ص٢٠٤.

(١٣٩٣) سورة النمل الآية ٣٦.

(١٣٩٤) تفسير الزمخشري ج٣ ص٣٦٦، تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٦٣، تفسيرالرازي ج١٣ ص١٩٦.

(١٣٩٥) سورة النمل الآية ٣٧.

﴿مِّنْهَآ أَذِلَّةً﴾ أي: ولنخرجنّهم -أي بلقيس وقومها- من بلدتهم أو من أرضهم أذلة، ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ أي: مُهانون مدحورون. وهذا الذي سيصيبهم إذا لم يسلموا، وظلوا مقمين على كفرهم[١٣٩٦].

وفي قوله تعالى حكاية عما قاله سليمان عليه السلام: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾، قال الإمام ابن عطية في تفسير هذه الآية: (ووعيد سليمان عليه السلام لهم مقترن بدوامهم على الكفر)[١٣٩٧] وقال الإمام ابن عطية أيضاً: (ثم توعدهم -أي سليمان- بالجنود والغلبة والإخراج إذا لم يُسلموا)[١٣٩٨] وقال الإمام القرطبي في تفسير هذه الآية: «فلنأتيهم بجنود لا قِبلَ لهم بها: أي: لا طاقة لهم بها، ولنخرجهم منها: أي من أرضهم وهم أذلة صاغرون أي: مهانون أذلاء إن لم يُسلموا[١٣٩٩].

ويُفهم من هذا: أن سليمان أظهر عزمه على قتال بلقيس وقومها، وإزالة حكمهم بالقوة، إذا لم يسلموا ويتركوا كفرهم وشركهم. ومعنى ذلك -على ما يبدو لنا-: أن ما عزم عليه سليمان عليه السلام هو من باب إزالة المنكر، ونظراً لوجود القوة اللازمة لإزالته؛ تحرك سليمان عليه السلام إلى اليمن طالباً من بلقيس التنحي عن السلطة والحكم؛ إذا لم تسلم وقومها، وإذا رفضت ذلك، فإنه سيحاربها ويزيل حكمها بالقوة؛ لأن بقاءه منكر عظيم تجب إزالته. ومعنى ذلك كله: أن من شريعة سليمان إزالة الحكم الطاغوتي من الأرض كلماكان ذلك ممكناً، وقد أمكنه بالنسبة لمملكة سبأ في اليمن، فقد كتب إلى بلقيس كتابه قبل أن يخطو الخطوة الثانية، وهي إخضاعهم بالقوة، وإزالة حكمهم الكافر.

٦٩٠- ما يستفاد من تهديد سليمان بلقيس بالحرب:

قلنا: إن تهديد سليمان بلقيس بالحرب -إن لم تسلم وقومها- يدخل في باب إزالة المنكر بالقوة إذا تيسرت القوة لذلك. كما يمكن أن نقول: إنه كان من شرعة

(١٣٩٦) تفسيرالزمخشري ج٣ ص٣٦٦-٣٦٧.
(١٣٩٧) تفسير ابن عطية ج١١ ص٢٠٤.
(١٣٩٨) تفسير ابن عطية ج١١ ص٢٠٥.
(١٣٩٩) تفسير القرطبي ج١٣ ص٢٠١-٢٠٢.

سليمان عليه السلام قتال الكفرة، وإزالة حكمهم بالقوة إذا لم يسلموا، وإن لم يتعرضوا لسليمان ولم يبدؤوه بقتال، ومعنى ذلك: أن القتال في شرعة سليمان عليه السلام، أو الجهاد في شرعته- هو قتال هجومي، وجهاد هجومي وليس دفاعياً فقط يقتصر على رد هجوم الكفرة عن ديار الإسلام. وهذا واضح؛ لأن مملكة سبأ كانت بعيدة عن سليمان ودولته، ولم تتعرض له بهجوم ونحوه، مما يدل دلالة قاطعة على ما قلناه، وهو أن القتال في شريعة سليمان عليه السلام كان هجومياً وغير مقصور على القتال الدفاعي.

وهذا هو نفس المقرر في شريعتنا الإسلامية، فالقتال في الإسلام هو نوع من الجهاد؛ لأنه جهاد بالنفس، فإذا كان للمسلمين قوة كافية لإزالة حكم الطواغيت في الأرض، وجب على المسلمين عرض الإسلام عليهم، فإن أسلموا فبها ونعمت، وصاروا من جملة الأمة الإسلامية، وحكموا بالإسلام، فإن رفضوا الإسلام، وجب عليهم التخلي عن الحكم؛ لأن حكم الكفرة منكر عظيم تجب إزالته، فيصيرون من أهل الذمة إن رغبوا في ذلك، وإن أبوا التخلي عن الحكم، وصيرورتهم من أهل الذمة وجب قتالهم؛ حتى يزول حكمهم الطاغوتي وهو منكر عظيم. فإذا زال حكمهم بالقوة؛ كان الخيار لأهل تلك البلاد: الإسلام أو دخولهم في الذمة مع بقائهم على دينهم. هذا هو الحق في مفهوم الجهاد وما يتضمنه في الإسلام[١٤٠٠].

٦٩١- بلقيس تستجيب لدعوة سليمان فلا تقع الحرب:

ولما رجع رسل بلقيس بهديتها وأخبروها بما قال سليمان وما هددهم وتوعدهم به؛ عزمت على الاستجابة لدعوته، وأعلمته بالقدوم عليه مع رؤساء قومها للتعرف على دينه، والدخول فيه. قال ابن كثير في تفسيره: (فلما رجعت إليها رسلها بهديتها وبما قال سليمان؛ سمعت وأطاعت هي وقومها، وأقبلت تسير إليه في جنودها خاضعة ذليلة، معظمة لسليمان، ناوية متابعته في الإسلام). وقال ابن كثير: (قال محمد بن إسحاق عن زيد بن رومان قال: فلما رجعتْ إليها الرسل بما قال سليمان، قالت: قد والله عرفت ما هذا بملك وما لنا به من طاقة، وما نصنع بمكابرته شيئاً، وبعثت إليه أني قادمة عليك بملوك قومي، لأنظر ما أمرُكَ وما تدعو

(١٤٠٠) انظر نظام الجهاد في كتابنا أصول الدعوة.

إليه من ذلك)[١٤٠١].

٦٩٢- أيكم يأتيني بعرشها:

ولما علم سليمان عليه السلام بتوجه ومسيرة بلقيس ومن معها إليه، سرّه ذلك، وقال عليه السلام للملأ من حوله من الجنّ والإنس ما أخبرنا اللهُ به: ﴿قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾[١٤٠٢] أي: قبل أن يأتوني مستسلمين، أو قبل أن يأتوني وقد أسلموا[١٤٠٣].

٦٩٣- تعليل الإتيان بعرشها:

وقد يسأل سائل: لماذا أراد سليمان عليه السلام الإتيان بعرشها -عرش بلقيس-؟، والجواب: للعلماء أقوال:

(القول الأول): لما وُصِفَ عرش بلقيس وما امتاز به من دقة صنعه وفخامته، أراد سليمان أن يأخذه قبل أن تُسلم بلقيس، فيحرم عليه مالها؛ لأن الإنسان إذا أسلم عصم ماله ودمه.

(القول الثاني): أراد سليمان عليه السلام أن يختبر عقلها في معرفتها به إذا رأته عند سليمان.

(القول الثالث): أراد سليمان بإتيان عرشها أن يريها ما أيده اللهُ به من معجزات على نبوته ورسالته، ومن هذه المعجزات تسخير الله له الجن ومن يقومون له بخوارق الأعمال التي يعجز عنها البشر، ومنها: جلب عرشها قبل أن تصل إليه، وبالرغم من حراسته، وفي هذا دليل ملموس على صدقه، وأنه رسول الله تعالى[١٤٠٤].

٦٩٤- القول الراجح:

(القول الأول): ضعيف، يرد عليه: أن سليمان عليه السلام آتاه الله سبحانه

(١٤٠١) تفسيرابن كثير ج٣ ص٣٦٣.
(١٤٠٢) سورة النمل الآية ٣٨.
(١٤٠٣) تفسير ابن عطية ج١١ ص٢٠٣-٢٠٤.
(١٤٠٤) أحكام القرآن لابن العربي المالكي ج٣ ص١٤٦٢.

وتعالى من الملك ومن متاع الدنيا والأموال ما لا مزيد عليه ولا مطمع فيما يكون عند غيره. وأيضاً فإن الغنيمة -وهي أموال الكفار- لم تُحلّ لأحد قبل نبينا محمد ﷺ، فقد جاء في حديث أخرجه الإمام مسلم قوله ﷺ: «... فلم تحل الغنائم لأحد من قبلنا»[1405]، وجاء في شرح هذه العبارة: (وفي هذا الحديث إباحة الغنائم لهذه الأُمّة، وأنها مختصة بذلك)[1406].

و(القول الثاني): ضعيف، يُرد عليه: أنه ليس مما يدخل في اهتمامات ومقاصد سليمان عليه السلام -وهو رسول كريم- اختبار رجاحة عقل بلقيس، وإنما يدخل في اهتماماته ومقاصده الرغبةُ في هدايتها وإسلامها، وقد علم بعزمها على الإسلام ورغبتها فيه، وهذا يكفي دليلاً لرجاحة عقلها- إن كان معرفة ذلك من مقاصد سليمان.

و(القول الثالث): هوالقول الراجح؛ لأنه هواللائق بحال سليمان -وهو رسول كريم وداع إلى الله تعالى-، ولا شك أنَّ إتيانه بعرشها يعطيها الدليل الملموس على نبوة سليمان ودينه الحقِّ، وأنَّ ما يدعو إليه هو الحق، وكل هذا يحملها على الإيمان بالله، وبنبوة سليمان، وهذا ما يحرص عليه سليمان ويحبه ويرغب فيه.

٦٩٥- الإتيان بعرشها في غمضة عين:

لما قال سليمان للملأ حوله: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ أجابه مَنْ أخبرنا الله بجوابه: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾[1407] والعفريت من الجن: هو القوي المارد[1408]. فهذا العفريت قدّم نفسه لسليمان مخبراً إياه بأنه يأتيه بعرش بلقيس قبل أن يقوم من مجلسه، وأنه قوي على حمله، أمين على ما فيه[1409] ولكنَّ سليمان عليه السلام استبطأ ذلك، فتقدم

(١٤٠٥) السراج الوهاج من كشف مطالب صحيح مسلم بن الحجاج تأليف صديق حسن خان ج٦ ص٦٤٠.

(١٤٠٦) المرجع السابق ص٦٤٣.

(١٤٠٧) سورة النمل الآية ٣٩.

(١٤٠٨) تفسير ابن عطية ج١١ ص٢٠٧.

(١٤٠٩) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٦٣-٣٦٤، تفسير القرطبي ج١٣ ص٢٠٤.

غيره، وهو مَنْ أخبرنا الله بقوله: ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾[1410]. أي: قبل أن تفتح عينيك وتغمضهما[1411]، ولم يذكر القرآن الكريم من هو الذي عنده علم من الكتاب، ولا اسمه، ولا ماهية هذا الكتاب، ولا ماهية هذا العلم الذي أُوتيه. وعلى هذا، فكل ما يمكن أن نقوله: إنه جني أوإنسي آتاه اللهُ علماً استعان به على الإتيان بالعرش بتمكين من الله تعالى، وعلى وجهٍ خارق للمعتاد، وفيه دلالة على نبوة سليمان وتسخير الله له ما لم يسخره لغيره.

٦٩٦- ما قاله سليمان لما رأى العرش مستقراً عنده:

ولما جيء له بالعرش -عرش بلقيس- ووضع أمامه؛ قال ما أخبرنا الله حكايةعن قول سليمان: ﴿ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾[1412]. أي: فلما عاين سليمان وَمَلَؤُهُ عرش بلقيس مستقراً وقائماً عنده؛ قال عليه السلام: «هذا الذي حصل -وهو الإتيان بعرشها في هذا الوقت القصير- إنما هو من فضل الله عليَّ، ليتختبرني أأشكر نعمته عليَّ بأن أقوم بحقها، أم أكفرها فلا أقوم بحقها، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه، أي: لا يرجع نفع ذلك إلاَّ إلى نفسه، حيث استوجب بشكره تمام النعمة ودوامها والمزيد منها؛ لأن الشكر على النعمة إبقاءٌ للنعمة الموجودة، وبه تُنال النعمة المفقودة، ومن كفر فلم يقم بشكرنعمة الله عليه؛ فإن الله تعالى غني عن شكره، فهو تعالى كريم في نفسه، وإن لم يعبده أو لم يقم أحد بشكره وشكر نعمه عليه، وهو تعالى كريم أيضاً بالإنعام على من يكفر نعمته[1413].

٦٩٧- سليمان يختبر رجاحة عقل بلقيس:

وكان اختبار سليمان لعقل بلقيس ورجاحته بما أخبرنا اللهُ به، قال تعالى حكاية عما فعله سليمان لاختبار بلقيس: ﴿ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا

(١٤١٠) سورة النمل الآية ٤٠.

(١٤١١) تفسير ابن عطية ج١١ ص٢٠٨.

(١٤١٢) سورة النمل الآية ٤٠.

(١٤١٣) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٦٤، تفسير الزمخشري ج٣ ص٣٦٨. تفسير القرطبي ج٣ ص٢٠٦.

﴿يَهْتَدُونَ﴾[1414]. ومعنى هذه الآية الكريمة: أنه لما جيء بعرشها -أي عرش بلقيس قبل قدومها- أراد سليمان عليه السلام اختبار عقلها وذكائها، فأمر أن يُنكرَّعرشها، بأن يجعلوه مُتنكِّراً متغيراً عن هيئته وشكله، كما يتنكر الرجل للناس لئلا يعرفوه، وإنما فعل ذلك سليمان -كما قلنا- ليعرف مدى ذكائها وفراستها إذا سئلت عن هذا العرش الذي تراه: أهو عرشها، بعد هذا التغيير الذي حصل فيه، أم هو غيره؟.

٦٩٨- بلقيس تنجح في الاختبار:

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾[1415] والمعنى: أنها لما جاءت بلقيس، ووصلت إلى سليمان؛ عرض عليها عرشهاوقد غُيّر ونكّر، وزيد فيه ونقص منه، وقيل لها: ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾؟ فلم تقل: إنه هو؛ لعلمها أنها تركته في بلدها، وهو بعيد عن سليمان، وتركت عليه حراسها، فكيف جيء به!! ومن جاء به على بُعد المسافة وشدة الحراسة عليه؟!، ولم تقل: إنه غيره؛ لِما رأت من صفاته وعلاماته، وإن غُيّر ونُكّر، فهداها عقلها إلى جواب ذكي أريب فقالت: ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾، فلم تنفِ ولم تثبت، فدّل ذلك على فراستها وذكائها، وبديهةٍ في مواجهة تلك المفاجأة العجيبة: مفاجأة أن ترى عرشها أمامها قبل قدومها، فعلم سليمان كمال عقلها. وهكذا نجحت بلقيس في اختبار عقلها، ومدى ذكائها[1416].

وقوله تعالى: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ قيل: هو من قول بلقيس، أي: أُوتينا العلم بصحة نبوة سليمان من قبل معجزة الإتيان بالعرش، وكنا مسلمين: أي منقادين لأمره. وقيل: هو من قول سليمان عليه ا لسلام: أي أُوتينا العلم بقدرة الله على ما يشاء من قبل هذه المرة، وكنا مسلمين لله تعالى[1417].

وقوله تعالى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾[1418] أي:

(١٤١٤) سورة النمل الآية ٤١.
(١٤١٥) سورة النمل، الآية ٤٢.
(١٤١٦) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٦٤-٣٦٥، تفسير سيد قطب ج٥ ص٢٦٤٢.
(١٤١٧) تفسير القرطبي ج١٣ ص٢٠٨.
(١٤١٨) سورة النمل الآية ٤٣.

مَنَعها من أن تعبد الله وحده ما كانت تعبد من الشمس والقمر، ونشوؤها بين ظهراني الكفرة: وهم قومها الذين كانوا يعبدون الشمس والقمر من دون الله تعالى[1419].

٦٩٩- إسلام بلقيس:

قال تعالى: ﴿ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1420] وجاء في تفسير هذه الآية: أن سليمان عليه السلام أمر ببناء قصر عظيم من قوارير، أي: من زجاج، وأجرى تحته الماء، فالذي لا يعرف أمره -أي: لا يعرف أن القصر بُني من زجاج- يحسب أنه ماء، ولكن الزجاج يحول بين الماشي وبينه. ووضع سليمان سريره في صدره وجلس عليه.

وإنما بنى سليمان عليه السلام القصر بهذه الكيفية، وأجرى الماء تحته، ليُريها ما خصّه الله به من العجائب والخوارق، ليزيدها استعظاماً لأمره وتحقيقاً لنبوته وثباتاً على الدين[1421].

فلما رأته بلقيس حسبته لجّةً، أي: ماءً عظيماً، وكشفت عن ساقيها لا تشك أنه ماء تخوضه، فقال لها سليمان: إنه صرح مُملّس من زجاج، فلما وقفت على سليمان عليه السلام دعاها إلى عبادة الله وحده، وعاتبها على عبادتها الشمس من دون الله، فأسلمت وقالت: ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ أي: بكفرها السابق، وعبادتها وقومها الشمس من دون الله، ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وهكذا أقرّت بظلمها لنفسها فيما سلف من عبادة غير الله، وأعلنت إسلامها مع سليمان، لا لسليمان ولكن لله رب العالمين، فهي تتابعه في دينه وفي عبادته لله وحده لا شريك له، وهذا مظهر إسلامها لله رب العالمين، فهوإسلام لله، وليس استسلاماً لأحد من خلقه[1422].

(١٤١٩) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٦٥، تفسير الزمخشري ج٣ ص٣٦٩.

(١٤٢٠) سورة النمل الآية ٤٤.

(١٤٢١) تفسيرالزمخشري ج٣ ص٣٧٠.

(١٤٢٢) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٦٥، تفسير الزمخشري ج٣ ص٣٧٠، تفسير القاسمي ج١٣ ص٧٠، تفسير سيد قطب ج٥ ص٢٦٤٣.

٧٠٠- ما نستفيده من فعل سليمان:

لقد سخر الله تعالى لنبيه سليمان من القُوى ومن الجن والإنس والطير ما يجعل ما أُوتيه معجزة له، وبرهاناً على نبوته، وقد استعان سليمان عليه السلام بذلك في مجال الدعوة إلى الله، فأتى بعرش بلقيس[١٤٢٣] قبل أن تقدم إليه، فرأته مستقراً وقائماً عند سليمان قبل أن تصل هي إليه، وبنى لها قصراً من قوارير يجري من تحته الماء مما جعلها تتيقن أن هذا الذي تراه لا يفعله مَلِك من ملوك الدنيا، وإنما هو معجزة وبرهان ودليل على نبوة سليمان، وهذا ما أراد سليمان أن تعرفه وتصل إليه، وقد عرفته فعلاً، فأعلنت إسلامها لله رب العالمين، وإيمانها بنبوة سليمان عليه السلام.

ووجه العبرة بما فعله سليمان، وما نستفيده من فعله هذا: أن على الدعاة أن يتوسلوا بكل الوسائل الممكنة لهم، والتي من شأنها أن تحمل الآخرين أو تساعدهم على الإيمان بما يدعوهم إليه الدعاة. وحيث أن الدعاة لا يملكون معجزات الأنبياء؛ فإن الممكن لهم أن يجعلوا سلوكهم الحسن، وخلقهم الرفيع، وثباتهم على الدعوة ومقتضياتها من الوسائل الجيدة التي يستدل بها المدعوون على صدق الدعاة، وأحقية ما يدعون إليه.

٧٠١- ما نستفيده من أقوال بلقيس في حضرة سليمان:

لما عرض عرش بلقيس عليها وسئلت: ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾ لم تجزم بنفيٍ ولا إثبات؛ لتردد الأمر بينهما، فقالت في جوابها قولاً دقيقاً يعصمها من الكذب، ومن القول الجزاف بغير علم، فقالت: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾، وهكذا ينبغي للدعاة: أن يكونوا في أجوبتهم وأقوالهم دقيقين، لا يتكلمون بغير علم ولا يقين، وإذا اشتبه عليهم الأمر لاختلاف القرائن والعلامات؛ قالوا: قولاً يلاحظون فيه مختلف هذه القرائن والعلامات، ليكون لقولهم قيمة واعتبار عند السامعين.

وبلقيس لما رأت آية العرش، وآية الصرح الممرّد والذي يجري تحته الماء، واقتنعت بأن هذا الذي تراه ليس من قدرة إنسان عادي، وإنما هو من معجزات نبي،

(١٤٢٣) انظر الفقرة ٦٩٥.

أعلنت إسلامها وإيمانها بكل صدق، وهكذا ينبغي للدعاة أن يُعلِّموا الناس: يعلِّمونهم الشجاعة على إعلان ما آمنوا ويؤمنون به، والاعتراف بسوء وبطلان ما كانوا عليه؛ لأن من كانت معصيته علانية فلا بدّ لصدق توبته من إعلانها، وإعلان البراءة من سالف معصيته، حتى يعلم الناس بتوبته ورجوعه عما سلف منه: من ظلم لنفسه بانحرافه عن مقتضيات عبوديته لله رب العالمين.

ويشتد لزوم الإعلان عن التوبة والاعتراف بالذنب السابق؛ إذا كان التائب متبوعاً في قومه فيما كان متلبساً به من معصية، أو داعياً إلى فكرة باطلة، أو عبادةٍ لغير الله.

الفصل الرابع عشر

قصة أيوب عليه السلام

المبحث الأول

خلاصة القصة وتفسير آياتها

٧٠٢- أيوب النبي المبتلي:

أيوب هو نبي من بني إسرائيل، من ذرية يعقوب عليه السلام، وهو النبي المبتلى بجسده وماله وأهله[١٤٢٤] فقد ابتلاه الله بذهاب ولده وماله، وبالمرض في جسده حتى لم يبق من جسده مغرز إبرة سليماً.

وكان من شدة ما ابتلى به في بدنه: أن تخلى عنه القريب والبعيد، سوى زوجته الوفية التي حفظت ودَّه لإيمانها بالله وبرسوله، فلازمته ولم تفارقه، وقامت على خدمته بلا ضجر ولا ملل مدة مرضه، التي امتدت إلى ثماني عشرة سنة[١٤٢٥].

٧٠٣- سبب ابتلاء أيوب:

لم يذكر الله تعالى في كتابه العزيز سبب ابتلائه، ومع هذا ذكر المفسرون أسباباً لابتلائه، فالزمخشري يقول بصيغة التصنيف: إنه ذُكِرَ في سبب بلائه: أن رجلاً استغاثه على ظالم فلم يغثه. وقيل: كانت مواشي أيوب في ناحية حاكم كافر، فداهنه أيوب ولم يغزه. وقيل: أُعجِب أيوب بكثرة ماله[١٤٢٦].

والإمام ابن عطية يقول في تفسيره: رُوِيَ أنَّ السبب الذي امتحنه الله تعالى من أجله: أنه دخل على بعض الملوك، فرأى منكراً فلم يغيره. وروي: أن السبب: أنه

(١٤٢٤) تفسير ابن عطية ج١٢ ص٤٦٤.

(١٤٢٥) تفسير ابن كثير ج٤ ص٣٩.

(١٤٢٦) تفسير الزمخشري ج٤ ص٩٧.

ذبح شاة وطبخها وأُكِلتْ عنده وجاره جائعٌ لم يعطه منها شيئاً[1427].

وروي أنه دخل مع قومه على جبار عظيم فخاطبوه في أمر فجعل أيوب يلين له في القول من أجل زرع له، فامتحنه الله بذهاب أهله وماله وبالضر في جسمه[1428].

٧٠٤- سبب الابتلاء مجهول:

والحق: أنه لا وثوق بشيء مما ذكره المفسرون أسباباً لابتلاء أيوب، لعدم ورودها في كتاب الله العزيز، وعدم ثبوتها عن النبي ﷺ. والغالب فيها أنها من الإسرائيليات، أو من مخترعات القصّاصين.

والظاهر أن المفسرين الذين ذكروها لم يصدقوها ؛ لأنهم ذكروها بصيغة التضعيف، فقالوا في ذكرها: ذُكِرَ، قيل، رُوي. وإذا كان الأمر كما ذكرتُ فلِمَ ذكرها المفسرون؟ والجواب -على ما يبدو لي-: أنهم لم يروا بأساً بذكرها، لأنها لا تتعلق بالحلال وبالحرام؛ ولأنها تحتمل الصدق والكذب. ومع هذا فالصواب عدم ذكر شيء منها على أساس أنها أسباب لابتلاء أيوب، ولو كان في ذكرها مصلحة أو يتوقف عليها معرفةُ وفهم ما أُريد من حكاية قصة أيوب؛ لأخبرنا اللهُ بأسباب ابتلائه.

٧٠٥- ابتلاء الله لعبده:

ويجب أَنْ يُعرفَ بوضوح بأن ابتلاء الله تعالى لعبده قد يكون لسبب من العبد، وقد يكون بسبب من غيره، وقد يكون امتحاناً من الله لعبده لزيادة ثوابه، أو لإظهاره مدى إيمانه، أو لحكمة نجهلها، فإن الله جلّ جلاله ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾، ولكن لا يفعل إلا لحكمة، ولا يمكن أن نُحيط بحكمته علماً، ولا يظلم ربك أحداً.

٧٠٦- أشد الناس بلاءً الأنبياء:

ويجب أن يُعرفَ جيداً بأن مؤاخذة الله لعبده تزداد شدة ودقة كلما ازدادت منزلته من ربه قرباً ورفقة، ولهذا قد يؤاخذ على ما لا يؤاخذ عليه غيره، فيكون ابتلاؤه أشد من غيره.

(١٤٢٧) تفسير ابن عطية ج١٢ ص٤٦٥.

(١٤٢٨) تفسير القرطبي ج١١ ص٣٢٣.

وقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ : «أشد الناس بلاءً الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل»، وفي حديث آخر: «يُبتلى الرجل على قدر دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه».

وقد كان أيوب عليه السلام غاية في الصبر، وبه يضرب المثل في ذلك[١٤٢٩]. فإذا ابتلاه الله بما ابتلاه به فذلك لعلو منزلته، وقربه من الله، وصلابته في دينه، فابتلاه الله على قدر دينه ليزيد من حسناته وقربه منه.

وإن كان صدر منه ما يستوجب المؤاخذة، فهي مؤاخذة تتناسب مع قدره ومنزلته، وقد قلت: إن مؤاخذة الله لعبده على أفعاله تتناسب مع منزلته، فكلما كانت منزلته عالية، كانت مؤاخذته شديدة ودقيقة، فيكون ابتلاؤه شديداً.

٧٠٧- أيوب يدعو ربه:

قال تعالى: ﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾[١٤٣٠]. أي: واذكر أيوب إذ نادى ربَّه: ﴿ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ ﴾ أي: نالني في بدني ضُرٌّ، وفي مالي وأهلي[١٤٣١].

٧٠٨- أدب أيوب في الدعاء:

وبعد طول أمد البلاء، وصبرِ أيوب عليه توجه إلى ربه، فألطف في دعائه فقال: ربي «إني مسني الضر»، فذكر حاله بما يستدعي الرحمة به، وذكر ربه بغاية الرحمة، طامعاً أن تصيبه وتناله، فقال: ﴿ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾، ولم يصرح أيوب عليه السلام بمطلوبه، وهو كشف الضرّ عنه[١٤٣٢].

٧٠٩- الضرّ الذي طلب أيوب رفعه:

قال الإمام القرطبي: «وقد اختلف في الضرّ الذي دعا أيوب ربَّه أن يكشفه عنه على خمسة عشر قولاً...» والظاهر لي أن لا داعي لهذا الاختلاف، فالظاهر: أنَّ

(١٤٢٩) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٨٨.
(١٤٣٠) سورة الأنبياء، الآية ٨٣.
(١٤٣١) تفسير القرطبي ج١١ ص٣٢٣.
(١٤٣٢) تفسير الزمخشري ج٣ ص١٣٠.

الضرَّ الذي دعا أيوب ربه أن يزيله عنه هو ما أصاب بدنه من مرض هجره الناس من أجله، قال فيه ابن كثير: «. . .ثم ابتلي في جسده، يقال: بالجذام في سائر بدنه، ولم يبق منه سليم سوى قلبه ولسان يذكر به الله عز وجل حتى عافه الجليس، وأُفرِدَ في ناحية من البلد، ولم يبق أحد من الناس يحنو عليه سوى زوجته»[(١٤٣٣)].

٧١٠- ما يدخل في الضر الذي طلب رفعه:

ومع هذا يمكن القول بأن هناك ضراً آخر أصاب أيوب عليه السلام من جراء مرضه في بدنه، فدعا ربه أن يكشف عنه الضر الذي أصابه في بدنه، ليزول معه الضرُّ الذي تولّد عنه، وهذا الضر هو -على ما قاله البعض-:

كان لأيوب صاحبان، فأتياه ووقفا على بُعدٍ منه لا يقدران أن يدنوا منه من نتن ريحه، فقال أحدهما: لو علم الله في أيوب خيراً ما ابتلاه بهذا البلاء. فلم يسمع أيوب شيئاً أشد عليه من هذه الكلمة، فعندذلك قال: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾[(١٤٣٤)] وإنما كان ما سمعه شديداً أو أشدَّ ما سمعه؛ لأنه خاف على قومه أن يقع في نفوسهم هذا القول الذي سمعه، وهذا ما أشار إليه الزمخشري حيث قال: «على أن أيوب كان يطلب الشفاء خيفة على قومه من الفتنة، حيث كان الشيطان يوسوس إليهم كما كان يوسوس إليه: أنه لو كان نبياً لما ابتُلي بمثل ما ابتلى به»[(١٤٣٥)].

٧١١- كشف الضرّ عن أيوب:

قــال تعالــى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾[(١٤٣٦)]. واستجابةً لدعاء أيوب قال له ربه: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾[(١٤٣٧)] أي: اضرب برجلك الأرض، فضربها فنبعت عين ماء، فقيل لـه: ﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ أي: هذا ماء تغتسل به وتشرب منه، فيبرأ باطنك وظاهرك. وقيل: نبعت له عينان، فاغتسل من إحداهما، وشرب من الأخرى،

(١٤٣٣) تفسير ابن كثير ج٣ ص١١٨.
(١٤٣٤) تفسير القرطبي ج١١ ص٣٢٤.
(١٤٣٥) تفسير الزمخشري ج٤ ص٩٨.
(١٤٣٦) سورة الأنبياء، الآية ٨٤.
(١٤٣٧) سورة ص الآية ٤٢.

فذهب الداء من ظاهره وباطنه بإذن الله تعالى[1438] .

٧١٢- الإنعام على أيوب:

ومع كشف الضر عن أيوب بشفائه من مرضه، أنعم الله عليه بما ذكره تعالى بقوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ وعن ابن عباس: كان بنوه قد ماتوا فأحياهم الله له، ووُلد له مثلهم معهم، وكذلك قال عبدالله بن مسعود.

وعن مجاهد وعكرمة في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ﴾ أي: في الآخرة ﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ أي: في الدنيا بأن ولدت له زوجته أولاداً بعدد من ماتوا[1439] .

٧١٣- ما فعله الله بأيوب رحمةً به وذكرى لغيره:

بيَّن الله تعالى أنَّ ما فعله بأيوب من كشف الضر عنه، وردِّ أهله له، وإيتائه مثلهم معهم؛ إنما فعل ذلك: ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ بأيوب ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ أي: تذكيراً لغيره من العابدين، ليصبروا كما صبر، وليتأسوا به في الصبر، حتى يثابوا كما أُثيبَ في الدنيا والآخرة، لأنهم إذا ذكروا بلاء أيوب وصبره عليه، وطول محنته فيه، وهو أفضل زمانه؛ وطَّنوا أنفسهم على الصبر على شدائد الدنيا، فينالوا ثواب الله كما ناله أيوب عليه السلام[1440] .

وقال تعالى في سورة (ص) في تعليل ما فعله بأيوب: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: أنَّ ما فعله الله بأيوب هو رحمة منه به لصبره: ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ أي: موعظة وتذكرة يعتبر بها أصحاب العقول، ويتأسون بصبره في الشدائد، ولا ييأسون من رحمة الله. وأيضاً فإن أصحاب العقول إذا علموا بما أنعم الله على أيوب لصبره؛ رغّبهم ذلك في الصبر على البلاء، ورغّبهم في عاقبة الصابرين، وما يفعله الله بهم من خير وإنعام[1441] .

(١٤٣٨) تفسير الزمخشري ج٤ ص٩٧، تفسير ابن كثير ج٤ ص٣٩، ابن عطية ج١٢ ص١٦٨ .

(١٤٣٩) تفسير القرطبي ج١١ ص٣٢٦.

(١٤٤٠) تفسير القرطبي ج١١ ص٣٢٧.

(١٤٤١) تفسير ابن عطية ج١ ص٤٦٨، تفسير الزمخشري ج٤ ص٩٨.

٧١٤- الشكوى إلى الله لا تنافي الصبر:

أثنى اللهُ تعالى على عبده أيوب ومدحه بقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾(١٤٤٢). والأواب: هو التواب الرجّاع إلى الله المنيب إليه.

ولا يقال: كيف يكون صابراً وقد شكا إلى الله تعالى ما به من ضرّ، لا يقال هذا؛ لأن الشكوى إلى الله تعالى لا تُعتبر جزعاً، ولا تُخرج صاحبها من صفة الصبر، ولقد قال يعقوب عليه السلام: ﴿أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾(١٤٤٣) على أن قول أيوب عليه السلام: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ دعاء لا شكوى؛ لأن الله تعالى استجاب له، والإجابة تعقب الدعاء لا الشكاية(١٤٤٤).

(١٤٤٢) تفسير سورة (ص) الآية ٤٤.

(١٤٤٣) تفسير الزمخشري ج٤ ص٩٨.

(١٤٤٤) تفسير القرطبي ج١١ ص٣٢٦.

المبحث الثاني
ما يستفاد من قصة أيوب للدعوة والدعاة

٧١٥- إجمال ما يستفاد من قصة أيوب:

يستفاد من قصة أيوب وما ابتلاه الله به: أن الابتلاء بالمؤذيات والشدائد لا يعني هَوَانَ المُبتلَى على الله. وأَنَّ الله تعالى يبتلي عباده بما يشاء. وأَنَّ المصائب تُقابَل بالصبر. وأنَّ الابتلاء فتنة للمُبتلَى ولغيره، وأنَّ الشكوى إلى الله مشروعة، والشكوى إلى غيره ممنوعة. ونتكلم فيما يلي بإيجاز عن هذه الأمور المستفادة من قصة أيوب للدعوة والدعاة.

٧١٦- أولاً- الابتلاء لا يعني هَوَانَ المُبتلَى على ربه:

على الدعاة أن يفقهوا جيداً بأن الابتلاء بالضراء والشدائد لا يعني هَوَانَ المُبتلَى على ربه. فهذا أيوب عليه السلام نبي كريم وقد ابتلاه الله تعالى بماله وولده وبالمرض ببدنه، لأن الله سبحانه وتعالى يمتحن عباده بالضراء كما يمتحنهم بالسراء. قال تعالى: ﴿.. وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ أي: نختبركم بما يجب فيه الصبر من البلايا والشدائد والمصائب، كما نختبركم بما يجب فيه الشكر من النعم -كالصحة والغنى والرخاء-، وإلينا تُرجَعون فنجازيكم على حسب ما يوجد منكم من الصبر أو الشكر(١٤٤٥).

ومن حكمة البلاء: نوال الحسنات وتكفير السيئات، فقد جاء في حديث أخرجه الإمام البخاري: «.. ما من مسلم يصيبه أذى حتى شوكة فما فوقها إلا كفرّ الله بها سيئاته، كما تحط الشجرة ورقها»(١٤٤٦). فعلى الدعاة أن يفهِّموا الناس ما ذكرناه؛ لأنه بعض معاني الإسلام الذي هو موضوع دعوتهم، وأن يفقهوا هم أنفسهم: أن ما

(١٤٤٥) تفسير الزمخشري ج٣ ص١١٦، تفسير ابن كثير ج٣ ص١٧٨، تفسير القرطبي ج١١ ص٣٨٧، تفسير الألوسي ج١٧ ص٤٧.

(١٤٤٦) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج١٠ ص١١١.

يصيبهم من مصائب أو أذى في سبيل الدعوة إلى الله لا يعني هَوَانَهم على الله تعالى، وإنما هو ضريبة يدفعها الدعاة في كل زمان. وقد يكون ما يصيبهم من مصائب سبباً لنيل الحسنات ومحو السيئات. وقد يكون ما يصيبهم -أي الدعاة- من مصائب تحذيراً لهم عن تقصيرهم في مراعاة سنن الله في التدافع بين أهل الحق وأهل الباطل. وقد يكون سبب ما يصيبهم ما يصدر عنهم من أفعال لا يقيمون لها وزناً، وهي في ميزان الشرع من المعاصي، وقد قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾[١٤٤٧].

٧١٧- ثانياً -الله يبتلي عباده بما يشاء:

وعلى الدعاة أن يفهموا ويفقهوا ويفقِّهوا غيرهم بأنَّ الله تعالى وحده هو الذي يبتلي عباده، أي: يمتحنهم بما يشاء، وكيف يشاء، ومتى يشاء. ولا يحق للعبد أن يعترض على الله بشأن ما يمتحنه به، وبشأن ما يتعلق بهذا الامتحان؛ لأنَّ هذا الاعتراض يندرج في معاني الردة عن الإسلام، نعوذ بالله من الخذلان. وإنما للمسلم وللدعاة أنْ يسألوا الله اللطف والتخفيف في الامتحان ومفرداته.

٧١٨- ثالثاً -مقابلة المصائب بالصبر مع مُدافعة لها:

قد يصيب الناس -والدعاة معهم- شيء من المصائب، فعلى الدعاة تذكير أنفسهم وعموم الناس بلزوم الصبر، متأسين بأيوب عليه السلام في صبره، على ما حلّ فيه من مصيبة المرض، وأن يتذكر الدعاة ويذكِّروا الناس بقوله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾[١٤٤٨] والمعنى: لنصيبنَّكم بذلك إصابة تشبه فعل المختبر لأحوالكم: هل تصبرون وتثبتون على ما أنتم عليه من الطاعة، وتسلِّمون لأمر الله وحكمه أم لا؟[١٤٤٩] والمقصود بنقص الأنفس: إصابتها بالأمراض، على ما قاله الإمام الشافعي. فالبشارة بهذه الآية لمن يصبر في هذه الشدائد، ومنها الإصابة

(١٤٤٧) سورة الشورى، الآية ٣٠.

(١٤٤٨) سورة البقرة الآيات ١٥٥-١٥٧.

(١٤٤٩) تفسير الزمخشري ج١ ص٢٠٧.

بالأمراض. وهؤلاء الصابرون من شأنهم أنهم إذا أصابتهم مصيبة استرجعوا أي: قالوا: إنا لله وإنا إليه راجعون.

والمصيبة: هي النكبة ينكبها الإنسان وإن صغرت، أو هي كل ما يؤذي المؤمن ويصيبه، فقد روى عكرمةُ أن مصباح رسول الله ﷺ انطفأ ذات ليلة، فقال: «إنا لله وإنا إليه راجعون». فقيل: أمصيبة هي يا رسول الله؟ قال: «نعم كل ما آذى المسسلم فهو مصيبة»[١٤٥٠].

٧١٩- ما يصيب الدعاة من المصائب:

وقد يصيب الدعاة دون غيرهم مصائب في أنفسهم أو أموالهم، أو في ذويهم، بسبب قيامهم بالدعوة. ويكون ذلك إذا قام أعداء الدعوة -وهو الغالب فيهم- بالكيد للدعاة، كأن يحبسوهم بتلفيق التهم عليهم، ومع الحبس التعذيب الذي يترك فيهم العاهات والعلل المزمنة، أو يسعون إلى مصادرة أموالهم، أو يسعون لقتل ذويهم مبالغةً في إيذاء الدعاة، أو حملهم على الاعترافات الكاذبة. فعلى الدعاة: أن يقابلوا هذه المصائب بالصبر الجميل، وأن يتذكروا بشارة الله للصابرين، ويتذكروا ما آل إليه صبر أيوب من الفرج، وردِّ الأهل، وثناءِ الله عليه مع الثواب العظيم.

٧٢٠- مُدافعة المصائب:

ومع الصبر على المصائب يجوز للمصاب من الدعاة وغيرهم العمل على رفع هذه المصائب، أو تقليل ضررها وأثرها، ولا يناقض ذلك الصبر الجميل المطلوب من المسلم المصاب.

فالمرض يدُفَع بالوقاية منه، وبعلاجه بعد وقوعه، والشرع لا يمنع من ذلك، فقد روى الإمام البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «... وفرَّ من المجذوم فرارَك من الأسد»[١٤٥١] وهذا صريح في مشروعية الحمية من المرض.

وأما مشروعية العلاج فدليله قوله تعالى عن العسل: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾، قال الإمام القرطبي: (في قوله تعالى: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾

(١٤٥٠) تفسير القرطبي ج٢ ص١٥٧-١٧٦.

(١٤٥١) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج١٠ ص١٥٨.

دليل على جواز التعالج بشرب الدواء وغير ذلك)[1452] وفي صحيح مسلم: «لكل داء دواء، فإذا أُصيب دواء الداء برأ بإذن الله عز وجل»[1453]. وفي سنن أبي داود: أن بعض الأعراب قالوا: يا رسول الله أنتداوى؟ فقال ﷺ: «تداووا فإن الله تعالى لم يضع داءً إلا وضع له دواءً، غير داء واحد: الهرم»[1454].

ومن الأدوية: الرقى، وهي: ما يُقرَأ من الدعاء لطلب الشفاء للمريض من مرضه[1455]، فالرقى أدعية، والدعاء مشروع لدفع المرض أو رفعه. وقد دعا أيوب عليه السلام ربَّه بقوله: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾. وروت عائشة رضي الله عنها أنَّ النبي ﷺ كان يُعوِّذُ بعضَ أهله: يمسح بيده اليمنى ويقول: «اللهم ربَّ الناس، أذهب البأس، واشفه وأنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاءً لا يغادر سقماً»[1456].

وكما يجوز دفع المرض ورفعه بعد وقوعه، يجوز دفع المؤذيات قبل وقوعها باتخاذ الوسائل المشروعة لمنع وقوعها، أو لرفعها بعد وقوعها.

فعلى الدعاة أن يفقهوا ذلك: يصبرون عند المصائب، ومع صبرهم اتخاذ الوسائل المشروعة لرفع هذه المصائب، سواء كانت مصائب المرض أو غيره، كما عليهم أن يأخذوا بالوسائل المشروعة لمنع وقوع المصائب -مصائب المرض أو غيره.

٧٢١- رابعاً - الشكوى إلى الله مشروعة ولغيره ممنوعة:

الشكوى إلى الله مشروعة لما تتضمنه من دعاء العبد ربه أن يكشفَ ضره، أو يستجيبَ دعاءه، أو يقضيَ حاجته، ولهذا حكى الله عن يعقوب أنه قال: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾. أما الشكوى لغير الله فممنوعة -كما بيّنا هذا من

(١٤٥٢) تفسير القرطبي ج١٠ ص١٣٨.

(١٤٥٣) صحيح مسلم بشرح النووي ج١٤ ص١٩١.

(١٤٥٤) عون المعبود، شرح سنن أبي داود ج١٠ ص٣٣٤-٣٣٥.

(١٤٥٥) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج١٠ ص١٩٥.

(١٤٥٦) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج١٠ ص٢٠٦.

قبل-[١٤٥٧]. ولهذا دعا أيوب عليه السلام ربه أن يكشف عنه ضره، وكان دعاؤه عليه السلام بأدب جمّ إذ اكتفى ببيان ما به من ضرّ، وإعلان إيمانه بربه الله جلّ جلاله بأنه هو أرحم الراحمين، وما يُشعر إعلانه هذا من رجائه وطمعه بأن تصيبه رحمته تعالى فينكشف عنه ضرّه.

فعلى الدعاة أن يلتجئوا دائماً إلى الله تعالى لرفع ما يحلّ بهم من ضرر بأبدانهم أو بأموالهم أو بأهليهم. وأن لا يشكو لأي مخلوق ما يصيبهم من محن وضرر، وإذا سُئِلوا عن حالهم قالوا: نحن بخير عميم، وفضل كبير من الله تعالى، فالنفع والضر بيد الله وحده، فهو الذي يكشف الضر عن عبده، لا ربّ سواه، قال تعالى: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[١٤٥٨].

(١٤٥٧) انظر الفقرة ٤٤١.

(١٤٥٨) سورة الأنعام، الآية ١٧.

الفصل الخامس عشر

قصة يونس عليه السلام

المبحث الأول

خلاصة القصة وتفسير آياتها

٧٢٢- التعريف بيونس وبمن أُرسِلَ إليهم:

هو يونس بن متَّى عليه السلام، وهو من رسل الله، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾[١٤٥٩] وقد بعثه الله تعالى إلى أهل قرية، قال المفسرون: إنها قرية نينوى من أرض الموصل، وإنَّ يونس عليه السلام دعا أهل هذه القرية إلى عبادة الله وحده، وتركِ عبادة ما سواه، فأبوا عليه وظلوا على كفرهم[١٤٦٠] وكان من خبرهم وخبر يونس ما نذكره في الفقرات التالية.

٧٢٣- إيمان قوم يونس قبل معاينتهم العذاب:

قال تعالى: ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾[١٤٦١]. أي: فهلا كانت قرية من القرى التي أهلكناها لكفرها وعدم إيمانها برسولها آمنت قبل معاينة العذاب، ولم تؤخِّر إيمانها إلى حين معاينته، كما فعل فرعون ﴿ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا ﴾ بأن يقبله الله منها، ويكشف عنها بسببه العذاب ﴿ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ ﴾ أي: لكن قوم يونس لمّا آمنوا قبل معاينة العذاب كشف الله العذاب الذي كان سينزل بهم لو لم يؤمنوا ﴿ وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ أي: إلى آجالهم[١٤٦٢].

(١٤٥٩) سورة الصافات، الآية ١٣٩.

(١٤٦٠) تفسيرابن كثير ج٣ ص١٩١.

(١٤٦١) سورة يونس الآية ٩٨.

(١٤٦٢) تفسير الزمخشري ج٢ ص٣٧١، تفسير القاسمي ج٩ ص٨٢.

ومعاينة العذاب التي لا تنفع التوبة معها هي تلبّس العذاب أو الموتِ بخص الإنسان، كما حدث لفرعون، وأما قوم يونس فلم يصلوا إلى هذا الحدّ[١٤٦٣] أي: أنهم آمنوا قبل وقوع العذاب بهم فعلاً، أو قبل معاينته. وروي: أنهم رأوا علاماته، ورؤية علاماته لا تعني معاينة العذاب أو وقوعه بهم فعلاً. إلا أن قوم يونس علموا بقرب وقوع العذاب بهم من خروج نبيهم من بينهم، الذي أنذرهم بالعذاب إن لم يؤمنوا[١٤٦٤].

٧٢٤- يونس يخرج مغاضباً لقومه قبل إيمانهم:

قال تعالى عن يونس: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[١٤٦٥] أي: اذكر ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ ﴾، وهو لقب ليونس عليه السلام لابتلاع النون إياه، والنون: الحوت، ﴿ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا ﴾ أي: خرج يونس مغاضباً لقومه من أجل ربه، بعد أن أنذرهم أن العذاب سينزل بهم في مدة حددها لهم لبقائهم على الكفر، فيونس عليه السلام غضب على قومه لكفرهم بربه، فكان ذنبه: خروجه من بينهم من غير إذن ربه، إذ كان عليه أن يُصابر، ويبقى بين قومه، وينتظر الإذن من الله تعالى بالخروج والمهاجرة عنهم.

ومعنى مغاضبته لقومه أنه أغضبهم بمفارقته لهم، لخوفهم حلول العذاب بهم عند مغادرته[١٤٦٦].

٧٢٥- معنى ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ ﴾:

قلنا: إن يونس عليه السلام خرج مغاضباً لقومه من غير إذن من ربه، وقد اختلف المفسرون في معنى قوله تعالى عن يونس: ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ ﴾: فذهب

(١٤٦٣) تفسير ابن عطية ج٧ ص٢٢٣.
(١٤٦٤) تفسير المنار ج١١ ص٤١٢.
(١٤٦٥) سورة الأنبياء الآية ٨٧.
(١٤٦٦) تفسير الزمخشري ج٣ ص١٣١، تفسير القرطبي ج١١ ص٣٢٩، ابن كثير ج٣ ص١٩٠.

جمهورهم إلى أن المراد بهذا القول: فظّن يونس أن لن يضيّق الله عليه في مغاضبته لقومه، وخروجه من بينهم قبل أن يأذن الله له بالخروج. وذهب آخرون إلى أن المراد هو: فظن يونس أن لا يقضي الله عليه بعقوبة، من جراء خروجه من بين قومه بدون إذن من ربه[١٤٦٧].

٧٢٦- يونس يُلقَى في البحر فيلتقمه الحوت:

قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾[١٤٦٨] ولما خرج يونس من قومه مغاضباً لهم، بعد أن أنذرهم نزول العذاب بهم. وقد سمى اللهُ تعالى خروجه وتباعده عن قومه من غير إذن ربه «أباقاً» على طريقة المجاز.

فذهب وركب في الفلك المشحون، أي: في السفينة المملوءةوقد أحسّ ركابها بثقلها، وخافوا أن يغرقوا، فاقترعوا على رجل يلقونه من بينهم، يتخففّون منه، فوقعت القرعة على يونس. قال تعالى: ﴿ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴾ أي: فقارع فكان من المُدحَضين، أي: من المغلوبين، حيث وقعت القرعة عليه. فتجرّد يونس من ثيابه، ثم ألقى بنفسه في البحر ﴿ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ أي: أرسل الله إليه حوتاً التقمه، وهو -أي: يونس- قد أتى بما يلام عليه[١٤٦٩].

٧٢٧- يونس يدعو ربه وهو في بطن الحوت:

قال تعالى عن يونس: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾[١٤٧٠]. بعد أن وقعت القرعة على يونس وألقى بنفسه في البحر والتقمه الحوت، وأخذ يسير به، وهو في بطنه يذكر الله ويسبحه دعا ربه وهو في ثلاث ظلمات: ظلمة بطن الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل[١٤٧١].

(١٤٦٧) تفسير الزمخشري ج٣ ص١٣٢، تفسير القرطبي ج١١ ص٣٣١.

(١٤٦٨) سورة الصافات الآيات ١٣٩-١٤٢.

(١٤٦٩) تفسير القرطبي ج١٥ ص١٢٣، تفسير ابن كثير ج٣ ص٩٩ و ج٤ ص٢٠.

(١٤٧٠) سورة الأنبياء الآية ٨٧.

(١٤٧١) تفسير القرطبي ج١١ ص٣٣٣، تفسير ابن كثير ج٣ ص٩٢.

وكان دعاؤه عليه السلام بتقديم إقراره واعترافه وإيمانه أن لا إله إلا الله، ثم أعقب ذلك بتسبيح الله تعالى، وتنزيهه عن كل ما لا يليق به، فقال: ﴿سُبْحَـٰنَكَ﴾ ثم أقرَّ بأن ما فعله -وهو خروجه من بين قومه قبل أن يأذن الله له بالخروج -هذا الفعل منه- اعتبره ظلماً.

ويبين الإمام ابن حزم: الوجه في اعتبار يونس نفسه من الظالمين بقوله: «إن الأنبياء عليهم السلام يؤاخَذون في الدنيا على ما فعلوه، مما يظنونه خيراً وقربة إلى الله عز وجل، إذا لم يوافق ما فعلوه مراد الله، وعلى هذا الوجه أقرَّ يونس على نفسه بأنه كان من الظالمين؛ لأن الظلم: وضع الشيء في غير موضعه، فلما كان يونس وضع المغاضبة لقومه في غير موضعها، وما تضمنته هذه المغاضبة من خروجه من بينهم قبل أن يأذن الله له بالخروج، اعترف عليه السلام بأن ما فعله ظلم، لا على أنه قصده وهو يدري أنه ظلم، فدعا ربه أن يغفر له ذلك»[١٤٧٢].

٧٢٨- استجابة الله لدعاء يونس:

قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ . . .﴾[١٤٧٣] أي: فاستجبنا له دعاءه ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ أي: أخرجناه من بطن الحوت وتلك الظلمات، بأن قذفه الحوت إلى الساحل[١٤٧٤].

وقال بعضهم في مضمون استجابة دعاء يونس وما تلاها: بأنه لما خرج يونس من بين قومه مغاضباً لهم، من غير أمر ولا إذن من الله تعالى، كان ذلك ذنباً كما أشار إليه بقوله: ﴿إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾، فما أومأ إليه هو الدعاء بعدم مؤاخذته بما صدر منه. فالاستجابة عبارة عن قبول توبة يونس، وعدم مؤاخذته، وما حصل ليونس بعد هذه الاستجابة من إلقاء الحوت له بالساحل، وما أعقب هذا الإلقاء؛ هذا كله زيادة إحسان من الله على مطلوبه عليه السلام[١٤٧٥].

(١٤٧٢) تفسير القاسمي ج١١ ص٢٨٦.

(١٤٧٣) سورة الأنبياء الآية ٨٨.

(١٤٧٤) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٩٢.

(١٤٧٥) تفسير القاسمي ج١١ ص٢٨٨.

٧٢٩- وكذلك ننجي المؤمنين:

قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[١٤٧٦] وهذه الآية تبين لنا سنة من سنن الله تعالى، وهي أنه تعالى كما نجّى يونس عليه السلام من الغم الذي كان فيه، فإنه تعالى ينجي المؤمنين، بما يشاء وكيف يشاء: ينجيهم من الكرب والهم والغم والضيق والشدائد التي تحل بهم؛ ما داموا متصفين بصفات المؤمنين، ومتحققة فيهم معاني الإيمان، التي بها يستحقون اسم المؤمنين. فشرط تولي الله نجاتهم من كل غم وكرب: أن يكونوا مؤمنين.

فإذا تحقق فيهم شرط الإيمان؛ تحقق لهم ما وعد الله به المؤمنين، وهو نجاتهم من الشدائد.

قال الإمام ابن كثير في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: إذا كانوا في الشدائد ودَعَوْنا منيبين إلينا، ولا سيما إذا دعوا بهذا الدعاء في حال البلاء. فقد جاء في حديث أخرجه الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ: «دعوة ذي النون إذ هو في بطن الحوت: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فإنه لم يدع بها مسلم ربّه في شيء قط إلا استجاب له»، ورواه أيضاً الترمذي والنسائي[١٤٧٧].

٧٣٠- العمل الصالح من دواعي تفريج الكربات:

قال تعالى عن يونس: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[١٤٧٨] قيل: لولا ما تقدم له من العمل الصالح في الرخاء ﴿لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي: لكان بطن الحوت قبراً له إلى يوم القيامة. وقيل: المراد بـ ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ وهو قول يونس عليه السلام في بطن الحوت: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وقال بعض أهل العلم: ﴿مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ أي: من الذاكرين الله كثيراً بالتسبيح والتقديس. وقيل: ﴿مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ أي: من المصلّين، وعن قتادة: كان يونس

(١٤٧٦) سورة الأنبياء الآية ٨٨.

(١٤٧٧) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٩٢-١٩٣.

(١٤٧٨) سورة الصافات الآيتان ١٤٢، ١٤٣.

عليه السلام كثير الصلاة في الرخاء، قال: وكان يقال: العمل الصالح يرفع صاحبه إذا عثر، وإذا صُرِعَ وجد متكئاً[(١٤٧٩)].

وهذا كله ترغيب من الله في إكثار المؤمن من ذكره تعالى بما هو أهله، وإقباله على عبادته وعلى كل عمل صالح، وهوما يحبه الله ويرضاه، لينفعه في الشدائد والضيق.

٧٣١- الحوت يقذف بيونس إلى الساحل:

قال تعالى عن يونس: ﴿فَنَبَذْنَـٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾[(١٤٨٠)] أي: حملنا الحوت على طرح يونس بالعراء، وهو الأرض الفيحاء التي ليس فيها نبت ولا بناء. ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ أي: ضعيف البنية، قال ابن مسعود رضي الله عنه: كهيئة الفرخ ليس عليه ريش. وقال السدِّيُّ: كهيئة الصبي حين يولد، ﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾ واليقطين: كل ما لا يقوم على ساق من عود، كالبقول والقرع والبطيخ ونحوه مما يموت عامَهُ. وعن ابن عباس: اليقطين: القرع خاصة. ومشهور اللغة أن اليقطين هو القرع. وقد أنبتها الله فوقه مظلّة له، وتمنع من وصول الذباب إليه؛ لأن الذباب لا يقربها[(١٤٨١)].

٧٣٢- بعثته إلى مئة ألف أو يزيدون:

وبعد أن شفي يونس وعادت إليه عافيته بما أنبت الله عليه من شجرة من يقطين، أرسله الله تعالى إلى قوم يبلغ عددهم مئة ألف أو يزيدون. قال تعالى ﴿وَأَرْسَلْنَـٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾[(١٤٨٢)]. أي: أرسله الله تعالى إلى القوم الذين أرسل إليهم قبل أن يلتقمه الحوت. وقال بعضهم أرسله الله إلى أُمة أخرى.

قال ابن كثير: (ولا مانع أن يكون الذين أُرسل إليهم أولاً أمره الله بالعود إليهم بعد خروجه من الحوت، فصدقوه وآمنوا به. وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ

(١٤٧٩) تفسير ابن كثير ج٤ ص٢١، تفسير الزمخشري ج٤ ص٦١-٦٢.

(١٤٨٠) سورة الصافات الآيتان ١٤٥، ١٤٦.

(١٤٨١) تفسير ابن عطية ج١٢ ص٤٠٠، تفسير ابن كثير ج٤ ص٢١-٢٢، والزمخشري ج٤ ص٦٢.

(١٤٨٢) سورة الصافات الآيتان: ١٤٧، ١٤٨.

﴿يَزِيدُونَ﴾ أي: في مرأى الناظر، أي إذا رآها الرائي قال: هي مئة ألف أو أكثر. فالغرض هو الوصف بالكثرة. ﴿فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾ أي: فآمن هؤلاء القوم الذين أُرسِلَ إليهم يونس جميعهم، فمتعناهم إلى حين، أي: إلى وقتِ آجالهم)[١٤٨٣].

(١٤٨٣) تفسير ابن كثير ج٤ ص٢٢، تفسير الزمخشري ج٤ ص٦٢، تفسير القاسمي ج٤ ص١٢٠.

المبحث الثاني
المستفاد من قصة يونس للدعوة والدعاة

٧٣٣- في قصة يونس فوائد كثيرة:

في قصة يونس عليه السلام عبر ودروس ومواعظ كثيرة للدعوة والدعاة، يمكن إجمالها -أو ذكر أهمها حسبما يبدو لي- بالأمور التالية، ثم أشرحها بإيجاز:

أولاً- ضرورة الصبر للدعاة بأنواعه المتعلقة بالدعوة.

ثانياً- عمل الدعاة محكوم بشرع الله.

ثالثاً- العمل الصالح رصيد نافع للدعاة.

رابعاً- من سنن الله أنه ينجي المؤمنين والدعاة منهم «نجاة الدعاة من الشدائد».

خامساً- المؤاخذة على قدر منزلة الداعي.

سادساً- على الداعي أن يسارع إلى التوبة إذا وقع في الخطيئة.

سابعاً- على الدعاة تفيهم المدعوّين بقبول توبة التائبين.

٧٣٤- أولاً: -ضرورة الصبر للدعاة المتعلق بالدعوة:

قال تعالى مخاطباً نبيه الكريم سيدنا محمداً ﷺ: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾[١٤٨٤]. ومضمون هذا الخطاب يشمل أتباعه ﷺ المسلمين الدعاة إلى الله، لسببين:

(الأول): الأصل في خطابات الله لرسوله ﷺ أنها تشمل أمته ﷺ إلا ما استثني، ولا استثناء هنا.

(الثاني): قوله تعالى مخاطباً نبيّه ﷺ: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا

(١٤٨٤) سورة (ن) الآية ٤٨.

﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[١٤٨٥] وأتباع النبي ﷺ هم المسلمون الدعاة، وهم مثل نبيهم يدعون إلى الله على بصيرة. ومن الدعوة على بصيرة أن تكون بالصبر الذي أمر الله به.

وبعد هذا نرجع إلى تفسير الآية: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ . . .﴾. قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ وهو إمهال قومك، وتأخير انتصارك عليهم، فلا يثنيك عن تبليغ ما أمرك الله به أذاهم وتكذيبهم، بل امض صابراً عليه[١٤٨٦]

وقال الإمام ابن كثير في قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾: «أي، فاصبر يا محمد على أذى قومك لك وتكذيبهم، فإن الله يحكم لك عليهم، ويجعل العاقبة لك ولأتباعك»[١٤٨٧].

وقوله تعالى مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ يعني: يونس عليه السلام حين ذهب مغاضباً على قومه، فكان من أمره ما كان ﴿إِذْ نَادَىٰ﴾ وهو في بطن الحوت، ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ أي: وهو مغموم[١٤٨٨]. والمعنى: لا يوجدْ منك يا محمد ما وُجد من يونس من الضجر والمغاضبة لقومه، فتبتلى ببلائه[١٤٨٩].

وفي «تفسير القرطبي» في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ أي: لا تكن مثل يونس في الغضب والضجر والعجلة. وقال قتادة: يأمر نبيه محمداً ﷺ بالصبر، وأن لا يعجل كما عجل صاحب الحوت يونس عليه السلام. وقال قتادة أيضاً: أي لا تعجل ولا تغاضب، فلا بد من نصرك[١٤٩٠].

فعلى الدعاة إلى الله تعالى أن يفقهوا: أنَّ من تكاليف الدعوة: أن يتحمل الدعاة إلى الله ما يلقونه من تكذيب وأذى، وأن لا يحملهم ذلك على الجزع والضجر وترك الدعوة والانصراف عن المدعوين، فما يلقونه هو بعض ضريبة الدعوة، يجب أن

(١٤٨٥) سورة يوسف الآية ١٠٠.

(١٤٨٦) تفسير القاسمي ج١٦ ص٢٦٨.

(١٤٨٧) تفسير ابن كثير ج٤ ص٤٠٨.

(١٤٨٨) تفسير ابن كثير ج٤ ص٤٠٨.

(١٤٨٩) تفسير الزمخشري ج٤ ص٥٩٦.

(١٤٩٠) تفسيرالقرطبي ج١٨ ص٢٥٣.

يتحملها الدعاة، فليسوا هم بأكثر إخلاصاً وقرباً وتأييداً من الله من رسله الكرام، ورسله كُذّبوا وأوذوا وصبروا على ذلك، واستمروا على تبليغ دعوتهم، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[1491] وقال تعالى مخاطباً نبينا محمداً ﷺ: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾[1492]. أي: اصبر على مخالفتهم وعنادهم، فإن الله تعالى منجز لك ما وعدك من نصره إياك عليهم، وجعله العاقبة لك ولمن اتبعك في الدنيا والآخرة[1493].

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ أي: ولا يحملنّك على الخفة والقلق والجزع ما يقولون ويفعلون، فإنهم قوم ضالون لا يُستبعد ذلك منهم[1494]، فاثبت على ما بعثك الله به، فادع إليه، فإنه الحق الذي لا مِرْية فيه، ولا تعدلْ عنه، فليس فيما سواه هدى يتبّع، بل الحق كله منحصر فيه[1495].

٧٣٥- من الصبر المطلوب من الدعاة:

ومن الصبر المطلوب من الدعاة: صبرهم على المدعوين انتظاراً لاستجابتهم للدعوة، مع الاستمرار على دعوتهم وتكريرها عليهم بلا كلل ولا ملل ولا ضجر ولا يأس من استجابتهم، وإن رأوا منهم إصراراً على التكذيب للدعوة والعداوة والإيذاء للدعاة... وأن لا يحملهم غضبهم على المعاندين على نفاد صبرهم عليهم، وتركهم وشأنهم، فإن هذا مما يُلام الدعاة عليه ويؤاخذون عليه.

ومما يُعين الدعاة على تفهم هذا الأمر ويقوي صبرهم عليه: أن يعلموا أن الناس ليسوا سواءً في الاستجابة للحق وقبول الدعوة، فمنهم السريع جداً في الاستجابة، حتى كأنه على موعد مع الدعوة يريد سماعها ليؤمن بها، ومن أمثلة هذا النوع من الناس: سحرة فرعون، جاؤوا ليبطلوا دعوة موسى، ولكن ما إن رأوا معجزته حتى

(١٤٩١) سورة الأنعام الآية ٣٤.

(١٤٩٢) سورة الروم الآية ٦٠.

(١٤٩٣) تفسير ابن كثير ج٣ ص٤٤٠.

(١٤٩٤) تفسيرالزمخشري ج٣ ص٤٨٨.

(١٤٩٥) تفسير ابن كثير ج٣ ص٤٤٠.

علموا أنَّ ما جاء به هو الحق، فأعلنوا إيمانهم به وهم في ساحة النزال، وبحضور فرعون وجنده، ولم يرعبهم تهديده بالقتل والصلب، وقوله لهم: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[١٤٩٦].

ومن هذا الصنف من الناس أيضاً: أبو بكر رضي الله عنه، فإنه لما سمع رسول الله ﷺ يدعو إلى الإسلام ويدعوه إلى الإسلام، آمن حالاً بلا تردد، ولذلك قال ﷺ: «ما دعوتُ أحداً إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كبوة ونظر وتردد، إلا ما كان من أبي بكر بن أبي قحافة، ما عكم -أي ما تلبث- حين ذكرته له، وما تردد فيه»[١٤٩٧].

ومن الأمثلة على الاستجابة البطيئة: ما قصَّه الله علينا من أخبار قوم نوح، فإنه لبث فيهم يدعوهم إلى الله ألف سنة إلا خمسين عاماً، ومع هذا لم يؤمن له إلا القليل كما جاء في القرآن الكريم. وخالد بن الوليد رضي اللهعنه تأخر إسلامه، بل حارب الدعوة والمسلمين قبل أن يسلم، وأبو سفيان ومن معه لم يُسلموا إلا قبيل فتح مكة، بعد عدواة شديدة، ومحاربة مستمرة للإسلام والمسلمين، دامت ما يقرب من عشرين سنة. فعلى الدعاة أن يصبروا على المدعوين، ولا ييأسوا من إسلامهم، وأن يظلوا يدعونهم.

٧٣٦- ثانياً- عمل الدعاة محكوم بالشرع:

ذكرنا فيما سبق أن يونس عليه السلام خرج مغاضباً لقومه قبل أن يأذن الله له بالخروج، وكان هذا سبباً لِلَوْمه ومؤاخذته وقذفه في البحر وابتلاع الحوت له. فعلى الدعاة أن يخضعوا في أعمالهم جميعها وبلا استثناء لحكم الشرع وإذنه، وإذنُ الشرع يعرفونه من حكمه فيما يأخذون ويتركون، فلا يجوز لهم أن يتصرفوا في شؤون الدعوة وما يتعلق بها وفق ما يشتهون بدون إذن من الشرع، وإن كان تصرفهم بدافع الغضب لله، وبدافع الغضب على المخالفين لأمر الله.

(١٤٩٦) سورة الشعراء الآية ٤٩-٥٠.

(١٤٩٧) سيرة ابن هشام ج١ ص٢٦٨.

٧٣٧- ثالثاً - العمل الصالح رصيد نافع للدعاة:

ذكرنا أقوال المفسرين في قوله تعالى عن يونس عليه السلام: ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾[١٤٩٨]. ومن أقوالهم في المراد بهذه الآية؛ قولهم: لولا ما تقدم له من العمل الصالح في الرخاء، للبث في بطن الحوت إلى يوم يبعثون. ومن العمل الصالح: ذكرُ الله تعالى تسبيحاً وتقديساً له -جلّ جلاله-، ومن العمل الصالح أيضاً، الصلاة[١٤٩٩].

وعلى هذا فعلى الدعاة الإكثار من العمل الصالح لله تعالى، مغتنمين أوقات الرخاء والفراغ والصحة والأمان، فهذه أوقات تساعدهم على القيام بالأعمال الصالحة، ومنها: ذكره تعالى الدائم ودعاؤه، وعبادته بالقيام بالفرائض ونوافل الصلاة والصيام وغيرها، وبكل عمل مشروع يحبه الله تعالى، فإن هذه الأعمال رصيدٌ نافع للدعاة، يفيدهم في أوقات الشدائد والكروب، فيكشف الله عنهم ما يحلُّ بهم من شدة وضيق.

٧٣٨- رابعاً- نجاة الدعاة من الشدائد:

الدعاة إلى الله من المؤمنين، ومن سنة الله أنه ينجي المؤمنين من الشدائد بالأسباب التي ييسرها لنجاتهم، قال تعالى في نجاة يونس من بطن الحوت بإلقائه على الساحل: ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[١٥٠٠].

فعلى الدعاة أن يعمقوا فيهم معاني الإيمان. ومن هذه المعاني: بذل أقصى الجهد في عمل الدعوة إلى الله، وبقدر ما تتحقق فيهم معاني الإيمان، ييسر الله لهم سبل النجاة من الشدائد التي يقعون فيها. فهذه هي سنة الله في نجاة المؤمنين -والدعاة منهم-، فليستحضروها في أذهانهم ليزدادوا نشاطاً واندفاعاً في عمل الدعوة، واثقين بوعد الله بتخليصهم من الشدائد التي يقعون فيها.

٧٣٩- خامساً- المؤاخذة على قدر منزلة الداعي:

إن مؤاخذة الله لعباده أو حسابه لهم على أعمالهم تتناسب مع أقدارهم ومنازلهم

(١٤٩٨) سورة الصافات الآيتان ١٤٢، ١٤٣.

(١٤٩٩) انظر الفقرة ٧٣٠.

(١٥٠٠) سورة الأنبياء الآية ٨٨.

عند الله تعالى، ولهذا كانت مؤاخذة الله لأنبيائه ورسله أشدَّ من مؤاخذته لغيرهم، ومؤاخذته تعالى للعلماء أشدَّ من مؤاخذته لغيرهم، وعلى هذه القاعدة عوقب يونس عليه السلام بالتقام الحوت له، بعد إلقائه في البحر بسبب خروجه من قومه مغاضباً لهم بغير إذن ربه.

والداعي في منزلة عالية وقريبة من ربه، وفي مقام القدوة للناس، فليحترس من الوقوع فيما يُؤاخَذ ويلام عليه. والذي يقيه من ذلك، التزامُه الصارم الدائم بأحكام الشرع في كل ما يأخذ ويترك، وفي كل ما يقدم عليه ويحجم عنه من أعمال الدعوة وما يتعلق بها.

٧٤٠- سادساً- إسراع الداعي بالتوبة من المعصية:

الداعي غير معصوم من المعصية والوقوع في الخطيئة، جاء في الحديث الشريف عن النبي ﷺ: «كل بني آدم خطّاء وخير الخطائين التوابون» أو كما قال ﷺ، ولكن على الداعي إذا وقع في الخطيئة أن يتوب إلى الله تعالى منها حالاً؛ لأن المعصية قذر، وحق القذر أن يزال حالاً. وقد رأينا كيف بادر يونس إلى التوبة، ودعا الله بالعفو عنه، فاستجاب له ربه؛ لأن الله عفوٌّ كريم يحب العفوَ، وكلما كانت التوبة من الذنب أسرع، كان رجاء الاستجابة أقرب، وأثر الذنب في القلب أضعف.

٧٤١- سابعاً- تفيهم الناس قبول توبة التائبين:

من معاني الإسلام -وهو موضوع الدعوة-: أن الله تعالى يقبل توبة التائبين، ويمحو ذنوبهم حسب وعده الكريم، فعلى الدعاة أن يبينوا ذلك للناس، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[١٥٠١]، وقال تعالى: ﴿۞قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾[١٥٠٢].

وإنما يبيِّن الداعي ذلك للناس حتى لا ييأس العصاة من صلاحهم، ومن رحمة الله بهم وتوبته عليهم. ولكن عليهم أن يحذروا من التسويف والتأخير؛ لأن الإنسان

(١٥٠١) سورة الأعراف الآية ١٥٣.

(١٥٠٢) سورة الزمر الآية ٥٣.

لا يدري متى يموت، وقد يدركه الموت قبل أن يتوب، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾[١٥٠٣]. ويستحسن للدعاة أن يذكروا للناس توبة قوم يونس، وإيمانهم وكشف الله عنهم العذاب بسبب توبتهم.

(١٥٠٣) سورة النساء الآيتان ١٧، ١٨.

الفصل السادس عشر

قصة عيسى عليه السلام

المبحث الأول

خلاصة القصة وتفسير آياتها

٧٤٢- تمهيد:

إن الكلام عن عيسى عليه السلام يستلزم الكلام عن أُمّه مريم بنت عمران وكيفية حملها به وولادتها له، وما جرى عليها قبل الولادة وبعدها، ومحاجتها لقومها وقد جاءت إليهم تحمل طفلها عيسى. ثم نتكلم بعد ذلك -إن شاء الله تعالى- عن عيسى ورسالته وما دعا إليه، وعن معجزاته وأتباعه، ومحاولة اليهود قتله، ورفع الله له إلى السماء حياً، وبيانِ القول الحق والاعتقاد الحق بعيسى عليه السلام.

٧٤٣- امرأة عمران ونذرها:

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[١٥٠٤]. محرَّراً: أي مخلصاً للعبادة، أو خادماً يخدم في متعبداتك ما عاش. ومعنى الآية: نذرتُ لك ما في بطني إذا ولدته وَقْفاً على طاعتك، لا أشغله بشيء من أُموري، ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[١٥٠٥]. أي تقبل مني قرباني وما جعلته لك خالصاً. والتقبل: أخذ الشيء على وجه الرضا.

٧٤٤- امرأة عمران تلد أُنثى:

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ﴾[١٥٠٦]. قوله: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا﴾، الضمير لـ ﴿مَا فِى بَطْنِى﴾ وإنما أُنِّث على

(١٥٠٤) سورة آل عمران الآية ٣٥.

(١٥٠٥) تفسير القاسمي ج٢ ص٨٨.

(١٥٠٦) سورة آل عمران الآية ٣٦.

المعنى، لأن ما في بطنها كان أنثى في علم الله. ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ قالت ذلك على وجه التحسّر والحُزن والاعتذار، وذلك أنها كانت ترجو أن يكون ما في بطنها ذكراً، لينقطع إلى خدمة بيت الله والعبادة فيه، والأنثى لا تصلح لذلك عادة، لا سيما في أيام الحيض.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ أي: بمكانة الأُنثى التي وضعتها، وأنها خير من كثير من الذكور. ففيه دفع لما يوهمه قولها من خسّة المولودة وانحطاطها عن مرتبته، وقد بيّن ذلك بقوله: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ﴾ الذي طلبته امرأة عمران أو تمنته كالأنثى التي وضعت، بل هذه الأنثى خير مما كانت ترجو من الذكر[١٥٠٧].

٧٤٥- وإني سميتها مريم:

وقالت امرأة عمران عن الأنثى التي وضعتها: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾، ودعت الله تعالى بأن يعيذها وذريتها من الشيطان، فقالت: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ أي: أُجيرها بحفظك وذريتها من الشيطان الرجيم، أي: المطرود، فلا تجعل له عليها وعلى ذريتها سلطاناً[١٥٠٨].

٧٤٦- كفالة زكريا لمريم:

قال تعالى عن مريم وكفالة زكريا لها: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا . . .﴾[١٥٠٩]. أي: تقبل الله تعالى مريم من أُمها، ورضي بها في النذر مكان الذكر، لتنقطع لعبادته وخدمة بيته، ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ أي: رباها ونماها تربية حسنة، وجعل زكريا كافلاً لها[١٥١٠]. وإنما قدر الله كون زكريا كفلها لسعادتها، لتتعلم منه علماً نافعاً وعملاً صالحاً، ولأنه كان زوج خالتها، وقيل: زوج أختها[١٥١١].

(١٥٠٨) تفسير القاسمي ج٤ ص٩١.
(١٥٠٩) سورة آل عمران الآية ٣٧.
(١٥١٠) تفسير المنار ج٣ ص٢٩٢.
(١٥١١) تفسير ابن كثير ج١ ص٣٦٠.

٧٤٧- كرامات لمريم:

قال تعالى عن مريم: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1512] يعني: وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف. وفيه دلالة على كرامات الأولياء. فإذا رأى زكريا هذا عندها ﴿قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ أي: من أين لك هذا؟، ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾[1513].

والمحراب: الغرفة والموضع العالي. وقال أبو عبيدة: المحراب سيد المجالس ومقدمها وأشرفها، وكذلك هو من المساجد[1514].

٧٤٨- فضائل مريم وتفضيلها على نساء زمانها:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1515]. أي: إن الله اصطفاك بالتقريب منه والمحبة، وطهّرك من الرذائل، واصطفاك بالتفضيل -على نساء زمانها-[1516].

٧٤٩- أمرُ الله لمريم بالصلاة:

قال تعالى: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾[1517] أُمرتْ مريم بالصلاة بذكر القنوت والسجود، لكونهما من هيآت وأركان الصلاة، ثم قيل لها: ﴿وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ بمعنى: لتكن صلاتك مع المصلين[1518].

٧٥٠- بشارة الله لمريم بعيسى:

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ

(١٥١٢) سورة آل عمران الآية ٣٧.

(١٥١٣) تفسير ابن كثير ج١ ص٣٦٠.

(١٥١٤) تفسير القاسمي ج٤ ص٩٢.

(١٥١٥) سورة آل عمران الآية ٤٢.

(١٥١٦) تفسير القاسمي ج٤ ص٩٦-٩٧.

(١٥١٧) سورة آل عمران، الآية ٤٣.

(١٥١٨) تفسير الزمخشري ج١ ص٣٦٢.

مَرْيَمَ . . ﴾[١٥١٩]. ومعنى ﴿ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ﴾ أي: بمولود تلدينه، يكون وجوده بكلمة من الله، وهي: أن يقول له: كن، فيكون، ﴿ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ لقبه: المسيح، واسمه: عيسى. وسمي المسيح لكثرة سياحته، وقيل: لأنه كان مسيح القدمين، لا أخمصَ لهما، وقيل: لأنه كان إذا مسح أحداً من ذوي العاهات برىء بإذن الله. وقوله: ﴿ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ نسبة إلى أُمه، حيث لا أب له[١٥٢٠].

٧٥١- سؤال من مريم وجوابه:

ولما سمعت مريم بشارة الملائكة لها عن الله بمولودها عيسى ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[١٥٢١]. تقول مريم: كيف يكون هذا الولد مني وأنا لست بذات زوج، ولا من عزمي أن أتزوج، ولست بغياً؟!، فقال لها المَلَك عن الله عز وجل في جواب ذلك السؤال: ﴿ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾ أي: هكذا أمر الله: عظيم لا يعجزه شيء، وأكَّد ذلك بقوله: ﴿ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ أي: فلا يتأخر، بل يوجد عقيب الأمر بلا مهلة، كقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴾[١٥٢٢] أي: إنما نأمر مرة واحدة لا مثنوية فيها، فيكون ذلك الشيء سريعاً كلمح بالبصر[١٥٢٣].

٧٥٢- جبريل يتمثل لمريم بشراً سوياً:

قال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴾[١٥٢٤].

(١٥١٩) سورة آل عمران الآية ٤٥.
(١٥٢٠) تفسير ابن كثير ج١ ص٣٦٤.
(١٥٢١) سورة آل عمران الآية ٤٧.
(١٥٢٢) سورة القمر، الآية ٥٠.
(١٥٢٣) تفسير ابن كثير ج١ ص٣٦٤.
(١٥٢٤) سورة مريم الآيات ١٦-١٨.

﴿إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾ أي: تنَحَّت وتباعدت ﴿مِنْ أَهْلِهَا﴾ أي: ممن كان معها، لتتفرغ لعبادة الله، وذلك: أن مريم كانت وقفاً على سدانة المعبد وخدمته والعبادة فيه، فاعتزلت الناس لذلك، ودخلت المسجد إلى جانب المحراب في شرقيه، لتخلو للعبادة، فقوله: ﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ أي: مكاناً من جانب الشرق. ﴿فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ أي: استترت منهم وتوارت، ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ أي: جبريل عليه السلام، ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ أي: تمثل لها جبريل على صورة إنسان كامل. ﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ أي: لمّا ظهر لها الملك في صورة بشر وهي في مكان منفرد، وبينها وبين قومها حجاب؛ خافته وظنته أنه يريدها على نفسها، فقالت له: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ أي: إن كنت تخاف الله، تذكيراً له بالله تعالى[١٥٢٥].

٧٥٣- حوار بين مريم وجبريل:

لما سمع جبريل استعاذة مريم بربها منه ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾[١٥٢٦] أي: فقال لها الملك -جبريل عليه السلام- مجيباً لها ومزيلاً لما حصل عندها من الخوف على نفسها: لستُ ممّنْ تظنين، ولكني رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً، أي: طاهراً من الذنوب، ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ أي: فقالت متعجبة من قول المَلَك: كيف يكون لي غلام ولستُ بذات زوج، ولا زانية؟![١٥٢٧]، فلما سمع جبريل عليه السلام جوابها هذا ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾[١٥٢٨] أي: فقال مجيباً لها عما سألت: إن الله قد قال إنه سيوجد منك غلاماً، وإن لم يكن لك زوج ولا يوجد منك فاحشة، فإنه على ما يشاء قادر، ولهذا قال: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي: دلالة وعلامة للناس على قدرة الله خالقهم، الذي نوّع في خلقهم،

(١٥٢٥) تفسير ابن كثير ج٣ ص١١٤-١١٥، تفسير القرطبي ج٧ ص٩٠-٩١.

(١٥٢٦) سورة مريم الآية ١٩.

(١٥٢٧) تفسير ابن كثير ج٣ ص١١٥، تفسير القاسمي ج١١ ص١١٥، والآية في سورة مريم ورقمها (٢٠).

(١٥٢٨) سورة مريم ٢١.

فخلق أباهم آدم من غير ذكر ولا أنثى، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق ذرية آدم من ذكر وأنثى إلا عيسى فإنه أوجده من أنثى بلا ذكر. وقد دلَّ بهذا التنوع في الخلق على كمال قدرته وعظيم سلطانه.

وقوله: ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ أي: ونجعل هذا الغلام -عيسى- رحمة من الله، نبياً من الأنبياء يدعو إلى عبادة الله وتوحيده، ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ أي: إن الله عزم على هذا، فليس منه بدّ، أي: لا بد أن يكون(١٥٢٩).

٧٥٤- بدء حمل مريم بعيسى:

وقد روي عن السلف: أن جبريل لما قال لمريم عن الله تعالى ما قال مما تقدم؛ استسلمت لقضاء الله تعالى، فاطمأنت إلى قوله، فدنا منها جبريل، فنفخ في جيب درعها، فَسَرَت النفخة حتى ولجت في فرجها، فكان منها الحمل بعيسى عليه السلام بإذن الله، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا..﴾ أي: بواسطة الملك جبريل، حيث أمره الله أن يقوم بالنفخ في جيب درعها كما قلنا(١٥٣٠).

٧٥٥- ابتعاد مريم عن قومها بسبب حملها:

قال تعالى عن مريم: ﴿۞ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ أي: تنحت بالحمل إلى مكان بعيد عن قومها، فراراً من تعييرهم إياها بالحمل والولادة وهي من غير زوج؛ لأنها تعلم أنهم لا يصدقونها فيما تخبرهم به، فرأت الابتعاد عنهم هو الحلُّ الأمثل(١٥٣١).

٧٥٦- ألجأها المخاض إلى جذع النخلة:

قال تعالى عن مريم: ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا

(١٥٢٩) تفسير ابن كثير ج٣ ص١١٥.

(١٥٣٠) تفسير ابن كثير ج٣ ص١١٥-١١٦، وتفسير القاسمي ج١١ ص١١٧، والآية في سورة التحريم ورقمها ١٢.

(١٥٣١) تفسير القرطبي ج١١ ص٩٢، والآية في سورة مريم ورقمها ٢٢.

﴿وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾[1532] أي: فاضطرها وألجأها المخاض -وهو الطلق وشدة الولادة وأوجاعها- إلى جذع النخلة، في المكان الذي تنحت إليه مبتعدة من قومها، فاشتد بها الأمر هنالك، واحتضنت الجذع لشدة الوجع، فولدت عيسى عليه السلام، وقالت عند ولادته: ﴿يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾، أي: يا ليتني مت قبل الحمل، وكنتُ نسياً، أي شيئاً تافهاً، شأنه أن يُنسى ولا يُعتدّ به، منسياً لا يخطر على بال أحد.

وإنما قالت ذلك لمّا عرفت أنها ستُبتَلى وتُمتحَن بهذا المولود، الذي لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد، ولا يصدقها قومها في خبرها عنه[1533].

٧٥٧- نداء لمريم وتوصية لها[1534]:

قال تعالى: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾[1535]. واختلف المفسرون في المنادي لمريم من هو؟: فقالت طائفة: إنه جبريل، وكان في مكان أسفل من مكانها، وقالت طائفة أخرى: إنه عيسى الذي ولدته. وقوله: ﴿أَلَّا تَحْزَنِى﴾ تفسير للنداء أي: ناداها قائلاً: لا تحزني ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ والسري: هو النهر الصغير أو جدول الماء. وقال لها المنادى أيضاً: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾[1536] وأمرها المنادي بهز الجذع اليابس لترى آية أخرى في إحياء موات الجذع. ﴿رُطَبًا جَنِيًّا﴾ أي حضر أوان اجتنائه لم يجف ولم ييبس. وقال بعض أهل العلم: ما للنفساء عندي خير من الرطب لهذه الآية، ولو علم الله شيئاً هو أفضل من الرطب للنفساء لأطعمه مريم. وقال لها المنادى أيضاً: ﴿فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ

(١٥٣٢) سورة مريم الآية ٢٣.

(١٥٣٣) تفسير ابن عطية ج٩ ص٤٤٦، تفسير ابن كثير ج٣ ص١١٧، تفسير القاسمي ج١١ ص١١٨.

(١٥٣٤) تفسير ابن عطية ج٩ ص٤٥٠ وما بعدها، تفسير القرطبي ج١١ ص٩٠ وما بعدها، تفسير ابن كثير ج٣ ص١١٧ وما بعدها، تفسير الزمخشري ج٣ ص١٢ وما بعدها.

(١٥٣٥) سورة مريم الآية ٢٤.

(١٥٣٦) سورة مريم الآية ٢٥.

إِنسِيًّا﴾[١٥٣٧]. أي فكلي من الرطب الجني، واشربي من السري، وقَرى عيناً: أي طيبي نفساً برؤية الولد النبي. وقال بعضهم: ﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾ معناه نامي: حضها على الأكل والشرب والنوم. وقال لها المنادى: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا﴾ أي فسألك عن ولدك ﴿فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ أي: صمتاً، ومعنى هذه الآية: أن الله تعالى أمرها على لسان من ناداها: جبريل أو عيسى، بأن تمسك عن مخاطبة البشر، وتحيل على ابنها في ذلك، ليرتفع عنها خجلها، وتتبين المعجزة، فيقوم عذرها وبراءتها فيما يتهمونها به.

وظاهر الآية أنها أبيح لها أن تقول هذه الألفاظ التي في الآية وهو قول الجمهور، وأن نطقها بهذه الألفاظ لا ينقض نذرها بالصمت عن الكلام. وقالت فرقة: معنى ﴿فَقُولِيٓ﴾ أي: بالإشارة لا بالكلام. ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ أي أكلم الملائكة دون الإنس. وإنما أمرها الله تعالى بأن تنذر الصوم - أي الصمت - لئلا تشرع بالكلام مع المتهمين لها لسببين:

(الأول): كما أشرنا أن عيسى عليه السلام يكفيها الكلام بما يبرىء ساحتها.

(والثاني): كراهة مجادلة السفهاء. وفيه أن السكوت عن السفهاء مطلوب شرعاً. وقد قيل: من أذل الناس سفيهٌ لم يَجِدْ مُسافهاً.

٧٥٨- فأتت به قومها تحمله:

قال تعالى عن مريم بعد أن ولدت عيسى وجاءت به إلى قومها وهي تحمله: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾[١٥٣٨]. روي أن مريم لما اطمأنت بمارأت من الآيات: تساقط الرطب بهز جذع النخلة، وبالنهر الذي أخذ يجري من تحتها، وبنداء جبريل أو عيسى لها، وعلمت بدلالة هذه الآيات أن الله تعالى سيبين عذرها وبراءتها مما يجدون من ولادتها هذا المولود، وهي ليست ذات زوج، أتت بولدها عيسى تحمله من المكان القصي الذي انتبذت فيه وولدت فيه. وروي أن قومها خرجوا في طلبها فلقوها وهي مقبلة، فلما رأوها كذلك أعظموا أمرها واستنكروه جداً وقالوا لها: ﴿يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ أي: منكراً

(١٥٣٧) سورة مريم الآية ٢٦.

(١٥٣٨) سورة مريم الآية ٢٧.

عظيماً شنيعاً[1539].

٧٥٩- التعيير والتوبيخ لمريم وهي الطاهرة العفيفة:

قال تعالى حكاية عما قاله قوم مريم لها من التعيير والتوبيخ: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا﴾[1540]. ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾ أي: يا شبيهة هارون في العبادة. وقيل: يا أخت هارون الذي هو أخو موسى وكانت من نسله، وهذا كما يقال للتميمي: يا أخا تميم وللمضري: يا أخا مضر. وقيل نسبت إلى رجل صالح كان فيهم اسمه هارون، فكانت تقاس به في الزهادة والعبادة، ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا﴾ أي: أنت من بيت طيب طاهر معروف بالصلاح والعبادة والزهادة. والمعنى: ما كان أبوك ولا أمك أهلاً لهذه الفعلة، فأبوك رجل صالح، وما كانت بغياً أي: تبغي الزنا، أي: تطلبه. فكيف صدر منك هذا الفعل الشنيع؟[1541].

٧٦٠- جواب مريم: فأشارت إليه:

قال تعالى عما أجابت به قومها بعد أن سمعت توبيخهم لها: ﴿فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا﴾[1542]. أي: أنهم لما استرابوا في أمرها، واستنكروا فعلتها، وقالوا لها ما قالوا معرضين بقذفها ورميها بالفاحشة، ﴿فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ﴾، أي: فأحالت الكلام عليه، أي: على ولدها عيسى، وأشارت لهم إلى خطابه وكلامه. فقالوا متهكمين بها ظانين أنها تزدري بهم على ما جاءت به من الداهية، تأمرنا أن نكلم من كان في المهد صبياً. إن استخفافها بنا إلى هذا الحدّ أشد علينا من زناها. ﴿قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا﴾ أي: من هو موجود في مهده في حال صباه وصغره يتكلم؟

(١٥٣٩) تفسير ابن عطية ج٩ ص٤٥٩، تفسير ابن كثير ج٣ ص١١٨.

(١٥٤٠) سورة مريم الآية ٢٩.

(١٥٤١) تفسير ابن عطية ج٩ ص٤٥٩-٤٦١، تفسير ابن كثير ج٣ ص١١٨.

(١٥٤٢) سورة مريم الآية ٢٩.

٧٦١- عيسى يتكلم في مهده، ويعلل عبوديته لله:

قال تعالى حكاية عما قاله عيسى لقوم مريم: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾[١٥٤٣]. أول شيء نطق به عيسى عليه السلام إقرار بالعبودية لله تعالى وإعلان هذا الإقرار. وبهذا نزه جناب ربه تعالى وبرأه عن الولد. كما برأ السيدة مريم من الظنون الباطلة فيها. وقوله تعالى: ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: الإنجيل، ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ يوحي إليّ ما يشاء[١٥٤٤].

﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾[١٥٤٥]. ﴿مُبَارَكًا﴾ أي: كثير الخير أينما وجدت ذا بركات ومنافع في الدين والدعاء إليه ومعلماً له[١٥٤٦].

والتعبير بلفظ الماضي في الأفعال الثلاثة «آتاني الكتاب، جعلني نبياً، وجعلني مباركاً» إما باعتبار ما سبق في القضاء المحتوم، أو جعل الآتي، لا محالة، كأنه وجد.

﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ أي: أمرني بالعبادة وإنفاق المال مدة حياتي[١٥٤٧]. ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾[١٥٤٨]. أي: وأوصاني ربي ببر والدتي. وقوله: ﴿بِوَٰلِدَتِي﴾ بيان؛ لأنه لا والد له، وبهذا القول برأها قومها. ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ أي: لم يجعلني مستكبراً عن طاعته وأمره وعبادته وبرّ والدتي فأشقى بذلك. وقال بعض السلف: لا تجد أحداً عاقاً لوالديه إلا وجدته جباراً شقياً، ثم قرأ: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾[١٥٤٩].

(١٥٤٣) سورة مريم الآية ٣٠.
(١٥٤٤) تفسير القرطبي ج١١ ص١٠٢، تفسير ابن كثير ج٣ ص١١٩.
(١٥٤٥) سورة مريم الآية ٣١.
(١٥٤٦) تفسير القرطبي ج١١ ص١٠٣.
(١٥٤٧) تفسير القاسمي ج١١ ص١٢٠.
(١٥٤٨) سورة مريم الآية ٣٢.
(١٥٤٩) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٢٠.

﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ﴾[1550] أي: السلامة عليَّ من الله تعالى ﴿ يَوۡمَ وُلِدتُّ ﴾ يعني في الدنيا، ﴿ وَيَوۡمَ أَمُوتُ ﴾ أي: فأقبر، ﴿ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ﴾ يعني في الآخرة، لأن له أحوالاً ثلاثة: في الدنيا حياً، وفي القبر ميتاً، وفي الآخرة مبعوثاً، فسلم في أحواله كلها[1551].

وقال ابن كثير في هذه الآية: «إثبات من؛ عيسى لعبوديته لله عز وجل، وأنه مخلوق من خلق الله، يحيا ويموت ويبعث كسائر الخلائق، ولكن له السلامة في هذه الأحوال التي هي أشق ما يكون على العباد[1552].

٧٦٢- القول الحق في عيسى:

قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ﴾[1553] أي: يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: ذلك الذي قصصناه عليك من خبر عيسى عليه السلام ﴿ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ﴾ أي يشكون، أو يختلفون. وقوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[1554]. ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ ﴾ أي: ما ينبغي له ولا يجوز أن يتخذ ولداً، ثم نزه نفسه تعالى عن مقالتهم فقال: ﴿ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ ﴾ أن يكون له ولد، ﴿ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ أي: إذا أراد شيئاً فإنما يأمر به فيصير كما يشاء، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۞ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴾[1555].

٧٦٣- عيسى يأمر بعبادة الله وحده:

وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴾[1556] أي: ومما أمر به عيسى قومه، وهو في مهده أن أخبرهم أن الله ربه وربهم، وأمرهم بعبادته، فقال:

(١٥٥٠) سورة مريم الآية ٣٣.
(١٥٥١) تفسير القرطبي ج١١ ص١٠٤-١٠٥.
(١٥٥٢) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٢٠.
(١٥٥٣) سورة مريم الآية ٣٤.
(١٥٥٤) سورة مريم الآية ٣٥.
(١٥٥٥) تفسير القرطبي ج١١ ص١٠٧، تفسير ابن كثير ج٣ ص١٢٠.
(١٥٥٦) سورة مريم الآية ٣٦.

﴿ فَٱعْبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ أي: هذا الذي جئتكم به عن الله صراط مستقيم أي: قويم، من اتبعه رشد وهدي، ومن خالفه ضلَّ وغوى[1557].

٧٦٤- اختلاف أهل الكتاب في عيسى عليه السلام:

قال تعالى: ﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾[1558]. أي: اختلف قول أهل الكتاب في عيسى بعد بيان أمره ووضوح حاله، وأنه عبده ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، فذهب جمهور اليهود عليهم لعائن الله إلى أنه ولد زنا، وقالوا: كلامه سحر. وقالت طائفة أخرى: إنما تكلم الله. وقال آخرون: إنه ابن الله، وقال آخرون: إنه ثالث ثلاثة. وقال آخرون: هو عبد الله ورسوله، وهذا هو قول الحق الذي أرشد الله إليه المؤمنين. وقوله تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ أي: يوم القيامة، فهو تهديد ووعيد شديد لمن كذب على الله وافترى وزعم أنَّ له ولداً، ولكن أمهلهم الله تعالى إلى يوم القيامة، وأجلَّهُمْ حلماً منه عليهم وثقة بقدرته عليهم، فإنه تعالى لا يعجل على من عصاه، وفي الصحيحين عن النبي ﷺ «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»[1559].

٧٦٥- تحريم الغلو في الدين:

قال تعالى مخاطباً أهل الكتاب: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّۚ ... ﴾[1560]. الغلو: تجاوز الحدّ والمعنى كما ذكره المفسرون: غلا اليهود في عيسى عليه السلام حتى قذفوا أمه مريم بالزنا، وغلا النصارى فيه - أي في عيسى - حتى جعلوه إلهاً ورباً. فالإفراط والتفريط كله كفر. وفي صحيح البخاري، عن النبي ﷺ « لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى، وقولوا: عبد الله ورسوله». وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّۚ ﴾ أي: لا تفتروا على الله، وتجعلوا له شريكاً أوصاحبة وولداً، تعالى الله عز وجل عن ذلك

(١٥٥٧) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٢٠.

(١٥٥٨) سورة مريم الآية ٣٧.

(١٥٥٩) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٢١.

(١٥٦٠) سورة النساء من الآية ١٧١.

علواً كبيراً[1561].

٧٦٦- حال عيسى وحقيقته:

قال تعالى: ﴿... إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَـٰثَةٌ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ سُبْحَـٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾[1562]. دلَّ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ على نفي الألوهية عنه؛ لأن من كان منسوباً إلى والدته كيف يكون إلهاً، وحق الإله أن يكون قديماً لا محدثاً[1563]؛ ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ أي: عيسى رسول الله إلى بني إسرائيل، أمرهم بعبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه... إلى آخر ما جاء به من ربه[1564].

٧٦٧- معنى: وكلمته ألقاها إلى مريم:

قوله تعالى: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾؛ لأن عيسى وجد بكلمة الله «كن» وأمره لا غير، من غير واسطة أب ولا نطفة[1565]. والعرب تسمى الشيء باسم الشيء إذا كان صادراً عنه، ولما كان عيسى خلق بكلمة (كن) الصادرة عن الله؛ جاز تسميته بأنه كلمة الله[1566]. ومعنى ﴿أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ أي: الكلمة التي خلق الله بها عيسى وهي (كن)، أوصلها إليها وحصلها فيها بنفخ جبريل عليه السلام[1567]، أي: أوجد الله هذا الحادث - خلق عيسى - في مريم وجعله فيها[1568]. وقيل المراد بـ ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ﴾ بشارته تعالى التي بعث الله بها جبريل إلى مريم، وهي ولادتها عيسى، وذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ

(١٥٦١) تفسير القرطبي ج٦ ص٢١.
(١٥٦٢) سورة النساء الآية ١٧١.
(١٥٦٣) تفسير القرطبي ج٦ ص٢٠.
(١٥٦٤) تفسير المنار ج٦ ص٨١-٨٢.
(١٥٦٥) تفسير الزمخشري ج١ ص٥٩٣.
(١٥٦٦) تفسير القرطبي ج٦ ص٢٢.
(١٥٦٧) تفسير الزمخشري ج١ ص٥٩٣، تفسير القاسمي ج٥ ص٦٧٥.
(١٥٦٨) تفسير ابن عطية ج٤ ص٣٠١.

﴿ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾[1569].

٧٦٨- معنى ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾: قيلت في معنى قوله تعالى في عيسى: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ جملة أقوال كلها تدحض قول النصارى الباطل من أن عيسى جزء من الله تعالى، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، فمن أقوال المفسرين في بيان المراد من قوله تعالى: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ ما يأتي:

أ- إنه -أي عيسى- خلق بنفخ من روح الله جبريل عليه السلام، ويوضحه قوله تعالى في أمه مريم: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾. وقال بعضهم: إن المراد بالروح هنا النفخ أي: نفخ الملك جبريل بأمر الله في مريم.

ب- معناه: إن عيسى مؤيد بروح منه تعالى، وهذا الروح المؤيد به عيسى هو جبريل الملقب بـ «روح القدس»، يوضحه قوله تعالى في عيسى: ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾.

ج- وقال صاحب المنار بعد أن ذكر القولين اللّذيْنِ ذكرتهما آنفاً، قال: «ويجوز أن يراد بقوله تعالى: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ الأمران معاً، أي: أن عيسى خلق بنفخ الملك المعبر عنه بالروح وبروح القدس في أمه نفخاً كان كالتلقيح الذي يحصل بين الرجل وزوجته، وكان عيسى مؤيداً بهذا الروح -جبريل- مدة حياته، ولذلك غلبت عليه الروحانية وظهرت آيات الله فيه زمن الطفولية وزمن الرجولية، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ فلما كان كذلك أطلق عليه أنه «روح» كأنه هو عين ذلك الملك الذي جعل الله نفخه سبب ولادته، وأيده به مدة حياته، كما يقال: رجل عدل على سبيل المبالغة والمراد ذو عدل»[1570].

د- قال أُبي بن كعب: خلق الله أرواح بني آدم لما أخذ عليهم الميثاق ثم ردها إلى صلب آدم، وأمسك عنده روح عيسى عليه السلام، فلما أراد خلقه أرسل ذلك الروح

(١٥٦٩) تفسير ابن عطية ج٤ ص٣٠١، تفسير القرطبي ج٦ ص٢٢. سورة آل عمران ٤٥.

(١٥٧٠) تفسير المنار ج٦ ص٨٢-٨٣.

إلى مريم فكان منه عيسى عليه السلام؛ فلهذا قال: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾[1571].

هـ - ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾: أي: بتخليقه وتكوينه كسائر الأرواح المخلوقة، كما في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ أي: من خلقه، وإنما أضافه لنفسه على سبيل التكريم والتشريف، كما في قوله تعالى: ﴿ناقة الله﴾[1572].

و- ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ أي: رحمة منه، فكان عيسى عليه السلام رحمة من الله لمن اتبعه، وبمعنى الرحمة جاءت كلمة (روح) في قوله تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ أي: برحمة منه[1573].

ز- ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾؛ لأنه ذو روح وُجِدَ من غير جزء من ذي روح كالنطفة من الأب الحي، وإنما اخترع اختراعاً من عند الله تعالى وقدرته[1574].

٧٦٩- مثل عيسى كمثل آدم:

قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[1575]. أي: إن مثل عيسى عند الله في قدرة الله حيث خلقه من غير أب ﴿كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ حيث خلقه من غير أب ولا أم، وإنما خلقه من تراب، فالذي خلق آدم من غير أب ولا أم قادر على أن يخلق عيسى من غير أب بطريق الأولى والأحرى. وإن جاز إدعاء البنوة في عيسى -كما تقول النصارى- لكونه مخلوقاً من غير أب، فجواز ذلك في آدم بالطريق الأولى، ومعلوم بالاتفاق أن ذلك باطل، فدعواهم في عيسى أشد بطلاناً وأظهر فساداً. ولكن الرب جلّ جلاله أراد أن يظهر قدرته لخلقه حين خلق آدم لا من ذكر ولا من أنثى، وخلق حواء من ذكر -من ضلع آدم- بلا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر، وخلق بقية الذرية من ذكر وأنثى[1576].

(١٥٧١) تفسير ابن عطية ج٤ ص٣٠١، تفسير القرطبي ج٦ ص٩٢.
(١٥٧٢) تفسير ابن كثير ج١ ص٥٩٠، تفسير القرطبي ج٦ ص٩٢، ابن عطية ج٤ ص٣٠١.
(١٥٧٣) تفسير ابن كثير ج١ ص٥٩٣، أحكام القرآن لابن العربي ج١ ص٥١٧.
(١٥٧٤) تفسير الزمخشري ج١ ص٥٩٣.
(١٥٧٥) سورة آل عمران الآية ٥٩.
(١٥٧٦) تفسير ابن كثير ج١ ص٣٦٧.

٧٧٠- عيسى عبد مخلوق لله:

ومن آيات القرآن الكريم المبينة لحال عيسى وأنه عبد مخلوق لله، ليس له شيء من ألوهية الله وربوبيته، وأنه لن يستنكف أن يكون عبداً لله، وأنه دعا بني إسرائيل إلى عبادة الله وحده، الآيات التالية:

أ- قال تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ﴾(١٥٧٧) أي: ما هو -أي عيسى- إلا رسول من جنس الرسل الذين خلوا من قبله، جاء بآيات من الله كما أتوا بأمثالها، وإن خلقه الله من غير ذكر فقد خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى، ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ﴾ أي: وما أمه أيضاً إلا صدّيقة كبعض النساء المصدقات للأنبياء المؤمنات بهم. ثم صرح ببعد عيسى وأمه عما نسب إليهما من الألوهية في قوله: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ﴾ ومن يأكل الطعام كيف يصح أن يكون رباً أو إلهاً(١٥٧٨)؟.

ب- وقال تعالى عن عيسى عليه السلام: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾(١٥٧٩) أي: وما عيسى إلا عبد كسائر العبيد، ﴿أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ حيث جعلناه آية بأن خلقناه من غير سبب كما خلقنا آدم وشرفناه وكرمناه بالنبوة وصيرناه عبرة عجيبة كالمثل السائر لبني إسرائيل(١٥٨٠).

ج- إن أول ما نطق به عيسى وهو في المهد إقراره بعبوديته لله تعالى. قال ربنا جلّ جلاله حكاية عما نطق به عيسى وهو في المهد: ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ...﴾(١٥٨١) ولم يقل ما ادعاه النصارى فيه من أنه ابن الله؛ لأن قولهم هذا فيه قول باطل، وعيسى لم ينطق إلا بما أنطقه الله به من الحق.

د- المسيح لا يستنكف أن يكون عبداً لله، قال تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ

(١٥٧٧) سورة المائدة الآية ٧٥.

(١٥٧٨) تفسير الزمخشري ج١ ص٦٦٤-٦٦٥.

(١٥٧٩) سورة الزخرف الآية ٥٩.

(١٥٨٠) تفسيرالزمخشري ج٤ ص٢٦١.

(١٥٨١) سورة مريم الآية ٣٠.

﴿إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾[1582] أي لن يأنف عيسى ولن يستكبر أن يكون عبداً لله، كما لا يأنف ولا يستكبر الملائكة المقربون أن يكونوا عبيداً لله، ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم -أي فيجمعهم- إليه يوم القيامة ويفصل بينهم بحكمه العدل[1583].

٧٧١- كفر النصارى بغلوهم في عيسى:

لقد كفر النصارى بغلوهم في عيسى حيث جعلوه ابن الله، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾[1584]، ومنهم من جعله هو الله، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ . . .﴾[1585]، وهذا قول اليعقوبية من النصارى، كما قال الإمام القرطبي في تفسيره[1586]. ومنهم من قال: إن الله ثالث ثلاثة، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ . . .﴾[1587]. وهذا قول الفرق الناطقة بالتثليث من النصارى، وهم الملكية واليعقوبية والنسطورية[1588]. وقال السدي وغيره: نزلت هذه الآية في جعلهم المسيح وأمه إلهين مع الله، فجعلوا الله ثالث ثلاثة بهذا الاعتبار، وهي كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ﴾[1589] الآية.

قال الإمام ابن كثير في قول السدي: وهذا القول هو الأظهر والله أعلم[1590] وقال ابن كثير أيضاً في أقوال النصارى في عيسى: وهي على اختلافها كفر وضلال، قال رحمه الله تعالى: (والنصارى عليهم لعائن الله من جهلهم ليس لهم ضابط، ولا لكفرهم حدّ، بل أقوالهم وضلالهم منتشر، فمنهم من يعتقده إلهاً، ومنهم من يعتقده

(١٥٨٢) سورة النساء الآية ١٧٢.
(١٥٨٣) تفسير ابن كثير ج١ ص٥٩١.
(١٥٨٤) سورة التوبة الآية ٣٠.
(١٥٨٥) سورة المائدة ٧٢.
(١٥٨٦) تفسير القرطبي ج٦ ص٢٤٩.
(١٥٨٧) سورة المائدة الآية ٧٣.
(١٥٨٨) تفسير القرطبي ج٦ ص٢٤٩، ابن كثير ج٢ ص٨١.
(١٥٨٩) سورة المائدة الآية ١١٦.
(١٥٩٠) تفسير ابن كثير ج٢، ص٨١.

شريكاً، ومنهم من يعتقده ولداً. وهم طوائف كثيرة لهم آراء مختلفة وأقوال غير مؤتلفة)[1591].

٧٧٢- عيسى يأمر بني إسرائيل بعبادة الله وحده:

إن دعوة عيسى عليه السلام تقوم على توحيد الله تعالى، وإفراده بالعبادة، وأن كل ما سوى الله مخلوق ومربوب وعبد لله تعالى، وهذا ما نطق به عيسى عليه السلام وهو في المهد، وظل يدعو بني إسرائيل إلى توحيد الله وعبادته وحده، قال تعالى حكاية عما قاله عيسى وهو في المهد: ﴿ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ. . ﴾[1592]. وقال تعالى حكاية عما أمر به عيسى بني إسرائيل: ﴿. . وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَـٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾[1593] فعيسى عليه السلام أمر بني إسرائيل بعبادة الله وحده الذي هو ربه وربهم، فلم يفرق عيسى عليه السلام بينه وبينهم في أنه عبدٌ مربوب لله تعالى كمثلهم، وأن من واجب عبدالله أن يعبد الله[1594]. وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْۚ. . . ﴾[1595] فعيسى عليه السلام بلّغ بني إسرائيل ما أمره الله بتبليغه لهم وهو عبادة الله ربه وربهم.

٧٧٣- نِعمُ الله على عيسى ومعجزاته:

قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًاۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِيۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِيۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِيۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ

(١٥٩١) تفسير ابن كثير ج١ ص٥٩١.
(١٥٩٢) سورة مريم الآية ٣٠.
(١٥٩٣) سورة المائدة الآية ٧٢.
(١٥٩٤) تفسير الزمخشري ج١ ص٦٦٣.
(١٥٩٥) سورة المائدة الآية ١١٦.

﴿جِئۡتَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿١١٠﴾ وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ﴾[١٥٩٦]. إنما ذكّر الله تعالى عيسى بنعمته عليه وعلى والدته، وإن كان لهما ذاكراً، لأمرين:

(أَوَّلُهما): ليبين للناس ما خصهما الله به من الكرامة، وما ميزهما به من علو المنزلة.

(ثانيهما): ليؤكد بما أنعم الله عليه حجته ويرد به جاحده[١٥٩٧]. ثم أخذ سبحانه وتعالى في تعديد نعمه عليه[١٥٩٨]:-

﴿ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ﴾أي في خلقي إياك من أم بلا ذكر وجعلي إياك آية، ودلالة قاطعة على قدرتي على الأشياء. ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾ حيث جعلتك لها برهانا على براءتها مما نسبه الظالمون إليها من الفاحشة، ﴿إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ﴾ وهو جبريل عليه السلام، وجعلتك نبياً داعياً إلى الله في صغرك وكبرك، فأنطقتك في المهد صغيراً فشهدتَ ببراءة أمك من كل عيب واعترفت لي بالعبودية، وأخبرتَ عن رسالتي إياك ودعوتَ إلى عبادتي، ولهذا قال تعالى: ﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا﴾ أي: تدعو إلى الله الناس في صغرك وكبرك، فتكلمهم في هاتين الحالتين من غير أن يتفاوت كلامك في حين الطفولة وحين الكهولة، الذي هو كمال العقل وبلوغ الرشد؛ لأن كلامك في الحالتين دعوة إلى الله، ودعوة إلى إفراده بالعبادة: ﴿وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ أي: الخط والفهم، ﴿وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ﴾ أي وعلمتك التوراة وهي ما أنزله الله على موسى ﴿وَٱلۡإِنجِيلَ﴾ وهو ما أنزله الله على عيسى. ﴿وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي﴾ أي: تصوره وتشكله على هيئة الطائر بإذني لك في ذلك، فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني، أي: فتنفخ في تلك الصورة التي شكلتها بإذني لك في ذلك، فتكون طيراً ذا روح تطير بإذن الله وخلقه.. ﴿وَتُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ﴾ والأكمه: من وُلِدَ أعمى ويطلق على من

(١٥٩٦) سورة المائدة، الآيتان ١١٠، ١١١.

(١٥٩٧) تفسير القرطبي ج٦ ص٢٦٢.

(١٥٩٨) تفسير ابن كثير ج٢ ص١١٥.

عمي بعد الولادة أيضاً، والبرص: بياض يعتري الجلد[1599]. ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى﴾ أي: تدعوهم فيقومون من قبورهم بإذن الله وقدرته ومشيئته ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: واذكر نعمتي عليك في كفي بني إسرائيل عنك حين جئتهم بالبينات، أي: بالبراهين والدلائل والمعجزات والحجج القاطعة على نبوتك وعلى رسالتك من الله إليهم، فكذبوك واتهموك بأنك ساحر، وسعوا في قتلك وصلبك، فنجيتك منهم وكفيتك شرهم. ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى﴾ وهذا أيضاً من نعم الله على عيسى، ومن الامتنان عليه بأن جعل له أصحاباً وأنصاراً. وهذا الوحي إلى الحواريين وحي إلهام، كما قال تعالى في وحيه لأم موسى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ وهو حي إلهام بلا خلاف، وكما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ..﴾ وهكذا قال بعض السلف في هذه الآية ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟..﴾ الخ أي: أُلْهِموا ذلك فامتثلوا ما ألهموا، فقالوا: ﴿ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾. ويحتمل أن يكون المراد بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ...﴾ الخ أي وإذا أوحيت إليهم بواسطتك، فدعوتهم إلى الإيمان بالله وبرسوله، واستجابوا لك وانقادوا وتابعوك، فقالوا: ﴿ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾. والحواريون: جمع حواري وهو من خلص لك وأخلص سراً وجهراً في مودتك[1600]. وهم أصحاب عيسى عليه السلام، وسموا بذلك لبياض ثيابهم كما روي هذا عن ابن عباس[1601]. وقال الزمخشري: الحواريون هم أصفياؤه -أي أصفياء عيسى- وهم أول من آمن به، وكانوا اثنى عشر رجلاً، وحواري الرجل: صفيه وخلصانه أي خاصته[1602]. وقد أعلنوا نصرتهم لله أي: لدينه قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ﴾[1603].

(١٥٩٩) تفسير القرطبي ج٤ ص٩٤، تفسير المنار ج٧ ص٢٤٦.

(١٦٠٠) تفسير المنار ج٧ ص٩٧.

(١٦٠١) تفسير القرطبي ج٤ ص٩٧.

(١٦٠٢) تفسير الزمخشري ج٤ ص٥٢٨.

(١٦٠٣) تفسير الزمخشري ج٤ ص٥٢٨ والآية في سورة الصف ورقمها ١٤.

٧٧٤- بشارة عيسى بمحمد صلى الله عليهما وسلم:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[١٦٠٤]. إنما قال: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ولم يقل: يا قومي كما قال موسى، لأنه لا أب له فيهم فيكونوا قومه[١٦٠٥]. والمعنى: يقول عيسى عليه السلام: يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم، والتوارة قد بشرتْ بي وأنا مصداق ما أخبَرتُ عنه، وأنا مبشرٌ بمن بعدي وهو الرسول النبي الأمي العربي المكنى أحمد[١٦٠٦]. و «أحمد» اسم نبينا ﷺ، وهو اسم علم منقول من صفة لا من فعل، فتلك الصفة أفعل التي يراد بها التفضيل. فمعنى «أحمد» أي: أحمدُ الحامدين لربه، والأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه كلهم حامدون الله، ونبينا أحمد أكثرهم حمداً. وأما محمد -اسم نبينا ﷺ- فمنقول من صفة أيضاً، وهي في معنى محمود ولكن فيه معنى المبالغة والتكرار، فالمحمَّد هو الذي حُمِد مرة بعد مرة[١٦٠٧]. فعيسى عليه السلام هو خاتم أنبياء بني إسرائيل، وقد أقام فيهم مبشراً بمحمد وهو أحمد خاتم الأنبياء والمرسلين. وقد أخرج البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «إن لي أسماء: أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي وأنا العاقب»[١٦٠٨].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ قيل: الذي جاءهم هو عيسى، وقيل: هو محمد ﷺ[١٦٠٩]. وقال ابن كثير: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم﴾ أحمد أي المُبشَر به في الأعصار المتقدمة المنوه بذكره في القرون السالفة، لما ظهر أمره وجاء بالبينات أي بالدلائل الدالة على صدقه وأنه رسول الله، قال (الكفرة):

(١٦٠٤) سورة الصف الآية ٦.

(١٦٠٥) تفسير ابن عطية ج١٤ ص٤٢٩.

(١٦٠٦) تفسير ابن كثير ج٤ ص٣٥٩.

(١٦٠٧) تفسير القرطبي ج١٨ ص٨٣.

(١٦٠٨) تفسير ابن كثير ج٤ ص٣٥٩-٣٦٠.

(١٦٠٩) تفسير القرطبي ج١٨ ص٨٢.

﴿ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾[1610]. فكأن الإمام ابن كثير يرجح أن المقصود بـ ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم ﴾ هو محمد ﷺ.

٧٧٥- ادعاء اليهود قتل عيسى عليه السلام:

قال تعالى معدداً جرائم اليهود مع كفرهم: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾[1611]. قوله تعالى: ﴿ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾ أي وبسبب قولهم هذا فإنه يؤذن بمنتهى الجرأة على الباطل وارتكاب أفظع الجرائم، فهم ما وصفوه بأنه ﴿ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾ إلا على سبيل التهكم والاستهزاء به[1612]، كقول المشركين لنبينا محمد ﷺ كما حكاه الله عنهم: ﴿ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾[1613].

﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ ﴾ أي والحال أنهم ما قتلوه كما زعموا تبجحاً بالجريمة، وما صلبوه كما ادعوا وشاع بين الناس، ﴿ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ أي وقع لهم الشبهة أو الشبه فظنوا أنهم صلبوا عيسى وإنما صلبوا غيره[1614]. وقوله تعالى: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴾: أي وما قتلوا عيسى ابن مريم متيقنين أنه هو عيسى بعينه[1615]. أو يجعل ﴿ يَقِينًۢا ﴾ تأكيداً لقوله ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ ﴾ فيكون المعنى ما قتلوه حقاً، تأكيداً لانتفاء قتله[1616]. وقد روي في سعي اليهود لقتله، أن اليهود لم يؤمنوا بعيسى بالرغم من المعجزات التي

(١٦١٠) تفسير ابن كثير ج٤ ص٣٦٠-٣٦١.

(١٦١١) سورة النساء الآيات ١٥٥-١٥٩.

(١٦١٢) تفسير ابن كثير ج١ ص٥٧٣-٥٧٤، تفسير الزمخشري ج٢ ص٥٧١، تفسير المنار ج٦ ص١٨٦.

(١٦١٣) سورة الحجر الآية ٦.

(١٦١٤) تفسير المنار ج٦ ص٢٣، ٢٤.

(١٦١٥) تفسير المنار ج٦ ص٢١، تفسير الزمخشري ج١ ص٥٨٧-٥٨٨.

(١٦١٦) تفسير الزمخشري ج١ ص٥٨٨.

أجراها الله على يده، حتى جعل عيسى عليه السلام لا يساكنهم في بلدة بل يكثر السياحة هو وأمه في الأرض يدعو إلى الله ولم يقنع اليهود ذلك فأرادوا قتله، وسعوا سعياً حثيثاً لتحقيق ما أرادوا. وروي أن رجلاً من اليهود جُعِل له جعلٌ ليدلهم على مكان عيسى فما زال يتعقبه حتى عرف مكانه فدلّ عليه، وروي أن الشبه ألقي على اليهودي الذي دلّ عليه فصلب(١٦١٧).

٧٧٦- رفع عيسى إلى السماء:

قال تعالى مخبراً عن حفظه لعبده عيسى من القتل، ورفعه إلى السماء: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ . . . بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾(١٦١٨) يعني: رفعه الله إلى سمائه وكرامته. وعيسى عليه السلام هو حيّ في السماء الثانية على ما تضمنه حديث المعراج الذي أخرجه البخاري، وفيه أن النبي ﷺ رأى عيسى عليه السلام في السماء الثانية، وهو هنالك مقيم حتى ينزله الله إلى الأرض ويقتل الدجال، كما جاءت بذلك الأخبار(١٦١٩). وكما أخبر الله تعالى بهذه الآية عن رفع عيسى إلى السماء، أخبرنا بذلك بآية أخرى. هي قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا . . . ﴾(١٦٢٠) قال جماعة من أهل المعاني منهم الضحاك والفراء في قوله تعالى: ﴿ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ ﴾ على التقديم والتأخير، لأن الواو لا توجب الترتيب.. والمعنى: إني رافعك إليَّ ومطهرك من الذين كفروا ومتوفيك بعد أن تنزل من السماء، كقوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ والتقدير: ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان لزاماً، وقال الحسن وابن جريج: معنى متوفيك: قابضك ورافعك إلى السماء من غير موت. وقال ابن زيد: متوفيك: قابضك، ومتوفيك ورافعك واحد ولم يمت بعد. وقال الربيع بن أنس: هي وفاة نوم، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ أي: ينيمكم، لأن النوم أخو الموت. قال القرطبي: والصحيح أن

(١٦١٧) تفسير الزمخشري، ج١ ص٥٨٧.

(١٦١٨) سورة النساء، الآيتان ١٥٧، ١٥٨.

(١٦١٩) تفسير ابن عطية ج٤ ص٢٨٧.

(١٦٢٠) سورة آل عمران، الآية ٥٥.

الله تعالى رفعه إلى السماء من غير وفاة ولا نوم، كما قال الحسن وابن زيد وهو اختيار الطبري، وهو الصحيح عن ابن عباس وقاله الضحاك[١٦٢١].

٧٧٧- نزول عيسى إلى الأرض:

قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾[١٦٢٢] والمعنى: وما من اليهود والنصارى أحد إلا ليؤمنن قبل موته بعيسى وبأنه عبد الله ورسوله، يعني إذا عاين قبل أن تزهق روحه حين لا ينفعه إيمانه، لانقطاع وقت التكليف. وقيل إن الضمير في ﴿قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ أي: قبل موت عيسى، بمعنى: وإن منهم أحد إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى، وهم أهل الكتاب الذين يكونون في زمان نزوله.

روي أنه ينزل من السماء إلى الأرض في آخر الزمان. فلا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا يؤمن به حتى تكون الملة واحدة، وهي ملة الإسلام، ويهلك الله في زمانه الدجال[١٦٢٣].

وقد وردت أحاديث في نزول عيسى من السماء إلى الأرض، منها حديث البخاري: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية»[١٦٢٤].

(١٦٢١) تفسير القرطبي ج٤ ص٩٩-١٠٠.

(١٦٢٢) سورة النساء الآية ١٥٨.

(١٦٢٣) تفسير ابن كثير ج١ ص٥٧٦، تفسير الزمخشري ج١ ص٥٨٩.

(١٦٢٤) تفسير ابن كثير ج١ ص٥٧٨.

المبحث الثاني
ما يستفاد من قصة عيسى للدعوة والدعاة

٧٧٨- أشياء كثيرة تستفاد من قصة عيسى:

يستفاد من قصة عيسى عليه السلام وأمه مريم أشياء كثيرة تتعلق بالدعوة وموضوعها الإسلام، وبالدعاة وهم يدعون إليه. وهذا المستفاد: (منه) ما يتعلق بالعقيدة الإسلامية، مثل ثبوت الكرامات للأولياء، وتمثل الملائكة بهيئة البشر. (ومنه) ما يتعلق بالأسباب، وأن الأخذ بها لا يقدح بالتوكل على الله، (ومنه) تحريم الغلو في الدين. (ومنه) ترك محاججة السفهاء، (ومنه) الخوارق والمعجزات لا تخرج صاحبها عن عبوديته لله، (ومنه) الشرك بالله بأي شكل كان كفر بالله، (ومنه) تعداد نعم الله وتذكرها، (ومنه) تيسر الأعوان على الدعوة إلى الله من نعم الله. (ومنه) من حكمة الله أنه يُري عباده عظيم قدرته وشمولها، (ومنه) رفع عيسى إلى السماء ونزوله منها من أمور العقيدة.

ما ذكرناه بعض ما يستفاد من قصة عيسى وأمه مريم عليهما السلام للدعوة وللدعاة. ونذكر فيما يلي شيئاً موجزاً عن هذه الأمور المستفادة.

٧٧٩- أولاً- المستفاد فيما يتعلق بالعقيدة الإسلامية:

من معاني العقيدة الإسلامية الإيمان بثبوت المعجزات للأنبياء، والكرامات للأولياء، والخوارق التي يشاء الله إحداثها. وقد ذكرنا ما قصه الله علينا من المعجزات التي أجراها الله على يد عيسى، كإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، وكلامه وهو في المهد.

كما ذكرنا ما قصه الله علينا من الكرامات لمريم، مثل الرزق الذي كان يأتيها وهي في محرابها، ومثل تساقط الرطب الجني بهزها جذع النخلة الميت.

ومن الخوارق التي أجراها الله تعالى رفعه لعيسى إلى السماء بروحه وجسده. فعلى الدعاة، إذا تطرقوا إلى شرح معاني العقيدة الإسلامية، أو سئلوا

عنها، أن يجيبوا عنها مثبتين لها -أي للخوارق -بكل صراحة ووضوح، ولا يجوز لهم صرفها عن معناها الحق أو تأويلها بما يخرجها عن حدود المعجزة والكرامة الخاصة بالولي أو بالخارق للعادة.

٧٨٠- جواز تمثل الملك بهيئة إنسان:

ومن معاني العقيدة الإسلامية الإيمان بجواز تمثل الملائكة بهيئة البشر. فقد ذكرنا في قصة مريم أن جبريل عليه السلام وهو من الملائكة المقربين تمثل لمريم بشراً سوياً. وقد ثبت في السنة النبوية أن جبريل عليه السلام تمثل بهيئة إنسان، وجاء إلى رسول الله ﷺ وسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان وعن الساعة وعلاماتها ثم انصرف، فقال ﷺ: «أتعرفون من هوالسائل؟» فقال: الحاضرون من أصحاب رسول الله: الله ورسوله أعلم، قال ﷺ: «هذا جبريل جاءكم يعلمكم دينكم».

فعلى الدعاة إذا شرحوا هذا الحديث النبوي أن يبينوا إمكان تمثل الملائكة بهيئة البشر، وأن هذا يكون بإذن الله ومشيئته. وقد أخبرنا الله بأنه أرسل ملائكة إلى لوط وقد مروا بإبراهيم وهم بهيئة بشر، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ۞ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾[١٦٢٥]، ولما وصلوا إلى لوط عليه السلام ونزلوا في بيته ورأوا قلقه عليهم من خبث قومه: ﴿ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ... ﴾[١٦٢٦].

ومما يتعلق بالعقيدة الإسلامية وجوب توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية وتحريم الشرك.

٧٨١- ثانياً- عدم مجادلة السفهاء:

قال تعالى: حكاية عما قال المنادي -عيسى أو جبريل- لمريم: ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ

(١٦٢٥) سورة هود الآيات ٦٩، ٧٠.

(١٦٢٦) سورة هود الآية ٢٦.

﴿ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾[1627]. وقد قال أهل التفسير إن من أسباب أمر مريم بنذر الصوم أي: الصمت عن الكلام، هو كراهة مجادلة السفهاء، مما يستدل بذلك على أن السكوت عن السفهاء مطلوب شرعاً[1628]. والواقع أن الإغضاء عن السفهاء وترك المقابلة معهم بالسفة والجدال أمر مستحب[1629]. قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾[1630].

فعلى الدعاة أن يترفعوا عن مجادلة السفهاء، ولا يقابلوهم بالسفه، بل يعرضوا عنهم، لأن هذا أصون لعرضهم، وأكرم لنفوسهم، ولأنه بهذا الأسلوب العملي يظهر خلق الدعاة وتمايزهم عن السفهاء والجهلاء.

٧٨٢- ثالثاً- الأخذ بالأسباب:

إن الأخذ بالأسباب لا يقدح في إيمان المسلم، ولا يناقض التوكل على الله تعالى، وقد رأينا أن الله أمر مريم على لسان من ناداها أن تهز جذع النخلة حتى تساقط عليها رطباً جنياً، قال تعالى: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾[1631]، وهز جذع النخلة سبب لتساقط الرطب. فعلى الدعاة أن يأخذوا بالأسباب المشروعة لإنجاح الدعوة، على أن يبقى اعتمادهم وتوكلهم على الله تعالى لا على ما باشروه من أسباب، كالفلاح الذي يحرث الأرض، ويبذر البذر، وينتظر الغيث من السماء، وصيانة الله لزرعه من الآفات، فتوكله واعتماده على الله في إنبات ما بذر، وسلامته إذا طلع. هذا وعلى الدعاة أن يعلموا أنَّ الأسباب المشروعة منها المادية ومنها المعنوية، ومن المادية إعداد القوة وأخذ الحذر، ومن الحذر الاختفاء عن أعين الأعداء، كما اختفى النبي ﷺ وصاحبه أبو بكر في الغار، وبقيا فيه ثلاثة أيام في بدء هجرتهم إلى المدينة. ومن الأسباب المعنوية الإعداد

(١٦٢٧) سورة مريم الآية ٢٦.

(١٦٢٨) انظر الفقرة ٧٥٧.

(١٦٢٩) تفسير الزمخشري ج٢ ص٢٩١.

(١٦٣٠) سورة الفرقان الآية ٦٣.

(١٦٣١) سورة مريم الآية ٢٥.

الروحي وتقوية معاني الإيمان في نفوس الدعاة وفي نفوس المنتسبين لجماعتهم.

٧٨٣- رابعاً- الابتعاد عن الغلو في الدين:

الغلو في الدين: تجاوز الحدود الشرعية، وقد نهى الله أهل الكتاب عن الغلو في الدين، فقال لهم: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾[١٦٣٢]، لأن الغلو يوقع صاحبه في مخالفة الشرع ويحسب أنه يحسن صنعاً. ولأن الغلو في الدين ابتداع فيه، والابتداع في الدين مرفوض وحرام، وفي الحديث النبوي الشريف «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ». وقد يوقع الغلو صاحبه في الكفر كما حصل لليهود والنصارى في عيسى عليه السلام. اليهود تجاوزوا الحدود الشرعية في عيسى عليه السلام وأمه، فأنزلوهما دون منزلتهما التي أنزلهما الله فيها، فكذبوا عيسى واتهموا أمه بالفاحشة، وأنه ليس بولد شرعي. والنصارى تجاوزوا الحدود الشرعية غلواً منهم بعيسى فجعلوه وأمه إلهين مع الله، فعلى الدعاة أن يقفوا في دعوتهم عند الحدود الشرعية، سواء كان هذا الوقوف من جهة وسائلهم في الدعوة، أو مناهجهم فيها، أو مواضيع الدعوة، وحتى في عبادتهم أو فيما يطالبون الناس به من أمور الدين. لا يغالوا في شيء من ذلك، وإنما يقفون عند حدود الشرع أي فيما أباحه أو استحبه أو أوجبه، ولا يقعون في مخالفته بارتكاب المحرم أو المكروه في الأسلوب أو المضمون أو الكيفية. وليعلموا أن المقبول من الأعمال عند الله هو ما كان صحيحاً خالصاً لوجه الله، والصحيح ما كان موافقاً للشرع في كيفيته وفي مضمونه. وليتذكر الدعاة مقالة أولئك النفر من الصحابة الذين تذاكروا في عباداتهم، فقال أحدهم: أنا أصوم ولا أفطر، وقال الآخر: أنا أصلي ولا أرقد، وقال الآخر: أنا أعتزل النساء. فلما بلغ النبيَّ ﷺ ما قالوه، قال: «أما أنا فأصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء، وهذه سنتي ومن رغب عن سنتي فليس مني» أو كما قال ﷺ.

٧٨٤- خامساً- تذكر نِعَمِ الله تعالى:

ذكرنا فيما سبق قوله تعالى لعيسى أن يذكر نعمته عليه وعلى والدته، قال تعالى:

(١٦٣٢) سورة النساء الآية ١٧١.

﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ . . . ﴾[١٦٣٣] وقد ذكرنا هذه النعم عليه وعلى والدته، وبينا الحكمة في أمر الله لعيسى بأن يذكر نعمته عليه وعلى والدته[١٦٣٤]، فعلى الدعاة أن يذكروا دائماً نِعمَ الله عليهم، وأعظمُ نعمه عليهم أن جعلهم مسلمين دعاة لدينه، وإذا رأوا نجاحاً في عملهم الدعويّ فليقولوا هذا من فضل الله ولْيقدموا الشكرَ على نعمه بزيادة الأعمال التي يحبها، وعلى رأسها بذل المزيد من الجهد في الدعوة إلى الله تعالى. ولا مانع من ذكر نعم الله على الدعاة للناس، قاصدين بهذا الذكر للناس تشجيعهم وحثهم على الاستجابة للدعوة، والانتماء إلى جماعة الدعاة، والاقتداء بالدعاة وعملهم، لأنهم مسلمون مطالبون بالدعوة إلى الله كما أن الدعاة مطالبون بذلك، فالتحديث بنعمة الله وذكرها والتصريح بها للناس أمر ممدوح إذا كان القصد حمل الناس على الاقتداء بهم وزيادة ثقتهم بالدعوة ودعاتها. ونستأنس لما نقول بقوله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾[١٦٣٥]. وعن عبدالله بن غالب، أنه كان إذا أصبح يقول: رزقني الله البارحة خيراً، قرأت كذا أو صليت كذا، فإذا قيل له: يا أبا فراس مثلك يقول مثل هذا؟ قال: يقول الله: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ وأنتم تقولون: لا تحدث بنعمة الله. وإنما يجوز مثل هذا إذا قصد به اقتداء الغير به وأمن على نفسه من فتنة الرياء[١٦٣٦].

٧٨٥- سادساً- من نعم الله الأعوان على الدعوة:

وليعلم الدعاة أن من نعم الله عليهم أن يهيىء لهم أعواناً على الدعوة، بأن يستجيبوا لدعوتهم ويقبلوا عليها ويعملوا معهم في سبيلها، ونستأنس لما نقول، إن الله تعالى جعل الحواريين الذين ألهمهم الاستجابة لدعوة عيسى والعمل معه لدينه، أقول جعل ذلك من نعمه تعالى على عيسى، قال تعالى في تعداده نعمه عليه: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾[١٦٣٧].

(١٦٣٣) سورة المائدة، الآيتان ١١٠، ١١١.

(١٦٣٤) انظر الفقرة ٧٧٣.

(١٦٣٥) سورة الضحى الآية ١١.

(١٦٣٦) تفسير الزمخشري ج٤ ص٧٦٩.

(١٦٣٧) سورة المائدة الآية ١١١.

وهؤلاء الحواريون صاروا أعواناً لعيسى على نشر الدعوة إلى الله تعالى ونصرة دينه، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ﴾(١٦٣٨) وعلى هذا فإذا هيأ الله تعالى للدعاة ولجماعتهم من استجابوا للدعوة، وانضموا للجماعة، فعلى الدعاة وجماعتهم أن يشكروا الله على ذلك، وأن يحرصوا على هؤلاء المستجبين لدعوتهم المنضمين إلى جماعتهم، وحرصهم عليهم يظهر في إشعارهم بالإخوة الإيمانية التي تربط فيما بينهم، وما يترتب على هذه الرابطة الإيمانية والأُخوَّة الإيمانية من تعاون ومحبة وتآلف بين قلوبهم، وأن يذكر الدعاة نعمة الله عليهم بهذا التآلف والترابط الإيماني والتعاون على نصرة دين الله والدعوة إليه، بعد أن كان هؤلاء المستجيبون للدعوة معارضين أو معرضين عنها ولكن الله هداهم إلى دعوته وألفَّ بينهم وبين الدعاة، وهذا من نعم الله تعالى، قال تعالى: ﴿ . . . وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾(١٦٣٩)، وقال تعالى مخاطباً نبيه ﷺ ممتناً عليه بتأييده بالمؤمنين وتأليف قلوبهم: ﴿ . . . فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(١٦٤٠).

(١٦٣٨) سورة الصف الآية ١٤.

(١٦٣٩) سورة آل عمران الآية ١٠٢.

(١٦٤٠) سورة الأنفال الآيتان ٦٢، ٦٣.

الفصل السابع عشر

قصة لقمان عليه السلام

المبحث الأول

خلاصة قصته وتفسير آيات وصيته لابنه

٧٨٦- هل كان لقمان نبياً؟

قال بنبوته عكرمة والشعبي. وقال بصلاحه فقط دون نبوته مجاهد وغيره، وعلى هذا جمهور أهل التأويل، قالوا: إنه كان ولياً ولم يكن نبياً. وقال الإمام القرطبي في تفسيره: والصواب أنه كان حكيماً بحكمة الله تعالى، أي كان ولياً موصوفاً بالحكمة[١٦٤١].

٧٨٧- إيتاء الله لقمان الحكمة:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾[١٦٤٢] وقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ أي أمرناه أن يشكر الله عز وجل على ما آتاه ومنحه ووهبه من الفضل الذي خصّه به دون سواه من أبناء جنسه وأهل زمانه. ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾[١٦٤٣] أي: إنما يعود نفع ذلك وثوابه على الشاكرين، لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾، ثم قال تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ أي: غني عن العباد لا يتضرر بذلك ولو كفر أهل الأرض كلهم جميعاً، فإنه سبحانه وتعالى هو الغني عما سواه[١٦٤٤].

(١٦٤١) تفسير ابن عطية ج١١ ص٤٨٩، تفسير ابن كثير ج٣ ص٤٤٣، تفسير القرطبي ج١٤ ص٥٩.
(١٦٤٢) سورة لقمان الآية ١٢.
(١٦٤٣) تفسير ابن عطية ج١١ ص٤٨٩.
(١٦٤٤) تفسير ابن كثير ج٣ ص٤٤٤.

٧٨٨- لقمان يعظ ابنه ويحذره من الشرك:

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[١٦٤٥] ذكر الله تعالى لقمان بالذكر الحسن وآتاه الحكمة، وأخبرنا تعالى بموعظته لابنه الذي هو أشفق الناس عليه، وأحبهم إليه، فهو حقيق أنه يمنحه أفضل ما يعرف، فما يريد الوالد لولده إلا الخير، وما يكون الوالد لولده إلا ناصحاً، ولهذا أوصاه أولاً: بأن يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً ثم قال محذراً له: ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ أي هو أعظم الظلم، لأن التسوية -بين من لا نعمة إلا هي منه وهو الله جلّ جلاله، وبين من لا نعمة منه البتة ولا يتصور أن تكون منه وهو ما سوى الله تعالى- ظلم لا يُكْتَنَهُ عِظَمُهُ[١٦٤٦].

٧٨٩- الوصية بالوالدين:

وبعد أن أوصى لقمان ابنه بعبادة الله وحده وحذره من الشرك، ذكرّه وأوصاه بالوالدين اللذين أوصى الله بهما، قال تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾[١٦٤٧]. فلقمان قرن بوصيته لولده بعبادة الله وحده وعدم الشرك، قرن بهذا وصيته له ببر الوالدين، وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين عبادته وحده وبين برّ الوالدين كقوله تعالى: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾.

ومعنى قوله تعالى: ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ﴾: أنها تضعف ضعفاً فوق ضعف، أي: يتزايد ضعفها ويتضاعف؛ لأن الحمل كلما ازداد وعظم ازدادت ثقلاً وضعفاً[١٦٤٨]. وقوله تعالى: ﴿ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ ﴾ أي: تربيته وإرضاعه بعد وضعه في عامين كما قال تعالى: ﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾[١٦٤٩]. وإنما يذكر الله تعالى ما تكابده الأم وتعانيه من المشاق والمتاعب

(١٦٤٥) سورة لقمان الآية ١٣.

(١٦٤٦) تفسير ابن كثير ج٣ ص٤٤٤، تفسير سيد قطب ج٥ ص٢٢٨٨.

(١٦٤٧) سورة لقمان الآية ١٤.

(١٦٤٨) تفسير الزمخشري ج٣ ص٤٩٤.

(١٦٤٩) سورة البقرة الآية ٢٣٣.

في حمله وفصاله وتربيته؛ ليذكَّرَ الولد بإحسانها المتقدم إليه، وإيجاباً للتوصية بالوالدة خصوصاً، وتذكيراً بحقها العظيم مفرداً، ومن ثمَّ قال رسول الله ﷺ لمن قال له: من أبرّ؟ قال: «أمك ثم أمك ثم أمك ثم أباك»[1650]. وقوله تعالى: ﴿ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ أي سأجزيك على ذلك أوفر الجزاء في الآخرة. وإنما قدم الأمر بشكر الله تعالى؛ لأنه هو المنعم الأول بالخلق والإيجاد، وشكر الوالدين المنعمين التاليين، وهذا يشعر بترتيب الواجبات والحقوق فيجيء شكر الله أولاً ويتلوه شكر الوالدين[1651].

٧٩٠- لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق:

قال تعالى في موضوع برّ الوالدين وحدود الطاعة لهما: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾[1652]. وبقية الوصية للولد في علاقته بوالديه، أن لا طاعة لهما على ولدهما في معصية الخالق. إن طاعة الوالدين من أظهر مظاهر برّهما، ولكن تسقط هذه الطاعة وتَحْرُمُ إذا كانت في معصية الخالق الله جلّ جلاله، لأن طاعته فيما يأمر به وينهى عنه مقدم على طاعة ما سواه، إذا تعارضت الطاعتان. ولكن سقوط طاعة الوالدين في هذه الحالة مقصور عليها لا يعني سقوط حقوق الوالدين الأخرى في غير مجال معصية الخالق، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ ﴾ أي: إن حرصا عليك كل الحرص على أن تتابعهما على دينهما فلاتقبل منهما ذلك، ولايمنعْك ذلك من أن تصاحبهما في الدنيا معروفاً، أي: محسناً لهما، قائماً بما يحتاجانه منك في أمور حياتهما ومعاشهما[1653]، والآية دليل صلة على الأبوين الكافرين بما أمكن من المال إن كانا فقيرين، وبخدمتهما وإلانة القول لهما وبدعائهما إلى الإسلام برفق[1654]، وقوله تعالى: ﴿ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ﴾ أي:

(١٦٥٠) تفسير ابن كثير ج٣ ص٤٤٥، تفسير الزمخشري ج٣ ص٤٩٥.

(١٦٥١) تفسير ابن كثير ج٣ ص٤٤٥، تفسير سيد قطب ج٥ ص٢٧٨٨.

(١٦٥٢) سورة لقمان الآية ١٥.

(١٦٥٣) تفسير ابن كثير ج٣ ص٤٤٥.

(١٦٥٤) تفسير ابن عطية ج١٢ ص٤٩٦، تفسير القرطبي ج١٤ ص٦٥.

اتبع سبيل من رجع إلى الله، أي رجع إلى الله بالتوحيد والإخلاص في الطاعات وعمل الصالحات وهم المؤمنون، ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: كناية عن الجزاء على الأعمال في الآخرة(١٦٥٥).

٧٩١- لا يخفى على الله شيء ويحاسب عليه:

قال لقمان في وعظه ووصيته لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾(١٦٥٦) أي أن السيئة أو الحسنة التي تصدر عن الإنسان مهما كانت صغيرة، حتى لوكانت في الصغر كحبة الخردل، ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: فتكن مع كونها في أقصى غايات الصغر، في أخفى مكان وأحرزه كجوف الصخرة، أو حيث كانت في العالم العلوي أو السفلي ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ أي: يحضرها ويحاسب عليها يوم القيامة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ أي: ينفذ علمه وقدرته في كل شيء، ﴿خَبِيرٌ﴾ أي: يعلم كنه الأشياء فلا يعسر عليه إحضار شيء والمحاسبة عليه، كقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾(١٦٥٧).

٧٩٢- الأمر بالصلاة وبأمور أخرى:

وقال لقمان في وصيته لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾(١٦٥٨)، ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: بحدودها وأركانها وأوقاتها، ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ أي: بقدر طاقتك وجهدك، ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ علم أن الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر لا بدّ أن يناله من الناس أذىفأمره بالصبر. وقوله: ﴿مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ أي: إن الصبر على أذى الناس من معزومات الأمور ومفروضاتها التي فرضها الله(١٦٥٩).

(١٦٥٥) تفسير القاسمي ج١٣ ص١٩٩-٢٠٠، تفسير ابن كثير ج٣ ص٤٤٥.
(١٦٥٦) سورة لقمان الآية ١٦.
(١٦٥٧) تفسير القاسمي ج١٣ ص٢٠٠.
(١٦٥٨) سورة لقمان الآية ١٧.
(١٦٥٩) تفسير ابن كثير ج٣ ص٤٤٦، تفسير الزمخشري ج٣ ص٤٩٦-٤٩٧.

٧٩٣- النهي عن الكبر:

وقال لقمان في وصيته لابنه: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾(١٦٦٠).

﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ أي: لا تعرض بوجهك عنهم إذا كلمتهم أو كلموك احتقاراً منك لهم، واستكباراً عليهم، ولكن أَلِنْ جانبك، وابسط وجهك إليهم، كما جاء في الحديث النبوي الشريف الذي أخرجه الترمذي «كل معروف صدقة، وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق...». وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ أي: خيلاء متكبراً. ﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ﴾ أي: توسط بين الدبيب والإسراع. ﴿ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴾ أي: انقص من رفعه فإنه يقبح بالرفع حتى ينكره الناس، فإن أنكر الأصوات أي: أوحشها لصوت الحمير(١٦٦١).

(١٦٦٠) سورة لقمان، الآيتان ١٨، ١٩.

(١٦٦١) تفسير القاسمي ج١٣ ص٢٠١-٢٠٢.

المبحث الثاني
المستفاد من وصية لقمان لابنه

٧٩٤- فوائد كثيرة في وصية لقمان لابنه:

يستفاد من قصة لقمان ووصيته له، أنه لم يترك ولده بلا عناية ولا توجيه، وإنما وعظه وعلمه مما يحتاجه وينتفع به، فتربية الآباء لأولادهم من الواجبات الشرعية عليهم. كما أن وصية لقمان لابنه شملت أمور العقيدة والعبادات والأخلاق وأمور المعاملات. كما أن وصية لقمان أشارت إلى وجوب أداء الحقوق إلى أهلها مرتبة حسب أولويتها. ويستفاد أيضاً منها حدود الطاعة الواجبة أو المحرمة للغير. ونتكلم عن هذه الأمور كما يلي:

٧٩٥- أولاً- عناية الآباء بأولادهم:

إن مما يجب على الدعاة ملاحظته والعناية به ضرورة عنايتهم بأولادهم؛ لأن أولادهم أولى الناس وأحقهم بعناية آبائهم: بتعليمهم ما يحتاجونه من أمور الدين وأحكامه، فليس من المقبول أن يعظ الدعاة الناس ويتركوا وعظ أولادهم وإرشادهم. وهذا التقصير من الدعاة نحو أولادهم ونحو أهليهم بصورة عامة أمرٌ مُشاهَد في كثير من الدعاة، مع أن الله تعالى أمر المسلمين بوقاية أنفسهم وأهليهم من النار، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾، ووقايتهم من النار تكون بتعليمهم ما يحتاجون معرفته من أمور الدين ومراقبتهم في تطبيق ما تعلموه. كما أن على الدعاة تذكير الناس في خطبهم ودروسهم واجبات الآباء نحو أولادهم من جهة تربيتهم التربية الإسلامية. وياحبذا لو جعل الآباء في منهجهم في تربية أولادهم وتعليمهم مفردات وصية لقمان لابنه.

٧٩٦- ثانياً- ما يشمله تعليم الآباء للأبناء:

وتعليم الآباء لأولادهم، ذكوراً كانوا أو إناثاً، يشمل أمور العقيدة الإسلامية، والعبادات التي أمر بها الإسلام، وكذلك الأخلاق التي أمر بالتحلي بها، ونبذ

الأخلاق الرديئة التي أمر بالتخلي عنها.

فمن أمور العقيدة توحيد الله وإفراده بالعبادة، وتعليمهم أن الله مطلع على أعمالهم لا يخفى عليه شيء، وأنه تعالى يحاسبهم عليها وإن كان عملهم بالغ الصغر كحبة الخردل، كذلك يجب على الآباء أن يربوا أولادهم على الشعور بمسؤولية المسلم عن صلاح وإصلاح المجتمع الذي يعيشون فيه، ويتم هذا بتعليمهم ما أوجبه الله على المسلم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كلٌ حسب قدرته واستطاعته، وأن يحثوهم على الصبر على ما ينالهم من أذى وهم يقومون بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأن هذا الأذى محتمل الوقوع، ولذلك أمر لقمان ابنه بالصبر على ما يصيبه من أذى الغير إذا قام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا يعني أن الإسلام لا يكتفي بصلاح الفرد بنفسه ولكن يريده أيضاً مصلحاً لغيره. وأن يعلموهم أن من مستلزمات قيامهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يقلعوا عن كل خلق ذميم ويتحلوا بكل خلق شرعي، لأن الغير ينظرون إلى الإسلام من خلال المسلمين وسلوكهم وأخلاقهم. فعلى الدعاة أن يبينوا هذه المعاني للناس ويعملوا بها نحو أولادهم ولا يغفلوا عنها.

٧٩٧- ثالثاً- ترتيب الحقوق والواجبات:

ومما يستفيده الدعاة مما جاء في قصة لقمان أو يتعلق بها ترتيب الحقوق والواجبات من حيث أولوياتها عند التطبيق والتنفيذ، ونستفيد هذا المعنى من قوله تعالى: ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ فالشكر أولاً لله؛ لأنه هو المنعم الأول، ثم للوالدين وهما المنعمان التاليان، ثم حق الأم مقدم عند التزاحم على حق الأب. فعلى الدعاة ملاحظة الترتيب في الحقوق والواجبات، فليس السابق في الدعوة كالجديد فيها، وليس المُمتَحن بالدعوة المُجرَّب في السراء والضراء مثل الذي لم يمتحن بمتطلبات الدعوة. وإذا لم يتساووا فيما ذكرنا، فلا يتساوون في حقوقهم وواجباتهم عند الجماعة المسلمة جماعة الدعاة، فيجب عليها تنزيل أتباعها منازلَهم من حيث الحقوقُ والواجباتُ.

٧٩٨- رابعاً- حدود الطاعة الواجبة والمحرمة:

ويستفاد مما جاء في الوصية بالوالدين ضمن وصية لقمان لابنه، أن للوالدين حق

الطاعة على ولدهما إلا إذا كانت الطاعة في معصية الخالق، وهذا مفهوم من قوله تعالى: ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا . . . ﴾، فإذا أمر الوالدان ولدهما بما هو محظور شرعاً كالشرك بالله حرم على الولد طاعتهما، أما إذا أمر الوالدان بما هو مباح وجبت طاعتهما. وقياساً على ذلك فإن للجماعة المسلمة -جماعة الدعاة- حق الطاعة على منتسبيها في حدود المعروف شرعاً، ولا طاعة لها إذا أمرت بما ليس بمشروع.

الفصل الثامن عشر
قصة ذي القرنين
المبحث الأول
خلاصة القصة وتفسير آياتها

٧٩٩- من هو ذو القرنين:

قال تعالى مخاطباً نبيه محمداً ﷺ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا..﴾[١٦٦٢] ولكن النص لم يذكر لنا من هم الذين سألوا هذا السؤال؟ هل هم اليهود أم هم بعض مشركي قريش؟ كما جاء في بعض الروايات، أم غيرهم؟، لا ندري على وجه التحقيق من الذي سأل هذا السؤال، ولكن المعرفة به لا تزيد شيئاً في دلالة القصة - ثم إن النص لا يذكر شيئاً عن شخصية ذي القرنين ولا عن زمانه أو مكانه. وهذه هي السمة المطردة في قصص القرآن، فالتسجيل التاريخي ليس هو المقصود، إنما المقصود هو العبرة المستفادة من القصة، والعبرة تتحقق بدون حاجة إلى تحديد الزمان والمكان في أغلب الأحيان[١٦٦٣]. ولم يذكر لنا القرآن سبب تسميته بذي القرنين، ولكن جاء في بعض الروايات أنه كان ذا ضفيرتين من شعر فسمي بهما[١٦٦٤].

٨٠٠- هل كان ذو القرنين نبياً؟

قال البعض: كان عبداً صالحاً ملكاً أعطاه الله العلم والحكمة والتمكين في الأرض ولم يكن نبياً. وقال البعض الآخر: كان نبياً[١٦٦٥]. والحقيقة لا يوجد في

(١٦٦٢) سورة الكهف، الآية ٨٣.

(١٦٦٣) تفسير سيد قطب ج٤ ص٢٢٨٩.

(١٦٦٤) تفسير ابن عطية ج٩، ص٣٨٥.

(١٦٦٥) تفسير الزمخشري ج٢ ص٧٤٣.

القرآن تصريح بنبوته، ولكن يوجد تصريح بصلاحه وبإيمانه بالله وباليوم الآخر كما سيأتي بيانه فيما بعد.

٨٠١- التمكين لذي القرنين في الأرض:

قال تعالى عن تمكينه لذي القرنين في الأرض: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾[١٦٦٦].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: بالقوة والرأي والتدبير والسعة في المال والاستظهار بالعدد، وأعطاه الله ملكاً عظيماً ممكناً فيه من جميع ما يؤتى الملوك من التمكين والجنود وآلات الحرب، ويسرّ له أسباب الحكم والفتح، وأسباب البناء والعمران والسلطان، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾ أي: طريقاً موصلاً إليه. والسبب ما يُتوصَل به إلى المقصود من علم أو قدرة أو آلة[١٦٦٧].

٨٠٢- وصوله إلى مغرب الشمس:

أراد ذو القرنين بلوغ مغرب الشمس ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾[١٦٦٨] يوصله إليه فبلغه[١٦٦٩]. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾[١٦٧٠] ومغرب الشمس هو المكان الذي يرى الرائي أن الشمس تغرب عنده وراء الأفق وهو يختلف بالنسبة للمواضع، فبعض المواضع يرى الرائي فيها أن الشمس تغرب خلف جبل، وفي بعض المواضع يرى الرائي أنها تغرب في الماء كما في المحيطات. والظاهر أن ذا القرنين غربَّ حتى وصل إلى نقطة على شاطىء المحيط الأطلسي - وكان يسمى بحر الظلمات- فرأى الشمس تغرب فيه. والأرجح أنه كان عند مصب أحد الأنهار حيث تكثر الأعشاب ويتجمع حولها طين لزج هو الحمأ. وتوجد البرك وكأنها عيون الماء فرأى الشمس تغرب هناك و ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾[١٦٧١].

(١٦٦٦) سورة الكهف، الآية ٨٤.

(١٦٦٧) تفسير القاسمي ج١١ ص٨٣.

(١٦٦٨) سورة الكهف الآية ٨٥.

(١٦٦٩) تفسير الزمخشري ج٢ ص٧٤٣.

(١٦٧٠) سورة الكهف الآية ٨٦.

(١٦٧١) تفسير سيد قطب ج٤ ص٢٢٩١.

٨٠٣- ماذا وجد ذو القرنين عند مغرب الشمس؟

قال تعالى: ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾[١٦٧٢] أي: ووجد عند العين الحمئة التي رأى ذو القرنين الشمس تغرب فيها، قوماً أي: أمة من الأمم الكافرة. وقوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ معنى هذا أن الله تعالى مكنّهُ وحكمّه فيهم، وخيرّه إن شاء قتل وسبى وإن شاءَ منَّ أو فدى. وقال الطبري خيرّه فيهم إذا ظلوا على كفرهم بين قتلهم أو أسرهم[١٦٧٣].

٨٠٤- حكم ذي القرنين فيمن وجدهم عند مغرب الشمس:

قلنا: إن الله تعالى خيرَّ ذاَ القرنين فيما يفعله في الأمة الكافرة التي وجدها عند مغرب الشمس، أما الحكم الذي اختاره ذو القرنين فهو ما جاء في قوله الله حكاية عن قول ذي القرنين: ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾[١٦٧٤]. ومعنى ذلك أنَّ ﴿مَن ظَلَمَ﴾ أي: استمر على كفره وشركه ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ أي: بالقتل ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ أي: شديداً بليغاً وجيعاً أليماً لم يعهد مثله[١٦٧٥]. وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾[١٦٧٦] أي: من آمن بأن تابعنا على ما ندعو إليه من عبادة الله وحده لا شريك له ﴿فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: في الدار الآخرة عند الله عز وجل ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ أي: معروفاً[١٦٧٧].

٨٠٥- ذو القرنين يصل إلى مطلع الشمس:

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾[١٦٧٨]. يقول تعالى: ثم سلك طريقاً فسار من مغرب الشمس إلى مطلعها،

(١٦٧٢) سورة الكهف الآية ٨٦.

(١٦٧٣) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٠٢، تفسير ابن عطية ج٩ ص٣٩٧.

(١٦٧٤) سورة الكهف الآية ٨٧.

(١٦٧٥) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٠٢.

(١٦٧٦) سورة الكهف الآية ٨٨.

(١٦٧٧) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٠٢.

(١٦٧٨) سورة الكهف الآيتان ٨٩، ٩٠.

ولما انتهى إلى مطلع الشمس من الأرض ﴿ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴾ أي: ليس لهم بناء يكنهم ولا أشجار تظلهم وتسترهم من حرّ الشمس[١٦٧٩].

قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴾[١٦٨٠]. قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي: أمرُ ذي القرنين كما وصفناه في رفعة المكان وبسطة الملك. أو كذلك أمره فيهم كأمره في أهل المغرب من الحكم المتقدم، ﴿ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴾ أي: علماً، أي: نحن مطلعون على جميع أحواله وأحوال جيشه لا يخفى علينا منه شيء[١٦٨١].

٨٠٦- ذو القرنين يصل إلى بين السدين:

قال تعالى ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾[١٦٨٢]. قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ أي سلك طريقاً ثالثاً معترضاً بين المشرق والمغرب. قوله: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ ﴾ وهما جبلان بينهما فجوة أو ثغرة أو ممر. قوله: ﴿ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾، أي: وجد ذو القرنين من وراء السدين قوماً لا يكادون يفقهون قولاً؛ لاختلاف لغتهم عن لغات غيرهم لكنهم فهموا بالترجمة أو بالإشارة أو بوسيلة أخرى[١٦٨٣].

٨٠٧- إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض:

قال تعالى: ﴿ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾[١٦٨٤] أي: قال أولئك القوم الذين وجدهم ذو القرنين وراء الجبلين، قال أولئك القوم لذي القرنين: إن يأجوج ومأجوج مفسدون في أرضهم ويهلكون الحرث والنسل، وعرضوا عليه خرجاً أي: أجراً عظيماً، أي: مالاً كثيراً يجمعونه من أموالهم ويقدمونه له حتى يجعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج سداً، أي: حاجزاً يمنع خروجهم إليهم.

(١٦٧٩) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٠٣.
(١٦٨٠) سورة الكهف الآية ٩١.
(١٦٨١) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٠٣.
(١٦٨٢) سورة الكهف الآيتان ٩٢، ٩٣.
(١٦٨٣) تفسير ابن عطية ج٩ ص٤٠١، تفسير ابن كثير ج٣ ص١٠٣.
(١٦٨٤) سورة الكهف الآيتان ٩٤، ٩٥.

فقال ذو القرنين رداً على ما عرضوه عليه: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ أي: إن الذي أعطاني الله من الملك والمال والتمكين خير لي من المال الذي تريدون جمعه لي، فلا حاجة بي إليه ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ أي: ولكن ساعدوني بقوة أي بعملكم وبآلات البناء ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ أي: حاجزاً حصيناً(١٦٨٥).

٨٠٨- ذو القرنين يبني السدّ لمنع فساد يأجوج ومأجوج:

وبعد تلك المحاورة بين ذي القرنين وبين أولئك المتضررين من يأجوج ومأجوج، قال لهم ذو القرنين: ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾(١٦٨٦). ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ﴾ أي: قطعه، وكوّمها في الفتحة بين الجبلين فأصبحا كأنهما صدفتان تغلقان ذلك الكوم من قطع الحديد بينهما ﴿حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾، وأصبح الركام من قطع الحديد بمساواة قمتي الجبلين ﴿قَالَ انفُخُوا﴾ أي: قال ذو القرنين: انفخوا على النار لتسخين الحديد ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا﴾ أي: المنفوخ فيه ﴿نَارًا﴾ أي: كالنار بالإحماء لشدة توهجه وإحمراره، ﴿قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ أي: نحاساً مذاباً يتخلل الحديد ويختلط به فيزيده صلابة فيتدعم به البناء ويشتد(١٦٨٧).

٨٠٩- عجز يأجوج ومأجوج عن اقتحام السدّ:

قال تعالى عن يأجوج ومأجوج وعجزهم عن اقتحام السدّ: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾(١٦٨٨) وبذلك الذي فعله ذو القرنين التحم الحاجزان -الجبلان- وأغلق الطريق على يأجوج ومأجوج، ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ﴾ أي: يعلوه بالصعود؛ لارتفاعه وملاسته، ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾؛ لثخنه وصلابته(١٦٨٩).

٨١٠- ما قاله ذو القرنين بعد بناء السدّ:

قال تعالى حكاية عما قاله ذو القرنين بعد فراغه من بناء السد: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي

(١٦٨٥) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٠٤، تفسير القاسمي ج١١ ص٨٦.

(١٦٨٦) سورة الكهف الآية ٩٦.

(١٦٨٧) تفسير سيد قطب ج٤ ص٢٢٩٢-٢٢٩٣، تفسير القاسمي ج١١ ص٨٦-٨٧.

(١٦٨٨) سورة الكهف الآية ٩٧.

(١٦٨٩) تفسير سيد قطب ج٤ ص٢٢٩٣، تفسير القاسمي ج١١ ص٨٧.

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾[١٦٩٠] أي لما فرغ ذو القرنين من بناء السدّ: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ أي: بالناس حيث جعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج حائلاً يمنعهم من العبث والفساد في الأرض، ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ بخراب السدّ ﴿جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ﴾ أي ساواه بالأرض ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ أي كائناً لا محالة[١٦٩١].

وهكذا لم يأخذ ذا القرنين البطرُ والغرورُ وهو ينظر إلى السدّ العظيم الذي بناه، وإنما ذكر ربّه وقال: إن هذا الذي تمَّ من بناء السد هو محض رحمة من الله بالناس، وما هو إلا سبب بإيجاده، وفوض إليه الأمر وأعلن ما يؤمن به من أنَّ الجبال والحواجز والسدود ستدك قبل يوم القيامة فتعود الأرض سطحاً أجرد مستوياً[١٦٩٢].

إن تذكر المسلم فضل الله عليه عند قيامه بعمل عظيم، أو عند ظفره بنجاح كبير، هذا التذكر ينفي عنه الغرور، والعجب بالنفس، والتكبر على الناس، وكل هذه الأوصاف رذائل تفسد العمل وتمحق بركته. وسأتكلم عن هذه المسألة عند الكلام على ما يستفاد من قصة ذي القرنين للدعوة والدعاة إن شاء الله تعالى.

(١٦٩٠) سورة الكهف الآية ٩٨.

(١٦٩١) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٠٥، تفسير القاسمي ج١١ ص٨٧.

(١٦٩٢) تفسير سيد قطب ج٤، ص٢٢٩٣.

المبحث الثاني

ما يستفاد من قصة ذي القرنين للدعوة والدعاة

٨١١- في قصة ذي القرنين فوائد كثيرة:

في قصة ذي القرنين فوائد وعبر كثيرة للدعوة والدعاة منها:

أولاً- التمكين في الأرض من نعم الله على عبده.
ثانياً - الخروج لقمع الفساد وإعلاء كلمة الله في الأرض.
ثالثاً - التفريق بين المسيء والمحسن في المنزلة والجزاء.
رابعاً - مساعدة المظلومين.
خامساً - دفع الشر بأيسر ما يندفع به.
سادساً - تذكر فضل الله عند القيام بالعمل الصالح.

ونتكلم فيما يلي بإيجاز عن هذه الفوائد والعبر المستفادة من قصة ذي القرنين.

٨١٢- أولاً- التمكين في الأرض من نعم الله على عبده:

امتن الله على عبده ذي القرنين بالتمكين في الأرض وبإيتاء الله له من كل شيء سبباً. وقد ذكرنا أقوال المفسرين بالمقصود بالتمكين، وأن من معانيه القوة وتولي الحكم و السلطة والغلبة على الأعداء. كما بينا المقصود بإيتاء الله له من كل شيء سبباً، وهو إعطاء الله ما يتوصل به ذو القرنين من علم وغيره إلى مقصوده. فلا يضير الجماعة المسلمة أن تتطلع إلى الحكم والسلطة لتنفذ حكم الشرع وتعلي كلمة الله في الأرض كما فعل ذو القرنين؛ لأن الحكم وتوليه نعمة، والتطلع إلى نوال نعمة الله أمر مشروع. ولكن يجب على الدعاة وجماعتهم أن يحققوا لأنفسهم وفيمن حولهم أسباب التمكين لتحصيل العلم وتكثير عددهم ومؤيديهم والمنتسبين إلى جماعتهم.
كما أن على الدعاة أن يبينوا للمسلمين في وعظهم وإرشادهم وإلقاء الدروس والمحاضرات لهم، أنَّ عليهم أن يسعوا إلى تحصيل معاني التمكين وأسبابه من قوة وعلم ووعي ديني واعتصام بحبل الله المتين، وبا،لوحدة فيما بينهم، وبتكثير سواد

العاملين للإسلام وهم الدعاة وذلك بالإنتماء إلى جمعيتهم. وعلى الدعاة أيضاً أن يوجهوا نصحهم إلى ولاة المسلمين وحكامهم، بأن يعملوا ما يؤهلهم إلى الظفر بنعمة الله بالتمكين في الأرض، وعلى رأس هذا العمل المطلوب منهم الالتزام بشرع الله إيماناً به وتطبيقاً له، مع الأخذ بوسائل القوة المادية المختلفة.

٨١٣- ثانياً- الخروج لقمع الفساد وإعلاء كلمة الله في الأرض:

الحاكم الصالح يسعى إلى قمع الفساد وإعلاء كلمة الله في الأرض، فلا يكتفي بالبقاء في بلده ما دام يستطيع الخروج إلى خارجه، كما فعل ذو القرنين حيث سار غرباً وشرقاً للقضاء على الفساد في الأرض وإعلاء كلمة الله فيها. وعلى هذا فإن الحاكم المسلم إذا أوتي قوة كافية فعليه الخروج والزحف إلى الدول الكافرة وإخضاعها إلى حكمه، إن هي رفضت الإسلام، فما ينبغي للكفر والكافرين أن يحكموا ويتحكموا في رقاب العباد، ولأن حكم الطواغيت في الأرض منكر عظيم، ومن واجب الحاكم المسلم ودولته المسلمة إزالة هذا المنكر، وإزالته من مظاهر الدعوة إلى الله وإعلاء كلمته في الأرض، فعلى الدعاة تبيين هذه الحقيقة للناس وللحكام، لأنها من معاني الإسلام الذي يدعون إليه.

ويستفاد أيضاً من خروج ذي القرنين من بلده وتنقله في الأرض لنشر العدل والحق، وقمع الكفر وأهله، أن على الدعاة المسلمين أن يخرجوا إلى كل مكان يمكنهم الوصول إليه لتبليغ الناس معاني الدعوة الإسلامية. وما ينبغي للدعاة البقاء في أماكنهم ينتظرون مجيء الناس إليهم ليبلغوهم الدعوة، فإن من حق المدعوين أن يأتيهم الدعاة كما كان يفعل ﷺ حتى إنه انتقل إلى الطائف يبلغ أهلها دعوة الإسلام.

وعلى حكام المسلمين أن يمكّنوا الدعاة من التنقل في أرجاء بلدهم ليقوموا بنشر الدعوة بين المسلمين؛ لأن منعهم يدخل في مفهوم الصد عن سبيل الله. وعلى الدعاة تذكيرهم بواجبهم في نشر الدعوة، وإذا لم يستطيعوا -أي الحكام وولاة الأمر- ذلك بأنفسهم، فليرسلوا الدعاة إلى كل مكان في بلادهم وفي خارج بلادهم، وهذا بعض ما يجب على ولاة أمر المسلمين، وإذا قصروا في هذا الواجب فعلى الدعاة أن يطلبوا من عموم المسلمين القيام بهذا الواجب بالعمل على إيجاد

القادرين على نشر الدعوة، وتعليم الناس أحكام الإسلام بإيجاد المعاهد الإسلامية التي يتخرج فيها العلماء والدعاة.

٨١٤- ثالثاً - التفريق بين المسيء والمحسن في المنزلة والجزاء:

ومن السياسة الرشيدة للحاكم الصالح التي يستفيدها الدعاة من قصة ذي القرنين ويشيعونها بين الناس ويذكّرون حكام المسلمين بها هي: التفريق بين المسيء والمحسن، وبين الظالم والعادل، فالظالم ينبغي أن ينال ما يستحق من ردع وزجر وعقاب، والمحسن ينبغي أن ينال ما يستحق من تكريم وجزاء حسن، وهذه السياسة هي التي أعلنها ذو القرنين وأخبرنا الله بها، ولم ينكرها، فدلّ على رضاه تعالى عليها، قال تعالى مخبراً عنها: ﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾(١٦٩٣).

والحقيقة أنَّ ما فعله ذو القرنين وأعلنه من سياسته الرشيدة في الحكم، هو بعض ما أَمَرَتْ به الشريعة الإسلامية، وأخبرتنا به باعتباره من سنة الله التي لا تتبدل، قال تعالى: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾(١٦٩٤)، وقد دلت هذه الآية على أن الله تعالى قد نفى المساواة بين المؤمنين والكفار، وبين المتقين والفجار، فلا تساوي بينهم في الجزاء في الآخرة، ولا مساواة بينهم أيضاً في الدنيا(١٦٩٥).

ومن أثر هذه السياسة الرشيدة في الحكم، أن الصالحين المحسنين يجدون التكريم والكرامة من الحكام، ومن مظاهر تكريمهم إنزالهم المنزلة التي يستحقونها، ومن هذه المنزلة تقريبهم إليهم والاستماع إلى نصحهم ومشورتهم. أما الظالمون المعتدون فلا يلقون من الجزاء إلا ما يستحقون، ومن هذا الجزاء العقاب، ومن عقابهم أيضاً إبعادهم عن منازل المسؤولية وعدم إناطة وظائف الدولة بهم وعَدَمَ تقريبهم من ذوي الحكم والسلطان. وبهذه السياسة تستقيم الأمور وتنصلح الأحوال، ويروج سوق العدل والإحسان، ويكسد سوق الظلم

(١٦٩٣) سورة الكهف الآيتان ٨٧، ٨٨.

(١٦٩٤) سورة ص الآية ٢٨.

(١٦٩٥) أحكام القرآن لابن العربي المالكي ج٤ ص١٦٣٤.

والطغيان. فعلى الدعاة أن يذكّروا الحكام بهذه المعاني، وهي بعض ما تشتمل عليه السياسة الرشيدة في الحكم في المنظور الإسلامي. كما أن على الجماعة المسلمة -جماعة الدعاة- أن تنزّلَ منتسبيها منازلهم التي يستحقونها، وأن تؤاخذ المنحرف من منتسبيها بما يستحقه من نصح وإرشاد وتقويم، ثم إنذار ثم توبيخ ثم إبعاد، إن لم تفد معه وسائل الإصلاح؛ لأنه ليس من حق الجماعة أن تتستر على من يعتبر من منتسبيها، تتستر على اعوجاجه وانحرافه؛ لأن هذا يسيء إلى سمعتها وثقة الناس بها وبالتالي يؤدي إلى العزوف عنها، وهذا لا يجوز في شرع الله، فلا يجوز سببه وهو إغضاء الطرف عن المنحرف من منتسبيها. وكما أن الجماعة تعامل المسيء من منتسبيها بما يستحقه من المعاملة، فإنها تعامل المحسنين من أعضائها بما يناسب إحسانهم من تكريم وزيادة ثقة بهم وإناطة أعمال بهم.

٨١٥- رابعاً- مساعدة المظلومين:

ومما يستفاد من قصة ذي القرنين: وجوب مساعدة المظلومين من قبل القادرين بلا أجر على هذه المساعدة، إكتفاء بما أنعم الله به على القادرين من مال ونحوه مما يُحتاج إليه في إعانة المظلومين. فقد رأينا أن ذا القرنين استجاب للقوم في طلبهم منه بناء السدّ، لتخليصهم من اعتداءات وهجمات يأجوج ومأجوج عليهم، وأنهم عرضوا على ذي القرنين أن يقدموا له عوضاً عن بناء السد مالاً كثيراً، فرفضه ذو القرنين وقال لهم: ﴿ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ . . . ﴾. ولكن لا مانع من أن يطلب منهم أن يعينوه بما يستطيعونه لإنجاز ما طلبوه منه، مما يدفع عنهم ظلم الظالمين، ولذلك طلب منهم ذو القرنين أن يعينوه بقوتهم البدنية وبما يقدمونه من لوازم بناء السدّ، قال تعالى مخبراً عما طلبه منهم: ﴿ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا . . . ﴾[١٦٩٦]، فعلى الدعاة أن يمدوا يدّ العون إلى المظلومين والمعتدى عليهم، لدفع الظلم والاعتداء عنهم بكل وسيلة ممكنة لديهم، إما باستعمال جاههم ومنزلتهم، وإما بنصح الظالمين وتحذيرهم من غضب الله وتذكيرهم بسوء عاقبة الظالمين، أو باستعداء السلطة الحاكمة على هؤلاء الظالمين، أو بعمل مادي يزيل الظلم عن

(١٦٩٦) سورة الكهف الآيتان ٩٥، ٩٦.

المظلومين كما في العمل المادي لذي القرنين حيث بنى لهم السدّ. ولا مانع أن يطلب منهم ما يقدرون على فعله وتقديمه لإنجاز ما يندفع به عنهم الظلم والاعتداء. ولكن لا يجوز للدعاة أن يأخذوا أجراً لأنفسهم على عملهم ما داموا مستغنين عنه.

٨١٦- خامساً- دفع الشر بأيسر ما يندفع به:

ويلاحظ في بناء السدّ لدفع شر يأجوج ومأجوج، أن ذا القرنين سلك هذا المسلك، وهو بناء السدّ، لأنه يحقق دفع الشر والضر المتأتي من يأجوج ومأجوج عن أولئك القوم المستضعفين، ولم يسلك ذو القرنين وسيلة قتال يأجوج ومأجوج. وهذا قد يكون مرده أن قتالهم لا يستأصل قدرتهم على العدوان، أو أن مفاسده أكثر من مصالحه، أو لأن بناء السدّ يكفي لتحقيق مقصود المستضعفين وهو منع هجمات يأجوج ومأجوج عليهم، وهذا هو المطلوب وهو مقصودهم. ويستفاد من ذلك أن على الدعاة أن يدفعوا الشر والضر والأذى والمعوقات عنهم وعن الدعوة بأيسر الوسائل وأهونها، وبما لا يشغلهم عن الدعوة. وعلى الدعاة أيضاً أن لا يبخلوا على المظلومين في مساعدتهم لهم، بل عليهم أن يبادروا إلى هذه المساعدة، تنفيذاً لأمر الشرع بذلك وليكون الله في عونهم، ففي الحديث الشريف «والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه» أو كما قال ﷺ. وأيضاً فإن إعانة الدعاة للمظلومين وسيلة عملية لتقريبهم من الدعوة وجرهم إليها. وتجد هذه الوسيلةُ سندَها بالإضافة إلى ما قلناه- بدفع الزكاة للمؤلفة قلوبهم.

٨١٧- سادساً - تذكر فضل الله عند القيام بالعمل الصالح:

عندما أنجز ذو القرنين عمله العظيم وهو بناء السدّ، لم يأخذه البطرُ والغرورُ وإضافة هذا الإنجاز العظيم إلى نفسه وعلمه، وإنما ذكر ربه واستحضر فضله العظيم عليه وأن ما حصل على يده هو محض فضل من الله، ورحمة منه لأولئك المستضعفين، لحمايتهم من الاعتداءات، ورحمة بالمعتدين بمنعهم من الاعتداء. فعلى الدعاة أن لا يأخذهم البطر والغرور والعجب بالنفس إذا قاموا بعمل جيد، أو تيسر لهم نجاح في عملهم، أو إذا رأوا إقبال الناس عليهم، وإنما عليهم أن يذكروا فضل الله، وأنه لولا فضلُهُ وتوفيقُهُ لما تيسر لهم أي عمل أو أي نجاح. ليتذكروا

موقف رسولنا الكريم ﷺ وقد يسرَّ الله له فتح مكة، لقد دخلها ﷺ منكساً رأسه تواضعاً منه لله رب العالمين، واعترافاً بفضله. إن على الدعاة أن يتذكروا ذلك. وإياهم ثم إياهم أن يأخذهم العُجْبُ بالنفس ونسيان فضل الله عليهم وتوفيقه لهم فيما أنجزوه من أعمال، أو تَيَسَّرَ لهم من نجاح في دعوتهم.

الفصل التاسع عشر
قصة قارون

المبحث الأول
خلاصة القصة وتفسير آياتها

٨١٨- قارون، وبغيه وكثرة أمواله:

قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ. . . ﴾[١٦٩٧].

قارون من قوم موسى عليه السلام، واختلف الناس في قرابته لموسى، فقيل هو عمه، وقيل هو ابن عمه وقيل ابن خالته، فهو باجماع رجل من بني إسرائيل. وكان ممن آمن بموسى وحفظ التوراة، وكان عند موسى عليه السلام من عبَّاد المؤمنين، ثم لحقه الزهو والإعجاب. فبغى على قومه بأنوع البغي، فمن ذلك كفره بموسى، واستخفافه به وبقومه لكثرة ماله وولده، وبظلمه لهم[١٦٩٨]. وبتكبره والاستطالة عليهم[١٦٩٩].

وقوله تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ ﴾ أي: وآتاه الله تعالى من الكنوز أي :من الأموال ﴿ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ ﴾ وهو جمع «مِفتح» وهو ما يفتح به، ﴿ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ ﴾ أي: لَتُنِيء العصبة أي: تميلها بثقلها أو تجعلها تنهض متثاقلة بها. والعصبة هي الجماعة التي يتعصب بعضهم لبعض، وفي عددها أقوال، فقيل: هي من الثلاثة إلى العشرة وقيل: هي أكثر من ذلك[١٧٠٠].

(١٦٩٧) سورة القصص، الآية ٧٦.

(١٦٩٨) تفسير ابن عطية ج١١ ص٣٢٩، تفسير القرطبي ج١٣ ص٣١٠.

(١٦٩٩) تفسير القاسمي ج١٣ ص١٢٥.

(١٧٠٠) تفسير القرطبي ج١٣ ص٣١٠-٣١١.

٨١٩- نصيحة المؤمنين لقارون:

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ۝٧٦ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[١٧٠١]. ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ أي: المؤمنون من بني إسرائيل، قاله السدّي[١٧٠٢].

أولاً- لا تفرح..

﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ أي وعظه فيما هو فيه صالحُ قومه فقالوا له على سبيل النصح والإرشاد: لا تفرح بما أنت فيه، يعنون لا يصبْكَ البطر بما أنت فيه من المال[١٧٠٣]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ أي: هذا الفرح الذي أنت فيه، فرح البطرين، الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم، ولما في هذا الفرح من دلالة على إيثارك الدنيا على الآخرة والإخلاد إليها[١٧٠٤].

ثانياً- وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة:

﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ أي: استعمل ما وهبك الله من هذا المال الجزيل والنعمة الطائلة في طاعة ربك، والتقرب إليه بأنواع القربات التي يحصل لك بها الثواب الجزيل في الآخرة. ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: مما أباح الله فيها من المآكل والمشارب والملابس والمساكن والمناكح[١٧٠٥]، أي: فلك أن تأخذ من هذه المباحات ما يصلحك ويرفهك[١٧٠٦]. وفي هذا يتمثل اعتدال المنهج الإلهي القويم... المنهج الذي يعلق قلب صاحب المال الوفير بالآخرة، ولا يحرمه أن يأخذ بقسط من متاع الدنيا المباح، بل يحضه على هذا ويكلفه إياه تكليفاً[١٧٠٧]، كي

(١٧٠١) سورة القصص الآيتان ٧٦، ٧٧.
(١٧٠٢) تفسير القرطبي ج١٣ ص٣١٣.
(١٧٠٣) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣١٩.
(١٧٠٤) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣١٩، تفسير القاسمي ج١٣ ص٢١٦.
(١٧٠٥) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣١٩.
(١٧٠٦) تفسير القاسمي ج١٣ ص١٢٦.
(١٧٠٧) تفسير سيد قطب ج٥ ص٢٧١٠.

لا يزهد الزهد الذي لا معنى فيه إلا الزهد فيما أحلّه الله لعباده من الطيبات، وليس هذا بالزهد المطلوب المشروع.

ثالثاً- وأحسن كما أحسن الله إليك:

وقال تعالى حكاية عن نصيحة المؤمنين لقارون: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أي أحسن إلى خلقه كما أحسن هو إليك[١٧٠٨]. أو أطعه واعبده كما أنعم عليك[١٧٠٩].

رابعاً- ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[١٧١٠]:

أي لا تكن همتك بما أنت فيه أن تفسد به في الأرض، وتسيء إلى خلق الله[١٧١١].

٨٢٠- جواب قارون على نصيحة المؤمنين:

قال الله تعالى حكاية عما قاله قارون جواباً على نصيحة المؤمنين من قومه له: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ...﴾[١٧١٢] أي هذا الذي أُوتيته من المال إنما حصلت عليه علىعلم عندي بوجوه التجارة والمكاسب، ولعلمه تعالى باستحقاقي لما حصلتِ عليه من مال، لعلمه تعالى بما عندي من فضل على سائر الناس[١٧١٣].

٨٢١- الرد على جواب قارون:

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾[١٧١٤] أي كان عليه -أي قارون- أن يعلم بأن الله تعالى قد أهلك من قبله أجيالاً لكفرهم، وكانت أشد منه قوة وأكثر

(١٧٠٨) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣١٩.
(١٧٠٩) تفسير القرطبي ج١٣ ص٣١٤.
(١٧١٠) سورة القصص الآية ٧٧.
(١٧١١) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣١٩.
(١٧١٢) سورة القصص الآية ٧٨.
(١٧١٣) تفسير الزمخشري ج٣ ص٤١٣ وتفسير القرطبي ج١٣ ص٣١٥.
(١٧١٤) مكرر سورة القصص الآية ٧٨.

مالاً، فهذا هو العلم النافع له المنجي. ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي: لا يتوقف إهلاك الله لمن استحق الهلاك على سؤالهم ليعتذروا عنها، بل متى حق عليهم الهلاك لكفرهم وإجرامهم أهلكهم الله بغتة بلا معاتبة وطلب عذر[١٧١٥].

٨٢٢- قول أهل الدنيا: يا ليت لنا مثل ما أُوتي قارون:

قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[١٧١٦]. يقول تعالى مخبراً عن قارون، إنه خرج ذات يوم على قومه في زينةٍ عظيمة، وتجمل باهر، من مراكب وملابس فاخرة عليه وعلى خدمه وحشمه، مغتراً ومعتزاً بهذا الذي عنده، فلما رآه من يريد الحياة الدنيا ويميل إلى زخارفها وزينتها تمنوا أن لو كان لهم مثل ما أوتيه قارون وقالوا: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي: ذو نصيب وافر من الدنيا[١٧١٧] وكان المتمنون قوماً مسلمين وإنما تمنّوْهُ على سبيل الرغبة في اليسار والاستغناء، كما هو عادة البشر وجرياً على سنن الجبلة البشرية[١٧١٨]. والظاهر أنَّ تمنيهم هذا ما كان ينبغي أن يصدر عنهم، بدليل أن الذين أوتوا العلم ردوا عليهم تمنيهم كما نذكره في الفقرة التالية.

٨٢٣- ردّ أهل العلم على المتمنين مكانة قارون:

فلما سمع أهل العلم النافع مقالة أهل الدنيا قالوا: لهم - كما حكى الله تعالى لنا قولهم- : ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾[١٧١٩]. وكلمة ﴿وَيْلَكُمْ﴾ أصلها الدعاءُ بالهلاك، ثم استعملت في الزجر والردع والحث على ترك ما لا ينبغي. ومعنى الآية: إن جزاء الله لعباده المؤمنين الصالحين في الدار الآخرة خيرٌ مما ترون عند قارون. وفي الحديث النبوي الصحيح «يقول الله تعالى أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن

(١٧١٥) تفسير سيد قطب ج٥ ص٢٧١٢، تفسير القاسمي ج١٣ ص١٢٧.
(١٧١٦) سورة القصص الآية ٧٩.
(١٧١٧) تفسير ابن كثير ج٣ ص٤٠٠.
(١٧١٨) تفسير الزمخشري ج٣ ص٤٣٢، تفسير القاسمي ج١٣ ص١٢٧.
(١٧١٩) سورة القصص الآية ٨٠.

سمعت ولا خطر على قلب بشر، واقرأوا إن شئتم ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[1720]. وقوله تعالى: ﴿ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾ أي: لا يُلقَّى الجنة إلا الصابرون[1721]. أولا يُلقَّى هذه الكلمة التي قالها الذين أوتوا العلم إلا الصابرون. أولا يُلقَّى السيرة أو الطريقة المحمودة وهي الإيمان والعمل الصالح إلا الصابرون على الطاعات وعن المعاصي والشهوات[1722].

٨٢٤- التعجيل بعقاب قارون في الدنيا:

قال تعالى: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴾[1723]. لما ذكر الله تعالى اختيال قارون في زينته، وفخره على قومه وبغيه عليهم، عقب ذلك بأنه تعالى خسف به وبداره الأرض: ﴿ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴾ أي: ما أغنى عنه ماله ولا جمعه ولا خدمه ولا حشمه ولا دفعوا عنه نقمة الله وعذابه، ولا كان هو في نفسه منتصراً لنفسه، فلا ناصر له من نفسه ولا من غيره[1724].

٨٢٥- قول من تمنوا مكانه بعد أن رأوا ما حلّ به:

قال تعالى: ﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[1725] أي: أصبح الذين تمنوا منزلة قارون في الدنيا بالأمس، أي: قبل وقوع الخسف بقارون وبداره، أصبحوا أي: صاروا يتندمون على ذلك التمني و ﴿ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ ﴾ وكلمة (وي): حرف تندم، والمتندم من العرب يقول خلال تندمه: وي. وقال الجوهري: وي كلمة تعجب[1726]. وقال الزمخشري: (وي) مفصولة عن كأنَّ وهي

(١٧٢٠) سورة السجدة الآية ١٧.

(١٧٢١) تفسير ابن كثير ج٣ ص٤٠٠.

(١٧٢٢) تفسير القاسمي ج١٣ ص١٢٧.

(١٧٢٣) سورة القصص الآية ٨١.

(١٧٢٤) تفسير ابن كثير ج٣ ص٤٠٠، ٤٠١.

(١٧٢٥) سورة القصص الآية ٨٢.

(١٧٢٦) تفسير القرطبي ج١٣ ص٣١٨.

كلمة تنبه على الخطأ وتندم: ومعناه أنَّ القوم قد تنبهوا على خطئهم في تمنيهم وفي قولهم ﴿ يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ ﴾ وتندموا على ذلك[1727]. وقال قتادة: معنى ﴿ وَيْكَأَنَّ ﴾ أي: ألم تر أنّ[1728].

وقوله تعالى: ﴿ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ﴾ أي: يوسع الرزق لمن يشاء ويضيقه على من يشاء، فليس المال بدالٍّ على رضا الله عن صاحبه في حال بسطه عليه، ولا بدالٍّ على سخطه في حال تضييقه عليه. فإن الله يعطي ويمنع. ويضيق ويوسع، ويخفض ويرفع، وله الحكمة التامة والحجة البالغة. قوله تعالى: ﴿ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ﴾ أي: لولا لطف الله بنا وإحسانه إلينا لخسف بنا كما خسف به، لأنا وددنا ورغبنا أن نكون مثله، ﴿ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ يعنون أنه -أي قارون- كان كافراً، ولا يفلح الكافرون عند الله لا في الدنيا ولا في الآخرة[1729].

(١٧٢٧) تفسير الزمخشري ج٣ ص٤٣٤ .

(١٧٢٨) تفسير ابن كثير ج٣ ص٤٠١ .

(١٧٢٩) تفسير ابن كثير ج٣ ص٤٠١ .

المبحث الثاني

ما يستفاد من قصة قارون للدعوة والدعاة

٨٢٦- في قصة قارون فوائد كثيرة هي:

(أولاً)- الغنى والفقر لا يعنيان رضا الله أو سخطه على عبده.

(ثانياً)- كثرة المال قد توقع صاحبه في البغي والبطر.

(ثالثاً)- المؤمن ناصح أمين.

(رابعاً)- النظر إلى أهل الدنيا وزينتهم محظور.

(خامساً)- نظر أهل العلم إلى زينة الدنيا وأهلها.

(سادساً)- قد يعجل العقاب على مستحقه في الدنيا.

(سابعاً)- كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون.

ونتكلم فيما يلي عن هذه الفوائد المستفادة من قصة قارون للدعوة والدعاة:

٨٢٧- أولاً- الغنى والفقر لا يعنيان رضا الله أو سخطه على عبده:

لقد أعطى الله تعالى قارون مالاً كثيراً، كما بينا، ولم يكن ذلك العطاء دليلاً على رضا الله عنه، وقد تجلت هذه الحقيقة لأولئك الذين تمنوا منزلة قارون، عندما خسف الله به وبداره الأرض. فعلى الداعي أن يبين هذه الحقيقة للناس، لأنها من حقائق الإسلام، كما عليه أن يبين للناس أنَّ تضييق الرزق على عبد ما أو فقره لا يعني سخط الله على هذا العبد. إنَّ هذا البيان مهم جداً، فعلى الدعاة أن يوضحوه للناس في محاضراتهم ودروسهم، حتى لا يقعوا في الخطأ، والظنِّ الباطلِ في حكمة الله، وقد يسلمهم هذا إلى الكفر والعياذ بالله. وأرى لتوضيح ما ذكرته أن يبين الدعاة للناس ما يأتي:-

أ- أن الله رب العالمين، وعلى هذا يعطي الله تعالى المال للمؤمن والكافر، قال تعالى: ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾[١٧٣٠]. فالله

(١٧٣٠) سورة الإسراء الآية ٢٠.

يرزق المؤمن والكافر، فالله يمدّ الفريقين: المؤمنين والكافرين ويزيدهم من عطائه، وما كان عطاء الله وفضله ممنوعاً، فلا يمنعه عن عاص لعصيانه[1731]. وقال الإمام الرازي في هذه الآية: إنه تعالى يمدّ الفريقين بالأموال ويوسع عليهما في الرزق مثل الأموال والأولاد وغيرهما من متاع الدنيا، لأن عطاء الله لا يُمنَعُ عن أحد ولا يُضيَّق على أحد مؤمناً كان أو كافراً، لأن الكل مخلوقون لله[1732].

ب- الأموال بذاتها لا تقرب صاحبها من الله تعالى:

قد يرزق الإنسان من الأموال الشيء الكثير والكثير جداً، حسب سنة الله في كسب المال، التي يخضع لها المؤمن والكافر، ويستفيد منها المطيع والعاصي، وعلى هذا فكون الإنسان كثير الأموال لا تجعله هذه الأموال لذاتها قريباً من الله مرضياً عنده، وإنما الذي يقربه من الله ويجعله مرضياً عنده إيمانه وعمله الصالح، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾[1733].

ج- بسط الرزق وتضييقه وما يدلان عليه:

توسعة الرزق وما يتبع ذلك من كثرة الأموال وصيرورة الإنسان غنياً بالمال، وتضييق الرزق وما يتبع ذلك من قلة المال، وصيرورة الإنسان معدماً فقيراً، لا يدلان أبداً على رضا الله أو محبته للمُوسَّع عليه الرزق، الكثير الأموال، لمجرد كونه على ما وصفنا، كما لا يدلان على سخط الله وبغضه للمضيق عليه الرزق، القليل الأموال، لمجرد كونه على ما وصفنا؛ لأن إيتاء المال الكثير للإنسان أو إيتائِه الشيء القليل منه يحصلان وفق سنة ثابتة في الرزق، أو وفق سنته تعالى في الاستدراج، أو في الابتلاء، أو نحو ذلك من السنن الإلهية التي يخضع لها الإنسان في سائر تصرفاته وما يناله أو يصيبه في الدنيا. ولا يجوز شرعاً للمسلم أن يعتقد أو يظن مجرد ظن أن الغنى والفقر لذاتهما دليلان على رضا الله أو سخطه على عبده، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ

(١٧٣١) تفسير القرطبي ج١٠ ص٢٣٦، تفسير الزمخشري ج٢ ص٦٥٦.

(١٧٣٢) تفسير الرازي ج٢٠ ص١٨١.

(١٧٣٣) سورة سبأ، الآية ٣٧.

فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ . . .﴾ إلى آخر الآية(١٧٣٤) فالله تعالى في هذه الآيات ينكر على الإنسان اعتقاده أن توسعة الرزق على الإنسان دليل على إكرام الله، أو اعتقاده أنَّ تضييق الرزق على الإنسان دليل على إهانة الله له، فليس الأمر كما زعم أو اعتقد هذا الإنسان، فإن الله تعالى يعطي المال من يحب ومن لا يحب ،ويمنعه أو يقلله على من يحب ومن لا يحب، والمراد من ذلك طاعة الله في الحالتين: إذا كان غنياً بأن يشكر الله على ذلك، وإذا كان فقيراً بأن يصبر، فبهذا الصبر وذاك الشكر تكون منزلة العبد عند الله وقربه منه(١٧٣٥).

٨٢٨- ثانياً- كثرة المال قد توقع صاحبه في البغي والبطر:

المال وسيلة يتوصل بها إلى تحقيق معظم رغبات الإنسان، فإذا كثر عند الإنسان كثرت عنده وسائل تحقيق رغباته وشهواته ، وقد يؤدي هذا به إلى التكبر على الخلق والاستطالة عليهم بماله، وقد يؤدي به أيضاً إلى الإعجاب بنفسه، وعدم القيام بشكر نعمة المال الذي أوتيه ، وهذا ما حصل لقارون وصار إليه حاله، فقد بغى على قومه بمالِه، وقد أبطره كثرة ما أوتيه من مال فلم يرَ لله فيه عليه من فضل، ومن ثم ادعى أنّه حصل عليه بعلمه فهو صاحب الاستحقاق فيه، وبالتالي لم يقم بشكر الله على نعمة ما آتاه من مال، وهكذا وقع في سوءة البغي والطغيان، وبطر النعمة لتجاوزه قدر نفسه وتجاوزه ما حدّه الشرع. إن المال فتنة، لأن الله يختبر به عباده وكلما زاد المال زادت فتنته، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾(١٧٣٦) ووجه الفتنة في المال أنه يوقع صاحبه في الشح والبخل وعدم القيام بشكره بإخراج حق الله فيه، كما أن كثرة المال تسهل عليه سبل الترف والطغيان وبطر النعمة، فيصير من المترفين الطاغين البطرين، فعلى الدعاة أن يحذروا المسلمين من فتنة المال، ليخرجوا من امتحانه ناجحين إن شاء الله تعالى، وعلى الدعاة وهم يحذرون المسلمين من فتنة المال عليهم أن يذكروهم بقصة قارون، وما حلّ به نتيجة طغيانه وبغيه بماله، فكانت عاقبته كما أخبرنا الله ﴿ فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾. وأن

(١٧٣٤) سورة الفجر، الآيات ١٦-١٨ .

(١٧٣٥) تفسير ابن كثير ج٤ ص٥٠٩ .

(١٧٣٦) سورة التغابن الآية ١٥ .

يبينوا ويوضحوا للناس في دروسهم بأن المال الذي يصير في أيديهم هو في الحقيقة مال الله، وأنه من رزق الله لهم، قال تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾(1737). وقال تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم﴾(1738). وعلى الدعاة أيضاً أن يتلوا على الناس ما خاطب الله به بني إسرائيل وحذرهم منه ونهاهم عنه، ليتعظوا ويعتبروا ويبتعدوا عما نهى الله عنه بني إسرائيل، قال تعالى: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ﴾(1739). وطغيانهم فيما أنعم الله عليهم من رزق أن يتعدوا حدود الله في نعمة الرزق، بأن يكفروها ويشغلهم اللهو والتنعم عن القيام بشكرها، وإنفاقهم المال في المعاصي، وعدم إخراج حقوق الفقراء في هذا المال(1740).

٨٢٩- ثالثاً- المؤمن ناصح أمين:

ذكرنا فيما سبق نصيحة المؤمنين لقارون وهم من قومه، قال تعالى حكاية عن نصيحتهم: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾(1741). فالمؤمنون الصالحون من قوم قارون نصحوه وأمروه ونهوه بما جاء في هاتين الآيتين، فقاموا بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فعلى الدعاة المسلمين أن يقوموا بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بكل صراحة ووضوح، وأن يقوموا بذلك كدعوة عامة بمضمون هاتين الآيتين في دروسهم ومحاضراتهم العامة، وأن يقوموا بهذا الواجب بصورة خاصة لمن يرونه متلبساً بصفات قارون أو ببعضها؛ لأن مضمون هاتين الآيتين من جملة ما جاءت به شريعتنا الإسلامية، فيكون هذا المضمون من جملة موضوع الدعوة التي يقوم الدعاة بتبليغ موضوعها.

(١٧٣٧) سورة النور الآية ٣٣.

(١٧٣٨) سورة المنافقون من الآية ١٠.

(١٧٣٩) سورة طه الآية ٢٢.

(١٧٤٠) تفسير الزمخشري ج٣ ص٧٩.

(١٧٤١) سورة القصص الآيتان ٧٦، ٧٧.

٨٣٠- رابعاً- النظر إلى أهل الدنيا وزينتهم محظور:

ذكرنا أن أهل الدنيا من قوم قارون تمنوا أن يكون لهم مثل ما أُوتي قارون، فخطّأهم أهل العلم في هذا التمني قائلين لهم: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ. . .﴾ الآية، ووجه العبرة مما قاله المتمنون وما قاله المعترضون عليهم، أن يعلم دعاة الإسلام أن النظر إلى أهل الدنيا وزينتهم على وجه الإعجاب بهم والمحبة لهم أمر محظور، لما يؤدي إليه هذا النظر من تأثير في أنفس الدعاة قد ينسيهم ثواب الآخرة ويجعلهم يستصغرون ما عندهم من إيمان، وما ينتظرهم من ثواب عند الله، ويكبرون ويستعظمون ما عند أهل الدنيا، بل وقد يكبرون أهل الدنيا أنفسهم. وقد حذرنا الله تعالى من هذا النظر إلى أهل الدنيا وزينتهم في خطابه لرسول الله ﷺ بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾[١٧٤٢] والمقصود بزهرة الحياة الدنيا: زينة الحياة الدنيا. والمعنى: لا تنظر إلى ما عند هؤلاء المترفين من نعم، فإنما هو زهرة زائلة ونعمة حائلة[١٧٤٣]. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ أي: لا تمدنَّ نظر عينيك، ومدّ النظر: تطويله وأن لا يكاد يرده استحساناً للمنظور إليه، وإعجاباً به، وتمنياً أن يكون له مثله، كما فعل أولئك الذين نظرورا إلى قارون وزينته حين قالوا: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ حتى واجههم أولوا العلم والإيمان بقولهم: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾. ولما كان النظر إلى زخارف الدنيا ومتاعها وزينتها كالمركوز في الطباع، وأن من أبصر منها شيئاً أحبَّ أن يمدّ إليه نظره أي: يطيل النظر إليه ويملأ منه عينيه قيل: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ أي: لا تفعل ما أنت معتاد له، ولقد شدد العلماء من أهل التقوى في وجوب غض البصر عن أبنية الظلمة والمترفين وعُددهم وألبستهم ومراكبهم ونحو ذلك من متاع الدنيا، لأنهم إنما اتخذوا هذه الأشياء لعيون النظارة، فالناظر إليها كأنه يحقق ما يريده هؤلاء الظلمة المترفون عُبَّاد الدنيا[١٧٤٤]، ومن أجل هذه المحاذير في النظر إلى أهل الدنيا وزينتهم جاء النهي

(١٧٤٢) سورة طه الآية ١٣١.

(١٧٤٣) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٧١.

(١٧٤٤) تفسير الزمخشري ج٣ ص٩٧-٩٨.

عنه. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فالنظر إلى متاع الدنيا على وجه المحبة والتعظيم لها ولأهلها منهي عنه»[1745].

٨٣١- خامساً- نظر أهل العلم إلى زينة الدنيا وأهلها:

إن أهل العلم النافع لا ينظرون إلى زينة الحياة الدنيا وأهلها إلا مقروناً بنعيم الآخرة وأصحابِ هذا النعيم، فيصغر في أعينهم ما عليه المترفون وأهل الدنيا من زينتها ومتاعها فلا يتأثرون بها أبداً، كالذي ينظر إلى الحصاة الملونة فيقرنها بالجوهرة النقية فتصغر بعينه الحصاة ولا يغتر بها وبصاحبها. فعلى الدعاة أن يكون نظرهم إلى أهل الدنيا وزينتها نظر أهل العلم الذين قالوا للمتمنين مثل ما أوتي قارون حيث قالوا لهم: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾؛ لأنهم استحضروا ثواب الله، ونظروا إليه وهم ينظرون إلى زينة قارون، فاحتقروه واستصغروه ولم يتأثروا به، وهكذا ينبغي أن يكون الدعاة ونظرهم إلى متاع الدنيا وزينتها وأهلها.

٨٣٢- سادساً- قد يعجل العقاب على مستحقه في الدنيا:

الأصل في العقاب لمستحقه أنه يكون في الآخرة، ولكن قد يعجله الله لمستحقه في الدنيا مع ما ينتظره من عقاب الآخرة، كما عجل الله عقاب قارون في الدنيا حيث خسف به وبداره الأرض. وهذا التعجيل إنذار وتحذير قد ينتفع به بعض العصاة فينزجروا عن معصيتهم، وينتفع به ضعاف الإيمان حيث يتقوى إيمانهم، ويتعمق إيمان المؤمنين بما يرونه من عقاب بالمجرمين. ولكن لا يعني هذا أنَّ كل عاصٍ أو كافر ينال بعض العقاب في الدنيا، وإنما يعني أن من سنة الله أنه قد يعاقب بعض المجرمين أو الكافرين متى يشاء وكيف يشاء لحكمة ذكرنا بعض وجوهها. فعلى الدعاة فهم ما قلناه وتوضيحه للناس، حتى لا يلتبس عليهم الأمر، أو يقعوا في الخطأ أو الوهم إذا هم ظنوا أنَّ كل ظالم أو باغ أو كافر أو عاص أو مجرم لا بد أن يصيبه العقاب في الدنيا، فليس في سنة الله في هؤلاء أَنْ ينزّل عليهم العقاب حتماً وعلى جميعهم في الدنيا، وإنما قد يقع على أفراد منهم متى يشاء الله للعبرة

(١٧٤٥) مجموع فتاوى ابن تيمية ج١٥ ص٣٤٢-٣٤٣.

وللموعظة كما ذكرت.

٨٣٣- سابعاً- كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون:

ذكرنا تمني من تمنى من قوم قارون عندما رأوه وقد خرج عليهم في زينته، وقالوا عنه: ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾، وكان هذا خطأ منهم نبههم عليه أهل العلم النافع. وقد تأكد تنبيه أهل العلم لهم، وتأكد لأولئك المتمنين أنهم كانوا على خطأ في تمنيهم، وأن أهل الإيمان على حق في تنبيههم لهم، وفي تخطئتهم لهم، فأعلنوا ندمَهم، والندمُ توبةٌ، فقالوا وقد رأوا هلاك قارون بخسف الله به وبداره الأرض: ﴿وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾. فعلى الدعاة تأكيد هذه المعاني وتكريرها حتى ترسخ في أذهان الناس، وأن يعتصموا بمفاهيم الإسلام، وإذا خرجوا عنها عليهم التوبة والإسراع إليها والالتزام بها.



الفصل العشرون
قصة أصحاب القرية

المبحث الأول

خلاصة قصتهم وتفسير آياتها

٨٣٤- ثلاثة رسل إلى أصحاب القرية:

قال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾[١٧٤٦]. الآية خطاب للنبي محمد ﷺ، أمره ربه تعالى أن يضرب لقومه مثلاً بأصحاب القرية[١٧٤٧]. ولم يذكر لنا القرآن الكريم من هم أصحاب القرية ولا ما هي القرية، وعدم إفصاح القرآن الكريم عنها دليل على أنَّ تحديد اسمها ومكانها لا يزيد شيئاً في دلالة القصة، و في العبرة المقصودة من ضرب المثل بها، ومن ثم فقد أغفل القرآن الكريم ذكر اسمها ومكانها[١٧٤٨]. ومع هذا الإغفال فقد ذهب جمع من المفسرين إلى أنها «أنطاكية» كما ذكر الإمام القرطبي في تفسيره، ولكن ابن كثير شكك في ذلك ورجح أن تكون أنطاكية غير القرية المذكورة في القرآن[١٧٤٩]. ومهما يكن من أمر اسمها ومكانها فالثابت من أمرها أنها قرية بعث الله إليه رسولين -كما بعث الله موسى وهارون رسولين إلى فرعون وقومه - فدعوا أهل تلك القرية إلى عبادة الله وحده، فكذبوهما فشدَّ الله أزرهما وأَمَرَّهما برسول ثالث، وتقدمَ ثلاثتهم بدعواهم ودعوتهم من

(١٧٤٦) سورة يس الآيتان ١٣، ١٤.

(١٧٤٧) تفسير القرطبي ج١٥ ص١٤.

(١٧٤٨) تفسير سيد قطب ج٥ ص٢٩٦١.

(١٧٤٩) تفسير القرطبي ج١٥ ص١٤، تفسير ابن كثير ج٣ ص٥٦٩-٥٧٠.

جديد إلى أهل تلك القرية: ﴿ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴾(١٧٥٠). أي: مرسلون من ربكم يأمركم بعبادته وحده(١٧٥١).

٨٣٥- جواب أهل القرية للمرسلين:

قال تعالى حكاية عما قاله أهل القرية جواباً للمرسلين على دعوتهم: ﴿ قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾(١٧٥٢). أي فكيف أوحي إليكم وأنتم بشر ونحن بشر، فلِمَ لم يوح إلينا مثلكم؟. وهذه شبهة كثير من الأمم المكذبة، كما أخبر الله عنهم في قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾(١٧٥٣)، ولهذا قال هؤلاء -أصحاب القرية-: ﴿ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾، رموهم بالتكذيب بحجة أنهم بشر مثلهم(١٧٥٤). والظاهر أنَّ أهل تلك القرية أنكروا النبوات جملة واحدة بدلالة قولهم كما يحكيه الله عنهم: ﴿ وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ ﴾(١٧٥٥).

٨٣٦- ردّ المرسلين على جواب أهل القرية:

قال تعالى حكاية عما ردَّ به المرسلون على جواب أهل القرية: ﴿ قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾(١٧٥٦) أي: أجابتهم رسلهم الثلاثة قائلين: الله يعلم أنا رسله إليكم، ولو كنا كَذَبَةً عليه، لانتقم منا أشد الانتقام ولكن سيعزنا وينصرنا عليكم وستعلمون لمن عاقبة الدار ﴿ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ أي: إنما علينا أن نبلغكم ما أُرسلنا به، وهذه هي مهمتنا وهذا هو واجبنا، فإذا أطعتمونا كانت لكم السعادة في الدنيا والآخرة، وإن لم تجيبوا فستعلمون عاقبة أمركم وعدم استجابتكم لنا(١٧٥٧).

(١٧٥٠) تفسير ابن عطية ج١٢ ص٨٢، تفسير سيد قطب ج٥ ص٢٩٦١.
(١٧٥١) تفسير ابن كثير ج٣ ص٥٦٧.
(١٧٥٢) سورة يس الآية ١٥.
(١٧٥٣) سورة التغابن الآية ٦.
(١٧٥٤) تفسير ابن كثير ج٣ ص٥٦٧.
(١٧٥٥) تفسير ابن عطية ج١٢ ص٢٨٣.
(١٧٥٦) سورة يس الآيتان ١٦، ١٧.
(١٧٥٧) تفسير ابن كثير ج٣ ص٥٦٧.

٨٣٧- تَطَيُّرُ أهل القرية بالمرسلين وتهديدُهم بالقتل:

ولم يكتف أهل القرية بتكذيب الرسل، وإنما أعلنوا تطيرهم بهم مع تهديدهم بالرجم حتى الموت، إن لم يكفوا عن دعوتهم، قال تعالى عما قالوه للرسل: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾[1758]. ﴿تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ﴾ أي تشاءمنا بكم، وذلك أنهم كرهوا دعوة الرسل، وعادة الجهال أن يتيمنوا بكل شيء مالوا إليه واشتهوه وآثروه وقبلته طباعهم، ويتشاءموا بما نفروا عنه وكرهوه، فإن أصابهم نعمة أو بلاء قالوا ببركة هذا وبشؤم هذا، كما حكى الله عن قوم فرعون: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ﴾[1759]، وعن مشركي مكة ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ﴾[1760]. ثم هددوا الرسل بالرجم، أي: بالقتل أو بالرجم بالحجارة، أو بالتعذيب المؤلم قبل القتل كالسلخ والقطع والصلب[1761].

٨٣٨- ردّ الرسل على تطير القوم بهم:

قال تعالى: ﴿قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ﴾[1762]. أي قال الرسل لأهل القرية على تطيرهم بالرسل: إن سبب شؤمكم معكم وهو كفركم. أو أسباب شؤمكم معكم وهي كفركم ومعاصيكم. ﴿أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ﴾ أي: من أجل أنَّا ذكرناكم وأمرناكم بتوحيد الله وإخلاص العبادة له قابلتمونا بهذا الكلام وتهددتمونا، ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ﴾ في العصيان، ومن ثم أتاكم الشؤم لا من قبل رسل الله ولا مِن قِبَلِ تذكيرهم[1763].

٨٣٩- مؤمن يدعو قومه إلى اتباع المرسلين:

قال تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٠ ٱتَّبِعُواْ

(١٧٥٨) سورة يس، الآية ١٨.

(١٧٥٩) سورة الأعراف، الآية: ١٣١.

(١٧٦٠) تفسير الزمخشري ج٤ ص٩. والآية من سورة النساء ورقمها ٧٨.

(١٧٦١) تفسير القرطبي ج١٥ ص١٦.

(١٧٦٢) سورة يس الآية ١٩.

(١٧٦٣) تفسير الزمخشري ج٤ ص٩، تفسير ابن كثير ج٣ ص٥٦٧.

﴿مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[1764]. وكان من خبر القرية التي جاءها المرسلون والتي نتكلم عنها أن آمن رجل منهم بالمرسلين، فحمله إيمانه على أن يأتي من أقصى المدينة حيث كان مسكنه هناك، ليدعو قومه إلى الإيمان بما آمن به: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾؛ لأنهم على الحق وما جاءوا به هو الهدى والحق، ثم احتج عليهم بقوله: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾، أي: اتبعوهم فهم لا يسألونكم مالاً على إبلاغكم ما أرسلوا به، فلا تخسرون معهم شيئاً من دنياكم، بل تربحون تدينكم بالدين الحق، فينتظم لكم خير الدنيا والآخرة، ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ فيما يدعونكم إليه من عبادة الله وحده لا شريك له[1765].

٨٤٠- أسلوب لطيف في الدعوة:

قال ذلك الرجل المؤمن: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[1766]. وبعد أن دعا ذلك الرجل المؤمن قومه إلى الإيمان واتباع المرسلين، تلطف معهم في الدعوة وتحريضهم على الاستجابة، فأبرز كلامه معهم في معرض المناصحة لنفسه، وهو يريد مناصحتهم ليتلطف بهم ويداريهم ليقبلوا منه، فوضع قوله: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ مكان قوله: وما لكم لا تعبدون الذي فطركم، يدل على ذلك قوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ولولا أنه قصد ذلك لقال: الذي فطرني وإليه أرجع، ثم ساق كلامه ذلك المساق تلطفاً منه بهم في الدعوة إلى أن قال: ﴿ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ﴾[1767] كما سنبينه إن شاء الله تعالى.

٨٤١- آلهة المشركين لا تدفع الضرّ عن عبّادها:

وقال ذلك الرجل المؤمن في معرض المناصحة لنفسه، وهو يريد مناصحة قومه: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[1768]. أي إنَّ هذه الآلهة التي تُعبَد من دون الله لا تملك من

(١٧٦٤) سورة يس الآيتان ٢٠، ٢١.

(١٧٦٥) تفسير ابن كثير ج٣ ص٥٦٨، تفسير الزمخشري ج٤ ص١٠.

(١٧٦٦) سورة يس الآية ٢٢.

(١٧٦٧) تفسير الزمخشري ج٤ ص١٠.

(١٧٦٨) سورة يس الآيتان ٢٣، ٢٤.

الأمر شيئاً، فإن الله تعالى لو أرادني بسوء فلا كاشف له إلا هو، فهل أتخذها آلهة أعبدها من دون الله وهذا حالها من الضعف والعجز؟ إني إذن إذا فعلت ذلك لفي ضلال مبين[1769].

٨٤٢- إني آمنت بربكم فاسمعون:

ثم قال ذلك الرجل المؤمن لقومه: ﴿ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ﴾[1770]. أي: فاسمعوا قولي وأطيعوني فيما أمرتكم ونصحتكم به. وقيل لما سمع قومه قوله أخذوا يرجمونه، فأسرع نحو الرسل قبل أن يقتل، فقال لهم: ﴿ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ﴾، أي: اسمعوا قولي لتشهدوا لي بما أقول لكم عند ربي: إني آمنت بربكم واتبعتكم. ولم يكن له أحدٌ يمنع عنه القتل. وقال قتادة: كانوا يرمونه بالحجارة وهو يقول: اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون. فلم يزالوا به يرجمونه وهو يقول ذلك حتى مات رجماً بحجارتهم[1771].

٨٤٣- يُبشرَ بالجنة ويتمنى هداية قومه:

قال تعالى مخبراً عن مصير ذلك الرجل المؤمن الذي مات شهيداً برجم قومه له بالحجارة: ﴿ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾[1772]. أي لما قُتِلَ قيل له ادخلْ الجنة. وعن قتادة: أدخله الله الجنة وهو فيها حي يُرزَق، لأنه مات شهيداً، والله يقول في الشهداء: ﴿ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ﴾[1773]. وقيل معناه: البشرى له بدخول الجنة، فلما تحصل له ذلك ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾. تمنى ذلك الرجل المؤمن أن يعلم قومه بذلك، ليكون علمهم بحاله وما آل إليه أمره حافزاً لهم للإيمان بما آمن به، لينالوا ما ناله هو من ثواب الله ودخول الجنة أو البشارة بدخولها. وقال ابن عباس رضي الله عنه: نصح قومه في حياته

(١٧٦٩) تفسير ابن كثير ج٣ ص٥٦٨.

(١٧٧٠) سورة يس الآية ٢٥.

(١٧٧١) تفسير ابن كثير ج٣ ص٥٦٨، تفسير الزمخشري ج٣ ص٧.

(١٧٧٢) سورة يس الآيتان ٢٦، ٢٧.

(١٧٧٣) سورة آل عمران الآية ١٦٩.

بقوله: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ . . .﴾، ونصح قومه بعد مماته بقوله: ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ فرحمه الله ورضي عنه، فقد كان حريصاً على هداية قومه. وفي قول هذا الرجل المؤمن أي في تمنيه أن يعلم قومه بما حصل له من كرامة الله تنبيه شديد على وجوب كظم الغيظ، والحلم عن أهل الجهل والشر والبغي، والسعي لتخليصهم عما هم فيه، ألا يُرَى كيف تمنى ذلك الرجل المؤمن الخير لقتلته والباغين عليه وهم كفرة عبدة أصنام(١٧٧٤).

٨٤٤- إهلاك أصحاب القرية -قوم الرجل المؤمن:

قال تعالى: ﴿۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ٢٨ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ﴾(١٧٧٥). يخبر تعالى أنه انتقم من أصحاب القرية -قوم الرجل المؤمن- بعد قتلهم إياه غضباً منه تعالى عليهم، لأنهم كذبوا رسله وقتلوا وليّه. ويذكر ربنا تبارك وتعالى أنه ما أنزل عليهم وما احتاج في إهلاكهم إلى إنزال جند من الملائكة عليهم، بل كان الأمر أيسر من ذلك، ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ أي وما كنا ننزل الملائكة على الأمم إذا أهلكناها بل نبعث عليهم عذاباً يدمرهم(١٧٧٦). وذلك لأن الله تعالى أجرى هلاك كل قوم على بعض الوجوه دون بعض، وما ذلك إلا بناء على ما اقتضته الحكمة وأوجبته المصلحة، قال تعالى: ﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ﴾(١٧٧٧).

(١٧٧٤) تفسير الزمخشري ج٤ ص٧، تفسير ابن كثير ج٣ ص٥٦٨، تفسير ابن عطية ج١٢ ص٢٨٨.

(١٧٧٥) سورة يس الآيتان ٢٨، ٢٩.

(١٧٧٦) تفسير ابن كثير ج٣ ص٥٦٩.

(١٧٧٨) تفسير الزمخشري ج٤ ص١٢.

المبحث الثاني
ما يستفاد من قصة أصحاب القرية للدعوة والدعاة

٨٤٥- يستفاد من قصة أصحاب القرية أشياء كثيرة:

ويستفاد من قصة أصحاب القرية للدعوة والدعاة أشياء كثيرة: (منها): تقوية الداعي بإرسال دعاة آخرين معه، (ومنها): أن تكذيب أهل الحق أسلوب قديم لدفع الدعوة والدعاة، (ومنها): تهديد الدعاة بالقتل أسلوب قديم للظالمين والطغاة، (ومنها): الإيمان يدفع صاحبه إلى الدعوة إلى الله، (ومنها): التلطف في تبليغ الدعوة أسلوب مشروع، (ومنها): حرص الداعي على هداية قومه بالرغم من إيذائهم له، (ومنها): الدعاة لا يأخذون أجرة على دعوتهم، (منها): المعاصي سبب المصائب والنكبات، (ومنها): الهلاك هو عاقبة الرافضين دعوة الحق.

ونتكلم فيما يلي بإيجاز عن هذه الفوائد المستفادة من قصة أصحاب القرية للدعوة والدعاة.

٨٤٦- أولاً- تقوية الداعي بإرسال دعاة آخرين معه:

ذكرنا قوله تعالى عن أصحاب القرية: ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴾(١٧٧٨). وقوله ﴿ فَعَزَّزْنَا ﴾ أي: فقوينا. والمعنى أن الله تعالى أرسل في أول الأمر رسولين إلى أصحاب القرية، فلما كذبوهما أرسل رسولاً ثالثاً، تقوية للرسولين. فعلم بذلك أن القيام بالدعوة من قبل أكثرَ من واحد مجتمعين تقوية لهم ولموقفهم إزاء المدعوين. ويؤيد ما نقول أن موسى عليه السلام سأل ربه أن يقويه ويعينه بأخيه هارون، بأن يرسله معه إلى فرعون، فاستجاب الله دعاءه ولم ينكر عليه طلبه ولا تعليل طلبه، بل أقر تعليل طلبه، قال تعالى حكاية عن قول موسى: ﴿ وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن

(١٧٧٨) سورة يس الآية ١٤.

﴿يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ . . .﴾[١٧٧٩]. ومعنى ﴿رِدْءًا﴾ أي: معيناً. وقوله تعالى: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ تعني: إجابة الله تعالى طلب موسى وإقراره تعالى تعليل موسى لطلبه وهو إعانته بأخيه هارون؛ لأن معنى ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ سنقويك ونعينك به[١٧٨٠]. وفي آية أخرى وفيها سؤال موسى ربه أن يعينه بأخيه هارون حيث قال موسى عليه السلام: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي﴾[١٧٨١]. والمعنى واجعل لي معاوناً من أهلي هارون أخي اشدد به أزري أي: ظهري، والمعنى تقوي به نفسي. وعلى هذا فمن المرغوب فيه للجماعة المسلمة أن ترسل أكثر من داعية: اثنين أو ثلاثة، إلى المنطقة أو المناطق التي تريد نشر الدعوة فيها؛ لأن قيامهم بالدعوة مجتمعين تقوية لهم، والمراد بقيامهم بالدعوة مجتمعين حضورهم سوية عند كلام أحدهم بأمور الدعوة، أو يتكلم أحدهم ويكمل الآخر الكلام وهكذا.

٨٤٧- ثانياً- التكذيب لدفع الدعوة والدعاة:

لقد دفع أصحاب القرية دعوة الرسل إليهم بتكذيبهم فيما يدعون إليه، فقد كذبوا الرسولين اللذين أرسلهما الله إليهم، فأرسل تعالى إليهم رسولاً آخر تعزيزاً للرسولين، فكذبوا الجميع، قال تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾[١٧٨٢]. إن تكذيب الرسل أسلوب قديم أخذت به الأمم الكافرة، لدفع دعوة رسلهم، وبهذا نطق القرآن الكريم في آيات كثيرة (منها) قوله تعالى: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾[١٧٨٣]. (ومنها) قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾[١٧٨٤]. (ومنها): ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾

(١٧٧٩) سورة القصص الآيتان ٣٤، ٣٥.

(١٧٨٠) تفسير الزمخشري ج٣ ص٤١٠.

(١٧٨١) سورة طه الآيات ٢٩، ٣١.

(١٧٨٢) سورة يس الآيتان ١٤، ١٥.

(١٧٨٣) سورة ص، ١٤.

(١٧٨٤) سورة فاطر الآية ٢٥.

وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ . . ﴾[1785]. وإذا كان التكذيب أسلوباً قديماً لدفع دعوة الرسل، فليس من المستغرب دفع دعوة الدعاة المسلمين من قبل أعدائها، ويظهر تكذيب هؤلاء للدعاة المسلمين تكذيبهم في إخلاصهم للإسلام، وتكذيبهم فيما يدعون من فهم لمعاني الإسلام كإدعائهم بأن الإسلام دين ودولة. . فعلى الدعاة المسلمين أن لا يعجبوا من هذا التكذيب، ولا يحملهم هذا التكذيب على الغضب على المدعوين، لأن الدعاة ليسوا أحسن حالاً من رسل الله ولا أكثر إخلاصاً منهم، ولا أكثر تأييداً من الله، فهم مع هذا كله اتهمتهم أقوامهم بالكذب وواجهوهم بالتكذيب. ثم إن الدعاة بفقههم هذه الحقيقة يدركون مدى ما يبلغ الضلالُ بالإنسان بحيث يجعله يخاصم الدعاة المسلمين ويرميهم بالكذب، وأخيراً فإن فقه هذه الحقيقة لازمة لكل مسلم بلا استثناء، حتى لا يتأثر بتكذيب المكذبين للدعاة المسلمين ودعوتهم بحيث يصدقهم في هذا التكذيب، أو يحمله تكذيبهم على الشك في صدق الدعاة والدعوة، فعلى الدعاة تحذير الناس من ذلك، وكشف زيف وكذب المكذبين في تكذيبهم للدعوة والدعاة.

٨٤٨- ثالثاً- تهديد الدعاة بالقتل أسلوب قديم للطغاة:

من الأساليب القديمة للطغاة التي واجهوا بها الدعاة إلى الله وعلى رأسهم رسل الله إليهم، تهديدهم للدعاة بالقتل وبما دونه من أنواع الأذى كالسجن والتعذيب الجسدي، ومن هذا التهديد، تهديد أصحاب القرية لرسلهم، قال تعالى حكاية عن هـذا التهـديـد: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1786]. وقد بينا معنى هذه الآية وما ينطوي عليه تهديدهم[1787]. فعلى الدعاة المسلمين أن لا يتعجبوا من تهديد الظلمة والطغاة لهم بالقتل أو بالحبس أو بالتعذيب الجسدي أو بمصادرة الأموال، فكل هذا من أساليب الطغاة في القديم والحديث، وإذا كان الأمر كما ذكرنا فعلى الدعاة أن يأخذوا ذلك في حسابهم، ويأخذوا الحذر المشروع من أعداء الدعوة لا سيما الحكام الطغاة. وأقول يأخذوا

(١٧٨٥) سورة الحج الآيتان ٤٢-٤٤.

(١٧٨٦) سورة يس الآية ١٨.

(١٧٨٧) انظر الفقرة ٨٣٧.

بالحذر المشروع، حتى لا يقعوا بالحذر غير المشروع الذي يقعد بهم عن الدعوة بحجة الحذر، ولا أن يتركوا الحذر المشروع بحجة أن هذا من الخوف والجبن، إن على الدعاة أن يصغوا دائماً إلى حكم الشرع فيما يوجبه عليهم أو يندبه إليهم من الأخذ بالحذر المشروع؛ لأن حياتهم هي لله، فلا يجوز أن يعرضوها للتلف أو الأذى، أو تفويت منفعتها للمسلمين في الوقت الذي يسعهم أن يمنعوا ذلك عنها إذا أخذوا بالحذر المشروع.

٨٤٩- رابعاً- الإيمان يدفع صاحبه إلى الدعوة إلى الله:

ذكرنا قوله تعالى عن مؤمن أصحاب القرية: ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ . . .﴾[١٧٨٨] الخ الآيتان وهكذا الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب فإنه يدفع صاحبه إلى ما يقتضيه إيمانه أو يستلزمه من دعوة إلى الله وجهاد في سبيله. فعلى الدعاة أن يفقهوا ذلك ويعمقوا معاني الإيمان فيمن يدعونهم، وفيمن ينتسبون وينتمون إلى جماعتهم، جماعة الدعاة، حتى يصيّروهم دعاة إلى الله مثلهم، ولا يكتفوا منهم أن يكونوا صالحين في أنفسهم، بل أن يسعوا إلى جعلهم مصلحين لغيرهم بتعميق معاني الإيمان في نفوسهم.

٨٥٠- خامساً- التلطف في تبليغ الدعوة أسلوب مشروع:

ذكرنا أسلوب الرجل المؤمن في دعوته لقومه حيث أبرز كلامه معهم في معرض المناصحة لنفسه، وهو يريد مناصحتهم، ليتلطف بهم ويداريهم ليقبلوا منه، فقال: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾، وهو يريد بكلامه قومه كأنه يقول لهم: وما لكم لا تعبدون الذي فطركم. والدليل على أن هذا هو مقصده قوله مخاطباً قومه ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ ولولا أنه قصد بكلامه ذلك لقال: الذي فطرني وإليه أرجع[١٧٨٩]. فعلى الدعاة ملاحظة ذلك، والأخذ بهذا الأسلوب النافع المشروع: أسلوب التلطف في قيامهم بتبليغ الدعوة إلى الناس.

(١٧٨٨) سورة يس الآيتان ٢٠، ٢١.

(١٧٨٩) انظر الفقرة ٨٤٠.

٨٥١- ما يدخل في مفهوم التلطف:

ويدخل في مفهوم التلطف ومعانيه، أو ما يؤدي إلى التلطف ومعانيه ما يأتي:

أ- لين القول: وهذا ما أمر الله به موسى وأخاه هارون عندما أرسلهما إلى فرعون فقال تعالى مخاطباً موسى: ﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾[١٧٩٠]. والقول اللين مثل قوله تعالى الذي أمر به موسى أن يقوله لفرعون، قال تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴾[١٧٩١]. بدأ مخاطبته بالاستفهام الذي معناه العرض كما يقول الرجل لضيفه: هل لك أن تنزل بنا؟ وأردفه بالكلام الرقيق ليستدعيه بالتلطف في القول ويستنزله بالمداراة عن تكبره[١٧٩٢].

٨٥٢- ب- مخاطبة الداعي للمدعوين بما يذكرهم برابطته معهم:

فيخاطب الداعي مدعويه بما يثير فيهم الرغبة في الإصغاء إليه، ويلين قلوبهم ويفتحها لسماع قول الداعي، كأن يناديهم برابطة الأبوة فيقول له: «يا أبت» أو يناديه أو يناديهم برابطة أخوة النسب، قال تعالى عن إبراهيم في مخاطبته لأبيه وهو يدعوه إلى الإيمان ونبذ عبادة غير الله: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴾[١٧٩٣]. ووجه الدلالة بهذه الآيات أن إبراهيم عليه السلام حين أراد أن ينصح أباه، ويعظه ويدعوه إلى الإيمان بالله وعبادته وحده، تلطف معه بالقول مع المجادلة معه برفق ولين وأدب ، ودعوته إلى الحق مترفقاً به، متلطفاً معه، فلم يصف أباه بالجهل المفرط ولا نفسه بالعلم الفائق،

(١٧٩٠) سورة طه الآيات ٤٢-٤٤.

(١٧٩١) سورة النازعات، الآيات ١٥-١٩.

(١٧٩٢) تفسير الزمخشري ج٢ ص٦٩٥.

(١٧٩٣) سورة مريم الآيات من ٤١-٤٥.

ولكنه قال: إن معي طائفة من العلم وشيئاً منه ليس معك، وذلك علم الدلالة على الطريق السوي الموصل إلى الله تعالى ورضوانه وثوابه، فاتبعني ولا تستنكف من متابعتي ففيها الخير والنجاة لك.[1794] كما أن إبراهيم عليه السلام كان يخاطبه بكلمة «يا أبت» وظل يكرر هذه الكلمة في كل عبارة يوجهها إليه، زيادة في التلطف مع أبيه وزيادة في لين القول معه. وكذلك كان رسل الله يخاطبون أقوامهم بعبارة «يا قومي» وإبراز علاقته بهم بأنه «أخوهم»، قال تعالى عن هود عليه السلام: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾[1795]أي وأرسلنا إلى عاد ﴿ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ ﴾ أي أخاهم في النسب؛ لأنه منهم في قول النسابين، وقيل: الناس كلهم إخوة في النسب، لأنهم ولد آدم وحواء[1796]. ثم في مخاطبة هود لهم بكلمة ﴿ يَٰقَوْمِ ﴾ نوع من التلطف واللين بالقول، لأن هذا النداء أدعى إلى استجابتهم وإلى تحسيسهم بأن الذي يخاطبهم هو واحد منهم في النسب. وأنه لذلك يريد الخير لهم.

٨٥٣- ج- مقابلة القول القبيح بالقول الحسن:

ومما يدخل في مفهوم التلطف بالقول مع المدعوين أن الدعاة لا يقابلونهم بمثل ما يقابلون الدعاة من كذب وافتراء واتهام لهم بالباطل، واستهزاء بهم وبكثير من قلة الأدب في الخطاب، وبالكثير من سيء القول. وإنما يقابل الدعاة المدعوين بالقول الحسن وبأدب جم، وكلام عال رفيع، وبنصح لهم، وشفقة عليهم، يحس به كل متأمل في كلامهم. وهذا ما كان يقابل به رسلُ الله الكرامُ سفاهات أقوامهم، من ذلك قوله تعالى في عاد ورسولهم هود: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً

(١٧٩٤) تفسير الزمخشري ج٣ ص١٩.

(١٧٩٥) سورة الأعراف الآية ٦٥.

(١٧٩٦) تفسير القاسمي ج٧ ص١٦٧.

﴿فَاذْكُرُوٓا ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1797]. وواضح من هذه الآيات الكريمة كيف أجاب هود على سفاهات قومه وتجاوزهم عليه بالقول البذيء والاتهام الباطل، أجابهم عليه السلام بغاية الأدب والقول الحسن مع إظهار إشفاقه عليهم ونصحه لهم. قال الإمام الزمخشري بصدد هذه الآيات: (وفي إجابة الأنبياء عليهم السلام- من نسبهم إلى الضلال والسفاهة بما أجابوهم به من الكلام الصادر عن الحلم والإغضاء وترك المقابلة بما قالوا لهم، مع علمهم بأنَّ خصومهم أضل الناس وأسفههم- في إجابة الأنبياء هذه أدب حسن وخلق عظيم. وحكاية الله عز وجل ذلك، تعليم لعباده كيف يخاطبون السفهاء وكيف يغضون عنهم ويسبلون أذيالهم على ما يكون منهم)[1798]. إن على الداعي أن يلتزم بهذا الأسلوب في الرد على جهالة الجاهلين من المدعوين، وأن لا تستفزه أكاذيبهم واتهامهم له بالباطل، إنهم مرضى القلوب وجهالتهم نحوه بعض أمراض قلوبهم، فلا تحملْهُ تَصرفاتهم معه أو افتراءاتهم الكاذبة عليه على الغضب والنطق بما لا يجوز أو بما لا يليق بالدعاة، فيكون كلامه معهم من باب الانتصار لنفسه والغضب لها، وليس من باب الانتصار للدعوة أو للغضب لها. إننا نعلم أنَّ هذا شيء ثقيل على نفس الداعي، ولكنه لا بد منه ولا سبيل غيره، وإن مما يسهل عليه سلوك هذا السبيل كمال تجرده لله بالإخلاص الكامل له، واحتساب ما يلقاه من أذى عند الله، إن مهمة الداعي في بث دعوته بين الناس، وترغيبهم فيها، وتخليصهم من الضلال الذي هم فيه، مهمةُ الطبيب الناصح الشفيق، لا تستفزه صيحات المرضى وكرههم رؤية الطبيب، بل ولا يمنعه شتمهم له وطعنهم فيه من الاستمرار على معالجتهم، لأنه يعلم أن هذه الأفعال منهم هي بعض أعراض أمراضهم، والطبيب إنما يريد معالجتهم لا الانتقامَ منهم.

٨٥٤- د- التواضع في التبليغ:

ومما يدخل في مفهوم أو نطاق التلطف في تبليغ الدعوة، التواضع في هذا التبليغ. إن من طبيعة الناس التي جُبِلوا عليها أنهم لا يقبلون قول من يستطيل

(١٧٩٧) سورة الأعراف، الآيات ٦٥-٦٩.

(١٧٩٨) تفسير الزمخشري ج٢ ص١١٩.

عليهم، ويستصغرهم، ويتكبر عليهم، وإن كان ما يقوله حقاً وصدقاً، إنهم ينفرون من المتكبر الفظ الغليظ، ويغلقون قلوبهم دون كلامه ووعظه وإرشاده، فلا يصل إليها من قوله شيء مؤثر فيهم، بل قد يكون ذلك سبباً إلى كرههم الحق منه ومن غيره. فعلى الداعي أن يفقه ذلك جيداً وليتق ربه ولا يكن سبباً لنفرة الناس من الدعوة. ونزيد هنا شيئاً آخر له علاقة بالموضوع وله أهميته البالغة، ذلك أن من طبائع الناس أنهم لا يحبون من يكثر الحديث عن نفسه، أو يكثر الثناء عليها، أو يكثر من قول: أنا، أنا، ولهذا فعلى الداعي أن يحذر، وأن يكلم المدعوين والناس جميعاً كمبلغ لهم معاني دعوته: معاني الإسلام، لا أن يكلمهم كمبلغ لهم فضله وعلمه. وعلى الداعي أن لا يدعي شيئاً لنفسه يدل على تعاليه واحتقاره لغيره. إن على الداعي أن يعرف يقيناً أنَّ كل ما عنده هو محض فضل الله عليه، فليتحدث إلى الناس وهو بهذا اليقين، يتحدث إليهم بفضل الله لا بفضل نفسه، فإذا عرف الناس منه ذلك فتحوا له قلوبهم أو على الأقل لم يغلقوها دون كلامه، فيقع من معانيه الطيبة النافعة ما يشاء الله تعالى وقوعه.

٨٥٥- سادساً- حرص الداعي على هداية قومه والناس جميعاً:

ذكرنا أن مؤمن أصحاب القرية جاء مسرعاً من أقصى المدينة حيث سكناه هناك، جاء ليدعو قومه إلى الإيمان متلطفاً بدعوته إياهم على النحو الذي فصلناه. إنه مؤمن داعية وحيد، ومع هذا جاء يدعو قومه غلاظ القلوب، فلم ينفع معهم نصحه ولطفه وحرصه على هدايتهم، بل قابلوه بالإنكار وبرميه بالحجارة، قال قتادة: «جعلوا يرجمونه بالحجارة وهو يقول اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون فلم يزالوا به وهو يقول كذلك فقتلوه رحمه الله»[١٧٩٩]. وحتى بعد قتله تمنى أن يعلم قومه بما أنعم الله عليه من المغفرة والكرامة والجنة، تمنى أن يعلم قومه بذلك ليكون علمهم بما آل إليه أمره سبباً لإيمانهم وعملهم الصالح، لينالوا ما ناله من ثواب الله ودخول الجنة. قال ابن عباس: نصح قومه في حياته بقوله: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ ونصح قومه بعد مماته بقوله: ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ

(١٧٩٩) تفسير ابن كثير ج٣ ص٥٦٨.

ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾[1800]. فعلى الداعي أن يكون حريصاً كل الحرص على هداية قومه أو غيرهم الذين يدعوهم حرصه على هداية أهله. وهذا الحرص يتأتى للداعي من معرفته لربه ومن رحمته بخلقه، فالله تعالى يحب عباده المهتدين وعباده الراجعين إليه بالتوبة النصوح، والداعي يحب ما يحبه الله. وأما رحمة الداعي بالخلق، فإن الرحمة تعني إرادة الخير والنفع والسعيَ لإيصال ذلك إلى من تريد رحمته، وأعظم الرحمة ما كانت أنفع شيء للمرحوم، ولا شك أن أعظم ما ينفع الإنسانَ هدايتُهُ إلى الإسلام وعبادة الله تعالى وحبه واتباع هديه، ففي هذا خلاصه من النار، وظفره برضوان الله ومحبته. فعلى الداعي أن يعمر قلبه بمحبة ما يحبه الله، ويملأ قلبه بالرحمة بخلق الله، وليعلم أيضاً بأن في حرصه على هداية الناس ثواباً كبيراً له، فقد جاء في الحديث الشريف: «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من الدنيا وما فيها» أو كما قال ﷺ.

٨٥٦- سابعاً- الدعاة لا يأخذون أجراً على دعوتهم:

من شأن رسل الله جميعاً أنهم لا يأخذون أجراً على تبليغهم الناس رسالة ربهم، ويخبرون أقوامهم بذلك، فنوح عليه السلام قال لقومه: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ..﴾[1801]، وقال تعالى عن نبينا محمد ﷺ: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾[1802]. والحكمة في إعلان رسل الله لأقوامهم أنهم لا يسألونهم أجراً على تبليغهم الدعوة - رسالة الله إليهم - أقول: الحكمة في ذلك الابتعاد عما قد يتشبث به أهل الباطل في إثارتهم الشبهات في وجه الرسل ودعوتهم من أنهم طلاب مال، يريدون بدعوتهم جباية الأموال من الناس، فإذا أعلن رسل الله رفضهم لأي أجر على دعوتهم، انقطع المبطلون عن التقول على الرسل من أنهم طلاب مال. كما أن رسل الله ما كان لهم أن يأخذوا أجراً على تبليغ رسالة ربهم؛ لأن أجرهم على الله الذي أرسلهم. ومن أجل إعلان رسل الله أنهم لا يريدون أجراً، قال مؤمن أصحاب القرية لقومه: اتبعوا هؤلاء الرسل فهم

(١٨٠٠) انظر الفقرة ٨٤٣.

(١٨٠١) سورة هود الآية ٢٩.

(١٨٠٢) سورة سبأ الآية ٤٧.

لا يسألونكم شيئاً من أموالكم كأجر لهم، قال تعالى حكاية عما قاله ذلك الرجل المؤمن لقومه: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾، فهم لا يسألونكم مالاً على إبلاغكم ما أرسلوا به. فعلى الدعاة أن يبتعدوا عما يثير الشبهات حول الدعوة، وعما يتشبث به المبطلون، لصرف الناس عن الدعوة، ومن ذلك طلبهم من الناس ما يُعتَبر كأجر لهم، أو فائدة مادية أو معنوية لهم، لأن الشأن في الدعاة تجردهم الكامل عن كل ما يخدش إخلاصهم لله في قيامهم بالدعوة، بل قد يكون من المفيد أو من الضروري للدعاة الترفع عن المباحات كالبيع والشراء وامتهان المهن المشروعة دفعاً لتقول أهل الباطل: إنهم يريدون بدعوتهم محاباة الناس لهم في بيوعهم أو بأشريتهم أو بامتهانهم هذه المهن التي يزاحمون فيها الآخرين أصحاب هذه المهن، حيث يقبل الناس عليهم، ويتركون غيرهم. وما نقوله أمور يقدرها الداعي حسب الظروف والأحوال، فيترك من المباحات كل ما يراه معوقاً للدعوة ولاستجابة الناس إليها.

٨٥٧- ثامناً- المعاصي سبب المصائب والنكبات:

عندما قال أصحاب القرية لرسلهم: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ أي ما يصيبنا من بلاء فبشؤمكم وبسبب دعوتكم ووجودكم فيما بيننا، ولكن الرسل ردوا عليهم: ﴿ قَالُواْ طَـٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾[١٨٠٣]. أي إن رسل الله ردوا على تطيرهم بأن قالوا لهم: إن سبب شؤمكم معكم وهو كفركم ومعاصيكم[١٨٠٤]. فعلى الدعاة أن يبينوا للناس هذه السنة الإلهية في المصائب والنكبات التي تصيب الناس، وعلاقَتَها بالذنوب والمعاصي.

وخلاصة القول فيها: إن المعاصي، أي مخالفة شرع الله بارتكاب ما نهى عنه وترك ما أمر به سبب أكيد من أسباب حلول المصائب والنكبات في الناس، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾[١٨٠٥]. أي ما أصابكم أيها الناس أي من مصيبة من مصائب الدنيا ونكباتها كالقحط والغرق

(١٨٠٣) سورة يس الآية ١٩.

(١٨٠٤) انظر الفقرة ٨٣٨.

(١٨٠٥) سورة الشورى الآية ٣٠.

وتسلط الكفرة والظالمين عليكم وغير ذلك ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي: بسبب معاصيكم التي فعلتموها ﴿وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ﴾ أي: ويعفو عن كثير من ذنوبكم ومعاصيكم فلا يعاقبكم عليها عاجلاً، قيل وآجلاً[(١٨٠٦)]. وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (ومن المعلوم بما أرانا الله من آياته في الآفاق وفي أنفسنا، وبما شهد به في كتابه أن المعاصي سبب المصائب، قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾)[(١٨٠٧)].

٨٥٨- تاسعاً- الهلاك عاقبة الرافضين دعوة الحق:

ذكرنا أن الله أهلك أصحاب القرية، لكفرهم وعنادهم ورفضهم دعوةَ الحق، دعوةَ الرسل، وقتلهم ذلك الرجلَ المؤمنَ لإيمانه، فأهلكهم الله بالصيحة غضباً منه تعالى عليهم، لأنهم كذبوا رسله وقتلوا وليه، الرجلَ المؤمنَ[(١٨٠٨)]. فعلى الدعاة أن يبينوا ذلك للناس، وأن الإعراض عن شريعة الله عاقبته هلاك المعرضين، وأن هلاك الرافضين لشرع الله سنة ثابتة لا تتغير ولا تتبدل وإن كنا لا نعلم متى يحلّ الهلاك بهم، وما نوع هلاكهم من جهة ما يهلكون به. وقد أشار الله تعالى إلى سنته هذه بآيات كثيرة، على الدعاة أن يتلوها للناس ويبينوا ما قاله المفسرون فيها، فمن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾[(١٨٠٩)]. أي هؤلاء المكذبون برسالتك يا محمد، أَوَلَمْ يسيروا وينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم من الأمم المكذبة لأنبيائهم، وما حلّ بهم من العذاب، مع أنهم كانوا أشدّ من هؤلاء قوة وآثاراً في الأرض، ومع هذه القوة العظيمة والبأس الشديد، أخذهم الله بذنوبهم وهي كفرهم برسلهم وإعراضهم عن

(١٨٠٦) تفسير ابن كثير ج٤ ص١١٦، تفسير الرازي ج٢٧ ص١٧٢، تفسير الآلوسي ج٢٥ ص٤٠.

(١٨٠٧) رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لشيخ الإسلام ابن تيمية ص٣١.

(١٨٠٨) انظر الفقرة ٨٤٢.

(١٨٠٩) سورة غافر ٢١.

شريعة ربهم التي أرسل رسله بها، وما كان لهم من الله من واق أي وما دفع عنهم عذاب الله أحد[١٨١٠].

(١٨١٠) تفسير ابن كثير ج٤ ص٧٦.

الفصل الحادي والعشرون

قصة أصحاب الكهف

المبحث الأول

خلاصة القصة وتفسير آياتها

٨٥٩- قصة أصحاب الكهف آية عجيبة:

قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴾[١٨١١]. أي: إنهم من بين آياتنا آية عجيبة. و ﴿ ٱلْكَهْفِ ﴾: الغار الواسع في الجبل و﴿ وَٱلرَّقِيمِ ﴾: اسم كلبهم. وقيل: لوح فيه أخبارهم وجعل على باب الكهف. وقيل: اسم للجبل. وقيل: اسم للوادي الذي فيه الكهف[١٨١٢].

٨٦٠- إجمال قصتهم قبل تفصيلها:

قال تعالى: ﴿ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾. يخبر تعالى عن أولئك الفتية الذين فروا بدينهم من قومهم، لئلا يفتنوهم عنه، فهربوا منهم، فلجؤوا إلى غار في جبل، ليختفوا عن قومهم فقالوا حين دخلوا سائلين الله تعالى رحمته ولطفه بهم: ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ﴾ أي: هب لنا من عندك رحمة ترحمنا بها وتسترنا عن قومنا، ﴿ وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ أي: اجعل عاقبتنا رشداً، كما جاء في الحديث «وما قضيت لنا من قضاء فاجعل عاقبته رشداً»[١٨١٣]. أو هيء لنا من أمرنا الذي نحن عليه من مفارقة الكفار رشداً، حتى نكون بسببه راشدين مهتدين، أو اجعل أمرنا رشداً كله[١٨١٤].

(١٨١١) سورة الكهف الآية ٩.

(١٨١٢) تفسير القاسمي ج١١ ص٩.

(١٨١٣) تفسير ابن كثير ج٣ ص٧٣.

(١٨١٤) تفسير الزمخشري ج٢ ص٧٠٥.

٨٦١- أنمناهم في الكهف سنين عدداً:

قال تعالى: ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ ﴾[١٨١٥] أي: ضربنا على آذانهم حجاباً يمنعها من السمع. يعني أنمناهم نومة ثقيلة لا تنبههم فيها الأصوات، كما ترى المستثقل في نومه يُصَاح به فلا يسمع ولا يستنبه، ﴿ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ أي: ذوات عدد، أي: كثيرة أو معدودة[١٨١٦].

٨٦٢- إيقاظهم بعد نومهم الطويل:

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ﴾[١٨١٧]. أي ثم أيقظناهم إيقاظاً يشبه بعث الموتى من قبورهم؛ ﴿ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ﴾ أي: أيقظناهم لنعلم واقعاً ما علمنا أنه سيقع. وهو أي الحزبين المختلفين في مدة لبثهم في الكهف، أشد إحصاءً، أي: أشد إحاطة وضبطا لغاية مدة لبثهم في الكهف فيعلموا المدة التي حفظهم الله فيها بلا طعام ولا شراب، وأَمَّنَهم من عدوهم، فيتم لهم رشدهم في شكره، وتكون لهم آية تبعثهم على عبادته[١٨١٨].

٨٦٣- البدء بتفصيل قصة أصحاب الكهف:

قال تعالى : ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾[١٨١٩] هذه الآية شروع في بسط القصة وشرحها. ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي: بالأمر المطابق للواقع، يذكر تعالى ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ﴾ وهم الشباب، ﴿ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ ﴾ أي: اعترفوا له بالوحدانية وشهدوا أن لا إله إلا هو، ﴿ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾ بالتوفيق والتثبيت[١٨٢٠].

(١٨١٥) سورة الكهف الآية ١١.

(١٨١٦) تفسير الزمخشري ج٢ ص٧٠٥، تفسير القاسمي ج١١ ص١٠.

(١٦٨١٧) سورة الكهف الآية ١٢.

(١٨١٨) تفسير القاسمي ج١١ ص١٠٢.

(١٨١٩) سورة الكهف الآية ١٣.

(١٨٢٠) تفسير ابن كثير ج٣ ص٧٤، تفسير الزمخشري ج٢ ص٧٠٧.

٨٦٤- وربطنا على قلوبهم:

قال تعالى: ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴾[١٨٢١]. قوله تعالى: ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ أي: وقويناها بالصبر على هجر الأوطان والنعيم والفرار بالدين، وجسّرناهم على القيام بكلمة الحق والدعوة إلى الله عند مليكهم الكافر؛ لقوله تعالى: ﴿ إِذْ قَامُوا ﴾ أي: قاموا بين يديه غير مبالين به وصدعوا بالحق أمامه عندما بلغه خبرهم واستحضرهم أمامه، وسألهم عن أمر دينهم وما هم عليه، فأجابوه بالحق ودعوه إلى الله عز وجل، ولهذا أخبر الله تعالى عنهم بقوله: ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا ﴾ أي لا نعبد من دونه إلهاً، ولا يقع منا هذا أبداً، لأنا لو فعلنا ذلك لكان باطلاً، ولهذا قال تعالى عنهم: ﴿ لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴾ أي باطلاً وكذباً وبهتاناً[١٨٢٢].

٨٦٥- إنكارهم على قومهم عبادة غير الله:

قال تعالى حكاية عن إنكار الفتية المؤمنين على قومهم عبادة غير الله: ﴿ هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾[١٨٢٣]. أي: هؤلاء قومنا عملوا لهم آلهة عبدوها من دون الله، ﴿ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ﴾ أي: هلا يأتون على عبادتهم وآلهتم ﴿ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ﴾ أي: بحجة بيّنة وبرهان ظاهر، وهو تبكيت لهم، لأن الإتيان بالسلطان على عبادة الأوثان محال. ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ أي: لا مساوي له في الظلم والكفر، إشارة إلى أنهم لا يأتون ببرهان على ما يفعلونه من عبادة غير الله، فهم إذن ظالمون في حق الله؛ لافترائهم عليه بأن في رتبته العليا شركاء يساوونه فيها[١٨٢٤].

(١٨٢١) سورة الكهف الآية ١٤.

(١٨٢٢) تفسير الزمخشري ج٢ ص٧٠٧، تفسير ابن كثير ج٣ ص٧٤.

(١٨٢٣) سورة الكهف الآية ١٥.

(١٨٢٤) تفسير الزمخشري ج٢ ص٧٠٧، تفسير القاسمي ج١١ ص١٣.

٨٦٦- عزلة المؤمن وفراره بدينه من الفتن:

قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾[١٨٢٥]. أي: وإذ فارقتموهم وخالفتموهم بأديانكم في عبادتهم غير الله ففارقوهم أيضاً بأبدانكم، ﴿فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ أي: يبسط عليكم رحمة يستركم بها من قومكم، ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم﴾ الذي أنتم فيه ﴿مِّرْفَقًا﴾ أي: أمراً ترتفقون به. فعند ذلك خرجوا هرباً من قومهم إلى الكهف فأووا إليه[١٨٢٦].

٨٦٧- رعاية الله للفتية وهم في الكهف:

قال تعالى: ﴿۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾[١٨٢٧]. أي: إذا ارتفعت الشمس عند طلوعها تزاور، أي: تميل عن كهفهم، أي: عن بابه ذات اليمين، أي: يمين الكهف، وإذا غربت الشمس، أي: هبطت للغروب، تعترضهم ذات الشمال، أي: لا تقربهم وإنما تتجاوزهم شيئاً، ﴿وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ أي: وهم في متسع من الكهف يصل إليهم الهواء من كل جانب دون أذى الشمس. ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: أنَّ شأنهم وإرشاد الله لهم إلى هذا الغار الذي جعلهم فيه أحياء، وما صنعه الله بهم من ازورار الشمس وقرضها طالعةً وغاربة، كل ذلك يعتبر آية من آيات الله الدالة على عنايته تعالى بهم، وتوفيقه لعباده المؤمنين. ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ أي: من يهده الله إلى الحق بالتوفيق له فهو المهتدِ. وفي هذا ثناء على أولئك الفتية المؤمنين الذين جاهدوا في الله، وأسلموا له وجوههم فلطف بهم وأعانهم، وأرشدهم إلى نيل تلك الكرامة السنية والاختصاص بالآية العظيمة، وإن كل من سلك طريق المهتدين الراشدين فهو الذي أصاب الفلاح. ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ أي ومن يضله الله فلن تجد له ناصراً يتولى أمره، فيحفظه من الضلال ولا مرشداً يهديه إلى

(١٨٢٥) سورة الكهف الآية ١٦.

(١٨٢٦) تفسير ابن كثير ج٣ ص٧٥.

(١٨٢٧) سورة الكهف الآية ١٧.

طريق الحق والفلاح[1828].

٨٦٨- عناية الله بالفتية وهم في الكهف:

قال تعالى: ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾[1829].

﴿ وَتَحْسَبُهُمْ ﴾ خطاب لكل أحد، أي: تظنهم ﴿ أَيْقَاظًا ﴾؛ لانفتاح عيونهم ﴿ وَهُمْ رُقُودٌ ﴾ مستغرقون في النوم بحيث لا ينبههم الصوت. ﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ﴾ أي: في رقدتهم ﴿ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ﴾؛ لئلا تتلف الأرض أجسادهم، ﴿ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ﴾ أي: بفناء الكهف أو بابه. وقد شملت بركتهم كلبهم فأصابه ما أصابهم من النوم على تلك الحال. قال ابن كثير: وهذا فائدة صحبة الأخيار فإنه صار لهذا الكلب ذكر وخبر وشأن. وقوله تعالى: ﴿ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ أي: لو اطلعت عليهم فنظرت إليهم مع غاية قوتك في مكافحة الهروب لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً أي: خوفاً يملأ صدرك لما أُلبسوا من الهيبة، فلا يقع نظر أحد عليهم إلا هابهم وخافهم وتولى وابتعد عنهم فاراً مما يرى، وذلك كما قال ابن كثير: لئلا يدنو منهم أحد ولا تمسهم يد لامس حتى يبلغ الكتاب أجله، وتنقضي رقدتهم التي شاء الله تبارك وتعالى فيهم، لما له في ذلك من الحكمة والحجة البالغة والرحمة الواسعة[1830].

٨٦٩- بعثهم بعد نومهم الطويل:

قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾[1831]. أي كما أنمناهم تلك النومة الطويلة، بعثناهم صحيحة أبدانهم وأشعارهم وأبشارهم، لم يفقدوا من أحوالهم وهيآتهم شيئاً تذكيراً بقدرته تعالى

(١٨٢٨) تفسير الزمخشري ج٢ ص٧٠٨، تفسير القاسمي ج١١ ص١٥.

(١٨٢٩) سورة الكهف الآية ١٨.

(١٨٣٠) تفسير ابن كثير ج٣ ص٧٦، تفسير القاسمي ج١١ ص١٦.

(١٨٣١) سورة الكهف الآية ١٩.

على الإنامة والموت والبعث. قال ابن كثير وكان ذلك بعد ثلثمائة سنة وتسع سنين، وقوله تعالى: ﴿لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْۚ﴾ أي: ليسأل بعضهم بعضاً ويعرفوا حالهم وما صنع الله بهم، فيعتبروا ويستدلوا بذلك على عظيم قدرة الله تعالى، فيزدادوا يقيناً ويشكروا الله على ما أنعم به عليهم. ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْۖ﴾ أي: كم رقدتم، ﴿قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۚ﴾، لأنه كان دخولهم إلى الكهف في أول النهار واستيقاظهم كان في آخره، ولهذا استدركوا فقالوا أو بعض يوم. ﴿قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ أي الله أعلم بأمركم، وكأنه حصل لهم نوع تردد في كثرة نومهم، فوقع في أنفسهم بإلهام من الله أو بقرائن شاهدوها من أحوالهم أن مدة نومهم متطاولة، وأن مقدارها مبهم فأحالوا تعيينها على ربهم، فقالوا: ربكم أعلم بما لبثتم. ثم عدلوا إلى الأهم في أمرهم إذ ذاك وهو احتياجهم إلى الطعام والشراب فقالوا: ﴿فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ﴾ أي: فضتكم هذه، وذلك أنهم كانوا قد استصحبوا معهم دراهم من منازلهم لحاجتهم إليها، فلهذا قالوا: ﴿فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾ أي: إلى مدينتكم التي خرجتم منها ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ أي: أطيب طعاماً، ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ أي: في خروجه وذهابه وشرائه وإيابه، أي: وليتخف في أمره كله بكل ما يقدر عليه، ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ يعني ولا يفعلنَّ ما يؤدي من غير قصد منه إلى الشعور بنا أي: العلم بنا. فسمى ذلك إشعاراً منه بهم، لأنه سبب فيه. ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: أهل المدينة ﴿إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ﴾ يعرفوا أو يطلعوا على مكانكم ﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾ أي: يقتلوكم برجمكم بالحجارة، ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ﴾ أي: يدخلوكم ﴿فِي مِلَّتِهِمْ﴾ أي في دينهم بالإكراه العنيف ﴿وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾ أي: إذا صرتم إلى ملتهم لن تفلحوا أبداً[١٨٣٢].

٨٧٠- انكشاف أمر الفتية:

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْۖ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًاۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ

(١٨٣٢) تفسير ابن كثير ج٣ ص٧٧، تفسير الزمخشري ج٢ ص٧١٠-٧١١، تفسير القاسمي ج١١ ص١٨.

﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾[1833]. قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: كما أرقدناهم وأيقظناهم بهيئاتهم أطلعنا عليهم أهل ذلك الزمان ﴿لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ﴾ أي: ليعلم الذين أطلعناهم على حالهم أن وعد الله بالبعث بعد الموت حق؛ لأن حالهم في نومتهم وانتباهتهم بعدها كحال من يموت ثم يبعث ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ﴾ أي: الموعود فيها بالبعث أي يوم القيامة ﴿لَا رَيْبَ فِيهَآ﴾ أي: لا شك فيها. وقوله تعالى: ﴿إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ أي: أعثرنا عليهم أهل تلك المدينة في ذلك الزمان، حين كانوا يتنازعون بينهم أمر دينهم ويختلفون في حقيقة البعث فكان بعضهم يقول: تبعث الأرواح دون الأجساد، وبعضهم يقول: تبعث الأجساد مع الأرواح، فبعث الله أهل الكهف حجة ودلالة وآية على بعث الله الموتى بأجسادهم وأرواحهم. ﴿فَقَالُواْ﴾ أي: الناس بعد أن رأوا أصحاب الكهف وكلموهم ثم ماتوا ﴿ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا﴾ أي: على باب كهفهم أي سدوا عليهم باب كهفهم واتركوهم على حالهم. ﴿رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ حكاية عن قول المتنازعين كأنهم تذاكروا أمرهم، وتناقلوا الكلام في أنسابهم وأحوالهم ومدة لبثهم في الكهف، فلما لم يهتدوا إلى حقيقة ذلك، قالوا: ربهم أعلم بهم. . أو هو من كلام الله عز وجل ردٌّ لقول الخائضين في حديثهم من أولئك المتنازعين. وقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ أي: قال الذين غلبوا من المتنازعين وهم أصحاب الغلبة ونفوذ الكلمة لنتخذن عليهم مسجداً، أي نصلي فيه تبركاً بهم وبمكانهم[1834]. وهم غير محمودين في بناء المسجد، لأن النبي ﷺ قال: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد» يحذِّرُ ما فعلوا، فلا يجوز بناء المساجد على القبور للنهي الصريح الوارد بشأنها[1835].

٨٧١- كم كان عدد أهل الكهف؟

قال تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ

(١٨٣٣) سورة الكهف، الآية ٢١.

(١٨٣٤) تفسير ابن كثير ج٣ ص٧٧، تفسير الزمخشري ج٢ ص٧١١.

(١٨٣٥) تفسير القرطبي ج١٠ ص٣٧٩، تفسير ابن كثير ج٣ ص٧٨، تفسير القاسمي ج١١ ص٢١.

فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَـٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾[١٨٣٦] يقول الله تعالى مخبراً عن اختلاف الناس في عدة أصحاب الكهف فحكى ثلاثة أقوال فدلّ على أنه لا قائل بقول رابع، ولما ضعَّفَ القولين الأولين بقوله: ﴿ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ﴾ أي: قولاً بلا علم ثم حكى القول الثالث وسكت عليه فدلّ على صحته لرده إذ لو كان باطلاً لردّهُ كما ردّ القولين الأوليين. ثم أرشد تعالى إلى أن الاطلاع على عدتهم لا طائل تحته، فيقال في مثل هذاَ: ﴿ قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم ﴾ إذ الأحسن في مثل هذا المقام ردّ العلم إلى الله تعالى، إذ لا احتياج إلى الخوض في مثل ذلك بلا علم، لكن إذا اطلعنا على أمر قلنا به وإلا وقفنا. وقوله: ﴿ مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ أي: ما يعلم عدتهم إلا قليل من الناس ممن أطلعه الله على عدتهم. ﴿ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَـٰهِرًا ﴾ أي: فلا تجادل أهل الكتاب في شأن أصحاب الكهف إلا جدالاً ظاهراً غير متعمق فيه، وهو أن تقصَّ عليهم ما أوحى الله إليك فحسب ولا تزيد ﴿ وَلَا تَسْتَفْتِ ﴾ أي: ولا تسأل أحداً منهم عن قصتهم سؤال متعنت له، حتى يقول شيئاً فترده عليه وتزيف ما عنده، ولا سؤال مسترشد، لأن الله قد أرشدك بأن أوحى إليك قصتهم وما يتعلق بعدتهم وشأنهم، وفي هذا كفاية لمن أراد الوقوف على أمرهم والاعتبار والاتعاظ بقصتهم[١٨٣٧].

(١٨٣٦) سورة الكهف الآية ٢٢.

(١٨٣٧) تفسير ابن كثير ج٣ ص٧٨، تفسير الزمخشري ج٢ ص٧١٣-٧١٤، تفسير القاسمي ج١١ ص٢٣-٢٤.

البحث الثاني
ما يستفاد من قصة أصحاب الكهف

٨٧٢- في هذه القصة فوائد للدعوة والدعاة:

فيما قصه الله علينا من أخبار أصحاب الكهف عبر وعظات يستفيد منها الداعي، بل ويحتاجها في موضوع دعوته وفي أساليب ووسائل دعوته: الدعوة إلى الله أي الدعوة إلى الإسلام. ونذكر فيما يلي هذا المستفاد من قصة أصحاب الكهف.

٨٧٣- أولاً- الشباب أسرع من غيرهم في الاستجابة للدعوة:

قال تعالى مخبراً عن أصحاب الكهف: ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾[١٨٣٨]. قال الإمام ابن كثير في هذه الآية: فذكر تعالى أنهم فتية وهم الشباب، وهم أقبل للحق وأهدى للسبيل من الشيوخ الذين قد عتوا وانغمسوا في دين الباطل، ولهذا كان أكثر المستجيبين لله تعالى ولرسوله ﷺ شباباً، وأما المشايخ من قريش فعامتهم بقوا على دينهم ولم يسلم منهم إلا القليل، وهكذا أخبر الله تعالى عن أصحاب الكهف أنهم كانوا فتية شباباً[١٨٣٩]. فعلى الدعاة أن يكثروا من سعيهم المشكور مع الشباب في إيصال الدعوة إليهم، وبذل الجهد المستمر معهم لجلبهم إلى جماعة الدعاة، فعندهم من القوة والحماس وصفاء النفس، ما تحتاجه الدعوة، ولأنهم رجال المستقبل فإذا هدوا إلى الدعوة ولقنوا مفاهيمها ومعانيها، ورُبوا عليها كان في ذلك خير كثير جداً. ومن أساليب الدعوة مع الشباب إسماعهم قصص الطيبين المؤمنين من الشباب وكيف كانوا يهوون الجهاد في سبيل الله، الجهاد بالنفس، وقصصهم في القتال، وكذلك قصص المترفعين المستعلين على الفاحشة المؤثرين السجن عليها. وعلى رأس هذه القصص قصة يوسف مع التي راودته عن نفسه، وهددته بالسجن إن لم يفعل ما

(١٨٣٨) سورة الكهف الآية ١٣.

(١٨٣٩) تفسير ابن كثير ج٣ ص٧٣-٧٤.

تريد، فقال: رب السجن أحب إليّ مما يدعونني إليه. وكذلك قصص المطعين لآبائهم المعينين لهم على طاعة، الله ولو كان ذلك على حساب حياتهم، وعلى رأس هذه القصص قصة الذبيح إسماعيل.

٨٧٤- ثانياً- الإيمان يزيد وينقص:

قال تعالى عن أصحاب الكهف: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾. قوله تعالى: ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ استدل بهذه الآية وأمثالها غير واحد من الأئمة كالبخاري وغيره ممن ذهب إلى زيادة الإيمان وتفاضله وأنه يزيد وينقص، ولهذا قال تعالى: ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾. وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك(١٨٤٠)، وزيادة الإيمان تكون بطاعة الله، والإكثار من الأعمال الصالحة، وأفضلها بعد الإيمان بالله الجهاد في سبيله، فقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي ذر رضي الله عنه، قال: قلت: يا رسول الله أي الأعمال أفضل؟ قال: «الإيمان بالله والجهاد في سبيله ... الخ»(١٨٤١). ومن الجهاد في سبيل الله الدعوة إلى الإسلام بالقول وبالكتابة وبكل ما يكون ويعتبر تبليغاً للإسلام ودعوة إليه. فعلى الدعاة تبيين هذا المعنى للناس، لأنه من معاني الإسلام، والإسلام هو موضوع الدعوة إلى الله تعالى. وإعلامهم بأن المسلم بحاجة دائمة إلى زيادة إيمانه بزيادة أعماله الصالحة، وأفضلها بعد الإيمان الجهاد في سبيل الله ومنه الدعوة إلى دينه الإسلام.

٨٧٥- ثالثاً- تعارف المؤمنين وتجمعهم:

من أخبار الفتية أصحاب الكهف كما ذكره غير واحد من المفسرين من السلف والخلف أن أولئك الفتية كانوا من أبناء سادة قومهم، وأنهم خرجوا يوماً في بعض أعياد قومهم، وكان لهم مجتمع في السنة. يجتمعون فيه في ظاهر البلد، ويعبدون الأصنام المنصوبة هناك، ويذبحون لها الذبائح، وكان لهم ملك كافر ظالم يأمر الناس بذلك ويحثهم عليه ويدعوهم إليه. فلما خرج لمجتمعهم ذلك، وخرج هؤلاء

(١٨٤٠) تفسير ابن كثير ج٣ ص٧٤.

(١٨٤١) شرح صديق بن حسن خان على مختصر صحيح مسلم للمنذري ج١ ص١١٩.

الفتية مع آبائهم وقومهم، ونظروا إلى ما يصنع قومهم بعين بصيرتهم، عرفوا أن هذا الذي يصنعه قومهم من السجود لأصنامهم والذبح لها لا ينبغي إلا لله الذي خلق السموات والأرض، فجعل كل واحد منهم يتخلص من قومه، وينحاز منهم ويجلس بعيداً عنهم. وكان أول من جلس منهم وحده أحدهم، جلس تحت ظل شجرة، فجاء الآخر فجلس إليها عنده، وجاء الآخر فجلس إليهم، وجاء الآخر فجلس إليهم وجاء الآخر وجاء الآخر ولا يعرف واحد منهم الآخر، وإنما جمعهم هناك الذي جمع قلوبهم على الإيمان، كما جاء في حديث البخاري عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف». وجعل كل واحد منهم يكتم ما هو عليه عن أصحابه خوفاً منهم وهو لا يدري أنهم مثله، حتى قال أحدهم: تعلمون والله يا قوم أنه ما أخرجكم من قومكم وأفردكم عنهم إلا شيء، فليظهر كل واحد منكم أمره، فقال آخر: أما أنا فإني والله رأيت ما قومي عليه فعرفت أنه باطل، وأن الذي يستحق أن يعبد وحده ولا يشرك به شيء هو الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما. وقال الآخر وأنا والله وقع لي كذلك، وقال الآخر: كذلك، حتى توافقوا كلهم على كلمة واحدة هي كلمة التوحيد، فصاروا يداً واحدة، وإخوان صدقٍ فاتخذوا لهم معبداً يعبدون الله فيه...[١٨٤٢]. فالأول انحاز عن قومه واختار مكاناً بعيداً عنهم. والآخر كان عنده ما عند الأول من كراهية لقومه وما يفعلونه ورغبة في الابتعاد عنهم وعدم مشاركتهم في باطلهم، ولو بمجرد حضوره معهم، فرأى شاباً جالساً تحت شجرة بعيداً عن الناس وما يفعلونه، فشجعه مقام ذلك الشاب فجاء وجلس إليه تحت الشجرة دون أن يكلمه، وهكذا جاء الآخرون، وجلسوا متقاربين، جمعهم كرههم لباطل قومهم ورغبتهم في الابتعاد عنهم، ثم تكاشفوا وتعارفوا وتآخوا وظلوا على جمعيتهم، وتعاونوا على اتخاذ مكان لعبادتهم. ويستفاد من ذلك: أن على الدعاة أن يتعرفوا على المشاركين لهم في كره الباطل، وعبث الناس ومعصيتهم لله رب العالمين. ويجد الدعاة المشاركين لهم فيما ذكرناه، في المساجد، فعلى الدعاة أن يتعرفوا عليهم، ويوثقوا صلتهم بهم حتى يرتفعوا إلى درجة الأخوة الإسلامية فيما بينهم، ثم

(١٨٤٢) تفسير ابن كثير ج٣ ص٧٤.

التعاون على البرّ والبقاء على ارتباطهم، ثم ضمهم إلى جماعتهم جماعة الدعاة إلى الله بعد الاطمئنان منهم ومكاشفتهم في أمرهم ودعوتهم. إن الفتية بعد تلاقيهم وتعارفهم وتآخيهم ظلوا على ارتباطهم، مكونين جماعة واحدة على أساس الإيمان بالله والدعوة إليه، ولم يتفرقوا ويذهب كل واحد إلى حاله، وهذا من توفيق الله لهم. وعلى هذا فلا ينبغي للدعاة أن يدعو الناس دعوة عامة ويتركونهم، بل لا بد من دعوتهم والتعرف عليهم، والسعي إلى ربطهم بجماعة الدعاة؛ ليشدوا أزر هذه الجماعة، ويصيروا دعاة فيها كما صار من سبقهم دعاة فيها. إن تجمع المؤمنين الدعاة يقويهم جميعاً كما يقوي كل فرد منهم.

٨٧٦- رابعاً- الصدع بالحق أمام الطاغية:

قلنا إن الفتية بعد أن تعارفوا وتكاشفوا وتبين أن عقيدتهم واحدة وغايتهم واحدة ودعوتهم واحدة اتخذوا لهم مكاناً خاصاً يعبدون الله فيه ويجتمعون فيه، فعرف بهم قومهم، فوشوا بأمرهم إلى مليكهم الكافر، فاستحضرهم بين يديه فسألهم عن أمرهم وما هم عليه، فأجابوه بالحق، ودعوه إلى عبادة الله وحده، ونبذ عبادة ما سواه. فأبى عليهم، ورفض دعوتهم، وتهددهم وتوعدهم إن لم يرجعوا عن دينهم الجديد ودعوتهم التي يدعون إليها، وأعطاهم مهلة وضرب لهم أجلاً؛ لينظر في أمرهم لعلهم يرجعون عن دينهم الجديد[١٨٤٣]. وكان صدعهم بالحق وإعلان إيمانهم بالله ودعوتهم إليه، وهم بين يدي ذلك الحاكم الطاغية، أقول كان ذلك بتأييد من الله وتقوية منه لقلوبهم التي خالطتها بشاشة الإيمان[١٨٤٤]. ويستفاد من ذلك أن على الدعاة أن يصدعوا بالحق، ويعلنوا موضوع دعوتهم أمام الحكام المتكبرين المجرمين؛ ليوهنوا عزائمهم، ويقووا عزائم المؤمنين، ويجرئوهم على الوقوف في وجوه الظلمة من الحكام. وإنما يكون موقف الدعاة كما ذكرنا إذا رأوا ببصيرتهم وبقرائن الحال أَنَّ جهرَهم بالحق ومواجهة الحكام الظلمة بأحقية دعوتهم، خيرٌ للدعوة من سكوتهم أمامه أو من أخذهم بالرخصة. إن المؤمن ينظر بنور الله، وبقدر إيمانه وعمقه في نفسه وإخلاصه لربه تكون قوة نوره الكاشف

(١٨٤٣) تفسير ابن كثير ج٣ ص٧٤.

(١٨٤٤) انظر الفقرة ٨٦٤.

للموقف الصحيح الذي ينبغي أن يقفه، ولو أدى موقفه ذلك إلى قتله واستشهاده، لأن الداعية مجاهد، والجهاد فيه بذل النفس في سبيل الله، ولا يعتبر ذلك من إلقاء النفس في التهلكة، ما دام المؤمن الداعية يرجو من فعله تحقيق مصلحة شرعية للدعوة وللمسلمين. ونستأنس لما نقوله بحديث رسول الله ﷺ: «سيد الشهداء حمزة ورجل قام إلى سلطان جائر فأمره ونهاه فقتله»، أو كما قال ﷺ. ويبدو أن أولئك الفتية لاحظوا المصلحة الشرعية فيما قالوه أمام ذلك الحاكم الكافر وصدعوا بالحق، ودعوه إليه ولم ترهبهم قوته.

٨٧٧- خامساً- عزلة المسلم وهجرته من بلده:

ذكرنا في الفقرة السابقة أن ذلك الحاكم الكافر أمهل الفتية مدة، لينظروا في أمرهم ويرجعوا عن دينهم الجديد. قال ابن كثير تعليقاً وتعقيباً على هذا الإمهال للفتية: وكان هذا من لطف الله بهم، فإنهم في تلك النظرة -المهلة- توصلوا إلى الهرب منه والفرار بدينهم من الفتنة. وهذا هو المشروع عند وقوع الفتن في الناس، أن يفر العبد منهم خوفاً على دينه، كما جاء في الحديث النبوي الشريف «يوشك أن يكون خيرمال أحدكم غنماً يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن».
ففي هذه الحال تشرع العزلة عن الناس، ولا تشرع فيما عداها لما يفوت بها من ترك الجماعات والجمع[١٨٤٥]. والواقع أن ما قاله الإمام ابن كثير يخص حالة معينة هي عزلة المسلم عن الناس واعتزاله لهم، وعدم مخالطتهم، إذا كان في هذا كفاية لسلامة دينه من الفتن. ولكن قد لا يفيد ذلك بل لا بد من الهجرة من بلده الذي لم يعد بلداً آمناً له، ولا يمكن للمسلم أن يقيم دينه فيه، ففي هذه الحالة يجوز للمسلم الهجرة من بلده، فما هي مبررات هجرة المسلم من بلده؟

٨٧٨- مبررات هجرة المسلم من بلده:

المستفاد من اعتزال الفتية قومهم والخروج من محيطهم والتخفي عنهم بلجوئهم إلى الكهف بعيدين عن قومهم، تخلصاً من تهديد ملكهم الظالم الذي يحاربهم لإيمانهم، وعجزهم عن مقاومته ومقاومة قومهم، وعجزهم أيضاً عن بقائهم على دينهم الحق في ظل تلك الأوضاع القاسية، أنه يجب على الداعية المسلم

(١٨٤٥) تفسير ابن كثير ج٣ ص٧٤-٧٥.

إذا وجد نفسه عاجزاً عن إقامة دين الله في نفسه وأصبح مهدداً بالافتتان في دينه وعاجزاً عن القيام بالدعوة إلى الله، ففي هذه الحالة تجب عليه الهجرة من بلده إن كانت الهجرة ممكنة، كما تجب عليه الهجرة إذا أصبح يُؤذَى بما لا يطاق، لكونه مسلماً أو لكونه يدعو إلى الإسلام.

٨٧٩- الأدلة على ما قلناه في الهجرة:

والأدلة على ما قلناه من وجوب الهجرة على الداعية المسلم إذا صار في الحالة التي ذكرناها، قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا . . ﴾[١٨٤٦] .

قال الزمخشري وهو يفسر هذه الآية: «وهذا دليل على أن الرجل إذا كان في بلد لا يتمكن فيه من إقامة دينه -أي دين الإسلام- كما يجب لبعض الأسباب، والعوائقُ عن إقامة الدين لا تنحصر، أو علم أنه في غير بلده أقوم بحق الله وأدوم على العبادة حقت عليه المهاجرة»[١٨٤٧] .

وقال الإمام ابن العربي المالكي في مبررات هجرة المسلم من بلده: «الفرار من الأذية في البلدان وذلك فضل من الله أرخص فيه، فإذا خشي على نفسه فقد أذن الله له في الخروج عنه، والفرار بنفسه ليخلصها من ذلك المحذور. وأول من فعله إبراهيم عليه السلام، فإنه لما خاف من قومه قال: ﴿ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ﴾ كما حكى الله عنه ذلك. وقال تعالى مخبراً عن موسى: ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾[١٨٤٨] .

وفي تفسير المنار قال الشيخ محمد عبده كما ينقل عنه تلميذه الشيخ محمد رشيد رضا: «ولا معنى عندي للخلاف في وجوب الهجرة من الأرض التي يمنع فيها المؤمن من العمل بدينه أو يؤذى فيه إيذاءً لا يقدر على احتماله»[١٨٤٩] . وقال محمد رشيد رضا معقباً على قول شيخه ومؤكداً له: فكل مسلم يكون في مكان يفتن فيه عن

(١٨٤٦) سورة النساء الآيتان ٩٧، ٩٨ .

(١٨٤٧) تفسير الزمخشري ج١ ص٥٥٥ .

(١٨٤٨) تفسير القرطبي ج٥ ص٣٥٠ .

(١٨٤٩) تفسير المنار ج٥ ص٣٥٧ .

دينه، أو يكون ممنوعاً من إقامته فيه كما يعتقد، يجب عليه أن يهاجر منه إلى حيث يكون حراً في تصرفه وإقامة دينه[١٨٥٠].

٨٨٠- ترك العزلة أو الهجرة لمصلحة راجحة:

وإذا وجد الداعي نفسه قادراً على البقاء في بلده وتحمل الأذى الذي يصيبه بسبب دينه أو بسبب قيامة بالدعوة إلى الله، فهذا يستحب له البقاء، لأن في بقائه تثبيتاً لإخوانه المسلمين وتقوية لهم، وفي هذا مصلحة راجحة على هجرته من بلده. ونستأنس لما نقول بأن المسلمين في مكة قبل الهجرة إلى المدينة، هاجر بعضهم إلى الحبشة فراراً بدينهم ولكن بقي بعضهم في مكة وما ذاك إلا لقدرتهم على البقاء بالرغم من مضايقات كفار قريش لهم، ولأن في بقائهم- وهم في هذه الحالة من القدرة على البقاء وتحمل الأذى- مصلحة راجحة للإسلام والمسلمين. وعلى هذا أرى أن يلاحظ الدعاة إمكان تحقق هذه المصلحة الراجحة في بقاء بعضهم في ديارهم في الوقت الحاضر تثبيتاً للمسلمين، وتقوية لهم، وحتى لا تفرغ البلاد الإسلامية من الدعاة بسبب هجرتهم منها. وعليهم أن يُبقوا المستورين منهم ما داموا يمكنهم العمل للإسلام، ولو بقدر قليل وبأسلوب هادىء عن طريق التأكيد على معاني العقيدة الإسلامية والأخلاق دون تعرض للحكام بصورة مباشرة.

٨٨١- سادساً- ضرورة الأخذ بالأسباب المشروعة:

وعلى الدعاة أن يستفيدوا ويتعلموا من قصة أصحاب الكهف ضرورة الأخذ بالأسباب المشروعة، وأن يعلموا بأن مباشرة الأسباب لا تقدح في إيمان المسلم ولا تناقض توكله على الله تعالى، وأن يشيعوا هذه الاستفادة والمعرفة بين المسلمين وبين المنتسبين إلى جماعة الدعاة. ومن الدلائل على ما أقول من قصة أصحاب الكهف ما يلي:

أ- اختفاء الفتية في الغار واتخاذه مأوى وملجأ لهم وستراً من قومهم من دون إنكار عليهم من الله تعالى فيما فعلوه أو فيما عزموا عليه، قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ

(١٨٥٠) تفسير المنار ج٥ ص٣٦١.

أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا﴾[1851]. قال الإمام ابن عطية: ومُضَّمن هذه الآية أن بعضهم قال لبعض: إذا فارقنا الكفار وانفردنا بالله تعالى فلنجعل الكهف مأوى ونتكل على الله تعالى، فإنه يبسط لنا رحمته وينشرها علينا ويهيء لنا من أمرنا مرفقاً»[1852] فهم باشروا من الأسباب التي يمكنهم مباشرتها للتخلص من قومهم الكفار واثقين متكلين على الله في أن يهيء لهم ما يرتفقون به، ويبسط عليهم رحمته، وذهبوا إلى الكهف فعلاً واختفوا فيه، ولم ينكر عليهم ربهم ما عزموا عليه من الاختفاء في الغار وقيامهم به فعلاً.

ب- قال تعالى عنهم وهم في الكهف: ﴿... ۞وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾[1853]. وقال تعالى عنهم أيضاً وهم في الكهف: ﴿... وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ...﴾[1854]. وجاء في تفسير الآية الأولى، آية تزاور الشمس «فكانت الشمس تميل عنهم طالعة وغاربة وجارية لا تبلغهم لتؤذيهم بحرها وتغير ألوانهم وتبلي ثيابهم»[1855] وعن ابن عباس رضي الله عنهما: لومستهم الشمس لأحرقتهم[1856]. وفي تفسير الآية الثانية ﴿وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ﴾ قال ابن عباس: لئلا تأكل الأرض لحومهم[1857]. وفي تفسير ابن عطية عن ابن عباس: «ولولا التقلب لأكلتهم الأرض»[1858]. ووجه الدلالة بالآيتين: أن الله جعل تزاور الشمس عنهم وتقليبهم ذات اليمين وذات الشمال من أسباب بقائهم دون أن تحرقهم الشمس ودون أن تأكل الأرض أجسادهم، ولو شاء الله لحفظهم من ذلك مع مسّ الشمس لهم ودون تقليبهم، ولكن فيما فعله الله بهم لفت لأنظارنا وتعليم لنا بأن الأخذ بالأسباب لا

(١٨٥١) سورة الكهف، الآية ١٦.
(١٨٥٢) تفسير ابن عطية ج٩ ص٥٧.
(١٨٥٣) سورة الكهف الآية ١٧.
(١٨٥٤) سورة الكهف الآية ١٨.
(١٨٥٥) تفسير القرطبي ج١٠ ص٣٦٩.
(١٨٥٦) تفسير ابن عطية ج٩ ص٢٧١.
(١٨٥٧) تفسير القرطبي ج١٠ ص٣٧٠.
(١٨٥٨) تفسير ابن عطية ج٩ ص٢٧١.

ينافي مقتضيات الإيمان، وأن أمور الدنيا جعلها الله تجري على سنته في ربط الأسباب بالمسببات، وهذه هي سنته العامة، إلا إذا شاء خرقها وجعل جريان بعض الوقائع في الدنيا على خلاف هذه السنة العامة كما في بقائهم أحياءً في الكهف مدة طويلة بلا أكل ولا شرب، لأن مشيئة الله لا يقيدها شيء، ولأن السنن العامة التي وضعها الله للأحداث ليعرفها الخلق ويراعوها، لا لتقييد إرادة الله تعالى.

ج- استصحاب الدراهم معهم ليستعينوا بها ويتزودوا بها، فدخلوا الغار وهي معهم، وقد استفادوا منها فعلاً إذ أرسلوا أحدهم ببعض ما عندهم من الدراهم ليشتري لهم بها طعاماً من المدينة، وهذا هو الذي دلّنا وعرفنا على أنهم صحبوا معهم شيءٌ من الدراهم. قال تعالى عنهم: ﴿... فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ...﴾[١٨٥٩].

٨٨٢- الخلاصة في الأخذ بالأسباب:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «فليس في الدنيا والآخرة شيء إلا بسبب، والله خالق الأسباب والمسببات»[١٨٦٠]. وقال الإمام ابن قيم الجوزية: والقرآن مملوء من ترتيب الأحكام الكونية والشرعية والثواب والعقاب على الأسباب بطرق متنوعة، فيأتي بباء السببية تارة كقوله تعالى: ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾، ويأتي باللام تارة كقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾، ويأتي بذكر الوصف المقتضي للحكم تارة، كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾. فالله اقتضت حكمته ربط المسببات بأسبابها[١٨٦١]، فعلى الدعاة أن يفقهوا جيداً سنة الله في الأسباب والمسببات، ويأخذوا بالأسباب المعنوية وعلى رأسها الإيمان ومعانيه ومقتضياته، ويأخذوا بالأسباب المادية كإعداد القوة المادية بأنواعها ومنها تكثير أعدادهم وتراصّهم وتلاحمهم وتجمعهم واجتماعهم.

(١٨٥٩) سورة الكهف ١٩، ومعنى «بورقكم»، أي بدراهمكم من الفضة.

(١٨٦٠) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ج٧ ص٧٠.

(١٨٦١) مدارج السالكين لابن قيم الجوزية ج٣ ص٤٧٨، ص٤٩٨، ص٤٩٩.

٨٨٣- سابعاً- الأخذ بالحذر:

عندما استيقظ الفتية من نومهم قالوا: ﴿فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ وَلۡيَتَلَطَّفۡ وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا﴾[١٨٦٢]. قال ابن كثير في: ﴿وَلۡيَتَلَطَّفۡ﴾ أي: في خروجه وذهابه وشرائه وإيابه، يقولون: وليخفِ كل شيء يقدر عليه[١٨٦٣]. وقال الزمخشري في معنى: ﴿وَلۡيَتَلَطَّفۡ﴾: وليتكلف اللطفة والإتقان في أمر التخفي حتى لا يعرف[١٨٦٤]. وما ذكرناه من الآية ومعنى ﴿وَلۡيَتَلَطَّفۡ﴾ أن الفتية، أخذوا «بالحذر» فأرسلوا واحداً منهم لا أكثر لشراء الطعام لهم، وأوصوه بالحذر بأن يتخفى ما وسعه التخفي حتى لا يُعرف فيكون سبباً إلى معرفة القوم بمكانهم فينالهم منهم القتل رجماً أو الإعادة إلى ملتهم قهراً ولن يفلحوا إذاً أبداً.

فعلى الدعاة أن يأخذوا بالحذر في جميع تصرفاتهم وأفعالهم، لا سيما والأخذ بالحذر مما أمرت به شريعتنا الإسلامية قال تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمۡ فَأَقَمۡتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلۡتَقُمۡ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُم مَّعَكَ وَلۡيَأۡخُذُوٓاْ أَسۡلِحَتَهُمۡۖ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلۡيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمۡ وَلۡتَأۡتِ طَآئِفَةٌ أُخۡرَىٰ لَمۡ يُصَلُّواْ فَلۡيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلۡيَأۡخُذُواْ حِذۡرَهُمۡ وَأَسۡلِحَتَهُمۡۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ تَغۡفُلُونَ عَنۡ أَسۡلِحَتِكُمۡ وَأَمۡتِعَتِكُمۡ فَيَمِيلُونَ عَلَيۡكُم مَّيۡلَةٗ وَٰحِدَةٗ...﴾[١٨٦٥]. وهذه الآية الكريمة تدل على وجوب أخذ الحذر، بل وتبين للمسلمين كيفية الحذر وهم يؤدون صلاة الخوف، مما يدل على أهمية الأخذ بالحذر، فالأمر بأخذ الأسلحة والأمر بأن يكون بعض المسلمين وراء المصلين يحمونهم من العدو، وتقسيم المصلين إلى طائفتين: طائفة تصلي وطائفة تحرس، والأمر بأخذ الحذر، وإعلام المسلمين بأن الكفار يودون لو تغفلون عن أسلحتكم، وأَخذُها وحملُها من مظاهر الحذر، حتى يميلوا عليكم ميلة واحدة، كل ذلك دليل على وجوب الحيطة والتحرز والأخذ بأسباب الحذر من المكروه المتوقع، وقال الإمام القرطبي في هذه الآية: ﴿وَلۡيَأۡخُذُوٓاْ

(١٨٦٢) سورة الكهف الآية ١٩.

(١٨٦٣) تفسير ابن كثير ج٣ ص٧٧.

(١٨٦٤) تفسير الزمخشري ج٢ ص٧١٠.

(١٨٦٥) سورة النساء الآية ١٠٢.

أَسْلِحَتَهُمْ﴾ ﴿وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ هذه وصية بالحذر وأخذ السلاح؛ لئلا ينال العدو أمله ويدرك فرصته... وقال: وفي هذه الآية أدل دليل على تعاطي الأسباب، واتخاذ كل ما ينجي ذوي الألباب، ويوصل إلى السلامة ويبلغ دار الكرامة... وقال رحمه الله: ﴿وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ أي: كونوا متيقظين، وضعتم السلاح أو لم تضعوه، وهذا يدل على تأكيد التأهب والحذر من العدو في كل الأحوال وترك الاستسلام، إن الجيش ما جاءه مصاب قط إلا من تفريط في حذر[١٨٦٦]. ويمكن أن نقول: إن الجماعة المسلمة ما جاءها مصاب قط إلا من تفريط في حذر.

٨٨٤- تحذير الدعاة من ترك الحذر:

فليحذر الدعاة وجماعتهم ترك الحذر، إن الحذر من صفات أهل الإيمان الفاهمين سنن الله في خلقه، لا من صفات أهل الطيش والجهالة وقصر النظر، فهؤلاء لا يعرفون الحذر، ولا تتسع له عقولهم، لأنهم لا ينظرون إلى أبعد من أنوفهم، ولا يحسون بالخطر المتوقع الحصول إلا إذا وقع فعلاً، أما قبل وقوعه فهم عنه لاهون ساهون غافلون، ومن ثم يُفاجؤون به إذا وقع فيدهشهم ويبهرهم ولا يعرفون ماذا يفعلون. إن الفرق دائماً بين العاقل والجاهل أن الأول يعرف الخطر قبل وقوعه فيحتاط له، ويتخذ العدة لدفعه وملاقاته، أما الثاني وهو الجاهل فلا يحس به أصلاً إلا إذا وقع ومن ثم لم يتخذ من الأسباب ما يدفعه إذا وقع، لأنه لم يكن حذراً منه. ولهذا الفرق بين العالم بسنن الله والجاهل بسنن الله، يحسب الجاهل ما يفعله المسلم الحذر نوعاً من الخوف الذي لا مبرر له، ونوعاً من الجبن الذي لا يتفق مع الإيمان، وكثيراً ما يتأثر الداعية المؤمن بأقوال الجهال فيترك ما يستلزمه الحذر، فيتجاهل الخطر حتى ولو ظهرت مقدماته وعلاماته. فعلى الداعي المسلم أن لا يتأثر بأقوال هؤلاء الجهال، فيندفع إلى ضد وعكس ما يقتضيه الحذر فيكشف نفسه للأعداء وكأنه يقول لهم: أنا هنا تعالوا فخذوني... إنه وقع في الرياء، لأنه سمع قول الجهال فأراد مجاراتهم ليقولوا ما أشجعه.. إن مثل الداعية الحذر مثل قائد السفينة، يسير في البحر في ضوء ما تشير به حالة الجو، حسب قواعد علم الفلك والأنواء الجوية، فيأخذ الحذر المطلوب من التقلبات الجوية، وحتى إذا لم يحدث المتوقع فلا ضرر عليه فيما أخذ

(١٨٦٦) تفسير القرطبي ج٥ ص٣٧١-٣٧٣.

ويأخذ من الحيطة والحذر. ومثل الجاهل الأحمق مثل الذي يسير في البحر المحيط بمركب صغير، ولا يلتفت إلى ما تشير إليه الأخبار العلمية عن حالة الجو المتوقعة، بل يبلغ به الجهل والحماقة إلى مخالفة ذلك، وسرعان ما يعطب مركبه، وتتكسر ألواحه، فيغرق بما فيه وبمن فيه. . . وإذا كان الحذر مطلوباً من أي مسلم فهو أشد طلباً من الداعية، وأكثر ضرورة للجماعة المسلمة وآكد وأوجب عليها من غيرها.

٨٨٥- ثامناً- الاشتغال بالمهم دون غيره:

عندما استيقظ الفتية من نومهم الطويل في الكهف تساءلوا بينهم ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ﴾؟ أي: كم أمضيتم من المدة في نومكم؟ ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾؛ لأنه كان دخولهم إلى الكهف في أول نهار واستيقاظهم كان في آخر النهار، ولهذا استدركوا فقال: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾، ﴿قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ أي: الله أعلم بأمركم وكأنه حصل لهم نوع تردد في كثرة نومهم. ثم عدلوا إلى الأهم في أمرهم إذ ذاك وهو احتياجهم إلى الطعام والشراب فقالوا: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ . . .﴾الخ[١٨٦٧]. فالفتية تساءلوا عن مدة نومهم فلما لم يكن عندهم يقين في مدة نومهم قطعوا التساؤل عنها وتحولوا إلى الأمر المهم وهو احتياجم إلى الطعام. فعلى الدعاة أن يستفيدوا من موقف الفتية من جهة قطعهم النقاش حول مدة نومهم وتحولهم إلى ما يهمهم وهو الحصول على الطعام؛ ووجه استفادة الدعاة من هذا الموقف من الفتية، أن الدعاة قد ينجرون إلى جدل عقيم لا فائدة فيه، فعليهم أن ينهوا الجدل حالاً ويتحولوا إلى الحديث عن الدعوة والدعاة وما يفيد.

٨٨٦ - تاسعاً- على الداعية أن لا يكشف أسرار إخوانه:

لما أرسل الفتية أحدهم إلى المدينة التي خرجوا منها ليشتري شيئاً من الطعام، أوصوه بقولهم: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ وقد ذكرنا معنى هذه الآية ومن معناها: أن يتخف حتى لا ينكشف أمره[١٨٦٨] وقد جاء في تفسير القرطبي في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ أي: لا يخبِرَن. وقيل: إن ظُهِر عليه فلا يوقعن

(١٨٦٧) تفسيرابن كثير ج٣ ص٧٦.

(١٨٦٨) انظر الفقرة ٨٦٩.

إخوانه فيما وقع فيه[1869]. فعلى الداعي إذا وقع في أيدي أعداء الدعوة، وانكشف أمره عندهم، وكان من سياستهم الخبيثة إيذاء الدعاة واستحلال دمائهم، فلا يجوز للداعي المقبوض عليه من قبلهم أن يخبر عن إخوانه، وعن أماكنهم، ولا يفشي أسرار جماعته التي ينتمي إليها حتى ولو أكرهوه على ذلك وهددوه بالقتل إن لم يفعل ما يطلبونه منه، لأنه لا يجوز للمسلم أن يدفع الهلاك عن نفسه بإهلاك غيره، فكيف إذا كان الغير إخوانه وأحباءه والدعاة في سبيل الله؟

٨٨٧- عاشراً- لا حرج في تخير أطيب الطعام:

قال الفتية بعد أن أيقظهم الله: ﴿فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾[1870]. وقوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾أي: أطيب طعاماً[1871]. وفي تفسير القاسمي في تفسير هذه الآية: إنها دلت على مشروعية استجادة الطعام واستطابته بأقصى ما يمكن لصيغة التفضيل. فإن الغذاء الأزكى المتوفر فيه الشروط الصحية يفيد الجسم ولا يُتعبه ولا يكدره، ولذلك يجب طبّاً الاعتناء بجودته وتزكيته كما فُصّل في قوانين الصحة[1872]. والواقع أن المستلذات من المآكل والمشارب هي من نعم الله على عباده، وقد أباحها لهم فلا يجوز تحريمها وحرمان البدن منها، فليس من مناهج الإسلام بلوغ الكمال عن طريق تحريم الطيبات من الرزق التي أحلها الله، ولا عن طريق تعذيب البدن، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾[1873]. والمقصود بـ ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ المستلذات من المآكل والمشارب. ومعنى الاستفهام في (من) إنكار تحريم هذه الأشياء[1874].

وعلى هذا يجب على الدعاة تفهيم الناس من عموم المسلمين وخاصتهم أن الحلال ما

(١٨٦٩) تفسير القرطبي ج١٠ ص٣٧٥.
(١٨٧٠) سورة الكهف الآية ١٩.
(١٨٧١) انظر الفقرة ٨٦٩.
(١٨٧٢) تفسير القاسمي ج١١ ص١٩.
(١٨٧٣) سورة الأعراف الآية ٣٢.
(١٨٧٤) تفسير الزمخشري ج٢ ص١٠١.

أحله الله ويجوز تناوله وإن كان طيباً، وأن الحرام ما حرمه الله ولا يجوز تناوله وإن كان مستخبثاً. ولا يجوز للمسلم أن يحرم شيئاً على نفسه وقد أحلّه الله، لكون هذا الشيء من الطيبات، لأن حرمان النفس من الطيبات الحلال ليس من مناهج الإسلام في تزكية النفس، كما أن تناول الأطعمة التي يوحي الأطباء بفائدتها للجسم يستحب تناولها شرعاً، لأن البدن مركب الروح وليس من الحكمة إهمال المركب وعدم العناية به وعدم تقويته، وفي الحديث النبوي الشريف «وإن لبدنك عليك حقاً».

الفصل الثاني والعشرون

قصة أصحاب الأخدود

المبحث الأول

خلاصة القصة وتفسير آياتها

٨٨٨- ذكر هذه القصة في القرآن العزيز:

قال تعالى: ﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾(١٨٧٥) والمعنى: لُعِنَ أصحاب الأخدود، وجمعه أخاديد، وهي الحفر في الأرض. وهذا خبر عن قوم من الكفار عمدوا إلى من عندهم من المؤمنين بالله عز وجل فقهروهم وأرادوهم أن يرجعوا عن دينهم فأبوا عليهم، فحفروا لهم في الأرض أخدوداً وأججوا فيه ناراً، وأعدوا لها وقوداً يسعرونها به، ثم أرادوهم على الرجوع عن دينهم فلم يقبلوا منهم فقذفوهم فيها. ﴿ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴾ أي: إذ هم -أي الكفرة- على حافات الأخدود قعود، أي: قاعدون يتشفون من المؤمنين. ﴿ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴾ أي: حضور يشاهدون ما يُفعل بالمؤمنين من إلقائهم في الأخدود، ويشاهدون احتراق أجسامهم وما تفعل بها النيران، ﴿ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ أي: وما كان لهم عند هؤلاء الكفرة ذنب إلا إيمانهم بالله العزيز الذي لا يُضَام من لاذ بجنابه، الغالب على أعدائه بالقهر والانتقام، الحميد في جميع أقواله وأفعاله وشرعه وقدره، وإن كان قد قدّرَ على عباده المؤمنين هؤلاء هذا الذي وقع بهم بأيدي الكفار فهو العزيز الحميد، وإن خفي سبب ذلك على كثير من الناس. ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ فهو المالك لجميع السموات والأرض وما فيهما وما بينهما. ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أي: لا يغيب عنه

(١٨٧٥) سورة البروج، الآيات من ٤-٩.

شيء في جميع السموات والأرض ولا يخفى عليه خافية[١٨٧٦].

٨٨٩- خلاصة قصة أصحاب الأخدود:

ذكر الإمام القرطبي في تفسير حديث الإمام مسلم في صحيحه بشأن قصة أصحاب الأخدود، عن صهيب قال: إنَّ رسول الله ﷺ قال: «كان ملك فيمن كان قبلكم، وكان له ساحر، فلما كبر قال للملك: إني قد كبرت فابعث إليّ غلاماً أعلمه السحر، فبعث إليه غلاماً يعلمه، فكان في طريقه إذا سلك، راهب، فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه، فكان إذا أتى الساحر مرَّ بالراهب وقعد إليه، فإذا أتى الساحر ضربه، فشكا ذلك إلى الراهب، فقال: إذا خشيت الساحر فقل: حبسني أهلي، وإذا خشيت أهلك فقل: حبسني الساحر. فبينما هو كذلك إذا أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس، فقال: اليوم أعلم، آلساحر أفضل أم الراهب أفضل، فأخذ حجراً فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحبَّ إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة، حتى يمضي الناس، فرماها فقتلها ومضى الناس. فأتى الراهب فأخبره، فقال له الراهب: أي بني، أنت اليوم أفضل مني فقد بلغ من أمرك ما أرى، وإنك ستُبْتَلى، فإن أُبتليتَ فلا تدلَّ عليَّ، وكان الغلام يبرىء الأكمهَ والأبرصَ ويداوي الناسَ من سائر الأدواء، فسمع جليس للملك كان قد عمي، فأتاه بهدايا كثيرة، فقال: ما هاهنا لك أجمع إن أنت شفيتني. فقال: إني لا أشفي أحداً، إنما يشفي الله، فإن أنت آمنت بالله دعوت الله فشفاك، فآمن بالله فشفاه الله. فأتى الملكَ فجلس إليه كما كان يجلس، فقال له الملك: من ردَّ عليك بصرك؟ قال: ربِّي. قال: ولك رب غيري؟ قال: ربي وربك الله. فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دلَّ على الغلام، فجيء بالغلام فقال له الملك: أي بني: أَقَدْ بلغ من سحرك ما تبرىء الأكمه والأبرص، وتفعل وتفعل؟ قال: أنا لا أشفي أحداً إنما يشفي الله. فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دلَّ على الراهب. فجيء بالراهب فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى فدعا بالمنشار، فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقه حتى وقع شِقاه. ثم جيء بجليس الملك فقيل له: ارجع عن دينك فأبى فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقه به حتى وقع شقاه. ثم جيء بالغلام فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل، فإذا

(١٨٧٦) تفسير ابن كثير ج٤ ص٤٩٢-٤٩٣، تفسير القاسمي ج١٧ ص١١٠.

بلغتم ذِروته فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه، فذهبوا به فصعدوا به الجبل فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فرجف بهم الجبل فسقطوا. وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله، فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به فاحملوه في قُرقُور -سفينة صغيرة- فتوسطوا به البحر، فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه، فذهبوا به فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فانكفأت بهم السفينة فغرقوا. وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله. فقال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به، قال: وما هو؟ قال تجمع الناس في صعيد واحد، وتصلبني على جذع، ثم خذ سهماً من كنانتي، ثم ضع السهم في كبد القوس، ثم قل: باسم الله ربّ الغلام، ثم ارمني، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني. فجمع الناس في صعيد واحد وصلبه على جِذعٍ، ثم أخذ سهماً من كنانته، ثم وضع السهم في كبد القوس، ثم قال: باسم الله رَب الغلام، ثم رماه فوقع السهم في صدغه، فوضع يده في صدغه في موضع السهم، فمات، فقال الناس: آمنا بربّ الغلام، آمنا بربّ الغلام، آمنا برب الغلام، فأُتِيَ الملكُ فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر؟ قد والله نزل بك حَذَرك، قد آمن الناس، فأمر بالأخدود في أفواه السكك فخدت، وأضرم النيران، وقال: من لم يرجع عن دينه فأحموه فيها -أو قيل له اقتحم- ففعلوا، حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها، فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أمةً اصبري فإنك على الحق. وفي رواية: وجيء بامرأة مرضع، فقيل لها ارجعي عن دينك وإلا قذفناك وولدكِ، فأشفقت وهمت بالرجوع فقال لها الصبي المُرضَع: يا أمي، اثبتي على ما أنت عليه فإنما هي غميضة فألقوها وابنها في النار[١٨٧٧].

٨٩٠- قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴾[١٨٧٨]. أي نالوهم بالأذى وحرقوهم بالنار لثباتهم على إيمانهم ورفضهم العودة إلى ما كانوا عليه من الكفر، ثم لم يتب أولئك الكفرة عما فعلوه بالمؤمنين والمؤمنات فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق في نار جهنم. والمراد بهم إما

(١٨٧٧) تفسير القرطبي ج٢٠ ص٢٨٧-٢٨٨.
(١٨٧٨) سورة البروج الآية ١٠.

أصحاب الأخدود خاصة، وبالمفتونين هم المؤمنون المطرحون في الأخدود، وإما الذين بلوا المؤمنين والمؤمنات بالأذية والتعذيب على الإطلاق دون اختصاص بأصحاب الأخدود وهم داخلون في جملتهم دخولاً أولياً[١٨٧٩]. قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: «انظروا إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أولياءه وهو -الله جل جلاله- يدعوهم إلى التوبة والمغفرة[١٨٨٠].

(١٨٧٩) تفسر القاسمي ج١٧ ص١١٢.
(١٨٨٠) تفسير ابن كثير ج٤ ص٤٩٦.

المبحث الثاني

المستفاد من هذه القصة للدعوة والدعاة

٨٩١- أولاً- تأسي الدعاة بمن سبقهم في تحمل الشدائد

إن الذين أُلقوا في الأخدود المؤجج بالنار ما كان لهم من ذنب عند ذلك الملك الكافر الطاغية وأعوانه الكفرة إلا أنهم آمنوا بالله وحده كما أخبرنا الله تعالى بقوله: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾. وهذا يعني أن الإيمان والمؤمنين يلقون دائماً العنت والأذى من الكفرة لا سيما من الحكام الكفرة، وفي الغالب أن هؤلاء الكفرة لا يكتفون بمضايقة المؤمنين وكرههم، بل يتجاوزون ذلك إلى تعذيب المؤمنين إلى حدّ قتلهم والاستمتاع بمشاهدة قتلهم. وحوادث التاريخ تؤكد هذه الحقيقة التي هي من السنن الإلهية الثابتة. وإذا كان الأمر ما ذكرناه وهو تعرض المؤمنين لأذى الكفار، فإن الدعاة إلى الله لهم النصيب الأكبر من أذى الكفار، لأنهم لا يقفون عند حدّ إيمانهم الشخصي وإنما يسعون إلى نشر هذا الإيمان ودعوة الناس إليه، وهذا مما يغيظ الكفار ويزيد من بغيهم وإيذائهم للدعاة. وعلى هذا فليس أمام الدعاة إلا الصبر، والتأسي بمن سبقهم من المؤمنين في تحمل الشدائد والعذاب في سبيل ثباتهم على إيمانهم. وليتذكروا بأن ما قصّه الله علينا من أخبار أصحاب الأخدود ينبغي أن يقوى عزائم الدعاة على المزيد من الصبر على ما يلقونه من أذى في سبيل الدعوة، جاء في تفسير القرطبي بصدد تفسير آيات أصحاب الأخدود: «قال علماؤنا: أَعْلَمَ الله عز وجل المؤمنين من هذه الأمة في هذه الآيات ما كان يلقاه من وحَّد قبلهم من الشدائد، يؤنسهم بذلك ويذكر لهم النبي ﷺ قصة الغلام ليصبروا على ما يلاقون من الأذى والآلام والمشقات التي كانوا عليها، ليتأسوا بمثل هذا الغلام في صبره وتصلبه في الحق، وتمسكه وبذل نفسه في حق إظهار دعوته، ودخول الناس في الدين مع صغر سنه وعظم صبره، وكذلك الراهب صبر على التمسك بالحق حتى نشر بالمنشار، وكذلك كثير من الناس لما آمنوا بالله تعالى

ورسخ الإيمان في قلوبهم صبروا على الطرح في النار ولم يرجعوا عن دينهم»[1881].

٨٩٢- ثانياً- التعذيب قد يحمل على إفشاء الأسرار:

رأينا في تفصيل القصة أن الراهب قال للغلام: «إنك ستُبتَلى، فإن ابتليت فلا تدل عليّ»، ومع هذا فإن الغلام المؤمن دلّ عليه تحت وطأة التعذيب، فَقُتِلَ الراهب لإصراره على الإيمان وثباته عليه ورفضه الرجوع عن دينه. إن الحكم الشرعي هو عدم الجواز للمُكرَه أن يدفع عن نفسه القتل بقتل غيره، والغلام بدلالته على الراهب تسبب بقتله، وهو قد فعل مُكرَها، لأن العذاب كان فوق طاقة تحمله. فعلى الجماعة المسلمة وهي جماعة الدعاة أن لا تكشف أسماء قادتها وموجهيها، لا سيما إذا كانت في حالة ضعف، ولا تستطيع دفع الأذى عنهم، كما هو الحال بالنسبة للغلام والراهب وجليس الملك، فإن هؤلاء كانوا ضعفاء لا يستطيعون تخليص أنفسهم من بطش الملك الكافر، وقياساً على ذلك فإن الجماعة المسلمة، ودعاتها، إذا كانوا في مكان لا يستطيعون فيه دفع الأذى عن أنفسهم، فعليهم الأخذ بالكتمان والسرية وعدم البوح بقادتهم ما وسعهم هذا الكتمان، وعلى الدعاة أن لا يتطلعوا ويحرصوا على معرفة قادة جماعتهم. أما إذا كانت الجماعة المسلمة في حال أو وضع يمكنها أن تدفع الأذى عن دعاتها أو عن قادتها فلا بأس من انكشافهم ليعرفهم الناس ويزداد إقبالهم إلى جماعتهم.

٨٩٣- ثالثاً- رعاية الشباب والاعتناء بهم:

في تفاصيل قصة أصحاب الأخدود، رأينا قصة الغلام الذي أراد الملك الكافر أن يعلمه السحر على يد الساحر العجوز، فأرسله إليه لهذا الغرض، ثم حدث وهو يذهب إلى مكان الساحر أن لقي راهباً فجلس إليه وأنس بكلامه، وأعجب به، وآمن بما عنده، ثم آل أمره إلى ما ذكرناه. فعلى الدعاة أن يدعوا الشباب ويعتنوا بهم، ويربوهم على معاني الإسلام، ويلقنوهم هذه المعانيَ ويبينوا لهم غايتهم في الحياة، وما ينتظرهم في المستقبل من أمور جسام لخدمة الإسلام. إن الشباب هم رجال المستقبل، وقلوبهم طاهرة، ويتأثرون بقول الحق، لأنهم لا يزالون قريبي عهد نسبي

(١٨٨١) تفسير القرطبي ج٢٠ ص٢٩٣.

إلى الطفولة البريئة، فتقبلهم للدعوة وإقبالهم عليها أكثر من تقبل وقبول المشايخ، وقد ذكرنا ذلك من قبل[١٨٨٢]. كما ذكرنا قصة أصحاب الكهف وهم (فتية) أي: شباب وكيف امتلأت قلوبهم بالإيمان، وواجهوا الطاغية الكافر بكلمة الحق وبدعوة الحق[١٨٨٣]. وقد يكون من المفيد أن يضع الدعاة أو جماعتهم المسلمة منهجاً خاصاً للشباب المسلم، لتربيتهم التربية الإسلامية التي تعصمهم من موبقات العصر ومزالقه ومغرياته، ولتشدهم إلى غاية عليا وهدف أسمى، حتى لا تكون لهم غاية إلا الله ومرضاته ونصرة دينه وإعلاء كلمته، ويكونوا قدوة حسنة لغيرهم من الشباب.

٨٩٤- رابعاً- هل يقاس على الغلام فيما فعله؟

جاء في تفاصيل قصة أصحاب الأخدود قصة الغلام، وفيها أنه قال للملك الكافر: «إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به. قال: وما هو؟ قال تجمع الناس في صعيد واحد وتصلبني على جذع ثم خذ سهماً من كنانتي ثم ضع السهم في كبد القوس ثم قل: باسم الله رب الغلام ثم ارمني، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني...» ولما فعل الملك ذلك وقتل الغلام صاح الناس قائلين: «آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام». إذن فالغلام فعل ما فعل وقدّم نفسه للقتل حتى يُرى الناس أن ما عليه من دين هو الحق، وأن الله تعالى وليس هذا الملك هو رب العالمين، وحصل ما أراده ذلك الغلام وإن كان ذلك عن طريق استشهاده، فهل يجوز للداعية أو المسلم بصورة عامة أن يعرض نفسه للقتل؟ وهل يعتبر ذلك منه قتلاً لنفسه أي انتحاراً، أم يعتبر ذلك استشهاداً في سبيل الله؟ والجواب أن نعرف المبرر لما فعله الغلام، وهل يصلح مبرراً شرعياً للمسلم لمثل فعله؟ والجواب أن المبرر لفعله واضح، وهو قصده إظهار كذب الملك الكافر في إدعائه الربوبية، وصده الناس عن عبادة الله وحده. والغلام لم تكن عنده وسيلة أخرى غير ما أقدم عليه، فهو مؤمن وحيد لا ناصر له ولا معين من أولئك القوم، فقام بعمله جهاداً في سبيل الله، ويجوز في الجهاد في سبيل الله أن يعرض المسلم نفسه للقتل إذا كان في

(١٨٨٢) انظر الفقرة، ٨٧٣.

(١٨٨٣) انظر الفقرة، ٨٧٦.

ذلك نصرة لدين الله، وتقوية لعزائم المؤمنين، وتوهينٌ لطبقات الكافرين، ألا يُرَى أنه جاء في الحديث النبوي الشريف «سيد الشهداء حمزة ورجل قام إلى سلطان جائر فأمره ونهاه فقتله» أو كما قال ﷺ. لأن في قومة هذا الرجل المؤمن إلى السلطان الجائر نوعاً من الجهاد، لأن فيه تجريئاً على هذا السلطان الجائر وتوهيناً لأمره، والغلام فعل ما فعل لغلبة ظنه في إيمان الناس، إذا رأى الناس ما وقع وسمعوا قول الملك (بسم الله رب الغلام). وعلى هذا فيجوز للمسلم أن يعرض نفسه للموت، إذا غلب على ظنه أن في فعله مصلحة للمسلمين بتقويتهم وتوهين عزيمة أعدائهم وتَجْرِيءُ المسلمين عليهم، وفي الحديث الذي ذكرناه دلالة واضحة على ما نقول، فالظاهر أن الرجل الذي قام إلى السلطان الجائر، كان يعلم أو يغلب على ظنه أنه سيقتله ولا يتحمل أمره ونهيه. ويؤيد ما ذهبت إليه قول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «. . . كالذي يحمل على الصف -أي صف جند الكفرة- وحده حملاً فيه منفعة للمسلمين وقد اعتقد أنه يُقتَل فهذا حسن».

وفي مثله أنزل الله قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ ومثلما كان بعض الصحابة ينغمس في العدو بحضرة النبي ﷺ. وروى الخلال بإسناده عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رجلاً حمل على العدو وحده، فقال الناس: ألقى بيده إلى التهلكة، فقال عمر: لا، ولكنه ممن قال الله فيه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾[١٨٨٤].

٨٩٥- خامساً- نقمة الكفار من المؤمنين لإيمانهم:

الكفار ينقمون من المؤمنين لإيمانهم وقد ذكرنا قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾. وهكذا الكفرة في كل زمان لا سيما أصحاب السلطة والنفوذ في مجتمعهم، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾، والمترفون: هم أولو القوة والحشمة والرياسة والثروة والترف وقادة الناس في الشرع، فهؤلاء قابلوا رسل الله بإعلان الكفر بهم وعدم متابعتهم لهم[١٨٨٥]. وكفروا الكفرة بدعوة الرسل يسلمهم إلى معاداتهم واستعمال سلطتهم في

(١٨٨٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ج٢٥ ص٢٧٩.
(١٨٨٥) تفسير ابن كثير ج٣ ص٥٤٠، والآية في سورة سبأ ورقمها ٣٤.

رد الدعوة وإيذاء دعاتها، كما فعل فرعون وأتباع فرعون في كل مكان وزمان.

فعلى الدعاة أن يفقهوا ذلك ويعدوا له عدته، فهم ليسوا بأحسن حالاً وأقوى حجة من رسول الله ﷺ وأصحابه وقد قصّ الله علينا ما لقيه من كفار قريش وما لقيه أصحابه منهم، فلا يعجبوا ولا يستغربوا ولا يندهشوا من نقمة أهل الباطل من أهل الحق. وليعلموا أنَّه بقدر تمكن الضلال في النفوس مع وجود القوة عند الضالين بقدر ذلك تكون معاداتهم لأهل الحق واللجاجة في معاداتهم وتصفيتهم جسدياً، كما فعل أصحاب الأخدود في إحراق المؤمنين بالنار. وإنما يقف الكفار أصحاب السلطان هذا الموقف اللئيم المعادي للمؤمنين لا سيما الدعاة منهم لخوفهم على سلطانهم وانفضاض الناس من حولهم إذا آمنوا بمعاني الدعوة ومقتضياتها ومستلزماتها، ولذلك فهم يستعملون كل وسيلة لدفع الدعوة وقمع الدعاة. قال تعالى عن الكفرة: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾[1886]. وهذا إخبار من الله تعالى عن دوام عداوة الكفار للمسلمين وأنهم لا ينفكون عنها حتى يردوهم عن دينهم. وكلمة (حتى) في الآية للتعليل أي يقاتلوكم كي يردوكم[1887]. ثم إن الكفرة وأهل الباطل إذا تعذر عليهم قتال المؤمنين أو قتلهم، لأي سبب كان، فإنهم يستعملون وسائل أخرى لصد الناس عن دعوة الحق وعن الدعاة، ومن هذه الوسائل إنفاق المال لشراء الذمم، واستئجار أهل الباطل من ذوي القدرة على تزييف الحقائق بزخرف القول كتابةً وخطابةً، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ﴾[1888].

هذا وإن معاداة الكفرة للمؤمنين وللدعاة لا يقتصر عليهم، بل ينسحب إلى الطغاة والمتسلطين الظلمة ممن يُسمّوْنَ بالمسلمين، وقد يكون عندهم أصل الإيمان ولكنهم منغمسون في الظلم وكراهة الدعاة. وقد يجتمع الكفر والإيمان، والطاعة والمعصية ومعاداة المؤمنين. وبقدر هزال إيمان المتسلطين الظلمة تكون معاداتهم للمؤمنين الدعاة، بل وقد يفعل هؤلاء الظلمة المتسلطون من المسلمين أكثر مما

(١٨٨٦) سورة البقرة الآية ٢١٧.

(١٨٨٧) تفسير الزمخشري ج١ ص٢٥٩.

(١٨٨٨) سورة الأنفال الآية ٣٦.

يفعله الكفرة الخُلَّصُ الذين لا يدينون بالإسلام أصلاً. فليفقه الدعاة ذلك، وليعلموا أنه من المستحيل أن يسالمهم هؤلاء الكفرة والظلمة المتسلطون من المسلمين وإنما قد يتركونهم إلى حين لإعداد العدة لاستئصالهم في أول فرصة تسنح لهم.

الفصل الثالث والعشرون

قصة أصحاب الجنة الأرضية

المبحث الأول

خلاصة القصة وتفسير آياتها

٨٩٦- خلاصة القصة:

كان لرجل جنة - أي بستان مثمر- وكان هذا الرجل يؤدي حق الله تعالى منها، فلما مات صارت هذه الجنة إلى أولاده، فمنعوا الناس خيرها، وبخلوا بحق الله فيها. فأهلكها الله تعالى من حيث لم يمكنهم دفع ما حلَّ فيها، فاعترفوا بذنبهم ولكن بعد هلاك جنتهم[١٨٨٩]. قال تعالى بشأن هذه القصة: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾[١٨٩٠]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ﴾ أي: بلونا أهل مكة، والابتلاء: الاختبار. والمعنى إنا أعطيناهم أموالاً ليشكروا لا ليبطروا، وأرسلنا إليهم رسولنا محمداً ﷺ وهو أعظم نعمة ورحمة لهم وللناس جميعاً، ليؤمنوا به لا ليكذبوه، فلما بطروا وعاندوا وعادوا رسول الله ﷺ، ابتليناهم بالجوع والقحط كما بلونا أصحاب الجنة المعروف خبرها عندهم. والجنة بستان مشتمل على أنواع الثمار والفواكه. وقوله تعالى: ﴿إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ أي: حلفوا فيما بينهم ليقطعن ثمرها وقت الصبح، أي داخلين في الصبح مبكرين، لئلا يعلم بهم فقير ولا سائل، ليتوفر ثمرها عليهم، ولا يتصدقوا منه بشيء. ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ أي: لا يستثنون حق المساكين من ثمر بستانهم. أو دون أن يقولوا: إن شاء الله[١٨٩١].

(١٨٨٩) تفسير القرطبي ج١٨ ص٢٣٩.

(١٨٩٠) سورة «ن» الآيتان ١٧، ١٨.

(١٨٩١) تفسير القرطبي ج١٨ ص٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤١، تفسير ابن كثير ج٤ ص٤٠٦، تفسير الزمخشري ج٤ ص٥٩٠.

وقوله تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾[١٨٩٢] أي: فطرق جنة هؤلاء القوم طارقٌ من أمر الله فأهلكها، وهم نائمون مستغرقون في سباتهم، غافلون عما يمكر بهم، ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ أي: كالبستان الذي قطع ثمره بحيث لم يبق منه شيء، أو كالليل الأسود لاحتراقها[١٨٩٣].

قوله تعالى: ﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ﴾[١٨٩٤] أي: فنادى بعضهم بعضاً وقت الصبح ولم يشعروا بما جرى على بستانهم بالليل: ﴿أَنِ اغْدُوا﴾ أي اخرجوا غدوة ﴿عَلَىٰ حَرْثِكُمْ﴾ أي: زرعكم، ﴿إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ﴾ أي قاصدين قطع ثمارها ﴿فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ﴾ أي: يكتمون ذهابهم ويتسارون فيما بينهم ﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾ أي: لا تمكنوه من الدخول إلى جنتكم حتّى يدخل، ﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ﴾ أي: غدوا إلى جنتهم على نشاط وسرعة وجدّ وقصد وقدرة في أنفسهم، ويظنون أنهم تمكنوا من تحقيق مرادهم[١٨٩٥].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾[١٨٩٦]. أي: فلما وصلوا إليها ورأوها محترقاً ثمرها ﴿قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ﴾ أي: قال بعضهم لبعض: لقد ضللنا الطريق إلى جنتنا، ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ أي حرمنا جنتنا بما صنعنا[١٨٩٧].

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾[١٨٩٨]. قال ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ أي: قال أعدلهم وخيرهم رأياً: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ أي: تذكرون الله وتتوبون إليه من خبث نيتكم وسوء قصدكم، بحرمان المساكين حقهم من ثمرة جنتنا وتخشون انتقام ربكم من المجرمين. وكان أوسطهم حذرهم وأنذرهم حين عزموا على عزيمتهم الخبيثة فَعَصَوْهُ، فعيرهم، والدليل على هذا قولهم: ﴿قَالُوا

(١٨٩٢) سورة «ن» الآيتان ١٩، ٢٠.

(١٨٩٣) تفسير القاسمي ج١٦ ص٢٥٧-٢٥٨.

(١٨٩٤) سورة «ن» الآيات من ٢١-٢٥.

(١٨٩٥) تفسير القرطبي ج١٨ ص٢٤٢، تفسير القاسمي ج١٦ ص٢٥٨.

(١٨٩٦) سورة «ن» الآيتان ٢٦، ٢٧.

(١٨٩٧) تفسير القرطبي ج١٦ ص٢٤٤.

(١٨٩٨) سورة «ن» الآيتان ٢٨، ٢٩.

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ فتكلموا بما كان يدعوهم إليه إثر إظهار عزمهم الخبيث على ما عزموا عليه. وقولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ أي: في عدم استثناء حق المساكين في ثمر بستانهم[1899].

قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾[1900] أي: أخذ يلوم بعضهم بعضاً على ما كانوا أصروا عليه من منع حق المساكين من ثمر جنتهم عند قطعه، فما كان جواب بعضهم لبعض إلا الاعتراف بالخطيئة والذنب ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾ أي: كنا متجاوزين حدود الله في تفريطنا وعزمنا السيء، حتى أصابنا ما أصابنا، ﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ أي: عسى أن يبدلنا ربنا خيراً من جنتنا التي فقدنا ثمرها وشجرها بتوبتنا إليه وندمنا على خطأ فعلنا، وعزمنا على عدم العود إلى مثل ما عزمنا عليه، من منع حق المساكين فيما يكون لنا ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ أي: في العفو عما فرط منا والتعويض عما فاتنا[1901]. وقال ابن مسعود: إن القوم أخلصوا وعرف الله منهم صدقهم فأبدلهم الله جنة خيراً من جنتهم التي أمر الله بإحراقها[1902].

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾[1903] أي: هكذا عذاب من خالف أمر الله، وبخل بما آتاه وأنعم به عليه، ومنع حق المسكين والفقير وذوي الحاجات، وبدلّ نعمة الله كفراً ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ أي: هذه عقوبة الدنيا كما سمعتم، وعذاب الآخرة أشد وأكبر، ولو كانوا يعلمون لارتدعوا وتابوا وأنابوا[1904]. وقيل إن هذا وعظ لأهل مكة بالرجوع إلى الله تعالى لمَّا ابتلاهم الله بالجدب، أي: كفعلنا بهم نفعل بمن تعدى حدودنا في الدنيا[1905].

(١٨٩٩) تفسير الزمخشري ج٤ ص٥٩١، تفسير القاسمي ج١٦ ص٢٦١.
(١٩٠٠) سورة «ن» الآيات ٣٠-٣٢.
(١٩٠١) تفسير القاسمي ج١٦ ص٢٦١.
(١٩٠٢) تفسير القرطبي ج١٦ ص٢٤٥.
(١٩٠٣) سورة «ن» الآية ٣٣.
(١٩٠٤) تفسير ابن كثير ج٤ ص٤٠٧، تفسير القاسمي ج١٦ ص٢٦١.
(١٩٠٥) تفسير القرطبي ج١٦ ص٢٤٥.

المبحث الثاني
المستفاد من هذه القصة للدعوة والدعاة

٨٩٧- مجمل الفوائد من هذه القصة:

يستفاد من قصة أصحاب الجنة التي ذكرنا ما جاء عنها في القرآن الكريم وما قاله المفسرون بشأنها، أقول يستفاد منها للدعوة والدعاة أمور: (منها) أن المعاصي من أسباب العقاب الدنيوي، (ومنها) أن البخل يوقع صاحبه في المعصية والنفاق (ومنها) أن علىالمحق أن يثبت على الحق وإن كثر المخالفون له، (ومنها) الاعتراف بالذنب والتعجيل بالتوبة مما ينفع المذنب، (ومنها) أن البخل من صفات الإنسان أو من غرائزه.

٨٩٨- أولاً- المعصية من أسباب العقاب الدنيوي:

الأصل في الجزاء الإلهي أنه في الآخرة حيث ينتهي أجل الإنسان في الدنيا، وتكمل أعماله، فيكون الحساب على جملة أعماله كلها بجميع تفاصيلها. ولكن مع هذا الأصل في الجزاء -سواء كان عقاباً أو ثواباً- فقد مضت سنة الله أن المعاصي من أسباب حلول المصائب والنكبات التي يمكن اعتبارها من أنواع العقاب في الدنيا، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: ومن المعلوم بما أرانا الله من آياته في الآفاق وفي أنفسنا وبما شهد به في كتابه أنَّ المعاصي سبب المصائب، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ﴾(١٩٠٦). وقال المفسرون في هذه الآية التي استدل بها ابن تيمية: «أي وما أصابكم أيها الناس أي مصيبة من مصائب الدنيا كالمرض وسائر النكبات والأحوال المكروهة نحو الآلام والأسقام والقحط والغرق وأشباهها ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي: بسبب معاصيكم التي اكتسبتموها، ﴿وَيَعْفُوا

(١٩٠٦) رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابن تيمية ص٣١.

عَن كَثِيرٍ﴾ أي: ويعفو عن كثير من الذنوب فلا يعاقبكم عليها عاجلاً، قيل وآجلاً»[١٩٠٧]. وعلى هذا فعلى الدعاة أن يحرصوا كل الحرص أن لا يقعوا في المعاصي، وإذا وقعوا فليسرعوا بالتوبة، وأن يبينوا للناس ذلك، لأنه من معاني الإسلام الذي هو موضوع الدعوة. وفي قصة أصحاب الجنة الأرضية مثل واضح وواقعة ظاهرة، بأن ما أصاب أصحاب الجنة هو بسبب ذنبهم المتمثل في منعهم حق المساكين في ثمر جنتهم.

٨٩٩- المؤاخذة على ما يعزم عليه الإنسان:

العزم والعزيمة عقد القلب على إمضاء الأمر، فإذا عزم الإنسان على فعل الشر أو على منع الغير حقه أو نحو ذلك من المعاصي القلبية فإنه يؤاخذ عليها -وفي ما حلّ بأصحاب الجنة من عقاب، بتلف جنتهم وهلاك ثمرها، هو عقاب على ما عزموا عليه من منع المساكين حقهم، في ثمر بستانهم، عن طريق جذاذ هذا الثمر في وقت لا يتفطن إليه المساكين فلا يحضرونه، فيفوت حقهم بفعلٍ من أصحاب الجنة تنفيذاً لقصدهم الخبيث. قال الإمام القرطبي في آيات أصحاب الجنة وما حلّ بهم: «في هذه الآية دليل على أن العزم مما يؤاخذ به الإنسان، لأنهم عزموا على أن يفعلوا فعوقبوا قبل فعلهم»[١٩٠٨] ويؤيد ما ذهب إليه الإمام القرطبي ما جاء في صحيح البخاري «إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار» قالوا: يا رسول الله هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال ﷺ: «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه». فعلق الوعيد بدخول النار على الحرص على قتل صاحبه، وهو العزم على قتل صاحبه. وفي جامع الترمذي من حديث أبي كبشة الأنماري وصححه مرفوعاً إلى النبي ﷺ «إنما الدنيا لأربعة نفر: رجل أعطاه الله مالاً وعلماً فهو يتقي فيه ربه ويصل فيه رحمه ويعلم لله فيه حقاً فهذا بأفضل المنازل. ورجل آتاه الله علماً ولم يؤته مالاً فهو صادق النية، يقول: لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان فهو بنيته فأجرهما سواء، ورجل آتاه الله مالاً ولم يؤته علماً فهو لا يتقي فيه ربه، ولا يصل به رحمه،

(١٩٠٧) تفسير ابن كثير ج٤ ص١١٦، تفسير الرازي ج٢٧ ص٢٧، تفسير الألوسي ج٥، ص٤٠.
(١٩٠٨) تفسير القرطبي ج١٦ ص٢٤١.

ولا يعلم لله فيه حقاً، فهذا بأخبث المنازل، ورجل لم يؤته الله مالاً ولا علماً فهو يقول لو أنَّ لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان فهو بنيته فوزرهما سواء». ولا حجة لدفع ما قلناه من احتج بقوله عليه الصلاة والسلام: «من همَّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب عليه، فإن عملها كتبت سيئة واحدة» لأن معنى «فلم يعملها» أي: فلم يعزم على عملها بدليل حديث البخاري وحديث الترمذي اللذين ذكرناهما. ومعنى «فإن عملها» أي: أظهرها أو عزم عليها، لما قلناه في معنى «فلم يعملها»[١٩٠٩]. فعلى الدعاة أن يلتزموا بذلك فلا يعزموا إلا على فعل الخير، وأن يبينوا ذلك للناس في خطبهم ومواعظهم حتى تصبح عزائمهم مقصورة على النوايا المشروعة والمقصود الصالح.

٩٠٠- ثانياً- البخل يوقع صاحبه في المعصية والنفاق:

رأينا في قصة أصحاب الجنة أنهم بخلوا بما أنعم الله عليهم فعزموا على عدم إعطاء المساكين حقهم في ثمر جنتهم، فقرروا قطع ثمار جنتهم في الصباح الباكر، حيث لا يتوقع المساكين قطع الثمار في هذا الوقت، فلا يحضرونه، وحتى إذا حضروا فقد قرروا عدم تمكينهم من الدخول. وهكذا أوصلهم بخلهم إلى هضم حقوق المساكين ومعصية ربهم ومخالفة أمره، وكان نتيجة ذلك ما بيناه. فعلى الدعاة أن يحذّروا الناس من رذيلة البخل، لأنها توقعهم في المعصية بعدم إخراج ما أوجبه الله عليهم في أموالهم. وعلى الدعاة، وهم يحذرون الناس من رذيلة البخل، وأنه يوقع صاحبه في المعصية والنفاق، أن يؤكدوا ويبينوا ما يأتي:

٩٠١- أ- الفلاح بالوقاية من البخل:

قال تعالى: ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[١٩١٠] الشح والبخل سواء، وجعل بعض أهل اللغة الشح أشد من البخل، والمراد بالآية: الشح بالزكاة وما ليس بفرض من صلة ذوي الأرحام والضيافة وما شاكل ذلك. فليس بشحيح ولا بخيل من أنفق في ذلك وإن أمسك عن نفسه. ومن وسعَّ على نفسه ولم ينفق فيما

(١٩٠٩) تفسير القرطبي ج٤ ص٢١٥، ج١٨ ص٢٤١.

(١٩١٠) سورة التغابن، الآية ١٦.

ذكرناه من الزكوات والطاعات فلم يوق شح نفسه[1911]. وقد حذرنا رسول الله ﷺ من البخل، فقال ﷺ: «إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة. واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم» أخرجه الإمام مسلم، وفي حديث أخرجه الإمام أحمد وأبو داود قال ﷺ: «. . .وإياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم أمرهم بالظلم فظلموا، وأمرهم بالفجور، ففجروا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا»[1912]. هذا ويجب أن يُعْرَفَ أن المذموم من المسلم بخله بإخراج ما هو واجب عليه في ماله كالزكاة والنفقة الواجبة عليه لزوجته أو لذوي أرحامه ونحو ذلك. ويؤيد ذلك ما أخرجه ابن جرير وذكره في تفسيره عن أنس بن مالك، قال رسول الله ﷺ: «بريء من الشح من أدّى الزكاة وقرى الضيف وأعطى في النائبة»[1913].

٩٠٢- ب- البخل يوقع صاحبه في إخلاف العهد والنفاق:

قال تعالى: ﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾[1914]. يقول تعالى: ومن المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه لئن أغناه من فضله ليصدقن من ماله وليكونن من الصالحين، فما وفى بما قال، ولا صدق فيما أدعى، فأعقبهم هذا الصنيع نفاقاً سكن في قلوبهم إلى يوم القيامة، يوم يلقون ربهم[1915]. والآية نزلت في طائفة من المنافقين كما قال ابن كثير، وهو قول الضحاك، قال: الآية نزلت في رجال من المنافقين، وقال الإمام القرطبي بعد أن ذكر قول الضحاك: وهذا أشبه بنزول الآية فيهم، إلا أن قوله تعالى: ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا ﴾ يدل على أن الذي عاهد الله لم يكن منافقاً من قبل، إلا أن يكون المعنى: زادهم نفاقاً ثبتوا عليه إلى الممات

(١٩١١) تفسير القرطبي ج١٨ ص٢٩.

(١٩١٢) تفسير ابن كثير ج٤ ص٣٣٨-٣٣٩.

(١٩١٣) تفسير ابن كثير ج٤ ص٣٣٩.

(١٩١٤) سورة التوبة الآيتان ٧٥-٧٧.

(١٩١٥) تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٧٣.

وهو قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾[1916].

فعلى الدعاة أن يعلموا أن المنافقين صاروا منافقين، لأوصاف علقت بهم واتصفوا بها في قلوبهم وأعمالهم، فإن كان نفاقهم في القلب يقوم على تكذيب رسول الله وما جاء به من ربه، فذاك هو الكفر المخرج من الملة، وإن كان نفاقهم في أعمال لا تتفق مع مقتضيات الإيمان فذاك نفاق الأعمال وقد يؤدي هذا النفاق إلى نفاق القلب[1917]. فعلى الداعي أن يحذّر نفسه وغيره من المسلمين من النفاق بنوعيه. ومن صفات المنافقين، كما جاء في الحديث النبوي الشريف «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: «إذا أوتمن خان وإذا حلف كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»[1918].

٩٠٣- العهد والبيعة على الدعوة:

من صفات المنافقين (إذا عاهد غدر) كما جاء في حديث رسول الله ﷺ، فنقض العهد مذموم وحرام في شرع الله، إذا كان ما عاهد عليه المسلم ربه أمراً مطلوباً شرعاً، كعهده مع ربه إخراج الزكاة من ماله إذا آتاه الله مالاً تجب فيه الزكاة. وهكذا في سائر العهود والالتزامات التي يلتزم بها المسلم، وموضوعها من الواجبات الشرعية عليه قبل أن يلتزم بها بعهده، أي قبل أن يعاهد الله عليها، وإنما بعهده والتزامه يزداد الوجوب عليه تأكيداً وتوثيقاً، ويكون إخلافه في وعده وغدره في عهده مستحقاً للعقوبة: عقوبة إخلافه وغدره في عهده، وعقوبة لعدم قيامه بما عاهد عليه وهو في الأصل واجب عليه، وقد أشار إلى هذا شيخ الإسلام ابن تيمية إذ قال رحمه الله: (إن ما وجب بالشرع إذا نذره العبد، أو عاهد الله عليه، أو بايع عليه الرسول ﷺ، أو الإمام، أو تحالف عليه مع جماعة، فإن هذه العهود والمواثيق تقتضي لها وجوباً ثانياً غير الوجوب الثابت بمجرد الأمر الأول، فتكون واجبة من وجهين بحيث يستحق تاركها من العقوبة ما يستحقه ناقض العهود والمواثيق، وما

(١٩١٦) تفسير القرطبي ج٨ ص٢١٠.

(١٩١٧) تفسير القرطبي ص٢١٢، ٢١٣.

(١٩١٨) المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب للمنذري، انتقاء القرضاوي ج٢ ص٩٠٢.

يستحقه عاصي الله ورسوله. هذا هو التحقيق)[1919] وعلى هذا إذا عاهد المسلم الجماعة المسلمة على العمل للدعوة في صفوف الجماعة ومع الدعاة فيها، وجب عليه القيام بما عاهد عليه هذه الجماعة، لأن الدعوة إلى الله مطلوب شرعي، لا ينفك عنه المسلم، قال تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ ﴾ ومتابعة الرسول ﷺ واجب شرعي، ومن لوازم هذه المتابعة وصفات المتابعين الدعوة إلى الله تعالى. ثم إن الدعوة إلى الله تُؤدى بصيغة جماعية، أي ضمن جماعة تدعو إلى الله ويكون المسلم واحداً منها، وهذا العمل الدعوى الجماعي أي من خلال الجماعة ومعها مطلوب شرعاً، قال تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ . . . ﴾ وأيضاً فإن التعاون على البرّ والتقوى مطلوب شرعي، قال تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ ﴾ ومن أعظم البرّ التعاون على القيام بمتطلبات وأعمال الدعوة إلى الله، والتعاون عليها يقتضي العمل الجماعي. وعلى هذا، فعلى المسلم الذي بايع أو يبايع الجماعة المسلمة التي تدعو إلى الله، إذا بايعها على العمل معها على الدعوة إلى الله، وجب عليه الوفاء بما عاهد هذه الجماعة عليه، وعدم نقض عهده معها. لأن القيام بالدعوة إلى الله من المطلوبات الشرعية، وبيعته مع الجماعة ممثلة برئيسها أو أميرها تعتبر معاهدة معها، والتزام منه معها يجب عليه الوفاء، ولا يسعه التحلل منه. فعلى الدعاة أن يفقهوا ذلك، ويوضحوا لأولئك الذين وفقهم الله إلى الانتساب إلى الجماعة المسلمة، ثم أعطوا العهد لها بالعمل معها على نشر الدعوة، والقيام بمتطلباتها، وما يستلزمه العمل الدعويّ معها من طاعة لها بالمعروف.

٩٠٤- ثالثاً- الثبات على الحق وإن كثر المخالفون:

ذكرنا أن أحد أصحاب الجنة أنكر عليهم قصدهم السيّء، ونيتهم الخبيثة، على حرمان المساكين حقهم في ثمر جنتهم عن طريق جذاذها في الصباح الباكر، حيث لم تجر العادة على الجذاذ أي قطع الثمر في هذا الوقت، وبالتالي لا يحضر جذاذهم المساكينُ فيفوتهم نصيبهم من الثمر. فلم يقبل الباقون من أصحاب الجنة نصيحة أخيهم، ولم يلتفتوا إلى تحذيره وإنكاره عليهم. والظاهر أن ذلك الناصح وهو

(١٩١٩) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ج٣٥ ص٣٤٥-٣٤٦.

-أوسطهم- أي أعدلهم، صحبهم في سيرهم إلى الجنة ولم يعتزلهم ويرفض الخروج معهم بالرغم من رفضهم نصيحته وبالرغم من إنكاره عليهم. وقد علمنا ذلك من قوله لهم عندما رأوا جنتهم المحروقة ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ ومعنى ذلك أنه لم يقم بما يقتضيه إنكاره عليهم من اعتزالهم وعدم مشاركتهم في الذهاب إلى البستان، وهذا منه خطأ، إذ كان عليه أن يثبت على موقفه ويرفض الذهاب معهم. ووجه العبرة التي يجب أن يستفيدها الدعاة أنَّ على المحق أن يثبت على حقه ولو كان وحده في هذا الحق والمخالفون له كثيرون. وإن على المحق أن يحقق ثباته بالقول والعمل: بالقول أن يصرح بالحق وينكر على المخالف. وبالعمل أن لا يشارك المخالفين له في أعمالهم، حتى لا يظهر وكأنه موافق لهم في الباعث على عملهم، بل عليه أن يعتزلهم بجسمه كما اعتزلهم بعقله وروحه، وحتى لا يكثّر سوادهم ويجلب الشبهة على نفسه. وكذلك على الدعاة أن يسعوا إلى تشتيت وتفريق أصحاب الآراء المخالفة للشرع أو المخالفة لرأي الجماعة، ما دام رأيها اجتهادياً وسائغاً، لأن تجمع المخالفين لرأي الجماعة الاجتهادي لا يجوز، فلا بد من العمل على عدم تجمعهم على أساس رأيهم المخالف، لأن تجمعهم قد يؤثر في ثبات العضو الملتزم بطاعة الجماعة، لأن الكثرة لها تأثيرها كما رأينا في موقف الذي أنكر على إخوته من أصحاب الجنة، ومع إنكاره وَاقَعَهُمْ في السير معهم وإن كان منكراً بقلبه لفعلهم.

٩٠٥- رابعاً- الاعتراف بالذنب وتعجيل التوبة:

عندما وصل أصحاب الجنة إليها ورأوها محروقة لا ثمر فيها ولا شجر، وتأكدوا أنها هي جنتهم ذكّرهم أوسطهم قائلاً لهم: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ أي تذكرون الله وتتوبون إليه من خبث نيتكم وسوء عملكم القادمين عليه؟ فعند ذلك اعترفوا بذنبهم و ﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ اعترفوا بخطيئتهم وذنبهم وأكدوا ذلك بقولهم: ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ﴾ ثم توجهوا إلى ربهم تائبين منيبين إليه قائلين: ﴿عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾. فعلى الدعاة أن يروّضوا أنفسهم على الاعتراف بالخطأ أو الخطيئة، إذا وقعوا فيه أو فيها دون لجاجة وجدل واحتجاج، لإخفاء الخطأ أو الخطيئة، وليعلموا مستحضرين ذلك في أذهانهم قول رسول الله

ﷺ: «كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون». أو كما قال عليه الصلاة والسلام. وأكثر ما يكون خطأ الداعية أو خطيئتُهُ في علاقته بجماعته المسلمة، جماعة الدعاة، وفي منهجها في العمل وسياستها فيه ونحو ذلك. ومن لوازم العمل الجماعي طاعة الجماعة بالمعروف أي في غير معصية الله، والمعصية ما عليها دليل واضح، أما الأمور الاجتهادية فهي واجبة الطاعة على الداعية إذا أمرت بها الجماعة، ومن ثم تكون مخالفتها مخالفةً للشرع، فعلى الداعي الرجوع عن هذه المخالفة والتوبة إلى الله منها ومن سائر المعاصي التي قد يقع فيها.

٩٠٦- خامساً- البخل من صفات الإنسان:

من صفات الإنسان كإنسان البخل، قال ربنا تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾[١٩٢٠] قال ابن عباس وقتادة أي بخيلاً منوعاً. قال ابن كثير: والله تعالى يصف الإنسان من حيث هو إنسان إلا من وفقه الله وهداه، فإن البخل والجزع والهلع صفة له كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾[١٩٢١]. والهلع سرعة الجزع عند مسّ المكروه، وسرعة المنع عند مسّ الخير. وعلى هذا فالهلوع هو الذي إذا ناله شرٌّ، أظهر شدة الجزع، وإذا ناله خير بخل به ومنعه الناس، والمعنى: أن الإنسان لإيثاره الجزع والمنع، وتمكنهما منه، ورسوخهما فيه، كأنه مجبول عليهما مطبوع، وكأنه أمر خلقي وضروري غير اختياري[١٩٢٢]. ويقول الإمام ابن كثير في تفسير ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا. . .﴾ يقول تعالى مخبراً عن الإنسان وما هو مجبول عليه من الأخلاق الدنيئة ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ ثم فسره تعالى بقوله: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا﴾ أي: إذا مسه الضر فزع وجزع وانخلع قلبه من شدة الرعب، وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير، ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ أي: إذا حصلت له نعمة من الله بخل بها على غيره ومنع حق الله تعالى فيها[١٩٢٣]. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ أي: الإنسان من حيث هو إنسان متصف

(١٩٢٠) سورة الإسراء، الآية: ١٠٠.

(١٩٢١) تفسير ابن كثير ج٣ ص٦٦ والآيات في سورة المعارج ورقمها من ١٩-٢٢.

(١٩٢٢) تفسير الزمخشري ج٤ ص٦١٢.

(١٩٢٣) تفسير ابن كثير ج٤ ص٤٢١.

بصفات الذم، إلا من عصمه الله، ووفقه وهداه إلى الخير، ويسرَّ له أسبابه، وهم المصلون ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴾[١٩٢٤] أي: يحافظون على أوقاتها وواجباتها ويؤدونها بخشوع وطمأنينة[١٩٢٥]، وحيث إن من غرائز الإنسان البخل، وإن هذا الوصف يرسخ فيه إذا ترك وشأنه، ولم يقمع بالإيمان العميق والعبادة الدائمة، فإنه -أي- البخل يحمل صاحبه إلى منع الغير حقهم، كما فعل أصحاب الجنة. وعلى هذا يجب على الدعاة أن يفقهوا ما جُبِل عليه الإنسان من صفات وميول، وأن يعملوا على تخليص الناس منها وذلك بتبصيرهم ما فيهم من طباع الشر، ومنها البخل، وإن هذه الطباع ومنها البخل يمكن إزالتها أو قهرها بتزكية النفس، قال تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾[١٩٢٦]. قال ابن كثير: يحتمل أن يكون المعنى قد أفلح من زكى نفسه أي: بطاعة الله، كما قال قتادة، وطهرها من الأخلاق الدنيئة والرذائل[١٩٢٧]. فتطهير النفس من الرذائل ومنها البخل ممكن، وإلا لما علق الله الفلاح بتزكيتها، وأمره بهذه التزكية، لأن من قواعد الشرع: لا تكليف بمستحيل. وأعظم ما يزكي النفس من الرذائل ومنها البخل، عبادة الله والدوام على هذه العبادة، ولذلك استثنى الله المصلين من الموصوفين بالهلع والجزع والبخل أي منع الخير عن الناس. وقال تعالى مبيناً أثر العبادة في تزكية النفس: ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ فالصلاة تقمع ميل الإنسان إلى الفحشاء والمنكر ومنه رذيلة البخل وغيره.

(١٩٢٤) سورة المعارج الآية ٢٣.

(١٩٢٥) تفسيرابن كثير ج٤ ص٤٢١.

(١٩٢٦) سورة الإسراء الآية ١٠٠.

(١٩٢٧) تفسير ابن كثير ج٤ ص٥١٦.

الفصل الرابع والعشرون

قصة صاحب الجنتين

المبحث الأول

خلاصة القصة وتفسير آياتها

٩٠٧- خلاصة القصة:

القصة تدور حول رجلين، جعل الله لأحدهما جنتين، أي: بستانين من أعناب محفوفتين بالنخيل، المحدقة في جنباتهما وفي خلالهما الزروع. وكلٌ من الأشجار والزروع مثمر في غاية الجودة، والأنهار متفرقة فيهما ها هنا وها هنا. ودخل جنته مغروراً ومعجباً بها، فقال: ما أظن أن تهلك هذه الجنة، وما أظن الساعة -أي: يوم القيامة- كائنة، ولئن كان هناك حياة بعد الموت ورجوع إلى الله، ليكونَنَّ لي هناك أحسن من هذا الحظ عند ربي. فقال له صاحبه -وكان رجلاً مؤمناً، وهو ينكر عليه إنكاره يوم البعث-: لقد كفرت بالذي خلقك، وأنا الآن فقير، ولكن أرجو الله أن يعطيني في الآخرة خيراً من جنتك، ويرسل على جنتك ما يهلك شجرها وثمرها، أو يجعل ماء أنهارها غائراً في الأرض. وقد وقع الهلاك بثمر جنته، وأحسَّ بأن الذي وقع بجنته هو نتيجة كفره وغروره، فقال: يا ليتني لم أشرك بربي أحداً[١٩٢٨]. ونذكر فيما يلي تفاصيل القصة كما وردت في القرآن الكريم.

٩٠٨- القصة ذكرت مثلاً للكافرين والمؤمنين:

قال تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا﴾[١٩٢٩]. هذا مثل ضربه الله للطائفتين: طائفة المشركين التي أرادت من النبي ﷺ أن يطرد طائفة فقراء المؤمنين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي، ولهذه

(١٩٢٨) تفسير ابن كثير ج٣ ص٨٣-٨٤.

(١٩٢٩) سورة الكهف الآية ٣٢.

الطائفة أيضاً، فالمثل مضروب لهاتين الطائفتين. وظاهر هذا المثل أنه لأمر وقع وكان موجوداً، وإن كان يصح ضربه مثلاً بمن هذه صفته المذكورة في الآية وإن لم يقع ذلك في وجود قط[١٩٣٠]. وقوله: ﴿جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ﴾ أي: بساتين من كروم، ﴿وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ﴾ أي: وجعلنا النخل محيطاً بالجنتين ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ أي: جعلنا بينهما أرضاً جامعة للأقوات والفواكه، أو جعلنا حول الأعناب النخل ووسط الأعناب الزرع[١٩٣١].

٩٠٩- كلتا الجنين آتت أكلها:

قال تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ...﴾[١٩٣٢]. قوله: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾ أي: أخرجت ثمرها ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ أي: ولم تنقص منه شيئاً. ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾ أي: أجرينا وشققنا وسط الجنتين نهراً يسقي الزروع والأشجار، ويزيد في بهجة مرآهما متمماً لحسنهما. ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾ أي: أنواع من المال من ثمر ما له إذا كثر[١٩٣٣].

٩١٠- أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً:

قال تعالى: ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾[١٩٣٤]. كان لصاحب الجنتين صاحب فقير، صاحب فقير الحال ولكنه مؤمن عزيز النفس، فقال له صاحب الجنتين وهو يحاوره، أي: وهو يراجعه تعييراً له بالفقر وفخراً عليه بالمال والجاه: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ أي: أكثر منك مالاً وأكثر خدماً وحشماً وأنصاراً وولداً. قال قتادة: تلك والله أمنية الفاجر: كثرة المال وعزة النفر[١٩٣٥].

(١٩٣٠) تفسير ابن عطية ج٩ ص٣٠٤-٣٠٩.

(١٩٣١) تفسير الزمخشري ج٢ ص٧٢١، تفسير القرطبي ج٩ ص٤٠١.

(١٩٣٢) سورة الكهف الآيات ٣٣، ٣٤.

(١٩٣٣) تفسير القرطبي ج٩ ص٤٠٣، تفسير القاسمي ج١١ ص٤١.

(١٩٣٤) سورة الكهف الآية ٣٤.

(١٩٣٥) تفسير ابن كثير ج٣ ص٨٣.

٩١١- صاحب الجنتين يعلن كفره:

قال تعالى: ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾[١٩٣٦] . قوله تعالى: ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ ﴾ أي: ومعه صاحبه المؤمن يطوف به في جنته، ويفاخره بها، ويعجّبه منها، كما يدل عليه السياق ومحاورته له. وإفراد الجنة هنا مع أنَّ له جنتين كما مرَّ إما لعدم تعلق الغرض بذكر تعددها، وإما لاتصال إحداهما بالأخرى، وإما لأن الدخول يكون في واحدة واحدة. وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ﴾ أي: بكفره وتمرده وتكبره وتجبره وإنكاره المعاد. ﴿ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴾ أي: ما أظن أن تهلك وتفنى ﴿ هَٰذِهِۦٓ ﴾ أي: جنته ﴿ أَبَدًا ﴾ لاعتقاده أبدية الدهر. ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴾ أي: كائنة ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ أي ولئن كان هناك معاد وبعث بعد الموت، ورجعة ومردٌّ إلى الله ليكوننَّ لي هنالك أحسن مما عندي الآن، لأنه لولا منزلتي العالية عند الله وكرامتي عليه ما أعطاني هذا في الدنيا أي الجنتين[١٩٣٧] .

٩١٢- ردّ المؤمن على كفر صاحبه:

قال تعالى عما ردّ به المؤمن على كفر صاحبه، صاحب الجنتين: ﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾[١٩٣٨] . يقول تعالى مخبراً عما أجابه به صاحبه المؤمن واعظاً له وزاجراً عما هو فيه من الكفر بالله وعما هو فيه من الاغترار: ﴿ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ وهذا إنكار عظيم لما وقع فيه صاحبه من جحود ربه الذي خلقه وابتدأ خلق الإنسان من طين، وهو آدم عليه السلام فقوله تعالى: ﴿ خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ﴾ أي: خلق أصلك وهو آدم، لأن خلق أصله سبب في خلقه فكان خلقه خلقاً له. ﴿ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴾ أي: عدّلك وكمّلك إنساناً ذكراً بالغاً مبلغ الرجال. والمؤمن جعل صاحبه كافراً بالله جاحداً لأنعمه لشكه في البعث بعد الموت، كما يكون المكذب

(١٩٣٦) سورة الكهف الآية ٣٥، ٣٦.

(١٩٣٧) تفسير ابن كثير ج٣ ص٨٣، تفسير القاسمي ج١٢ ص٤٢.

(١٩٣٨) سورة الكهف الآية ٣٧.

بالرسول ﷺ كافراً[1939] والحقيقة أن جحود الإنسان ربه بعدم الإيمان به رباً ومعبوداً، هذا الجحود منه كفر صريح وجرم عظيم، لأنه يناقض الدليل الظاهر المحسوس الذي يعرفه كل إنسان، ولذلك قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[1940] أي أتكفرون بالله ومعكم ما يصرفكم عن الكفر ويدعو إلى الإيمان، فكأنه قيل: ما أعجب كفركم مع علمكم بحالكم[1941]. وقال ابن كثير في هذه الآية: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ...﴾ أي: كيف تجحدون ربكم ودلالته عليكم ظاهرة جلية، كل أحد يعلمها من نفسه فإنه ما من أحد من المخلوقات إلا ويعلم أنه كان معدوماً ثم وجد، وليس وجوده من نفسه ولا مستنداً إلى شيء من المخلوقات، لأنه بمثابته، فعلم إسناد إيجاده إلى خالقه وهو الله لا إله إلا هو، خالق كل شيء[1942]. ولهذا قال المؤمن: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى﴾ أي: لكن أنا لا أقول بمقالتك بل أعترف لله بالواحدانية والربوبية ﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ أي: بل هو الله المعبود وحده لا شريك له فلا أعبد سواه ولا أعبد معه غيره[1943].

٩١٣- ردُّ المؤمن على غرور صاحبه وإعجابه بما عنده:

وبعد أن ردّ المؤمن على كفر صاحبه وضلاله، ردّ عليه غروره وافتخاره عليه بماله وتعييره بفقره، قال تعالى حكاية عما قاله المؤمن لصاحبه الكافر: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا﴾[1944]. والمعنى: هلا إذا دخلتَ جنتكَ ونظرتَ إلى ما رزقك الله منها، وأعجبك ما فيها ﴿قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: الأمر ما شاء الله، وهذه الجنة هي ما شاء الله، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، اعترافاً بأنها وكل خير

(١٩٣٩) تفسير الزمخشري ج٢ ص٧٢٢.

(١٩٤٠) سورة البقرة الآية ٢٨.

(١٩٤١) تفسير الزمخشري ج١ ص١٢١، ١٢٢.

(١٩٤٢) تفسير ابن كثير ج٣ ص٨٣.

(١٩٤٣) تفسير ابن كثير ج٣ ص٨٣.

(١٩٤٤) سورة الكهف الآيات ٣٩-٤١.

فيها إنما هو حصل بمشيئة الله وفضله، وإن أمر جنتك بيده: إن شاء تركها عامرة وإن شاء خرّبها. وقلت: ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ إقراراً منك بأن ما قويت به على عمارتها وتدبير أمرها إنما هو بمعونته تعالى، وتأييده، إذ لا يقوى أحد في بدنه ولا في ملك يده إلا بالله تعالى[1945]. ولهذا قال بعض السلف: من أعجبه شيء من حاله أو ماله أو ولده فليقل: ما شاء الله لا قوة إلا بالله[1946]. وقوله: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ أشار المؤمن لصاحبه بأن تعييره إياه بالفقر وقلة الولد والنصير لا يبعد أن ينعكس فيه الأمر ﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرًا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا﴾[1947] والمعنى: إن ترني أفقر منك فأنا أتوقع من صنع الله أن يقلب ما بي وما بك من الفقر والغنى، فيرزقني لإيماني جنة ﴿خَيۡرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ ويسلبك لكفرك نعمته عليك، ويخرب بستانك بأن يرسل عليها حسباناً من السماء أي: مقداراً قدّره الله وحسبه، وهو الحكم بتدميرها من صواعق وآفات سماوية ﴿فَتُصۡبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ أي: تراباً أملس لا تثبت عليها قدم لملاستها فيزلق عليها الماشي زلقاً، أو يهلكها بآفة سفلية من جهة الأرض بأن ﴿يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرًا﴾ أي: غائراً في الأرض. ﴿فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا﴾ أي: وسيلة تدركه بها بالحفر أو بغيره[1948].

٩١٤- هلاك الثمر وندم صاحبه:

قال تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدًا وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّۚ هُوَ خَيۡرٌ ثَوَابًا وَخَيۡرٌ عُقۡبًا﴾[1949]. وقوله ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ أي: أُهلك ثمره. وهذه العبارة (أحيط به) تستعمل في كل إهلاك، ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡ﴾. قوله ﴿فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ أي: يصفق كفيه أي: يضرب إحدى يديه على الأخرى ندماً، لأن هذا يصدر من النادم، وتأسفاً على الأموال التي أنفقها على

(١٩٤٥) تفسير الزمخشري ج٢ ص٧٢٣، تفسير القرطبي ج١٠ ص٤٠٦.

(١٩٤٦) تفسير ابن كثير ج٣ ص٨٤.

(١٩٤٧) سورة الكهف الآيات ٤٠، ٤١.

(١٩٤٨) تفسير الزمخشري ج٢ ص٧٢٣، تفسير القاسمي ج١١ ص٤٥، ٤٦.

(١٩٤٩) سورة الكهف الآيات ٤٢-٤٤.

عمارة جنته ﴿وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ أي: ساقطة على عروشها. والعروش جمع عرش وهو ما يصنع ليوضع عليه شيء فإذا سقط، سقط ما عليه، يعني أنَّ أعنابها المعروشة سقطت عروشها على الأرض وسقطت فوقها الأعناب بحيث قاربت أن تصير صعيداً زلقاً. ﴿وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ وذلك أنه تذكرَّ موعظة صاحبه المؤمن فعلم أن هلاك ثمر بستانه سببه شركه وكفره بربه، فتمنى لو لم يكن مشركاً حتى تسلم له بستانه ولا يهلكها الله. وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ أي: لم تكن له مَنَعةٌ ولا قومٌ ينصرونه من دون الله، أي يقدرون على نصرته من دون الله كما افتخر بهم، واستعزَّ بهم على صاحبه المؤمن ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ أي: ممتنعاً بنفسه وقوته عن انتقام الله[١٩٥٠]. وقوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ أي: في ذلك المقام وتلك الحال التي وقع فيها الإهلاك، الولاية أي: النصرة لله وحده، لا يقدر عليها أحد غيره، فالجملة مقررة ومؤكدة لقوله تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ﴾، لأنها بمعناها. ويجوز أن يكون المعنى: هنالك الولاية لله ينصر فيها أولياءه المؤمنين على الكفرة وينتقم لهم، يعني: أنه نصرَ فيما فعل بالكافر صاحبَه المؤمن وصدّق قوله وتمنيه ﴿فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ ويعضده قوله: ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ أي: لأوليائه[١٩٥١]. وقوله تعالى: ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ أي: الله تعالى خيرٌ ثواباً في الدنيا والآخرة، لمن آمن به أي هو خير من يُرجَى منه ﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ أي: هو خير عاقبة لمن رجاه وآمن به[١٩٥٢].

(١٩٥٠) تفسير القاسمي ج١١ ص٤١.

(١٩٥١) تفسير الزمخشري ج٢ ص٧٢٤.

(١٩٥٢) تفسير القرطبي ج١٠ ص٤١١.

المبحث الثاني
ما يستفاد من قصة صاحب الجنتين

٩١٥- تعداد هذه الفوائد:

يستفاد من قصة صاحب الجنتين: (أ) أن كثرة مال الإنسان أو قلته لا تدلان على إكرام أو إهانة من الله. (ب) وأن كثرة المال قد تُطْغي صاحبه. (ج) وأن إيمان المؤمن لا يتأثر بالفقر والغنى. (د) قد يصاحب المؤمنُ الكافرَ ولكن لا يترك الإنكار عليه.

٩١٦- أ- لا دلالة بكثرة مال الإنسان أو قلته على إكرامه أو إهانته:

ليعلم الداعي ويعلّمه الناس أَنْ لا دلالة بكثرة مال الإنسان أو قلته على إكرام الله له أو إهانته، قال تعالى: ﴿ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾[١٩٥٣]. وجاء في تفسير هذه الآيات أن الله تعالى ينكر على الإنسان اعتقاده بأن كثرة المال التي يرزقها الله إياه هي دليل على إكرام الله له، وكذلك ينكر عليه اعتقاده أن قلة مال الإنسان دليل على إهانة الله له، لأن الله تعالى يعطي المال الكثير للمؤمن والكافر، وقد لا يعطي من المال إلا القليل للمؤمن أو للكافر، وكل ذلك للإبتلاء ولا علاقة ولا دلالة في هذا العطاء القليل أو الكثير على الإهانة أو الإكرام[١٩٥٤]. فصاحب الجنتين أُوتي هاتين الجنّتينِ وما جاءه منهما من مال كثير، فَغَرَّهُ هذا المال وحسبه دليلاً على إكرام الله له فراح يفتخر به، ويتعالى به على صاحبه، ويعيره بقلة ماله ويفاخره بكثرة ماله. أما صاحبه المؤمن فهو يدرك ببصيرته وبنوره وإيمانه أَنَّ فقره وغنى صاحبه الكافر هو للابتلاء، ليظهر مدى شكر العبد في حال غناه ومدى صبره في حال فقره، وهذا ما لم يفقهه الكافر صاحب الجنتين. فعلى الدعاة

(١٩٥٣) سورة الفجر الآيات ١٦-١٨.

(١٩٥٤) تفسير ابن كثير ج٤ ص٥٠٩.

تبيين هذه الحقيقة للناس، وتكريرها على أسماعهم، وضرب الأمثال لهم حتى ترسخ هذه الحقيقة في نفوسهم.

٩١٧ -ب- كثرة المال قد يُطْغِي صاحبه:

المال وسيلة لنيل الملذات واتباع الشهوات والتسلط على الناس، وفيه قابلية جرٍّ صاحبه إلى الطغيان، وتجاوز قدر نفسه، وإدعاء ما ليس له، والظنِّ بأنَّ ما أُوتيه هو على جهة الاستحقاق، فيحمله هذا الظن على العجب بنفسه وإزدراء غيره والتكبر عليه. وقد مرت بنا قصة قارون وكيف أخرجه ماله الواسع الكثير عن قدر وحدّ نفسه. ثم يحمله ذلك إلى بطر النعمة وعدم شكر ما آتاه الله من مال. ولا يُنِجّي الإنسان من طغيان المال إلا الإيمانُ العميق، وهذا ما ندعو الدعاة إلى تأكيده للناس، وتحذيرهم من فتنة المال وطغيانه، وضرب المثل بصاحب الجنتين، فقد كان عديمَ الإيمان، كما يدلّ عليه ما قاله من إنكار البعث بعد الموت وما ردّ عليه صاحبه المؤمن إذ صرح له بكفره، فلا عاصم للإنسان من طغيان المال إلا الإيمان العميق، وهذا ما يجب أن يؤكد عليه الدعاة، ويحذّروا المسلمين من الوقوع في أسر المال وطغيانه، لئلا يحلّ بهم ما حلّ بأمثالهم من هلاك المال، أو هلاكهم أيضاً مع هلاك المال.

٩١٨ -ج- إيمان المؤمن لا يتأثر بفقر أو غنى:

الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب لا يتأثر صاحبه بفقر أو غنى يصيبه، ولا بفقر أو غنى يصيب الكافر، لأن الغنى والفقر مما يمتحن الله به عباده، ولا يجوز للعبد أن يعترض على نوع الامتحان الذي يمتحن الله به عباده، فقد يمتحن الله الكافر بالغنى وسعة المال، ويمتحن المؤمن بقلة المال. كما يعلم المؤمن أن ما أنعم الله عليه من نعمة الإيمان، لا تساويها أبداً أي نعمة يؤتاها الإنسان كنعمة المال والأولاد وما إلى ذلك. ولهذا فهو لا يتزلزل إيمانه أبداً إذا افتقر هو أو اغتنى الكافر، فمتاع الدنيا قليل وزائل، ولا يستحق أن تستشرف له نفس المؤمن، ولا أن يكون هو مقصدها وهمّها، ولا أن يحزن على فوته أو فقده، لأن مقصد المؤمن الآخرة ومرضاة الله، ولأنه يعلم مدى حقارة الدنيا عند الله تعالى، يدل على ما قلناه أن الله تعالى بعد أن ذكر التفاوت بين عباده في الرزق قال: ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن

يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[١٩٥٥] والمعنى: لولا أن يعتقد كثير من الجهلة أن إعطاءنا المال لإنسان دليل على محبتنا له فيجتمعوا على الكفر لأجل المال: ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ﴾ أي: سلالم ودرجاً من فضة ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ أي يصعدون ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ﴾ أي: جميع ذلك يكون من فضة «وزخرفاً» أي: ذهباً. ثم قال تعالى: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: كل ذلك من متاع الدنيا الفانية الزائلة الحقيرة عند الله تعالى. ﴿وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: هي لهم خاصة لا يشاركهم فيها أحدٌ غيرهم[١٩٥٦]. فالمؤمن لا يأسف ولا يتزلزل إيمانه إذا كان فقيراً مضيقاً عليه بالرزق، والكافرغنياً مُوَسعاً عليه بالرزق، لأنَّ حرص المؤمن على مرضاة الله، وما ينعم الله به على المؤمنين في الآخرة، وليس حرصه على متاع الدنيا الزائل ولا على النعم فيها. إنه يعرف قدر الدنيا ويعلم لو أنها تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء أبداً كما جاء في حديث الترمذي عن رسول الله ﷺ كما ذكره ابن كثير في تفسيره[١٩٥٧]. فعلى الدعاة أن يفقهوا ما قلناه ويعلّموه الناس، ويستدلوا بالمؤمن صاحب الكافر ذي الجنتين عندما قال له صاحبه ذو الجنتين: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ ثم نطق بالكفر وقد دخل جنته ومعه صاحبه المؤمن: ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً . . .﴾ الآية فقال له صاحبه المؤمن: ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ . . .﴾ الآية، ثم أعلن المؤمن ثباته على إيمانه فقال: ﴿لَّٰكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾، وهكذا يجب أن يكون المؤمن ثابتاً على إيمانه، لا يتزعزع إيمانه ولا يضعف، ولا يتأثر إذا وجد الكافرَ في سعة من العيش وكثرة من المال، وهو في ضيق وقلة مال مع أنه مؤمن.

(١٩٥٥) سورة الزخرف الآيات ٣٣-٣٥.

(١٩٥٦) تفسير ابن كثير ج٤ ص١٢٧.

(١٩٥٧) تفسير ابن كثير ج٤ ص١٢٧.

٩١٩- مصاحبة المؤمن للكافر:

رأينا في قصة صاحب الجنتين وهو كافر، أن له صاحباً وهو مؤمن، ويستفاد من ذلك جواز صحبة المؤمن للكافر ولكن بشرط أن لا يتأثر المؤمن بهذه الصحبة وأن يبقى ثابتاً على إيمانه، وأن ينكر على صاحبه الكافر إذا نطق بما يستوجب الإنكار، وأن يكون قصده في هذه الصحبة العمل على إصلاحه وهدايته. وهذا -على ما يبدو- كان حال المؤمن صاحب ذي الجنتين. أما إذا كان المؤمن لا يقوى على صحبة الكافر مع الحفاظ على ثباته على الإيمان، وخاف على إيمانه من الاضطراب، وعدم الثبات بسبب هذه الصحبة وبسبب ما يراه من مال كثير عند الكافر، وفقر مدقع هو فيه، ففي هذه الحالة لايجوز للمؤمن أن يستمر في هذه الصحبة للكافر. والظاهر أن الصاحب لذي الجنتين كان مؤمناً واثقاً من إيمانه ومنكراً على صاحبه ما كان يصدر منه من قول أو فعل يستوجب الردّ والإنكار. فعلى الدعاة أن يلاحظوا ذلك وتكون صحبتهم في الأصل للمؤمنين حيث يتقوى بهم ويتقوّوْنَ به. أما الكفرة فلا يصاحبهم إلا بقصد هدايتهم وعلمه بعدم تأثره بهم، وإنكاره عليهم إذا صدر منهم ما يدعو إلى الإنكار.

الفصل الخامس والعشرون

قصة أصحاب الفيل

المبحث الأول

خلاصة القصة وتفسير آياتها

٩٢٠- خلاصة القصة:

أبرهة الأشرم حاكم اليمن من قِبَلِ ملك الحبشة الذي أرسل جيشاً كثيفاً إلى اليمن، كان أبرهة أحد الأميرين في هذا الجيش. ولما صفا الحكم لأبرهة الأشرم بنى كنيسة بأرض اليمن لم يُبْنَ قبلها مثلها، سمتها العرب «القليس» لارتفاعها، لأن الناظر إليها تكاد تسقط قلنسوته عن رأسه من ارتفاع بنائها. وعزم أبرهة على أن يصرف حج العرب إليها كما يحج إلى الكعبة بمكة. ونادى بذلك في مملكته فكرهت العرب ذلك، وغضبت قريش لذلك غضباً شديداً، حتى قصدها بعضهم وتوصل إلى أن دخلها ليلاً فأحدث فيها -أي تغوط فيها- وكرَّ راجعاً من حيث أتى، فلما علم أبرهة بذلك، وقيل له إن الذي فعله بعض قريش، أَقسمَ ليذهبن إلى بيت مكة «الكعبة» وليخربنَّه حجراً حجراً. وسار بالفعل بجيش كثيف يتقدمهم فيل عظيم لم يُرَ مثله. وقاتله في طريقه إلى مكة القبائل العربية ولكنه تغلب عليها حتى وصل إلى الطائف فخرج إليه مسعود بن مُعتِّب في رجال من ثقيف، فقالوا لأبرهة ليس عندنا لك خلاف، وليس بيتنا هذا البيت الذي تريده يعنون اللات -وهو بيت لهم يعظمونه ففيه صنمهم اللات- إنما تريد أنت البيت الذي بمكة، ونحن نبعث معك من يدلك عليه فتجاوز عنهم، وبعثوا معهم أبا رِغال فأنزلهم بالمغمِّس، وهو موضع قرب مكة، في طريق الطائف، فلما أنزلهم في هذا المكان مات أبو رغال هناك فرجمت قبره العرب، فهو القبر الذي يرجمه الناس بالمغمسِّ، وفيه يقول الشاعر:

وأرجمُ قبرَه في كل عام ... كرجم الناس قبرَ أبي رغال

ثم أرسل أبرهة بعض جنده، ودخلوا مكة واستولوا فيما استولوا عليه على مائتي بعير لعبدالمطلب بن هاشم وهو يومئذ كبير قريش وسيدها، فهمّت قريش وكنانة وهذيل ومن كان معهم في الحرم بقتال أبرهة، ثم عرفوا أنهم لا طاقة لهم به، لجيشه الكثيف الذي جاء به، فتركوا قتاله. وبعث أبرهة أحد أعوانه إلى أهل مكة ليأتيه بسيدهم ليكلمه بشأن مجيئه، وأنه ما جاء لقتالهم وإنما لهدم الكعبة، فدلوه على عبدالمطلب فجاء به إلى أبرهة فلما دخل عليه هابه وأجلّه ونزل عن سريره وجلس على البساط بجنب عبدالمطلب، وقال لترجمانه قل له: ما حاجتك وماذا تريد؟ فقال عبدالمطلب إن حاجتي أن يردَّ عليّ أبرهة مائتي بعير استولى عليها أعوانه. فقال أبرهة لترجمانه قل له: لقد كنتَ أعجبتني حين رأيتك ثم قد زهدتُ فيك حين كلمتني، أتكلمني في مئتي بعير استولينا عليها، ولا تكلمني في بيت هو دينك ودين آبائك، جئت لأهدمه، فقال عبدالمطلب: إني أنا رب الإبل وإنَّ للبيت رباً سيحميه وسيمنعه منك. قال ما كان ليمتنع مني. قال عبدالمطلب: أنت وذاك. وردّ أبرهة على عبدالمطلب إبلَه ورجع عبدالمطلب إلى قريش، فأمرهم بالخروج من مكة والتحصن في رؤوس الجبال تخوفاً عليهم من بطش الجيش بهم. ثم قام عبدالمطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده، ثم خرج هو وقريش إلى الجبال كما أمرهم عبدالمطلب. فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة وهيأ فيله الكبير وجيشه لدخول مكة. فلما وجهوا الفيل نحو مكة برك الفيل فضربوه ليقوم وينهض فأبى عليهم ذلك. ولما وجهوه إلى اليمن قام يهرول ووجهوه إلى الشام فَفَعَلَ مثل ذلك ولما وجهوه إلى مكة برك[١٩٥٨]. وأتبع ذلك أن أرسل الله عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة، فأهلكتهم كما سنبيّن ذلك في تفسيرنا لسورة الفيل التي أخبرنا الله فيها بكيفية هلاكهم.

٩٢١- قصة أصحاب الفيل في القرآن الكريم:

قال تعالى مخبراً عن هلاك أصحاب الفيل الذي جاءوا يريدون هدم الكعبة، ومخبراً عن كيفية هذا الهلاك، ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ

(١٩٥٨) تفسير ابن كثير ج٤ ص٥٤٩-٥٥٠، تفسير القرطبي ج٢٠ ص١٨٧-١٨٩.

﴿كَعَصۡفٖ مَّأۡكُولِۭ﴾[1959].

٩٢٢- تفسير سورة الفيل:

قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ﴾ يعني الذين قدموا من اليمن يريدون تخريب الكعبة، ورئيسهم أبرهة الحبشي الأشرم. والخطاب في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ لرسوله ﷺ. والهمزة في ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ لتقرير رؤيته ﷺ، وهي رؤية علمية وليس بصرية، والمعنى: ألم تعلم علماً كالمشاهدة والعيان باستماع الأخبار المتواترة، ومعاينة الآثار الظاهرة بما فعله ربك بأصحاب الفيل، حيث أنه تعالى أهلكهم بكيفية هائلة وعجيبة دالاً على عظمة قدرة الله تعالى وكمال علمه وحكمته وعزة بيته[1960].

وقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَجۡعَلۡ كَيۡدَهُمۡ فِي تَضۡلِيلٖ﴾ بيان إجمالي لما فعل الله تعالى بهم. أي: ألم يجعل مكرهم وسعيهم لتخريب الكعبة في تضييع وإبطال لما حاولوا ذلك، وتدميرهم أشد تدمير. وقال الرازي، كما ينقل عنه الإمام القاسمي: اعلم أن الكيد هو إرادة مضرة بالغير على الخفية، فإن قيل لِمَ سماه كيداً وأمره كان ظاهراً، فإن أبرهة الأشرم كان يصرح أنه يريد هدم البيت؟ فالجواب: نعم كان يصرح بذلك لكن الذي كان في قلبه شر مما أظهره، لأنه كان يضمر الحسد للعرب وكان يريد صرف الشرف الحاصل لهم بسبب الكعبة منهم ومن بلدهم، إلى نفسه وإلى اليمن التي يحكمها[1961].

وقوله تعالى: ﴿وَأَرۡسَلَ عَلَيۡهِمۡ طَيۡرًا أَبَابِيلَ﴾ أي: أرسل الله تعالى على أبرهة وجيشه ﴿طَيۡرًا أَبَابِيلَ﴾ والأبابيل: الجماعات تجيء شيئاً بعد شيء. وقال أبو عبيدة: لا واحد له من لفظه. وهذا هو الصحيح[1962]. والتنكير في ﴿طَيۡرًا﴾ إما للتحقير، فإنه مهما كان أحقر كان صنع الله أعجب وأكبر. أو جاء التنكير في ﴿طَيۡرًا﴾ للتفخيم كأنه يقول: طيراً وأي طير بحجارة صغيرة فلا تخطىء المقتل بل تصيبه بدقة

(١٩٥٩) سورة الفيل الآيات من ١-٥.

(١٩٦٠) تفسير القاسمي ج١٧ ص٢٥٥.

(١٩٦١) تفسير القاسمي ج١٧ ص٢٥٥-٢٥٦.

(١٩٦٢) تفسير ابن عطية ج١٥ ص٥٧٢.

عجيبة[١٩٦٣]. وقوله تعالى: ﴿ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴾ أي: من طين متحجر، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: من طين مطبوخ كما يُطْبَخ الآجر. وكان الحجر كالحمصة وفوق العدسة[١٩٦٤].

وقوله تعالى: ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ والعصف ورق الحنطة وتبنه. والمعنى: صاروا طحيناً ذاهباً كورق الحنطة أكلته الدواب وراثته، أي أخرجته روثاً[١٩٦٥] شبه تقطع أوصالهم بتفرق أجزاء أبدانهم بتفرق أجزاء الروث الذي حدث عن أكل الزرع وعصفه[١٩٦٦].

٩٢٣- دلالة قصة أصحاب الفيل:

إن في قصة أصحاب الفيل وهلاكهم عبراً كثيرة أشار إليها المفسرون، وحِكماً أشار إليها بعضهم. فمن أقوال المفسرين فيما أفادته هذه القصة من عبر وعظات وحِكَم، ما يأتي:

أولاً: قال الإمام ابن عطية وهو يفسر هذه السورة ويشير إلى هلاك أبرهة وجيشه: «فنزلت هذه السورة منبهة على الاعتبار بهذه القصة- قصة هلاك أصحاب الفيل- ليعلم الكل أن الأمر كله لله تعالى، ويستسلموا للإله الذي ظهرت في ذلك قدرته حين لم تغن الأصنام شيئاً[١٩٦٧].

ثانياً: جاء في تفسير القرطبي، وهو يفسر سورة الفيل، «وقال ابن إسحاق: لما ردَّ الله الحبشة عن مكة عظّمت العرب قريشاً، وقالوا: أهل الله، قاتل عنهم وكفاهم مؤنة عدوهم، فكان ذلك نعمة من الله عليهم[١٩٦٨]. كما ازدادت هيبة الحرم وتعظيمه وحرمته في أعين العرب ونفوسهم لما رأوا صيانة الله لبيته وإهلاك

(١٩٦٣) تفسير القاسمي ج١٧ ص٢٥٦.

(١٩٦٤) تفسير الزمخشري ج٤ ص٨٠٠، تفسير القرطبي ج٢٠ ص١٩٨، تفسير القاسمي ج١٧ ص٢٥٦.

(١٩٦٥) تفسير ابن عطية ج١٥ ص٥٧٢-٥٧٣.

(١٩٦٦) تفسير القرطبي ج٢٠ ص١٩٩، تفسير القاسمي ج١٧ ص٢٥٦.

(١٩٦٧) تفسير ابن عطية ج١٥ ص٥٧١.

(١٩٦٨) تفسير القرطبي ج٢٠ ص٢٠٠.

من أراد تخريبه[١٩٦٩].

ثالثاً- وجاء في تفسير ابن كثير في هلاك أبرهة وجيشه «هذه من النعم التي امتن الله بها على قريش فيما صرف عنهم من أصحاب الفيل، الذين كانوا قد عزموا على هدم الكعبة، ومحو أثرها من الوجود، فأبادهم الله... وكانوا قوماً نصارى وكان دينهم إذ ذاك أقرب حالاً مما كان عليه قريش من عبادة الأوثان، ولكن كان هذا من باب الإرهاص والتوطئة لمبعث رسول الله ﷺ، فإنه في ذلك العام وُلِد على أشهر الأقوال. ولسان حال القدر يقول: لم ننصركم يا معشر قريش على الحبشة لخيرتكم عليه ولكن صيانة للبيت العتيق الذي سنشرفه ونعظمه ونوقره ببعثة النبي الأمي محمد صلوات الله وسلامه عليه خاتم النبيين[١٩٧٠].

(١٩٦٩) تفسير القاسمي ج١٧ ص٢٦٣.

(١٩٧٠) تفسير ابن كثير ج٤ ص٥٤٨-٥٤٩.

المبحث الثاني
ما يستفاد من القصة للدعوة والدعاة

٩٢٤- أولاً- قد يدفَعُ العذاب عن قوم من أجل غيرهم:

دفع الله تعالى العذاب عن قريش بإهلاك أبرهة صيانة لبيته (الكعبة المشرفة)، لا لخيرتهم على جيش أبرهة كما أشار ابن كثير. وهذا يعلمنا أن من سنة الله تعالى دفع العذاب الدنيوي عن قوم لأجل غيرهم، وقد يكون هذا الغير حرمة الكعبة وصيانتها من التخريب، وقد يكون الغير الضعفاء في الأمة كالأطفال والشيوخ، كما جاء في الأثر «إنما تُنصَرون بضعفائكم» أي يُردُّ عنكم الأذى، ويُردُّ عنكم اعتداء العدو لا بقوتكم، ولكن رحمة بالضعفاء منكم، بأن لا يمسهم أذى من العدو إذا استولى على البلاد فيردهم عنكم لهذا السبب. وهذا تنبيه للناس بالعناية بالضعفاء وعدم إهمالهم. فعلى الدعاة أن يفقهوا ذلك ويجعلوه من ضمن ما يعلّمونه للناس. ويؤيد ما قلناه من أن من سنة الله دفع الأذى والعذاب عن قوم من أجل غيرهم قوله تعالى بصدد صلح الحديبية، وعدم دخول النبي ﷺ مكة بالقوة، فقال تعالى مبيناً العلة في عدم الدخول إلى مكة بالقوة: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[١٩٧١] أي: لولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات موجودون بمكة مع الكفار، لم تعلموهم بصفة الإيمان وهم بمكة، حبسهم المشركون بها عنكم فلا يستطعيون من أجل ذلك الخروج إليكم. ﴿أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾ أي: تقتلوهم مع الكفار لو أذن لكم في الفتح، فتح مكة بالقوة، بدل الصلح معهم، ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ﴾ أي: إثم وغرامة. فجواب ﴿وَلَوْلَا﴾ محذوف لدلالة الكلام عليه. والمعنى لولا كراهة أن تهلكوا أناساً مؤمنين موجودين مع المشركين لا تعلمونهم فيصيبكم بإهلاكهم مكروه ومشقة لما كفّ أيديكم عنهم، ولأذن لكم في دخول مكة فاتحين

(١٩٧١) سورة الفتح الآية ٢٥.

بالقوة[١٩٧٢]. هذا ويجب أن يعرف أن سنة الله التي ذكرناها، وهي دفع العذاب عن قوم لأجل غيرهم، هذه السنة تتحقق إما بإهلاك المعتدين الذين يريدون الاعتداء على ما يستحق الصيانة والحرمة، كما في إهلاك جيش أبرهة الذي جاء ليعتدي على حرمة البيت بتخريبه، حيث نتج عن هذا الإهلاك نجاة قريش من جيش أبرهة وبغيه واعتدائه على قريش. وأما أن تتحقق هذه السنة الإلهية بدفع العذاب الذي يستحقونه، لئلا يصيب الأبرياء، كما في عدم الإذن للنبي ﷺ بفتح مكة بالقوة وبقتال المشركين؛ لئلا يصيب المؤمنين الذين لا يعرفهم المسلمون القتلُ والأذى الذي يصيب المشركين. إن معرفة الدعاة هذه السنة الإلهية تفيدهم في معرفة بعض وجوه حكمة الله فيما يقع من أحداث، حتى لا يخطئوا في تأويلها فيسلم لهم إيمانهم وعقيدتهم الإسلامية. وعليهم أن يوضحوا هذه السنة الإلهية في دروسهم للناس أو في خطبهم فيهم.

٩٢٥- ثانياً - عقاب المعتدين عند عجز المؤمنين:

الأصل في ردّ المعتدين ودفع اعتدائهم، الذين يقصدون الاعتداء ويصرون عليه، أقول: الأصل في ردهم في هذه الحالة هو دفعهم بالقوة اللازمة لدفعهم ولو بقتلهم وقتالهم، قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۝ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ...﴾[١٩٧٣] فعذاب الله يصيب مستحقيه على أيدي المؤمنين ما داموا قادرين على ذلك، وهذا هو الأصل في عقاب المعتدين والمتجبرين والطغاة والظالمين، إذ يجب على المسلمين قمع هؤلاء وتأديبهم ورد اعتدائهم، ما داموا قادرين على ذلك، وهذا هو المعنى الظاهر من الآية، وهو المعنى المستفاد من قواعد الشريعة بخصوص الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والزام والتزام المسلمين بمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فإذا عجز المسلمون عن رد اعتداء المعتدين وقتالهم، وكان عجزهم حقيقياً لم يكن نتيجة تقصيرهم، فإنَّ من سنة الله تعالى دفع الاعتداء عنهم، وإذا كان من سنة الله قمع المعتدين الذين يريدون هتك حرمة الكعبة، مع ما يترتب على قمعهم من نجاة

(١٩٧٢) تفسير الزمخشري ج٤ ص٣٤٣، تفسير القاسمي ج٤ ص٩٠-٩١.

(١٩٧٣) سورة التوبة، الآيتان ١٤، ١٥.

قريش وهم قوم مشركون، فمن باب أولى أن يكون من مقتضيات هذه السنة الإلهية التي نتكلم عنها، أن يقمع الله تعالى المعتدين وشرهم، دفعاً لأضرارهم واعتدائهم على المسلمين الذين يعجزون عن ردهم وقتالهم -وعجزهم ليس بتقصير منهم. وهذا ما تدل عليه آيات القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾[1974]. قال الزمخشري في تفسيرها: إن الله تعالى يغلّبهم في الدارين جميعاً بالحجة والظفر على مخالفيهم وإن غلبوا في الدنيا في بعض الأحايين امتحاناً من الله تعالى فالعاقبة لهم[1975]. وقال الآلوسي في تفسيرها: إننا ننصر رسلنا وأتباعهم في الحياة الدنيا بالحجة والظفر والانتقام لهم من الكفرة، ولا يقدح في ذلك ما قد يتفق للكفرة من صورة الغلبة امتحاناً لهم، إذ العبرة إنما هي بالعواقب وغالب الأمور[1976]. وقال ابن كثير في تفسير هذه الآية: وهذه سنة الله تعالى في خلقه في قديم الدهر وحديثه، إنه ينصر عباده المؤمنين في الدنيا ويقرّ أعينهم ممن آذاهم. وقال السدّي: لم يبعث الله عز وجل رسولاً قط إلى قوم فيقتلونه، أو قوماً من المؤمنين يدعون إلى الحق فيقتلونهم، فيذهب ذلك القرن حتى يبعث الله تبارك وتعالى لهم من ينصرهم، فيطلب بدمائهم ممن فعل ذلك بهم في الدنيا، قال السدّي: فكانت الأنبياء والمؤمنون يُقتلَون في الدنيا، وهم منصورون فيها[1977]. وقال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1978]. وجاء في تفسيرها: فيها مزيد تشريف وتكرمة للمؤمنين حيث جعلوا مستحقين على الله تعالى أن ينصرهم وإشعار بأن الانتقام لأجلهم. وظاهر الآية أن هذا النصر في الدنيا وأنه عام لجميع المؤمنين، فيشمل المؤمنين من بعد الرسل من الأمة[1979]. والمؤمنون العاجزون عن رد اعتداء الكفرة وعن قتالهم، وعجزهم ليس بتقصير منهم كأن يكونوا قلة والكفرة كثرة، فإنهم يبقون مؤمنين، وتشملهم هذه الآية الكريمة

(١٩٧٤) سورة غافر الآية ٥١.

(١٩٧٥) تفسيرالزمخشري ج٤ ص١٧٢.

(١٩٧٦) تفسير الألوسي ج٢٤ ص٧٦.

(١٩٧٧) تفسير ابن كثير ج٤ ص٨٣-٨٤.

(١٩٧٨) سورة الروم الآية ٤٧.

(١٩٧٩) تفسير الألوسي ج٢١ ص٥٢.

فينصرهم الله على أعدائهم ويدفع شرهم عنهم بما شاء وكيف يشاء، لأنَّ وعد الله لا يتخلف.

٩٢٦- ثالثاً - الأمر كله بيد الله:

ومما يستفيده الدعاة أن يعلموا يقيناً بأن الأمر بيد الله، وأن الفرج بعد الشدة، وأنَّ الغلبة على العدو المعتدي بمشيئة الله، وأن المسلم لا يجوز أن ييأس أبداً، وأن يؤمن بكفاية الله لعباده المؤمنين، وأَنَّ عليهم أن يدعو الله ويستنصروه ويستغيثوا به، فهو القادر على نصرهم ورد كيد أعدائهم، وقد فقه هذا المعنى عبدالمطلب فقد ذهب هو ونفر من قريش، فأخذ عبدالمطلب بحلقة باب الكعبة وأخذ ومن كان معه يدعون الله ويستنصروه على أبرهة وجيشه، ثم صعدوا وأهل مكة إلى رؤوس الجبال. فعلى الدعاة أن يفقّهوا الناس بهذا الجانب الإيماني، وهو ثقتهم بالله وتوكلهم عليه وأملهم التام برعاية الله لهم، مهما كانت قوة أعدائهم، فالله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون. وما على المسلمين إلا أن يحققوا في أنفسهم معاني الإيمان، ويعدّوا من القوة المادية ما يستطيعون كما أمرهم الله، ويدعوا الله أن ينصرهم على أعدائهم.



الفصل السادس والعشرون

قصة المنسلخ من آيات الله

المبحث الأول

خلاصة القصة وتفسير آياتها

٩٢٧- ما نزل من القرآن بشأن هذه القصة:

قال تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[١٩٨٠].

٩٢٨- من هو صاحب هذه القصة:

لم يذكر لنا القرآن من هو صاحب هذه القصة الذي انسلخ من آيات الله، فلم يذكر لنا اسمه ولا جنسه ولا وطنه، وكذلك لم يرد في تعريفه بذكر اسمه ومكانه حديث صحيح مرفوع إلى النبي ﷺ. ومع هذا ذكر المفسرون روايات عن بعض الصحابة بشأن اسمه وجنسه، فمن ذلك ما جاء في تفسير القرطبي عن ابن مسعود وابن عباس: أنه رجل من بني إسرائيل اسمه بلعام بن باعوراه، عاش في زمن موسى عليه السلام[١٩٨١]. وأنه كان من خبره أنَّ موسى عليه السلام بعثه إلى ملك مدين داعياً إياه إلى الله تعالى، فلما وصل إليه رشاه الملك وأعطاه على أن يترك دين موسى عليه السلام، ويتابع الملك على دينه، ففعل وفتَنَ الملِكُ به الناسَ وأضلَّهم[١٩٨٢].

(١٩٨٠) سورة الأعراف الآيتان ١٧٥، ١٧٦.

(١٩٨١) تفسير القرطبي ج٧ ص٣١٩.

(١٩٨٢) تفسير ابن عطية ج٦ ص١٤١، تفسير ابن كثير ج٢ ص٢٦٤.

٩٢٩- تفسير الآيات:

ذكرنا ما أنزله الله تعالى بشأن قصة المنسلخ من آيات الله، ونذكر فيما يلي أقوال المفسرين في هذا النازل بشأنه:

قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: قصّ واسرد عليهم، أي: على الناس المخاطبين بالدعوة الحاضرين في زمن النبي ﷺ وقت نزول هذه الآية، وأولهم كفار مكة وغيرهم[١٩٨٣]. ﴿نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ النبأ هو الخبر الذي له شأن، نبأ الذي أوتي علم بعض كتب الله ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ والانسلاخ: الخروج، يقال: انسلخت الحية من جلدها أي: خرجت منه، فانسلاخه تجرده وانسلاله منها، وتركه إياها بحيث لا يلتفت إليها لإهتداءٍ ولا اعتبارٍ ولا عملٍ، فكان ذلك منه كفراً بآيات الله التي أوتيها وعلمها، ونبذاً منه لها. ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: لحق به وصار قريناً له، واستحوذ عليه وعلى أمره، فمهما أمره امتثل له وأطاعه، لأنه لم يبق لديه من نور العلم والبصيرة بعد أن نزع منه، ما يحول دون استحواذ الشيطان عليه، ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ أي: صار من الغاوين أي: الفاسدين المفسدين[١٩٨٤].
وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾ أي: ولو شئنا لأمتناهُ قبل أن يكفر، فرفعناه إلى الجنة بها أي بالعمل بالآيات التي أوتيها[١٩٨٥]. ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ وهذا هو السبب الذي من أجله لم يرفعه الله بما أوتيه من آيات وعلم، ﴿أَخْلَدَ﴾ أي: ركن إلى الأرض أي: سكن إليها أي: سكن إلى لذاتها، وأصل الإخلاد اللزوم فكان المعنى: لزم لذات الأرض، فعبّر عنها بالأرض، لأن متاع الدنيا على وجه الأرض، فهو قد مال إلى الدنيا ورغب فيها، وآثرها على الآخرة وعلى مرضاة الله، ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ أي: اتبع ما زين له الشيطان من قبيح الأعمال التي تهواه نفسه[١٩٨٦]. ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ أي: فصفته التي هي مثل في

(١٩٨٣) تفسير ابن عطية ج٦ ص١٤١.

(١٩٨٤) تفسير المنار ج٩ ص٣٧٥-٣٧٦، تفسير القرطبي ج٧ ص٣٢١، تفسير ابن كثير ج٢ ص٢٦٥، تفسير الزمخشري ج٢ ص١٧٨.

(١٩٨٥) تفسير القرطبي ج٧ ص٣٢١.

(١٩٨٦) تفسير القرطبي ج٧ ص٣٢٢.

الخسة والضعة، كصفة الكلب في أخس أحواله وأذلها، وهي حال داوم اللهث به واتصاله، سواء حمل عليه - أي شُدّ عليه وهيج فطرد - أو ترك بدون تعرض له بالحمل عليه، وقد يقال كان حق الكلام أن يقال: ولو شئنا لرفعناه بها، ولكنه أخلد إلى الأرض فحططناه ووضعنا منزلته. والجواب وُضِع قوله ﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾ موضع حططناه أبلغ حط. وقيل إن قوله: ﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾. معناه: إن وعظته فهو ضال وإن لم تعظه فهو ضال، كالكلب إن طردته فسعى لهث، وإن تركته على حاله لهث(١٩٨٧). ولهث الكلب إذا أخرج لسانه من العطش أو التعب(١٩٨٨). قوله تعالى: ﴿ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ﴾ أي: هذا هو مثل جميع الكفار(١٩٨٩). ﴿ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: لعل بني إسرائيل العالمين بصاحب هذه القصة، وما جرى له في إضلال الله له، وإبعاده من رحمته بسبب أنه استعمل نعمة الله عليه في تعليمه وإيتائه آيات الله في غير طاعة الله، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: فيحذروا أن يكونوا مثله، فإن الله قد أعطاهم علماً وجعل بين أيديهم صفة محمد ﷺ يعرفونها كما يعرفون أبناءهم، فهم أحق الناس وأولاهم باتباعه ومناصرته ومؤازرته، كما أخبرتهم أنبياؤهم بذلك وأمرتهم به(١٩٩٠).

(١٩٨٧) تفسير الزمخشري ج٢ ص١٧٨.

(١٩٨٨) تفسير القرطبي ج٧ ص٣٢٢.

(١٩٨٩) تفسير القرطبي ج٧ ص٣٢٤.

(١٩٩٠) تفسير ابن كثير ج٢ ص٢٦٦.

المبحث الثاني
المستفاد من القصة للدعوة والدعاة

٩٣٠- أولاً- تحذير العالم من ترك العمل بما علم:

المثل الذي ضربه الله جلّ جلاله للمنسلخ من آيات الله التي أوتيها، في قوله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ هذا المثل يشمل كل من أُوتي علماً فلم يعمل به، وغرّته الدنيا فأخلد إلى الأرض، قال الإمام القرطبي في المثل المضروب لذلك الذي آتاه الله من آياته فانسلخ منها، قال رحمه الله: «وهذا المثل في قول كثير من أهل العلم بالتأويل عامٌّ في كل من أُوتي القرآن فلم يعمل به أو من يقرأ الكتاب ولا يعمل به»[١٩٩١]. وعلى هذا فليحذر الدعاة من عدم عملهم بما علموه من دين الله وشرعه، وأن يحذّروا المسلمين من ذلك، وأن يكونوا على حذر من الانزلاق إلى الإخلاد إلى الأرض أي: إلى الميل إلى زينة الحياة الدنيا وزهرتها، والإقبال على لذاتها إيثاراً لها على متطلبات الآخرة، ومستلزمات الظفر برضوان الله، وبالنعيم الذي أعدّه الله للمتقين والدعاة المخلصين.

٩٣١- ثانياً - عدم الغرور بعلم أو بعمل:

قال الإمام القرطبي في تفسيره آيات قصة المنسلخ من آيات الله: «دلت الآية لمن تدبرها على أن لا يغتر أحد بعمله ولا بعلمه، إذ لا يدري بم يُختَم له»[١٩٩٢]. الدعاة من أكثر الناس عرضة للاغترار بعملهم، لأنهم يمارسونه علانية، ويظهرون بمظهر المرشدين والقادة للناس، وقد يحملهم هذا على العُجْبِ بالنفس، وعلى اغترارهم بعملهم، والمنّ به على الناس ثم على الله. فليحذر الدعاة من هذا، وليخاطبوا الناس مستشعرين فضل الله عليهم، لا فضل أنفسهم على الناس. كما أن عليهم أن يكونوا على وجل من سوء الخاتمة، فإن الأعمال بخواتيمها، ولا يدري المسلم بم

(١٩٩١) تفسير القرطبي ج٧ ص٣٢٣.

(١٩٩٢) تفسير القرطبي ج٧ ص٣٢٣.

يختم له ولا على ماذا يموت. فإذا استشعر الدعاة ذلك واستحضروه في أذهانهم لم يمنّوا بعملهم على أحد، ولم يتسلل إلى نفوسهم الإعجاب بالنفس والاغترار بالعمل ولا استعظام ما يقدمونه للدعوة. وإذا لاحظ الدعاة ما ذكرته بارك الله في أعمالهم وجعل أفئدة الناس تهوي إليهم إن شاء الله تعالى.

٩٣٢- ثالثاً - الخوف على العالم من فتنة الدنيا:

تحذيرات الشرع من الدنيا الواردة في القرآن الكريم خوطب بها الصحابة قبل غيرهم، والصحابة هم أفضل المسلمين وأعمق إيماناً وأغزر علماً، وأكثر معرفة بمقاصد الدين ممن جاء بعدهم. فعلى الدعاة أن يفقهوا ذلك وأن لا يستشعروا الأمن والأمان والاطمئنان من فتنة الدنيا: فتنة المال والجاه والمنزلة عند السلطان. وليعلموا أنَّ الشيطان يحوم حولهم ويحرص ويسعى إلى جرهم إلى المعصية، وانسلاخهم من مقتضيات علمهم ودعوتهم، وله أساليب شتى منها تزييف حقائق الدين، وممالأة السلطان الظالم والركون إليه على حساب الدعوة، متحججين بمصلحة الدعوة... وقد قصَّ الله علينا قصة المنسلخ من آياته لنعتبر بها، لأن الإنسان تبقى فيه قابلية قبول إغواء الشيطان مهما أوتي من العلم...

٩٣٣- رابعاً - الانسلاخ الكلي أو الجزئي من آيات الله:

قال الإمام ابن عطية في تفسير قوله تعالى: ﴿فَٱنسَلَخَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ انسلخ منها: عبارة عن البراءة منها، والإنفصال والبعد، كالسلخ من الثياب والجلد[١٩٩٣]. ومعنى ذلك أن الانسلاخ من آيات الله، ومما يعلمه الشخص من دين الله، قد يكون انسلاخاً كلياً كانسلاخ الحية من كل جلدها أو ثوبها، فيقع هذا المنسلخ في البراءة الكاملة من الدين، وهذا هو الكفر. وقد يكون الانسلاخ جزئياً من بعض آيات الله، أو من بعض ما يعلمه الشخص من معاني الدين، بأن يخالف هذا القدر من معانيه فيقع في المعاصي، التي لا تخرجه من الدين بالكلية، ولكن تبعده عن بعض مقتضيات الإيمان، فيكون له نصيب من المثل المضروب للمنسلخ من آيات الله انسلاخاً كلياً، كما يكون له نصيب من الوقوع في

(١٩٩٣) تفسير ابن عطية ج٦ ص١٤٤.

إغواء الشيطان. فعلى الدعاة أن يلحظوا ذلك، ويحرصوا على أن يكون ما أُوتوه من العلم بالدين - وهو محض فضل الله عليهم - كالصبغة الثابتة لهم، وليس كالثياب التي يمكن أن تُنزَع عنهم، أو يمكن أن ينزعوها بأنفسهم... إنهم بحاجة إلى تعميق معاني الدين في نفوسهم، حتى تستعصي على الانسلاخ الكلي، ويصعب على الشيطان إيقاعها في الانسلاخ الجزئي. إن الدعاة بحاجة إلى ما أقوله لهم وأحذرهم منه، لأن الشيطان أكثر ما يغيظه عمل الدعاة إلى الله، لأنهم يناقضونه ويعارضونه في سعيه الخبيث وهو الصدّ عن سبيل الله، ولهذا فهو لا يكف عن ملاحقتهم لإبعادهم عن دعوتهم بالترغيب والترهيب والتزيين. والله المستعان.